الإحاطة في أخبار غرناطة

تأليف

أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلماني
الشهير بلسان الدين ابن الخطيب
المتوفى سنة ٧٧٦هـ

شرحه وضبطه وقدم له

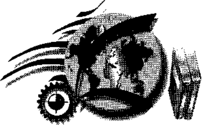
الأستاذ الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي والدراسات العليا
بالجامعة اللبنانية

تنبيه:
وضعنا الفهارس العامة للكتاب في آخر الجزء الرابع

الجزء الثاني

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ

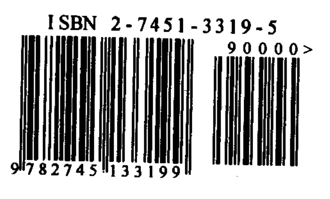
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg.·1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3319-5



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج ابن يوسف بن نصر الخزرجي[(١)]

أميرُ المسلمين لهذا العهد بالأندلس، صدرُ الصدور، وعلمُ الأعلام، وخليفةُ الله، وعمادُ الإسلام، وقدوةُ هذا البيت الأصيل، ونيرُ هذا البيت الكريم، ولُبابُ هذا المجدِ العظيم، ومعنى الكمال، وصورة الفضل، وعنوانُ السّعْدِ، وطائر اليُمن، ومحوَلُ الصُّنْع، الذي لا تبلغ الأوصاف مداه، ولا تُوفي العبارة حقّه، ولا يَجْرِي النظم والنثر في ميدان ثنائه، ولا تنتهي المدائحُ إلى عَليائِه.

أوّليَّته: أشهرُ من إمتاع الضُّحى، مستوليةٌ على المدى، بالغةٌ بالسَّعَةِ بالانتساب إلى سَعْد بن عُبادة عَنان السماء، مُبْتَجِحةٌ في جِهاد العِدا، بحالة من مَلَك جزيرة الأندلس، وحَسْبُك بها، وهي بها في أسْنَى المَزاين والحَلْي، وقُدُمًا فيه بحسَب لمن سَمع ورَأى.

حاله: هذا السلطان أيمنُ أهلِ بيته نقيبةً، وأسعدُهم ميلادًا وولايةً، قد جمع الله له بين حُسْن الصورة، واستقامة البِنْية، واعتدالِ الخُلُق، وصحّة الفكر، وثُقُوب الذِّهن، ونُفوذِ الإدراك، ولطافَةِ المسائل، وحُسْن التأنّي؛ وجُمع له من الظَّرْف ما لم يُجمع لغيره، إلى الحِلْم والأناة اللذين يُحبُّهما الله، وسَلامةِ الصدر، التي هي من علامة الإيمان، ورقَّة الحاشية، وسُرْعة العَبْرة، والتبريز في ميدان الطهارة والعفَّة، إلى ضخامة التَّنجُّد، واستجادةِ الآلات، والكَلَف بالجهاد، وثَباتِ القَدَم، وقوةِ الجَأْش، ومشهور البَسالة، وإيثار الرِّفق، وتَوخِّي السَّداد، ونُجْح المحاولة. زادَهُ الله من فضله،

---

(١) ترجمة الغني بالله محمد بن يوسف بن نصر في اللمحة البدرية (ص ١١٣، ١٢٩) وأزهار الرياض (ج ٤ ص ٣٤).

وأبقى أمرَه في ولَدِه، وأمْتَعَ المُسْلمين بعمْره. ساق الله إليه المُلْك طواعيةً واختيارًا، إثْر صلاة عيد الفِطْر على بَغْتَةٍ وفاة المُقدَّس أبيه، من عام خمسة وخمسين وسبعمائة، لمخايِل الخير، ومزية السِّن، ومَظَنَّة[1] البَرَكة، وهو يافعٌ، قريبُ العهد[2] بالمُراهقة، فأنْبَتَهُ الله النَّباتَ الحسَنَ، وسَدَل به السِّترَ، وسَوَّغ العافية، وهنَّأ العَيْش؛ فلم تشُحَّ في مدته السماء، ولا كَلِب الأعداء، ولا تبدَّلت الألقاب، ولا عُونيت الشدائد، ولا عُرف الخوف، ولا فُورق الخِصْب، إلى أن كانت عليه الحادثةُ، ونابَهُ التَّمحيص الذي أكسبه الحُنْكة، وأفاده العِبْرة، فشهد بعناية الله في كَفِّ الأيْدي العادية، وأخطأ أَلَم السِّهام الرَّاشقة، وتَخْييب الآمال المكايدة، وانسِدَال أرْوِقة السِّتر والعِصْمة، ثم العودة، الذي عَرَف الإسلامُ بدار الإسلام قَدْرَها، وتملأ عِزّها ورَجَح وزنُها، كما اختبر ضِدَّها فرصةَ المُلْك، وشاع العدلُ، وبَعُدَ الصيتُ، وانتشر الذِّكرُ، وفاض الخير؛ وغَزُرَ القَطر، فظهرت البركات، وتوالت الفتوح، وتَخلّدت الآثار. وسيرد من بيان هذه الجمل، ما يسعه الترتيب بحول الله.

ترتيب دولته الأولى: إذ هو ذُو دَوْلتين، ومُسوِّغ ولايتين، عزَّزهما الله، بمُلْك الآخرة، بعد العُمْر الذي يملأ صحايف البِرّ، ويخلِّد حُسْن الذِّكر، ويُعرف إلى الوسيلة، ويَرفع في الرفيق الأعلى الدَّرجة، عند الله خيرٌ وأبقى للذين آمنوا، وعلى ربّهم يتوكلون.

وزراؤه وحجّابه: انتدب إلى النِّيابة عنه، والتَّشمير إلى الحجابة ببابه، الشيخَ القائدَ المعتمدَ بالتَّجلّة، المُتَحول من الخُدَّام النُّبهاء، المتسود الأبوة؛ المخصوصَ بالقِدْح المُعَلّى من المزية، المُسَلَّم في خُصُوصيّة الملك والتربية، ظهيرَ العلم والأدب، وأمينَ الجِدّ، ومولى السَّلَف، ومُفْرِغَ الرأي إلى هذا العهد، وعِقْدَ سُفْرةِ[3] السلطان، وبقيةَ رجال الكمال من مشيخة[4] المماليك، وخيار الموالي، أبا النعيم رِضوان، رحمه الله، فحَمد الكلّ، وخَلَف السلطان، وأبقى الرُّتَب، وحَفِظ الألقاب، وبذل الإنصاف، وأوسع الكَنَف، واستدعى النَّصيحة، ولم يَأل جَهْدًا في حُسن السِّيرة، وتَظاهُر المَحْض، وأفردني بالمزيّة وعامَلني بما يرتدُّ عنه جسرُ أطرُف الموالاة والصُّحبة، ووفَّى لي الكَيْل الذي لا يقتضيه السِّن، والقُرْبَة من الاشتراك في الرتبة، والتَّزحزُح عن الهَضْبة، والاختصاص باسم الوَزارة على المُشْهَر والغيبة، والمحافظة على التَّشيُّع والقِدمة، بلغ في ذلك أقصى الغايات، مَدارجَ التخلق المأثور عن الجِلّة،

---

(١) في اللمحة البدرية (ص ١١٣): «ومظنة الحصافة».

(٢) في اللمحة: «قريب عهد بحال المراهقة». (٣) في اللمحة البدرية: «وعقدة السلطان...».

(٤) في اللمحة البدرية: «مشيخة ولاء بيتهم أبو النعيم رضوان».

والتودّد إليّ المرّة بعد المرّة، واختصصتُ بفَوْت المدّة بالسلطان، فكنتُ المنفرد بسرّه دونه، ومفضي همّه، وشِفاءُ نفسِه، فيما يُنْكره من فتنةٍ تقع في سيرته، أو تَصَيُّر توجيه السّذاجة في معاملاته، وصلاح ما يتغيّرُ عليه من قلبه، إلى أن لحق بربّه.

شيخ الغزاة ورئيس الجند الغربي لأول أمره:

أقر على الغُزاة شيخَهم على عهد أبيه، أبا زكريا يحيىٰ بن عمر بن رحُو بن عبد الله بن عبد الحق، مَطْمَح الطّوافِ[1]، ومَوْفى الاختيار، ولُباب القوم، وبقيّةَ السلف، جَزْمًا ودهاءً، وتجربةً وحُنْكة وجدًّا وإدراكًا، ناهيك من رجُل فَذِّ المَنازِع، غريبِها، مستحقِّ التقديم، شجاعةً وأصالةً، ورأيًا ومباحثةً، نسّابةِ قبيلِهِ، وأضحَى قسّهم، وكِسْرَى ساستِهم، إلى لُطف السَّجِية، وحُسْن التأنّي، لغرض السلطان، وطرق التّنزل للحاجات، ورقّة غزل الشّفاعات، وإمتاع المجلس، وثُقوبِ الذِّهن والفهم، وحُسن الهيئة. وزادَهُ خصوصيَّة ملازمته[2] مجلسَ الرّقاع[3] المعروضة، والرسُل الواردة. وسيأتي ذكره في موضعه بحول الله تعالى.

كاتب سرّه: قمتُ لأول الأمر بين يديه بالوظيفة التي أسندها إليّ أبوه المولى المقدّس، رحمه الله، من الوقوف على رأسه، والإمساك في التهاني والمبايعة بيده، والكتابةِ والإنشاء والعَرض والجواب، والخِلْعة والمُجالسة، جامعًا بين خدمةِ القَلَم، ولقبِ الوزارة، معزَّزَ الخُطَط برسم القيادة، مخصوصًا بالنيابة عنه في الغَيْبة، على كل ما اشتمل عليه سورُ القلعة والحَضْرَة، مطلقَ أمورِ الإيالة، محكمًا في أشتاته تحكيم الأمانة، مُطلق الراية، ظاهرَ الجاه والنعمة. ثم تضاعف العزُّ، وتأكد الرَّعيُ، وتمحَّض القربُ، فنقلني من جَلْسَة المواجهة، إلى صَفِّ الوزارة؛ وعاملني بما لا مزيد عليه من العناية، وأحلّني المحل الذي لا فوقه في الخُصوصيّة، كافأ الله فضلَه، وشكَرَ رعيه، وأعلى محلَّه عنده.

وأصْدَر لي هذا الظَّهيرَ لثاني يوم ولايته: هذا ظهيرٌ كريمٌ، صفي شِربُه. وسفَّرني في الرسالة عنه، إلى السلطان، الخليفة الإمام، ملك المغرب، وما إليه من البلاد الإفريقية، أبي عِنان، حسبما يأتي ذكره. ثم أعْفاني في هذه المدة الأولى، عن كثير من الخدمة، ونَوّه بي عن مباشرة العَرْض بين يديه بالجُملة، فاخترت للكَلِّ والبِذْلة، وما صان عنه في سبيل التجلّة، وإن كان منتهى أطوار الرِّفعة، الفقيه أبا محمد بن

---

(١) في اللمحة البدرية (ص ١١٦): «الطرف ومرمى الاختيار».
(٢) في اللمحة البدرية (ص ١١٧): «بملازمة».
(٣) في اللمحة البدرية (ص ١١٧): «مجلس العرض وملتقى الرسل الواردة وإجالة قداح المشورة».

عطية[١]، مُسْتَنزلاً عن قضاه وادي آش وخَطابَتها، فكان يتولّى ما يُكتَب بنظري، وراجعًا لحُكمي، ومتردِّدًا لبالي، مُكْفَى المؤنة في سبيل الحمل الكلي، إلى وقوع الحادثة، ونفوذِ المشيئة بتحويل الدولة.

قضاته: جدَّد أحكام القضاء والخَطابة لقاضي أبيه الشيخ الأستاذِ الشريف[٢]، نسيج وحْدِه، وفريدِ دهره، إغرابًا في الوقار، وحُسْنِ السَّمت، وأصالة البَيْت[٣]، وتبحُّرًا في علوم اللّسان، وإجهازًا في فَصْل القضايا، وانفرادًا ببلاغة الخُطْبَة، وسَبْقًا في ميدان الدهاء والرَّجاحة، أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحَسَني، الجانح إلى الإيالة النَّصْرية من مدينة سَبْتَة[٤]. وسيأتي التعريف به في مكانه، إن شاء الله. وتوفي، رحمه الله، بين يَدَي حدوثِ الحادثة، فأُرْجِىء الأمر بمكانه، إلى قُدوم مُتَلَقِّف الكُرَة، ومُتَعاور تلك الخُطَّة، الشيخ الفقيه القاضي، أبي البركات قاضي أبيه، ووليها الأحقُّ بها بعده، إذ كان غايبًا في السِّفارة عنه، فوقع التَّمحيصُ قبل إبرام الأمر على حال الاسْتنابة.

الملوك على عهده: وأوّلُهم بالمغرب، السلطان، الإمام[٥]، أميرُ المسلمين، أبو عِنان[٦] ابن أمير المسلمين أبي الحسن[٧] ابن أمير المسلمين أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحقّ، البعيدُ الشأو[٨] في ميدان السَّعادة، والمُضمي أغراضَ السَّداد، ومُعظّمُ[٩] الظَّفَر، ومُخَوّلُ المَوْهبة، المستولي على آماد الكمال[١٠]، عقلًا وفضلًا وأبَّهةً ورُواءًا، وخَطًّا وبلاغةً، وحفظًا وذكاءً[١١] وفهمًا وإقدامًا[١٢]، تغمَّده الله برحمته، بَعَثني إلى بَابه رسولًا على إثْر بَيْعته، وتَمامِ أمره،

---

(١) في اللمحة البدرية (ص ١١٦): «الفقيه الكاتب أبا محمد عبد الحق بن أبي القاسم بن عطية...».

(٢) كلمة «الشريف» ساقطة في اللمحة البدرية (ص ١١٦).

(٣) قوله: «وأصالة البيت» ساقط في اللمحة البدرية (ص ١١٦).

(٤) في اللمحة البدرية (ص ١١٦): «سبتة إلى أخريات شعبان من عام ستين وسبعمائة، وتوفي رحمه الله».

(٥) في اللمحة البدرية (ص ١١٧): «الشهير».

(٦) في اللمحة البدرية: «المسلمين فارس ابن...».

(٧) في اللمحة البدرية: «أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب...».

(٨) في اللمحة البدرية: «شأو السعادة، المعمى...».

(٩) في اللمحة البدرية: «مُطْعَم».

(١٠) في اللمحة البدرية: «الآماد البعيدة الكمالية أبهة...».

(١١) في اللمحة البدرية (ص ١١٧): «وإدراكًا».

(١٢) في اللمحة البدرية: «وإقدامًا وشجاعة».

وخاطبًا إثره ووُدَّه، مُستَرفِدًا من مِنحة قبولِه، فألفيتُ بشرًا مَبذولًا، ورِفدًا ممنوحًا، وعزًّا باذخًا، يضيق الزمان عن جلالته، وتقصُر الألسنة عن كُنه وصْفِه، فكان دخولي عليه في الثامن والعشرين من شهر ذي قعدة عام خمسة وخمسين المذكور، وأنشدتُه بين يدي المُخاطبة، ومُضمن الرسالة: [المنسرح]

خـلـيـفــةُ الله ســاعَــدَ الـقَـدَر   عـلاك مـا لاح فـي الـدُّجى قـمـرُ

فأحْسَب وكفى، واحتفل واحتفى، وأفضتُ بين يديه كرْمته، إلى الحضور معه في بعض المواضع المطلة على مورد رحب. هاج به الخُدّام أسَدًا، أزْوَد، شَثْن الكفَّين، مُشْعر اللِّبدة، حتى مَرَق عن تابوت خشبي كان مسجونًا به، من بعد إقلاعه، من بعض كُواه، وأثارته من خَلْفه، واستشاط وتوقّد بأسًا. وجُلب ثورٌ عَبْلُ الشَّوى، منتصبُ المَروْى، يقدمُه صُوارٌ من الجواميس، فقَرُبت الخُطى، وحَمِيت الوغى، وبلغ الزئير والجُوار ما شاء، في موقف من ميلاد الشيم العلى يخشى الجبانُ مقارعة العِدا، ويوطنُ نفسه الشجاعُ على ملاقاة الرّدَى، وخار الأسدُ عن المبارزة، لما بَلَغ منه ثقافًا عن رد المناوشة، ومضطلعًا بأعباءِ المُحامَلة، فتخطاه إلى طائفة من الرُّجالة، أولي عُدَّة، وذوي دُرْبةٍ، حمل نفسه متطارحًا كشهاب الرَّجم، وسَرَك الدُّجى، وأخذتهُ رماحُهم بإبادته، بعد أن أرْدَى بعضَهم، وجُدّل بين يدي السلطان، متخبطًا في دمه. وعرّض بعض الحاضرين، وأغْرَى بالنظم في ذلك، فأنشدته: [الكامل]

أنــعــامُ أرضِــك تَـقْـهَـر الآســادا   طـبـعًـا كَـسـا الأرواح والأجـسـادا
وخـصـائـصٌ لله بـثّ ضـروبـهـا   في الخَلْق ساد لأجلها من سادا
إن الفضائل في حماك بضائعٌ   لـم تـخْش من بعد النِّفاق كسادا
كـان الـهِـزَبْـرُ مـحـاربًا فـجـزيْـتـه   بجزاء مَن في الأرض رام فسادا
فـابـغ الـمـزيـدَ من آلائـه بـشـكـره   وارغـم بـمـا خُـوِّلْـتَـه الـحُـسّـادا

فاستحسن تأتّي القريحة، وإمكان البديهة، مع قَيْد الصِّفة، وهيبةِ المجلس. وكان الانصراف بأفضل ما عاد به سفيرٌ، من واد أصيل، وإمدادٍ مَوْهوبٍ، ومهاداة أثيرة، وقطار مَجْنوب، وصامت مَحْمول، وطُعْمةٍ مسُوعةٍ. وكان الوصول في وسط محرم من عام ستة وخمسين وسبع مائة، وقد نجح السَّعْيُ، وأثمر الجَهد، وصَدَقت المخيلةُ، وقد تضمّن رَحْلي الوُجْهة، والأخرى قبلها جزء. والحمد لله الذي له الحمد في الأولى والآخرة. وتوفي، زعموا، بحيلةٍ، وقيل: حَتْف أنْفه، لمّا نَهكَه المرض، وشاع عنه الإرجاف، وتنازع ببابه الوزراء، وتسابق إلى بابه الأبْناء. وخاف مُدبِّر أمرِه، عايدةَ ملامتِه، على توقع بُرْئه، وكان سيفُه يسبق على سوطه، والقبر أقربُ إلى مَن

تعرض لعَتْبه من سِجْنه، فقضى موضعَ هذا السبيل خاتمةُ الملوك الجلّة، من أهل بيته. جدّد الملك، وحَفِظ الرسوم، وأجْرَى الألقاب، وأغلظ العقاب، وصيّر إيالته أضيق من الخَدِّ. وأمدّ الأندلس، وهزم الأضداد، وخلّد الآثار، وبنى المدارس والزوايا، واستجلب الأعلام. وتحرّك إلى تِلِمْسان فاستضافها إلى إيالته، ثم ألحق بها قُسَنْطينة وبجاية، وجهز أسطوله إلى تونس، فدخلها وتملكها ثِقاتُه في رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة، واستمرّت بها دعوته إلى ذي قعدة من العام، رحمة الله عليه. وكانت وفاتُه في الرابع عشر[1] لذي حجة من عام تسعة[2] وخمسين وسبعمائة. وصار الأمر إلى ولده المسمى بالسَّعيد، المكنى بأبي بكر، مختار وزيره ابن عمر الفُدُودي. ورام ضَبْط الإيالة المشرقِيةَ فأعياه ذلك، وبايع الجيشُ الموجّهُ إليها منصورَ بن سليمان[3]، ولجأ الوزير وسلطانُه إلى البلد الجديد، مثوى الخلافة المرينيّة، فكان أملك بها. ونازله منصور بن سليمان، ثم استَفْضى إليه أمرُ البلد لحزم الوزير وقوّةِ شكيمته. وغادر السلطان أبو سالم إبراهيم بن السلطان أبي الحسن[4]، أخو الهالك السلطان أبي عنان، الأندلس، وقد كان استقرّ بها بإزعاج أخيه إيّاه عن المغرب، كما تقدم في اسمه، فطلَعَ على الوطن الغربيّ بإعانةٍ من ملك النصارى، عانى فيها هَوْلًا كثيرًا، واستقرّ بآخرة بعد إخفاق شيعته المرّاكُشية، بساحل طَنْجة، مستدعىً ممن بجبال غُمارة، ودخلتْ سَبْتة وَطنْجة في طاعته. وفرّ الناس عن منصور بن سليمان، ضربة لازبٍ، وتُقُبِّض عليه وعلى ابنه، فقتلا صبرًا، نفعهما الله. وتملك السلطان أبو سالم المدينة البيضاء يوم الخميس عشر لشعبان عام ستين وسبعمائة، بنزول الوزير وسلطانه عنها إليه. ثم دالَتْ الدولة. وكان من لحاق السلطان برُنْدة، واستعانتِه على ردّ ملكه ما يأتي في محلّه، والبقاء لله سبحانه.

وبتِلمسان السلطان أبو حمُّو موسى بن يوسف بن يحيىٰ بن عبد الرحمٰن بن يَغمُرَس[5] بن زيان، قريب العهد باسترجاعها، لأول أيام السعيد.

وبتونس[6] الأمير إبراهيم ابن الأمير أبي بكر ابن الأمير أبي حفص ابن الأمير أبي بكر بن أبي حفص بن إبراهيم بن أبي زكريا يحيىٰ بن عبد الواحد، لنظر الشيخ

(١) في اللمحة البدرية (ص ١١٧): «الرابع والعشرين من ذي حجة عام تسعة...».
(٢) في الأصل: «تسع» وهو خطأ نحوي.
(٣) في اللمحة البدرية: «منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق».
(٤) في اللمحة البدرية: «أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب».
(٥) في الأصل: «يغمراس» والتصويب من اللمحة البدرية (ص ١١٩).
(٦) في اللمحة البدرية: «وبإفريقية إبراهيم ابن الأمير أبي يحيىٰ أبي بكر بن أبي حفص...».

رأس الدولة، وبقية الفضلاء، الشهير الذكر، الشائع الفضل، المعروف السياسة، أبي محمد عبد الله بن أحمد بن تافراقين، تحت مضايقة من عرب الوطن.

ومن ملوك النصارى بقَشْتالة[١]، بِطْرُه بن ألهنشه بن هِراندة بن شانجه بن ألفنش[٢] بن هرانده، إلى الأربعين[٣]، وهو كما اجتمع وجهه، تولى[٤] الملك على أخريات أيام أبيه في محرم عام أحد وخمسين وسبعمائة. وعُقد معه سلم[٥] على بلاد المسلمين. ثم استمرّ ذلك بعد وفاته في دولة ولده المترجم به، وغمُرت الرُّومَ فتنةٌ[٦] وألقت العصا، وأغضت القضاء، وأجالت على الكثير من الكبار الرّدى، بما كان من إخافته سائر إخوانه لأبيه، من خاصّته، العجلة الغالبة على هواه، فنبذوه على سوء بعد قتلهم أمّهم، وانتزوا عليه بأقطار غَرَسهم فيها أبوهم قبل موته بمرعيّة أمِّهم. وسلك لأول أمره سيرة أبيه في عدوله عن عهوده بمكابيه لمنصبه، إلى اختصاص عجلةٍ، أنف بحرَاه كبارُ قومه، من أجل ضياع بذره وانقراض عَقِبه، فمال الخوارج عليه، ودبّروا القبض عليه، وتحصّل في أنشوطة، يقضي أمْرَه بها إلى مطاولة عقله أو عاجل خلعٍ، لولا أنه أفْلَت وتخلّص من شرارها. فاضطره ذلك إلى صِلة السِّلم، وهو الآن بالحالة الموصوفة.

الأحداث في أيامه:

لم يحدث في أيامه حَدَث إلّا العافية المُسِحّة والهُدْنة المتَّصلة، والأفراح المتجدّدة، والأمنة المُستَحكمة، والسِّلم المُنعقدة. وفي آخر جمادى عام ستة[٧] وخمسين وسبعمائة لحق بجبل الفتح[٨]، فشمّم شعبته، وأبرّ مَبْتوته[٩]، كان على ثغره العزيز على المسلمين، من لدُن افتتاحه، الموْسُوم الخِطة، المخصوص بمزية تشييده، عيسى بن الحسن بن أبي مَنديل[١٠]، بقيّةِ الشيوخ أولي الأصالة والدّهاء، والتَّزّيي بزي الخير، والمثل السائر في الانسلاخ من آية السعادة، والإغراقِ في سوء العقبى، والله غالبٌ على أمره، فكان أملك بمصامّه، وقرّ عينه بلقاء ولده، والتمتع منه بجوادٍ عتيق. مُلّي من خلال السياسة، أزْداه سوء الحظ، وشؤمُ النَّصْبة، واظلمَّ ما بينه وبين

(١) في اللمحة البدرية: «وبقشتالة».
(٢) في اللمحة البدرية: «ألهونش».
(٣) في اللمحة البدرية: «أربعين».
(٤) في اللمحة البدرية: «ولي».
(٥) في اللمحة البدرية: «السلم».
(٦) كلمة «فتنة» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من اللمحة.
(٧) في الأصل: «ست» وهو خطأ نحوي.
(٨) هو جبل طارق.
(٩) أي قام بتعلية أسواره وإصلاح أجزائه الخربة الهالكة. الإحاطة (ج ٢ ص ٢٣) حاشية رقم ٣.
(١٠) في اللمحة البدرية (ص ١٢٠): «منديل العسكري».

سلطانه، مسوغه برداء العافية على تَفِه صِغر، وملبسه رداءُ العفّة على قِدْح الأمور، أبدى منها الخوف على ولده، وعَرَض دَيْسَم عزمه، على ذوبان الجَبَل، فانحطُّوا في هواه، وغرُّوه بكاذب عُصْبةٍ، فأظهر الامتناع سادس ذي قعدة من العام المذكور، واتصلت الأخبار، وساءت الظنون، وضاقت الصدور، ونُكست الرؤوس لتوقُّع الفاقرة، بانسداد باب الصَّريخ، وانبتات سبب[1] النُّصرة، وانبعاث طمع العدوّ، وانحطّت الأطماع في استرجاعه واستقالته، لمكان حصانته، وسموّ الذِّروة، ووفور العُدّة، ووجود الطُّعمة، وأخذه بتلاشي الفرصة. ثم رَدِفت الأخبار بخروج جيشه صُحبة ولده إلى مُنازلة أُشْتبونة[2]، وإخفاق أمله فيها، وامتِساك أهلها بالدعوة، وانتصافهم من الطائفة العادية؛ فبُودِر إليها من مالَقة بالعُدد. وخُوطِب السلطان من ملك المغرب، أيّده الله، بالجليّة، فتحققت المُنابذة؛ واستقرّت الظنون. وفي الخامس والعشرين من شهر ذي قعدة، ثار به أهلُ الجبل، وتبرّأ منه أشياعه، وخذلوه بالفرار، فأخذت شِعابُه ونِقابه، فكرّ راجعًا أدراجه إلى القاعدة الكبيرة، وقد أعجله الأمر، وحملته الطمأنينة على إغفال الاستعداد بها، وكوثر[3] فألقي به، وقد لحق به بعضُ الأساطيل بسَبْتة، لداعي تسوُّر تُوطّى على إمارته، فقيّد هو وابنه، وخيض بهما البحرُ للحين، ولم ينتطح فيها عَنْزان، رحمه الله؛ سَنام فِئة ألقت بَرْكها، وأناخت بكَلْكلها، وقد قَدّر أنها واقعةٌ، ليس لها من دون الله كاشفة، فقد كان مَن بالجبل برموا على إيالة ذينك المرتسمين، وألقوا أجوارها، وأعطوهما الصفقة، بما أطمعهما في الثورة، ولكل أجل كتاب. واحتمل إلى الباب السلطاني بمدينة فاس، وبرَز الناس إلى مباشرة إيصالهما مجلوبين في منَصّة الشهرة، مرفوعين في هضْبة المُثْلة. ثم أمضى السلطان فيهما حُكْمَ الفساد، بعد أيام الحرابة، فقُتل الشيخ بخارج باب السمّارين من البلد الجديد، بأيدي قرابته، فكان كما قال الأول: [الكامل]

أضحت رماح بني أبيه تنوشه ... لله أرحامٌ هناك تُشَقّقُ

وقُطعت رِجْل الولد ويدُه، بعد طول عمل وسوء تناولٍ، ولم ينشب أن استنقذه حِمامُه فأضحى عِبرة في سُرعة انقلاب حالهما من الأمور الحميدة، حسن طلعةٍ، وذياع حَمْد، وفَضل شهرة، واستفاضة خَيْريّة، ونباهة بيت، وأصالة عِزّ، إلى ضدّ هذه الخلال، وقانا الله مصارع السوء، ولا سلب عنا جِلباب السِّتر والعافية.

---

(١) كلمة «سبب» ساقطة في اللمحة البدرية.

(٢) أشتبونة بالإسبانية Estepona: وهي بلدة تقع على البحر المتوسط، وشمال جبل طارق. الإحاطة (ج ٢ ص ٢٤) حاشية رقم ٣.

(٣) أي كَثُر خصومُه.

وسدّ السلطان ثَغر الجبل بآخر من ولده اسمه السعيد، وكنيته أبو بكر، فلحق به في العشر الأول من المحرم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة، ورتّب له بطانته، وقدّر له أمره، وسوّغه رزقًا رغدًا، وعيشًا خَفْضًا. وبادر السلطان المترجم له، إلى توجيه رسوله؛ قاضيًا حقّه، مقرّر السّرور بجواره، وأتبع ذلك ما يليق من الحال من برٍّ ومهاداة ونزل، وتعقبت بعد أيام المكافآت، فاستحكم الوُدُّ، وتحسنت الأُلْفة إلى هذا العهد، والله وليُّ توفيقهم ومُسني الخير والخيرة على أيديهم.

الحادثة التي جرت عليه:

واستمرت أيامه كأحسن أيام الدول، خفضُ عيش، وتوالي خِصب، وشياعُ أمْن، إلّا أنّ شيخ الدولة القائد أبا النعيم، رحمه الله، أضاع الحَزْم. وإذا أراد الله إنفاذ قضائه وقَدَره، سلب ذوي العقول عقولهم، بما كان من أمنه جانب القصر الملزم دار سكناه، من عِلْية فيها أخو السلطان، بتهاونه، يحيل أمّه المداخلة في تحويل الأمر إليه، جُملة من الأشرار، دار أمرهم على زوج ابنتها الرئيس محمد بن إسماعيل بن فرج من القرابة الأخلاف، وإبراهيم بن أبي الفتح، والدليل الموروري، وأمدّته بالمال، فداخل القومُ جملةً من فرسان القيود، وعَمَرة السُّجون، وقلاميد الأسوار. وكانت تتردّد إليه في سبيل زيارة بنتها الساكنة في عِصمة هذا الخبيث، المنزوع العصمة، خارج القلعة حتى تمّ يوم الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من العام، اجتمعوا وقد خَفِي أمرهم، وقد تألّفوا عددًا يناهز المائة بالقوس الداخل من وادي هَدَارُه إلى البلد، لصق الجناح الصاعد منه إلى الحمراء، وكان بسورها ثَلم، لم يتمّ ما شرعوا فيه من إصلاحه؛ فنصبوا سُلما أُعِدَّ لذلك، وصعدوا منه. ولمّا استوفوا، قصدوا الباب المُضاع المَسْلحة، للثقة بما قبله؛ فلمّا تجاوزوه أعلنوا بالصياح، واستغلظوا بالتهويل، وراعوا الناس بالاستكثار من مشاعل الخلفاء، فقصدت طائفة منهم دار الشيخ القائد أبي النَّعيم؛ فاقتحمته غلابًا وكسرت أبوابه؛ وقتلته في مضجعه؛ وبين أهله وولده، وانتهبت ما وجدت به. وقصدت الأخرى دار الأمير، الذي قامت بدعوته، فاستَنْجزته واستولت على الأمر. وكان السلطان متحوّلًا بأهله إلى سكنى «جَنّة العريف» خارج القلعة، فلمّا طرقه النبأ؛ وقرعت سمعَه الطبول سَدَّده الله؛ وساند أمره في حال الحيرة، إلى امتطاء جواد كان مُرْتَبطًا عنده في ثياب تَبَذُّله ومصاحبًا لأفراد من ناسه؛ وطار على وجهه، فلحق بوادي آش قبل سُبوق نكبته، وطُرق مكانُه بأثر ذلك، فلم يُلْف فيه، واتُّبع فأعْيا المُتبع. ومن الغد، استقام الأمرُ لأولي الثورة، واستكملوا لصاحبهم أمر البَيْعة، وخاطبوا البلاد فألْقَت إلى صاحبهم بالأزمّة، وأرسلوا إلى ملك النصارى في عقد الصلح. وشرعوا في منازلة وادي آش، بعد أن ثبت أهلُها مع

المُعتصم بها، فلازمته المحلات وولي عليه التضييق، وخيف فوات البدر ونفاد القوة، فشرع السلطان في النظر لنفسه، وخاطب السلطان أبا سالم ملك المغرب في شأن القدوم عليه، فتلقاه بالقبول وبعث مَن يمهد الحديث في شأنه، فتمّ ذلك ثاني يوم عيد النّحر من العام. وكنت عند الحادثة على السلطان، ساكنًا بجنتي المنسوبة إليّ من الحَضْرة، منتقلًا إليها بجملتي، عادةُ المُترَفين، إذ ذاك من مثلي، فتخطاني الحَتْف، ونالتني النكبةُ، فاستُأصلت النعمةُ العريضةُ، والجِدة الشهيرة، فما ابتَقَتْ طارفًا ولا تليدًا، ولا ذَرَتْ قديمًا ولا حديثًا، والحمد لله مُخَفِّف الحساب، وموقظ أولي الألباب، ولَطَف الله بأن تَعَطَّف السلطان بالمغرب إلى شفاعةٍ بي بخطِّه، وجعل أمري من فصول قَصْده. ففُكّت عني أصابعُ الأعداء، واستُخْلصت من أنيابهم، ولحِقْتُ بالسلطان بوادي آش، فذهب البأس، واجتمع الشَّمل. وكان رحيلُ الجميع ثاني عيد النحر المذكور، فكان النزول بفحص ألفَنْت، ثم الانتقال إلى لَوْشة، ثم إلى أنتقيره، ثم إلى ذَكْوان، ثم إلى مَرْبلّة، يضم أهلُ كلِّ محل من هذه مأتمًا للحسرة، ومناحةً للفُرْقة. وكان ركوب البحر صَحْوة الرابع والعشرين من الشهر، والاستقرار بمدينة سَبتة، وكفى بالسلامة غُنما، والأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

وكان الرحيل إلى باب السلطان، تحت برٍّ لا تسعه العبارة، ولقاؤنا إياه بظاهر البلد الجديد لإلمام ألَمّ عاقَهُ عن الإصحار والتغنّي على البعد، يوم الخميس السادس لمحرم من عام أحد وستين بعده، في مَركب هائل، واحتفال رائع رائق، فعُورض فيه النزول عن الصَّهوات، والبرُّ اللائق بمناصب الملوك، والوصولُ إلى الدار السلطانية، والطعامُ الجامع للطبقات وشيوخ القبيل. وقمتُ يومئذ فوق رأس السلطان وبين يدي مؤمّله، فأنشدْتُه مُغريًا بنَصره، كالوسيلة بقولي(١): [الطويل]

سَلا هَلْ لديها مِن مُخَبِّرَةٍ ذِكْرُ؟ وهل أَعْشَبَ الوادي ونَمَّ به الزَّهْرُ؟

فهاج الامتعاض، وسالت العَبَرَات، وكان يومًا مشهودًا، وموقفًا مشهورًا، طال به الحديث، وعَمَرت به النوادي، وتوزّعَتنا النزائل على الأمل، شكَرَ الله ذلك وكَتَبَه لأهله، يوم الافتقار إلى رَحْمته. واستمرّت الأيام، ودالت الدولة للرئيس بالأندلس، والسلطان تغلبُه المواعيد، وتونسُه الآمال، والأسبابُ تَتَوفّر، والبواعث تَتَأكّد. وإذا أراد الله أمرًا هيّأَ أسبابه، واستقرّت بي الدارُ بمدينة سَلا، مرابطًا، مُسْتمتعًا بالغَيْبة، تحت نِعمةٍ كبيرة، وإعفاء من التكليف.

---

(١) البيت مطلع قصيدة من ٧٥ بيتًا وردت في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٢ ـ ١٢٥) وكتاب العبر (م ٧ ص ٦٣٨ ـ ٦٤٢) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٨٠ ـ ٨٤) وأزهار الرياض (ج ١ ص ١٩٦ ـ ٢٠٠).

وفي اليوم السابع لشوال من عام التاريخ، قَعَدَ السلطان بقبّة العرْض بظاهر جنّة المُصارة لتشييعه[١]، بعد اتخاذ ما يصلح لذلك؛ من آلةٍ وحِلْية، وقد برز الخلق، لمشاهدة ذلك الموقف المُسِيل للدموع، الباعث للرِّقّة، المُتْبَع بالدَّعوات، لما قَذَف الله في القلوب من الرحمة، وصَحِبه به في التغرُّب من العناية، فلم تَنْبُ عنه عين، ولا خَمَل له مَوْكِب، ولا تقلّصت عنه هيبةٌ، ولا فارقته حشمةٌ، كان اللهُ له في الدنيا والآخرة. وأجاز، واضطربت الأحوال، بما كان من هلاك مُعِينه السلطان أبي سالم، وغَدْر الخبيث المُؤتَمن على قَلْعته به، عمر بن عبد الله بن علي، صَغَّر الله حِزْبَه، وخَلّد خِزْيَه، وسُقِط في يده، إلّا أنه ثَبّتَت في رُنْدة من إيالة الأندلس، الراجعةِ إلى إيالة المغرب، قدمُه، فتعلّل بها، وارتاشَ بسببها، إلى أن فتح اللهُ عليه، وسدّد عَزْمه، وأراه لمّا ضَعُفَت الحيل صُنْعَه، فتحرّك إلى برّ مالَقة، وقد فَغَر عليها العدوّ فمَه، ثم أقبل على مالقة، مستميتًا دونها، فسهّل الله الصَّعب، وأنجح القصد، واستولى عليها، وانثَالت عليه لحينها البلادُ، وبَدا الريّس المُتَوثِّب على الحضْرة، بعد أن استَوْعَب الذّخيرة والعُدّة، في جُملةٍ ضخمةٍ ممن خاف على نفسه، لو وفَّى بذمَّة الغادر وعهده، واستقرّ بنادي صاحب قَشْتالة، فأَخَذَه بجريرته[٢]، وحَكَّم الحيلة في جنايته وغَدْره، وألْحَق به من شاركه في التَّسوُّر من شيعته، ووجَّه إلى السلطان برؤوسهم تَبَع رأسه. وحَثَّ السلطان أسعده الله خُطاه إلى الحَضْرة، يتلقّاه الناسُ، مُسْتبشرين، وتتزاحمُ عليه أفواجُهم مُستقبلين مُستغفرين، وأحقَّ الله الحقّ بكلماته، وقَطَع دابر الكافرين.

وكان دخولُ السلطان دار مُلْكه، وعَوْدُه إلى أريكة سلطانه، وحلولُه بمجلس أبيه وجَدِّه، زوال يوم السبت المُوفي عشرين لجمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة، جعلنا الله من همِّ الدنيا على حَذَر، وألْهَمنا لِما يَخْلُص عنده من قول وعمل. وتخلّف الأميرُ وولدُه بكرهُ، أسعدهُ الله، بمدينة فاس فيمن معه من جملة، وخلّفه من حاشية ولد المُسْتَولي على مُلْك المغرب في إمساكه إلى أن يسترجعَ رُندة في مُعارضة هدفه. ثم إن الله جمع لأبيه بجمع شَمْله، وتمّم المقاصد بما عَمّه من سعده. وكان وصُولي إليه معه، في مَحْمل اليُمن والعافية، وعلى كِسْر التّيْسير من الله والعناية يوم السبت المُوفي عشرين شعبان عام ثلاثة وستين وسبعمائة.

---

(١) أي لتشييع سلطان غرناطة المخلوع.

(٢) الجريرة: الذنب والجناية. لسان العرب (جرر).

ترتيب الدولة الثانية السعيدة الدور إلى بيعة الكور:

هَنّأ المسلمين ببرَكتها الوافرة، ومزاياها المُتَكاثرة، السلطان، أيّده الله، قد مرّ ذِكرُه، ويسّر الله من ذلك ما تيسّر.

وزراؤه: اقتضى حَزمُه إغفالَ هذا الرَّسم جُملة، مع ضرورته في السياسة، وعظم الدخول، حذَرًا من انبعاث المكروه له من قِبَله، وإن كان قدّم بهذا اللقب في طريق مُنصَرفه إلى الأندلس، وأيّامًا من مُقامه برُندة، فنَحَله عن كُرْه، علي بن يوسف بن كُماشة، من عِتاق خدّامه وخدّام أبيه، مُستصحبًا إيّاه، مَسدول التَّجمُّل على باطنِ نُفرة، مختومُ الجُرْم، على شوكه، في حَطْبه في حَبْل المتغلب، وإقراضِه السيئةَ من الحسنة، والمنزل الخَشِن، إلى الإنفاق منه على الخِلال الذّميمة، ترأسها خاصّة الشّوم، علاوة على حَمْل الشيخ الغريب الأخبار، والطّمع في أرزاق الدور، والاسترابة بمودّة الأب، وضيق العَطَن، وقِصَر الباب، وعَيّ اللّسان، ومشهور الجُبْن. ولمّا وقع القَبْضُ، وساء الظنّ، بعثه من رُندة إلى الباب المَريني ليخلي منه جُندَه، ويجسّ مرض الأيام، بعد أن نقل من الخُطة كعْبَه، فتيسّر بعدَ مُنصرفه الأمر، وتسَنّى الفتح. وحمله الجَشعُ الفاضح، والهوى المتّبع، على التشطُّط لنفسه، والكَذح لخُوَيْصَته بما أقطعه الجَفْوة، وعَسُر عليه العودة على السلطان بولده، إلى أن بلغ الخبرُ برجوع أمره، ودخول البلاد في طاعته، فألقى ما تَعيّن إليه، وأهوى به الطمعُ البالغ في عَرْش الدولة، ويَرْتاشُ في ريق انتقامها. وتحرّك رايةُ الإخفاق خافقةً على رأسه، قُطْبَ مَخْلَصه، وجُؤجوةَ عَوْده، من شيخ تدور بين فَتْكه رَحَى جَعْجَعة، وتثور بين أضْلاعه حَيّة مكيدةٍ، وينْعَق فوق مساعيه غرابُ شومٍ وطيرة. وحدّث حرفاؤه صَرْفًا من مداخلة سلطان قشتالة، أيام هذه المجاورة، فبلغ أُمنيته من ضربِ وعدٍ؛ واقتناء عهدٍ، واتخاذ مددٍ، وتَرْصيد دار قرارٍ، موهمًا نفسه البقاءَ والتعميرَ والتملّي، وانفساح المدةِ والأمرِ، وقيادةِ الدَّجَن[1] عند تَحوُّل الموطِن لمِلّة الكُفرِ، يسْمح لذلك، لنقصان عقله، وقِلّة حَيائه وضعف غَيْرته. وطَوَى المراحل، وقيّض حُمّى تزَلزَل لها فكّاهُ، أضلّها الحسرةُ، وانتزاءُ الخبائث. وتَلقّاه بمالقة، إيعازُ السلطان بالإقامة بها، لما يتّصل به من سوء تصريفه، ثم أطْلَع شافع الحيَاء في استقامة وطنه طَوْق عَتْبه، وصَرَفه إلى مَنْزله، ناظرًا في علاج مَرَضه. ثم لمّا أفاق وَقّفه دون حدّه، ولم يَسْند إليه شيئًا من أموره، فشرع في دَيْدَنه من الفساد عليه، وتَمرّس سلطان قشتالة، شاكيًا إليه بَثّه، وأضْجَر لسُكنى باديته بالثّغر، فراب السلطانُ أمرَه، وأهمّه شأنه، فتَقَبّض عليه وعلى ولده، وصُرِفا في

(١) يقصد بهم المدجنين وهم المسلمون الأندلسيون الذين بقوا في أرضهم التي افتتحها النصارى.

جُملةٍ من دائرة السُّوء ممن ثَقُلت وَطْأتُه، فغُرِّبوا إلى تونس، أوائل شهر رمضان من عام ثلاثة وستين. ثم لما قَفَل من الحجّ، واستقرّ بِبِجاية يُريد المغرب، حَنّ إلى جوار النّصْرانية، التي رِيمَ سلفُه العبوديّة إليها، فعبر البحر إلى بَرْجِلونة[١]، ينفُض عناء طريق الحجّ على الصُّلبان، ويقفُو على آثار تَقْبيل الحجر الأسْوَد، تقبيلَ أيدي الكُفّار. ثم قصد باب المَغْرِب رسولاً عن طاغية بَرْجلونه في سبيل فسادٍ على المسلمين، فلم ينجح فيه قصدُه، فتقاعد لمّا خَسر فيه ضمانه، وصَرَف وكْرَه إلى الاتصال بصاحب قَشْتالة، وعَنَّ على كَتْبِ إليه بخِطِّه، يتنفَّقُ عنده ويُغريه بالمسلمين، فتُقُبِّض عليه، وسُجن بفاس مع أرباب الجرائم. وعلى ذلك استقرّ حالُه إلى اليوم، وأبرأ إلى الله من التَّجاوز في أمره. ومن يُضْلِلِ الله فما له من هاد.

ولمّا وفَدْتُ على السلطان بولَدِه، وقَرّت عيني بلقائه، تحت سَدَادِه وعِزّه، وفوق أريكةِ مُلكه، وأدّيتُ ما يجب من حقّه؛ عرضتُ عليه غَرَضي، ونَفَضْتُ له خِزانة سِرِّي، وكاشفتُه ضميري بما عقدْتُ مع الله عهدي، وصرفْتُ إلى التَّشْريق[٢] وَجْهي، فعلِقت بي لركُومه علوقُ الكرامة، ولاطَفني بما عاملت البرَّ بين الدَّعر والضَّنانة، ويضربُ الآماد، وخرج لي عن الضرورة، وأراني أن مُؤازرته أبَرُّ القُرْب، وراكنني إلى عَهْدٍ بخطّه، فَسَح فيه لعامين أمدَ الثواء، واقتدى بشُعيْب، صلوات الله عليه، في طلب الزِّيادة على تلك النِّسْبة، وأشهَد من حضر من العِلْية، ثم رمى إلي بعد ذلك بمقاليد رأيه، وحكّم عقلي في اختيار عَقْلِه، وغَطّى من جَفائي بحلْمِه، وحَثَا في وجوه شهواته ترابَ زَجْري، ووَقَف القبولَ على وَعْظي، وصَرَف هواه في التحول ثانيًا وقصدي، واعترف بقبول نصحي، فاستعنْتُ بالله، وعاملْتُ وجهه فيه. وصادقني مُقارَضَة الحقّ بالجهاد، ورمى إليّ بدُنْياه، وحكّمني فيما مَلَكَته يداه، وغَلَّبني على أمْره لهذا العهد، والله غالبٌ على أمره. فأكمل المقامُ ببابه إلى هذا التاريخ مُدَّةً أجْرى الله فيها، من يُمْن النَّقِيبة، واطّراد السَّداد، وطَرْد الهوى، ورَفْض الزُّور، واستِشْعار الجَدِّ، ونُصْح الدِّين، وسَدِّ الثغور، وصَون الجِباية، وإنْصاف المُرْتَزقة، ومُحاولة العدُوّ، وقَرْع الأسماع بلسان الصِّدق، وإيقاظ العُيون من نوم الغَفْلة، وقَدْح زِناد الرُّجولة، ما هو معلوم، يُعضِّد دعواه، ولله المنّة، سجيةُ السَّذاجة، ورفعُ التَّسَمُّت، وتكوُّر المِنْسَأة، وتَفْويت العَقار في سبيل القُربة، والزُّهد في الزِّبْرِج[٣]، وبثّ حِبال الآمال، والتَّعزيز بالله عن الغَنيمة، وجعل الثوب غطاء الليل، ومقعد المطالعة فراش

(١) هي برشلونة.

(٢) يريد أنه قصد مكة لقضاء فريضة الحجّ.

(٣) الزِّبْرج: الزينة من وَشْي أو جوهر ونحو ذلك، والذهب. محيط المحيط (زبرج).

النَّوم، والشغل لمصلحة الإسلام، لرَيْم الأنفاس، فأثمر هذا الكرخ، وأَنْبَجَ هذا المسعى مناقب الدولة، بلغت أعنان السماء[١]، وآثارًا خالدة ما بقيت الخَضْراء على الغَبْراء، وأخبارًا تُنقل وتُروى، إن عانَدها الحاسدُ، فَضَحه الصَّباح المنيرُ، وكاثَرَهُ القَطْر المُثْثال، وأعْياه السَّيل المُتَدافع.

فما يختص من ذلك بالسلطان، فخامةُ الرتبة، ونباهةُ الألقاب، وتجمُّلُ الرياش، وتربع الشريعة، وارتفاعُ التَّشاجُر ببابه، والمنافسةُ والاغتباطُ منه، بمجالس التنبيه والمذاكرة، وبِدارُ الدموع في حال الرِّقة، والإشادةُ باحتقار الدنيا بين الخاصة، وتعيينُ الصدقات في الأوقات العديدة، والقعودُ لمباشرة المظالم ستة عشر يومًا في كل شهر من شهور الأهِلّةِ، يصلُ إليه فيها اليتيمُ والأرْمَلة، فيفرحُ الضعيف، وينتظر حضورَ الزمن، ويتغمّدُ هفوة الجاهل، ويتأثر لشكوى المصاب، ويعاقب الوَزَعة على الأغلاط، إلى إحسان المِلْكة في الأسرى، والإغرابِ في باب الحِلْم، والإعياء في ترك الحظ، والتبرّي من سجِيّة الانتقام، والكَلَف بارتباط الخيل، واقتناء أنواع السلاح، ومباشرةِ الجهاد، والوقار في الهيعات[٢]، وإرسال سجيّة الإيمان، وكسادِ سوقِ المكيدة، والتصامُمِ عن السعاية؛ هذا مع الشباب الغضّ، والفاحم الجَعْد، وتعدّد حبائل الشيطان في مسالك العُمْر، ومطاردة قانِص اللّذات في ظلّ السِّلم، ومغازلةِ عيونِ الشهوات من ثنايا الملوك. وأيْمُ الله الذي به تُستخلص الحقوق، وتُيسّر السُّتور، وتُستوثق العهود، ولا تطمئن القلوب إلّا به؛ ما كاذَبْتُه، ولا راضيتُ في الهوادة طَوْله، ولا سامحتُه في نقيض هذه الخلال. ولقد كنتُ أعجبُ من نفاق أسواق الذِّكرى لديه، وانتظام أقْيسة النصح عنده، وإيقاع نبات الرُّشد فيه نصيحة، وأقول: بارك الله فيها من سجيّة، وهَنّأ المسلمين بها من نَفْس زَكيّة. وسيأتي بيانُ هذه النتائج، وتفسيرُ مُجملِ هذه الفضائل بحول مَن لا حول إلّا به سبحانه. والحال متصلة على عهده الوثير من إعانته بالوسوع والخروج له عن هذه العُهْدة، والتسليم له في البقيّة، إرهافًا لسيف جهاده، وجلاءً لمرآةِ نُصحه، وتسوية لميزان عدله، وإهابة لِمَحْمد رُشْده، شدَّ العُقدة، عقدةً وغيرةً على حُرْمة ماله وعِرْضه، ورعايةً للسان العِلْم المُنْبىء عن شأنه، ونيابةً عنه في مَعْقِل مُلْكه، ومُستودع ماله وذخيرته، ومحافظة على سِرّه وعلانيته لحُرَمه وولده، وعُمرانًا للجوانحِ بتفضيله وحُبِّه، معاملةً أخلص الله قصدها لوجهه، وأمْحَضها من أجله، ترفعه عن جِراية

---

(١) كلمة «السماء» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليكتمل المعنى والسجعة معًا.

(٢) الهيعات: جمع هيعة وهي كل ما أفزعك من صوت أو فاحشة تُشاع. محيط المحيط (هيع).

رحَل هلالُها، وإقطاع تَنْجَع قدرتُه، أو فِصلة تعبثُ البنان بنشيرها، وخُطَّة تشدّ إليه على منشورها. والله يُرْجح ميزاني عنده، ويحظى وسيلتي لديه، ويحرّك مكافأة سعيي في خواطر حَجِّه، ويُنَبِّه لتبليغ أملي من حَجِّ بيت الله، وزيارة رسول الله، بمنّه وكرمه، فما على استِحْثاث الأَجَل من قرار، ولا بَعْد الشَّيب من إعذار، وحسبُنا الله ونِعْمَ الوكيل.

أولاده[١]: كمُل له في هذا الوقت من الوَلَد أربعة؛ ثلاثتهم ذكُورٌ، يوسف بكْرهُ، وأراه يتلوه سعد، ثم نصر، غِلمة رُوقَة، قد أفرغهم الله في قالب الكمال، إذا رأيتَهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا، فَسَحَ الله لهم أمَدَ السعادة، وجعل مساعيهم جانحةً إلى حُسنى العُقْبى، سالكًا بهم سبيل الاهتداءِ بفضل الله ورحمته.

قضاته[٢]: قدّم لأول قدومه، الفقيه القاضي، الحسيب، الخيِّر، أبا جعفر بن أحمد بن جُزَي، شاكرًا بلاءه بمالَقة، إذ كان قد ألقاه قاضيًا بها للمُتَغَلِّب، فلم يألُ جهدًا في الإجْلاب على مَن اعتصم بقَصَبتها، والتحريض على اسْتِنْزَالهم، فاتّخذ زُلْفَةً لديه، فأجرى الأحكام، وتوخّى السَّداد. ثم قدّم[٣] إليها الفقيه القاضي الحسيب، أبا الحسن علي بن عبد الله بن الحسن، عينَ الأعيان ببلده مالقة، والمخصوص برسم التَّجِلّة، والقيام بوظيفة[٤] العَقْد والحلّ بها[٥] في الدولة الأولى، وأصالة البيت، والانقطاع إليه، ومصاحبةِ رِكابه في طلب المُلْك، ومُتسَوِّر المشاق من أجله، وأولى الناس باستِدْرار خلفِ دولته، فسدَّدَ وقارب، وحَمَل الكَلَّ[٦]، وأحسن فصاحة[٧] الخُطبة والخُطّة، وأكرم المَشْيخة وأرضى، واستشعر النَّزاهة، ولم يَقِف في حُسْن التأنّي عند[٨] غاية، واشتمل معها لِفَق الخطابة، فأبرز وأعلم، تسمّيًا وحِفْظًا وَجَهْوريّةً، فاتُّفِق في ذلك على رجاحته، واستصحب نظره على الأحباس، فلم يقف في النصح عند غاية، أعانه الله.

---

(١) في اللمحة البدرية (ص ١١٥): «ولده: وُلد له إلى هذا العهد ولدٌ ذكرٌ اسمه يوسف على اسم أبيه».

(٢) تحت عنوان «قضاته» ذكر ابن الخطيب في اللمحة البدرية (ص ١١٦) قاضيًا واحدًا هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسني، وقال: إن الغني بالله جدّد له أحكام القضاء والخطابة إلى أخريات شعبان من عام ٧٦٠ هـ.

(٣) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ١١٦).

(٤) في النفح: «والقيام بالعقد والحلّ».

(٥) من هنا حتى قوله: «باستدرار خلف دولته» غير وارد في النفح.

(٦) الكَلّ، بفتح الكاف وتشديد اللام: الضعيف. لسان العرب (كلل).

(٧) في النفح: «مصاحبة».

(٨) في النفح: «على».

كُتّابه[١]: أسند الكتابة إلى الفقيه المُدْرك، المبرّز في كثير من الخلال، ملازمُه أيضًا في طلب المُلْك، ومطاردةِ قَنَص الحظّ، أبي عبد الله بن زَمرك، ويأتي التعريف بجميعهم.

شيخ غزاته: مُتولي ذلك في الدولة الأولى، الشيخُ أبو زكريا يحيىٰ بن عمر بن رَحُّو بن عبد الله بن عبد الحق[٢]، قدّمه إليها مُعْتبًا مُعْتبًا إياه، طاويًا بِساط العدوّ بالجملة، قدّموها بابنه عثمان على الخاصَّة يومئذ، لمظاهرته في الوُجهة، وسعيه في عَوْدة الدَّولة، واستمرّت الحال إلى اليوم الثالث عشر لشهر رمضان من عام أربعة وستين وسبعمائة، وكان القبضُ على جُمْلتهم، وأجلى هذا البيت من سُفرة السياسة مدّة، مجتزيًا فيه بنَظَره على رسْمه في الوَزارة من قَبيلهِ. ثم قدّم إليها موعودَه بها القديمَ الخدمة، وسالفَ الأذمَة، لمّا لجأ إلى وادي آش مفلتًا من وَبْقَة الحادثة، الشيخ أبا الحسن علي بن بدر الدين بن موسى بن رَحُّو بن عبد الله بن عبد الحق، حلف السَّداد أيامه، والمقاربة والفضل والدَّماثة، المخصوصَ على اختصار بيُمْن النَّقِيبة، واستمرّت أيامه إلى نُقْبَة القفول عن غزوة جَيّان أُخريات محرم من عام تسعة وستين، وتوفي، رحمه الله، حَتْف أنفه، فاحتُفل لمواراته، وإقرابه من تأبِّيه، واستغفارِه، والاعترافِ بصدق موالاته، وتَفْجيعه لفقدِه، وما أعربَ به من وفاء نَجْده، وَقدّم لها عَهْدًا طُرف اختيارُه، الأمين، الشَّهم، البُهْمَة، خِذْن الشُّهرة، والمشار إليه بالبَسَالة، وفرع المُلْك والأصالة، عبد الرحمٰن ابن الأمير أبي الحسن علي بن السلطان أبي علي عمر ابن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، إذ كان قد لحق به، بعد ظهور أُتيح له بوطنه من المغرب، استقرّ مبايعًا بعمالة سِجلْماسة وما إليها، وطن جَدِّه، ومِيراثِ سلفه، ففَسَح له جانبَ قبوله، وأحَلّه من قُرْبه محلّ مثله، وأنْزله بين ثغر الاغتباط ونَحْره، ثم استظهر به على هذا الأمر، فأحسن الاختيار، وأعزّ الخُطة، وهو القائم عليها لهذا العهد، وإلى الله أسباب توفيقه.

ظَرْفُ السلطان وحُسن توقيعه:

بَذّ في هذا الباب من تقدّمه، وكثرة وقوعه، بحيث لا يُعدّ نادرُه، وقليلُ الشيءِ يدُلّ على كثيره. مَرّ بي يومًا ومعي ولدُه، يروم اتخاذ حذق القرآن، فقلتُ له: أيّدك

---

(١) في عنوان: «كتابه» ذكر ابن الخطيب في اللمحة البدرية (ص ١١٦) أنه هو الذي أجرى للغني بالله رسم العرض والإنشاء، ثم هو نفسه قد استخدم في أخريات أيام الغني بالله كاتب الدولة التونسية الفقيه الكاتب أبا محمد عبد الحق بن أبي القاسم بن عطية.

(٢) كذا ذكره ابن الخطيب في اللمحة البدرية (ص ١١٦) وقال إن الغني بالله أقرّه على الغزاة على عهد أبيه.

الله، الأميرُ يريد كذا، ولا بدّ له من ذلك، وأنا وكيله عليك في هذا، فقال: حسبُنا الله ونِعْم الوكيل. ولا خفاء ببراعة هذا التوقيع، وغرابةِ مقاصده، ومجالسُه على الأيام معمورة بهذا ومثله.

الملوك على عهده: بالمغرب[١] السلطان الجليل إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق. تولّى مُلك المغرب حسبما تقدم في اسمه[٢]، وألقى إليه بالمقاليد، واستوسَقَت له الطاعة، وبحسب ما بثّ الله من إشرباب[٣] الخلق إليه، وتعطُّشهم إلى لقائه، ورغبتهم في إنهاضه إلى ملك أبيه، كان انقلابهم إلى ضد هذه الخلال، شرقًا بأيامه وإحصاءً لسقطاته، وولعًا باغتيابه وتربصًا لمكروه به، إذ أخفقت فيه الآمال، واستولت الأيدي من خُدّامه على مُلكه. وقيّض الله لإبادة أمره، وتغيُّر حاله وهدّ ركنه، الخائن الغادر نسمةُ السوء وقَذار ناقةِ الملك، وصاعقة الوطن وحَرْد السَّيد عمر بن عبد الله بن علي[٤] مؤتمنة على البَلَد الجديد، دارِ ملكه ومستودع ماله وذخيرته، فسدّ الباب دونه، وجهَرَ بخُلْعانه. وفض في اتّباع الناعق المشؤوم سورَ ماله، وأقام الدّعوة باسم أخيه أبي عمر، ذي اللّوثة، الميؤوس من إفاقته، وذلك ضحوة اليوم الثامن عشر لشوال من عام اثنين وستين وسبعمائة. وبادر السلطان أبو سالم البيعة من مُتَحول سكناه بقصر البلد القديم[٥]، وصابر الأمر عامة اليوم. ولمّا جنّ الليل، فرّ لوجهة، وأسلم وزراءه وخاصّته، وقيّدت خطاه الخيريَّة، فأوى إلى بعض البيوت، وبه تلاحق متبوعُه، فَقِيدَ إلى مصرعه السُّوء بظاهر بلده، وحُز رأسه، وأوتي به إلى الغادر. وكان ما بين انفصال السلطان عنه مُودَّعًا إلى الأندلس بإعانته، ومطوّق فضل تلقيه وقفوله وحسن كفالته، ثمانية أشهر ويوم واحد. واستمرّت دعوة أخيه المُمَوَّه به إلى الرابع والعشرين من صفر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة،

---

(١) ضمن العنوان نفسه جاء في اللمحة البدرية (ص ١١٧): أن سلطان المغرب في عهد الغني بالله هو أبو عنان فارس بن أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، وولي بعده ولده السعيد أبو بكر.

(٢) المراد إبراهيم بن أبي الحسن بن أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وقد تقدمت ترجمته في الجزء الأول من الإحاطة.

(٣) الإشرباب: المحبة؛ يقال: أُشربَ فلانٌ حبّ فلانة، أي خالط قَلْبَه. وأُشرب قَلْبُه محبة هذا: أي حلّ محلّ الشراب. لسان العرب (شرب).

(٤) في اللمحة البدرية (ص ١١٨ ـ ١١٩): «عمر ابن الوزير عبد الله بن علي البيّاني».

(٥) البلد القديم هو مدينة فاس القديمة، والبلد الجديد هو ضاحية أنشأها بنو مرين بجوار مدينة فاس.

واستدعي من باب قَشْتالة الأمير محمد أبو زيّان ابن الأمير أبي زيد بن عبد الرحمٰن ابن السلطان المعظّم أبي الحسن. وقد استقرّ نازعًا إليه أيام عمّه السلطان أبي سالم، وقع عليه اختيارُ هذا الوزير الغادر، إذ وافق شنٌّ تغلُّبه طبقَ ضعفه[١]، وأعمل الحيلة في استجلابه، فوصل حسب غرضه، وأجريت الأمور باسمه، وأعيد أخوه المعتوه إلى مكانه، واستمرّت أيام هذا الأمير مغلوبًا عليه، مغرىً بالشراب على فيه وبين الصَّحب إلى أن ساءت حاله، وامتلأت بالموجدة على الوزير نفسه، فعاجله بحتفه، وباشر اغتياله، وأوعز إلى خدامه بخَنْقه، وطَرْحه بحاله في بعض سواقي قصره، مُتْبعًا ببعض أواني خمره، يوهمُ بذلك قاتلهُ، تردّيه سكرًا، وهَويه طفوحًا. ووقف عليه بالعدول عند استخراجه، ونَدَب النّاس إلى مواراته، وبايع يومه ذلك أبا فارس عبد العزيز وارث ملك أبيه السلطان أبي الحسن، المنفرد به، وخاطب الجهات بدعوته، وهو صبيٌّ ظاهرُ النبل والإدراك، مشهورُ الصَّون، وأعمل الحيلة لأول أمره، على هذا الوزير مخيف أريكة مُلْكه، ومظنّة البِدا في أمره، فطوّقه الحمام واستأصل ما زَرَاه من مال وذخيرة، شكرَ اللهُ على الدولة صنيعَه، وفي ذلك يقول: [الطويل]

لقد كان كالحجاج في فتكاته	تحاذره البرّآء دوْمًا وتخشاهُ
تغدّى به عبد العزيزُ مبادرًا	وعاجله من قبل أن يتعشّاهُ

وكان بعده وليُّه الحق ونصيره لا إلٰه إلّا هو. وهو اليوم ملكُ المغرب، مزاحَمًا بابن أخيه، السلطان أبي سالم، المعقود البيعة بمرّاكش وما إليها، جمع الله شتات الإسلام، ورفع عن البلاد والعباد مضرّة الفِتنَة.

وبتلمسان السلطان أبو حمو موسى ابن الأمير أبي يعقوب يوسف[٢] بن عبد الرحمٰن بن يحيىٰ بن يَغْمُراسن بن زيّان. حسبما كان في الدولة الأولى، متفققًا منه على خلال الكرم والحزم، مضطلعًا بأمره والقيام على ما بيده.

وبتونس[٣]، الأمير أبو سالم إبراهيم ابن الأمير أبي يحيىٰ بن أبي حفص، حسبما تقدم ذكره.

---

(١) أخذه من المثل: «وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَة». وشنّ هو رجل من دُهاة العرب، وطبقة بنته، يضرب للمتوافقين. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٣٥٩).

(٢) في اللمحة البدرية (ص ١١٩): «يوسف بن يحيىٰ بن عبد الرحمٰن بن يغمراسن».

(٣) في اللمحة البدرية (ص ١١٩): «وبإفريقية إبراهيم ابن الأمير أبي يحيىٰ أبي بكر بن أبي حفص بن إسحٰق ابن الأمير أبي زكرياء».

ومن ملوك النصارى:

فبقَشْتالة سلطانُها المتقدم الذكر في الدولة الأولى، بِطْرُه ابن السلطان ألَهَنْشة[١] بن هراندة بن شانجُه بن ألهنشة[١] بن هراندة، متأكِّدة بينهما السلم الجمّة، والهُدنة المُبْرمة، بما سَلَف من مظاهرته إيَّاه، والحرص على ما اسْتَحَانه من المغرب في أسطوله، وبعثِه إليه برأسِ عدوِّه المتوثِّب على ملكه، ورؤوس أشياعه، الظالمين الغَدَرة، وأتباعه الفَجَرة، مستمرّةً أيامه إلى وسط شعبان عام سبعة وستين، صارفًا وجْهَه إلى محاربة صاحب برجلونة[٢]، مستوليًا على كثير من قواعده الشهيرة، وقلاعه المنيعة، لما أسْلَفه به من إجازته، أخيه أنْدَريق المدعوّ بالقُنْد، ومظاهرته حتى ساءت أحواله وأحوالُ عدوِّه، وأوْهَنَت الحركات قوى جيشه، وأضْعَف الاحتشادُ عَمْرة أرضه، واشرَأبّت القلوبُ إلى الانحراف عن دعوته، ومالت النفوس إلى أخيه، وقامت البلاد بدعوته، وتلاحقت الوجوه بجهته، ورام التمسُّك بإشبيلية دارِ ملكه، فثار أهلُها به في عام سبعة وستين. فخرج فارًّا عنها...[٣] به والسلاح يهشُّ إليه، وبعد أن استظهر بخويصته، وأحْمَل ما قَدَر عليه من ذخيرة، ورفع من له من ولدٍ وحُرمة، رأى سُخنة العين من انتهاب قصوره، وتَشْعيث منازله، وعياث الأيدي في خزائنه، وأسمعه الناس من مَحْض التأنيب وأعراض الشمّات، ما لا مزيد عليه، ولاذ بصاحب بُرْتغال، فنأى عنه جانبَه لما يجنيه أبواه من مخالفة رأي الأمّة فيه، فقصد بلاد غَلِيسْية، وتلاحق أخوه أنْدَريق بحضرة إشبيلية، فاستوى على المُلْك وطاعَت لأمره البلاد، وعاجله المسلمون لأول أمره، فاستولوا على كثير من الثغور، والحمد لله.

ولمّا توسّد له الأمر تحوّل لاستئصال شأفة المخلوع، فأجلى عن غَلِيسْية في البحر، واستقرّ ببلد بَيُونة، ممّا وراء دُروب قَشْتالة، وانتبذ عن الخِطّة القشتالية وأمر نفسه، ولجأ إلى ابن صاحب الأنْتَكِيرة[٤]، وهو المعروف ببِرَقسين أبي الأمير، وبين أول أرضه وبين قَشْتالة؛ ثمانية أيام، فقَبِله ولدُ السلطان المذكور، الساكن بأول ما تلقّاه من تلك الأرض، وسَفَر بينه وبين أبيه فأنكر الأب استئذانه إياه، والمراجعة في نَصْره، حَمِيّةً له، وامتعاضًا للواقع. وحالُ هذه الأمة غريبة في الحماية الممزوجة بالوفاء والرقّة، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمد، وبين يدي العَشَايق، عادة العرب الأُول. وأخبارهم في القتال غريبةٌ، من الاسترجال والزحف على الأقدام، أميرُهم ومأمورُهم، والجُثُوّ في الأرض، أو دفنٍ ببعض الأرض في التُّراب، والاستظهار في

---

(١) في اللمحة البدرية: «ألهونش».
(٢) هي مدينة برشلونة.
(٣) بياض في الأصل.
(٤) الأنتكيرة: هي إنكلترا.

حال المُحاربة ببعض الألحان المُهَيِّجة، ورماتُهم قِسِيُّهُم غريبة جافيةٌ، وكلُّهم في درُوع، والإحجامُ عندهم، والتقهقُر مقدار الشِّبر ذنْبٌ عظيم، وعارٌ شنيع، ورماتُهم يثبُتُون للخيل في الطِّراد، وحالُهم في باب التَّحليِّ بالجواهر، وكثرة آلات الفضة، غريبٌ. وبعد انقضاء سبعَة عَشَر يومًا كان رجُوعه ورجُوع البرنس المذكور معه مُصاحَبًا بأمراء كثيرين من خُتْرانه[1] وقرابته، وبعد أن أسْلَفوه مالًا كثيرًا، واختصّ منه صاحب الأنتكيرة، بمائتي ألف دينار من الذهب إلى ما اختصّ به غيره، وارتَهَنوا فيه ولَدَه وذخيرتَه. وكان ينفق على نفسه وجيشه بحسَب دينارٍ واحد من الذهب للفارس في ثلاثة أيام. وكان تأليفُ الجيوش في بَنْبِلونَة في أزْيَد من ثلاثين ألفًا، وعَسُرَ عليهم المجازُ على فحص أحدونيه، لبلاد تُمسك لطاعةِ القُنْدِ أخيه؛ فصالح القومُ صاحب نَبارّه[2] على الإفراج لهم، ونَزَلت المحلّاتُ في فَحْص نَبارّة، ما بين حدود أرض نبارّة وقَشْتالة، ونزل المُتَصَيِّر إليه أمرُ قَشْتاله، القُنْد بإزائها في جموعٍ لم تنتظم لمثله، إلّا أنه لشهامته واغْتِراره، أجاز خندقًا كان بين يديه، وعبر جِسرًا نَشِب فيه عند الجَوْلة. وكان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس إبريل العجمي، وبموافقة شعبان من عام ثمانية وستين. وكان هذا الجَمْع الإفرنجي الآتي من الأرض الكبيرة[3] في صفوف ثلاثة، مرتبة بعضها خلف بعض، ليس فيهم فارسٌ واحد، إنما هم رجّالة، سواء أميرُهم ومأمورهم، في أيديهم عِصي جافيةٌ في غِلظ المعاصِم؛ يَشْرَعونها أمامهم، بعد إثبات زِجاجِها[4] فيما خلفهم من الأرض، يستقبلون منها وجوه عدوِّهم، ونحورَ خَيْله، ويجعلونها دعائم وتُكآت لبناء مصافِّهم، فلم تُقْلِقهم المحلات، وبين أيديهم من الرُّماه النّاشبة الدّارعة، ما لا يُحصيهم إلّا الله عزّ وجلّ. وسايرهم السلطانُ، مُسْتدعى نَصْرهم راجلًا أميالًا برأيهم؛ إلى أن أعيا بعد ميلين منها فأرْكبوه بغلة حَمَلوه بينهم عليها، إلى موقف اللقاء والقُنْد، وكان على مقدمة القوم الدك أخو البرنس، والبرنس مع السلطان مُسْتَجيره في القَلْب، والقُنْد المعروف بقُندار مانْيان، وكثيرٌ من الأمراء؛ ردى وسيفُه دونهم، ومن خَلْف الجميع الخيلُ بِجَنْبها ساستهُم وغلمانُهم وخُدّامهم، ووراءها دوابُ الظَّهْر وأبغالُهم، وفي أثناء هذه العَبيّة من البنود وآلات الحرب والطرب والأبواق ما يطول ذكره. وكان في مقدمة القُنْد المُسْتأثر بمُلْك قشْتالة؛ أخوه شانْجه في رَجل قشتالة، قد ملأ السَّهل والجَبَل، ومن خلفهم أولو

(١) الخُتْران: جمع خاتر أو ختّار، وهو المخادع، لسان العرب (ختر).
(٢) نبارّه: بالإسبانية Navarra وهي بلاد البشكنس، وعاصمتها بنبلونة.
(٣) المراد بالأرض الكبيرة فرنسا.
(٤) الزّجاج: جمع زُجّ وهو الحديدة التي في أسفل الرمح. محيط المحيط (زجج).

الخيل الجافية القبِيلية، المُسْبَغة الدُّروع، من رأس إلى حافرٍ، في نحو ألف وخمسمائة، وفي القلب أخوه الآخر دَنْطية في جمهور الزُّعماء والفرسان والدَّرق، وهو الأكثر من رجال الجيش اليوم، ومن ورائهم السلطان أنْدَريق في لفيف من الناس. ولما حمل بعضهم على بعض أقدم رماةُ الفِرَنج، ثقةً بدرُوعهم، فعظُم أثرهم فيمن بإزائهم من رماة عدوهم ورجالهم، لكونهم كشفاء، فكشفوا إياهم. وحملت خيل قشتالة الدّارعة، فزحزحت كرَّ المصَافِّ الإفْرَنجي، واتصل الحربُ بالبرنس ، وهو مطلٌّ عليهم في رَبْوة، فصاح بهم بحيث أسمع، وتناول شيئًا من التراب فاسْتَفه، وكسر ثلاثَ عِصِيي، وفعل مَن معه مِثل فعله، وهي عادتهم عند الغضب، وعلامةُ الإقدام الذي لا نكوصَ بعده. ووجّه إلى أخيه في المقدمة، يقول له: إن وجدت في نفسك ضعفًا، فاذكرْ أنك ولدُ صاحب الأنْتكيرة. وحمل الكلُّ حملةَ رَجُل واحدٍ، فلم تجد الخيلُ الدّارعة سبيلًا، وقامت في نحورها تلك الأسِنّة، فولّوا منهزمين.

ولمّا رأى القُنْد هزيمة أخيه، تَقدَّم بنفسه بمن معه من مَدَد الأمة الرّغُونية[1]، وهو ينادي: يا أهل قَشْتالة، يا مَوالي، إياكم والعار، هاأنذا، فلم يثبُت أمره، وتراجع فُلُّه. فعند ذلك فرّ في أربعة من أولي ثقته، واستولى القَتْلُ والأسْرُ على خاصّته، وتردّى المنهزمون في الوادي خلفهم، فكان ذلك أعْوَن الأسباب على هَلْكهم، فأناف عددُ مَن هلك في هذه الوقيعة، حسبما اشتهر، خمسين ألفًا. وامتلأت أيدي هذه الأمة من الأسلحة والأموال والأمتعة والأسرى الذين يُفادونهم بمال عظيم، واتصل القُنْد المنهزم بأرض رَغُون، ثم نَجَم من البلاد الفرنسية، ودخل أخوه بهذه الأمة أوائل البلاد معترفًا بحميد سَعْيهم، وعزيز نَصْرهم، وقد رابه استيلاؤُهم، وأوجَسَه تغلبُهم، وساءه في الأرض الرَّعّادة عياثهم فاستأذنهم في اللُّحوق بقواعد أرضه، وَقَبْض الأموال التي تجبي منها نفقاتُهم، وقَبَض منها ديونَهم قِبَله. وحثَّ السَّير، فوصل طُلَيْطُلة، لا يُصدِّق بالنجاة، وخاطب السلطان المُتَرجم به، وقدَر ودّه، وحذَّره سَوْرَة هذه الأمة التي فاض بَحْرُها وأعيا أمرُها، وأنهى إليه شرُّها، وشَرِه إلى اسْتِئصال المسلمين، وحدّ له مواعِدَها التي جُعلت لذلك. ووصل إشْبِيليّة؛ وانْثَالت البلاد عليه، وعادت الإيالة إلى حُكْمه، ثم شرع في جعل الضرائب، وفرض الأموال، وأخافَ الناس بالطَّلَب والتَّبعات، فعاد نفورُهم عنه جَزَعًا، وامتنعوا من الغَرْم، وطردوا العُمّال، وأحسّ

(١) نسبة إلى رَغون، وهي مملكة أراجون Aragon في الثغر الأعلى - إلى الجنوب الشرقي من سرقسطة.

بالشَّرّ، فتحصّن بإشبيلية وجهاتها على نفسه، وطال على الأمة الواصلة في سبيل نَصْره الأمرُ. فرجَعت إلى بلادها، ووقِيت نُفْرة الفرسان، وأولي الأتباع، وأظهروا الخلاف، وكَشَفت جيّان وجْهَهَا في خُلعانه، والرُّجوع إلى دعوة أخيه المُتَصَرِّف، فتحرَّك إليها السلطان المترجمُ به، بعد أن احتَشَد المسلمين، فكان من دخولها عَنوةً، واستباحةِ المسلمين إياها وتخريبها، ما هو مذكور في مَوْضعه. ثم ألحقت بها مدينة أُبَّدة، الذاهبة في مخالفة مذاهبها والحمد لله. وخالَفَت عليه قرطبةٌ، واستقرّ بها من الكِبار جُملة، كاتبوا أخاه، واستعجلوا، فتعرّف في هذه الأيام، أنه قد بلغ أرض بُرْغُشْ، ونارُ الفتنة بينهم، ويدُ الإسلام لهذا العهد، والمُنْية لله، وحده غالبة.

وإنما مَدَدنا القول في ذكر هذه الأحوال الرُّومية، لغرابة تاريخها، وليُسْتَشعر الحذرُ، ويُؤخذ من الأمة المذكورة وغيرِها، والله وليّ نصر المؤمنين بفضله.

وبأرض رَغُون سلطانُها الكائن على الدولة الأولى.

بعض مناقب الدولة لهذا العهد:

وأولا ما يَرْجِع إلى مناقب الحِلْم والكَظْم من مآزق الجهاد الأكبر، وهو جهادُ النفس.

فمن ذلك أن السلطان لمّا جَرَت الحادثة، وَعَظه التمحيص، وألجأ إلى وادي آش، لا يملِك إلّا نفسه في خبر طويل، بادر إلى مخاطبةِ ثقته بقصبة ألمريّة، قلعة المُلْك، ومَظنّة الامتناع، ومِهاد السَّلامة، ومَخْزن الجباية والعُدّة، وقد أصبح محلُّ اسْتِقراره، بينها، وبين المُنْتَزى سدًّا، وبيعة أهلها لم ينسخ الشرعُ منها حُكْمًا يناشدُه الله في رَمَقه، ويتملّقه في رَعْي ذِمَّته، والوفاء له، وإبراء غُرْبته، وتمسُّكِه من أمانته، فردّ عليه أسْوأ الردّ، وسجن رسوله في المُطْبق، وخرج منها لعدُوّه، وناصح بعد في البَغْي عليه. فلمّا ردّ الله الأمر، وجَبَرَ الحق، أعْتَب وأجْرى عليه الرِّزق. ولمّا ثار في الدولة الثانية الدليلُ البَرْكي[1]، هاتفًا بالدعوة لبعض القرابة، وأكْذَبه الله، وعقّه الشيطان بعد نَشْر راية الخلاف، وجَعَل للدولة، علوَّ اليد، وحسنَ العاقبة، وتمكّن من المذكور، أبقى عليه، وغلّب حكم المصلحة العامة في استحيائه، وهو من مُغْرِبات الحِلْم المبني على أساس الدين، وابتِغاء وجه الله.

ولمّا أجلى عن الترشيح من القرابة، بعد تَقَرّب التهمة، وغَمْس الأيدي في المعصية، صُرفوا إلى المغرب صَرْف العافية، وأجْرَى على مَن تخلّفوه عوائد

(١) الدليل البركي: هو أحد وزراء سلطان غرناطة الغني بالله.

الأرزاق، ومرافِق المواسم، ووَعَد ضعفاءهم بالإزفاد، وتجوفي عمّا يَرْجع للجميع من عَقَار ورِباع، وأُسْعفت آمالهم في لحاق ذويهم من أهلٍ وولد.

وممّا يرجع إلى عوائد الرِّفق، ومرافق العدل من مأزقٍ في جهاد النفس، وقوفُ وكيلِ الدولة، مع مَن يجاور مُسْتَخلص[١] السلطان من العامرين[٢] ومما ولي الفلاحة، وقد ادّعوا أضرارًا، يجرُّه الحِوار بين يدي القاضي بالحَضْرة، حتى بعد مُنْقَطع الحقّ، على ما يخصّ السلطان من الأصول التي جرَّها الميراث عن كريم السَّلَف. ولا كقضية التاجر المعروف بالحاج اللبّاس، من أهل مدينة وادي آش، وقد تحصّلت في داره، من قِبَل التاجر المذكور جاريةٌ من بنات الروم، في سبيل تفوُّت الذِّمم، ومُسْتَهلك المتَولات، وتَرَقّت إلى تربية وَلَدِه، وأصبحت بعض الأَظْآر[٣] لأمرائه، واتَّصل بها كَلَفه، وزاد هيمانُه، وغَشِي مدافن الصَّالحين من أجلها، وأُنْهَيْتُ إليه خبره وبثَّه، وقرّرتُ عنده شَجْوَه، وألمعتُ بما يُنقل في هذا الباب عن الملوك قبْله، فبادر إلى إخراجها من القصر بنفسه، وانتزاعها من أيدي الغِبْطة، انتزاعَ القَهْر، بحاله في جميل الزِّي، فمُكِّنت منها يدُ عاشقها الذَّاهل، وقد خفَّت نفسُه، وسكن حِسُّه، وكاد لقاؤُه إيّاها أن يَقضي عليه. ونظائر هذا الباب متعددة.

ومن مواقف الصِّدْق والإحسان من خارق جهاد النفس، بناءُ المارستان الأعظم، حسنةُ هذه التخّوم القُصوى، ومزيّةُ المدينة الفُضْلى. لم يهتد إليه غيرُه من الفتح الأول، مع توفّر الضرورة، وظهور الحاجة، فأغرى به همَّةُ الدِّين، ونفسُ التقوى، فأبرزه موقفُ الأخدان[٤]، ورحلةُ الأندلس، وفذْلكة الحسنات، فخامةَ بَيْت، وتعدُّد مساكن، ورحْبَ ساحة، ودرُور مياه، وصحّةَ هواء، وتعدُّد خزائن ومتوضآت، وانطلاقَ جراية، وحسنَ ترتيب، أَبَرَّ على مارستان مصر[٥]، بالسَّاحة العريضة، والأَهْوية الطيّبة، وتَدفُّق المياه من فورات المرمل، وأسُود الصخر، وتموُّج البحر، وانسدال الأشجار، إلى موافقته إياي، وتسويغه ما اخترعْتُه بإذنه، وأجزيْتُه بطيب نَفْسه، من اتخاذ المدرسة والزاوية، وتعيين التُّربة، مُغيرًا في ذلك كله على مقاصد

---

(١) المراد بمستخلص السلطان: الأملاك السلطانية الخاصة.

(٢) العامريون: هم الذين يفلحون الأرض ويعمرونها. لسان العرب (عمر).

(٣) الأظآر: جمع ظِئر، والظِئر: المرضعة غير ولدها، وظِئر الرجل: ابنه من الرضاع. لسان العرب (ظأر).

(٤) الأخدان: جمع خِدْن وهو الصاحب والرفيق والصديق. محيط المحيط (خدن).

(٥) أغلب الظن أنه المارستان المنصوري الكبير الذي أنشأه السلطان المنصور بن قلاوون سنة ٦٨٣ هـ.

الملوك، نقشًا عليه، بطيب اسمه في المزيد، وتخليد في الجُدُرات للذِّكر، وصونًا للمدافن غير المعتادة، في قلب بلده بالمقاصر والأصونة، وترتيل التلاوة، آناء الليل[١]، وأطراف النهار. وكل ذلك إنما يُنسب إلى صَدَقاته، وعلوّ همَّته. ويشهد بما ينبّه الحسَّ إلى المَنْقَبة العظمى، في هذا الباب، من إمداد جبل الفتح، مع كونه في إيالة غيره، وخارجٌ عن مُلْكة حُكْمه، وما كان من إعانته، وسَدِّ ثَغْره، فانهار إليه على خطر السُّرى، والظهر البعيد المسعى، ما ملأ الأهواء، وقطع طمع العُداة، أُنفقت عليه الأموال، ما إن مفاتحه لتنوء بالعُصْبة أولي القوة، بُودِر بذلك، بين يدي التفاؤل، بنزول العدُوّ إياه، فكان الكِرى[٢] على إيصال الطعام إليه، بحساب درهم واحد وربع درهم للرِّطل من الطعام، منفعةً فَذَّة، وحسنة كبرى، وبدعًا من بِدع الفَتْوى.

وفي موقف الاستعداد لعدُوّ الإسلام، من خارق جهاد النفس، إطلاق البُنى[٣]، للمدّة القريبة، والزمان الضيق، باثنين وعشرين ثَغرًا من البلاد المجاورة للعدوّ، والمشتركة الحدود، مع أراضيه، المترامية النيران لقرب جوابه، منها ثغر أرْجِدونة[٤]، المستولي عليه الخراب، أُنفق في تجديد قَصَبته؛ واتخاذ جُبِّه، ما يناهز عشرين ألفًا من الذهب، فهو اليوم شَجَى العدو، ومُعْتَصَم المسلمين، وحصن أَشِر، وما كان من تحصينِ جبله بالأسوار والأبراج، على بعد أقطاره، واتخاذ جباب الماء به، واحتفار السانية[٥] الهايلة برَبَضِه، ترك بها من الآثار ما يشهد بالقوة لله، والعناية بالإسلام. ثم ختم ذلك بنديد حصن الحمراء، رأس الحضرة، ومَعْقِل الإسلام، ومَفْزَع المُلْك، ومَعْقِد الأيدي، وصِوان المال والذَّخيرة، بعد أن صار قاعًا صفصفًا، وخرابًا بَلْقعا، فهو اليوم عروسٌ يُجلي المَهْضَب، ويغازل الشهب، سكن لمكانه الإرْجاف، وذوت نجوم الأطماع، ونَقل إليه مال الجباية، المُتَفَضِّل لهذا العهد، بحسب التدبير، ونفَّد الخراج، وصوَّن الألقاب، وقمع الخِزانة بما لم يتقدّم به عهد، من ثمانين سنة، والحمد لله، وتجديدِ أساطيل الإسلام، وإزاحة علل جيوش المَزْج، وعساكر البحر، فهي لهذا العهد، مَلَس الأديم، شارعة الشَّبا، مُنقضّة جفاتُها إلى مساواة الأعداء، راكبةٌ ظهور المحاسن، قلقة الموافق، قُدُمًا إلى الجهاد، قد تعدّد إغزاؤها، وجاست

---

(١) آناء الليل: ساعاته.

(٢) الكرى: الأجر.

(٣) البُنى: جمع بناء.

(٤) أرجدونة وأرشذونة، بالإسبانية Archidona: قاعدة كورة ريّه، وهي بقبليّ قرطبة، ومن مدنها مالقة، وتبعد عنها ثمانية وعشرين ميلًا. الروض المعطار (ص ٢٥).

(٥) السانية: الساقية.

البحر سوابحُها، وتُعرِّفت بركتها، والحمد لله، وأنصاب جيش الجهاد، استغرق الشهور المستقبلة، لرود الصفراء والبيضاءِ الأهلّة إلى أكفّ أهلها، على الدوام، بعد أن كانت يتحيّفها المَطْل، وينقصها المطال، والحمد لله.

وفي مواقف الجهاد الحسّي، وبيع النُّفوس من الله، وهو ثمرة الجهاد الأول، ما لا يحتاج عليه إلى دليل، من الجوف[1] إلى حصن أشر، قُبُل الثغر، والجارحُ المطلُّ على الإسلام، والعزم على افتتاحه، وقد غاب الناس من مساورته، وأعْيا عليهم فتحه، فلزمه السلطان بنفسه، بياض يوم القَيْظ، مُحرضًا للمقاتلة، مُواسيًا لهم، خالطًا نفسه بالمُسْتَنْفَرة، يصابر لهيب النار، ووقع السلاح، وتعميم الدُّخان، مُفْديًا للكلمات، مُحَرِّضًا لذوي الجراح، مباشرًا الصلاة على الشهداء، إلى أن فتحه الله على يده، بعزمه وصبره، فباشر رَمَّ سوره بيده، وتحصين عَوْرته بنفسه، ينقل إليه الصَّخر، وينال الطِّين، ويخالط الفَعَلة، لقرب محلِّ الطاغية، وتوقع المفاجأة. ثم كان هذا العمل قانونًا مُطَّردًا في غيره، ودَيْدَنًا في سواه، حسبما نذكر في باب الجهاد.

وفي باب النصيحة للمسلمين من مآزق الجهاد الأكبر، ما صدر في هذه الدولة، من مخاطبة الكافة، بلسان الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، صَدَعَتْ بذلك الخطباء من فوق أعواد المنابر، وأسْمَعَتْ آذان المحافل، ما لم يتقدم به عهدٌ في الزمان الغابر.

نص الكتاب: ولمّا صَحَّت الأخبار بخروج الأمة الإفرنسية إلى استئصال هذه البَقِيعة، والله متمٌّ نوره، ولو كره الكافرون، صدر من مخاطبة الجمهور في باب التحريض بما نصُّه:

«من أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد نصر، أيّده الله ونصره، وأوى أمره، وخَلّد مآثره، إلى أوليائنا الذين نُوقظ من الغفلة أحلامهم، وندعُوهم لما يطهِّر من الارتياب إيمانهم، ويُخْلص لله أسرارهم وإعلانهم، يرثي لعدم إحسانهم، وخيبة قياسهم، ويغار من استيلاء الغَفلات على أنواعهم وأجناسهم، ونسأل الله لهم ولنا إقالة العَثَرات، وتخفيض الشدائد المُعْتَورات، وكَفّ أكُفّ العوادي المُبْتَدرات. إلى أهل فلانة، دافع الله عن فِئتهم الغريبة، وعرَّفهم في الذراري والحُرَم عوارف اللطائف القريبة، وتداركَهم بالصنائع العجيبة، سلام عليكم أجمعين، ورحمة الله وبركاته.

---

(١) الجوف في اصطلاح المغاربة الجهة المقابلة للقبلة، أي الشمال. اللمحة البدرية (ص ٢٢، حاشية ٣).

أما بعد حمد الله الذي لا نشرك به أحدًا، ولا نجد من دونه مُلتحدًا، مبتلي قلوب المؤمنين أيها أقوى جلدًا، وأبْعَدُ في الصبر مدى، ليزيد الذين اهتدوا هدى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أنقَذ من الردى، وتكفل الشفاعة لمن غدا، ضاربًا هام العِدا، ومجاهدًا مَن اتخذ مع الله ولدًا، والرضى عن آله الذين كانوا لسماء ملّته عمدا، فلم ترعهم الكتائب الوافرة وكانوا لهم أقل عددًا، ولا هالتهم أُممُ الكفر وإن كانت أظهر جمعًا وأكثر عددًا، صلاة لا تنقطع أبدًا، ورضًى لا يبلغ مدًى. فإنا كتبنا إليكم، كتبكم الله فيمن امتلأ قلبه غضبًا لأعدائه وحَمِيّةً، ورمى بفكره غرض السَّداد، فلم يُخط منه هدفًا ولا رِمية. وقد[١] اتصل بنا الخبر الذي يوجب نصح الإسلام، ورَعْي الجِوار والذِّمام، وما جعل الله تعالى[٢] للمأموم على الإمام، فوجب علينا[٣] إيقاظكم من مَراقدكم المُسْتغرقة، وجَمْع أهوائكم المُفْترَقة[٤]، وتهييئكم إلى مصادمة الشدائد المُرْعدة المُبْرقة، وهو أنّ كبيرَ[٥] النصرانية، الذي إليه يَنْقادون، وفي مَرْضاته يُصادقون ويُعادون، وعند رؤية صَليبه يبكون[٦] ويَسْجدون، لما رأى الفِتن قد أكلتهم خَضْمًا وقَضْمًا[٧]، وأوسعتهم هَضْمًا فلم تُبْقِ لهم[٨] عصبًا ولا عظمًا، ونَثَرت ما كان نَظْمًا، أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق، ويرفع ما طَرَق، ويرفو[٩] ما مزَّق الشَّتات وخَرَق، فرمى الإسلام بأمة عددُها كالقَطْر[١٠] المُنْثال، والجراد الذي تضرب به الأمثال، وعاهدهم وقد حضر التمثال، وأمَرَهم وشأنُهم الامتثال، أن يدمنوا[١١] لمن ارتضاه[١٢] الطاعة، ويجمعوا من[١٣] مِلَّته الجماعة، ويَطْلُعُ الكلّ على هذه الفئة القليلة الغريبة بَغْتَةً كقيام السَّاعة، وأَقْطَعهم، قطع الله بهم، العِبادَ والبلاد، والطَّارف والتِّلاد[١٤]، وسوّغهم الحريم المستضعف[١٥] والأولاد، وبالله نَسْتَدفع ما لا نُطيقه، ومنه نسأل عادة الفَرَج، فما سُدَّتْ لديه طريقةٌ، إلّا أنّا رأينا غَفْلَة الناس مع

---

(١) من هنا حتى الآية الكريمة (إحدى الحُسْنَيَيْنِ) ورد في نفح الطيب (ج ٦ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥).
(٢) كلمة «تعالى» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفح.
(٣) قوله: «فوجب علينا» ساقط في النفح.
(٤) في النفح: «المتفرقة».
(٥) في المصدر نفسه: «كبير دين النصرانية».
(٦) في المصدر نفسه: «يكبرون».
(٧) خضم الطعام: قطَعه وأكله. والقضم: التقطيع بأطراف الأسنان. لسان العرب (خضم) و(قضم).
(٨) كلمة «لهم» ساقطة في النفح.
(٩) في الأصل: «ويرفى» والتصويب من النفح. ويرفو: يرقع. لسان العرب (رفا).
(١٠) في النفح: «القَطْرُ».
(١١) في النفح: «يدمثوا».
(١٢) في النفح: «ارتضاه من أمته الطاعة».
(١٣) في النفح: «في».
(١٤) الطارف: الجديد المستحدث. التِّلاد: القديم الموروث. لسان العرب (طرف) و(تلد).
(١٥) كلمة «المستضعف» ساقطة في النفح.

تصميمهم مؤذنةً بالبَوار[١]، وأشفقنا للذين[٢] من وراء البحار، وقد أصبح معظمهم[٣] في لَهواتِ الكُفّار، وأردنا أن نَهزَّهم[٤] بالموعظة التي تكحل البصائر بميل الاسْتبصار، وتلهِمُكم الاستنصار بالله عند عدم الانتصار، فإنْ جَبَر الله الخواطر بالضراعة إليه، والانكسار، ونسخ الإعْسار بالإيسار، وأنجد اليمين بانتهاء اليسار، وإلا فقد تعيّن في الدنيا والآخرة حظُّ الخَسار، فإنّ مَنْ ظهر عليه عدوُّ دينه[٥]، وهو عن[٦] الله مَضروف، وبالباطل مشغوف، وبغير العُرْف معروف، وعلى الحُطام المَسْلوب ملهوف[٧]، فقد تَلّه[٨] الشيطان للجبين، وخَسِر[٩] الدنيا والآخرة، وذلك[١٠] هو الخُسران المبين. ومَنْ نفذ فيه قَدَرُ الله عن أداء الواجب وَبَذْلُ المجهود، وآجر[١١] بالعُبُودية وَجْهَ الواحد الأحَد المعبود، ووطّن النفَس عن[١٢] الشهوات الموبقة في دار الخلود، العائدة بالحياة الدَّائمة والوجود، أو الظُّهور على عدوِّه المحشور إليه المحشود[١٣]، صبرًا على المقام المحمود، وبَيْعًا[١٤] تكون الملائكة فيه من[١٥] الشهود، حتى تعيث[١٦] يد الله في ذلك البناء المهدوم، بقوة الله المحمود، والسَّواد الأعظم الممدود، كان على أمر رَبِّه[١٧] بالحياء المردود: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾[١٨]. فالله[١٩] الله في الهمم، فقد خَبَتْ[٢٠] ريحُها. والله الله في العقائد، فقد خَفَتَت[٢١] مصابيحُها. والله الله في الرُّجولة[٢٢]، فقد فُلّ حَدُّها. والله الله في الغَيْرة، فقد نَعَس[٢٣] جَدُّها، والله الله في الدِّين، فقد طمع

---

(١) في النفح: «البوار». والبوار: الهلاك. لسان العرب (بور).
(٢) في النفح: «للذين المنقطع من...».
(٣) في النفح: «مُضْغة».
(٤) في النفح: «نهزّكم».
(٥) في النفح: «عدو دين الله تعالى».
(٦) في النفح: «من».
(٧) في النفح: «عنه ملهوف».
(٨) تلّه: صرعه، وتلّه للجبين: صرعه، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ سورة الصافات ٣٧، الآية ١٠٣. وانظر محيط المحيط (تلل).
(٩) في النفح: «وقد خسر».
(١٠) في النفح: «ذلك».
(١١) في النفح: «وأفرد».
(١٢) في النفح: «على الشهادة المبوئة دار...».
(١٣) في الأصل: «عدوه المحشود إليه...»، والتصويب من النفح.
(١٤) في النفح: «وبيعًا من الله تكون».
(١٥) كلمة «من» ساقطة في النفح.
(١٦) في النفح: «تعين».
(١٧) في النفح: «أمريه».
(١٨) سورة التوبة ٩، الآية ٥٢. وهنا ينتهي النص في نفح الطيب.
(١٩) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٢٣٢).
(٢٠) في النفح: «خمدت».
(٢١) في النفح: «خبت».
(٢٢) في النفح: «الرجولية».
(٢٣) في النفح: «تعسّر».

العدوُ في تحويله. والله الله في الحريم، فقد مَدَّ إلى استرقاقه يَدُ تأميله. والله الله في المساكن التي زَحَف لسُكناها، والله الله في المِلّة التي يريد إطفاء نورها وسَناها[١]، وقد كمُل فضلُها وتناهى، والله الله في القرآن العظيم[٢]. والله الله في الجيران. والله الله في الطّارف والتّالد، والله الله في الوطن الذي توارثه الولدُ عن الوالد. اليوم تَسْتأسد النفوسُ المَهينة، اليوم يُستَنزل الصبرُ والسكينة. اليوم[٣] تحتاج الهِمَمُ أن ترعى هذه النفوس الكريمة الذّمم، اليوم يُسلك سبيل العزم والحزم والشدة والشّمم، اليوم يَرْجع إلى الله تعالى المصرُّون، اليوم يُفيق من نومه الغافلون[٤] والمغترون، قبل أن يتفاقم الهَول، ويحقَّ القول، ويُسدّ الباب، ويَحيق العذاب، ويُسْترَق بالكفر[٥] والرِّقاب، فالنساء تقي بأنفسهنّ أولادهنّ الصغار، والطُّيور ترفرف لتحمي الأوكار[٦]، إذا أحست العياث[٧] بأفراخها والإضرار. تمرّ الأيام عليكم مَرَّ السحاب، وذهابُ الليالي لكم ذهاب، فلا خبر يفضي إلى العين، ولا حديث في الله تعالى يُسمع بين اثنين، ولا كَدّ إلّا لزينةٍ يُحلّى بها نَحرٌ وجيد، ولا سَعي إلّا في[٨] متاع لا يغني في الشدائد ولا يفيد. وبالأمس نُدِبْتم إلى التماس رُحْمى أو رضى[٩] مُسَخِّر السحاب، واستقالة كاشف العذاب، وسؤال مرسل الدِّيمة، ومُحيي البَشَر والبهيمة، وقد أمسكت عنكم رحمةُ السماء؛ واغبرَّتْ جوانبكم المخضرّة احتياجًا إلى بلالة الماء ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾[١٠] وإليها الأكفَّ تمدّون، وأبوابها بالدعاءِ تقصدون، فلم يُصْحِرْ[١١] منكم عددٌ معتبر، ولا ظَهر للإنابة ولا للصدقة[١٢] خَبر، وتتوقّون عن[١٣] إعادة الرغبة إلى الغني[١٤] الحميد، والولي الذي ﴿إِن يَشَأْ[١٥] يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[١٦]. وأيْمُ اللهِ لو كان لَهْوا لارتُقبت الساعات، وضاقت المُتّسعات، وتزاحمت على جماله وغُصَّت الجماعات[١٧]. أتعَزُّزًا على الله وهو القوي العزيز؟ وتلبيسًا[١٨] على الله وهو

---

(١) في النفح: «إطفاء سناها».
(٢) كلمة «العظيم» ساقطة في النفح.
(٣) في النفح: «اليوم ترعى لهذه المساجد الكرام الذِّمَم».
(٤) في المصدر نفسه: «الغفلة المغترّون».
(٥) في المصدر نفسه: «الكفر الرقاب».
(٦) الأوكار: جمع وكْر وهو عش الطائر. لسان العرب (وكر).
(٧) في النفح: «العَيْث».
(٨) كلمة «في» ساقطة في النفح.
(٩) قوله: «أو رضى» ساقط في النفح.
(١٠) سورة الذاريات ٥١، الآية ٢٢.
(١١) يُصْحِر: يسير في الصحراء. لسان العرب (صحر).
(١٢) في النفح: «ولا الصدقة».
(١٣) في النفح: «من».
(١٤) في النفح: «الوليّ الحميد والغنيّ الدني...».
(١٥) في الأصل: «شاء».
(١٦) سورة إبراهيم ١٤، الآية ١٩.
(١٧) في الأصل: «وتزاحمت على أنديته الجماعات».
(١٨) في الأصل: «أتلبيسا».

الذي يُميّز الخبيث من الطيب والشَّبه من الإبريز؟ أمُنابذةً والنواصي بيده[١]؟ أغرورًا في الشدائد[٢] بالأمل والرجوعُ بَعْدُ إليه؟. مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده؟ ثم[٣] يُنزل الرزق ويفيده؟ مَنْ يُرْجَعُ إليه في المُلمّات؟ مَنْ يُرجّى في الشدائد والأزمات؟ من يوجد في المَحْيا والممات؟ أفي الله شكٌّ يختلج القلوب؟ أم[٤] غيرُ الله يدفعُ المكروه، ويُيسِّر المطلوب؟ تفضلون على اللجإ إليه في الشدائد، بواسمَ الجهل[٥]، وثرّة الأهل[٦] وطائفة منكم قد برزت إلى استسقاء رحمته، تمدُّ إليه الأيدي والرقاب، وتستكشف بالخضوع لعزته[٧] العِقاب، وتستعجل إلى مواعد[٨] إجابته الارتقاب، وكأنكم أنتم[٩] عن كَرَمه قد استغنيتم، أو على الامتناع من الرجوع إليه بَنَيْتم. أما تعلمون كيف كان نبيّكم صلوات الله وسلامه عليه من التبلغ باليسير، والاستعداد إلى دار الرحيل[١٠] الحقّ والمَسير، ومُداومة الجوع، وهَجْر الهجوع، والعمل على الإياب إلى الله والرجوع؛ دَخَلت عليه[١١] فاطمةُ، رضي الله عنها، وبيدها كسرة شعير، فقال: ما هذه[١٢] يا فاطمة؟ فقالت: يا رسول الله، خَبَزْت قرصةً، وأحببت أن تأكل منها. فقال: يا فاطمة، أما أنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث؟ وكان ﷺ يستغفر في اليوم سبعين مرة، يلتمسُ رَحماه، ويقوم وهو المغفور له ما تقدَّم من ذَنْبه وما تأخَّر، حتى تورَّمت[١٣] قدماه، وكان شأنه الجهاد، ودأبه الجِدُّ والاجتهاد، ومواقف صبره تعرفها الرُّبى والوهاد. فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون؟ وإذا لم تهتدوا بهديه[١٤] فبمن تهتدون؟ وإذا لم تُرضوه باتّباعكم فكيف تَعْتَزُون[١٥] إليه وتَنْتسبون؟ وإذا لم ترغبوا في الاتّصاف بصفاته غضبًا لله تعالى وجهادًا، وتقللًا من العَرَض الأدنى وسُهادًا، ففيم ترغبون؟ فابتروا حبال الآمال، فكلّ آت قريب، واعتبروا بِمَثُلات ما دَهَم[١٦] من تقدم من أهل البلاد والقواعد، فذهولكم عنها غريب، وتفكّروا في منابرها التي كان[١٧] يعلوها واعظٌ أو خطيب، ومطيلٌ ومطيب، ومساجدها المتعدّدة الصفوف، والجماعات

(١) في النفح: «في يديه».
(٢) قوله: «في الشدائد» ساقط في النفح.
(٣) في النفح: «مَنْ».
(٤) في النفح: «أَثَمَّ».
(٥) في النفح: «إليه موائد الفضل، ونزه الجهل».
(٦) قوله: «وثرة الأهل» ساقطة في النفح.
(٧) في النفح: «العظمته».
(٨) في النفح: «مواعيد».
(٩) كلمة «أنتم» ساقطة في النفح.
(١٠) في النفح: «والاستعداد للرحيل إلى دار الحق...».
(١١) كلمة «عليه» ساقطة في النفح.
(١٢) في النفح: «هذا».
(١٣) في النفح: «ورمت».
(١٤) في النفح: «به».
(١٥) تعتزون: تنتسبون إليه. لسان العرب (عزا).
(١٦) قوله: «ما دهم» ساقط في النفح.
(١٧) في النفح: «التي يعلو عليها واعظ وخطيب».

المعمورة بأنواع الطّاعات[١]، وكيف أخذ الله فيها بذنب المترفين من دونهم، وعاقب الجمهور بما أغمضوا[٢] عيونهم، وساءت بالغفلة عن الله عُقْبى جميعهم، وذهبت النقمات بعاصيهم، ومن داهن في أمره من مطيعهم، وأصبحت مساجدهم مناصبَ للصلبان، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الأذان. هذا والناس ناس، والزمان زمان. فما هذه الغفلة عن من إليه الرُّجْعى وإليه المصير؟ وإلى متى التّساهل في حقوقه وهو السميع البصير؟ وحتى متى مَدّ الأمل في الزمن القصير؟ وإلى متى نسيان اللَّجإ إلى الولي النصير؟ قد تداعت الصلبان مُجلبة[٣] عليكم، وتحرّكت الطواغيت من كلّ جهة إليكم. أفيَخْذُلكم الشيطان وكتابُ الله قائم فيكم؟ وألْسِنة الآيات تناديكم؟ لم تُمح سطورُها، ولا احتجب نورُها، وأنتم بقايا من افْتَتَحها[٤] من عدد قليل، وصابرَ فيها كلّ خَطْب جليل، فوالله لو تمحّض الإيمان، ورضي الرحمٰن، ما ظهر التّثليث في هذه الجزيرة على التوحيد، ولا عَدِم الإسلام فيها عزمَ[٥] التأييد. ولكن شمل الداء، وصَمّ النداء، وعَمِيت الأبصار، فكيف الاهتداء والبابُ مفتوح، والفضلُ ممنوح؟ فتعالوا نستغفر الله جميعًا، فهو الغفور الرحيم، ونستقبل مُقيل العَثَرات[٦]، فهو الرّؤوف الحليم، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدّمت أيدينا، فقَبُول المعاذير من شأن الكريم. سُدّت الأبواب، وضعُفَت الأسباب، وانقطعت الآمال إلّا منك يا كريم[٧]، يا فتّاح، يا وهّاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾[٨] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٢٣﴾[٩] ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾[١٠] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾[١١]. أعِدُّوا الخيل وارتبطوها، وروّضوا النفوس على الشهادة واغبطوها[١٢]، فمن خاف الموت رَضِي بالدِنيَّة، ولا بدّ على كلّ حال من المَنِيّة، والحياة مَعَ الذُلّ ليست مِنْ شيم[١٣] أهل العقول والنفوس السَّنِيّة، واقتنوا السلاح والعُدّة، وتعرّفوا إلى الله في الرّخاء يعرفكم في الشدّة، واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدائه وأعدائكم، واستميتوا من دون أبنائكم، وكونوا كالبُنْيان[١٤] المرصوص

(١) في النفح: «الطاعة».
(٢) في النفح: «أغْضَوْا عنه عيونهم».
(٣) في النفح: «متراكمة».
(٤) في النفح: «فتحها».
(٥) في النفح: «عادة».
(٦) في النفح: «العثار».
(٧) قوله: «يا كريم» ساقط في النفح.
(٨) سورة محمد ٤٧، الآية ٧.
(٩) سورة التوبة ٩، الآية ١٢٣.
(١٠) سورة آل عمران ٣، الآية ١٣٩.
(١١) سورة آل عمران ٣، الآية ٢٠٠.
(١٢) في النفح: «وغبّطوها».
(١٣) في النفح: «شيم النفوس السنيّة».
(١٤) في النفح: «كالبناء».

لحملات العدو[١] النازل بِفِنائكم، وحُطُّوا[٢] بالتعويل على الله وحْدَة بلادكم، واشتروا من الله جلّ جلاله أبناءكم[٣].

ذكروا أنّ امرأة احتَمَلَ السبعُ ولَدَها، وشَكَتْ إلى بعض الصالحين، فأشار عليها بالصدقة فتصَدّقت برغيف، فأَطْلق السبع ولَدها. وسَمِعت النداء: يا هذه، لُقْمةٌ بلقمة، وإنّا لما استَودَعْناه لحافظون. اهجروا[٤] الشهوات، وَاسْتَدْرَكوا الباقيات[٥] من قبل الفَوات، وأفْضِلوا[٦] لمساكينكم من الأقوات، واخشعوا لما أنزل الله تعالى من الآيات، وخذوا نفوسكم بالصَّبر على الأزمات، والمواساة في المُهِمّات، وأيقظوا جفونكم من السِّنات. واعلموا أنكم رُضّع[٧] ثَدْي كلمة التوحيد، وجيران البلد الغريب، والدِّين الوحيد، وحزب التمحيص، ونَفَر المرام العَوِيص[٨]، فتفقّدوا مُعاملتكم[٩] مع الله تعالى، فمهما رأيتم[١٠] الصِّدق غالبًا، والقلب للمولى الكريم مراقبًا، وشهابَ اليقين[١١] ثاقبًا، فثِقوا بعناية الله التي لا يَغْلبكم معها غالب، ولا ينالُكم من أجلها[١٢] عدوٌّ مُطالب، وأنكم[١٣] في السِّتر الكثيف، وعصمة[١٤] الخَبير اللّطيف. ومهما رأيتم الخواطرَ مُتَبَدِّدة، والظنونَ بالله متردِّدة، والجهات التي تخاف وتُرجى متعدِّدة، والغفلة عن الله ملابِسُها[١٥] مُتجدِّدة، وعادة دواعي الخِذْلان دائمة، وأسواق الشهوات قائمة، واعلموا[١٦] أنَّ الله منَفِّذٌ فيكم وعدَه ووعيدَه في الأمم الغافلين، وأنكم قد ظلمتم أنفسكم ولا عدوان إلّا على الظَّالمين. والتوبة تَرُدُّ الشارد والله يحبُّ التَّوّابين، ويحب المُتَطَهِّرين، وهو القائل: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[١٧]. وما أقربُ صلاح الأحوال، إذا صَلَحت العزائم، وتوالت على حزب الشيطان الهزائم، وخُملت الدُّنيا الدنيَّة في العُيون، وصدقت فيها عند الله الظُّنون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾[١٨].

(١) في النفح: «هذا العدو».
(٢) في النفح: «وحوطوا».
(٣) في النفح: «أولادكم».
(٤) في النفح: «واهجروا».
(٥) في النفح: «البقية من بعد الفوات».
(٦) أفضل من الشيء: ترك منه بقيّة. محيط المحيط (فضل).
(٧) في النفح: «رضعاء».
(٨) العويص: الصعب. لسان العرب (عوص).
(٩) في النفح: «معاملاتكم».
(١٠) في النفح: «ومهما لقيتم».
(١١) في النفح: «البنين».
(١٢) في النفح: «لأجلها».
(١٣) في النفح: «فإنكم».
(١٤) في النفح: «وكنف».
(١٥) في النفح: «ملامسها».
(١٦) في النفح: «فاعلموا».
(١٧) سورة هود ١١، الآية ١١٤.
(١٨) سورة فاطر ٣٥، الآية ٥.

وثُوبوا[١] سراعًا إلى طهارة القلوب، وإزالة الشَّوْب[٢]، واقصدوا أبواب غافر الذنوب[٣] وقابل التّوب، واعلموا أنّ سوء الأدب مع الله يفتح أبواب الشدائد، ويسُدُّ طريق[٤] العوائد، فلا تَمْطُلوا بالتوبة أزمانكم، ولا تأمنوا مكر الله فتَغشوا إيمانكم، ولا تُعلّقوا مَتابكم بالضّرائر[٥]، فهو علّام السرائر، وإنما علينا معاشر الأولياء[٦] أن نَنصحكم وإن كُنّا أولى بالنّصيحة، ونعتَمِدكم بالموعظة الصريحة، الصادرة ـ عَلِم الله ـ عن صدق القريحة، وإن شاركناكم في الغَفْلة، فقد ناديناكم[٧] إلى الاسْتِرْجاع والاستغفار، وإنما لكم لدنيا[٨] نفسٌ مبذولة في جهاد الكفّار، وتقدُّم[٩] إلى ربّكم العزيز الغفّار، وتقدُّم لديكم إلى مواقف الصّبر التي لا تَرْتَضي[١٠] بتوفيق الله الفَرار، واجتهاد فيما يعود بالحُسنى وعُقْبى الدّار، والاختيار لله وليّ الاختيار، ومُصرِّف الأقدار. وها نحن نسرع في الخروج إلى مدافعة هذا العَدوّ، ونفْدي بنفوسنا البلاد والعباد، والحريمَ المُسْتضعف والأولاد، ونَصْلى[١١] من دونهم نارَ الجِلاد، ونَسْتَوهب منكم الدُّعاء إلى[١٢] مَنْ وَعَد بإجابته، وتَقَبَّل[١٣] من صَرَف إليه وَجْهَ إنابته. اللّهمّ كُنْ لنا في هذا الانقطاع[١٤] نصيرًا، وعلى أعدائك ظهيرًا، ومن انتقام عَبَدة الأصنام مُجيرًا[١٥]. اللّهمّ قَوِّ مَنْ ضَعُفَتْ حيلتُه، فأنت القوي المعين، وانصرْ مَنْ لا نصير له إلّا أنت، إياك[١٦] نعبُد، وإياك نَسْتعين. اللّهمّ ثَبِّتْ أقدامَنا وانْصُرْنا عند تَزَلْزُل الأقدام، ولا تُسْلِمْنا عند لقاء عدوّ الإسلام، فقد ألقينا إليك يَدَ الاستسلام. اللّهمّ دافعْ بملائكَتك المُسَوِّمين، [عَمَّن ضُيِّقت أرجاؤه، وانقطع إلّا منك رجاؤه. اللّهمّ هيِّىء لضعفائنا، وكلُّنا ضعيفٌ فقيرٌ، إليك، ذليلٌ بين يديك حقيرٌ، رحمةً تُروى بالأزمة وتشبع، وقوةً تطرد وتُسْتَتْبع. يا غلاب الغُلّاب، يا هازم الأحزاب، يا كريم العوائد، يا مُفرِّج الشدائد، ربَّنا أفْرِغ علينا صبرًا، وثَبِّت أقدامنا، وانْصُرْنا على القوم الكافرين[١٧]]. اللّهمّ اجعلنا[١٨] ممن تيَقَّظ فتيقَّظ، وذَكَر

---

(١) ثاب: رَجَعَ. لسان العرب (ثوب).
(٢) الشَّوب: المخالط من الأدران ـ لسان العرب (شوب).
(٣) في النفح: «الذنب».
(٤) في النفح: «طرق».
(٥) في النفح: «بالضرائر».
(٦) قوله: «معاشر الأولياء» ساقط في النفح.
(٧) في النفح: «سبقناكم».
(٨) في الأصل: «الدنيا» والتصويب من النفح.
(٩) في النفح: «وتقدم قبلكم إلى مواقف الصبر...».
(١٠) في النفح: «ترضى بالفرار».
(١١) نَصْلى النارَ: نحترق بها. قال الله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝﴾ سورة الليل ٩٢، الآية ١٥.
(١٢) في النفح: «لمن».
(١٣) في النفح: «فإنه يقبل».
(١٤) في النفح: «الاهتمام».
(١٥) في النفح: «كفيلاً».
(١٦) في النفح: «فإياك».
(١٧) ما بين قوسين ساقط في نفح الطيب.
(١٨) في النفح: «اللهم اجعلنا على تيقّظ وتذكّرْ مَن قال...».

فتذكَّر، ومَن ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[١]. وقد وَرَدَت علينا المخاطبات من قِبَل[٢] إخواننا المسلمين الذين عَرَفنا في القديم والحديث اجتهادَهم، وشكرنا في ذات الله تعالى جِهادَهم، بني مَرين، أُولي الامتِعاض لله والحَمِيَّة، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزية، بعَزْمهم على الامتعاض لحقِّ الجِوار، والمُصارخة التي تليق بالأحرار، والنَّفْرة لانتهاك ذِمار نبيّهم[٣] المختار، وحركة سلطانهم[٤] محلَّ أخينا بمن له من الأولياء والأنصار، إلى الإعانة على هؤلاء الكُفّار، ومدافعة أحزاب الشيطان وأهل النّار، فاسألوا الله تعالى إعانَتهم على هذا المَقْصد الكريم الآثار، والسعي الضَّمين للعزِّ والأَجْر والفَخَار، والسّلام الكريم يخصُّكم أيها الأولياء، ورحمة الله وبركاته[٥]. في الثاني عشر من شهر رمضان المعظم من عام سبع وستين وسبعمائة. عَرّفنا الله خيره، صحَّ هذا، فكان دفاعُ الله أقوى، وعصمته أكْفَى. والحمد لله على عوائده الحُسْنَى.

ومن الغيرة على الدين، وتغَيُّر أحوال الملحدين، من مآزق جهاد النفس، ما وقع به العمل من إخماد البِدَع، وإذهاب الآراء المضلة، والاشتِداد على أهل الزَّيْغ والزَّنْدقة. وقد أضاقت أرباب هذه الأضاليل الشريعة، وسُدَّت مضرُهم في الكافّة، فيُسَلَّط عليهم الحُكّام، واستدعيت الشهادات، وأَخَذهم التَّشريد، فهل تُحِسُّ منهم أحدًا، أو تسمع لهم رِكزًا؟

وقُيِّد في ذلك عني مقالات أخرى. منها رسالة «الغَيْرة على أهل الحَيْرة»، ورسالة «حَمْل الجمهور على السنن المشهور». ورسالة «أنْشَدتُ على أهل الرِّد». فارتفع الخوضُ، وكسَدَت تلك الأسواق الخبيثة، وصُمَّ منها الصَّدى، ووضَح نار الهُدى، والحمد لله، ولو تتبعت مناقب الهُدى، لأخرج ذلك عن الغرض.

الأحداث: وفي غرة ذي الحجة كانت الثورة الشَّنعاء المُجْحفة بالدولة، وقد كان السلطان أُنْذِر بطائفة، تُداخل بعض القرابة، فعاجَلَه بالقبض عليه، وهو في محل ولايته، فصُفِّد وأُحْمِل إلى قَصَبة ألمريّة، وخاف أرباب المكيدة افتضاح الأمر، فتعجَّلوا إبْراز الكامن، وإظهار الخَبَث، وتولّى ذلك جُملة من بني غرون ذُنابى بيت

---

(١) سورة آل عمران ٣، الآيتان ١٧٣، ١٧٤. (٢) في النفح: «من إخواننا».
(٣) في الأصل: «بيتهم» والتصويب من النفح.
(٤) في النفح: «سلطانهم بتلك الأقطار والأمصار، ومدافعة...».
(٥) هنا ينتهي النص في نفح الطيب.

الإدبار، وقد عابهم من بني مطرون، يدور أمرهم على الدَّليل البَرْكي[١]، فأكذب الله دَعْوتهم، بعد أن أركبوا الشيخ عليًّا بن نصر، ونصبوه تلقاء القلعة بباب البُنُود[٢]، ودَعُوا الناس إلى بيعته. وأخذ السلطان حِذْره، وناصبهم القتال، وأشاع العطا، واستركب الجيش. وعمَّر الأسوار، فأخفق القصد، وفَرَّ الدليلُ البركي، وتُقبِّض على الرئيس المذكور، وجعل الله العاقبة الحسنة للسلطان.

وكان ممّا أمليْتُه يومئذ بين يدي السلطان، من الكلام المُرْسل، ما هو نصه، بعد الصَّدر: وإلى هذا فمِمّا أفادته الفِطَر السليمة، والحِلْم والقَضَاء بالشريعة، والنَّقْلِ الشرعي والسّنَن المَرْعي، أنَّ مُغالب الحقّ مغلوب، ومزاحمَ الله مهزوم، ومكابرَ البُرْهان بالجَهل موسُوم، ومرتع الغَيِّ مهجور، وسيفَ العُدوان مفلول، وحظَّ الشيطان مَرْكوس، وحزبَ السلطان منصور. ولا خفاء بِنعمة الله علينا، التي اطَّرَدَها في المواطن العديدة؛ والهَضَبات البعيدة، والشُّبُهات غير المُبِينة، والظُّلُمات الكثيفة، معلنٌ بُوفور الحظِّ من رحمته، وإبراز القِداح في مجال كَرامته، والاختصاص بسيما اختياره، فجعلَ العصمةَ ليلةَ الحادث علينا من دون مَضْجع أمانًا، ونَهجَ لنَا سبيل النّجاة بين يَدَي كسْبه علينا، وسخّر لنا ظَهْري الطَّريف والطريق، بعد أن فرّق لنا بحر الليل، وأوضح لنا خفيَّ المسلك، وعبّد لنا عاصِي الحَزْم، ودمَّث غَمْر الشَّعْراء[٣]، وأوْطَأنا صَهْوة المَنعَة، وضَرَب وجوه الشَّرذمة المُتبَعة، بعد أن ركضوا قَنِيب البَراذِن البادِئة، من خزائن إهدائنا، الْمتَجمِّلة بحَلْي رَكْبنا؛ وتحمَّلوا السلاح والرِّياش المُختار من أثير صِلاتنا، وأبْهَروا الأنفاس التي طال ما رفعها إيناسُنا وأبلَغَها الريقُ تأميننا، وصبّبُوا العَرَق الذي أفضله طعامُنا، شَرِهين إلى دَمِنا، المَحْظور بالكتاب والسُّنَّة، المحوطِ بِسِياج البَيْعة، المحصَّن عنهم بتقديم النِّعمة، وحُرْمة الأب ومُتَعدِّد الأذمَّة، فجعل الله بيننا وبينهم حاجزًا، وسَدًّ ليأجُوجِهم من المَرَدَة مانعًا، وانقلبوا يعضّون الأنامل الغَضّة من سُرَيْط جفاننا، ويقلِّبون الأكُفَّ التي أجْدَبها الدَّهر، ترفيعًا من المهن المُتَرتِّبة في خدمتنا، قد حالهم صِغار القَدْر، وذلُّ الخَيْبة، وكَبَح الله جماعَتهم عن التَّنَفق بتلك الوسيلة. واحتَلْلنا قَصَبة وادي آش، لا نملك إلّا أنفُسَنا، لم يَشُبْها غشُّ المِلّة، ولا كيادُ الأمّة، ولا دَنَّسها والحمد لله عارُ الفاحشة، ولا وَسَمها الشُّوم في الولاية، ولا

---

(١) الدليل البَرْكي: هو أحد وزراء سلطان غرناطة، الغني بالله.

(٢) باب البنود: من أبواب غرناطة، يفصله عن قصبة الحمراء نهر حَدَرُه، وما يزال هذا الباب قائمًا حتى اليوم. راجع نهاية الأندلس للأستاذ محمد عبد الله عنان (ص ٢١) ومملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر للدكتورة مريم قاسم طويل (ص ٢٩٤).

(٣) الشَّعْراء: الأرض الكثيرة الشجر. محيط المحيط (شعر).

أحبط عمل نجابَتِها دَخَلُ العقيدة، ولا مرضُ السَّريرة، مذ سَلَّمنا المَقادة لمن عَطَف علينا القلوب، وصَيَّر إلينا مُلْكَ أبينا من غير حَوْل ولا حيلة، نرى أنّها أمْلَكُ لحرمتنا، وأعْلَمُ بما كنّا، وأرحَمُ بنا، فتشَبَّثت بها القَدَم، وحَمِيت لنا من أهلها، رعاهم الله الهِمَم، وصَدَقت في الذَّبِّ عنّا العزائم، وحاصرنا جيشُ العدُو، وأولياءُ الشياطين، وظهر الباطل، فبان الظَّفَر والاستقبال، وظَهَرت الفئةُ القليلة، والله مع الصابرين، فَغُلِبوا هناك وانقلبوا صاغرين. ومع ما لنا من الضِّيق، وأهمَّنا من الأمر، فلم نُطْلق به غارة، ولا شَرِهْنا إلى تغيير نغمة، ولا سرَّحْنا عنّا اكتساحُ على هجمة، ولا شِعنا لِبْسًا في بيتٍ ولا حُلَّة، وأمْسَكنا الأَزْماق بيسِير الحلال الذي اشتملته خزائنُنا من أعْشار وزَكَوات، وحظوظ من زِراعات، وارتقبنا الفَرَج مِمَّن مَحَّص بالشِّدة، والإقالة ممن نَبَّه من الغفلة، وألْهَم الإقلاع والتَّوْبة. ثم وفَّقَنا سبحانه، وألهمنا من أمْرِنا رَشَدًا، وسلك بنا طريقًا في بَحْر الفِتنة يَبِسًا، فِذْناه بحقن الدماء، وتأمين الأَرْجاء، وشَكَرْنا على البَلاء؛ كشُكْرِنا إيّاه على الآلاء. وخَرَجْنا على الأندلس، ولقد كاد، لولا عِصْمَتُه، بأن نذهب مذاهب الزَّوْراء، ونَسْتأصل الشّأفة[١]، ونستأصل العَرْصة[٢]، سبحانه ما أكملَ صُنْعه، وأجْملَ علينا سِتْره، إلى أن جُزْنا البحر، ولَحِقْنا بجوار سلطان المغرب. لم تَنبُ عنّا عيْنُ، ولا شَمَخَ علينا أنفُ، ولا حمِل علينا برَكْب[٣]، ولا هَتَفت حولنا غاشية، ولا نُزِع عنّا للتقوى والعَفاف سِتر، بل كان الناس يُوجبون لنا الحقَّ الذي أغْفَله الأوغاد من أبناء دولتنا، والضَّفادع ببركة نعمتنا، حتى إذا الناس عافوا الصَّيحة، وتَملُّوا الحسرة، وسِيموا الخَسار والخيبة، وسامهم الطَّغام[٤] الذين يرجون لله وقارًا، ولا يألون لشعائره المعظَّمة احتقارًا، كلابُ الأطماع، وعَبَدةُ الطاغوت[٥]، ومدبِّرو حُجُون الجهل، ومياسِيس أسواق البُعد عن الرَّب، وعرائس مَخْرم الزينة، وُدود القزِّ، وثِغار النُّهم الأعزَّة على المؤمنين بالباطل، الأذلَّة في أنفسهم بالحق، ممن لا يُحسن المحاولة، ولا يلازم الصَّهوة، ولا يحمل السلاح، ولا يُنزه مجتمع الحِشمة عن الفحشاء، ولا يُطعم المسكين، ولا يشعر بوجود الله، جاروا من شقيِّهم المحروم، على مضعوفٍ مُلْتَفّ في الحَرَم المحصور، مُحتف بلُطف المهد، مُعلَّل بالخداع، مسلوب الجرأة بأيدي انتهازهم، شؤمٍ على الإسلام، ومعرَّةٍ في وجه الدين، أخذ الله

---

(١) الشأفة: قرحة تخرج في أسفل القدم، وإذا قُطعت مات صاحبها، وقوله: استأصل شأفته: أي أذهبه كما تذهب تلك القرحة، أو أزاله من أصله. محيط المحيط (شأف).

(٢) العَرْصة: ساحة الدار. محيط المحيط (عرص).

(٣) الركب: الجماعة من عشرة فصاعدًا. محيط المحيط (ركب).

(٤) الطّغام: أوغاد الناس، الواحد والجمع فيه سواء. محيط المحيط (طغم).

(٥) الطاغوت: اللّات والعُزّى، والشيطان، والأصنام. محيط المحيط (طغا).

منهم حقّ الشريعة، وأنصف أئمّة الملّة، فلم ينشِبوا أن تهارشوا، فغُضّ بعضُهم، واستأصلهم البَغْي، وأُلحم للسيف، وتفنن القتل، فمن بين مُجدَّل يُوارى بأحلاس الدّواب الوَبِرة، وغريقٍ يُزفُّ به إلى سوء المَيْتة، واستُبينت حُرمة الله، واستُضيم الدِّين، واستُبيحت المحرَّمات، واستُبْضِعت الفروج في غير الرِّشْدة، وساءت في عدوِّ الدِّين الحيلة، فتحرَّكنا عن اتفاق من أرباب الفُتْيا، وعزمٍ من أولي الحريّة، وتحريض من أولي الحَفِيظة والهمّة، وتداحُرٍ من الشوكة، وتحريك من وراء البحر من الأمة، فكان ما قد علمتم من تَسْكين الثّائرة وإشكا العديم، وإصْمات الصارخ، وشَعْب الثَّأي[1]، ومعالجة البلوى، وتدارك القَطْر، وقد أشْفَى، وكشف الضرِّ والبأسا، أما الحَبْوة فالتمسها، وجَلّ الرَّبّ، واستشاط عليها جوُّ السماء. وأمّا مرافق البحر ومرافِدُه، فسَدَّت طرقها أساطيلُ الأعداء. وأما الحَمِيَّة، فبدَّدها فسادُ السيرة، وغَمْط الحق، وتفضيل الأذى. وأمّا المال، فاضْطَلم السَّفَه بيضاءَه وصفراءَه، وكبس خزائنه حتى وقع الإدقاع والإعدام، وأقوى العامر، وافتقَرت المجابي والمغابن، واغتَرَبت جفون السيوف من حُلاها، وجردتموا الآلة إلى أعلاها، والدَّغَل المُسْتَبْطن الفاضح، ويمحض الحين، وأسلمت للدواء العَرْصة، وتخرَّبت الثغور من غير مُدافعة، واكتُسحت الجهات فلم يُترك بها نافخ، ووقع القول، وحقَّ البَهْت، وخُذل الناصر، وتبرَّأت الأواصر، فحاكمنا العدو إلى النَّصَفة، ولم نقرّه على الدَّنيَّة، وباينّاه أحوجَ ما كنّا إلى كَدْحه، وأطمعَ ما أصبحنا في مظاهرته على الكفّار مثله، اعتزازًا بالله، وثقةً به، ولجأً إليه، وتوكلًا عليه، سبحانه ما أبْهَر قدرته، وأسرع نُصرْته، وأوْجَى أمره، وأشدَّ قهره. ورَكِبْنا بحر الخطر، بجيش من التجربة، ونَهَدْنا قُدُمًا، لا نهاب الهَوْل ولا نراقبه، وأطْلَلْنا على أحواز رَيّه[2] في الجمع القليل، إلّا من مَدَد الصَّبر المفرد، إلّا مِنْ مظاهرة الله الغُفل، إلّا مِنْ زينة الحق المُظَلِّل جناحُ عقابه بجناحُ الروح، تَسُدّ جيادُه بصهيل العزِّ، المطالعةُ غُرَره بطليعة النصر. فلمّا أحسّ بنا المؤمنون المُطَهَّرون بساحتهم انتَزَوْا من عِقال الإيالة الظالمة، والدَّعوة الفاجرة، وتبرأوا من الشِّرْذمة الغاوية، والطّائفة المُناصبة لله المحاربة، وأقبلوا ثُنَيَات وأفرادًا، وزُرافات ووحدانًا، ينظرون بعيون لم تُرْو من غَيْبتنا، من مُحيًّا رحمةٍ، ولا اكتحلت بمنظر رأفةٍ، ووجوه عليها قسوة الخَسف، وإبشار عليها بوسُ الجَهد، يتعلّقون بأذيالنا تعلّق الغريق، يئنّون من الجوع والخوف أنين المرضى، ويجْهَشُون بالبكاء، ويُعلنون لله ولنا بالشكوى، فعرَّفناهم الأمان من الأعداء، وأول عارفةٍ جعلونا

(١) الثَّأْي والثَّأى: الضعف والركاكة، وآثار الجرح.

(٢) رَيّه: كورة من كور الأندلس كثيرة الخيرات. الروض المعطار (ص ٢٧٩).

عليهم، وصرفنا وجه التّأمين والتّأنيس، وجميل الوُدّ إليهم، وخارَطْناهم[١] الإجْهاش والرَّقْعة، ووَثَّبْنا[٢] لهم من الذِّلة، واستولينا على دار الملك ببلدهم، فأنْزَلنا منها أخابيث كان الأشقياء مُخلِّفُوهم بها، من أخلاف لا يزال تطأ إبشارهم الحدود، وتأنف من استكفائهم اليهود، وانثالت علينا البلاد، وشَمَّر الطاغية ذيله عن الجهات، وراجع الإسلام رَمَق الحياة، وحَثثْنا السير إلى دار الملك، وقد فرَّ عنها الشقي الغاصب، بشوكةِ بَغْيه، التي أمدَّته في الغيّ، وأجْرَته على حُرمة الله. وقصد دار قَشْتالة، بكل ما صانَتْ الحِقاق من ذخيرة، وحجبت الأمهاء من خرزَة ثمينة، يتوعدون المسلمين بإدالة الكفر من الإيمان، واقتياد جيوش الصُلبان، وشدِّ الحَيازِم إلى تبديل الأرض غير الأرض، وسَوْم الدِّين، وطمس معالم الحق، كيادًا لرسول الله في أمته، ومناصبةً له في حنيفيَّته، وتبديلًا لنعمة الله كُفْرًا، ولمعروف الحقّ نُكرًا، أصبح له الناس على مثل الرّضف، يرتقبون إطلال الكريهة، وسقوط الظُّلّة، وعودة الكَرَّة، وعُقْبى المَعَرَّة، والله من ورائهم مُحيط، وبما يعملون محيط، ولدعاء المستضعفين من المؤمنين مُجيب، ومنهم وإن قعدوا في أقصى الأرض قريب. ولم نُقدم مذ حللْنا بدار الملك شيئًا على مراسلة صاحب قشتالة في أمره، نناشِدُه العَهْد، ونُطري له الوفاء، ونُناجزه إلى الحق، ونقوده إلى حُسْن التلطُّف، إلى الذي نشاء من الأمن، فحسم الداء، واجتثَّ الأعداء، وناصَح الإسلام وهو أعدا عدُوه، وحَزَم الدين، وهو المعطل من أذوائه، وصارت صُغرى عناية الله بنا، التي كانت العُظمى، واندرجت أُولاها في الأخرى، وأتت ركائبُ اليُمْن واليَمين تترى، ورأى المؤمنون أن الله لم يخلق هذا الصُقْع سدًى ولا هباء عبثًا، وأن له فينا خبيئةَ غيب، وسرَّ عناية، يبلِّغُنا إيّاها، ويطَوِّقنا طوقها، لا مانع لعطائه، ولا مُعدِّد لآلائه، له الحمد مَلْءَ أرضه وسمائه.

فمن اضطردت له هذه العجائب، فحملته عوائق الاستقامة مزية جيوب التقوى، كيف لا يتمنّى، ويدين لله بمناصحته، ويحذر عناد الله بمخالفته، ويخشى عاقبة أمره، إنها لا تُعمي الأبصار، ولكن تُعمي القلوب التي في الصدور. فقلَّمْنا أظفار المطالبة وأغضينا عن البقيّة وسوّغنا من كشف وجهه في حَرْبنا نعمة الإبقاء، وأقْطَعْنا رَحِم مَن قطع طاعتنا جانب الصَّفح، وأدْرَرْنا لكثير ممن شَحَّ عنّا ولو بالكلمة الطيّبة جورية الرزق، ووهنّا ما وجب لنا من الحق، ودنّا له بكظم الغيظ؛ وعَمَرنا الرُتب بأربابها،

(١) لم تَرِد هذه الصيغة في معاجم اللغة، والمراد أنهم بكوا بكاءً شديدًا.

(٢) وَثَّبه: أقعده على وسادة، والمراد هنا أنه أكرمهم وأقالهم من الذِّلّة. محيط المحيط (وثب).

وجرذنا الألقاب بعد خرابها، وقَبَضنا الجباية مُحَمَّلة كَتَد العادة، مقودة بزمام الرِّفق، ممسوحًا عطفُها بكفّ الطواعية، فبلّلنا صدأ الجيش المَمْطول بالأماني، المُعلّل بالكذب، المُسْتخدم في الذبِّ عن مجاثم الفحشاء، ومراقد العَهْر، وداربنا الأعداء، وحسمنا الداء، وظَهَر أمر الله وهم كارهون، إلّا أن تلك الشِّرذمة الخبِيثة أبْقت جرائيم نِفاق، رَكبها انحجار الغَدْر، وبَذَر بها حصيدُ الشّرّ، وأخلطوا الحقائب اللَّعِنة ممن ساء ظنّه، وخبُثَ فكره، وظنّ أن العقاب لا يفلِتُه، والحقّ لا يَذَرُه، والسياسة لا تَحْفِزُه، فدبّت عقاربُهم، وتدارت طَوافاتهم، وتأبّت فسادهم، فدبَّروا أمرًا تَبره الله تَتْبيرًا، وأوْسَعه خِزْيًا وبيلًا، وجفلوا يرتادون من أذيال القرابة، مَن استَخْلَصه الشيطان وأصحبه الخِذلان، مَن لا يصلح لِشيء من الوظائف، ولا يستقلُّ ببعض الكُلف، فحركوا منهم زاهق زمانه، من شرّ الدّواب الذين لا يسمعون، فأجَّرهم رسَنه، وتوقف وقفة العين بين الورد والصَّدر، بخلال ما أطلعنا الله طلع نيّته، فعاجلناه بالقبض، واستودعناه مَضْفِدًا ببعض الأطباق البعيدة، والأجباب العميقة، فخرج أمرهم، وخافوا أن نحترش السعايات، صباب مكرهم، وتتبع نفاقهم، فأقدموا إقدام العير على الأُسْد، استعجالًا للحين، ورجعًا لحكم الخيار، وإقدامًا على التي هي أشدُّ، تولّى كِبرها، وكشف وجهه في معصيتها الخبيث البركي[1] حِلف التهور والخُرق، المموّه بالبسالة وهو الكَذُوب النّكوث الفَلول، تحملنا هفوته، وتغمَّدنا بالعفو قديمًا وحديثًا زلّته، وأعرضنا فيه عن النَّصيحة، وأبقينا له حكم الولاية، وأنِسنا من نَفْرته، وتعافَفنا عن غِرَّته، وسوّغنا الجرائم التي سبقت، والجرائر التي سلفت، من إفساد العهد وأسر المسلمين، والافتيات على الشرع، والصُّدوع بدعوى الجاهلية، فلم يفده إلّا بَطَرًا، ولم يزده إلّا مكرًا، والخير في غير أهله يستحيل شرًّا، والنفع ينقلب ضُرًّا. والتفَّت عليه طائفة من الخلائق، بنو غرُّون قُرعاء الجبل والمَشْأمة، وأذناب بيت الإدبار، ونفاية الشُّرّار، عَرَك جرأتهم مكان صِهرهم البائس، ابن بطرون، الضعيف المُنّة السقيط الهِمّة، الخامل التفصيل والجُملة، وغيرهم ممن يأذن الله بضلال كيدهم وتخييب سَعْيهم، فاقتحموا البلد صبيحةً يهتفون بالناس أن قد طرق حِمامهم، وأن العدو قد دَهَمَهم، مُلتفتين يرون أنهم في أذيالهم، وأنّ رماحهم تنهشهم وتنوشُهم، وسُرعانهم ترهقهم، كأنهم سقطوا من السماء، أو ثاروا من بين الحَصْباء، ثم جالوا في أزقّة البلد يقذفون في الصِّفاح نارَ الحُباحب[2] ركضًا فوق الصّخر المرصوف،

---

(١) الخبيث البركي: هو أحد وزراء سلطان غرناطة، الغني بالله.

(٢) الحُباحب: ذباب يطير بالليل له شعاع في ذنبه كالسراج، وبنار الحباحب يضرب المثل في الضعف. محيط المحيط (حبب).

وخوضًا في الماء غير المرهوف. ثم قصدوا دار الشيخ البائس علي بن أحمد بن نصر، نُفاية البيت، ودُردى القوم، ممسوخ الشكل، قبيح اللّثغ، ظاهر الكَدَر، لإدمان المُعاقرة، مَزْنون بالمعاقرة والرَّبت على الكَبْرة، ساقط الهمّة، عديم الدِّين والحِشمة، مُنْتَمت في البخل والهلع، إلى أقصى درجات الخسّة، مثل في الكذب والنميمة، معَيَّب المثانة، لا يُرق بَوْله، ولا يجفُّ سَلِسُه، فاستخرجوه مُبايعًا في الخلافة، منصوبًا بأعلى كرسي الإمامة، مدعومًا بالأيدي لكونه قلقًا لا يثبت على الصَّهوة، مختارًا لحماية البَيْضة، والعدل في الأمة، مُعْتمًا للذبّ عن الحنيفية السَّمْحة، وصعدوا به إلى ربوة بإزاء قلعتنا، مُنتترًا باب البنود[1]، مستندًا إلى الربض، مطلًا على دار الملك، قد أقام له رسم الوزارة ابن مطرون الكاري، الكَسِح الدروب برسم المَسُومة، الحَرْدُ، المهينُ الحجة، فحلُ طاحونة الغَدْر، وقِذْر السُّوق والخيانة، واليهودي الشكل والنِّحل، وقرعت حوله طبول الأعراس، إشادة بخمُول أمره، واستِهْجان آلته، ونُشرت عليه رايةٌ فال رأيها، وخاب سعيُها، ودارت به زِعْنِفة من طغام مَن لا يُملي ولا يزيد المَكا والصَّغير من حيله، وانبثّت في سكك البلد مُناديه، وهَتف أولياء باطله باسمه وكُنْيته، وانتَجزوا مواعيد الشيطان فأَخْلَفت، ودعوا سمَاسير الغرور فصُمّت، وقدحوا زناد الفتنة فصَلدت وما أوارت. ولحين شَعرنا بالحادثة، ونظرنا إلى مَرَج الناس، واتصل بنا ريح الخلاف، وجهير الخُلعان، استعنّا بالله وتوكلنا عليه، وفَوّضنا أمرنا إلى خير الناصرين، وقلنا: ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين، واستركبنا الجند، وأذَعْنا خَبرَ العطاء، وأطلقنا بريح الجهاد، ونَفِير الجِلاد. وملأنا الأكُفّ بالسلاح، وعَمَرنا الأبراج بالرجال، وقرعنا طبول الملك، ونشرنا ألوية الحق؛ واستظهرنا بخالصة الأمراء أولياء الدعوة، وخاطبنا فقيه الرَّبض، نخبر مخْبره؛ ونُسبر غَوْره، فألفيناه متواريًا في وكره، مُرعيًا على دينه، مُشْفقًا من الإخطار برُمّه، مشيرًا بكُمّه. وتفقّدْنا البلد، فلم نَرْتب بأحد من أهله. فلما كَمُلت البيعة، وفَخُمت الجملة، أنْهدنا الجيش، وليّ أمرنا، الذي اتخذناه ظهيرًا؛ واستنبطناه مشيرًا، والتزمناه جليسًا وصهيرًا، ولم ندخر عنه محلًا أثيرًا، الشيخ الأجلّ، أبا سعيد عثمان ابن الشيخ أبي زكريا يحيىٰ بن عمر بن رَحُو، مُمهّد الرعب بقدومه، والسَّعْد في خدمتنا بخدمه، في جيش كثيف الجملة، سابغ العُدَّة، مُزاح العِلة، وافر النّاشِية، أخذ بباب الربَض وشعابه، ولفّ عليه أطنابه، وشرع إليه أمله. ولم يكن إلّا كلّا ولا، حتى داسه

(١) باب البنود: أحد أبواب مدينة غرناطة، وما يزال قائمًا حتى اليوم. راجع نهاية الأندلس للأستاذ محمد عبد الله عنان (ص ٢٩٤) ومملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر للدكتورة مريم قاسم طويل (ص ٢٩٤).

بالسّنابك، وتخلّفه مجرُّ العوالي، ومجرى السوابق، وهو الحِمى الذي لا يُتوعد، والمجدُ الذي لا يغرُب، فلولا تظاهر مشيخته بشعار السّلم؛ واستظلاله بظلال العافية، لحثّ الفاقِرة، ووقعت به الرّزيّة. وفرّ الأعداء لأول وهلة، وأسلموا شقيّهم أذلّ من وتَد في قاع، وسُلَحفة في أعلى يَفاع، فتُقُبّض عليه، وأخذت الخيلُ أعقاب الغَدَرة أشياعه، وقيد إلينا يرسُف في قيد المُهزم، ثُعلُبان مكيدة، وشَكيَّة ضلال ومَظنّة فضيحة، وأضحوكة سمر. فتضرّع بين أيدينا، وأخذَته الملامة، وعلاه الخِزي، وثُلّ إلى المُطْبق، حتى نستدعي حكم الله في جُرمه، ونقتضي الفتيا في جريرته، ونختار في أقسام ما عرضه الوحي من قتلته. وهدأت الثائرة، والحمد لله من يومها، واجتثّت شجرة الخلاف من أصلها، فالحمد لله الذي أتمّ نوره ولو كره الكافرون ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]. وماذا رابهم منّا، أصغر الله مُنْقلبهم، وأخزى مَردّهم، واستأصل فُلكهم؟ أولا يتبنى أمر وارثه، ثم عوده إلينا طواعية، ثم رفعنا وطأة العدو وحَزْبه، ومددنا ظلال الأمن دفعة، وأنفأنا رَمق الثغور، حين لم يجدوا حيلة إلّا ما عرفوا من أمنه، وبلوا من حَيْطته وتسوُّغًا من هذْنةٍ، وانسحبت فوق آمالهم وحريمهم من عِفّة، وأظهر الله علينا من نعمة. ربّنا أنك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء. اللهمّ ألبسْنا سريرتنا، وعاملْنا بدَخْلتنا فيهم، وإن كنّا أردْنا لجماعتهم شرًّا، وفي دينهم إغماضًا، وعن العدل فيهم عدولًا، فعاملْنا بحسب ما تبلوه من عَقِيدنا، وتستكشفه من خبيئتنا، وإن كنت تعلم صحة مُناصحتنا لسَوادهم؛ واستنفادنا الجَهد في إتاحة عافيتهم، ورعي صلاحهم، وتكيف آمالهم، فصل لنا عادة صُنعك فيهم، ومَسّلنا طاعتهم، واهْدِ بنا جماعتهم، وارفع بنظرنا إطاعتهم، يا أرحم الراحمين.

ولما أسفر صبح هذا الصُّنع عن حُسن العفو، واستقرّ على التي هي أزكى، وظهر لنا، لا تخاف بالله دركًا ولا تخشى، وأن سبيل الحق أَنجى ومحجّته أَحْجَى، خاطبنا كم نجْلو نعم الله قبلنا عليكم، ونُشيد بتقوى الله بناديكم، وعنايته لدينا ولديكم، ونهدي طرف صُنْعه الجميل قبلنا إليكم ليكسبَكم اعتبارًا، فزجُوا الله وقارًا، وتزيّدوا يقينًا واستِبْصارًا، وتصفُّوا العين من اختار لكم اختيارًا. وهو حسبنا ونِعْم الوكيل، والله يصل سعدكم، ويحرس مجدكم. كتب في كذا. والسلام عليكم، ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة الأعراف ٧، الآية ١٣٩. ومُتَبَّرٌ: هالك.

الجهاد في شعبان من عام سبعة وستين وسبعمائة:

اقتضى نظر الحزم، ورأى الاجتهاد للإسلام إطلاق الغارات على بلد الكفرة من جميع جهات المسلمين، فعظم الأثر، وشَهُر الذكر، واكتسحت الماشية، وألْحَمَ السيف. وكان ثغر بُرغة، الفائزةُ به يدُ الكفرة، لهذه السنين القريبة، قد أهمَّ القلوب، وشغل النفوس، وأضاق الصدور، لانبتات[1] مدينة رُنْدَة، بحيث لا يخلُص الطَّيف، ولا تبلغ الرسالة من الطَّير وغيرها إلى ناحية العدو، فوقع العمل على قصده واستعانة الله عليه، واستُنْفر لمنازلته أهل الجهات الغربية من مالَقة ورندة، وما بينهما، ويَسَّر الله في فَتْحه، بعد قتال شديد، وحرب عظيمة، وجهاد شهير، واستولى المسلمون عليه، فامتلأت أيديهم أثاثًا وسلاحًا ورياشًا وآلة، وطُهِّرت للحين مساجدُه، وزيِّنت بكلمة الله مشاهده، وأنست بالمؤمنين معاهده، ورُتِّبت فيه الحماةُ والرماةُ، والفرسان الكماة، واتّصلت بفتحة الأيدي، وارتفعت العوائق، وأوضحت بين المسلمين وأخوانهم السُبل، والحمد لله. وتوجَّهت بفتحه الرسائل، وعظُمت المنن الجلائل، وفرّ العدو لهذا العهد عن حصن السهلة، من حصون الحُفرة اللُّوَيْشيّة، وسُدَّ الطريق الماثلة، وذلك كله في العشر الأوسط لشعبان من هذا العام. ثم أجْلَب المسلمون في رُندة في أخرياته وقصدوا باغة وجِيرَة فاستنزلوا أهلها، وافتتحوها، فعظُمت النعمة، واطّرد الفتح، واتسعت الجِهة.

وكانت مما خوطبت به الجهة المرينيّة[2] من إملائي:

المقام الذي نُبشره بالفتح ونحيِّيه، ونعيد له خبر المسرَّة بعد أن نبديه؛ ونسأل الله أن يضع لنا البركة فيه، ونشرك مساهمته فيما نهصُره من أغصان الزهور ونجنيه، ونعلم أن عزّة الإسلام وأهله أسنى أمانيه، وإعانتهم أهمُّ ما يعنيه. مَقام محلّ أخينا الذي نعظم قَدْره، ونلتزم برّه، ونعلم سرّه في مساهمة المسلمين وجهرَه؛ السلطان الكذا، الذي أبقاه الله في عمل الجهاد ونيّته؛ متكفلةً بنشر كلمة الله طويَّتُه، متممةً من ظهور الدين الحنيف أُمنِيَته، معظَّم جلاله، ومُجْزَل ثنائه، ومؤمِّل عادة احتفاله بهذا الوطن الجهادي واعتنائه، أيّد الله أمره، وأعزَّ نصره. سلام كريم عليكم، ورحمة الله وبركاته. أما بعد حمد الله، واصل سبب الفتوح، ومُجزل مواهب النَّصر الممنوح، ومؤيد الفئة القليلة بالملائكة والرُّوح، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيّه، الآتي بنور الهدى بَيِّن الوضوح، الداعي من قبوله ورضوانه إلى المنهل المورود والباب المفتوح، والرِّضا عن آله وأصحابه، أسود السُّروج وحماة السُّروح، والمقتفين

---

(١) الانبتات: الانقطاع. لسان العرب (بتت). (٢) المراد بالجهة المرينية بلاط بني مرين بفاس.

نهجه في جهاد عدوّ الله بالعين القارّة والصدر المشروح، والدعاءِ لمقامكم العلي بالعز الرفيع الصُّروح، فإنا كتبناه إليكم، كتب الله لكم سُبوغ المواهب، ووضوح المذاهب، وعزة الجانب، وظفرة الكتائب. من حمراء غرناطة حرسها الله، ونعم الله واكفة السحائب، كفيلةٌ بنيل الرغائب، والله يصل لنا ولكم عوارف اللطائف، ويجعل الشَّهيد دليلًا على الغائب. وإلى هذا وصل الله إعزازكم، وحرس أحْوازكم، وعَمَر بالحقيقة من أمراد مجازنا ومجازكم. فإنّا بادرنا تعريفكم بما فتح الله علينا من الثغر العزيز على الإسلام، العائد رزؤه الفادح على عبادة الأصنام، ركاب الغارات، وممكِّن حياة المضَرَّات، ومخيف الطريق السابلة؛ والمسارح الآهلة، حصن بُرغة. ويسَّر الله في استرجاعه، مع شهرة امتناعه، وتطَهَّر من دنس الكفّار، وأنيرت مئذنته بكلمة الشهادة الساطعة الأنوار، وعجلنا ذلك على حين وضعت الحرب فيه أوزارها، ووفت الأوتار أوبارها، فسار الكتاب إليكم، وأجير الأجر لم يَجُفَّ عرقُه، وعذر الاستعجال لاحبة طرقُه. ولما عُدْنا إلى حضرتنا، بعد ما حصّناه وعمّرْناه، وأجزلنا نظر الحزم له وفرقناه، لم تكد البنود لمسَرّة فتحه أن تعاد إلى أماكن صونها، مرتقبة عادة الله في عونها، حتى طرقت الأنباء السارة بتوالي الصنع وانفراده، بتَشْفيع أفراده، وذلك أن أهل رُندة، حرسها الله، نافسوا جيرانهم من أهل مالقة، كان الله لجميعهم، وتولّى شكر صنيعهم، فيما كان من امتيازهم بحصن برغة، الجار المُصاقب لها، فحميت هممهم السنيَّة، وهانت في الله موارد المنيَّة، وتضافر العمل والنيّة، وظهر نُجح المقاصد الدينية في إتاحة الفتوح الهنيَّة، فوجهوا نحو حصن وحبر، وهو الداين صحر المدينة ونحرها، والعدوُّ الذي لا يفتر عن ضرّها، والحيّة الذكر التي هي مروان أمرها؛ ففتحوه بعون الله وقوته، وتهنُّوا بعده سلوك الطريق، وإشاعة الريق، ومراصد الحرس، ومجلُوّ الجرس، وأنصفوا، وانصرفوا إلى حصن باغة، من مشاهد تلك الحفرة، فناشبوه القتال، وأذاقوه الوبال، وفوقوا إليه النِّبال، ففتحه الله فتحًا هينًا، لم تُفَتَّ فيه للمسلمين نفس، ولا تطرَّق لنصر التيسير لَبس، فقابلنا بها لشكر هذه النعم المتوالية، والمِنَن المتقدِّمة والتالية، وأعدنا الأعلام إلى مراكزها المشرفة المَرَاقب، والطبول إلى قرعها عملًا من الإشارة بالواجب، وشكرنا الله على اتصال المواهب، ووضوح المذاهب، وخاطبنا مقامكم الذي نرى الصَّنائع متواترة بنيّته الصالحة وقصده، ويُعْتد في الحرب والسلم بمجده، علمًا بأن هذه المسرّات، نصيبكم منها النصيب الأوفى؛ وارتياحكم إلى مثلها لا يخفى. ونحن نرقبُ ما تنجلي عنه هذه النكايات التي تُفَتِّت كَبد العدو تَتاليها، وتروع أحوازه وما يليها، ولا بدّ له من امتعاض يروم به صرع المعَرّة، ويأبى الله أن ذلك يأتي بالكرَّة، والله يجعلها محركات لحتفه المرقوب، وحِينه المجلوب، ويحقق حقّ القلوب، في نُصرة المطلوب، عرَّفناكم بما تريدون

عملًا بواجب برِّكم، ومعرفةً بقدركم، وما يتزايد نعرفكم به، ويتصل سبب التأكيد والتعجيل بسببه، والسلام.

الغزاة إلى حصن أشر(١):

وفي أوائل شهر رمضان بعده، أعمل السلطان الحركة السعيدة إلى حصن أَشِر، وهو قُفل الثغر الذي فضّه الطاغية، وسورها الذي فرغه الكفر، وجارحُه المحلِّق على البلاد، والمتحكم لولا فضل الله في الأموال والأولاد، فتأذن الله برد مُغْتَصِبه، والشِّفا من وَصَبِه، وأحاط به وناصبه الحرب، ففتحه الله على يده عَنوةً، على سموِّ ذروته، وبُعد صِيته وشُهرته، واختيار الطاغية في حاميته بعد حرب لم يسمع بمثله، فاز بمزية الحمد فيها السلطان، لمباشرته إياها بنفسه، وحمل كَلِّها فوق كاهله، واتّقاد ما خَمَد من الحَمِيّة بتحريضه. ثم لما كان بعد الفتح من استخلاص القَصَبة وسدِّ ثُلْمِها بيده، ومصابرة جو القيظ عامّة يومه، فحاز ذكرًا جميلًا وحلَّ من القلوب محلًّا أثيرًا، ورحل منها، بعد أن أسكن بها من الفرسان رابطة مُتَخيرة، ومن الرُّماة جُملة، وتخلَّف سلاحًا وعُدَّة، فكان الفتح على المسلمين، في هذا المَعْقِل العزيز عليهم جليلًا، والمنّ من الله جزيلًا، والصنع كثيرًا، وصدرت المخاطبة للمغرب بذلك، على الأسلوب المرسل الخلي من السجع الغني.

الغزاة المُعْملة إلى أطريرة(٢):

في شهر شعبان من عام ثمانية وستين وسبعمائة، كانت الحركة إلى مدينة أُطريرة بنت إشبيلية، وبلدة تلك الناحية الآمنة، مهاد الهدنة البعيدة عن الصِّرْمة، حرك إليها بعدُ المدى، وآثرها بمحض الرَّدى، من بين بلاد العدا، ما أسلف به أهلها المسلمين، من قتل أسراهم في العام قبله. فنازلها السلطان أول رمضان، وناشبها الحرب واستباح المدينة وَربَضهَا عَنْوة، ولجأ أهلها إلى قصبتها المنيعة، ذات الأبراج المشيّدة، وأخذ القتال بمُخَنَّقهم، وأعان الزحام على استنزالهم، فاستُنزلوا على حكم المسلمين، فيما يناهز خمسة، بما لم يتقدمه عهد؛ ولا اكتَحَلت به في هذه المدة عين، ولا تلقته عنها أذن، وامتلأت أيدي المسلمين، بما لم يعلمه إلّا الله، من شتَّى الغنائم، وأنواع الفوائد، واقتسم الناس السَّبي رُبُعا على الأكفال والظهور، وتقديرًا بقدر الرجال، وحمْلًا فوق الظهور للفرسان، وعُمْرانًا للسروج

(١) أشر: بالإسبانية Iznajor، وهو حصن يقع على ضِفة نهر شنيل.

(٢) أطريرة: بالإسبانية Utrera وهي مدينة تقع جنوب شرقي إشبيلية. راجع: أزهار الرياض (ج ٤ ص ٦٠).

والأعضاد بالصِّبية، وبرز الناس إلى ملاقاة السلطان، في هول من العزِّ شهير من الفَخْر، وبعيد من الصيت، قَرَّت له أعينهم، وقعد لبيعتهم أيامًا تباعًا، وملأ بهم البلاد هدايا وتحفًا والحمد لله، وصدرت المخاطبة بذلك إلى السلطان بالمغرب بما نصه من الكلام المرسل من إنشائي.

الغزاة إلى فتح جيّان:

وفي آخر محرم من عام تسعة وستين وسبعمائة، كانت الحركة الكبرى إلى مدينة جَيان، إحدى دور الملك، ومدن المَعْمود، وكرسيَّة الإمارة، ولو أن المدن الشهيرة افتتحها الله عَنْوة، ونقل المسلمون ما اشتملت عليه من النِّعم والأقوات والأموال والأنعام والأثواب والدَّواب والسِّلاح، ومكّنهم من قتل المُقاتلة، وسَبْي الذرية، وتخريب الديار، ومحو الآثار، واستِنْساف النِّعم، وقطع الأشجار. وهذا الفتح خارق، تعالى أن يحيط به النَّظْم والنثر. فذكرُه أَطْير، وفخره أَشْهر. وصدرت في ذلك المخاطبة من إملائي إلى ملك المغرب. وأصاب الخلقَ عقب القُفول في هذه الغزاة، مرضٌ وافد، فشا في الناس كافة، وكانت عاقبته السَّلامة؛ وتدارك الله بلطفه، فلم يتّسع المجال لإنشاد الشعراء، ومواقف الإطراء، إلى شغْل عن ذلك.

الغَزاة إلى مدينة أُبدة:

وفي أول ربيع الأول من هذا العام، كان الغزو إلى مدينة أُبدَة، واحتلَّ بظاهرها جيش المسلمين، وأبلى السلطان في قتالها، وقد أخذت بعد جارتها جيَّان أقصى أُهْبة، واستعدَّت بما في الوُسع والقوة، وكانت الحرب بها مشهورة. وافتتحها المسلمون فانتهبوها، وأغفَوا مساكنها العظيمة البِناء، وكنائسها العجيبة المرأى، وألصقوا أسوارها بالثَّرى، ورأوا من سَعَة ساحتها، وبُعْد أقطارها، وضخامة بنائها، ما يُكذِّب الخبر فيه المرأى، ويُبَلِّد الأفكار، ويُحَيِّر النُّهى. ولله الحمد على آلائه التي لا تحصى. وقَفَل المسلمون عنها، وقد أخربوها، بحيث لا تَعْمُر رباعها، ولا تأتلف حجورها وجموعها. وصدرت المخاطبة بذلك إلى صاحب المغرب من إنشائي بما نصُّه:

وإلى هذا العهد جرت الحادثة على ملك قشتالة، بِطْرُه بن أذفونش بن هِراندة بن شانْجُه، وهو الذي تهيأ به الكثير من الصُّنع للمسلمين، بمزاحمة أخيه أندريق في الملك وتضييقه عليه، وحِياز سَبْعة من كبار أصحابه، وأهل ملّته إليه، وافتقار بطره المذكور إلى إعانة المسلمين، وإجلابهم على مَن آثر طاعته ضدّه، فانهزم بظاهر حصن مُنْتِيل، ومعه عدد من فرسان المسلمين، ولجأ إلى الحصن على غير أهبة

ولا استعداد، فأخذ أخوه الذي هزمه بمُخَنَّقه، وأدار على الحصن البناء، وفرّ جيشُ المحصور، فاجتمع فلُّه بأحواز أُبدَة، وراسلوا المسلمين في مظاهرتهم على استنقاذهم، فتوجهت الفُتْيا بوجوب ذلك. ووقع الاستِنْفار والاحتشاد حرصًا على تخليصه، ليسبِّبَ بقاؤه بقاء الفتنة تستأصل الكفر، وتشغل بعض العدو ببعضه.

وفي أثناء هذه المحاولة تَباطَن الحاينُ المحصور بمن معه، وبعُد عليه الخلاص من ورطته، ومساهمة المسلمين إياه في محنته؛ وانقطعت عنه الأنباء بفرج من كربته، فداخل بعض أمراء أخيه وظُهَرائه، ممن يباشر حصاره، وكان قومسًا شهيرًا من المَدَد الذي ظاهره، من أهل إفْرَنْسية، ووعده بكل ما يطمع من مال ومَهْد، وتَوْفية عهد، فأظهر له القبول، وأضمَر الخديعة. ولما نزل إليه، سَجَنه ومن لحق به من الأدِلَّاء وأولي الحرَّة بالأرض وأمسكه، وقد طَيَّر الخبر إلى أخيه، فأقبل في شِرذِمة من خواصّه وخُدّامه، فهجم عليه وقتله، وأوْسَع العفو مَن كان محصورًا معه، وطير إلى البلاد برأسه، وأوْغَر التِّبْن في جُثَّته، ولَبس ثياب الحزن من أجله، وإن كان معترفًا بالصَّواب في قتله، وخاطب البلاد التي كانت على مِثْل الجَمر من طاعة الجاهر بمظاهرة المسلمين، وما جَرَّ ذلك من افتتاح بلادهم، وتخريب كنائسهم، والإتيان على نِعَمهم، فأجابته ضَرْبةً، واتفقت على طاعته، فلم يختلف عليه منها اثنان، إلّا ما كان من مدينة قَرْمُونة. واجتمعت كلمة النصارى، ووقع ارتفاع شتاتهم، وصرفوا وجوههم إلى المسلمين، وشاع استدعاؤهم جميع مَن بأرض الشرق من العَدُوِّ الثقيل ببرجِلونة[1]، وعدوِّ الأُشْبُونة، والعدو الثَّقيل الوطأة بإفرانسيَّة. وقد كان الله، جلّ جلاله، ألهم أهل البصائر النظر في العواقب، والفكر فيما بعد اليوم أعْمَل. ووقع لي إذنُ السلطان، المُخْلي بيني وبين النصائح، في مخاطبة سلطان النصارى المَنكوب لهذا العهد، فأشرتُ عليه بالاحتراز من قومه، والتَّفَطُّن لمكايد مَن يَخطُب في حَبْل أخيه، وأريتُه اتخاذ مَعْقِل يحرز ولده وذخيرته، ويكون له به الخيار على دهره، واستظهرتُ له على ذلك بالحكايات المتداولة، والتواريخ المعروفة، لتتَّصل الفتنة بأرضهم، فقبل الإشارة وشكر النصيحة، واختار لذلك مدينة قَرْمونة المختصّة بالجوار المُكَتَّب، من دار مُلْكهم إشبيلية، فشيَّد هضابها، وحصَّن أسوارها، وملأها بالمخازن طعامًا وعُدّة، واستكثر من الآلات، واستظهر عليها بالثِّقات، ونقل إليها المال والذخيرة، وسجن بها رِهان أكابر إشبيلية، وأسرى المسلمين، وبالغ في ذلك، فيما لا غاية وراءه ولا مطمع، ولا ينصرف إلى مصرعه الذي دعاه القَدَر إليه، حتى تركها عُدَّة خَلفه، وأودع

(١) هي مدينة برشلونة، عاصمة مملكة أراغون في أيام ابن الخطيب.

بها ولده وأهله، ولجأ إليها بعض من خُدَّامه ممن لا يقبل مَهْدَنة ضدّه، ولا يُقِرّ أمان عدوه، والتفوا على صغير من وَلَده كالنَّحْل على شَهْده، ولجأوا إلى المسلمين، فبَغَّض عليهم الكرَّة والفتح بقاءُ هذا الشَّجى المُعترض في حَلْقه، وأهمَّه تغيير أمره، وجَعْجع به المسلمون لأجله، وأظهروا لمن انحاز بقرمونة الامتساك بعهده، فعَظُم الخَرْق، وأظهر الله نُجْح الحيلة، وصدَّق بها المُخَيِّلة، وتفتَّر الأمر، وخَمَدت نار ذلك الإرجاف، واشتغل الطاغية بقَرْمونة، بخِلال ما خوطب به صاحب الأرض الكبيرة[١]، فطَمَّعه في المظاهرة، وتخَطَّب له مُلْك قشْتالة، وعقد السَّلم مع صاحب بُرْطُغال[٢] والأُشبونة، ونشأت الفتن بأرضهم، وخرجت عليهم الخوارج، فأوجب إزعاجه إلى تلك الجهة، وإقرار ما بالبلاد المجاورة للمسلمين من الفرسان والحماة تقاتل وتدافع عن أحْوازها، وجعل الخصص مُوَجَّهة قَرْمونة، وانصرف إلى سَدّ الفتوق التي عليه بلُطْف الحيلة، ببواطن أرضه، وأحشاءِ عِمالته، وصار في مُلْكه أشْغَل من ذات النِّحيين، فساغ الرِّيقُ، وأمكن العُذر، وانتهز الغُرّة، واستؤنفت الحركة، فكانت إلى حصن مُنْتيل والحويز، ففتحهما الله في رمضان من عام سبعين وسبعمائة، ثم إلى ثغر رُوطَة، ففتحه الله عن جَهْد كبير، واتصل به حصن زَمْرَة، فأمَّن الإسلام عادية العدُوّ بتلك الناحية، وكبَس أهلُ رُندة بإيعاز من السلطان إليها وإلى مَن بالجَبَل، جبل الفتح، حصن برج الحكيم والقَشْتور، فيسَّر الله فتحهما في رمضان أيضًا.

ثم كانت الحركة إلى الجزيرة الخضراء[٣]، باب الأندلس، وبكرُ الفتح الأول، فكانت الحركة إليها شهر ذي الحجة من العام المذكور. ووقع تحريض الناس بين يدي قصدها في المساجد بما نصُّه:

معاشر المسلمين المجاهدين، وأولي الكفاية عن ذوي الأعذار من القاعدين، أعلى الله بعلُوّ أيديكم كلمة الدين، وجعلكم في سِوى الأجر والفخر من الزاهدين، اعلموا، رحمكم الله، أن الإسلام بالأندلس ساكِن دار، والجزيرة الخضراء بابُه، ومُبعد مغار، والجزيرة الخضراء رِكابه، فمن جهتها اتصلت في القديم والحديث أسبابه، ونَصَرته على أعدائه وأعداء الله أحبابُه، ولم يشكّ العدو الكافر الذي استباحها، وطَمَس بظُلْمة الكفر صباحها، على أثر اغتصابها، واسْوِداد الوجوه المؤمنة لمصابها، وتبديل محاربها، وعلوق أصله الخبيث في طيِّب تُرابها، أن صريع الدين الحنيف بهذا الوطن الشريف لا ينتعش ولا يقوم، بعد أن فُري الحُلْقوم، وأن الباقي

---

(١) الأرض الكبيرة هي فرنسا. (٢) برطغال: هي البرتغال Portugal.

(٣) راجع: أزهار الرياض (ج ٤ ص ٧٢).

رمقٌ يذهب، وقد سُدَّ إلى التَّدارك المذهب، لولا أن الله دفع الفاقِرة[١] وَوَقاها، وَحَفِظ المَسْكَنة وَاستبقاها، وإن كان الجبل[٢] عصمة الله نِعْم البقية، وَبمكانه حفَّت التقية، فحسبُك من مصراع بابٍ فُجع بثانيه، ومُضايق جِوارٍ حيل بينه وبين أمانيه. والآن، يا عباد الله، قد أمكنكم الانتهاز، فلا تُضَيِّعوا الفرصة، وفترَ المُخَنِّق فلا تُسَوِّغه غُصَّة، وَاعمُروا البواطن بحمِيّة الأحرار، وَتعاهدوا مع الله معاهد الأولياء الأبرار، وَانظروا للعون من الذَّراري وَالأبكار، والنشأة الصِّغار، زُغْب الحواصل في الأكوار، والدين المنتشر بهذه الأقطار، واعملوا للعواقبْ تحمدوا عملكم، وأخلصوا لله الضمائر يُبَلِّغكم من فضله أَمَلكم، فما عُذْر مَن سَلَّم في باب وَكْره، وماذا ينتظر من أذعن لكَيْد عدوِّه ومكره. من هذه الفُرْضة، دخل الإسلام تروَّع أُسوده، ومن هذه الجهة طلع الفتح الأول تَخْفق بُنوده، ومنها تقتحم الطير الغريب، إذا رامت الجَواز وفُوده، فيبصر بها صافّات والدليل يقوده. البابُ المسدود، يا عباد الله، فافتحوه، وَجْهُ النّصر تجلّى يا عباد الله فالمَحُوه، الداء العُضال يا عباد الله فاستأصلوه، حَبْلُ الله يا رجال الله قد انقطع فصِلوه. في مثلها تَرْخُص النفوس الغالية، في مثلها تُخْتَبر الهِمَمُ العالية، في مثلها تُشهر العقائد الوثيقة، وتُدَسُّ الأحباس العريقة، فنَضَّر الله وجه من نظر إلى قلبه، وقد امتلأته حمِيَّة الدين، وأصبح لأن تكون كلمة الله هي العليا مُتَهَلِّل الجَبِين.

اللهمّ إنّا نتوسّل إليك بأسرار الكتاب الذي أنزلته، وعناية النبيّ العربي الذي أوْفَدْت من خصوص الرَّحمات وأجْزَلت، وبكل نَبِيّ ركع لوجهك الكريم وسجد، وبكل وَليّ سدَّه من إمدادك كما وجد، ألا ما رَدَدْت علينا ضالّتنا الشاردة، وهنَّأتنا بفتحها من نعمك الواردة، يا مُسهل المآرب العسرة، يا جابر القلوب المنْكَسِرة، يا وليّ الأمة الغريبة، يا مُنْزل اللطايف القريبة، اجعل لنا من ملائكة نَصْرك مددًا، وأنجزْ لنا من تمام نُورك الحقّ موعدًا. ربَّنا آتِنا من لَدُنْكَ رحمةً، وهيِّىء لنا من أمرنا رَشَدًا.

فوقع الانفعال، وانتشرت الحمِيَّة، وجُهزت الأساطيل. وكانت مُنازلتها يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور، وعاطاها المسلمون الحرب، فدُخلت البِنْية وهي المدينة الملاصقة لها عَنْوة، قتل بها من الفرسان الدَّارعة عِدّة، وصُرفت الغنائم إلى المدينة الكبرى، فرأوا من أمْر الله، ما لا طاقة لهم به، وخذلهم الله جلَّ

---

(١) الفاقرة: الداهية التي تكسر الفَقار، والجمع فواقر. محيط المحيط (فقر).

(٢) المقصود هنا جبل الفتح، أي جبل طارق.

جلاله، على مَنَعة الأسوار وبُعد مهاوي الأغْوَار، وكثرة العدّ والعُدَد، وطلبوا الأمان لأنفسهم، وكان خروجهم عنها يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر المذكور، السعيد على المسلمين، في العيد والسرور، برد الدين، ولله الحمد على آلائه، وتوالي نعمه وإرغام أعدائه.

وفي وسط ربيع الأول من عام أحد وسبعين وسبعمائة، أعْمَل الحركة إلى أحْواز إشْبيلية دار الملك، ومحل الشَّوكة الحادَّة، وبها نائبُ سلطان النصارى، في الجمع الخَشِن من أنجاد فرسانهم، وقد عظُم التضييق ببلدة قَرْمونة، المنفرد بالانْتِزاء على مَلِك النصارى، والانحياز إلى خدمة المسلمين، فنازل المسلمون مدينة أُشُونة[١]، ودخلوا جفْنها عَنْوة، واعتصم أهلها بالقَصَبة، فتعاصَت، واستُعجل الإقلاع منها لعدم الماء المَرْوي والمحلّات، فكان الانتقال قُدُمًا إلى مدينة مُرشانة وقد أحدقوا بها، وبها العُدَّة والعديد من الفرسان الصَّناديد، ففتحها الله سبحانه، إلّا القَصَبة، واستولى المسلمون فيها، وفي جارتها، من الدواب والآلات على ما لا يأخذه الحَصْر، وقُتل الكثير من مُقاتلتها، وعمَّ جميعها العَدَم والإحراق، ورَفعت ظهور دواب المسلمين من طعامها ما تُقِلُّه أظْهُرُ مراكب البحار، ما أوجب في بلاد المسلمين التَّوسِعة، وانحطاط الأسعار، وأوْجَب الغلاء في أرض الكُفّار، وقفل، والحمد لله، في عزّ وظهور، وفرح وسرور.

مولده السعيد النَّشيئَة[٢]، الميمون الطلوع والجيئة:

المقترن بالعافية، منقولًا من تهليل نشأته المباركة، وحِرْز طفولته السعيدة، في نحو ثلث ليلة الاثنين والعشرين من جمادى الآخرة عام تسعة وثلاثين وسبعمائة. قُلتُ: ووافقه من التاريخ الأعجمي رابع ينير من عام ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين[٣] لتاريخ الصُّفر. واقتضت صناعة التعديل بحسب قيمودا وبطليموس، أن يكون الطالع ببرج القَمَر؛ لاستيلائه على مواضع الاستقبال المتقدم للولادة، ويكون التخمين على ربع ساعة وعشر ساعة، وثلث عشر الساعة السادسة من ليلة الاثنين المذكورة، والطالع من بُرج السُّنبلة، خمس عشرة درجة، وثمان وأربعون دقيقة من درجة. كان الله له في الدنيا والآخرة، وحسْبُنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) أُشونه، بالإسبانية: Osuna، وهي مدينة من كور إستجة الأندلس. الروض المعطار (ص ٦٠).
(٢) النشيئة: النشأة.
(٣) الصواب: ٢١ كانون الثاني من عام ١٣٣٨م.

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر ابن قيس الخزرجي الأنصاري(١)

من ولد سعد بن عُبادة، صاحب رسول الله ﷺ، ابن سليمان بن حارثة بن خليفة بن ثَعْلبة بن طريف بن الخَزْرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمر بن يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان بن هُمَيْسع بن يُمن بن نَبْت بن إسماعيل بن إبراهيم صلّى الله عليه وعلى محمد الكريم. أمير المسلمين بالأندلس ودايلها خدمة النَّصْريين بها. يكنى أبا عبد الله، ويلقب بالغالب بالله.

أَوَّلِيَّته: وقد اشتهر عند كثير ممن عُني بالأخبار أن هذا البيت النَّصْري من ذرِّية سَعْد بن عُبادة سيد الخَزْرج، وصاحب رسول الله ﷺ. وصنَّف الناس في اتصال نَسَبِهم بقيس بن سعد بن عبادة غيرَ ما تصنيف. وأقوى ما ذُكر قولُ الرَّازي: دخل الأندلس من ذرِّية سعد بن عُبادة رجلان، نزل أحدهما أرض تاكرُونّا، ونزل الآخر قرية من قرى سقرسطونة، تعرف بقرية الخَزْرَج، ونشأ بأحواز أرْجُونة من كنْبَانِيَة(٢) قرطبة، أطيب البلاد مَدَرَة، وأوفرها غلّة، وهو بلدُه، وبلدُ جَدِّه، في ظل نعمةٍ، وعلاج فلاحَةٍ، وبين يدي نَجْدة وشهرة، بحيث اقتضى ذلك، أن يفيض شِرْيان الرياسة، وانطوت أفكاره على نيل الإمارة، ورآه مرتادو أكفاء الدول أهلًا، فقَدَحوا رغبته، وأثاروا طمعه.

حدّث شيخنا الكاتب الشاعر، محمد بن محمد بن عبد الله اللَّوْشي اليَحْصُبي، وقد أخبرني أنه كان يوجد بمدينة جيّان رجل من أهل الماليَّة، وكان له فَرَس أنثى من عِتاق الخيل، على عادة أولي المالية، وكان له من أهل الثغور، من ارتباط الخيل، والتنافس في إعداد القوة. وشهُرت هذه الفرس في تلك الناحية، وبعث الطّاغية ملك الروم في ابتياعها، فعَلِقت بها كفُّ هذا الرجل، وآثر بها نفسه، وازداد غِبْطة بها لديه، ورأى في النوم قائلًا يقول له: سِرْ إلى أرْجُونة، بفرسك، وابحثْ عن رجل اسمه كذا، وصفتُه كذا، فأعطه إياها، فإنه سيملك جَيَّانًا وسواها، ينتفع بها عَقِبك. وأُرْجِىء الأمر، فعُرِض عليه ثانية، وحُثَّ في ذلك في الثَّالثة، فسأل ثقةً له خبيرًا بتلك الناحية وأهلها، فقال له المُخْبر، وكان يُعرف بابن يَعيش، فوصفه له، فتوجه الفقيه إلى

(١) ترجمة أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر في المغرب (ج ٢ ص ١٠٩) والبيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٩٦، ٣٤١) واللمحة البدرية (ص ٣٦).

(٢) كنبانية: كلمة إسبانية Campaña، وتعني الأرض الجرداء. راجع نفح الطيب (ج ٤ ص ١٩١) حاشية المحقق.

أرجونة، ونزل بها، وتسُومع به، وأقبل السلطان وأظهارَه، وتكلموا في شأنه، فذكر غَرَضه فيه، وأظهر العجز عن الثَّمَن، وسأل منه تأخير بعضه، فأسْعَفه، واشترى منه الفَرَس بمال له خَطر. فلما كُمل له القصد، طلب منه الخَلْوة به في المسجد من الحصن، وخرج له عن الأمر، وأعطاه بَيْعته، وصرف عليه الثَّمَن، واستَكتمه السلطان خيفةً على نفسه، وانصرف إلى بلده.

قال: وفي العام بعده، دعا إلى نفسه بأرْجُونة، وتملّك مدينة جَيَّان، واختُلف في السبب الذي دعاه إلى ذلك، فقيل: إن بعض العمال أساء معاملته في حقّ مَخْزَني، وقيل غير ذلك.

حاله: هذا الرجل كان آيةً من آيات الله في السَّذاجة والسلامة والجُمْهورية، جنديًّا، ثَغريًّا شهمًا، أَيْدًا، عظيم التَّجلُّد، رافضًا للدَّعة والرَّاحة، مؤثرًا للتقشف، والاجْتِزاء باليسير، مُتبلّغًا بالقليل، بعيدًا عن التَّصَنُّع، جافي السلاح، شديد العزم، مَرْهوب الإقدام، عظيم التَّشمير، مُقْريًا لضيفه، مُصْطنعًا لأهل بيته، فظًّا في طلب حظّه، مُحْمِيًا لقرابته وأقرانه وجيرانه، مباشرًا للحروب بنفسه، تتغالى الحُكاة في سلاحه، وزينة دُبُوره. يخْصِف النعل، ويلبس الخشن، ويؤثر البداوة، ويستشعر الجدّ في أموره. سَعُد بيوم الجمعة، وكان فيه تملُّكه جيّان؛ ثم حضرة المُلْك غَرناطة، وقيل: يوم قيامه شرع فيه الصَّدَقة الجارية على ضُعفاء الحَضْرة، ومنائهم إلى اليوم. وتملك مدينة إشْبِيلية[١] في أخريات ربيع الأول من عام ظهوره، وهو عام تسعة وعشرين وستمائة نحوًا من ثلاثين يومًا. وملك قرطبة في العشر الأول لرجب من العام المذكور، وكلاهما عاد إلى مُلْك ابن هود.

ولما تمّ له القصد من تملُّك البَيْضة، والحصول على العُمّال، مباشرًا للحسابات بنفسه، فتوفّر ماله، وغُصَّت بالصامت خزائنه، وعقد السَّلم الكبير، وتهنّأ أمره، وأمكنه الاستعداد، فأنعم الأهواء، وملأ بطن الجَبَل المتصل بالقلعة حُبُوبًا مختلفة، وخزائن دَرّة، ومالًا وسلاحًا وارِيةً ظهرًا، وكُرَاعًا، فوجد فائدة استعداده، ولجأ إلى ما ادَّخره من عتاده.

سيرته: تظاهر لأول أمره بطاعة الملوك بالعُدْوة وإفريقية، يَخْطُب لهم زمانًا يسيرًا، وتوصل بسبب ذلك إلى إمدادٍ منهم وإعانة، ولقبل ما افتتح أمرَه بالدعاء للمستنصر العباسي ببغداد، حاذيًا حذو سميّه ابن هُود، لِلَهج العامة في وقته، بتقلد تلك الدعوة، إلى أن نزع عن ذلك كله.

---

(١) في المغرب: «وقد ملك إشبيلية وقتل ملكها المعتضد الباجي».

وكان يعقِد للناس مجلسًا عامًا، يومين في كل أسبوع، فترتفع إليه الظلامات، ويُشافِه طالب الحاجات، وتنشده الشعراء، وتدخل إليه الوفود، ويُشافه أرباب النصائح في مجلس اختصَّ به أهل الحَضْرة، وقضاة الجماعة، وأُولي الرتب النَّبيهة في الخدمة، بقراءة أحاديث من الصَّحيحين، ويختم بأعْشار من القرآن. ثم ينتقل إلى مجلس خاص، ينظر فيه في أموره، فيصرف كل قصد إلى مَن يليق به ذلك، ويؤاكل بالعشِيَّات خاصته من القرابة؛ ومَن يليهم من نُبهاء القوَّاد.

أولاده: أعقب ثلاثة من الذكور، محمدًا وليَّ عهده وأمير المسلمين على أثره؛ والأميرين أبا سعيد فرج، وأبا الحجاج يوسف؛ تُوُفِّيا على حياته؛ حسبما يتقرر بعد إن شاء الله.

وزراء دولته: وزر له جماعة؛ الوزير أبو مروان عبد الملك بن يوسف بن صَنادِيد، زعيم قاعدة جيّان؛ وهو الذي مَكّنه من ناصية جيّان المذكورة. واستوزر علي بن إبراهيم الشَّيباني من وجوه حَضْرته، وذوي النَّسَب من الفضلاء أولي الدَّماثة والوقار. واستوزر الرئيس أبا عبد الله ابن الرئيس أبي عبد الله الرَّمِيمي. واستوزر الوزير أبا يحيىٰ ابن الكاتب من أهل حضرته، وغيرهم ممن تبلغ به الشهرة مبلغًا فيهم.

كُتّابه: كتب له من الجلّة جماعة، كالكاتب المحدِّث الشهير أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن سعيد اليحصُبي اللَّوشي، ولما توفي كتب عنه ولده أبو بكر بن محمد. هؤلاء مشاهير كُتَّابه، ومن المرؤوسين أعلام، كأبي بكر بن خطاب وغيره.

قضاته: ولي له قضاء الجماعة، القاضي العالم الشهير، أبو عامر يحيىٰ بن عبد الرحمـٰن بن ربيع الأشعري، من جِلّة أهل الأندلس في كِبَر البيت، وجلالة المنصب، وغزارة العلم. ثم ولي بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الجليل بن غالب الأنصاري الخَزْرجي. ثم ولي بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد السلام التميمي، وهذا الرجل من أهل الدين والأصالة، وآخر قضاة العدل. ثم ولي بعده الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عياض بن موسى اليحصبي. ثم ولي بعده الفقيه القاضي الحسيب أبو عبد الله بن أضْحَى، وبيته شهير، ولم تطل مدته. وولي بعده آخر قضاته أبو بكر محمد بن فتح بن علي الإشبيلي، الملقب بالأشْبِرون.

الملوك على عهده:

بمرّاكُش المأمون إدريس، مأمونُ الموحِّدين، مُزاحمًا بأبي زكريا يحيىٰ بن الناصر بن المنصور بن عبد المؤمن بالجَبَل. ولما توفي المأمون ولي الرشيد أبو محمد عبد الواحد في سنة ثلاثين وستمائة، ووَلي بعده أبو حفص عمر بن إسحٰق المرتضى، إلى أن قتله إدريس الواثق أبو دَبُوس في عام خمسة وستين. وولي بعده يسيرًا بنو عامر بن علي بمراكش، وتعاقب منهم على عهده جِلّة؛ كالأمير عثمان وابنه حَمو، وأخيه أبي يحيىٰ بن عبد الحق. واستمرّ الملك في أسنّ أملاكهم، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق بن مَحْيُو إلى آخر أيامه.

وبتلمسان، شبيهه يَغْمْراسن بن زيَّان، أول ملوكهم، وتقدمه أخوه أكبر منه برهة. ويَغْمْراسن أول من أثّل الملك، وحاز الذّكر، واستحق الشهرة.

وبتونس، الأمير أبو زكريا يحيىٰ بن عبد الواحد بن أبي حفص. وَخاطبه السلطان المترجم به، والتمس رِفْدَه، وقد حصل على إعانته، ووَلي بعد موته ولده المستنصر أبو عبد الله، ودامت أيامه إلى أول أيام ولد السلطان المترجم له عام أربعة وسبعين.

وبقشتالة هِراندة بن ألهنشة بن شانجُه الإنبرَطور. وهراندة هذا هو الذي ملك قرطبة وإشبيلية، ولما هلك ولي بعده ألْفُنش ولده ثلاثًا وثلاثين سنة، واستمرّ ملكه مدة ولايته، وصدْرًا من دولة ولده بعده.

وبَرغُون جايمش ابن بِطْرُه ابن ألْفُونش قُمْط بَرْجلونه. وجايمش هذا هو الذي ملك بَلَنْسية وصيّرها دار ملكه من يد أبي جميل زيّان بن مَرْدَنيش.

لمع من أخباره: قام ابن أبي خالد بدعوته بغرناطة، كما ذكر في اسمه، ودعاه وهو بجيّان، فبادر إليها في أُخريات رمضان من عام خمسة وثلاثين وستمائة، بعد أن بعث إليه المَلأُ من أهلها ببيعتهم مع رجلين من مَشْيختهم؛ أبي بكر[١] الكاتب، وأبي جعفر التِّيزولي.

قال ابن عِذَاري في تاريخه[٢]: أقْبَل وما زيُّه بفاخر، ونزل[٣] عَشي اليوم الذي

(١) في البيان المغرب ـ قسم الموحدين (ص ٣٤٢): «أبي بكر ابن الكاتب، وأبي جعفر النمزولي».
(٢) البيان المغرب ـ قسم الموحدين (ص ٣٤٢).
(٣) في البيان المغرب: «ونزل بخارج غرناطة على أن يدخلها من الغد غدوًا ثم بدا له غير ذلك فدخلها مع غروب الشمس يوم نزوله».

وصل بخارج غَرناطة، على أن يدخلها من الغد، ثم بدا له فدخلها عند غروب الشمس، نظرًا للحزم.

وحدّث أبو محمد البَسْطي قال[١]: عاينته[٢] يوم دخوله وعليه شاشِيّة[٣] مِلفٌ مضلعة أكتافُها مُخَرّقة[٤]. وعندما نزل بباب جامع القصبة، كان مؤذن المغرب في الحَيْعلة، وإمامه يومئذ أبو المجد المرادي قد غاب، فدفع الشيخُ السلطانَ إلى المحراب، وصلّى[٥] بهم، على هيئته تلك، بفاتحة الكتاب. و﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾[٦]. والثانية بـ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[٧]. ثم وصل قصر باديس، والشمع بين يديه[٨].

وفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة، صالح طاغية الروم، وعقد معه السَّلم الذي طاحت في شروطه جيّان. وكان واقع بالعدو الراتب تجاه حَضْرته، المختص بحصن بليلش على بريد من الحضرة، وكان الفتح عظيمًا، ثم حالفه الصُّنع بما يضيق المجال عن استيعابه. وفي حدود اثنين وستين وستمائة صالح طاغية الروم، وعقد معه السلم، وعقد البيعة لولي عهده، واستدعى القبائل للجهاد.

مولده: في عام خمسة وتسعين وخمسمائة بأرْجُونة، عام الأَرَك[٩].

وفاته: في منتصف جمادى الثانية من عام واحد وسبعين وستمائة، وَرَدَ عليه وقد أَسنّ، جملة من كُتّاب الزّعائم، يقودون جيشًا من أتباعهم، فبرز إلى لقائهم بظاهر حَضْرته، ولما كرّ آيبًا إلى قصره، سقط ببعض طريقه، وخامره خَصَر، وهو راكب، وأردفه بعض مماليكه، واسمه صابر الكبير، وكانت وفاته ليلة الجمعة التاسع

---

(١) النص في البيان المغرب ـ قسم الموحدين (ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣).
(٢) في البيان المغرب: «فعاينتُه».
(٣) في المصدر نفسه: «دخوله بشاية». والشاية والشاشية: لباس حربي محشو بالقطن لوقاية المحارب.
(٤) في المصدر نفسه: «مقطعة».
(٥) في المصدر نفسه: «فصلّى بهم على هيئة سفره بفاتحة...».
(٦) سورة النصر ١١٠، الآية ١.
(٧) سورة الإخلاص ١١٢، الآية ١.
(٨) في البيان المغرب: «ثم خرج إلى قصر باديس ابن حبوس والشمع بين الأبواب يتّقد...».
(٩) كانت وقعة الأرك سنة ٥٩١ هـ وليس سنة ٥٩٥ هـ، وذلك بين المنصور يعقوب بن يوسف الموحدي وجيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن، وكان النصر فيها للموحدين، وكان عدد قتلى النصارى ثلاثين ألفًا، واستشهد من المسلمين نحو الخمسمائة. البيان المغرب ـ قسم الموحدين (ص ٢١٨).

والعشرين لجمادى الثانية المذكورة، ودفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسَنام السَّبيكة، وعلى قبره اليوم منقوش:

«هذا قبر السلطان الأعلى، عزّ الإسلام، جمال الأنام، فخر الليالي والأيام، غياث الأمة، غيث الرحمة، قطب الملة، نور الشريعة، حامي السنّة، سيف الحق، كافل الخلق، أسد الهيجاء، حِمام الأعداء، قوام الأمور، ضابط الثغور، كاسر الجيوش، قامع الطغاة، قاهر الكفرة والبغاة، أمير المؤمنين، علم المهتدين، قدوة المتقين، عصمة الدين، شرف الملوك والسلاطين، الغالب بالله، المجاهد في سبيل الله، أمير المسلمين، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الأنصاري، رفعه الله إلى أعلى عِليّين، وألحقه بالذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصِّدِّيقين، والشهداء والصالحين. ولد، رضي الله عنه، وأتاه رحمة من لدنه، عام أحد وتسعين وخمسمائة، وبويع له يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان عام خمسة وثلاثين وستمائة، وكانت وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع والعشرين لجمادى الآخرة عام أحد وسبعين وستمائة، فسبحان مَن لا يفنى سلطانه، ولا يَبيد ملكه، ولا ينقضي زمانه، لا إله إلّا هو الرحمٰن الرحيم».

ومن جهة أخرى: [البسيط]

هذا محلّ العُلى والمجد والكرم ... قبر الإمام الهمام الطاهر العلمِ
لله ما ضمَّ هذا اللحد من شرف ... ومن شِيم عُلْوية الشِّيم
بالجود والباس ما تحوي صفائحه ... لا بأس عَنْترة ولا ندى هَرم
مُغني الكرامة والرضوان يعهده ... فخر الملوك الكريم الذات والشِيم
مقامُه في كلا يومي ندًى ووغى ... كالغيث في مجد وكالليث في أَجم
مآثر تُليت آثارها سورًا ... تقرّ بالحق فيها جملة الأمم
كأَنه لم يسر في محفل لَجِبٍ ... تضيق عنه بلاد العُرْب والعجم
ولم يباد العدا منه ببادرة ... يفتر منها الهدى عن ثغر مبتسم
ولم يجهز لهم خيلا مضمرة ... لا تشرب الماء إلّا من قُلَيب دَمِ
ولم يقم حكم عدل في سياسته ... تأوي رعيته منه إلى حُرَم
مَن كان يجهل ما أولاه من نعم ... وما حواه لدين الله من حُرم
فتلك آثاره في كل مَكْرَمة ... أبدى وأوضح من نار على علم
لا زال تَهمِي على قبر تضمّنه ... سحائب الرحمة الوكّافة الدِّيم

محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر ابن محمد بن أبي الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، المنصور بن أبي عامر(١)

مُعَظَّم الظَّفَر، وخِذْن السَّعْد، وملقى عُصِيِّ الجدّ، وجوُّ رياح الشهرة، وديوان فنون السياسة، وحجاجُ الدولة العَبْشميّة(٢)، في التُّخوم المَغْربية، المَزيُّ(٣) بالظَّرف وكمال السَّجية، والجهاد العظيم، العريق في بحْبوحة بلاد الكفار، رحمه الله تعالى.

أوّليَّته: دخل جَدُّه عبد الملك الأندلس مع طارق مولى موسى بن نصير في أول الداخلين من المغرب، وكان له في فتحها أثرًا جميلًا، وإلى ذلك أشار مادحه محمد بن حسان(٤): [الطويل]

وكلُّ عدوٌ أنتَ تهزمُ(٥) عَرْشَهُ   وكلُّ فُتُوح عنكَ يُفْتَحُ بابُها
وإنَّكَ(٦) مِنْ عبد المليك الذي له   حُلى فتْحِ قَرْطاجَنَّةَ(٧) وانتهابُها

ونزل عبد الملك الجزيرة الخضراء لأول الفتح، فساد أهلَها، وكثُر عَقِبه بها؛ وتكررت فيهم النَّباهة، وجاوروا الخلفاء بقرطبة. وكان والد محمد هذا، من أهل الدين والعفاف والزهد في الدنيا والقُعود عن السلطان. سمع الحديث، وأدّى الفريضة، ومات منصرفًا عن الحج بإطْرابُلس.

حاله: كان هذا الرجل بِكْرَ الدهر، وفائدة الأيام، وبَيْضَةَ العمر، وفرد الخلق في اضطراد السَّعد، وتَمَلد العاجل من الحظ، حازمًا، داهية، مشتملًا على أقطار السؤدد، هويًا إلى الأقاصي، وطموحًا، سوسًا حَمِيًا، مُضطنعًا للرجال، جالبًا

---

(١) ترجمة المنصور العامري في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥٦) والذخيرة (ق ٤ ص ٥٦) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٥٩) والحلة السيراء (ج ١ ص ٢٦٨) ومطمح الأنفس (ص ٣٨٨) وجذوة المقتبس (ص ١٧، ٧٨) وبغية الملتمس (ص ٢١، ١١٥) والمعجب (ص ٧٢) وكتاب العبر (م ٤ ص ٣١٨) والمغرب (ج ١ ص ١٩٥) والمختصر في أخبار البشر (ج ٢ ص ١١٧، ١٣٦) وتتمة المختصر في أخبار البشر (ج ١ ص ٤٧٧) ونفح الطيب (ج ١ ص ٣٨٢).
(٢) العبشمية: نسبة إلى عبد شمس، وهي من أوصاف الدولة الأموية. محيط المحيط (شمس).
(٣) المزيّ: الظريف. محيط المحيط (مزي).
(٤) البيتان في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥٦) وجاء فيه أن المادح هو محمد بن حسين الشاعر العالم بأخبار الأندلس.
(٥) في البيان المغرب: «تَهْدِمُ».
(٦) في الأصل: «برأيك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من البيان المغرب.
(٧) في الأصل: «قرطبة» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من البيان المغرب.

للأشراف، مستميلًا للقلوب، مُطْبقًا المفاصل، مُزيحًا للعِلل، مستبصرًا في الاستبداد، خاطبًا جميل الذكر، عظيم الصبر، رحيب الذَّرْع، طموح الطرف، جَشِع السيف، مُهادي جياد العقاب والمَثُوبة، مَهِيبًا، جَزْلًا، مُنْكسف اللون، مُصْفِر الكفّ، آية الله، جلّ جلاله، في النَّصْر على الأعداء ومصاحبة الظَّفر، وتوالي الصُّنع.

نباهته: قال المؤرخ[١]: سلك سبيل القضاء[٢] في أوّليّته، مقتفيًا آثار عُمُومته وخُؤولته، يطلب[٣] الحديث في حداثته. وكتب منه كثيرًا، ولقي الجلّة من رجاله، ثم صحب الخليفة الحكم[٤] مُتحزِّبًا في زُمْرته، وولي له الأعمال من القضاء والإمامة، ثم استكفاه، فعدل عن سبيله، وصار في أهل الخدمة. ثم اختصّه بخدمة أمّ ولده هشام، فزاد بخاصَّته لولي العهد، عزًّا ومكانةً من الدولة، فاحتاج الناس إليه، وغَشَوا بابه، وبلغ الغاية من أصحاب السلطان معه، إسعافٌ، وكَرَم لقاء، وسهولةُ حجاب، وحُسْن أخلاق، فاستطار ذكره، وعُمِّر بابُه، وساعده الجَدّ. ولمّا صار أمر المسلمين إليه، بلغ[٥] التي لا فوقها عزًّا وشهرة.

الثناء عليه: قال: وفي الدولة العامرية، وأعين محمد على أمره، مع قوة سعده، بخصال مُؤلفة لم تجتمع لمن قبله، منها الجود، والوقار، والجَدُّ والهيبة، والعدل والأمن، وحبّ العمارة، وتأمير المال، والضبط للرعية، وأخذهم بترك الجدل والخلاف والتَّشغُّب، من غير وَهَن في دينه، وصحّة الباطن، وشرح كل فضل، وجَلْب كلّ ما يوجب عن المنصور فيه.

غزواته وظهوره على أعدائه:

واصل، رحمه الله، الغزو بنفسه، فيما يناهز خمسين غزوة، وفتح فيها البلاد، وخَضَد شوكة الكفر، وأذلّ الطواغيت وفضّ مصاف الكفّار، وبلغ الأعماق، وضرب على العدو الضرائب، إلى أن تلقّاه عظيم الروم بنفسه وأتحفه بابنته في سبيل الرغبة في صِهْره، فكانت أحظى عقائله، وأبرّت في الدين والفضل على سائر أزواجه، وعقد اثني عشر بروزًا إلى تلقي ملوك الروم القادمين عليه مُضْطَهرين بإلحاح سيفه، مُنكبِّين على لَثْم سريره.

---

(١) النص في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨) بتصرف.

(٢) في البيان المغرب: «القضاة». (٣) في البيان المغرب: «فطلب».

(٤) هو خليفة الأندلس الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر، المعروف بالحكم المستنصر، وقد حكم الأندلس من سنة ٣٥٠ هـ إلى سنة ٣٦٦ هـ.

(٥) في الأصل: «فبلغ».

شعره: ومما يؤثر من شعره[١]: [الطويل]

رَمَيتُ بنفسي هَوْلَ كلّ عظيمةٍ[٢] وخاطَرْتُ والحُرُ الكريمُ يُخاطرُ[٣]
وما صاحبي إلّا جَنانٌ مُشَيَّعٌ وأَسْمَرُ خَطِّيٌّ وأَبْيَضُ باتِرُ[٤]
ومن شيمتي[٥] أني على كلّ[٦] طالبِ أجودُ بمالٍ لا تقيه المعاذرُ
وإني لزجّاء الجيوش إلى الوغى أسودٌ تلاقيها أسودٌ خوادر
فَسُدْتُ[٧] بنفسي أهلَ كلّ سيادة وكاثرْتُ[٨] حتى لم أجِدْ مَنْ أُكاثر
وما شِدْتُ بنيانًا[٩] ولكنْ زيادةً على ما بَنى عبدُ المليكُ وعامِرُ
رَفَعْنا العَوالي[١٠] بالعوالي سياسةً[١١] وأَوْرَثْناها في القديم مَعافِرُ[١٢]

وبلغ في مُلكه أقطار المغرب، إلى حدود القِبلة[١٣]، وبمدينة فاس، إثر ولده المُقلَّد فتح تلك الأقطار، ونَهد أولئك الملوك الكبار.

دخوله غرناطة: قال صاحب الديوان في الدولة العامرية، وقد مرّ ذكر المنصور، قُومس الفِرنجة بمدينة برشلونة: وهذه الأمة أكثر النصرانية جَمْعًا، وأوسعها، وأوفرها من الاستعداد، وما أوطىء من الممالك والبلاد، وفتح من القواعد، وهُزم من الجيوش. وقفل المنصور عنها، وهو أطمع الناس في استئصالها؛ ثم خصَّهم بصائفة سنة خمس وسبعين، وهي الثالثة عشرة[١٤] لغزواته؛

---

(١) الأبيات في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٧٤) والحلة السيراء (ج ١ ص ٢٧٤) ونفح الطيب (ج ١ ص ٣٨٣). وورد منها ثلاثة أبيات في المغرب (ج ١ ص ٢٠٣).
(٢) في البيان المغرب: «كريهة».
(٣) في البيان المغرب والحلة السيراء: «مخاطرُ».
(٤) الجَنان: القلب. المُشَيَّع: الجريء. الأسمر: الرمح. الخطيّ: المنسوب إلى الخط وهو موضع باليمامة كانت تصنع منه الرماح. الأبيض: السيف. لسان العرب (جنن) و(شيع) و(سمر) و(خطط) و(بيض).
(٥) في الحلة السيراء: «شيمي».
(٦) كلمة «كلّ» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الحلة السيراء.
(٧) في الحلة والبيان: «لَسَدْتُ».
(٨) في النفح: «وفاخرْتُ... من أفاخر».
(٩) في المغربْ: «بيتًا لي».
(١٠) في الأصل: «العلى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر الأربعة.
(١١) في المغرب: «بسالةً». وفي الحلة: «حديثَهُ». وفي البيان المغرب والنفح: «حديثةً».
(١٢) رفعنا العوالي: رفعنا المجد. والعوالي: الرماح. معافر: قبيلة المنصور العامري.
(١٣) تقع بلاد القبلة في جنوب المغرب.
(١٤) في الأصل: «عشر» وهو خطأ نحوي.

وقد احتفل لذلك، واستبلغ في النَّفير، واستوفى أتمّ الأُبّهة، وأكمل العُدَّة، فجعل طريقه على شرقي الأندلس؛ لاستكمال ما هنالك من الأطعمة، فسلك طريق إلْبِيرة، إلى بَسْطة، إلى تُدْمير؛ وعزم في هذه الغزوات بُريل ملك فرَنجة ونازل مدينة برجلونة؛ فدخلها عَنْوة يوم الاثنين النصف من صفر، سنة أربع وسبعين أو خمس بعدها.

قلت: وفي دخول المنصور بجيشه بلد إلْبيرة؛ ما يحقق دعوى مَن ادَّعى دخول المعتمدين من أهل الأندلس لذلك العهد؛ إذ كان يصحب المنصور في هذه الغزوة، من الشعراء المرتزقين بديوانه من يذكر؛ فضلًا عن سائر الأصناف على ندارة هذا الصنف من الخدام؛ بالنسبة للبحر الزاخر من غيرهم.

والذي صحّ أنه حضر ذلك، أبو عبد الله محمد بن حسين الطُّبني، أبو القاسم حسين بن الوليد، المعروف بابن العريف، أبو الوضّاح بن شُهَيد، عبد الرحمٰن بن أحمد، أبو العلا صاعد بن الحسن اللغوي، أبو بكر زيادة الله بن علي بن حسن اليمني، عمر بن المنجم البغدادي، أبو الحسن علي بن محمد القرشي العباسي، عبد العزيز بن الخطيب المحرود، أبو عمر يوسف بن هارون الزيّادي، موسى بن أبي طالب، مروان بن عبد الحكم بن عبد الرحمٰن، يحيىٰ بن هُذَيل بن عبد الملك بن هذيل المكفوف، سعد بن محمد القاضي، ابن عَمْرون القرشي المرواني، علي النقاش البغدادي، أبو بكر يحيىٰ بن أمية بن وَهَب، محمد بن إسماعيل الزبيدي، صاحب المختصر في اللغة، أحمد بن درّاج القَسْطَليّ، مُتَنَبيّ الأندلس، أبو الفرج مُنِيل بن مُنيل الأشجعي، محمد بن عبد البصير، الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد، محمد بن عبد الملك بن جَهْوَر، محمد بن الحسن القرشي، من أهل المشرق، أبو عبيدة حسان بن مالك بن هاني، طاهر بن محمد المعروف بالمُهَنَّد، محمد بن مُطَرِّف بن شُخَيص، سعيد بن عبد الله الشَّنْتريني، وليد بن مَسْلَمَة المرادي، أغلب بن سعيد، أبو الفضل أحمد بن عبد الوهاب، أحمد بن أبي غالب الرُّصافي، محمد بن مسعود البَلْخي، عُبادة بن محمد بن ماءِ السماء، عبد الرحمٰن بن أبي الفهد الإلْبِيري، أبو الحسن بن المضيء البَجْلي الكاتب، عبد الملك بن سهل، الوزير عبد الملك بن إدريس الجزيري، قاسم بن محمد الجيّاني.

قال المؤرخ: هؤلاء مَنْ حفظْته منهم، وهم أكثر من أن يحصوا، فعلى هذا يتبنى القياس في ضخامة هذا الملك، وانفساح هذا العِزّ.

وفاته: توفي، رحمه الله، منصرفًا من غَزَاته المسمّاة بقَنالش والرِّيد، وقد دوّخ أقطار قَشْتالة، ليلة الاثنين سبع وعشرين لرمضان عام اثنين وتسعين وثلاثمائة[١]، وقد عهد أن يُدفن ببلد وفاته، بعد وصية شهيرة صدرت عنه، إلى المُظفَّر ولده، فدفن بمدينة سالم، التي بناها في نَحْر العدو من وادي الحجارة، وبقَصْرها، وقبره معروف إلى اليوم. وكان قد اتخذ له من غُبار ثيابه الذي علاها في الجهاد، وعاء كبيرًا بحديه، رحمه الله. وكُتب على قبره هذا الشعر[٢]: [الكامل]

آثارُهُ تُنبيكَ عن أخْبارِهِ[٣] حتى كأنَّكَ بالعِيانِ[٤] تَراهُ
تاللهِ لا يأتي الزمانُ بِمِثْلِهِ أبدًا ولا يَحْمي الثغورَ سِواهُ[٥]

محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل ابن قريش بن عباد بن عمرو بن أسْلَم بن عمرو بن عِطاف ابن نعيم، لخمي النسب[٦]

أوَّليَّته: دخل الأندلس جَدُّه عطاف مع بَلْج بن بشر القشيري، من أشراف الطّالعة البلجية، وهم من عرب حمص من أرض الشام، وموضعه بها يعرف بالعَريش في آخر الجفار بين مصر والشام. ونزل عِطاف بقرية تعرف بيومين من إقليم طُشَانة على ضفة النهر الأعظم من أرض إشْبِيلية. ولمّا هلك قريش، ورث السيادة إسماعيل بن قريش، وهو القاضي المشهور بالفضل والدهاء، يكنّى أبا الوليد. وَلِيَ الشرطة الوسطى لهشام بن الحكم، وخُطَّة الإمامة إلى صلاة الجمعة. ثم خلفه أبو القاسم المنفرد برئاسة إشبيلية، المُتْحف فيها بخُطَط الوزارتين والقضاء

---

(١) في كتاب العبر لابن خلدون: هلك المنصور سنة ٣٧٤ هـ بعد ٢٧ سنة من ملكه. وفي جذوة المقتبس وبغية الملتمس والمعجب والمختصر في أخبار البشر، وتتمة المختصر في أخبار البشر: توفي المنصور سنة ٣٩٣ هـ.

(٢) البيتان في البيان المغرب (ج ٢ ص ٣٠١) والحلة السيراء (ج ١ ص ٢٧٣) والمغرب (ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

(٣) في المغرب: «عن أوصافه».

(٤) في البيان المغرب: «بالعيون».

(٥) رواية البيت في البيان المغرب هي:

تاللهِ ما مَلَكَ الجزيرةَ مِثْلُهُ حَقًّا ولا قادَ الجيوشَ سِواهُ

(٦) ترجمة المعتمد بن عباد في قلائد العقيان (ص ٤) والذخيرة (ق ٢ ص ٤١) والمعجب (ص ١٥٨) والحلة السيراء (ج ٢ ص ٥٢) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٥٧) والبيان المغرب (ج ٣ ص ٢٤٤، ٢٥٧) والوافي بالوفيات (ج ٣ ص ١٨٣) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٧٤) والصلة (ص ٤٩٩، في ترجمة القاضي عبد الرحمٰن بن سوار).

والمظالم. وعزّ جاهه، وكثرت حاشيته، وتعدَّدت غلمانه، وأذعنت له عُداته. ثم خلفه الأمير المعتضد ولده، وكان خيّرًا حازمًا، سديد الرأي، مَصْنُوعًا له في الأعداءِ، فلمّا توفي، تصيَّر الأمر إلى ولده المترجم به، المكني أبا القاسم إلى حين خلعه.

حاله: قالوا كلُّهم: كان المعتمد، رحمه الله، فارسًا شجاعًا، بطلًا مِقْدامًا، شاعرًا ماضيًا، مشكور السيرة في رعيته. وقال أبو نصر في قلائده[١]: «وكان المعتمد على الله ملكًا قمع العدا، وجمع[٢] بين البأس والنَّدا، وطلع على الدنيا بَدْرَ هُدى، لم يتعطل يومًا كفُّه ولا بنانه، آونة يراعه وآونة سنانُه، وكانت أيامه مواسم، وثغور[٣] برّه بواسم». لقبه أولًا الظّافر، ثم تلقب[٤] بالمعتمد، كَلَفًا بجاريته اعتماد، لمّا ملّكها، لتتَّفق حروف لقبه بحروف اسمها، لشدة ولوعه بها.

وزراؤه: ابن زَيْدون. وابن عمّار، وغيرهما.

أولاده المُمَلَّكون: عبيد الله، يكنى أبا الحسن، وهو الرَّشيد، وهو الذي لم يوافق أباه على استِصْراخ المرابطين، وعَرّض بزوال الملك عنهم، فقال: أحبُّ إليّ أن أكون راعي إبل بالعُدْوة من أن ألقى الله، وقد حُوِّلت الأندلس دار كفر، وكان قد ولّاه عهده، وبويع له بإشبيلية، وهو المحمول معه إلى العدوة. ثم الفَتْح، وهو الملقب بالمأمون، كان قد بويع له بقرطبة، وهو المقتول بها، المُحْمَل رأسه إلى محلَّة العدوِّ المرابطين، المحاصرة لأبيه بإشبيلية. ثم يزيد الراضي، وكان قد ولّاه رُنْدَة، فقتل لما مَلَكها اللمتُونيُون. ثم عبد الله، ويكنّى أبا بكر. هؤلاء الأربعة من جاريته اعتماد، السيدة الكبرى، والمدعوة بالرُّميكِيّة منسوبة إلى مولاها رُمَيْك بن حجاج، الذي ابتاعها منه المعتمد.

ملمّته: لمّا تكالب أذفونش بن فردِلاند على الأندلس بعد أخذه مدين طُلَيْطلة ضيق بالمعتمد، وأجحف في الجزية التي كان يَتّقي بها على المسلمين عاديته، وعلى ذلك أقسم أخذها وتجنّى عليه، وطمع في البلاد، فحكى بعض الإخباريين أنه وجّه إليه رسله في آخر أمره لقبض تلك الضريبة، مع قوم من رؤساء النصارى، ونزلوا خارج باب إشبيلية، فوجّه إليهم المال، مع بعض الوزراء، فدخلوا على اليهودي

---

(١) قلائد العقيان (ص ٤).
(٢) كلمة «بين» غير واردة في القلائد.
(٣) في الأصل: «وثغوره برّة»، والتصويب من القلائد.
(٤) عن لقبه بالمعتمد لتتفق حروف لقبه بحروف اسم زوجته اعتماد ورد في الحلة السيراء (ج ٢ ص ٦٢).

المذكور في خبائه، وأخرجوا المال، فقال لهم: لا أَخَذْتُ منه هذا العيار ولا أخذت منه إلّا ذهبًا مشجّرًا، ولا يؤخذ منه في هذا العام إلّا أجفان البلاد، ونُقل كلامه إلى المعتمد، فبادر بالقبض عليه وعلى النصارى، ونكّل بهم، وقُتل اليهودي بعد أن بذل في نفسه زنة جسمه ذهبًا، فلم يُقبل منه، واحتبس النصارى، وراسله الطاغية في إطلاقهم، فأبى إلّا أن يُخلي منه حصن الحدود، فكان ذلك. واستصرخ اللُّمتُونيِّين، وأجاز البحر بنفسه، وأقسم الطاغية بإيمانه المغلَّظة ألّا يرفع عنه يده. وهاجت حفيظة المعتمد، واجتهد في جواز المرابطين، وكان مما هو معلوم من الإيقاع بالطاغية في وقْعَة الزَّلَاقة[١]، فإنه الذي أصلى نارها بنفسه، فعظم بلاؤه، وشَهُر صبره، وأصابته الجراح في وجهه ويده، رحمه الله. وفي ذلك يقول أبو بكر بن عُبادة المرّي[٢]: [الوافر]

وقالوا كَفُّهُ جُرِحَتْ فقلْنا	أعاديه تُواقِعها[٣] الجراحُ
وما أَثَرُ[٤] الجراحةِ ما رأيتمْ	فَتُوهِنُها المَناصِلُ والرِّماحُ
ولكنْ فاضَ سَيْلُ البأس[٥] منها	ففيها من مجاريه انْسِياح[٦]
وقد صَحَّتْ وسَحَّتْ بالأماني	وفاضَ الجودُ منها والسَّماحُ
رأى منه أبو يعقوب فيها	عُقابًا لا يُهاض له جناح[٧]
فقال له لك القِدْحُ المُعَلَّى	إذا ضُرِبَتْ بمشهدك القِداحُ

ولما اتصلت به الصَّيحة؛ بين يدي دخول المدينة، ركب في أفراد من عبيده؛ وعليه قميص يَشِفُّ عن بدنه، والسيف مُنتضًى بيده، ويمّم باب الفَرَج، فقدَّم الداخلين، فردّهم على أعقابهم؛ وقتل فارسًا منهم؛ فانزعجوا أمامه؛ وخَلَّفوا الباب؛ فأمر بإغلاقه؛ وسكنت الحال؛ وعاد إلى قصره. وفي ذلك

(١) كانت وقعة الزلاقة في سنة ٤٧٩ هـ بين المرابطين وملوك الطوائف من جهة والإسبان من جهة ثانية. وكان النصر فيها للمسلمين. وهناك دراسة مستفيضة عنها في كتاب: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ١٨٣ ـ ٢٠٤) فلتنظر.

(٢) هو أبو بكر بن عبادة، المعروف بابن القزاز، والأبيات في قلائد العقيان (ص ١٣) والمغرب (ج ٢ ص ١٣٥) وأعمال الأعلام (القسم الثالث ص ١٤٩).

(٣) في المغرب: «تُوافقُها».

(٤) في الأصل: «وما لمرتد» والتصويب من القلائد والمغرب.

(٥) في المغرب «الجود».

(٦) رواية عجز البيت في المغرب هي: فأمسى في جوانبها انسياح.

(٧) هذا البيت والذي يليه غير واردين في المغرب.

يقول[١]: [مجزوء الكامل]

إن يَسْلُبِ القومُ العِدا[٢] مُلْكي وتُسْلمني الجُموعْ
فالقَلْبُ بين ضلوعه لم تُسْلم القَلْبَ الضُّلوعْ
قد رُمْتُ يومَ نِزالهمْ ألّا تُحَصِّنَني الدُّرُوعْ
وبرزتُ ليس سوى القميـ ـص عن الحَشا شيءٌ دَفُوعْ
أجلي تأخَّرَ لم يكنْ بهواي ذُلّي والخُضوع
ما سِرْتُ قَطُّ إلى القتا لِ[٣] وكان من أملي الرجوع
شِيَمُ الأُولى[٤] أنا منهمُ والأصْلُ تتبعه الفروع

جوده: وأخبار[٥] جُوده شهيرة، ومما يُؤثر من ذلك، على استصحاب حال العزّ، ووفور ذات اليد، وأدوات الملك، غريب. والشاهد المقبول بقاء السجيّة ومصاحبة الخُلُق الملكية، مع الإقتار والإيسار، وتقلّب الأطوار. وتعرَّض له الحُصْري القرموني الضرير بخارج طنجة؛ وهو يجتاز عليها في السواحل من قَهْر واعتقال، بأشعار ظاهرة المَقْت، غير لائقة بالوقت، ولم يكن بيده، زعموا، غير ثلاثين دينارًا[٦] كانت بخُفِّه، معدَّة لضرورة ضَرَر وأزمة، وأطبع عليها دمه، وأدرج قطعة شعر طيَّها اعتذار عن نَزْرها، راغبًا في قبول أمرها، فلم يراجعه الحصري بشيء عن ذلك، فكتب إليه[٧]: [مجزوء الرمل]

قُلْ لمن جَمَعَ العِلْـ ـمَ وما[٨] أحْصى صَوابَهْ
كان في الصُّرّة شِعْرٌ فَتَنَظَّرْنا[٩] جوابَهْ
قد أَثَبْناك[١٠] فهلّا جَلَبَ الشِّعْرُ جوابه[١١]؟

---

(١) الأبيات في ديوان المعتمد بن عباد (ص ٨٨ ـ ٨٩) وقلائد العقيان (ص ٢١ ـ ٢٢) والحلة السيراء (ج ٢ ص ٦٥ ـ ٦٦).
(٢) رواية صدر البيت في الحلة السيراء هي: إن تستلب عنّي الدُّنا.
(٣) في الحلة السيراء: «إلى الكماة». (٤) في الديوان: «الألى».
(٥) قارن بالذخيرة (ص ٢ ص ٦٦ ـ ٦٧). (٦) في الذخيرة (ق ٢ ص ٦٧): «مثقالاً».
(٧) الأبيات في ديوان المعتمد بن عباد (ص ٩١) والذخيرة (ق ٢ ص ٦٧) والمعجب (ص ٢٠٦).
(٨) في الذخيرة: «ومن».
(٩) في الأصل: «فانتظرنا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان والمصدرين الآخرين.
(١٠) في الأصل: «أتيناك» وهو تحريف، والتصويب من الديوان والمصدرين الآخرين.
(١١) في الديوان والمصدرين الآخرين: «ثوابه».

حلمه: رُفع إليه صَدْرَ دولته شعر، أُغري فيه بأبي الوليد بن زيدون، وهو شهير، وتُخيِّر له موقع وتَرَصُّد حين، وانتظر به مُؤْجره، وهو[١]: [الكامل]

يا أيها الملك الأعزّ[٢] الأعظمُ ... اقطعْ وريدَيْ كلّ باغٍ يُسْلم[٣]

واحسمْ بسيفكَ داءَ[٤] كلّ منافقٍ ... يُبْدي الجميلَ وضدُّ ذلك يكتُم

لا تتركَنْ للناس موضعَ شُبْهةٍ[٥] ... واحزمْ فمثلك في العظائم يحزم

قد قال شاعرُ كِنْدةٍ فيما مضى ... قولًا[٦] على مرّ الليالي يُعْلَمُ

«لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرفيعُ من الأذى ... حتى يُراقَ على جوانبه الدَّم[٧]»

فوقّع على الرقعة[٨]: [الكامل]

كَذَبَتْ مُناكُمْ، صرِّحوا أو جَمْجموا ... الدِّينُ أَمْتَنُ والسجيَّةُ[٩] أكْرَمُ

خُنْتُمْ ورُمْتُمْ أن أخُونَ وإنما ... حاولتُمُ أن يُسْتَخَفَّ يَلَمْلَمُ[١٠]

وأردْتُمْ تضييقَ صَدْرٍ لم يَضِقْ ... والسُّمْرُ في صَدْرِ[١١] النُّحور تُحَطَّمُ

وزَحَفْتُمُ بِمُحالِكُمْ لمُجَرِّبٍ ... ما زال يَثْبُتُ للمُحال[١٢] فَيَهْزِمُ

أنّى رَجَوْتُمْ غَدْرَ مَنْ جَرَّبْتُمُ ... منه الوفاءَ وظُلْمَ[١٣] مَن لا يَظْلِمُ

أنا ذا[١٤] كُمُ لا السَّعْيُ[١٥] يُثْمِرُ غَرْسُهُ ... عندي ولا مَبْنى الصَّنيعةِ يُهْدَمُ[١٦]

كُفُّوا وإلّا فارقُبوا ليَ بَطْشَةً ... يَبْقى[١٧] السَّفيهُ بمثلها يَتَحَلَّم[١٨]

---

(١) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٥١) وقلائد العقيان (ص ١٤ ـ ١٥).
(٢) في المصدرين: «العليُّ». (٣) في الذخيرة: «ينثم». وفي القلائد: «ييتم».
(٤) كلمة «داء» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المصدرين.
(٥) في القلائد: «تهمة». (٦) في المصدرين: «بيتًا».
(٧) البيت للمتنبي وهو في ديوانه (ص ٦٣٠).
(٨) الأبيات في ديوان المعتمد بن عباد (ص ٦٧) والذخيرة (ص ٢ ص ٥١ ـ ٥٢) وقلائد العقيان (ص ١٥ ـ ١٦).
(٩) في الديوان والذخيرة: «والمروءة».
(١٠) يَلَمْلَمُ: موضع على ليلتين من مكة، وهو ميقات أهل اليمن. معجم البلدان (ج ٥ ص ٤٤١).
(١١) في الديوان والقلائد: «في ثُغَر». وفي الذخيرة: «ما في ثُغَر الصدور».
(١٢) في الديوان: «في المجال». وفي الذخيرة: «في المحال».
(١٣) في الديوان والذخيرة: «وجور». (١٤) في القلائد: «أنا ذلكم».
(١٥) في الديوان والمصدرين: «لا البَغْي». (١٦) في الذخيرة: «يُثْلَمُ».
(١٧) في الديوان والمصدرين: «يُلْقى». (١٨) في الديوان والمصدرين: «فَيُحَلَّمُ».

توقيعه ونثره في البديهة:

كتب مع الحمائم إلى ولده الرشيد عَقِب الفراغ من وقعة الزّلّاقة:

يا بني، ومَن أبقاه الله وسلّمه، ووقاه الأسْواء وعَصَمه، وأسبغ عليه آلاءه وأنعُمَه، كتبته، وقد أعزّ الله الدين، وأظهر المسلمين، وفتح لهم على يدي مستدعيات الفتح المبين، بما يسّره الله في أمْسِه وسناه، وقدّره سبحانه وقضاه، من هزيمة أذفُونش ابن فِرْدلَند لعنه الله وأصلاه، وإن كان طاح للجحيم، ولا أعدمه وإن كان أهْلَ العيش الذَّميم، كما قنعه الخزيُ العظيم. وأتى القتل على أكثر رجاله وحُماته، واتصل النّهب سائر اليوم، والليلة المتصلة به، جميع محلّاته، وجمعٌ من رؤوسهم بين يديّ، من مشهُوري رجالهم، ومذكوري أبطالهم، ولم يختر منهم إلّا من شَهُر وقرّب، وامتلأت الأيدي ممّا سُلب ونُهب. والذي لا مرية فيه، أن الناجي منهم قليل، والمُفْلت من سيوف الجزع والبعد قتيل، ولم يُصبْني بفضل الله إلّا جرح أشوى، وحسن الحال عندنا والله وزَكَى، ولا يُشْغل بذلك بال، ولا يُتَوهم غير الحال التي أشرت إليها حال، والأدفونش بن فرذلاند، إن لم يصبح تحت السيوف فسيموت لا محالة كمدًا، وإن كان لم تعلقه أسراد الحمام فغدًا، فإن برأسه طمرة ولحام. فإذا ورد كتابي هذا، فمُر بجمع الخاص والعام، من أهل إشبيلية، وجيرانها الأقربين، وأصفيائنا المحبين، في المسجد الجامع، أعزّهم الله، وليُقْرأ عليهم فيه، ليأخذوا من المسَرّة بأنصبائهم، ويضيفوا شكرًا لله إلى صالح دُعائهم، والحمد لله على ما صنع حقَّ حَمْده، جلّ المزيد لأمر حين، إلّا من عِنده والسلام.

تلطّفه وظرفه: قال أبو بكر الداني: سألني في بعض الأيام عند قدومي عليه بأغمات، قاضيًا حقّ نعمَته، مُستكثرًا من زيارته، مُستمتعًا برائق أدبه، على حال محنته، عن كُتُبي، فأعلمْته بذهابها في نَهْب حضرته. وكنت قد جَلبْتُ في سَفرتي تلك، الأشعار الستة، بشرح الأستاذ أبي الحجاج الشّنتَمري الأعلم، وكانت مستعارة، فكتمْتها عنه. ووَشى إليه أحد الأصحاب، فخجل بكرمه وحُسن شِيمته، من الأخذ معي في ذكر ما كتمْتُه، فاستطرد إلى ذلك بغرض نبيل، ونحا فيه نحوًا، يغرب عن الشَّرف الأصيل، وأمْلى عليّ، في جملة ما كان يُمْليه: [الكامل]

وكواكبٍ لم أدْرِ قبل وجوهها ... أنّ البدور تدور في الأزرارِ

نادمْتُها في جَنْح ليلٍ دامس ... فأعَرْنه مثلًا من الأنوارِ

في وَسْطِ رَوضة نرجس كعيونها ... ما أشبه النُّوار بالنُّوار

فإذا تواصَفْنا الحديث حَسِبْتَني ... ألْهو بمُلْتقطٍ لدرّ نِثار

فإذا اكتحلْتُ برقٌ ثغرٍ باسم   سَكَبَتْ جُفوني أغزر الأمطار
حَذَرَ الملامِ وخيفةً من جفوة   تذر الصدور على شفيرٍ هار
تركَ الجواري الآنسات مذاهبي   وسَوَّلها ظَفَرٌ بريشة الأشعار

فلم أتمالك عند ذلك ضحكًا، وعلمت أن الأمر قد سُرِّي إليه، فأعلمته قصَّتَها، فبسط العُذر بفضله، وتأوّل الأمر، وقسّم الأشعار، على ثلاثة من بَنيه؛ ذوي خطٍّ رائع، ونقل حَسَن، وأدب بارع، أخذوا في نسخها، وصرفوا الأصل لأجل قريب.

محنته: ولم يلبث أمير اللمتونيين بعد جوازه إلى الأندلس، وظهوره على طائفة الروم، أن فَسَد ما بينه وبين رؤساء الطوائف بالأندلس، وعزم على خلعهم، فأجاز من سَبْتة العساكر، وسِرْب الأمداد. وأخذ المعتمد بالعزم يحصِّن حصونه، وأودع المعاقل عُدَّته، وقسّم على مظان الامتناع ولده، وصَمَدت الجموع صَمْدة بنيه، ونازل الأمير سِيْرُ إشبيليةَ، دار المعتمد، وحَضْرة ملكه، ونازل الأمير محمد ابن الحاج قرطبة، وبها المأمون، ونزل جَرُور من قواده رُنْدة، وبها الرَّاضي ابن المعتمد. واستمرّ الأمر، واتصلت المحاصرة، ووقعت أمور يضيق الكِتاب على استقصائها. فَدُخلت قرطبة في جمادى الآخرة عام أربعة وثمانين وأربعمائة، وقُتل الراضي، وجُلب رأسه فطِيف به بمرأى من أبيه. وكان دخول إشبيلية على المعتمد، دخول القَهْر والغَلبة، يوم الأحد لعشر بقين من رجب، وشملت الغارة، واقتُحمت الدُّور، وخرج ابن عباد في شِكَّته[1]، وابنه مالك في أمَّته معهما، فقُتل مالك الملقب بفخر الدولة ورَهِقت الخيل، وكَثُر، فدخل القصر مُلْقيًا بيده. ولما جَنَّ الليل، وجّه ابنه الأكبر الرشيد إلى الأمير، فحُجب عنه، وَوكِّل بعض خدمه به، وعاد إلى المعتمد فأخبره بالإعراض عنه، فأيقن بالهَلكة، وودَّع أهله، وعلا البكاء، وكَثُر الصُّراخ، وخرج هو وابنه، فأُنزلا في خِباء حصين، ورُقبا بالحرس، وأُخرج الحُرَم من قصره، وضُمّ ما اشتمل عليه، وأمر بالكَتْب إلى ولده برُنْدة ففعل. ولمّا نزل، واستُوصلت ذخيرته، سلا، وأُجيز المعتمد البحر، ومَن معه إلى طنجة، فاستقرَّ بها في شعبان من العام، وفي هول البحر عليه في هذا الحال، يقول رحمه الله: [البسيط]

لم أنْس والموت يُدْنيني ويُقْصيني   والموت كأنَّ المنى يأتيني
أبصرْتُ هوْلًا لو أنَّ الدهرَ أبْصَره   لما خُوِّفا لأمرٍ ليس بالدُّون

---

(١) الشِّكَّة: السلاح وعدَّة الحرب. لسان العرب (شكك).

قد كنت ضانًّا بنفس لا أجود بها فبعْتُها باضطرارٍ بَيْعَ مَغْبون
كم ليلة بتُّ مطويًا على حرق في عَسرٍ من عيون الدبر في العين
فتلك أحسنُ أم ظللت به في ظلّ عزّة سلطان وتمكين؟
ولم يكن والذي تَعْنو الوجوه له عِرْضي مُهانًا ولا مالي بمخزون
وكم خلوْتُ من الهيجا بمعترك والحربُ تَرْفل في أثوابها الجُون
يا ربِّ إن لم تَدَعْ حالًا أُسَرُّ به فهبْ لعبدك أجرًا غير ممنون

وجرى على بناته شيء يوم خروجهن، واضطرتهن الضيقة إلى معيشتهنّ من غزل أيديهن، وجَرَت عليه محن طال لها شَجَنه وأقعده قَيْدُه، إلى أن نقل إلى أغمات وَريكة، وحُلَّ عنه الاعتقال، وأُجري عليه رزقه، تبلَّغ به لمدة من أعوام أربعة، واستَنْقَذَه حِمامه، رحمة الله عليه.

وصوله إلى غرناطة: قال ابن الصَّيرفي: وقد أجرى ذكر تملُّك يوسف بن تاشفين غَرْناطة، وخَلْع أميرها عبد الله بن بُلُقِّين حفيد باديس، يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب عام ثلاثة وثمانين[1]، ولحق ابن عباد[2] وحليفُه ابن مَسْلَمة[3] بخيل ورَجْل ورُماة وعُدَد، وحلَّ ذلك من ابن عباد تضمُّنًا لمسَرَّة أمير المسلمين، وتحقُّقًا بموالاته، فدخلا عليه، وهنَّئاه، وقد تحَكَّمت في نفس ابن عباد الطماعِيَّة في إسلام غرناطة إلى ابنه[4]، بعد استِصْفاء نِعمَة صاحبها، عوضًا عن الجزيرة الخضراء، وكان قد أشْخَصه معه، فعرَّض بغرضه، فأعْرَض أمير المسلمين عن الجميع إعراضًا، كانت مُنية كل منهما التخلُّصَ من يده، والرجوع إلى بلده، فأعمل ابن عباد الحيلة، فكتب، يزعم أنه وردت عليه تحثُّه من إشبيلية في اللحاق أنباء مهمة طَرَقت بتحرك العدو، واستأذن بها في الصُّدور، فأُخذ له ولحليفه ابن مسلمة، فانتهزا الفرصة، وابتَدرا الرجعة، ولحق كل بموضعه يظنّ أنه مَلَك رئاسة أمره.

مولده: ولد المعتمد على الله بمدينة باجة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة. ووُلّي سنة إحدى وستين. وخُلع سنة أربع وثمانين.

---

(١) كذا ورد في الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام (ص ٣٢٠).

(٢) هو المعتمد بن عباد، صاحب إشبيلية. وقصته والمتوكل بن الأفطس مع ابن تاشفين الواردة هنا، انظرها في وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٨٥) والحلل الموشية (ص ٥١ ـ ٥٢) والبيان المغرب (ج ٤ ص ١٢٧، ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٣) هو المتوكل بن الأفطس، صاحب بطليوس. (٤) هو الراضي يزيد ابن المعتمد بن عباد.

وفاته: كانت وفاة المعتمد على الله بأَغْمات في ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، بعد أن تقدمت وفاتُه وفاةَ الحرة اعتماد، وجزع عليها جزعًا أقْرَب سرعةَ لحاقه بها. ولما أحسَّ بالمنية رثى نفسه بهذه الأبيات وأمر أن تُكتب على قبره[1]:

[البسيط]

قَبْرَ الغريبِ سقاكَ الرّائح الغادي	حقًّا ظَفِرْتَ بأشلاءِ ابنِ عَبّادِ
بالحِلْم بالعِلْم بالنُّعمى إذا اتصلتْ	بالخِصْب إنْ أجدبوا بالرِّيِّ للصادي
بالطّاعنِ الضارب الرّامي إذا اقتتلوا	بالموتِ أحمرَ بالضِّرْغامةِ العادي
بالدهر في نِقَمٍ بالبحر في نِعَمٍ	بالبدْر في ظُلَم بالصَّدْر في النادي
نعمْ هو الحقُّ فاجاني[2] على قَدَرٍ	من السماءِ ووافاني[3] لميعادِ
ولم أكن قبل ذاك النَّعْش أَعْلَمُهُ	أنَّ الجبالَ تهادى فوق أعْواد
كفاك فارْفُقْ بما استُوْدَعت من كرم	روّاك كلُّ قَطُوبِ البَرْقِ رعّادِ
يبكي أخاه الذي غَيَّبْتَ وابِلَهُ	تحت الصَّفيح بدمعٍ رائحٍ غادي
حتى يجودَكَ دَمْعُ الطَّلِّ منهمرًا	من أعْين الزَّهْر لم تبخل بإسعادِ
فلا[4] تزل صلواتُ اللهِ نازلةً[5]	على دِفينِك لا تُحصى بِتَعْداد

بعض ما رُثي به: قال ابن الصَّيرفي: وخالف في وفاة المعتمد، فقال: كانت في ذي حجة. فلمّا انفصل الناس من صلاة العيد، حفَّ بقبره ملأٌ، يتوجعون ويترحمون عليه، وأقبل ابن عبد الصمد، فوقف على قبره وأنشد[6]:

[الكامل]

ملكَ الملوك، أسامعٌ فأنادي	أم قد عَدَتْك عن السَّماع عَوادي؟
لمّا خَلَتْ[7] منك القصورُ فلم[8] تكنْ	فيها كما قد كنتَ في الأعْيادِ
أقبلْتُ في هذا الثرى لك خاضعًا	وتَخِذْتُ[9] قبرك موضعَ الإنشادِ

---

(١) الأبيات في المعجب (ص ٢٢٢)، وهي غير واردة في ديوانه.

(٢) في الأصل: «فاجأني» وهكذا ينكسر الوزن. وفي المعجب: «نعمْ هو الحقُّ حاباني به قَدَرٌ».

(٣) في المعجب: «فوافاني». (٤) في المعجب: «ولا».

(٥) في المعجب: «دائمة».

(٦) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٣٠) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٨٩) وجاء في الأخير أن الشاعر هو: أبو بحر عبد الصمد.

(٧) في وفيات الأعيان: «نقلت عن». (٨) في المصدر: «ولم».

(٩) في وفيات الأعيان: «وجعلْتُ».

ثم خرّ يبكي، ويُقَبِّل القبر ويعفُر وجهه في التُّراب، فبكى ذلك الملأ حتى أخْضَلوا ملابسهم، وارتفع نشيجهم، فللّه درُّ ابن عبد الصمد، وملاذ ذلك البلد.

محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مَرْدَنيش الجُذامي[1]

قال بعضهم: ينتمي في تُجيب، الأمير أبو عبد الله.

أوّليّته: معروفة. وعلى يد أبيه جَرَت الوقيعة الكبرى بظاهر إفراغة[2]، على ابن رُذْمير الطاغية، فجلّت الشُّهرة، وعظُمت الأثَرة. قال بعضهم: تولى أبوه سعد قيادة إفراغه وما إليها، وضبطها. ونازلها ابن رذمير، فشُهر غناؤه بها في دفاعه، وصبره على حصاره، إلى أن هزمه الله عزّ وجلّ، على يدي ابن غانِية. وظهر بعد ذلك فحسُن بلاؤه، وبَعُدَ صيته. ورأس ابنه محمد، ونَفَق في أُلْفَته. وكان بينه وبين ابن عِياض المتأمِّر بمُرْسية صِهْر، ولّاه لأجله بَلَنسية. فلما توفي ابن عياض، بادرها ابن سعد، وبَلَغه أثناء طريقه غدر العدُوّ بحصن جَلال، فكرَّ وقاد له وفتحه. وعاد فملك بلنسية، وقد ارتفع له صيتٌ شهير، ثم دخلت مُرْسية في أمره، واستقام له الشَّرْق، وعظُمت حاله.

حاله: قال ابن حمامة: ساد من صغره بشجاعته ونجابته، وصيت أبيه، فمال بذلك إلى القيادة، وسنُّه إحدى وعشرون سنة. ثم ارتقى إلى المُلْك الراسخ، والسلطان الشامخ، بباهر شجاعته وشهامته، فسَما قَدْرُه، وعظم أمره، وفَشَى في كل أمة ذكره.

وقال غيره: كان بعيد الغور، قويّ السَّاعد، أصيل الرأي، شديد العزم، بعيد العفو، مؤثرًا للانتقام، مرهوب العقوبة.

وقال في مختصر «ثورة المُرِيدين»[3]: كان عظيم القوة في جِسْمه، ذا أيد في عظمته، جزّارة في لحمه، وكان له فروسيّة، وشجاعة، وشهامة، ورئاسة.

---

(١) ترجمة ابن مردنيش في المعجب (ص ٢٧٨) والمغرب (ج ٢ ص ٢٥٠) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٥٩) وكتاب العبر (م ٤ ص ٣٥٧) واسمه فيه: محمد بن أحمد بن سعيد بن مردنيش، ونفح الطيب (ج ٤ ص ١٨٥، ٢٨٩) و(ج ٥ ص ٤١، ٤٥) و(ج ٦ ص ١٤٧، ٢١٥، ٢٣٥).

(٢) إفراغه بالإسبانية Fraga، وهي مدينة بغربي لاردة، لها حصن منيع وبساتين كثيرة. حاصرها ابن رذمير سنة ٥٢٨ هـ، فتصدّى له يحيىٰ بن علي بن غانية فهزمه بعد أن قُتل أكثر رجاله بالجملة، وفرّ ابن رذمير. الروض المعطار (ص ٤٨).

(٣) هذا الكتاب لابن صاحب الصلاة، صاحب كتاب: «تأريخ المن بالإمامة». ولسوء الحظ، فقد=

بطالته وجوده: قال: وكان له يومان في كل جمعة؛ الاثنين والخميس، يشرب مع ندمائه فيهما، ويجود على قُوَّاده، وخاصته وأجْناده، ويذبح البقر فيهما، ويفرق لحومها على الأجناد، ويحضر القِيان بمزاميرهن وأعْوادهن، ويتخلل ذلك لهو كثير، حتى مَلَك القلوب من الجند، وعاملوه بغاية النُّصح، وربما وَهَب المال في مجالس أُنسه.

ذكر أنه استدعى يومًا ابن الأزرق أحَد قُوَّاده، فشرب معه ومع القرابة، في مجلس قد كساه بأحمر الوشي والوطيء والآنية من الفضة وغيرها، وتمادى في لهو وشراب عامة اليوم، فلما كمُل نهاره معهم، وهبهم الآنية، وكلَّ ما كان في المجلس من الوشي وغير ذلك.

ما نقم عليه ووصم به:

قالوا: كان عظيم الانهماك في ميدان البطالة، واتخذ جُمْلة من الجواري، فصار يُراقد منهن جملة تحت لحاف واحد[1]. وانهمك في حُب القِيان، والزَّمْر والرقص. قالوا: وكان له فتى اسمه حسن، ذو رقبة سمينة، وقفًا عريض، فإذا شرب، كان يرزُّه، ويعطيه بعد ذلك عطاء جزيلًا. وفي ذلك يقول كاتبه المعروف بالسَّالمي، وكان يحضر شرابه ويخمرُ: [المنسرح]

أَدِرْ كؤوسَ المُدامِ والرَّزِّ ... فقد ظَفِرْنا بدولةِ العِزِّ

ونَعِمَ الكفُّ من قفا حسن ... فإنها في ليانة الخَزِّ

وصاحبٌ إن طلبْتُ أخدعه ... فلم يك[2] في بَذْله بمعتزِّ

انحنى على أخداعي فأطْرَبني ... وهزَّ عطفيَّ أيّما هَزِّ

وأجزل صلة السَّالمي حين أنشدها إياه، واشتهرت هذه الأبيات بالشرق، واستظرفها الناس. فردّ مُرسية دار مجونه، وبلغ في زمانه ألفًا وأربعين. وآثر زيَّ النصارى من الملابس، والسلاح، واللُّجم، والسروج. وكَلَف بلسانهم يتكلم مُباهتة، وألجأه الخروج عن الجماعة، والانفرادُ بنفسه إلى الاحتماء بالنصارى، ومُصانعتهم، والاستعانة بطواغيتهم، فصالح صاحب بَرْشِلونة لأول أمره على ضريبة، وصالح ملك

= هذا الكتاب، وهو يتناول تاريخ طائفة دينية دعت إلى الزهد والتقشف بزعامة أبي العباس أحمد بن قسي. راجع تأريخ المن بالإمامة (مقدمة المحقق).

(١) قال ابن الخطيب في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦١): «فكان يُراقد أزْيَدَ من مائتي جارية تحت لحاف واحد».

(٢) في الأصل: «فلم يكن» وهكذا ينكسر الوزن.

قَشْتالة على أخرى؛ فكان يبذل لهم في السنة خمسين ألف مثقال. وابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات وحانات للخمور، وأجْحف برعيّته لأرزاق مَن استعان به منهم، فعظُمت في بلاده المغارم وثَقُلت، واتخذ حوانيت بيع الأذم والمرافق، تختنق بجانبه، وجعل على الأغنام وعروض البقر، مُؤنًا غريبة. وأما رسوم الأعراس والملاهي، فكانت قبالاتها غريبة. حدّث بعض المؤرخين عن الثقة، قال: كنت بجيّان مع الوزير أبي جعفر الوَقّشي، فوصل إليه رجل من أهل مرسية، كان يعرفه، فسأله الوزير عن أحوال ابن مرْدَنيش وعن سيره، فقال الرجل: أخبرك بما رأيته من جَوْر عُمّاله وظلمهم؛ وذلك أن أحد الرعية بشاطبة واسمه محمد بن عبد الرحمـٰن، كان له بنظر شاطبة، ضُويعة يعيش بها، وكان لازمُها أكثر من فائدها، فأعطى لازمَها حتى افتقر، وفرّ إلى مُرْسية. وكان أمر ابن مردنيش، أنه مَنْ فرّ من الرعيّة أَمام الغزو، أخذ ماله للمخزن. قال الرجل الشّاطبي: فلما وصلت إلى مرسية فارًّا عن وطني، خدمتُ الناس في البُنْيان، فاجتمع لي مثقالان سَعْديّان، فبينما أنا أمشي في السوق، وإذا بقوم من أهل بلدي شاطبة، ومن قرابتي، فسألتهم عن أولادي وزوجتي، فقالوا: إنهم في عافية، ففرحت فرحًا عظيمًا، وسألتهم عن الضُّويعة، فقالوا: إنها باقية بيد أولادك، فقلت لهم: عسى تَبِيتوا عندي الليلة، فاشتريت لحمًا وشرابًا، وضَرَبْنا دفًّا. فلمّا كان عند الصباح، وإذا بنقر عنيف بالباب. فقلت: مَن أنت؟ فقال: أنا الطُّرْقون الذي بيده قَبالة اللهو، وهي متَّفقة بيدي، وأنتم ضربتم البارحة الدَّف فأعطنا حق العُرْس الذي عَمِلت. فقلت له: والله ما كانت لي عُرْس، فأُخذْتُ وسُجِنْت، حتى افتديت بمثقال واحد من الذي خدمت به، وجئت إلى الدار، فقيل لي إن فلانًا وصل من شاطبة السّاعة، فمشيت لأسأله عن أولادي، فقال: تركتهم في السِّجن، وأُخذت الضُّويعة من أيديهم في رسم الجَبالي، فرجعت إلى الدار، إلى قرابتي، وعرّفتهم بالذي طرأ عليَّ، وبكيت طول ليلتي، وبكوا معي، فلمّا كان من الغد، وإذا بناقر بالباب، فخرجت، فقال: أنا رجل صاحب المواريث، أُعلمنا أنكم بكيتم البارحة، وأنه قد مات لكم ميت من قرابتكم غنيّ، وأخذتم كلَّ ما ترك، فقلت: والله ما بكيتُ إلّا نفسي، فكذبني وحملني إلى السجن، فدفعت المثقال الثاني، ورجعت إلى الدار وقلت: أخرج إلى الوادي، إلى باب القنطرة، أغسل ثيابي من دَرَن السجن، وأفرُّ إلى العدوة، فقلت لامرأة تغسل الثياب: اغسلي مما عليّ، وجَرَّدْتها، ودفَعَتْ لي زنارًا ألبسه. فبينا أنا كذلك، وإذا بالخصيِّ قائد ابن مردنيش، يسوق ستين رجلًا من أهل الجبل، لابسي الزنانير، فرآني على شكلهم، فأمر بحملي إلى السُّخرة والخدمة بحصن مسقوط عشرة أيام، فلبثت أخدم وأحضُر مدة عشرة أيام، وأنا أبكي وأشتكي للقائد المذكور، حتى أشفق عليّ وسرَّحني. فرجعْتُ أريد مرسية، فقيل لي عند باب البلد: كيف اسمك؟

فقلت: محمد بن عبد الرحمـٰن، فأخذني الشرطي، وحُملْت إلى القابض بباب القنطرة، فقالوا: هذا مَنْ كتبتُه من أرباب الحالي بكذا وكذا دينار، فقلت: والله ما أنا إلّا من شاطبة، وإنما اسمي وافق ذلك الاسم، ووصفتُ له ما جرى عليّ، فأشفق وضحك مني؛ وأمر بتسريحي، فسرت على وجهي إلى هنا.

بعض الأحداث في أيامه، ونبذ من أخباره:

استولى على بلاد الشّرق، مُرْسية وبَلَنْسية وشاطبة ودانية، ثم اتسع نطاق ملكه، فوُلّي جَيَّان، وأُبدة، وبَيّاسة، وبَسْطة، ووادي آش. وملك قَرْمونة، ونازل قرطبة وإشبيلية، وكاد يستولي على جميع بلاد الأندلس، فولّي صِهره ابن هَمُشْك، وقد مرّ في باب إبراهيم، مدينة جيّان وأُبدة وبَيّاسة، وضيّق منها على قرطبة، واستولى على إستجة، ودخل غَرناطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وثار عليه يوسف بن هلال من أصهاره بحصن مطرنيش وما إليه. ثم تفاسد ما بينه وبين صهره الآخر ابن هَمُشْك، فكان سبب إدْبار أمره، واستولى العدو في مدة ابن سعد على مدينة طُرْطُوشة عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة، وعلى حصن إقليج، وحصن شرانية.

دخوله غرناطة: ولما دخل ابن هَمُشْك[١] مدينة غرناطة، وامتنعت عليه قصبتُها، وهزم الجيش المُصْرَخ لمن حُصر بها من الموحدين بمرج الرَّقاد[٢] وثاب أثناء ذلك أمرُ الموحدين، فتجهز لنصرهم السيد أبو يعقوب، وأجاز البحر، واجتمعوا بالسيد أبي سعيد بمالقة، استمدّ ابن هَمُشْك صهره الأسعد، أبا عبد الله محمد بن سعد، فخرج بنفسه في العسكر الكبير من أهل الشرق والنصارى، فوصل إلى غرناطة، واضطربت محلته بالربوة السامية المتصلة بربض البَيّازين، وتُعرف إلى اليوم بكُدية مردنيش، وتلاحق جيش الموحدين بأحواز غرناطة، فأُبينوا جيش عدوهم، فكانت عليه الدَّبرة، وفر ابن مردنيش، فلحق بجيان، واتصلت عليه الغلبة من لدُن منتصف عام ستين، فلم يكن له بعده ظهور.

وفاته: وظهر عليه أمر الموحدين، فاستخلصوا معظم ما بيده، وأوقعوا بجنده الوقائع العظيمة، وحُصر بمدينة مرسية، واتصل حصاره، فمات أثناء الحصار في عاشر

(١) هو القائد أبو الحسن بن همشك، صهر محمد بن مردنيش، كما ورد في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦١).

(٢) مرج الرقاد: موضع بظاهر غرناطة، انهزم فيه الموحدون أقبح هزيمة سنة ٥٥٧ هـ على يد أبي الحسن بن همشك، صهر محمد بن مردنيش. راجع أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦١).

رجب من عام سبعة وستين وخمسمائة[١] وله ثمانية وأربعون عامًا، ووصل أمره أبو القمر هلال[٢]، وألقى باليدين إلى الموحدين، فنزل على عهدٍ ورسومٍ حسبما يأتي في موضعه.

محمد بن يوسف بن هود الجذامي

أمير المسلمين بالأندلس، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب السلطانية بالمتوكل على الله[٣].

أوّليّته: من ولد المستعين بن هود. وأوّليتهم معروفة، ودولتهم مشهورة، وأمراؤهم مذكورون. خرج من مرسية تاسع رجب عام خمسة وعشرين وستمائة إلى «الصُّخور» من جهاتها، في نفر يسير من الجنود معه، وكان الناس يستشعرون ذلك، ويرتقبون ظهور مسمًّى باسمه واسم أبيه، وينذّدون بإمْرته وسلطانه. وجرى عليه بسبب ذلك امتحان في زمن الموحِّدين مرات، إذ كان بعض الهاتفين بالأمور الكائنة، والقضايا المستَقْبلة، يقول لهم: يقوم عليكم قائم من صنف الجند، اسمه محمد بن يوسف، فقتلوا بسبب ذلك شخصًا من أهل جيّان. ويقال إن شخصًا ممن ينتحل ذلك، لقي ابن هود، فأمعن النظر إليه، ثم قال له: أنت سلطان الأندلس، فانظر لنفسك، وأنا أدلُّك على مَن يقيم مُلْكك، فاذهب إلى المُقَدَّم الغَشْتي فهو القائم بأمرك. وكان الغَشْتي[٤] رجلًا صُعلوكًا[٥] يقطع الطريق، وتحت يده جماعة من أنجاد[٦] الرجال، وسباع الشرّار، قد اشتهر أمرهم، فنهض إلى المقدم، وعرض عليه الأمر، وقال: نستفتح بمُغاوَرة إلى أرض العدو، على اسمك وعلى سعدك، ففعلوا، فجلبوا كثيرًا من الغنائم والأسرى، وانضاف إلى ابن هود طوائفُ مثل هؤلاء، وبايعوه

---

(١) كذا في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦٢)، وفي المعجب (ص ٢٧٩) أنه مات في شهور سن ٥٦٨ هـ. وفي نفح الطيب (ج ٦ ص ١٤٧، ٢٣٥) أن وفاته كانت سنة ٥٦٦ هـ.

(٢) هو هلال بن محمد بن سعد بن مردنيش، تولّى الأمر بعد موت أبيه سنة ٥٦٧ هـ، ولكنه خالف أباه في العداء للموحدين، فتخلّى عن مرسيه، وأذعن للخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧١).

(٣) ترجمة المتوكل محمد بن يوسف بن هود في البيان المغرب ـ قسم الموحدين (ص ٢٧٦) والمعجب (ص ٤١٧) والمغرب (ج ٢ ص ٢٥١) وكتاب العبر (م ٤ ص ٣٦١) والحلة السيراء (ج ١٢٨ ص ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٨) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧٧) والأعلام للزركلي (ج ٧ ص ١٤٩).

(٤) قارن بالبيان المغرب (قسم الموحدين ص ٢٧٦).

(٥) في البيان المغرب: «حواسًا».

(٦) في البيان المغرب (ص ٢٧٧): «من أراذل الناس».

بـ«الصُّخَيرات»[1] كما ذكر، من ظاهر مرسية، وتحرّك إليه السيد أبو العباس بعسكر مرسية، فأوقع به وشرَّدَه، ثم ثاب إليه ناسه، وعدل إلى الدُّعاء للعباسيين، فتبِعه اللّفيف، ووصل تقليد الخليفة المستنصر بالله ببغداد، فاستنصر الناس في دعوته، وشاع ذكرهُ، وملك القواعد، وجيّش الجيوش، وقهر الأعداء، ووفّى للغَشتي بوعده، فولّاه أسطول إشبِيلية، ثم أسطول سَبْتة، مضافًا إلى أمرها، وما يرجع إليه، فثار به أهلها بعد وخلعوه، وفرّ أمامهم في البحر، وخفي أثره إلى أن تحقق استقراره أسيرًا في البحر بغرب الأندلس، ودام زمانًا، ثم تخلّص في سنّ الشيخوخة، ومات برباط آسِفي.

حاله: كان شجاعًا، ثَبْتًا، كريمًا حيِّيًا، فاضلًا، وفيًّا، متوكِّلًا عليه، سليم الصدر، قليل المبالاة، فاسْتَغلى لذلك عليه ولاتُه بالقواعد، كأبي عبد الله بن الرَّميمي بألمريّة، وأبي عبد الله بن زُنون بمالقَة، وأبي يحيىٰ عُتْبَة بن يحيىٰ الجَزُولي بغرناطة. وكان مَجْدُودًا، لم ينهض له جيش، ولا وُفق لرأي؛ لغَلَبة الخِفَّة عليه، واستعجاله الحركات، ونشاطه إلى اللقاء، من غير كمال استعداد.

بعض الأحداث في أيامه[2]:

جرت عليه هزائم، منها هزيمة السلطان الغالب بالله إيَّاه مرَّتين، إحداهما بظاهر إشبيلية، وركب البحر فنجا بنفسه، ثم هزمه بإلْبيرة من أحواز غرناطة، زعموا كل ذلك في سنة أربع وثلاثين وستمائة أو نحوها.

وفي سنة خمس وثلاثين، كان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بإشبيلية، فهزمه المأمون أقبح هزيمة، واستولى على محلّته، ولاذ منه بمدينة مُرْسية.

ثم شغل المأمون الأمر، وأهمَّته الفِتْنة الواقعة بمرَّاكُش، فصرف وجهه إليها، وثاب الأمر للمتوكل، فدخلت في طاعته ألمريَّة، ثم غرناطة، ثم مالَقة. وفي سبع وعشرين وستمائة، تحرّك بفضل شهامته بجيوش عظيمة، لإضراخ مدينة مارِدَة، وقد نازلها العدوُّ وحاصر، ولقي الطّاغية بظاهرها، فلم يتأنّ، زعموا، حتى دفع بنفسه العدوَّ، ودخل في مَصافّه، ثم لمّا كرّ إلى ساقَتِه، وجد الناس منهزمين لما غاب عنهم، فاستولت عليه هزيمةٌ شنيعة، واستولى العدو على ماردة بعد ذلك.

---

(١) في البيان المغرب (ص ٢٧٧) أن الصخيرات موضع بمقربة من مرسية.

(٢) قارن بالبيان المغرب ـ قسم الموحدين (ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩، ٢٩٤).

وفُتح عليه في أمور، منها تملُّكه إشبيلية سنة تسع وعشرين وستمائة، وولّى عليها أخاه الأمير أبا النجاة سالمًا الملقب بعماد الدولة. وفي سنة إحدى وثلاثين، رَجَعت قرطبة إلى طاعته، واستَوْسَق أمره. وتملّك غرناطة ومالقة عام خمسة وعشرين وستمائة، ودانت له البلاد. وفي العشر الأول من شوال، دخل في طاعته الرَيِّسان أبو زكريا، وأبو عبد الله، ابنا الرئيس أبي سلطان عزيز بن أبي الحجاج بن سعد، وخرجا عن طاعة الأمير أبي جَميل، وأخذا البيعة لابن هود على ما في أيديهما. وفي سنة ست وعشرين وستمائة، تملك الجزيرة الخضراء عَنوة، يوم الجمعة التاسع لشعبان من العام، وفي العشر الوسط من شوال ورد عليه الخبر ليلًا بقصد العدوّ وُجهة مدينة وادي آش، فأسرى ليله مسرجًا بقية يومه، ولحق بالعدو على ثمانين ميلًا، فأتى على آخرهم، ولم يَنْجُ منه أحد.

إخوته: الرئيس أبو النجاة سالم، وعلامته: «وثِقْتُ بالله»، ولقبُه «عماد الدولة»، والأمير أبو الحسن عضد الدولة، وأسره العدو في غارة، وافتكّه بمال كثير، والأمير أبو إسحٰق شرفُ الدولة. وكلهم يُكتَب عنه، من الأمير فلان.

ولده: أبو بكر الملقب بالواثق بالله، أَخَذَ له البَيْعة على أهل الأندلس، في كذا، ووُلّي بعده وليّ عهده، واستقلّ بملك مرسية، ثم لم يَنْشِب أن هلك.

دخوله غرناطة: دخل غَرناطة مرّات عديدة، إحداها في سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وقد وردت عليه الرّاية والتقليد من الخليفة العباسي ببغداد. وبمصلّى غرناطة، قرىء على الناس كتابه، وهو قائم، وزيّه السَّواد، ورايته السوداء بين يديه، وكان يوم اسْتِسْقاء، فلم يستتمّ على الناس قراءة الكتاب يومئذ، إلّا وقد جادت السماء بالمطر، وكان يومًا مشهودًا، وصُنْعًا غريبًا، وأمر بعد انصرافه، أن يُكتب عنه بتلك الألقاب التي تضمّنها الكتاب المذكور إلى البلاد.

وفاته: اختلف الناس في سبب وفاته، فذُكر أنه قد عاهد زَوْجَه ألّا يتخذ عليها امرأة طول عمره، فلمّا تصَيّر إليه الأمر، أعجبته روميّة حصلت له بسبب السَّبي من أبناء زعمائهم، من أجمل الناس، فسَتَرها عند ابن الرَّميمي خليفته، فزعموا أن ابن الرميمي عَلِق بها، ولما ظهر حَمْلُها، خاف افتضاح القصة، فدبَّر عليه الحيلة، فلمّا حلّ بظاهر المريّة، عرض عليه الدخول إليها، فاغتاله ليلًا، بأن أقعد له أربعة رجال، قضوا عليه خَنْقًا بالوسائد. ومن الغد ادَّعى أنه مات فجأة، ووقف عليه العُدُول، والله أعلم بحقيقة الأمر سبحانه، وكانت وفاته ليلة الرابع والعشرين من جمادى الآخرة عام خمسة وثلاثين وستمائة. وفي إرجاف الناس بولاية ابن هود، والأمر قبل وقوعه،

يقول الشاعر: [الطويل]

هُـمـامٌ بـه زاد الـزمـان طَـلاقـة ولـذَّت لـنـا فـيـه الأمـانـي مَـوْرِدَا
فقُلْ لبني العباس ها هي دولةٌ أغار بها الحقُّ المبينُ وأنْجَدا
فإن الذي قد جاء في الكُتْب وَصْفُه بتمهيد هَذِي الأرض قد جاء فاهْتَدا
فـإن بَـشَّـرَتْـنـا بـابـن هُـود مـحـمـدٍ فـقـد أظـهـر الله ابـنَ هـودٍ مـحـمّـدا

محمد بن أحمد بن زيد بن أحمد بن زيد بن الحسن ابن أيوب بن حامد بن زيد بن منخل الغافقي

يكنى أبا بكر، من أهل غرناطة. وسكن وادي آش.

أوَّليَّته: أصل هذا البيت من إشْبِيلية، وذكره الرَّازي في الاسْتِيعاب، فقال: وبإشبيلية بيتُ زيد الغافقي، وهم هناك جماعة كبيرة، فرسانٌ ولهم شرف قديم، وقد تصرّفوا في الخدمة. بَلَدِيُّون[1]، ثم انتقلوا إلى طُلَيْطُلة، ثم قُرْطبة، ثم غَرناطة. وذكر الملّاحي في كتابه الحسن بن أيوب بن حامد بن أيوب بن زيد، وعَدَّه من أهل الشُورى، وقُضاة الجماعة بغرناطة. وأحمد بن زيد بن الحسن هو المقْتُول يوم قيام بني خالد، بدعوة السلطان أبي عبد الله الغالب بالله بن نصر[2]، وكان عامِلَ المتوكل على الله بن هود بها، وعمَّن جُمع له بين الدِّين والفضل والماليَّة.

حاله ونباهته ومحنته ووفاته:

كان هذا الرجل عَيْنًا من أعيان الأندلس، وصدرًا من صدورها، نشأ عفًّا مُتَصاونًا عَزُوفًا، وطِلاوةً، نزيهًا، أبيًّا، كريم الخؤولة، طيِّب الطُّعمة، حُرَّ الأصالة، نبيه الصِّهر. ثم استُعْمل في الوزارة ببلده، ثم قُدِّم على مَن به من الفرسان، فأوْرَدَهم الموارد الصفيَّة بإقدامه، واستباح من العدُوِّ الفرصة، وأكسبهم الذكر والشهرة، وأنفق في سبيل الله، إلى غضاضة الإيمان، وصِحّة العقد، وحُسْن الشِّيمة، والاسترسال في ذكر التواريخ، والأشعار الجاهليَّة، والأمثال، والتمسّك بأسباب الدين، وسَحْب أذيال الطَّهارة، وهجر الخبايث، وإيثار الجِدِّ، والانحطاط في هوى الجماعة.

---

(١) البلديون: هم العرب الذين دخلوا الأندلس على يد موسى بن نصير، والشاميون هم العرب الذين دخلوا الأندلس مع بِلْج بن بِشْر القشيري سنة ١٢٣ هـ. راجع الجزء الأول من الإحاطة في «فصل في فتح هذه المدينة».

(٢) هو أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي الأنصاري، حكم غرناطة من سنة ٦٣٥ هـ إلى سنة ٦٧١ هـ. راجع اللمحة البدرية (ص ٤٢).

مشيخته: قرأ بغرناطة على شيخ الجماعة أبي عبد الله بن الفَخّار، وببلده على الأستاذ أبي عبد الله الطُرْسوني، وبه انتفاعُه. وكان جَهْوَري الصَّوت، متفاضلًا، قليل التهَيُّب في الحفل. ولما حدث بالسلطان أبي عبد الله من كِياد دولته، وتلاحق بوادي آش مُفْلتًا، قام بأمره، وضبط البلد على دعوته، ولمَّ المُداهنة في أمره، وجعل حِيَل عدوه دُبَر أذنه، إلى أن خرج عنها إلى العُدْوة، فكان زمان طريقه مُفْديًا له بنفسه، حتى لحق بمَأْمَنه، فتركها مغربة.

خبر في وفاته ومَغْرَجه:

وكانت الحمد لله على مَحْمده، واستأثر به الدَّاخل، فشدَّ عليه يدَ اغتباطه، وأغرى به عقد ضَنائَته، وخلطه بنفسه، ثم أغرى به لمكانته من الشهامة والرياسة، فتُقُبِّض عليه، وعلى ولده، لُباب بني وقته، وغُرَّة أبناء جنسه، فأودعهما مُطْبِق أرباب الجرايم، وهَمَّ باغتيالهما، ثم نقلهما إلى مدينة المُنَكَّب ليلة المنتصف لمحرم من عام اثنين وستين وسبعمائة في جُمْلة من النُّبهاء مأخوذِين بمثل تلك الجريرة. ثم صُرف الجميع في البحر إلى بجاية، في العشر الأول لربيع الأول مُصَفَّدين. ولما حلّوا بها، أقاموا تحت برٍّ وتجلَّة. ثم ركبوا البحر إلى تونس، فقطع بهم أسطول العدو بأحواز تكَرْنت، ووقعت بينه وبين المسلمين حرب، فكرُم مقام المترجم يومئذ، وحسُن بلاؤه. قال المُخْبر: عهدي به، وقد سلَّ سيفًا، وهو يضرب العدو ويقول: اللهمّ اكتُبْها لي شهادة. واستولى العدو على مَن كان معه من المسلمين، ومنهم ولده، وكُتب: افتُكَّ الجميع ببلد العُنّاب، وانصرف ابنه إلى الحج، وآب لهذا العهد بخلال حميدة كريمة، من سُكون وفضل ودين وحياء، وتلاوة، إلى ما كان يجده من الرّكض، ويعانيه من فروسية، فمضى على هذا السبيل من الشهادة، نفعه الله، في ليلة الجمعة الثامن لرجب من عام اثنين وستين وسبعمائة.

شعره: أنشدني قاضي الجماعة أبو الحسن بن الحسن له: [البسيط]

يا أيها المرتَجِي لِلُطْفِ[1] خالقِهِ ... وفَضْلِهِ في صلاحِ الحالِ والمالِ

لو كنتَ توقن حقًا لُطْفَ قُدْرته ... فاشْمَخْ بأنفك عن قيل وعن[2] قالِ

فإنّ لله لطفًا عزَّ خالقنا ... عن أن يُقاس بتَشْبيه وتمثالِ

وكل أمرٍ وإن أغياك ظاهرُه ... فالصُّنع في ذاك لا يجري على بالِ

(١) في الأصل: «لطف» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) كلمة «عن» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن.

محمد بن أحمد بن محمد الأشعري

من أهل غَرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن المحروق، الوكيل بالدار السلطانية، القَهْرُمان بها، المُسْتَوْزر آخر عمره، سداد من عَوْن.

حاله وأوليته وظهوره: كان، رحمه الله، من أهل العفاف والتَّصاوُن، جانحًا إلى الخير، مُحبًّا في أهل الإصلاح، مغْضُوض الطَّرْف عن الحُرَم، عفيفًا عن الدماء، مستمسكًا بالعدالة، من أهل الخصوصِيَّة، كتب الشروط، وبرّز في عُدول الحضرة. وكان له خط حسن، ومشاركة في الطلب، وخصوصًا في الفرايض، وحظُّه تافه من الأدب. امتدح الأمراء، فترقى إلى الكتابة مرؤوسًا مع الجملة. وعند الإيقاع بالوزير ابن الحكيم، تَعيّن لحصر ما استرفع من مُنْتَهب ماله، وتحصّل بالدار السلطانية من أثاثه وخُرْثِيِّه[1]، فحزم واضطلع بما كان داعية ترقيه إلى الوكالة، فساعده الوقت، وطَلَع له جاه كبير، وتملّك أموالًا عريضة، وأرضًا واسعة، فجمع الدنيا بحزمه ومثابرته على تَنْمية داخِله. وترقى إلى سماء الوزارة في الدَّولة السادسة من الدول النَّصْرية[2]، بتدبير شيخ الغَزَاة، وزعيم الطائفة عثمان بن أبي العلي[3]، فوصله إلى أذوار دنياه، والله قد خبَّأ له المكروه في المحبوب، وتأذّن الله سبحانه بنفاد أجله على يده، فاستولى وحَجَب السلطان. ثم وقعت بينه وبين مُرَشَّحه الوَحْشَة الشهيرة عام سبعة[4] وعشرين وسبعمائة، مارسًا لمكان الفتنة، صِلَة فارط في حَجْب السلطان، وأجلى جُمْهور ما كان ببابه، ومنع من الدخول إليه، فاضطربت حاله، وأعمل التدبير عليه، فهجم عليه بدار الحُرَّة الكبيرة جَدّة السلطان، وكان يعارضها في الأمور، ويجعلها تكأة لغرضه، فَتَيان من أحداث المماليك المُسْتبقين مع محجوبه، تناولاه سَطًّا بالخناجر، ورمى نفسه في صِهريج الدار، وما زالا يَتَعاورانه من كل جانب حتى فارق الحياة، رحمه الله تعالى.

مشيخته: قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزُّبير، وكانت له فيه فراسة صادقة.

---

(١) الأثاث: ما جدّ من متاع البيت، ولا واحد له. والخُرْثِيُّ: أردأ متاع البيت. محيط المحيط (أثث) و(خرث).

(٢) المراد بالدولة السادسة سادس سلاطين بني نصر، وهو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر. وترجمته في اللمحة البدرية (ص ٩٠). وترجم له ابن الخطيب في الجزء الأول من الإحاطة ترجمة ضافية.

(٣) في الأصل: «العلاء» والتصويب من اللمحة البدرية (ص ٩٣).

(٤) في الأصل: «سبع» وهو خطأ نحوي.

محمد بن فتح بن علي الأنصاري

يكنى أبا بكر، ويشهر بالأشبِرون، قاضي الجماعة.

حاله: كان طِرْفًا في الدَّهاء والتخلُّق والمعرفة بمقاطع الحقوق، ومَغامِز الرِّيب، وعِلَل الشهادات، فذًّا في الجَزالة، والصَّرامة، مقدامًا، بصيرًا بالأمور، حسن السيرة، عذب الفكاهة، ظاهر الحُظْوة، عليَّ الرتبة. خرج من إشبيلية عند تغلّب العدوّ عليها، ووُلّي القضاء بمالَقة وبَسْطَة. ثم وُلّي الحسبة بغرناطة، ثم جُمعت له إليها الشُّرطة. ثم قُدِّم قاضيًا، واستمرّت ولايته نحوًا من ثلاثين سنة.

وفاته: توفي ليلة الحادي عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وتسعين وستمائة.

محمد بن أحمد بن علي بن حسن بن علي ابن الزيات الكَلاعي[1]

ولد الشيخ الخطيب أبي جعفر بن الزيات، من أهل بَلّش، يكنى أبا بكر.

حاله: من «عائد الصلة» من تأليفنا: كان، رحمه الله، شبيهًا بأبيه، في هَدْيه، وحُسن سَمْته ووقاره، إلّا أنه كان حافظًا للرتبة، مقيمًا للأُبّهة، مُستدعيًا بأبيه ونفسه للتجلّة، بقية من أبناء المشايخ، ظَرفًا وأدبًا ومروءة وحشمة، إلى خطّ بديع قيد البصر، ورواية عالية، ومشاركة في فنون، وقراءة، وفِقْه، وعربية، وأدب وفريضة، ومعرفة بالوثاق والأحكام. تولّى القضاء ببلده، وخلف أباه على الخَطابة والإمامة، فأقام الرَّسم، واستُعمل في السِّفارة، فسدَّ مسدَّ مِثله، وأقرأ ببلده، فانتُفع به.

مشيخته: قرأ على الأستاذ الخطيب أبي محمد بن أبي السَّداد الباهلي، وبغَرناطة على شيخ الجماعة الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، ومن أعلام مشيخته جَدُّه للأمّ، خال أبيه، الحكمي العارف أبو جعفر ابن الخطيب أبي الحسن بن الحسن المَذْحِجي الحمي، والخطيب الربَّاني أبو الحسن فضل بن فضيلة، والوزير أبو عبد الله بن رُشيد.

---

(١) ترجمة محمد بن أحمد بن الزيات الكلاعي في الكتيبة الكامنة (ص ١١٥) ونيل الابتهاج (ص ٢٣٧).

محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج[١]

يكنّى أبا عبد الله، ويُعرف بابن الحاج.

أوّليّته وحاله: كان أبوه نجّارًا من مُدَجّني مدينة إشْبِيلية، من العارفين بالحِيَل الهندسية، بصيرًا باتخاذ الآلات الحربية الجافية، والعمل بها. وانتقل إلى مدينة فاس على عهد أبي يوسف المنصور بن عبد الحق، واتخذ له الدُّولاب المنفسح القُطر، البعيد المدى، مُليّن المركز والمحيط، المتعدِّد الأكواب، الخفيّ الحركة، حسبما هو اليوم ماثل بالبلد الجديد، دارِ الملك بمدينة فاس، أحد الآثار التي تحدو إلى مشاهدتها الرِّكاب، وبناء دار الصَّنعة بسلا. وانتقل بعد مهلك أبيه إلى باب السلطان ثاني الملوك من بني نصر[٢]، ومتّ إليه بوسيلة أدْنَت محلَّه، وأسْنَت جراياته، إلى أن تولّى وزارة ولده أمير المسلمين، أبي الجيوش نصر[٣]، واضطلع بتدبيره، ونقم الناس عليه إيثاره لمقالات الرُّوم، وانحطاطَه في مَهْوى لهم، والتشبُّه بهم في الأكل والحديث، وكثير من الأحوال والهيئات والاستحسان، وتَطْريز المجالس بأمثالهم وحِكَمهم، سمةً وسمت منه عقلًا، لنشأته بين ظَهْرانيهم، وسبقت إلى قوى عقله المكتسب في بيوتهم، فلم تفارقه بحال، وإن كان آية في الدهاء، والنظر في رجُلٍ بعيد الغور، عميق الفكر، قائم على الدِّمْنَة، مُنْطوٍ على الرَّضْف، ليّن الجانب، مبذول البشر، وحيد زمانه في المعرفة بلسان الرُّوم وسيرهم، مُحْكم الأوضاع في أدب الخدمة، ذَرِب بالتصرف في أبواب الملوك.

وكان من ثورة العامة بسلطانه ما تقدم، وجهَرُوا بإسلامه إليهم، وقد ولّوه بسبب الثورة، وطَوّقوه كياد الأزمة، فضَنَّ به السلطان ضَنانة أغْرَبَت عن وفائه، وصان مُهْجته، واستمرّ الأمر إلى أن خُلع الملك عن الملك. وكان نزول الوزير المذكور تحت خفارة شيخ الغَزَاة، وكبير الطائفة، عثمان بن أبي العلى، فانتقل محفوظ

---

(١) ذكره ابن الخطيب في اللمحة البدرية (ص ٧١)، وقال: إنه تولّى وزارة سلطان غرناطة أبا الجيوش نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر.

(٢) الصواب أنه ثالث سلاطين بني نصر، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، الملقب بالمخلوع، ووالد أبي الجيوش نصر. وقد حكم غرناطة من سنة ٧٠١ هـ إلى سنة ٧٠٨ هـ. ترجمته في اللمحة البدرية (ص ٦٠). وقد تقدمت ترجمته في الجزء الأول من الإحاطة.

(٣) هو أبو الجيوش نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، رابع سلاطين بني نصر بغرناطة، حكم من سنة ٧٠٨ هـ إلى سنة ٧٢٢ هـ. ترجمته في اللمحة البدرية (ص ٧٠). وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الثالث من الإحاطة.

الجملة، محُوط الوفر، ولم يَنْشِب إلى أن لجأ إلى العُدْوة، واتصل بالأمير أبي علي عمر بن السلطان الكبير أبي سعيد، فحرّكه، زعموا، على مُحادّة أبيه، وحمله على الانتِزاء، فكان ما هو معلوم من دُعائه إلى نفسه، ومنازعة أبيه، ولقائه إياه بالمُقَرمِدة[1]، وفُلَّ جيشه، وفي أثنائه هلك المترجم به.

وفاته: توفي بفاس الجديد في العشر الأول من شعبان عام أربعة عشر[2] وسبعمائة.

محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ابن أرقم النُّميري

من أهل وادي آش، يكنى أبا يحيىٰ.

حاله: كان صَدْرًا شهيرًا، عالمًا عَلَمًا، حَسِيبًا، أصيلًا، جَمَّ التحصيل، قويّ الإدراك، مضطلعًا بالعربية واللغة، إمامًا في ذلك، مشاركًا في علوم من حساب وهيئة وهندسة. قال الشيخ: كان في هذا كله أبرعَ من لقيته، إلى سَرَاوة وفضل وتواضع ودين، جاريًا في ذلك على سُنن سلفه، وعلوّ مَحْتِده، جالسته، رحمه الله، كثيرًا عند عِلْية من أدركته بغرناطة؛ لإقامته بها، وتكرر لقائي إياه بها وبغيرها، فرأيت أصيلًا جليلًا قد جمع علمًا وفضلًا، وحُسْن خلق، وكان حَسِن التقييد، لخطّه رونق يمتاز به، ويبعد عن غيره. وُلّي القضاء ببلده، ثم ولّي بعد مدة ببُرْشانة[3]، فحمُدت سيرته.

مشيخته: أخذ القراءات السبع عن أبي كرم جودي بن عبد الرحمٰن، وقرأ عليه الغريب واللغة، ولازمه في ذلك، وأجاز له إجازة عامة، وأخذ من غيره ببلده، وصحب بغَرناطة جُملة من العلماءِ بها، أيام اختلافه إليها، وإقامته بها.

تواليفه: ألّف كتابًا سماه «الاحتفال في استيفاء ما للخَيْل من الأحوال»، وهو كتاب ضخم وقَفْتُ عليه من قبله وأَفَدْتُه. واختصر الغريب المُصَنَّف، وله تقاييد منثور ومنظوم في علم النجوم، ورسالة في الإِسْطُرْلاب الخطي والعمل به، وشجرة في أنساب العرب.

وفاته: توفي ليلة السبت السابع عشر لشهر ربيع الآخر عام سبعة وخمسين وسبعمائة.

---

(١) المُقَرْمدة: بلدة تقع جنوب شرقي مدينة فاس. (٢) في الأصل: «أربع عشرة» وهو خطأ نحوي.

(٣) برشانة: بالإسبانية Purchena، وهي حصن على مجتمع نهرين. الروض المعطار (ص ٨٨). وذكرها ياقوت في معجم البلدان (ج ١ ص ٣٨٤) وقال: إنها من قرى إشبيلية بالأندلس.

محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ابن محمد بن خلف بن محمد بن سليمان بن سوار ابن أحمد بن حزب الله بن عامر بن سعد الخير بن عَيّاش[(١)]

المكنى بأبي عَيْشون بن حَمُود، الداخل إلى الأندلس صحبة موسى بن نصير، ابن عَنْبَسة بن حارثة بن العباس بن المرداس، يكنّى أبا البركات، بَلْفيقي[(٢)] الأصل، مَرْوي[(٣)] النشأة والولادة والسلف، يعرف بابن الحاج، وشهُرَ الآن في غير بلده بالبِلفيقي، وفي بلده بالمعرفة القديمة.

أوَّليَّته: قد تقدم اتصال نسبه بحارثة بن العباس بن مِرْداس، صاحب رسول الله ﷺ، وأحد خطبائه وشعرائه، رئيس في الإسلام، ورئيس في الجاهلية. وكان لسلفه، وخصوصًا لإبراهيم، من الشهرة بولاية الله، وإيجاب الحقّ من خُلُقه ما هو مشهور، حسبما تنطق به الفهارس، يعضّد هذا المجد من جهة الأمومة، كأبي بكر بن صُهيب، وابن عمه أبي إسحٰق، وغيرهم، الكثير ممن صنّف في رجال الأندلس، كأبي عبد المجيد المالقي، وابن الأبار، وابن طلحة، وابن فُرتُون، وابن صاحب الصلاة، وابن الزُّبير، وابن عبد الملك، فلينظر هناك.

حاله: نشأ ببلده ألْمَرية عمود العفة، فضْفاض جِلْباب الصِّيانة، غَضيض طرف الحياءِ، نائي جَنبَ السَّلام، حليف الانقباض والازْورار، آويًا إلى خالص النَّشَب وبَحْت الطُّعمة، لا يُرى إلّا في منزل مَن سأله، وفي حَلَق الأسانيد، أو في مسجد من المساجد خارج المدينة المعدَّة للتَّعبُد، لا يجيء سوقًا، ولا مجمعًا، ولا وليمة، ولا مجلس حاكم أو وال، ولا يلابس أمرًا من الأمور التي جرت عادته أن يلابسها بوجه من الوجوه. ثم ترامى إلى رحْلةٍ، فجاس خلال القطر الغربي إلى بجاية، نافضًا إياه من العلماء والصلحاء والأدباء والآثار بتَقْييده، وأخذه قيام ذكر، وإغفال شهرة. ثم صرف عِنانه إلى الأندلس، فتصرف في الإقراء، والقضاء، والخطابة. وهو الآن نسيجُ

---

(١) ترجمة أبي البركات محمد بن محمد بن الحاج البَلْفيقي في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٧) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٢) ونفح الطيب (ج ٨ ص ١٦) وأزهار الرياض (ج ٤ ص ١٠٧) والديباج المذهب (ص ١٦٤) والتعريف بابن خلدون (ص ٦١) وجذوة الاقتباس (ص ١٨٣) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٥٥)، وغاية النهاية (ج ٢ ص ٢٣٥).

(٢) نسبة إلى بَلْفيق Vellefique وهي بلدة تابعة لمدينة ألمرية. الإحاطة (ج ٢ ص ١٤٣) حاشية رقم ١ بتحقيق عنان.

(٣) نسبة إلى مدينة ألمرية.

وخِدِه في أصالة عريقة، وسجيَّة على السلامة مفطورة، فما شئت من صدر سليم، وعَقْدٍ وثيق، وغورٍ قريب، ونُصح مَبْذول، وتصَنُّع مرفوض، ونفس ساذجة، وباطن مساوٍ للظاهر، ودمعة سريعة، وهزل يُثْمر تجلَّة، وانبساطٍ يفيد حُسْن نِيَّة، إلى حُسْن العهد، وفضل المشاركة، ورقَّة الحاشية، وصلابة العود، وصدق العزيمة، وقوة الحامية، وبلاغة الموعظة، وجلَّة الوقت، وفائدة العصر، تفننًا وإمتاعًا، فارس المنابر غير الهَيَّابة، ولا الجَزُوع، طيِّب النَّغْمة بالقرآن، مُجْهشًا في مجال الرِّقة، كثير الشفقة لصالح العامة، متأسفًا لضياع الأوقات، مُدْمعًا على الفيئة، مُجِمًّا، مُحَوَّلًا في رئاسة الدين والدنيا. هذا ما يُسامح فيه الإيجاز، ويَتَجافى عنه الاختصار، ويكفي فيه الإلماع والإشارة، أبقى الله شيخنا أبا البركات.

مشيخته وولايته: تقدم قاضيًا بقَنَالِش[(١)]، في جمادى الثانية عام خمسة عشر وسبع مائة ثم وُلِّي مَرْبَلَّة، وإسْتِبُونة[(٢)] ثم كانت رحلته إلى بجاية. ثم عاد فقعد بمجلس الإقراء من مالقة للكلام على صحيح مُسْلم، مُتَّفقًا على اضطلاعه بذلك. ثم رحل إلى فاس. ثم آب إلى الأندلس، واستقرّ ببلده ألمَرية، فقعد بمسجدها الجامع للإقراء، ثم قُدِّم قاضيًا بِبَرْجة ودَلَّاية، والبِينُول[(٣)] وفِنْيانَة[(٤)]، ثم نقل عنها إلى بيرة، ثم غربي ألمرية. ثم قُدِّم قاضيًا بمالقة، ثم قُدِّم بغربها مضافًا إلى الخطابة، ثم أعيد إلى قضاء ألمرية، بعد وفاة القاضي أبي محمد بن الصائغ. ومن كتاب «طُرْفة العصر» من تأليفنا في خبر ولايته ما نصه:

فتقلّد الحكم في الثالث والعشرين لشعبان من عام سبعة[(٥)] وأربعين وسبعمائة، ثالث يوم وصوله مُسْتَدْعًى، وانتابه الطَّلبة ووجوهُ الحضرة والدولة، مهنئين بمثواه من دار الصيانة، ومحل التَّجِلَّة، إحدى دور الملوك بالحمراء، فطَفِقوا يَغْشُونه بها زَرَافات ووُحدانًا، في إتاحة الخير، وإلهام السَّداد، وتَسْويغ الموهبة. وكان وصوله، والأفُق قد اغْبَرَّ، والأرض قد اقشَعَرَّت لانصرام حظٌ من أيام الشتاء الموافق لشهر ولايته، لم

---

(١) قنالش: بلدة تابعة لمقاطعة ألمرية، على مقربة من بلفيق بلد المترجم له أبي البركات البلفيقي. الإحاطة (ج ٢ ص ١٤٥) حاشية رقم ٢.

(٢) إستبونة أو أشتبونة: بالإسبانية Estepona، وهي بلدة تقع على البحر المتوسط شمال جبل طارق. الإحاطة (ج ٢ ص ٢٤) حاشية رقم ٣.

(٣) ألبينول: بالإسبانية: Albinol، وهي بلدة تابعة لمقاطعة مالقة. الإحاطة (ج ٢ ص ١٤٥) حاشية رقم ٦.

(٤) فنيانة Fināna: قرية بقرب وادي آش من الأندلس، وقيل هي حصن. نزهة المشتاق (ص ٥٦٧) والروض المعطار (ص ٤٤١).

(٥) في الأصل: «سبع» وهو خطأ نحوي.

يَسِح فيه الغمام بقطرة، ولا لمعت السماء بنزعة، حتى أضرَّت الأنفس الشحّ، وحَسَر العُسر عن ساقه، وتوقفت البُذور، فساعده الجَدُّ بنزول الرَّحمة عند نزوله من مِرْقاة المنبر، مُجابة دعوة استسقائه، ظاهرةُ بَرَكة خشوعه، ولذلك ما أنشدته في تلك الحال(١): [الكامل]

ظَمِئَتْ إلى السُّقيا الأباطحُ والرُّبا — حتى دعونا العام عامًا مُجْدِبا
والغيثُ مسدولُ الحجاب وإنما — عَلِمَ الغمامُ قدومَكُمْ فتأدَّبا

وتولى النظر في الأحكام فأجال قداحها، مضطلعًا بأصالة النظر، وإرجاء المُشَبّهات، وسلك في الخطابة طريقةً مُثلى، يفرغ في قوالب البيان أغراضها، ويَصْرف على الأحكام الكواين والبساطات أساليبها، من المحاكاة، باختلاف القبض والبَسْط، والوعد والوعيد، حظوظها على مَقْبض العدل، وسبب الصواب يقوم على كثير مما يَصْدع به، من ذلك شاهدُ البديهة، ودليلُ الاستيعاب. قال شيخنا أبو البركات: ثم صُرِفت عنها للسبب المتقدم، وبقيتُ مقيمًا بها، لما اشتهر من وقوع الوباءِ بألمَريَّة، ثم أعدت إلى القضاء والخطابة بألمرية، وكتب بذلك في أوايل رجب عام تسعة وأربعين. وبقيت على ذلك إلى أن صُرِفت بسبب ما ذكر. ثم أعدت إليها في أواخر رجب سنة ست وخمسين، عسى أن يكون الانقطاع لله سبحانه. فأنا الآن أتمثل بما قاله أبو مُطَرِّف(٢) بن عَميرة رحمه الله: [الخفيف]

قد نُسِبنا إلى الكتابة يومًا — وأتَتْ(٣) خُطَّة القضاء تليها
وبكلٍّ لم نُطِقْ للمجد إلّا — منزلًا نابيًا وعيشًا كريها
نِسْبَةٌ بُدِّلَتْ فلم تتغيَّرْ — مِثْلُ ما يزعمُ المهندس فيها

بَدَّل من لفظ الكتابة إلى الخَطَابة. وأغرب ما رأيت ما أحكي لك، وأنت أعلم ببعض ذلك، أن أفضل ما صَدَر عني في ذلك، الخُطة من العمل الذي أخلصتُ لله فيه، ورجوت منه المَثوبة عليه، وفيه مع ذلك مفْتَخر لمن أراد أن يفتخر غير مُلتَفت للدنيا، فعليه عوَّلت سبحانه. انتهى كلامه.

تصانيفه: كتب إليّ بخطِّه ما نصه، وهو فصل من فصول: وأما تواليفي فأكثرها، أو كلها عير مُتَمّمة، في مُبَيَّضات. منها كتاب قد يَكْبُو الجواد في أربعين

---

(١) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٧).
(٢) هو أحمد بن عبد الله بن عميرة البلنسي، وقد تقدمت ترجمته في الجزء الأول من الإحاطة، ووردت أبياته التالية هناك ببعض اختلاف عما هنا.
(٣) في الأصل: «ثم جاءت» وهكذا ينكسر الوزن.

غلطة عن أربعين من النُّقّاد، وهو نوع من تَصْحيف الحُفّاظ للدَّارقُطْني، منها «سَلْوةُ الخاطر فيما أُشكل من نِسْبة النَّسب الرّتِب إلى الذَّاكر». ومنها كتاب «قَدْرٌ جَمّ في نظم الجُمل». ومنها كتاب «خطر فَبَطر، ونَظَر فَحَظر، على تنبيهات على وثائق ابن فَتُّوح». ومنها كتاب «الإفصاح فيمن عُرف بالأندلس بالصَّلاح». ومنها «حركة الدُّخولية في المسألة المالقية». ومنها «خَطْرة المجلس في كلمة وقَعَت في شعرٍ استنصر به أهلُ الأندلس» جزء صغير. ومنها «تاريخ ألمَرِيَّة» غير تام. ومنها ديوان شعره المسمى بـ «العَذْب والأُجاج في شعر أبي البركات ابن الحاج»[1]. ومختصره سمّاه القاضي الشريف «اللؤلؤ والمُرْجان، اللذان من العذب والأُجاج يُسْتَخرجان»[2]. ومنها «عرائس بنات الخواطر المجلُوَّة على مِنَصّات المنابر» يحتوي على فصول الخطب التي أنشئت بطول بنى والخطابة. ومنها «المُؤتمَن على أنباء الزمن». ومنها تأليف في أسماء الكتب، والتّعريف بمؤلفيها، على حروف المعجم. ومنها «ما اتفق لأبي البركات فيما يُشبه الكَرامات». ومنها كتاب «ما رأيتُ وما رُئي لي من المقامات». ومنها كتاب «المرجع بالدَّرك على مَن أنكر وقوع المشترك». ومنها «مُشَبَّهات اصطلاح العلوم». ومنها «ما كثر وروده في مجلس القضاء». ومنها «الغَلَسِيّات»، وهو ما صدر عني من الكلام على صحيح مُسْلم أيام التكَلّم عليه في التَّغْليس. ومنها «الفصول والأبواب، في ذكر مَن أخذ عني من الشيوخ والأتباع والأصحاب».

ثم قال: وقد ذهب شَرْخُ الشَّباب ونشاطُه، وتقطَّعت أوصاله، ورَحَل رِباطه، وأصبحت النفس تنظر لهذا كله بعين الإمهال والإغفال، وقلّة المبالاة التي لا يصل أحد بها إلى مَنال. وهذه الأعمال لا يُنشَّط إليها إلّا المحَرّكات التي هي مفقودة عندي، أحدها طلبةٌ مجتمعون متعطّشون إلى ما عندي، متشوّفون غاية التَّشوُّف، وأين هذه بألمرية؟ الثاني، طلبُ رياسة على هذا، ومتى يرأس أحد بهذا اليوم، وعلى تقدير أن يرأس به وهو محالٌ في عادة هذا الوقت، فالتشوُّف لهذه الرياسة مفقود عندي. الثالث، سلطانٌ يملأ يد مَن يُظهر مثل هذا، على يده غبطة، وما تم هذا. الرابع، نيّةٌ خالصة لوجه الله تعالى في الإفادة، وهذا أيضًا مفقود عندي، ولا بدّ من الإنصاف. الخامس، قَصْدُ بقاء الذِّكر، وهذا خيال ضعيف بعيد عني. السادس، الشفقة على شيء ابتدى، وسعي في تحصيل مباديه، أن يضيع على قَطْع ما سوى هذا الإشفاق،

(١) في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٩): «العذب والأجاج، من كلام أبي البركات ابن الحاج».
(٢) في المصدر نفسه: «اللؤلؤ والمرجان، من بحر أبي البركات ابن الحاج يستخرجان».

وهذا السادس، هو الذي في نفسي منه شيء، وبه أنا أقيد أسماء مَن لَقِيت، وما أخذتُ، ويكون إن شاء الله إبراز إذا الصُّحف نُشرت. وأكثر زماني يذهب في كيفية الخروج عما أنا فيه، فإذا يَنْظُر إليَّ العاقل في هذا الوقت بعين البصيرة، لا يسعه إلّا الشّفقة عليّ، والرَّحمة لي، فإنه يرى رَجُلًا مُطْرقًا أكْثر نهاره، ينظر إلى مآله، فلا ينشطُ إلى إصلاحه، وهو سابع ولا يَلْبس بالعبادة، وهو في زمانها المُقارب للفَوْت، ولا ينهضُ إلى إقامة حقّ كما ينبغي لعدم المُعين، ولا يجْنَح إلى شيء من راحات الدنيا، ويشاهدُ من علوم الباطل الذي لا طاقة له على رَفْعه ما يُضَيِّق صدر الحرِّ يقضي نصف النهار، مُختلًا في مكان غير حَسَن، تارةً يُفكر، وتارةً يكتُب ما هو على يقين منه أنه كذا لا يُنْتَفع به، ونِصْف النهار يقعد للناس، تارةً يرى ما يكره، وتارةً يسمع ما يكره، لا صديق يُذَكِّره بأمر الآخرة، ولا صديق يُسْليه بأمر الدنيا، يكفيني من هذه الغزارة، اللهمّ إليك المشتكى يا من بيده الخلق، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

شعره: من مُطَوّلاته في النزعة الغريبة التي انفرد بها، منقولًا من ديوانه، قال: ومما نظمته بِسَبْتة في ذي الحجة من عام خمسة وعشرين وسبعمائة، في وصف حالي، وأخَذَها عني الأستاذ بسبتة، أبو عبد الله بن هاني، والأديب البارع أبو القاسم الحسيني، وأبو القاسم بن حزب الله، وسواهم. ولما انفصلت من سبتة إلى بلاد الريف[1] زدت عليها أبياتًا في أولها، وكثر ذلك بوادي لو من بلاد الريف وهي: [الطويل]

تأسفتُ لكنْ حين عزَّ التأسُّفُ ... وكفكفتُ دمْعًا حين لا عينَ تذرفُ
ورام سكونًا هو في رِجْل طائر ... ونادى بأُنْسٍ والمنازل تعنفُ
أراقب قلبي مرَّةً بعد مرة ... فأُلْفيه ذيَّاك الذي أنا أعْرِفُ
سقيمٌ ولكن لا يحُسُّ بِدائه ... سوى مَنْ له في مأزق الموت مَوْقف
وجاذب قَلْبًا ليس يأوي لمَألَفٍ ... وعالج نَفْسًا داؤُها يتضاعف
وأغْجَبُ ما فيه استواءُ صفاته ... إذ الهَمُّ يُشْقيه أو السرُّ يَنْزِف
إذا حَلَّت الضَّرَّاءُ لم ينفعل لها ... وإن حلَّت السّراء لا يَتَكَيَّفُ
مذاهبُه لم تُبْد غاية أمْرِه ... فؤادٌ، لعمري، لا يُرى منه أطْرُفُ
فما أنا من قوم قُصارى هُمُومهم ... بنُوهم وأهلُهم وثوْبٌ وأرغُفُ

---

(١) تقع بلاد الريف في المغرب الأقصى. الإحاطة (ج ٢ ص ١٥١) حاشية رقم ١.

ولا لِيَ بالإسراف فكرٌ محدثٌ … سيغدو حَبيبي أو سيَشْعُر مُطْرف
ولا أنا مِمَّن لَهْوُه جلَّ شأنه … بروضٍ أنيق أو غزال مُهَفْهف
ولا أنا مِمَّن أُنْسُه غايةُ المُنَى … بصوتٍ رخيمٍ أو نديم وقَرْقَف
ولا أنا مِمَّن تَزْدَهيه مصانعٌ … ويُشْبيه بُستان ويُلهيه مُخَرَّف
ولا أنا ممن همُّه جَمْعَها فإن … تراءت يَثِب بسَعْيٍ لها وهو مُزجف
على أنَّ دهري لم تَدَع لي صُروفه … من المال إلّا مَسْحة أو مجلف
ولا أنا ممن هذه الدار همُّه … وقد غَرَّه منها جمالٌ وزُخرُفُ
ولا أنا ممن للسُّؤال قد انبَرى … ولا أنا ممن صان عنه التَّعَطف
ولا أنا ممن نجَّح الله سَعْيهم … فهمَّتهم فيها مُصَلًّى ومُصْحف
فلا في هَوًى أضحى إلى اللهو قائدًا … ولا في تُقَى أمسَى إلى الله يَزْلِف
أحارب دهري في نقيض طباعه … وحَزْبُك من يقضي عليك تَعَجْرف
وأنظره شَزْرًا بأصْلَف ناظر … فيعرِض عنّي وهو أَزْهى وأصْلَفُ
وأضبُطه ضَبْط المحدِّث صَحْفه … فيخرج في التَّوْقيع أنت المُصْحِفُ
ويأخذ مني كلَّ ما عزَّ نيلُه … ويبدو بجهلي منه في الأخذ مُختف
أدور له في كل وَجْهٍ لعلّني … سأُثْبته وهو الذي ظلَّ يحذف
ولما يئسنا منه تَهنّا ضرورة … فلم تَبْق لي فيها عليه تشوُّف
تكلَّفتُ قطع الأرض أطلب سَلْوَةً … لنفسي فما أجدى بتلك التكلُّف
وخاطرتُ بالنفس العزيزة مُقْدمًا … إذا ما تخطّى النَّصْلُ قصد مُزهف
وصرَّفت نفسي في شؤون كثيرة … لحظِّي فلم يظفر بذاك التَّصرُّف
وخُضت لأنواع المعارف أبْحُرًا … ففي الحين ما استجرتُها وهي تَنْزَف
ولم أحْلَ من تلك المعاني بطائل … وإن كان أهلوها أطالوا وأسْرَفوا
وقد مرّ من عمري الألَذُّ وها أنا … على ما مضى من عَهْده أتلهَّف
وإني على ما قد بَقي منه إن بقي … لحرمةِ ما قد ضاع لي أتخوَّف
أعُدُّ ليالي العمر والفرض صَوْمها … وحسْبُك من فَرْض المُحال تعسُّف
على أنها إن سلِّمت جَدَلِيَّةٌ … تعارض آمالًا عليها يُنيِّفُ
تُحدّثني الآمال وهي كدِينها … تُبَدِّل في تَحديثها وتُحرِّف
بأنّيَ في الدُّنيا سأقضي مآربي … وبَعْدُ يحقُّ الزهدُ لي والتقشُّف
وتلك أمانٍ لا حقيقة عندها … أفي قَرْني الضِّدَّين يبقى التكَلُّف؟

وربَّ أخِـلَّاء شـكـوتُ إلـيـهـم   ولـكـن لِفَهْـم الحال إذ ذاك لـم يَفُـوا[1]
فـبعـضـهـم يُزري عليَّ وبعـضـهـم   يـغـضُّ وبعـضٌ يَـرثـي ثـم يَـصْـدُف
وبـعـضـهـم يـومـي إلـيَّ تـعـجُّبًـا   وبـعـضٌ بـمـا قـد رأيـتـه يـتـوقـف
وبـعـضـهـم يُـلقـي جـوابـه عـلى   مُقْتَضى العقل الذي عنه يتوقَّف
يـسـيءُ استـمـاعًـا ثـم يُـعِـدُّ إجابـة   على غير ماتحذُوه يحذو ويخصف
ولا هـو يـبـدي لـي عـليّ تـعـقُّـلا   ولا هـو يَـرثـي لـي ولا هـو يَـعْـنِـفُ
ومـا أمْـرُنـا إلّا سـواءٌ إنـمـا   عـرفـنـا وكـلٌّ مـنـهـم لـيـس يـعـرف
فـلو قـد فَـرَغـنـا مـن عـلاج نـفـوسـنـا   وحطُّوا الدنيَّة من عليل وأنْصَفُوا[2]
أمـا لـهـم مـن عـلَّة أزمَـت بـهـم   ولـم يـعـرفـوا أغـوارهـا وهـي تَـتْـلَف؟
وحُضْنا لهم في الكَتْب عن كُنْه أمرهم   ومثلي عـن تـلك الحقائق يكشِفُ
وصنَّـفْـتُ فـي الآفـات كـلَّ غـريـبـة   فجاء كما يَهْوى الغريبُ المُصَنِّفُ
وليس عجيبًا من تركُّب جهلهم   فإن يحْجِبوا عن مثل ذاك وصرّفُوا[3]
إذا جاءنا بالسُّخف من نَزْو عقله   إذا مـا مَـثَـلـنـاه أزهَـى وأسْـخَـف
فـمـا جـاءنـا إلّا بـأمـرٍ مـنـاسـب   أينهض عن كفِّ الجبان المثَقَّف؟
ولكن عجيبُ الأمر علمي وغفلتي   فـديْـتُـكـم أيُّ الـمـحـاسـن أكْـشِـف
إلّا أَنـهـا الأقـدار يـظـهـرُ سـرُّهـا   إذا ما وفَى المقدور فالرأي يَخْلف
أيـا ربِّ إن الـلُّب طـاش بـمـا جـرى   بـه قـلمُ الأقـدار والـقـلبُ يَـرْجُـف
وإنّـا لـنـدعـوهـم ونـخـشـى وإنـمـا   على رسْمِك الشَّرعي من لك يَعْكُف
أقـول وفـي أثـنـاء مـا أَنـا قـائـلٌ   رأيـتُ الـمـنـايـا وهـي لـي تـتـخَـطَّف
وإني مع السَّاعات كيف تقلَّبت   لأسْـهُـمِـهـا إن فـوَّقَـت مُـتَـهـدِّف
ومـا جـرَّ ذا الـتَّـسـويـف إلّا شَـيـبـتـي   تُـخـيِّـل لـي طـولَ الـمـدى فـأُسَـوِّف
إذا جـاء يـومٌ قـلتُ هـو الـذي يـلي   ووقـتُـك فـي الـدنـيـا جـلـيـسٌ مُـخَـفَّـف
أقـدِّم رِجـلًا عـنـد تـأخـيـر أخـتِـهـا   إذا لاح شـمـسٌ فـالـنَّـفـس تَـكْـسـف
كـأنّـي لـداني الـمـراقـد مـنـهـم   ولـم أودعـهـم والـخَـضُّ ريّـان يَـنْـسِـف
وهَبْني أعيش هل إذا شاب مَفْرِقي   وولّى شـبـابـي هـل يُـبـاح الـتَّـشـوُّف؟
وكـيـف ويـستَـدْعـي الـطـريـق ريـاضـةً   وتـلك عـلى عـصـر الـشَّـبـاب تُـوَظَّـف

---

(١) في الأصل: «يُفُ».
(٢) في الأصل: «وأنْصَفُ».
(٣) في الأصل: «وصرفُ».

متى يقبل التَّقْويم غير عطوفة | وبي بَعْده جِسّان[١] فالنَّار تَنْسِف؟
ولو لم يكن إلّا ظُهورة سرّه | إذا ما دنا التَّدليس هان التنطُّف
أمَوْلى الأسارى أنت أوْلى بعذرهم | وأنت على المملوك أحقُّ وأعْطفُ
قَذَفْنا بلجِّ البحر والقيدُ آخذٌ | بأرْجُلِنا والرِّيح بالموج تعصف
وفي الكَوْن من سرِّ الوجود عجائب | أطلَّ عليها العارفون وأشْرَفوا[٢]
وكَعَتْ عليهم نكثةٌ فتأخَّروا | ودَذتُ بأن القوم بالكل أسْعَفُ
فليس لنا إلَّا أن نحطَّ رقابنا | بأبواب الاسْتِسلام والله يَلْطُف
فهذا سبيلٌ ليس للعبد غيرها | وإلّا فماذا يستطيع المُكلَّف

وقال: وضمنها محاورة بينه وبين نفسه، وقيَّدْتُها عنه زوال يوم الثلاثاء التاسع والعشرين لمحرم خمس وخمسين وسبعمائة، برابطة العُقاب[٣]، متعبد الشيخ ولي الله أبي إسحٰق الإلبيري، رحمه الله، فمنها[٤]: [الكامل]

يَأبى شجونَ حديثيَ الإفصاحُ | إذ لا تقومُ بشرْحِهِ الألواحُ
قالتْ صفيةُ إذ مررتُ[٥] بها | أفلا تَنَزّلُ ساعةً ترتاح؟
فأجبْتُها لولا الرقيبُ لكان لي[٦] | ما تَبْتَغي بَعْدَ الغُدُوّ رواح
قالت: وهل في الحيِّ حيٌّ غَيْرنا؟ | فاسمحْ فَدَيْتُكَ فالسماحُ رياحُ
فأجبتها: إنّ الرقيبَ هو الذي[٧] | بيَدَيْه منّا هذه الأرواح
وهو الشهيدُ على مواردِ عَبْده | سيَّان ما الإخْفاء والإفصاح[٨]
قالتْ وأين يكون جُودُ[٩] الله إذ | يُخْشى[١٠] ومِنْه هذه الأفراح
فافرحْ بإذن[١١] الله جلّ جلاله | واشْطَحْ فنَشْوانُ الهوى شطَّاح

---

(١) في الأصل: «بعد حسّا» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «وأشرفُ».
(٣) هي رابطة العقاب أو رباط العقاب، كانت تخصص للعبادة، وكانت على مقربة من مدينة غرناطة. الإحاطة (ج ٢ ص ١٥٥) حاشية رقم ٤ من تعليق الأستاذ محمد عبد الله عنان.
(٤) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٨ ـ ١٢٩).
(٥) في الكتيبة: «... صفية عندما مَرّتْ بها إبْلي أتنزلُ...».
(٦) في الكتيبة: «في».
(٧) في الكتيبة: «الرقيب هَوالِكٌ».
(٨) في الكتيبة: «والإيضاح».
(٩) في الأصل: «وجود» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.
(١٠) في الأصل: «تخشى» والتصويب من الكتيبة.
(١١) في الكتيبة: «فافرح على اسم الله».

وانهجْ[١] على ذِمَم الرجال ولا تَخَفْ ... فالحُكم[٢] رحْبٌ والنَّوال مُباح
وانزلْ على حكم السُّرور ولا تُبَلْ ... فالوقتُ صافٍ ما عليك جُناح
واخلعْ عِذارك في الخلاعة يا أخي ... باسم الذي دارَتْ به الأقداح
وانظر إلى هذا النهار فَسِنُّه ... ضَحِكتْ ونورُ جبينه وضَّاح
أنواره ضَحِكت[٣] وأُتْرِعَ كأسُه ... فقد استوى ريحانُه والرّاح
وانظرْ إلى الدنيا بنظرةِ رحمةٍ ... فجفاؤها بوفائها يَنْزاح
فأجبْتُها لو كنت تعلم[٤] ما الذي ... يبدو لتاركها وما يَلْتاح
من كلِّ معنًى غامضٍ من أجله ... قد ساح قومٌ في الجبال وناحوا[٥]
حتى لقد سَكِروا من الأمر الذي ... هاموا به عند العِيان فباحُوا[٦]
لَعَذَرْتني وعلمتِ أني طالب ... ما الزهد في الدنيا له مِفتاح
فاترك صفيَّك قارعًا باب الرضى ... والله جلَّ جلاله الفتّاح
يا حيُّ[٧]، حيِّ على الفلاح وخَلِّني ... فجماعتي حثُّوا المَطيَّ وراحُوا[٨]

وقيدتُ من خطه في جملة ما كتب إليّ ما نصه:

ومما نظمته بغرناطة، وبعضه ببَرْجة، وهو مما يعجبني، وأظنه كتبه لك، وهو غريب المنزع، وإنه لكما، قال[٩]: [الكامل]

خُذها على رغم الفقيه سُلافةً ... تُجْلى بها الأقمارُ في شمس الضُّحى
أبدى أطباءُ القلوب لأهلها ... منها شرابًا للنفس مُبَرِّحا[١٠]
وإذا المرائي[١١] قال في نَشْوانها ... قلْ أنت بالإخلاص فيمن قد صحا
ياقوتة[١٢] دارت على أربابها ... فاهتَزَّتِ الأقدام منها واللِّحا
مُزِجَتْ فغار الشيخُ من تَرْكيبها ... فلذاك جَرَّدها وصاح وسرَّحا[١٣]
فبدت[١٤] فغار الشيخ من إظهارها ... فاشتدَّ يبْتَدرُ الحجاب مُلَوِّحا

(١) في الكتيبة: «وارهجْ».
(٢) في الكتيبة: «فالحلم».
(٣) في الكتيبة: «نَفَحتْ».
(٤) في الكتيبة: «كنت عالمة الذي».
(٥) في الأصل: «وتاحُ» والتصويب من الكتيبة.
(٦) في الأصل: «وساحُ» والتصويب من الكتيبة.
(٧) في الكتيبة: «يا أختُ».
(٨) في الأصل: «وراحُ» والتصويب من الكتيبة.
(٩) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٩ ـ ١٣٠).
(١٠) في الكتيبة: «مفرّحا».
(١١) في الأصل: «وإذا امرؤ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(١٢) في الكتيبة: «يا قهوة».
(١٣) في الكتيبة: «وصرّحا».
(١٤) في الكتيبة: «وبدتْ».

لا تعترضْ أبدًا على مُسْتَرْفِد[١] قد غار من أسرارها أن يُفْضَحا[٢]
وكذاك لا تَعْتَبْ على مُسْتَهتر لم يدر ما الإيضاح لمّا أوضحا
سكرانُ يعثرُ في ذيول لسانه كُفرًا ويحسَبُ أنه قد سبَّحا
كَتمَ الهوى حريّةً[٣] بعضٌ وبعـ ضٌ ضاقَ ذَرْعًا بالغرام فبرَّحا
لا تخشينَّ[٤] على العدالة هاتفًا ثَغْر[٥] ارتياح العاشقين فجرّحا[٦]
الحبُّ خمرُ العارفين قد ضَفَتْ[٧] حتمًا على مَن ذاقها أن يَشْطَحا
فاشطحْ على هذا الوجود وأهله عُجْبًا فليس براجح من رَجَّحا
كَبِّرْ عليهمْ إنهمْ موتى على غيرِ الشَّهادة ما أغرَّ وأقْبحا
واهزأْ بهم فمتى يَقُلْ نُصَحاؤهم أهِجْ[٨] فقُلْ حتى ألاقيَ مُفْلحا
وإذا أريبُهُم[٩] استخفَّ فقُلْ له بالله يا يحيىٰ بن يحيىٰ دَعْ جِحا
أبَنِي سُليم قد نجا مجنُونكم مجنونَ ليلى العارفين[١٠] به قد محا
هل يستوي من لم يَبُحْ بحبيبه مَعَ مَنْ بِذِكر حبيبه قد أفْصَحا[١١]
فافرحْ وطِبْ وابهَجْ[١٢] وقلْ ما شئته[١٣] ما أمْلحَ الفقراءَ يا ما أمْلَحا

ومن مقطوعاته التي هي آيات العجائب، وطرزُ حُلل البدائع في شتى الأغراض والمقاصد، قوله يعتذر لبعض الطلبة، وقد استدبره ببعض حُلَق العلم بسَبْتة[١٤]: [السريع]

إن كنتُ أبْصَرْتُك لا أبْصَرَتْ بصيرتي في الحقِّ بُرْهَانَها
لا غَرْوَ أني لم أُشاهِدْكُمُ فالعينُ لا تُبْصِرُ إنسانَها[١٥]

(١) في الكتيبة: «مستهتر».
(٢) في الكتيبة: «تُفْضحا».
(٣) في الأصل: «كَمْ الهوى حربُ...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(٤) في الكتيبة: «لا تحسبنَّ».
(٥) في الكتيبة: «نَقْد».
(٦) في الكتيبة: «مُبَرِّحا».
(٧) في الكتيبة: «خمر العاشقين وقد قضتْ».
(٨) في الكتيبة: «أفلحْ».
(٩) في الكتيبة: «وإذا رزينهُمُ استخفَّكَ...».
(١٠) في الكتيبة: «العامرية».
(١١) في الكتيبة: «صرحا».
(١٢) في الكتيبة: «وارهجْ».
(١٣) في الأصل: «شئت» والتصويب من الكتيبة.
(١٤) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١٣١) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٦) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٢٦).
(١٥) إنسان العين: بؤبؤها. لسان العرب (أنس).

ومنها قوله في غرض التورية، وهو بديع في معناه(١): [الطويل]

يلومونني بعد العِذار على الهوى ... ومِثْليَ في وَجْدي(٢) له لا يُفَنَّد(٣)
يقولون(٤) أَمْسِكْ عنه قد ذَهَبَ الصِّبا ... وكيف يُرى(٥) الإمساك والخيط أسودُ؟(٦)

ومنها قوله في المُجَبَّنات، وهو من الغريب البديع(٧): [الطويل]

ومُصْفَرَّةِ الخَدَّين مطويَّةِ الحشَا ... على(٨) الجُبْن والمُصْفَرُّ يُؤذن بالخوفِ
لها هيئة(٩) كالشمس عند طلوعها ... ولكنها في الحين تَغْرُبُ في الجَوْفِ

ومنها قوله في النُّصح، ولها حكاية تقتضي ذلك: [الكامل]

لا تَبْذُلَنَّ نصيحةً إلّا لمن ... تَلْقى لبَذْل النُّصح منه قَبُولا
فالنصحُ إن وجَدَ القبولَ فضيلةٌ ... ويكون إن عَدِم القبولُ فضولا

ومنها في الحكم(١٠): [الخفيف]

ما رأيتُ الهمومَ تَدْخلُ إلّا ... من دروب العُيونِ والآذانِ
غُضّ طَرْفًا وسُدَّ سَمْعًا ومهما(١١) ... تَلْقَ همًّا فلا تَثِقْ بضمانِ

ومنها قوله، وهو من المعاني المبتكرات(١٢): [الكامل]

حَزنَتْ عليك العينُ يا مَغْنى الهوى ... فالدمعُ منها بَعْدَ بُعْدك ما رَقا(١٣)

---

(١) البيتان في الكتيبة (ص ١٣١) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٦) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٢٣).
(٢) في الكتيبة وتاريخ قضاة الأندلس: «حبّي». (٣) يُفَنَّد: يُتَّهم بالكذب. لسان العرب (فند).
(٤) في الأصل: «يقولون لي أمسك...». وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر.
(٥) في المصادر: «أرى».
(٦) في البيت تورية؛ فالإمساك يطلق على الصوم، وأراد هنا الكَفّ عن الحب. والخيط الأسود يطلق على الليل، وأراد العِذار، وفي التنزيل الكريم: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ١٨٧.
(٧) البيتان في الكتيبة (ص ١٣١)، وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٥)، ونفح الطيب (ج ٨ ص ٢٣).
(٨) في الكتيبة: «عن».
(٩) في الكتيبة وتاريخ قضاة الأندلس ونفح الطيب: «بَهْجَةٌ».
(١٠) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٢).
(١١) في الكتيبة: «... سمعًا وإن أحسست همًّا...».
(١٢) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٢ ـ ١٣٣) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٢٧).
(١٣) أصل القول: «رقأ»، وقد أسقط الهمزة للضرورة الشعرية؛ يقال: رقأ الدمعُ إذا جفّ. لسان العرب (رقأ).

ولذاك قد[١] صُبِغَتْ[٢] بلونٍ أزرقٍ ... أو ما ترى ثَوْبَ المآتم أزرقا؟

ومنها قوله في المعاني الغربية. قال: ومما نظمته في عام أربعة وأربعين في التفكر في المعاني، مُغْلق العينين: [السريع]

أبحث فيما أنا حَصَّلْتُه ... عند انْغماض العين في جَفْنها

أحْسَبُني كالشاة مجترَّة ... تمضغ ما يخرج من بَطْنها

وقال: ومما نظمته بين أنْدَرش وبرْجة[٣] عام أربعة وأربعين، وأنا راكب مسافر، وهو مما يُعجبني، إذ ليس كل ما يصدر عني يُعجبني. قلتُ ويحقُّ أن يعجبه[٤]: [الطويل]

تطالبني نفسي بما ليس لي به ... يَدَانِ[٥] فأعطيها الأمانَ[٦] فَتَقْبَلُ

عجبْتُ لخَصْمٍ لَجَّ في طلباته ... يصالحُ عنها[٧] بالمحالِ فيفصلُ

[قال: ومما نظمته في السنّة المذكورة من ذمّ النساء][٨]: [الخفيف]

ما رأيتُ النِّساءَ يَصْلُحْن إلّا ... للذي يَصْلح الكنيف لأجْلِهْ[٩]

فعلى هذه الشريطة صالِحـ[١٠] ... ـهنَّ لا تَغْدُ بامرىء عن محلِّهْ

قال: ومما نظمته في السنّة المذكورة[١١]: [الخفيف]

قد هجرتُ[١٢] النساء دهرًا فلم أبْـ ... ـلغْ أذاني[١٣] صفاتِهنَّ الذميمهْ

ما عسى أن يُقال في هجو مَن قد ... خَصَّه المصطفى بأقبح شيمهْ

أوَ يبقى لناقِصِ[١٤] العقلِ والدِّيـ ... ـنِ إذا عُدَّتِ المثالبُ قيمهْ؟

وقال: وما نظمته في تاريخ لا أذكره الآن، هذان البيتان، ولم أر معناهما لمن مضى. ولو رحل رجل إلى خراسان، ولم يأت إلّا بهما، كان ممن لم يخفق

---

(١) في الكتيبة: «ما». (٢) في النفح: «ظهرتْ».
(٣) أندرش وبرجة كانتا في عهد ابن الخطيب تابعتين لمقاطعة ألمرية.
(٤) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٣) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٢٦).
(٥) ليس لي به يدان: ليس لي عليه قدرة. (٦) في الكتيبة: «وأعطيها الأماني».
(٧) في الكتيبة: «عنه». (٨) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٣).
(٩) في الأصل: «من أجله» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب في الكتيبة الكامنة.
(١٠) في الكتيبة: «فأصحبهنَّ». (١١) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٣).
(١٢) في الكتيبة: «قد هجوتُ».
(١٣) في الأصل: «آذاني» وهكذا ينكسر الوزن. وفي الكتيبة الكامنة: «أداني» بدال غير معجمة.
(١٤) في الأصل: «لنا قِصَر» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

مسعاه، ولا أجدب مرعاه، ينفَتح بهما للقلب باب من الراحة فسيحٌ، إذا أجهده ما يكابد من المَضاضة، ونَقْض العهود، واختلاف الوعود. وهذه المحنة من شرٍّ ما ابتُلي به بنو آدم، شَنْشَنة نعرفها من أمرهم. ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنَسي[١]: [الطويل]

رعى اللهُ إخوانَ الخيانةِ إنهمْ كَفَوْنا مؤوناتِ البَقَاءِ[٢] على العَهْدِ
فلو[٣] قد وَفَوْا كنّا[٤] أسارى حُقُوقهمْ نراوح ما[٥] بين النَّسيئة والنقد

وقال يُداعبني، وعلى سبيل الكناية يخاطبني: ولقد لقيت رجلًا ببلاد الهند يعرف بأبي البركات ابن الحاج، وكان بَرد في بستان كان له، فقلت أهجوه عام أربعة وأربعين وسبعمائة: [الكامل]

قالوا أبو البركات جَمٌّ[٦] ماؤه فغدا أبو البركات لا البركاتِ[٧]
قُلنا لأن يُكنى بموجوداته أولى مِنَ أن يكنى بمعْدُوماتِ

ومما نظمته عام خمسة وأربعين وسبعمائة[٨]: [السريع]

قد كنتُ معذورًا بعلمي وما أبثُّ من وعظيَ بين البَشَرْ[٩]
من حيث قد أَمَّلْتُ إصلاحَهُمْ بالوعظ والعلم فخانَ النَّظَرْ
فلم أجد أوْعَظَ للناس من أصواتِ وُعّاظِ جلود البقرْ

ومما نظمته بمرسى تلهى، من بلد هُنين[١٠]، عام ثلاثة وخمسين، وقد أصابني هَوَسٌ في البحر وخاطبت به بعض الأصحاب: [الكامل]

رأسي به هَوَس جديد لا الذي تَذريه من هوسٍ قديم فيه
قد حلَّ ما أُبديه من هذا كما قد حلَّ من ذاك الذي أخفيه

---

(١) البيتان في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٥) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٢٦).
(٢) في الأصل: «البقا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين السابقين.
(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «ولو قرّبوا كنّا...».
(٤) في النفح: «كانوا».
(٥) كلمة «ما» ساقطة في الأصل، وهكذا ينكسر الوزن، وقد أضفناها من المصدرين السابقين.
(٦) جَمٌّ ماؤه: كثر واجتمع. محيط المحيط (جمم).
(٧) في الأصل: «لا أبا البركات» وهكذا ينكسر الوزن.
(٨) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٣ ـ ١٣٤).
(٩) في الكتيبة: «... مغرورًا بوعظي وما... علميَ بين...».
(١٠) هونين: بلد في جبال عاملة في جنوب لبنان. معجم البلدان (ج ٥ ص ٤٢٠).

ومن الملح قوله: قال: وبِتُّ بحمام الخندق من داخل ألمرِية ليلة الجمعة الثامن من شهر محرم عام اثنين وثلاثين منفردًا، فطُفِىء المصباح، وبقيت مُفكرًا، فخطر ببالي ما يقول الناس من تخيُّل الجنّ في الأرحاء والحمامات، وعدم إقدام كافة الناس إلّا ما شذَّ عند دخولها مُنفردين بالليل، لا سيما في الظلام، واستشعرتُ قوة في نفسي عند ذلك، أعراضٌ وأوهام، فقلت مرتجلًا، رافعًا بذلك صوتي: [الكامل]

زعم الذين عقولهمْ قَدَرُها ... إن عُرِّضتْ للبيع غير ثمينِ
أن الرَّحا معمورة بالجن والـ ... حمّام عندهم كذا بيقين
إن كان ما قالوه حقًا فاحضروا ... للحرب هذا اليوم من صِفِّين
فلئن حضرتم فاعلموا بحقيقة ... بأني مُصارع قيسٍ المجنون

قال: ودخلت رياضًا يومًا، فوجدتُ كِساء منشورًا للشمس لم أعرفه من حوائجي، ولا من حوائج حارسة البستان، فسألتها فقالت: هو لجارتي، فقلت: [الكامل]

مَنْ مُنْصفي من جارتي جارت على ... مالي كأني كنتُ من أعدائها
عمدتُ إلى الشمس التي انتشرت على ... أرضي وأمّت فيه بئس كسائها
لولا غُيومٌ يومَ تَيْبَس الكسا ... سرَّتْ لحجب السُّحْب جلّ ضيائها
لقضيتُ منهمْ ألخسار لأنني ... أصبحتُ مُزوَرًا على بُخلائها

قلت: وصرت إلى مَغْنًى بحَمَّة بجّانة[١]، وسار معي كلبٌ كان يحرس رياضي اسمه قَطْمير، وهو، فيما يُذْكر، كلب أهل الكهف، في بعض الأقوال، فتَبِعني من ألمريّة إلى الحمّة، ثم من الحمّة إلى ألمرية، فقلت: [المتقارب]

رحلتُ وقطميرُ كلبي رفيقي ... يونس قلبي بطُول الطريقِ
فلمّا أنختُ أناخ حذائي ... يلاحظني لحظَ خلٍّ شفيقِ
ويرعى أذمّة رفقي كما ... يتغَنّى الصديقُ الصدوق
على حين قومي بني آدم ... بلُؤمهم لم يوفُوا حقوقي
ولا فرق بين الأباعِد منهم ... وبين أخ مُسْتَحب شفيق
أو ابن متى تلْقاه تَلْقه ... هويَّ اشتياق بقلب خَفُوق

(١) بجانة: بالإسبانية Pechina، وهي مدينة بالأندلس، وحَمَّة بجانة عجيبة الشأن، تقع في جبل شامخ يبعد عن بجانة ثلاثة أميال. الروض المعطار (ص ٧٩).

فما منهم من وليٍّ حميم ولا ذي إخاءٍ صحيح حقيق
وناهيك ممن يُفضّل كلبًا عليهم فيا ويلهم من رفيق
ألا من يرقّ لشيخ غريب أبي البركات الفتى البلْفيق

وقال: وممّا نظمته بتاريخ لا أذكره هذين البيتين[١]: [الطويل]

وإنّي لخيرٌ[٢] من زماني وأهله على أنني للشَّرِّ أوّلُ سائقِ[٣]
لحى اللهُ دَهْرًا قد تَقَدَّمْتُ أَهْلَه فتلك لعَمْرُ اللهِ إحدى البَوائقِ

ومن النزعات الشاذة الأغراض: [البسيط]

لا بارك الله في الزُّهاد إنهمُ لم يتركوا عرَض الدنيا لفضلهمُ
بل أثقلتهم تكاليف الحياة فلم يُصايروها فملُّوا ثقل حملهمُ
وعظّم الناس منهم تركها فغدوا من غبطة التَّرك في حرص لأجلهم
نعم أُسَلِّم أن القوم إذ زهدوا زادًا وأعلَى الناس طرًّا فضل تركهم
من حيث قد أحرَزوا التَّرجيح دونهم لا شيء أبين من ترجيح فضلهم
فالمالُ والجود والراحات غايةُ ما يحكي لنا الزهد في ذاعن أجَلِّهم
والزاهدون براحات القلوب مع الـ أبدان سُرُّوا وعزُّوا بعد ذلِّهم
فكل ما فرَّقوا قد حصّلوا غرضًا منه وزادوا ثناء الناس كلِّهم

قال: ومما نظمته عام أربعين في ذم الخمر من جهة الدنيا، لا من جهة الدين، إذ ليس بغريب: [الطويل]

لقد ذمَّ بعضَ الخمر قومٌ لأنها تُكِرُّ على دين الفتى بفساد
وقد سَلَّموا قول الذي قال إنها تَحلُّ من الدنيا بأعظم ناد
وتذهب بالمال العظيم فلن ترى لمُدْمنها من طارفٍ وتلاد
فيُمْسي كريمًا سيِّدًا ثم يَغْتدي سفيهًا حليفَ الغيِّ بعد رشاد
وقالوا: تسلّى وهو عاريةٌ لها وإلّا فلم يأتوا لذاك بشاد
وصِلٌ[٤] ونورٌ وحسناءُ طفلة ومَرْأى به للظَّريف سير جواد

---

(١) البيتان في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٦).
(٢) في الأصل: «وأين الخير» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من تاريخ قضاة الأندلس.
(٣) في الأصل: «سابق»: والتصويب من تاريخ قضاة الأندلس.
(٤) أصل القول: «وصلة» وهكذا ينكسر الوزن.

وهلّا[١] يُداوَى من مرارتها التي أواخرها مقرونةٌ بمِهاد؟
ولو أُشْرِب الإنسان مَهْلًا بهذه لأصبح مسرورًا بأطْيَب زاد
ومن حُسْن حال الشّاربين يُقَيِّؤ نها بالرغم من برقٍ وِساد[٢]
ومن حُسْن ذا المحروم أنَّ مُدامَه إذا غَلَبت تكسوه ثوبَ رُقاد
فيختلف النُّدمان طرًّا لروحه ويحدوهم نحو المروءة حادي
ومن حُسْنه بين الورى ضربُ ظهره فيُمسي بلا حرب رهين جِلاد
مجانينُ في الأوهام قد ضلَّ سعيهم يخففون بيعًا بحسن غَواد

ومن نظمه في الإنحاء على نفسه، واستِبْعاد وجوه المطالب في جنسه، مِمّا نظمته يوم عرفة عام خمسين[٣] وأنا مُنْزَوٍ في غارٍ ببعض جبال ألمرية[٤]: [الخفيف]

زعموا أنَّ في الجبال رجالًا[٥] صالحينا[٦] قالوا من الأبْدالِ
وادَّعوا أنَّ كلَّ مَنْ ساحَ فيها فسَيَلْقاهُمْ على كلِّ حالِ
فاخترقْنا تلك الجبال مرارًا بِنِعالٍ طَوْرًا ودون نعال
ما رأينا فيها سويّ[٧] الأفاعي وشَبا[٨] عقربٍ كمثل النبال
وسباعًا يجْرون[٩] بالليل عَدْوًا لا تسلني عنهمْ بتلك الليالي[١٠]
وَلَو أنّا[١١] لدى العُدْوة الأخـ ـرى رأينا نواجذَ الرِّئبال[١٢]
وإذا أظلم الدُّجى جاء إبليـ ـس إلينا يزورُ طَيْفَ الخيال[١٣]

---

(١) أصل القول: «وهل» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) هكذا ورد عجز هذا البيت، وهو منكسر الوزن.
(٣) يعني عام خمسين وسبعمائة كما في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٨).
(٤) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٨).
(٥) في الأصل: «قومًا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٦) في الأصل والنفح: «صالحين» وهكذا ينكسر الوزن.
(٧) في النفح: «خلاف».
(٨) شبا العقرب: إبرتها التي تلدغ بها، واحدتها شباة. محيط المحيط (شبا).
(٩) في الأصل: «يخترون» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١٠) في الأصل: «الفيال» والتصويب من النفح.
(١١) في الأصل: «ولو كنّا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١٢) الرئبال: الأسد، ونواجذه: أنيابه، واحدها ناجد. محيط المحيط (رأبل) و(نجذ).
(١٣) في النفح: «خيال».

هـو كـان الأنـيـسَ فـيـهـا ولـولا ه أصيبتْ عقولُنا بالخَبال[١]

خَلِّ عنك المُحالَ يا من تَعَنَّى ليس يلقى[٢] الرِّجالَ غيرُ الرجال

قال: ومن المنازع الغريبة ذمُّ الأصحاب ومدحُ الأعداء، فمن ذلك قولي: [المتقارب]

جـزى الله بـالـخـيـر أعـداءنـا فـمـوردهـمْ أنْـسَـى الـمـصـدرِ

هـم حَمَلونا على العُرْف كرْهًا وهـم صَرَفونا عن المُنْكر

وهـم أقْعَدونا بمجلس حُكْمٍ وهـم بَـوَّؤونا ذُرى المِنْبر

وهـم صـيَّـرونـا أئـمـة عـلـم وديـنٍ وحـسْـبُـك مـن مَـفْـخَـرِ

عـدُوِّي بـأول فـدي مَـأْثـم وإن جِئتُ بالإثم لم يغْذُر

وأنت ترى تمحيص من يَعْد ل بين المُسِيء وبين البَرِي[٣]

ولا زَوَّد الله أصـحـابـنـا بـزاد تَـقِـيٍّ ولا خـيِّـرِ

هـم جَـرَّؤونـا عـلى كـل إثْـم وما كنتُ لولاهمُ بالمُخْبر

وعـدُّوا مِـنَ اكـبـار آثـامـنـا فـكـانـوا أضرَّ مـن الـفـاتـر

أعـارنـي الـقـوم ثـوب الـتُّـقـى وإنـي مـمـا أعـاروني بَـري

إذا خدعوني ولم يَنْصحوا وإني بالنُّصح منهم حَرِي

فمن كان يَكْذِب حال الرِّضى يَـضْـدُق فـي غـضـبٍ يَـفْـتَـري

بَلَى سوف تلقى لدى الحالتين يـحْـكُـم الـنَّـفْـس هـوى الـفَـرِي

فـيـاربِّ أبـق عـلـيـنـا عـقـولـنـا نَـبِـيـع بـهـا وبـهـا نَـشْـتَـرِي

قال: وما رأيتُ هذا المعنى قط لأحد، ثم رأيت بعد ذلك لبعضهم ما معناه: [الطويل]

عُداتي لهم فضلٌ عليّ ومِنَّة فلا أذْهَبَ الرحمٰن عنّي الأعاديا

هم بَحَثوا عن زلَّتي فاجتنبتها وهم نافَسُوني فاكتسبْتُ المعاليا

فوقع حافري على ساق هذا. قال: ومما نظمته، متخيِّلًا أني سابقٌ معناه: [الوافر]

خَـلَـسْـنـا لـيـلـة مـن كـفِّ دهْـرٍ ضَـنِـيـن بـالـلـيـالـي الـطـيِّـبـاتِ

---

(١) الخبال: الجنون. لسان العرب (خبل). (٢) في الأصل: «تلقى» والتصويب من النفح.

(٣) في الأصل: «البر». والبري: أصلها: البريء، وقد حذفت الهمزة للضرورة الشعرية.

سَلكنا للهوى والعقل فيها ... مسالكَ قد جُلين على الشَّتاتِ
قَضَينا بعض حقِّ النفس فيها ... وحقُّ الله مرعيُّ الثَّبات
فلم نر قَبْله في الدهر وقتًا ... بَدَت حسناتُه في السيِّئات

ثم رأيت بعد ذلك على هذا: [مخلع البسيط]

لا وليالٍ على المُصَلَّى ... تسرق في نُسكها الذنوبُ

فوقعت ساقي على حافر هذا المحروم، إلا أني جَرَّدت ذلك في المعنى، وأوضحتُه، وجَلَوته على كرسي التَّقْعيد والتَّنْجيد، فلولا التاريخ لعاد سارق البرق.

نثره: وأمّا نثره، فنمطٌ مرتفع عن مُعتاد عصره، استِنْفارًا وبلاغة، واسترسالًا وحلاوة، قلّما يُعَرِّج على السَّجْع، أو يأمر على التَّكليف، وهو كثير بحيث لا يَتَعيّن عيونُه، ولكن نُلمع منه نُبْذة، ونَجلب منه يسيرًا. كتب إليَّ عند إيابي من الرِّسالة إلى ملك المغرب، متمثِّلًا ببيتين لمن قبله، صدَّر بهما[1]: [السريع]

أيتها[2] النفسُ إليه اذْهبي ... فحبُّهُ المشهورُ مِنْ مذهبي
أيأسني[3] التَّوْبةَ مِنْ حُبِّه ... طلوعُهُ شمسًا من المغرب

بل محلُّك أمْثَلُ من التمثيل بالشمس، فلو كان طلوعك على هذه الأقطار شمسًا، لأصبح جُلُّها لك عُبَّاد. ولو كان نزولُك مطرًا لتكيَّفَت الصُّخور تُرابًا دَمِثًا. ولولا معرفتُنا مَعْشر إخوان الصَّفا، بإقْرَار أنفسنا، لحكمنا بأن قلوبَنا تمائمُ لأصدقائنا، ولكن سبقت عيون السعادة بالكلّات، فلو تُصادف بالرضى محلًّا؛ لأنّ تحصيل الحاصل مُحال، لا زلتَ محروسًا، بعين الذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم مَكْنُوفةً ببَرَكة الذي يرومه رائم، والسلام.

وكتب إليَّ عندما تقلّدتُ من رئاسة الإنشاء ما تقلدت: تخصكم يا محلَّ الابن الأرْضَى ولادة، والأخ الصادق إخلاصًا ووُدًّا، خصَّكم الله من السعادة بأعلاها مَرْقى، وأفضلِها عُقبى، وأحمدها غِنًى، وأكرمها مسعى، تحيَّة اللَّهفان إلى أيام لقائك، المُسْلى عنها بتأميل العود إليها، المُزْجى أوقاته بترداد الفِكر فيها، محمد بن الحاج، أبقاه الله، عن شوق، والذي لا إله إلّا هو، لم أجد قط مثلَه إلى وليٍّ حميم. والله على ما نقول وكيل، معرِّفًا أنني بعَلاقمه، وتُضْليني عن كسره مجامعُه، لما اعتنى به

---

(١) البيتان لابن خروف الشاعر، وقيل لغيره، وهما في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٦).
(٢) في الأصل: «يا أيتها» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٣) في الأصل: «إيأسي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

من توقُّلِكم بالرُّتبة التي ما زال أحبَّاؤكم بها مَمْطولي بِرّه، على أنك لم تَزِد بذلك رُتْبة على ما كنت باعتبار الأهليَّة، والمكانة العليَّة، إلّا عند الأطفال والأغْفال، والمُحلّقين من النساء والرجال، لكن أفزعتنا هذه المخاطبة المحظيَّة في قالب الجمهُور، ولم نسر فيها، على الأصح، لكن على الجمهور، ولو كانت مَصَارِف الوجود بيدي، لوافَتْك من الوجود منازلُ أسْمائه منازل، وأوطأتك أفلاكُه مَراكب، وأوْرَدتك كوثره مَشْربًا، وأحللتك أرفعه مَعْقِلا، وأقْبَسَتْك بدره مصباحًا، وأهدتك أسراره تُحفًا. وقد تبلغ المقاصدُ مبالغَ لا تنتهي أقاصيها الأعمال، فنحن وما نُضْمره لتلك الجملة الجليلة الفاضلة، مما الله رقيبٌ عليه، ومحيطٌ بدقائقه. ولو كانت لهذا العَبْد الغافل، المأسور في قيد نفسه، المحزُون على انتهاب الأيام، رأس عمره في غير شيء، دعوةٌ يساعدها الوَجْدُ حتى يغلبَ على ظنّه أن العَليم بذات الصدور، ولّاها من قبوله بارقةً لخصّك بها، والله شهيد على ما تكنُّه الأفئدة، وهو حسبُنا ونعم الوكيل.

والفضلُ جمٌّ، والمحاسنُ عديدة، فلنقصر اضطرارًا، ولنكُفَّ امتثالًا للرسم، وانقيادًا، أمْتَع الله به.

محمد بن عبد الله بن منظور القيسي[1]

من أهل مالقة، يكنى أبا بكر.

أوَّليَّته: أصله[2] من إشبيلية، من البيت المشهور بالتَّعيين والتقدّم، والأصالة، تشهد بذلك جملة أوضاع، منها «الرَّوض المحظور[3] في أوصاف بني منظور»، وغيره.

حاله: من كتاب «عائد الصلة». كان[4] جمَّ التواضع والتخلّق، كثير البرّ، مفرط الهَشّة، مبذول[5] البِشر، عظيم المشاركة، سريع اللسان إلى الثَّناء، مُسْترسلًا في باب الإطراء، دَربًا على الحكم، كثير الحُنْكة، قديم العالة، بصيرًا بالشُّروط، وُلّي القضاء بجهات كثيرة، وتقدم بمالقة، بلده فشُكرت[6] سيرته، وحُمدت مدارته. وكان سريع

---

(١) ترجمة ابن منظور في الكتيبة الكامنة (ص ١١٩) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٣٧) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢). وجاء في المصدر الأخير أنه «أبو بكر محمد بن عبيد الله بن محمد بن يوسف بن يحيىٰ بن عبيد الله بن منظور...».

(٢) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢). (٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «المنظور».

(٤) النص في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢).

(٥) في تاريخ قضاة الأندلس: «مبدول» بالدال المهملة.

(٦) في المصدر نفسه: «فحمدت سيرته، وشكرت طريقته...».

العَبْرة، كثير الخَشْية، حسن الاعتقاد، معروف الإيثار والصَّدَقة، شائع الإقراء لمن ألَمّ بصُقْعه، واجتاز على محلِّ ولايته، جاريًا على سُنن سلفه، ينظم وينثر، فلا يقصر.

مشيخته: قرأ[١] على الأستاذ أبي محمد بن أبي السَّداد الباهليّ، ولازمه وانتفع به، وسمع على غيره من الأعلام، كالخطيب الولي أبي عبد الله الطَّنجالي، والعَدْل الراوية المُسنّ أبي عبد الله بن الأديب، والمسن أبي الحكم مالك بن المُرَحّل، وعلى الشيخ الصوفي أبي عبد الله محمد بن أحمد الأقشري الفاسي، ولبس عنه خِرْقة التَّصوف، وعلى الخطيب أبي عبد الله بن رُشيد، وعن الشيخ القاضي أبي المجد بن الأحوص، وعلى ابن مجاهد الرُّندي، المعروف بالسَّمَّار، والخطيب أبي العباس بن خميس بالجزيرة الخضراء، وعلى الخطيب الزاهد أبي عبد الله السلّال. وكتب إليه بالإجازة، أبو عبد الله بن الزبير، والفقيه أبو الحسن بن عَقيل الرُّنْدي، والوزير المُعمِّر أبو عمر[٢] الطَّنجي، وأبو الحكم بن منظور، ابن عم أبيه، والأستاذ أبو عبد الله بن الكماد. نقلت ذلك من خطه.

تواليفه: أخبرني[٣] أنه ألّف «نفحات المُسُوك[٤]، وعيون التِّبر المَسْبُوك في أشعار الخلفاء والوزراء والملوك». وكتاب «السُّحُب[٥] الواكفة والظِّلال الوارفة، في الردّ على ما تضمّنه المضنون[٦] به على غير أهله من اعتقاد الفلاسفة». وكتاب «الصَّيِّب الهتّان، الواكف بغايات الإحسان، المشتمل على أدعية مستخرجة من الأحاديث الصحيحة النبوية وسُور القرآن». وكتاب «البرهان والدليل في خواص سور التَّنْزيل، وما في قراءتها في النوم من بديع التأويل[٧]». وكتاب يشتمل على أربعين حديثًا في الرقائق، موصولة الأسانيد. وكتاب «تُحفة الأبرار في مسألة النبوة والرسالة، وما اشتملت عليه من الأسرار». وكتاب «الفعل المبرور، والسَّعي المشكور، فيما وصل إليه، أو تحصل لديه من نوازل القاضي أبي عمر بن منظور».

شعره: ومن شعره قوله[٨]: [البسيط]

مـا لِلعِـطـاسِ ولا لِلفـألِ مـن أثـرِ فَثِقْ فديتُكَ[٩] بالرحمـنِ واصطَبِرِ

---

(١) النص أيضًا في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢)، ولكن باختصار.
(٢) في المصدر نفسه: «أبو عمرو». (٣) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢).
(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «النسوك». (٥) في المصدر نفسه: «السجم».
(٦) في المصدر نفسه: «المظنون به من اعتقادات الفلاسفة».
(٧) وقوله: «وما في قراءتها... التأويل» ساقط في تاريخ قضاة الأندلس.
(٨) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١١٩) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢).
(٩) في تاريخ قضاة الأندلس: «بدينك».

وسَلِّمِ الأَمْرَ فالأحكامُ ماضيةٌ تجري على السَّنَنِ[١] المربوطِ بالقدرِ

محمد بن علي بن الخضر بن هارون الغساني

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عَسْكر[٢].

حاله: من كتاب «الذَّيل والتكملة»[٣]: كان مُقرئًا[٤] مُجَوِّدًا، نحويًا[٥]، متوقّد الذهن، متفنّنًا في جملة معارف، ذا حظٍّ صالح من رواية الحديث، تاريخيًا، حافظًا، فهيمًا[٦]؛ مشاورًا، دؤوبًا[٧] في الفتوى، متينًا في[٨] الدِّين، تامَّ المروءة، سنيًّا فاضلًا، مُعَظَّمًا عند الخاصة والعامة، حسن الخلق، جميل العشرة، رحيب[٩] الصَّدْر، مسارعًا إلى قضاء الحوايج[١٠]، شديد الإجمال[١١]، محسنًا إلى مَن أساء إليه، نفّاعًا بجاهه، سَمْحًا بذات يده، متقدِّمًا في عقد الوثائق، بصيرًا بمعانيها، سريع البديهة[١٢] في النظم والنثر، مع البلاغة والإحسانِ في الفنَّين.

وُلِّي قضاء مالقة نائبًا عن القاضي[١٣] أبي عبد الله بن الحسن مدة، ثم وُلي[١٤] مستبِدًّا بتقديم الأمير أبي عبد الله بن نصر[١٥]، يوم السبت لليلتين بقيتا من رمضان عام[١٦] خمسة وثلاثين[١٧]. وأشفق[١٨] من ذلك وامتنع منه وخاطبه مُسْتَعفيًا، وذكر أنه لا يصلح للقيام بما قلّده من تلك الخُطَّة تورُّعًا منه، فلم يُسْعفه.

---

(١) في الأصل: «السُّنّ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٢) ترجمة ابن عسكر في التكملة (ج ٢ ص ١٣٩) والذيل والتكملة (السفر السادس ص ٤٤٩) وبغية الوعاة (ص ٧٦) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٥٨) واختصار القدح المعلى (ص ١٣٠) والمغرب (ج ١ ص ٤٣١) ونفح الطيب (ج ٣ ص ١١١) و(ج ٤ ص ٤٧٨) و(ج ٦ ص ٨٤).

(٣) الذيل والتكملة (السفر السادس ص ٤٥٠).

(٤) في الأصل: «مُغربًا» والتصويب من الذيل والتكملة.

(٥) في الذيل: «نحويًا ماهرًا».

(٦) في الذيل: «فقيهًا».

(٧) في الذيل: «دربًا بالفتوى».

(٨) في الذيل: «متين الدين».

(٩) في الذيل: «رحب».

(١٠) في الذيل: «حوائج الناس».

(١١) في الذيل: «الاحتمال».

(١٢) في الذيل: «سريع القلم والبديهة في إغشاء نظم الكلام ونثره».

(١٣) كلمة «القاضي» ساقطة في الذيل.

(١٤) في الذيل: «وليه».

(١٥) هو الغالب بالله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر، أول سلاطين بني نصر بغرناطة، وقد حكم من سنة ٦٣٥ هـ إلى سنة ٦٧١ هـ. اللمحة البدرية (ص ٤٢).

(١٦) كلمة «عام» ساقطة في الذيل.

(١٧) في الأصل: «خمس وثلاثين» وهو خطأ نحوي. وفي الذيل: «خمس وثلاثين وستمائة».

(١٨) في الذيل: «فأشفق».

فتقلّدها، وسار فيها أحسن سيرة، وأظهر الحقوق التي كان الباطل قد غَمَرها، ونفّذ الأحكام.

وكان ماضي العزيمة، مِقْدامًا، مهيبًا، جَزْلًا في قضائه، لا تأخذه في الله لومة لائم، واستمرّ على ذلك بقية عمره.

مشيخته: روى[١] عن أبي إسحاق الزَّوالي، وأبي بكر بن[٢] عتيق بن منزول[٣]، وأبي جعفر الجيان[٤]، وأبي حسن الشقُوري، وأبي الحجاج بن الشيخ، وأبي الخطّاب بن واجب، وأبي زكريا الأصْبهاني مُقيم غرناطة.

مَن روى عنه: روى[٥] عنه أبو بكر بن خميس ابن أخته، وأبو العون[٦]، وأبو عبد الله بن بكر الإلْبِيري[٧]. وحدّث عنه بالإجازة، أبو عبد الله الأبّار[٨]، وأبو القاسم بن عُمران، وكتب بالإجازة للعراقيين من[٩] أهل بغداد الذين استدعوها من أهل الأندلس، حسبما تقدم[١٠] في رسم أبي بكر بن هشام، وضمنها نظمًا ونثرًا اعترف له بالإجادة فيهما.

تصانيفه: صنّف[١١] كتبًا كثيرة، أجاد فيها وأفاد، منها «المَشْرَع الرّوي في الزيادة على المَرْوي[١٢]». ومنها «أربعون حديثًا» التزم فيها موافقة اسم شيخه، اسم الصابي[١٣]، وما أراه سبق إلى ذلك، وهو شاهدٌ بكثرة شيوخه، وسعة روايته. ومنها «نُزْهة الناظر في مناقب عمّار بن ياسر». ومنها «الخبر[١٤] المختصر، في السَّلوى[١٥] عن ذهاب البَصَر»، ألّفه لأبي محمد بن أبي الأحوص[١٦] الضرير الواعظ. ومنها

---

(١) النص في الذيل: (السفر السادس ص ٤٤٩).

(٢) كلمة «بن» غير واردة في الذيل.

(٣) في الذيل: «قنترال».

(٤) في الذيل: «الجيار».

(٥) ما يزال النقل عن الذيل والتكملة (السفر السادس ص ٤٤٩).

(٦) في الذيل: «وابن أبي العيون».

(٧) في الذيل: «وأبو عبد الله بن أبي بكر البُري».

(٨) في الذيل: «ابن الأبار».

(٩) كلمة «من» غير واردة في الذيل.

(١٠) في الذيل: «تقدم ذكره».

(١١) ما يزال النقل مستمرًا عن الذيل (ج ٦ ص ٤٥٠).

(١٢) في الذيل: «على غريبي الهروي».

(١٣) في الذيل: «الصحابي».

(١٤) في الذيل: «الجزء».

(١٥) في الذيل والتكملة وتاريخ قضاة الأندلس: «السُّلُوّ».

(١٦) في الذيل: «خُرص».

«رسالة في ادِّخار الصبر، وافتخار القَصْر والفَقْر». ومنها «الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمجالس[١] الأعلام من أهل مالقة الكرام». وله اسم آخر، وهو «مطلعُ الأنوار ونزهة الأبصار[٢]، فيما احتوت عليه مالقَة من الرؤساء والأعلام والأخيار، وتقيُّد من المناقب والآثار». واخْتَرَمته المنيَّة عن إتمامه فتولّى إتمامَه ابن أخته أبو بكر محمد بن خميس المذكور، وقد نقلتُ منه في هذا الكتاب.

شعره: ومن شعره، وقد نُعيت إليه نفسه قبل أن تَغْرُب من سماء معارفه شمسه[٣]: [الطويل]

ولما انقضى[٤] إحدى وخمسون حجَّةً ... كأنّي منها بعد كَرْب[٥] أحْلمُ
ترقَّيت أعلاها لأنظر فوقها ... مدى[٦] الحَتْف منّي علَّني[٧] منه[٨] أسْلَمُ
إذا هو قد أدنتْ إليه كأنما ... ترقَّيت فيه نَجْوة وَهْوَ سُلَّمُ[٩]

وقال في أحدب: [السريع]

وأحدبٌ تحسب في ظهره ... جاء[١٠] بِه في نَهَرٍ عائمهْ
مُثَلّث الخِلْقة لكنّه ... في ظهره زاويةٌ قائمهْ

ومن أمثال نظمه قوله، وقد استُدْعِيت منه إجازة[١١]: [الطويل]

أجبتك لا أني[١٢] لِما رُمْتَهُ أهلٌ ... ولكنَّ ما أجبت[١٣] مُحتملٌ سَهْلُ
وما العلم إلّا البحرُ طاب مذاقُهُ ... وما ليَ علٌّ في الورود ولا نَهْلُ[١٤]

---

(١) في الذيل: «بمحاسن». (٢) في الذيل: «ونزهة البصائر والأبصار».
(٣) الأبيات في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٥٨).
(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «ولمّا انقضت».
(٥) في المصدر نفسه: «. . . منها ما تذكَّرت أحلمُ».
(٦) في تاريخ قضاة الأندلس: «إلى».
(٧) في الأصل: «عليّ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من تاريخ قضاة الأندلس.
(٨) في تاريخ: «منها».
(٩) رواية البيت في تاريخ قضاة الأندلس هي:
إذا هي قد أدنته مني كأنما ... ترقيت فيها نحوه وهو سُلَّمُ
(١٠) في الأصل: «جابهُ» وهكذا ينكسر الوزن.
(١١) الأبيات في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٥١).
(١٢) في الأصل: «لأني» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل.
(١٣) في الذيل: «أحببت».
(١٤) رواية البيت في الأصل مضطرب ومنكسر الوزن هكذا:
=

فكيف[١] أراني أهلَ ذاك وقد أتى — عليّ المميتانِ[٢] البطالةُ والجهلُ

وأسأل[٣] ربي العفو عني فإنه — لما يَرتجيه العَبْدُ من فضله[٤] أهلُ

مولده: تخمينًا في نحو أربع وثمانين وخمسمائة.

وفاته: ظهر يوم الأربعاء لأربع خلون من جمادى الآخرة، عام ستة وثلاثين وستمائة[٥].

محمد بن يحيىٰ بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن سعد الأشعري المالقي[٦]

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن بكر، من ذرية[٧] بَلْج بن يحيىٰ بن خالد بن عبد الرحمٰن بن يزيد[٨] بن أبي بُردة. واسمه عامر بن أبي عامر بن أبي موسى. واسمه عبد الله بن قيس، صاحب رسول الله ﷺ. ذكره ابن حزم[٩] في جملة من دخل الأندلس من العرب[١٠].

حاله: من «عائد الصلة»: كان[١١] من صدور العلماء، وأعلام الفضلاء، سذاجةً ونزاهةً ومعرفة وتفننًا. فَسِيحَ الدرس، أصيل النظر، واضح المذهب، مؤثرًا

= وما العلم إلاّ بحر طال مدانه — وما لي محمّ في الورود ولا نَهَل

والتصويب من الذيل والتكملة.

(١) في الذيل: «وكيف».

(٢) في الأصل: «المحتيان» والتصويب من الذيل.

(٣) في الذيل: «فنسأل».

(٤) في الأصل: «فضلٍ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل.

(٥) كذا في التكملة (ج ٢ ص ١٤٠) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٥٢) وبغية الوعاة (ص ٧٦) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٥٩). وفي اختصار القدح المعلّى: «ومات بمالقة سنة ثمان وثلاثين وستمائة».

(٦) ترجمة محمد بن يحيىٰ الأشعري في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٧) واللمحة البدرية (ص ٩٥، ١٠٤) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٣٥٩) ونيل الابتهاج (ص ٢٣٤) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٨٤).

(٧) في نفح الطيب: «من ذرية أبي موسى الأشعري».

(٨) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٣٧٨): «زيد».

(٩) هاء الضمير في كلمة «ذكره» يعود إلى عبد الله بن قيس الأشعري، وقد ذكره ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (ص ٣٩٧).

(١٠) في تاريخ قضاة الأندلس: «المغرب».

(١١) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠).

للإنصاف، عارفًا بالأحكام والقراءات[١]، مبرِّزًا في الحديث تاريخًا وإسنادًا وتعديلًا وتجريحًا[٢]، حافظًا للأنساب والأسماء والكُنى، قائمًا على العربية، مشاركًا في الأصول والفروع، واللغة والعَرُوض والفرائض والحساب، مخفوض الجناح، حسن التخلق[٣]، عطُوفًا على الطلبة، مُحبًا في العلم والعلماء، مجلّا لأهله[٤]، مطَّرح[٥] التصنّع، عديم المُبالاة بالملبس، باديَ الظاهر، عزيز النفس، نافذ الحكم، صوَّالة، معروف بِنُصرة من أزَرَ إليه. تقدّم للشياخة[٦] ببلده مالقَة، ناظرًا في أمور العَقْد والحل، ومصالح الكافة. ثم وُلّي القضاء بها، فأعزَّ الخُطة، وترك الهوادة وإنفاذ الحق[٧] ملازمًا للقراءة والإقراء، محافظًا للأوقات، حريصًا على الإفادة.

ثم ولّي القضاء[٨] والخَطَابة بغَرناطة في العشر الأول لمحرم سبعة وثلاثين وسبعمائة، فقام بالوظائف، وصدع[٩] بالحق، وجرَّح[١٠] الشهود فزيَّف منهم ما ينيف على السبعين[١١] عددًا، واستهدف بذلك إلى مُعاداةٍ ومناضلة خاض ثَبَجها، وصادم تيَّارها، غيرَ مبالٍ بالمغبَّة، ولا حافل بالتَّبِعة، فناله لذلك من المشقّة، والكيد العظيم ما نال مثله، حتى كان[١٢] يمشي إلى الصلاة ليلًا في مِسَلَّة، لا يطمئن على حاله. جرت في هذا الباب حكايات إلى أن استمرت الحال على ما أراده الله، وعزم عليه الأمير في بعض من الخُطَّة، ليردَّه إلى العدالة، فلم يجد في قناته مَغْمَزًا، ولا في عوده مَعْجَمًا، وتصدَّر لبَثّ العلم بالحضرة، يقرىء فنونًا منه جمَّة، فنفع وخرَّج، ودرَّس العربية والفقه والأصول، وأقرأ القرآن، وعلم الفرائض والحساب، وعقد مجالس الحديث شرحًا وسماعًا، على سبيل من انشراح الصَّدر، وحُسْن التجمُّل، وخَفْض الجناح[١٣].

---

(١) في النفح: «والقراءة».

(٢) في النفح: «وجَرْحا».

(٣) في النفح: «الخلق».

(٤) قوله: «مجلاً لأهله» غير وارد في النفح.

(٥) في النفح: «مطرّحًا للتصنع».

(٦) هذه الكلمة غير واردة في النفح.

(٧) في النفح: «وترك الشوائب، وأنفذ الحقّ».

(٨) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٩): «ثم ولّي قضاء الجماعة، فقام بالوظائف...». وفي نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٠): «ثم ولّي القضاء بغرناطة المحروسة، سنة ٧٣٧».

(٩) صدع بالحق: جهر به. لسان العرب (صدع).

(١٠) في النفح: «وبَهْرَج».

(١١) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٩): «على الثلاثين عددًا». وفي نفح الطيب: «على سبعين، واستهدف...».

(١٢) في النفح: «حتى كان لا يمشي إلى الصلاة ليلًا، ولا يطمئن...».

(١٣) في النفح: «جناح».

وذكره القاضي المؤرخ أبو الحسن بن الحسن، فقال[١]: وأما شيخنا، وقريبنا مصاهرةً، أبو عبد الله بن أبي بكر، فصاحب عَزْم ومَضاء، وحُكْم صادع وقضاء. كان له، رحمه الله، مع كل قَوْلة صَوْلة، وعلى كل رابع لا يعرفُ ذرَّة، فأحرق قلوب الحَسَدة والصُّب، وأعزَّ الخطّة بما أزال عنها من الشّوائب، وذهَّب وفضَّض[٢] كواكب الحق بمعارفه، ونَفَذَ في المشكلات، وثَبَت في المذهلات[٣]، واحتج وبكَّت، وتفقَّه ونكَّت.

توقيعه: قال: وحدّثنا صاحبنا أبو جعفر الشَّقُوري قال[٤]: كنت قاعدًا في مجلس حُكْمِه فرفَعَت إليه امرأة رُقعة، مضمونها أنها مُحبّة في مُطَلِّقها، وتبتغي من يَسْتَشْفع لها في رَدِّها، فتناول الرُّقعة، ووقع في ظهرها للحين من غير مُهْلة: الحمد لله، من وقف على ما بالمقلوب[٥]، فليصغ لسماعه إصاغَة مُغيث، وليَشْفَع للمرأة عند زوجها، تأسِّيًا بشفاعة رسول الله ﷺ لبَرْبَرَة في مُغيث. والله يُسْلم لنا العقل والدين، ويسلُكُ بنا مسالك المُهْتَدين. والسلام يعتمد على مَن وقف على هذه الأحرف من كاتبها، ورحمة الله. قال صاحبنا: فقال لي بعض الأصحاب: هلّا كان هو الشفيع لها؟ فقلت: الصحيح أنّ الحاكم لا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه على النصوص[٦].

شعره: ولم يُسْمع له شعر إلّا بيتين في وصف قوس عربي النَّسَب في شعر من لا شعر له، وهما: [البسيط]

هام الفؤاد ببنت[٧] النَّبع والنَّشم ... زوراء[٨] تُزْري بعطف البان والصَّنم
قَوامُ قامتها تمامُ معطفها ... من يلق مقتلها تُصميه أو تُصمِ

مشيخته: قرأ على الأستاذ المُتَفنِّن الخطيب أبي محمد بن أبي السَّداد الباهلي[٩] القرآن العظيم جَمْعًا وإفرادًا، وأخذ عنه العربية والفقه والحديث، ولازمه،

---

(١) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٦٠). وهو لم يرد حرفيًا في تاريخ قضاة الأندلس، وجاء فيه ما في معناه.
(٢) ذَهَّبها وفَضَّضها: جعلها ناصعة كالذهب والفضة.
(٣) في النفح: «المعضلات».
(٤) النص في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٢) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٣٦١) ببعض اختلاف عما هنا.
(٥) في المصدرين السابقين: «القلوب، فَلْيُصِخْ لسماعه». والمراد هنا بالمقلوب: ظهر الرُّقعة.
(٦) في النفح: «المنصوص».
(٧) في الأصل: «في بنت»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٨) في الأصل: «زورًا» وهكذا ينكسر الوزن.
(٩) هو عبد الواحد بن محمد بن علي بن أبي السَّداد الأموي المالقي، الشهير بالباهلي، وسيترجم=

وتأدب به. وعلى الشيخ الراوية الصالح أبي عبد الله محمد بن عيَّاش الخَزْرجي القرطبي، قرأ عليه كثيرًا من كُتُب الحديث، منها كتاب صحيح مُسلم، وسمع عليه جميعه إلّا دولة واحدة. ومن أشياخه القاضي أبو القاسم قاسم بن أحمد بن حسن بن السَّكوت، والفقيه المُشاور الصَّدر الكبير أبو عبد الله بن ربيع، والخطيب القُدْوة الولي أبو عبد الله بن أحمد الطَّنجالي، والشيخ القاضي أبو الحسن ابن الأستاذ العلّامة أبي الحجاج بن مصامد، والأستاذ خاتمة المُقْرئين أبو جعفر بن الزُّبير، والخطيب المحدِّث أبو عبد الله بن رُشَيد، والخطيب الولي الصالح أبو الحسن[1] بن فضيلة، والأستاذ أبو الحسن بن اللَّباد المشرفي، والشيخ الأستاذ أبو عبد الله بن الكماد السَّطِّي اللَّبليسي. وأجازه من أهل سبتة شيخ الشُّرَفاء أبو علي بن أبي التُّقى طاهر بن ربيع، والعدل الراوية أبو فارس عبد العزيز بن الهواري، وأبو إسحٰق التلمساني، والحاج العدل الراوية أبو عبد الله بن الحصّار، والأستاذ المقرىء ابن أبي القاسم بن عبد الرحيم القيسي، والأستاذ أبو بكر بن عُبيدة، والشيخ المعمر أبو عبد الله بن أبي القاسم بن عبيد الله الأنصاري. ومن أهل إفريقية الأديب المعمر أبو عبد الله محمد بن هارون، وأبو العباس أحمد بن محمد الأشعري المالقي نزيل تونس، ومحمد بن محمد بن سيِّد الناس اليَعْمُري، وعثمان بن عبد القوي البَلَوي. ومن أهل مصر النسَّابة شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدُّمياطي، والمحدِّث الراوية أبو المعالي أحمد بن إسحٰق، وجماعة غيرهم من المصريين والشاميين والحجازيين.

مولده: في أواخر ذي حجة من عام أربعة[2] وسبعين وستمائة.

وفاته: فُقِد في مصاب[3] المسلمين يوم المناجزة بطريف[4] شهيدًا مُحَرِّضًا، زعموا أن بَغْلة كان عليها كَبَتْ به، وأفاق رابط الجأش، مجتمع القُوى. وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يكن عنده قوة عليه. وقال: انصرف، هذا يوم الفرج[5]،

= له ابن الخطيب في الجزء الثالث من الإحاطة.

(١) في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٦١): «أبو الحسين».

(٢) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٤): «ومولده في أواخر شهر ذي الحجة من عام ٦٧٣».

(٣) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٣): «مصافّ».

(٤) موقعه طريف: هي الموقعة الشهيرة التي كانت بين الإسبان وبني مرين، وكان مع بني مرين قوات الأندلس بقيادة السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري، سنة ٧٤١ هـ، وكانت الهزيمة فيها للمسلمين. اللمحة البدرية (ص ١٠٥).

(٥) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٤) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٣٦٢): «الفرح».

إشارة إلى قوله تعالى في الشهداء: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[١]، وذلك ضحى يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى عام أحد وأربعين وسبعمائة.

محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد ابن ناصر بن حيُّون بن القاسم بن الحسن بن محمد ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه[٢]

حسبما نقل من خطه:

أوَّليَّته: معروفة، كان وليتَه مثله.

حاله: هذا[٣] الفاضل جُملة من جُمل الكمال، غريب في الوقار والحصافة، وبلوغ المدى، واستولى على الأمم حِلْمًا وأناة، وبُعْدًا عن الريب، وتمسكًا بعُرى النزاهة، واستمساكًا مع الاسترسال، وانقباضًا مع المُداخلة، معتدلَ الطريقة، حسن المداراة، مالكًا أزمَّة الهوى، شديد الشفقة، كثير المواساة، مَغَار حَبْل الصبر، جميل العشرة، كثيف سِتْر الحيا، قوي النفس، رابط الجأش، رقيق الحاشية، مُمتع المجالسة، متوقد الذهن، أصيل الإدراك، بارعًا بأعمال المشيخة، إلى جلال المُنْتَمى، وكرم المَنْصِب ونزاهة النفس، وملاحة الشَّيْبة، وحمل راية البلاغة، والإعلام في ميادين البيان، رُحْلة الوقت في التبريز بعلوم اللسان، حائز الخصْل[٤] والفضل في ميدانها، غريبةُ[٥] غَزيرة الحِفْظ، مُقْنِعة الشَّاهد[٦]، مُسْتبحرة النظر، أصيلةُ التوجيه، بريّة عن النَّوَك والغفلة، مرهفةٌ باللغة والغريب والخبَر والتاريخ والبيان، وصناعة البديع، وميزان العَرُوض، وعلم القافِية، وتقدُّمًا في الفقه، ودرسًا له، وبراعةً في الأحكام، وإتقان التَّدريس، والصبر، والدُّؤوب عليه، بارعُ التصنيف، حاضر الذهن، فصيحُ اللسان، مَفْخَرة من مفاخر أهل بيته.

---

(١) سورة آل عمران ٣، الآية ١٧٠.

(٢) ترجمة محمد بن أحمد الحسني في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٠) ونثير فرائد الجمان (ص ٢٣١) وجاء فيه أنه يكنى أبا القاسم، ونفح الطيب (ج ٧ ص ١٨٢) وبغية الوعاة (ص ١٦) والدرر الكامنة (ج ٣ ص ٣٥٢) واللمحة البدرية (ص ١٠٥، ١١٦) وكشف الظنون (ص ١٨٠٧).

(٣) النص في بغية الوعاة (ص ١٦) نقلًا عن الإحاطة، والسيوطي ينقل بتصرف.

(٤) كلمة «الخصل» غير واردة في بغية الوعاة. (٥) في بغية الوعاة: «عربية».

(٦) في بغية الوعاة: «الشمائل».

ولايته: قَدِم على الحَضْرة في دولة الخامس من ملوك بني نصر[١]، كما استجمع شبابه، يَفْهَق عِلْمًا باللسان، ومعرفةً بمواقع البيان، وينطق بالعَذْب الزُّلال من الشعر، فسَهَّل له كَنَف البر، ونُظِم في قلادة كتاب الإنشاء، وهو إذ ذاك ثمينةُ الخَرَزات، محكمةُ الرَّصف، فشاع فضله، وذاع رجَله. ثم تقدم، فنقل من طور الحكم، إلى أن قُلِّد الكتابة والقضاء والخطَابة بالحاضرة، بعد ولاية غيرها التي أعقبها ولاية مالقة في الرابع من شهر ربيع الآخر عام سبعة وثلاثين وسبعمائة. فاضطلع بالأحكام، وطبَّق مِفْصَل الفضل، ماضي الصَّريمة، وَحِيّ الإجْهار، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، قليل النَّاقد، مُطْعم التوفيق، يَصْدَع في مواقف الخُطَب، بكل بليغ من القول، مما يُريق ديباجته، ويشِفُّ صِقاله، وتبرأ من كلال الخُطباء جوانبه وأطْرافه. واستُعمل في السِّفارة للعدُوِّ ناجح المسعى، ميمون النَّقيبة، جزيل الحياء والكرامة، إلى أن عُزل عن القضاء في شعبان من عام سبعة وأربعين وسبعمائة، من غير زلَّة تَخفض، ولا هِنَةٍ تُؤثر، فتحيَّز إلى التَّحليق لتدريس العلم، وتفرَّغ لإقراء العربية والفقه، ولم يَنْشِب أميرُه المنطوي على الهاجس، المُغْري بمثله، أن قدَّمه قاضيًا بوادي آش، بِنْت حضرته، معزَّزَة بسندها الكبير الخُطَّة، فانتقل إليه بجملته. وكانت بينه وبين شيخنا أبي الحسن بن الجيَّاب، صداقةٌ صادقة، ومودة مستحكمة، فجرت بينهما أثناء هذه النَّقلة، بدائع، منها قوله، يرقب[٢] خُطَّة القضاء التي اخترعها، ويوليها خطة الملامة[٣]:

[السريع]

لا مَرْحبًا بالناشز الفارِكْ	إن جُهِلَتْ رفعةُ مقدارِكْ
لو أنها قد أُوتِيَتْ رُشْدَها	ما بَرِحَتْ تَغْشو إلى نارِكْ
أَقْسَمْتُ بالنُّور المُبين الذي	منه بَدَتْ مِشْكاةُ أنوارِكْ
ومَظْهَرِ الحُكْم الحكيم الذي	يتلو عليه[٤] طِيْبَ أخبارِكْ
ما لقيت مثلك كُفْؤًا لها	ولا أَوَتْ أكرم مِنْ دارك[٥]

---

(١) الخامس من سلاطين بني نصر هو أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف، وقد حكم من سنة ٧١٣ إلى سنة ٧٢٥ هـ. راجع اللمحة البدرية (ص ٧٨).

(٢) في الأصل: «يوس عنه خطة»، وهو كلام لا معنى له، وصوبناه من تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٢).

(٣) الأبيات في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٢ ـ ٢١٣).

(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «علينا».

(٥) رواية البيت في المصدر السابق هي:

ما أَلِفَتْ مِثْلَكَ كُفْؤًا ولا	أَوَتْ إلى أَكْرم مِنْ دارِكْ

ثم أُعيد إلى القضاء بالحضرة، فوليها، واستمرت حاله وولايته على متقدِّم سِمَته من الفضل والنَّزاهة والمُراجعة فيما يأنف فيه من الخروج عن الجادَّة، إلى أن هلك السلطان[١] مُسْتَقْضيه، مأمُومًا به، مُقتديًا بسجدته، يوم عيد الفطر، خمسة وخمسين وسبعمائة. وولي الأمر ولده[٢] الأسعد، فجدَّد ولايته، وأكَّد تجلّته، ورفع رتبته، واستدعى مجالسته.

مشيخته: قرأ[٣] ببلده سَبْتة على أبيه الشريف الطاهر، نسيج وحده في القيام، وعلى أبي عبد الله بن هاني وبه جلَّ انتفاعه، وعليه جلُّ استفادته. وأخذ عن الإمام شيخ المشيخة أبي إسحٰق الغافقي. وروى عن الخطيب أبي عبد الله الغُماريّ، والخطيب المحدِّث أبي عبد الله بن رُشَيد، والقاضي أبي عبد الله القرطبي، والفقيه الصالح أبي عبد الله بن حُرَيث. وأَخذ عن الأستاذ النظار أبي القاسم بن الشاط وغيره.

محنته: دارت عليه يوم مَهْلك السلطان المذكور رَحَى الوَقيعة، فَعَركته بالثِّقال، وتخلَّص من شِرارها هَولًا، لتَطَارح الأمير المتَوَثِّب أمام ألمَريَّة عليه، خاتمًا في السَّجدة، ودَرْس الحُماة إياه عند الدَّجْلة، من غير التفات لمحل الوَطْأة، ولا افتقاد لمحل صلاة تلك الأُمَّة، فغشيه من الأرْجُل، رَجْلُ الرُّبى كثيرة، والتفَّ عليه مُرسل طيلسانه، سادًّا مجرى النَّفَس إلى قلبه، فعالج الحِمام وقتًا، إلى أن نَفَّس الله عنه، فاستقَلَّ من الرَّدَى، وانتبذ من مُطَّرح ذلك الوَغَى، وبُودِر بالفَصاد، وقد أشْفَى، فكانت عثرة لقيت لُمًا ومتاعًا، فسمح له المدى آخر من يوثق به، من محل البَثّ، ومودعات السِّرِّ من حظِيَّات المَلِك، أن السلطان عرض عليه قبل وفاته في عالم الحلم، كونُه في محراب مسجده، مع قاضيه المُتَرجم به، وقد أقدم عليه كَلْبٌ، أصابه بثوبه، ولطَخ ثوبه بدمه، فأهمَّته رؤياه، وطَرَقت به الظنون مطارقها، وهمَّ بعزل القاضي، انقيادًا لبواعث الفكر، وسدًّا لأبواب التوقيعات، وقد تأذن الله بإرجاء العزم، وتصديق الحلم، وإمضاء الحكم، جلَّ وجهه، وعزَّت قدرتُه، فكان من الأمر ما تقرر في محله.

---

(١) هو السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج، سابع سلاطين بني نصر بغرناطة. راجع اللمحة البدرية (ص ١٠٢).

(٢) هو الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج، ثامن سلاطين بني نصر بغرناطة، والمتوفَّى سنة ٧٩٣ هـ. ترجمته في اللمحة البدرية (ص ١١٣، ١٢٩) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٣) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٩١) وأزهار الرياض (ج ١ ص ٣٧، ٥٨، ١٩٤).

(٣) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٧).

تصانيفه: وتصانيفه بارعةٌ، منها، «رَفْعُ الحُجُب المستورة في[١] محاسن المَقْصُورة[٢]»، شرح فيها مقصورة الأديب أبي الحسن حازم بما تنقطع الأطماع فيه. ومنها «رياضة الأبيّ[٣] في قصيدة الخَزرجي»، أبدع في ذلك بما يدل على الاطلاع وسَداد الفهم، وقيّد على «كتاب التّسْهيل» لأبي عبد الله بن مالك تَقْييدًا جليلًا، وشرحًا بديعًا، قارب التمام. وشرع في تَقْييد على الخبر المسمّى بـ«دُرَر السَّمْط في خبر السِّبْط». ومحاسنه جمّة، وأغراضه بديعة.

شعره: وأمّا الشعر، فله فيه القَدْح المُعَلّى، والحظُّ الأوفى، والدَّرجة العليا، طبقة وقته، ودرجة عصره، وحجة زمانه، كلامُه متكافىء في اللفظ والمعنى، صريح الدَّلالة، كريم الخَيْم، متحصِّد الحَبْل، خالص السَّبْك، وأنا أثبت منه جزمًا خصَّني به، سمّاه جهد المقل، اشتمل من حرِّ الكلام، على ما لا كفاء له.

الحمد لله تردُّده أخرى الليالي، فهو المسؤول أن يعصمنا من الزَّلل، زلل القول، وزلل الأعمال. والصلاة على سيدنا محمد خاتم الإرسال. هذه أوراق ضمنتُها جملة من بنات فكري، وقِطَعًا مما يُحيش به في بعض الأحيان صدري، ولو حَزَمت لأضربت عن كَتْبِها كل الإضراب، ولَزِمت في دَفْنها وإخفائها دين الأعراب، لكني آثرت على المحو الإثبات، وتمثلت بقولهم إن خير ما أوتَيْته العربُ الأبيات. وإذا هي عُرضت على ذلك المجد، وسألها كيف نجت من الوأْد، فقد أوتيتُها من حُرَمكم إلى ظلّ ظليل، وأحللتُها من بِنائكم مُعَرَّسًا ومقيل، وأهديتُها علْمًا بأن كرمكم بالإغضاء عن عيوبها جَدُّ كفيل، فاغتنم قلة التهدئة مني، إن جَهْد المقلّ غير قليل، فحسبُها شرفًا أن تبوَّأت في جَنابك كنَفًا، وكفاها مجدًا وفخرًا أن عَقَدت بينها وبين فكرك عَقْدًا وجِوارًا ومما قلت في حرف الهمزة.

مولده: بسَبْتة في السادس لشهر ربيع الأول[٤] من عام سبعة وتسعين وستمائة.

وفاته: توفي قاضيًا بغَرناطة في أوائل شعبان[٥] من عام ستين وسبعمائة.

---

(١) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٧): «عن».

(٢) هي مقصورة أديب المغرب أبي الحسن حازم بن محمد القرطاجنّي الأندلسي، التي مدح بها أمير المؤمنين المستنصر بالله أبا عبد الله محمدًا الحفصي. راجع نفح الطيب (ج ٧ ص ١٨٢).

(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «الآن في شرح قصيدة...».

(٤) هكذا في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٧). وفي بغية الوعاة: «ربيع الآخر».

(٥) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٧): «ووفاته بغرناطة ضحى يوم الخميس الحادي والعشرين لشهر شعبان من عام ٧٦٠». وفي نفح الطيب (ج ٧ ص ١٩٠): «وكانت وفاة الشريف المذكور سنة إحدى وستين وسبعمائة».

محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالي[1]

قاضي الجماعة ببَيضَة الإسلام فاس، يكنى أبا عبد الله.

حاله: هذا الرجل له أبُوَّة صالحة، وأصالة زاكية، قديم الطلب، ظاهر التخصُّص، مفرط في الوقار، نابه البزَّة والركبة، كثير التهمة، يُوهم به الفارّ، وصدرُ الصُّدُور في الوثيقة والأدب، فاضل النفس، مَمْحُوض النصح، جميل العشرة لإخوانه، مُجري الصَّداقة نُصحًا ومشاركة وتَنْفيقًا على سجيَّة الأشراف وسُنن الحُسباء، مديدُ الباع في فن الأدب، شاعر مجيد، كاتب بليغ، عارف بالتّحسين والتَّقبيح، مَنْ أدركه، أدرك عَلَمًا من أعلام المشيخة. قدَّمه السلطان الكبير العالم أبو عنان فارس، قاضيًا بحضرته، واختصَّه، واشتمل عليه، فاتصل بعده سعْدُه، وعُرف حقّه. وتردّد إلى الأندلس في سبيلِ الرسالة عنه، فذاع فضله، وعُلم قَدْره. ولما كان الإزعاج من الأندلس نحو النَّبْوَة التي أصابت الدولة، بَلَوْتُ من فضله ونصحه وتأنيسه، ما أكد الغِبْطة، وأوجب الثناء، وخاطبته بما نصه: [الكامل]

من ذا يَعُدُّ فضائل الفِشْتالي ... والدهر كاتبُ آيها والتَّالي
عَلَمٌ إذا التمسوا الفنون بعلمه ... مرعى المُشيح ونُجْعة المُكتال
نال الذي لا فوقها من رفعة ... ما أمَّلَتْها حيلةُ المحتال
وقضى قياس تراثه عن جَدِّه ... إن المُقدَّم فيه عين التالي

قاضي الجماعة، بماذا أثنى على خلالك المُرْتَضاة؟ أبِقَديمك المُوجب لتَقْديمك؟ أم بحديثك الداعي لتحمُّل حديثك؟ وكلاهما غايةٌ بَعُدَ مرماها، وتحامى المُتَصوّر حماها، والضالع لا يسام سَبْقًا، والمُنْبَتُّ لا أرْضًا قطع ولا ظَهْرًا أبقى. وما الظنّ بأصالة تعترف بها الآثار وتشهد، وأُبُوّة صالحة كانت في غير ذات الحق تزهد، وفي نيل الاتصال به تجهد، ومعارف تقرر قواعد الحق وتمهِّد، وتهزم الشُّبه إذا تشهّد. وقد علم الله أن جوارك لم يُبْق للدهر عليّ جوارًا[2]، ولا حَتَّ من غصني ورقًا ولا نوَّارًا. هذا وقد زأر على أسَدِ وحمل ثورًا، فقد أصبحْتُ في ظل الدولة التي وقف على سيدي اختيارها، وأظهر خلوصُ إبريزه مِعْيارَها، تحت كنف وعزٍّ مؤتنف، وجوار أبي دلف، وعلى ثقة من الله بحسن خلف. وما منع من انتساب ما لديه من

(١) نسبة إلى فشتاله وهي إحدى القبائل الجبلية التي تقطن في شمال مدينة فاس. الإحاطة (ج ٢ ص ١٨٧) حاشية رقم ١.
(٢) في الأصل: «جوار»

الفضائل إلّا رحلة لم يَبْرُك بعد حِملها، ولا قرّ عملها، وأوحال حال بيني وبين مُسوَّر البلد القديم[١] مَهْلها. ولولا ذلك لاغتبطت الزَّائد، واقتنيت الفوائد، والله يطيل بقاءه، حتى تتأكد القربة، التي تُنسى بها الغُرْبة، وتعظم الوسيلة، التي لا تُذْكر معها الفضيلة. وأمّا ما أشار به من تقييد القصيدة التي نَفِق سوقها استحسانه، وأنس باستظرافها إحسانه، فقد أعمل وما أمهل، والقصور بادٍ إذا تأمّل، والإغضاء أولى ما أمّل، فإنما هي فكرة قد أخمدت نارها الأيام، وغيّرت آثارها اللِّئام. وقد كان الحق إجلال مطالعة سيدي من خَلَلها، وتنزيه رجْله عن تقبيل مُرتجلها. لكنَّ أمْرَه مُمْتثل، وأتى من المجد أمرًا لا مردّ له مَثَل. والسلام على سيدي من مُعظم قدره، ومُلْتزم برِّه، ابن الخطيب، ورحمة الله.

فكتب إليّ مراجعًا، وهو المليء بالإحسان: [الكامل]

وافتْ يجرُّ الزَّهْوُ فضلةَ بُرْدِها ... حَسْناءُ قد أضْحَتْ نَسيجةَ وَحْدِها
لله أي قصيدة أهديتُ لو ... يهتدي المُعارض نحو غاية قَصْدِها
لابن الخطيب بها محاسنُ جمَّةٌ ... قارعت عنه الخطوب ففلّتْ من حدِّها[٢]
سِرُّ البلاغة عنه أودع حافظًا ... قد صانه حتى فَشَا من عندها
في غير عقْدٍ نفثنه بسحرها[٣] ... فلذا أتى سَلِسًا مُنَظَّمَ عِقْدِها
لم أدر ما فيها وقمت معاونًا ... من طرسها أو مُعْلمًا من بُردها
حتى دَفَعْتُ بها لِأَبْعَد غايةٍ ... باعًا تُقَصِّرُ في البلوغ بحدِّها
حدّان من نظم ونثر إنَّ من ... يَلْقاهما منها بذِلَّة عبْدها
أولى يدًا بيضاءَ موليها فما ... لي مِزْيَةٌ مِنْ[٤] أَن أَقوم بِحَمْدِها
ورفضت تكذيب المُنى متشيِّعًا ... لعَلي مَرْآها يُصادق وَعْدها
فبذلْتُ شعري رافعًا من بِرِّها ... وهززتُ عطْفي رافلًا من بُرْدها

خُذْها، أعزَّ الله جنابك، وأدال للأُنْس على الوَحْشة اغترابك، كغبَّة[٥] الطائر المتجعد، ونُهْبة الثائر المُسْتَوْفز، ومِقَة اللَّحظ، قليلةُ اللَّفظ، قد جَمَعت من سُوامها وانقحامها، بين نَظْم قيد، وصُلود زَنْد، ونَوَّعت، فعلى إقدامها وانحجامها إلى قاصر

(١) البلد القديم هو مدينة فاس القديمة، والبلد الجديد هو ضاحية فاس الملوكية. الإحاطة (ج ٢ ص ١٨٩) حاشية رقم ١.
(٢) عجز هذا البيت منكسر الوزن.
(٣) صدر هذا البيت منكسر الوزن.
(٤) كلمة «مِنْ» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن.
(٥) الغُبّة: البُلْغة من العيش. محيط المحيط (غبب).

ومُعْتَد، وليتني إذا جادت سحابةُ ذلك الخاطر الماطر الوَدْق، وانجاب العاني عن مُزْنَة فكرتي، بتقاضي الجواب، انجياب الطَّوْق، وأيْقنتُ أني قد سُدَّ عليّ باب القول وأُرْتحج، وقلت: هذه السَّالفة الكلية فَسَدت لها الدَّاعة من تكلُّم الإمرة ولم أنه إذ أعوزت المُرَّة بالحُلْوة، لكنني قلتُ: وجَدُّ المُكثر كجُهْد المُقِلّ، والواجب قد يقلُّ الامتثال فيه بالأقَلّ. فبعثت بها على علّاتها، وأبلغتها عذْرها، في أن كتَبَت عن شوقها بِلغاتها، وهي لا تَعْدَم من سيدي في إغضاء كريم، وإرضاء سليم. والله، عزَّ وجلَّ، يَصِل بالتأنيس الحَبْل، ويجمع الشَّمْل.

والسلام الكريم يخصُّ تلك السيادة، ورحمة الله وبركاته. من محمد بن أحمد الفشتالي.

وهو الآن قاض بفاس المذكورة، محمود السيرة، أبقاه، وأمْتَع به.

محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيىٰ ابن عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن علي بن داود القرشي المقَّري[١]

يكنى أبا عبد الله، قاضي الجماعة بفاس وتِلِمسان.

أوَّليَّته: نُقلت من خطِّه، قال[٢]: وكان الذي اتخذها من سَلَفنا قرارًا بعد أن كانت لمن قبله مرارًا[٣]، عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن علي المقَّري، صاحب أبي مَدْيَن[٤]، الذي دعا له ولذرِّيته، بما ظهر فيهم من قَبُول[٥] وتبيُّن. وهو أبي الخامس؛ فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيىٰ بن عبد الرحمٰن، وكان هذا الشيخ عُرْوي[٦] الصلاة، حتى أنه ربما امتُحن بغير شيء فلم يُؤنس منه التفات، ولا استُشْعر منه شعور، ويقال: إن هذا الحضور، ممّا أدركه من مقامات شيخه أبي مدين. ثم[٧] اشتهرت ذريَّتُه على ما ذُكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهَّدوا طريق الصحراء

(١) محمد بن محمد المقري، جَدّ المقري صاحب كتاب نفح الطيب، وترجمته في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٩) والتعريف بابن خلدون (ص ٥٩) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٩) ونفح الطيب (ج ٧ ص ١٩٥) وأزهار الرياض (ج ١ ص ٥) و(ج ٤ ص ٢٠٤).

(٢) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ١٩٥). (٣) في النفح: «مزارًا».

(٤) أبو مَدْين: هو شعيب بن الحسين الأندلسي التلمساني، المتوفى سنة ٥٩٤ هـ، وقد تقدم ذكره في الجزء الأول من الإحاطة في ترجمة جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيد بونة الخزاعي.

(٥) في النفح: «قبوله».

(٦) أغلب الظن أنه ينسبه إلى عروة بن الزبير، الذي كان يطيل الصلاة ويكثر من الدعاء.

(٧) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ١٩٦ ـ ١٩٨).

بحفر الآبار، وتأمين التُّجار، واتخذوا طَبْل الرَّحيل[١]، وراية التَّقَدم[٢] عند المسير. وكان ولدَ يحيىٰ، الذي[٣] كان أحدهم أبو بكر، خمسة رجال، فعقدوا الشَّركة بينهم فيما مَلَكوه[٤] وفيما يملكونه على السواء بينهم والاعتدال، وكان[٥] أبو بكر ومحمد، وهما أرومَتا نسبي من جميع جهات الأم والأب[٦] بتِلمسان، وعبد الرحمـٰن وهو شقيقهما الأكبر بسِجِلْماسة، وعبد الواحد وعلي، وهما شقيقاهُم الصغيران، بأي والأتن[٧] فاتخذوا هذه[٨] الأقطار والحوايط والدِّيار، فتزوجوا[٩] النساء، واستولدوا الإماء. وكان التلمساني يبعث إلى الصَّحراوي بما يُرسم له من السلع. ويبعث إليه الصحراوي بالجِلْد والعاج والجَوْز والتِّبر، والسِّجلماسي كلِسان الميزان يعرِّفهما بقدر الرُّجْحان والخُسْران[١٠]، ويكاتبهما بأحوال التُّجار، وأخبار البُلدان، حتى اتسعت أموالُهم، وارتفعت في الفخامة[١١] أحوالُهم. ولما افتتح التَّكْرُور كورَة أي والأتن وأعمالَها، أُصِيبت أموالُهم فيما أُصيب من أموالها، بعد أن جَمَع من كان بها[١٢] منهم إلى نفسه الرِّجال، ونَصَب دون[١٣] ماله القتال. ثم اتصل بملكهم فأكرم مَثْواه، ومكَّنه من التجارة بجميع بلاده، وخاطبه بالصديق الأحبِّ، والخلاصة الأقرب. ثم صار يكاتب مَن بتلمسان، يَسْتَقْضي منهم مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، وعندي من كُتُبه وكُتُب الملوك بالمغرب، ما ينبىء عن ذلك، فلما استَوثقوا من الملوك، تذلَّلت لهم الأرض للسُّلوك، فخرجت أموالهم عن الحدِّ، وكادت تفوق[١٤] الحصر والعَدَّ؛ لأن بلاد الصحراء، قبل أن يدخلها أهل مصر، كانت[١٥] تجلب لها من المغرب ما لا بال له[١٦] من السِّلع، فيُعَاوض[١٧] عنه بماله بالٌ من الثمن[١٨]. ثم قال أبو مدين: الدنيا ضمُّ جنب أبي حمو[١٩]، وشمل ثوباه. كان يقول: لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجرًا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السِّلع، ويأتون بالتِّبر الذي

(١) في النفح: «طبلًا للرحيل».
(٢) في النفح: «تقدم».
(٣) في النفح: «الذين أحدهم».
(٤) في النفح: «بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه...».
(٥) في النفح: «مكان».
(٦) في النفح: «أمي وأبي».
(٧) هو موضع بالصحراء.
(٨) في النفح: «بهذه الأقطار الحوائط».
(٩) في النفح: «وتزوجوا».
(١٠) في النفح: «بقدر الخسران والرجحان».
(١١) في النفح: «الضخامة».
(١٢) في النفح: «فيها».
(١٣) في النفح: «دونها ودون ما لهم القتال».
(١٤) في النفح: «تفوت».
(١٥) في النفح: «كان يجلب إليها من...».
(١٦) ما لا بال له: أي ما ليس بذي شأن.
(١٧) في النفح: «فتعاوض».
(١٨) في النفح: «الثمن. أي مدبر دنيا ضمَّ جنبا أبي حمو...».
(١٩) أبو حمو: هو موسى بن عثمان بن يَغْمراسن بن زيان، كما سيرد بعد قليل في عنوان: مولده.

كلُّ أمْرِ الدنيا له تَبَع، ومَنْ سواهم يحمل منها الذَّهب، ويأتي إليها بما يضمحلّ عن قريب ويذهب، إلى ما يُغيّر من العوائد، ويجُرُّ السفهاء إلى المفاسد.

ولما هلك[١] هؤلاء الأشياخ، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم، وصادفوا توالي الفتن، ولم يَسْلموا من جور السلطان[٢]، فلم تزل[٣] حالهم في نقصان إلى هذا الزمان[٤]، فها أنا ذا لم أُدرك[٥] في ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فصولَه عَيْشًا، وأصوله حُزمة. ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسبابٌ كثيرة تعين على الطلب، فتفرَّغْتُ بحول الله، عزّ وجلّ، للقراءة، فاستوعبْتُ أهل البلد لقاءً، وأخذت عن بعضهم عَرْضًا وإلقاءً، سواء المقيم القاطن، والوارد والظاعن.

حاله: هذا[٦] الرجل مشارٌ إليه بالعُدْوة المغربية اجتهادًا، ودُؤوبًا، وحفظًا وعناية، واطلاعًا، ونَقْلًا ونزاهة، سليمُ الصدر، قريب الغَوْر، صادق القول، مسلوب التَّصنُّع، كثير الهَشَّة، مفرط الخفَّة، ظاهر السذاجة، ذاهبٌ أقصى مذاهب التخلُّق، محافظٌ على العمل، مثابر على الانقطاع، حريص على العبادة، مضايق في العَقْد والتوجُّه، يكابد من تحصيل النيّة بالوجه واليدين مشقَّة، ثم يُغافِض[٧] الوقت فيها، ويوقعها دُفْعة متبعًا إياها زعْقَةَ التكبير، برَجْفة يَنْبو عنها سمْعُ من لم يكن[٨] تأنّس بها عادة، بما هو دليل على حُسْن المعاملة، وإرسال السَّجِية، قديمُ النِّعمة، مُتصل الخَيْريَّة، مُكِبٌّ على النظر والدرس والقراءة، معلوم الصِّيانة والعدالة، منصفٌ في المذاكرة، حاسرُ الذراع[٩] عند المباحثة، راحبٌ عن الصَّدر في وَطيس المناقشة، غيرُ مختار للقَرْن، ولا ضانٌّ[١٠] بالفائدة، كثير الالتفاف، متقلِّب الحدقة، جهيرٌ بالحُجَّة، بعيد عن المُراء والمُباهتة، قائل بفضل أُولي الفضل من الطَّلبة، يقوم أتمّ القيام على العَرَبيّة والفقه والتفسير، ويحفظ الحديث، ويتَهَجَّرُ بحفظ الأخبار[١١] والتاريخ والآداب، ويشارك مشاركة فاضلة في الأصلين والجَدل والمَنْطق، ويكتب ويُشْعر

---

(١) في النفح: «ولمّا درج».
(٢) في النفح: «السلاطين».
(٣) في النفح: «يزل».
(٤) في النفح: «الزمن».
(٥) في النفح: «من».
(٦) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠).
(٧) في النفح: «يغافص».
(٨) في النفح: «من لم تؤنسه بها العادة».
(٩) في النفح: «للذراع».
(١٠) ضانّ: اسم فاعل ضنَّ أي بخل. لسان العرب (ضنن).
(١١) في النفح: «بحفظ التاريخ والأخبار».

مصيبًا في ذلك[١] غرض الإجادة، ويتكلم في طريقة الصُّوفية كلام أرباب المقال، ويعتني بالتَّدوين فيها. شَرَّق وحجَّ، ولقي جِلَّة، واضطبن[٢] رحلةً مفيدة، ثم آب إلى بلده، فأقرأ به، وانقطع إلى خدمة العلم. فلما وَلي ملك المغرب السلطان، محالفُ الصُّنع ونشيدةُ الملك، وأثير الله من بين القرابة والإخوة أميرُ المسلمين[٣] أبو عنان فارس[٤]، اجْتَذبه وخَلطه بنفسه، واشتمل عليه، وولّاه قضاء الجماعة بمدينة فاس، فاستقلَّ بذلك أعظم الاستقلال، وأنفَذَ الحكم[٥]، وألان الكلمة، وآثر التَّسْديد، وحَمَل الكَلَّ[٦]، وخفض الجناح، فحسُنَتْ عنه القالة[٧]، وأحبَّتْه الخاصَّة والعامة. حضرْتُ بعض مجالسه للحكم، فرأيت من صبره على اللَّدد[٨]، وتأتّيه[٩] للحجج ورِفْقه بالخصوم، ما قضيتُ منه العجب.

دخوله غرناطة: ثم[١٠] لمّا أُخِّر عن القضاء، استُعمل بعد لأْي في الرِّسالة، فوصل الأندلس، أوائل جمادى الثانية من عام ستة[١١] وخمسين وسبعمائة. فلما قَضَى غرض الرسالة[١٢]، وأبْرَم عَقْد وُجهته، واحتلَّ مالقة في مُنْصَرفه، بَدَا له في نَبْذِ الكُلْفة، واطِّراح[١٣] وظيفة الخدمة، وحلّ التَّقيُّد، إلى ملازمة الإمْرة، فتقاعد، وشهر غرضه، وبتَّ في الانتقال، طَمَعَ من كان صحبته، وأقبل على شأنه، فَخُلّيَ بينه وبين همِّه. وتُرِك وما انتحله من الانقطاع إلى ربِّه. وطار الخبر إلى مُرْسله، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة، والعدول عنها، بقَصْد التَّخلّي والعبادة، وأنكر ما نَحله[١٤] غاية الإنكار، من إبطال عمل الرسالة، والانقباض قبل الخروج عن العُهْدة، فوَغُر صَدْرُه على صاحب الأمر، ولم يُبْعد حَمْله على الظِّنَّة والمواطأة على النَّفرة، وتجهَّزت جملةٌ من الخدَّام المُجَلِّين في مآزق[١٥] الشُّبهة، المضطلعين بإقامة الحجة، مُولين خِطَّة الملام، مُخَيَّرين بين سحائب عادٍ من الإسلام، مظَنَّة إغلاق النعمة[١٦]،

---

(١) قوله: «في ذلك» غير وارد في النفح.
(٢) اضطبن الرحلة: اعتزمها.
(٣) في النفح: «المؤمنين».
(٤) هذه الكلمة غير واردة في النفح.
(٥) في النفح: «الحق».
(٦) الكَلّ: التَّعب. محيط المحيط (كلل).
(٧) حسنت عنه القالة: حسن قول الناس فيه.
(٨) اللَّدَدُ: الخصومة الشديدة. لسان العرب (لدد).
(٩) في النفح: «وتأنّيه».
(١٠) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢).
(١١) في الأصل: «ست» وهو خطأ نحوي. وفي نفح الطيب: «سبعة».
(١٢) في النفح: «رسالته».
(١٣) في الأصل: «واصطراح» والتصويب من النفح.
(١٤) في النفح: «ما حقه الإنكار».
(١٥) في النفح: «مأزق».
(١٦) في النفح: «النقمة».

وإيقاع المُثْلة[١]، والإساءة[٢] بسبب القطيعة والمُنابذة. وقد كان المترجمُ به لحق بغرناطة فتذَمَّم بمسجدها، وجأر[٣] بالانقطاع إلى الله، وتوعَّد من يُجيره[٤] بنكير من يُجير ولا يُجار عليه سبحانه، فأهَمَّ أمره، وشغلت القلوبَ آبدتُه، وأمسك الرسل بخلال ما صدرت شفاعةٌ اقتضت[٥] له رفع التَّبِعة، وتَرْكه إلى تلك الوجهة.

ولمّا تحصَّل ما تيسَّر من ذلك، انصرف محفوفًا بعالِمَي القطر، قاضي الجماعة أبي القاسم الحَسَني المترجمُ[٦] به قَبْله، والشيخ الخطيب أبي البركات بن الحاج، مُسْتهلين[٧] لوروده، مُشافهين للشفاعة[٨] في غرضه، فأقشعت[٩] الغُمَّة، وتنفَّست الكُرْبة. وجرى أثناء هذا من المراسلة والمراجعة، ما تضمَّنه الكتاب المسمّى بـ«كُناسة الدُّكان بعد انتقال السُّكان» المجموع بسلا ما صورته:

«المقامُ الذي يحبُّ الشَّفاعة، ويَرْعى الوسيلة، ويُنْجز العُدَّة، ويتمّم الفضيلة، ويُضْفي مجدُه المننَ الجزيلة، ويُعيى حمدُه الممادح العريضة الطويلة، مقام محلّ والدنا الذي كرُم مجدُه، ووضح سعدُه، وصحَّ في الله تعالى عقدُه، وخلُص في الأعمال الصالحة قَصْدُه، وأعجز الألسنةَ حَمْدُه، السلطان الكذا[١٠] ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه الله سبحانه لوسيلةٍ يرعاها، وشفاعة يُكْرمُ مَسْعاها، وأخلاق جميلة تجيب دَعْوَةَ الطَّبع الكريم إذا دعاها، مُعَظِّمٌ سلطانه الكبير، ومُمَجِّد مقامه الشهير، المُتَشَيِّع لأبوّته الرفيعة قولًا باللِّسان واعتقادًا بالضمير، المعتمدُ منه بعد الله على الملجإ الأحمى والوليِّ النَّصير. فلان[١١]. سلام كريم، طيب بَرٌّ عميم، يخص مقامكم الأعلى، وأبُوَّتكم الفضلى، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد[١٢] حمد الله، الذي جعل الخُلُق الحميدة دليلًا على عنايته بمن حلّاه حُلاها، وميَّزَ بها النفوس النفيسة، التي اختصّها بكرامته وتولّاها، حمدًا يكون كُفْوًا

---

(١) في النفح: «العقوبة».

(٢) في النفح: «أو الإشادة بسبب إجارته بالقطيعة...».

(٣) في الأصل: «جار» بدون همزة، والتصويب من النفح. وجأر إلى الله: رفع صوته بالدعاء.

(٤) في النفح: «يجبره».

(٥) في النفح: «اقتضى له فيها رفع...».

(٦) في النفح: «المذكور قبله».

(٧) في النفح: «مسلمين».

(٨) في النفح: «بالشفاعة».

(٩) في النفح: «فانقشعت».

(١٠) أغلب الظن أنه أبو عنان فارس ابن أبي الحسن المريني، سلطان المغرب، المتوفّى سنة ٧٥٩ هـ. راجع حاشية عنان.

(١١) هو ثامن سلاطين بني نصر محمد بن أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل، وقد حكم غرناطة من عام ٧٥٥ إلى عام ٧٩٣ هـ. راجع اللمحة البدرية (ص ١١٣، ١٢٩).

(١٢) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤).

للنعم التي أولاها، وأعادها ووالاها، والصلاة والسلام[١] على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، المترَقِّي من درجات الاختصاص أرْفَعها وأعلاها، الممتاز من أنوار الهداية بأوْضَحها وأجْلاها، مَطْلع آيات السعادة يَرُوق مُجتَلاها، والرضا عن آله وصحبه الذين خَبَرَ صدق ضمائرهم لمّا ابتلاها، وعَسَلَ ذكرهم[٢] في الأفواه فما أعْذَب أوصافهم على الألْسُن وأحلاها، والدعاء لمقام أبوَّتكم حَرَس الله تعالى عُلاها، بالسعادة التي يقول الفتحُ: أنا طلّاع الثّنايا وابن جَلاها[٣]، والصَّنائع التي تخترق المَفاوز بركائبها المُبشِّرات فتَفْلي فَلاها. فإنّا كتبنا إليكم، كَتَبَ الله تعالى لكم عزَّةً مشيَّدة البناء، وحشد على أعلام صنائعكم الكرام جيوشَ الثناء، وقلَّدكم قلائد[٤] مكارم الأخلاق، ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء. من حَمْراء غَرناطة حرسها الله، والوُدُّ باهر السَّناء[٥]، مُجدٌّ على الأناء، والتَشيُّع رَحْبَ الدَّسِيعة[٦] والفِناء.

وإلى هذا، وصل الله تعالى سَعْدَكم، وحرس مجدَكم! فإننا خاطبنا مقامكم الكريم، في شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبي عبد الله المقَّري، خار الله تعالى لنا وله، وبلَّغ الجميع من فضله العميم أمَله، جوابًا عمّا صدر من مَثابتكم[٧] فيه من الإشارة المُتمثّلة[٨]، والمآرب المُعْمَلة، والقضايا غير المهملة، نُصادركم بالشفاعة التي مِثْلُها بأبوابكم لا يُردُّ، وظَمْآها عن مَنْهل قبولكم لا تجلى[٩] ولا تُصَدُّ، حسبما سنَّه الأب الكريم والجَدُّ، والقَبيلُ الذي وَضُح منه في المكارم الرسمُ والحَدُّ. ولم نُصْدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدقُ المُخَيَّلة، وتَبَلُّج صُبح الزُّهادة والفضيلة، وجُود النفس الشَّحيحة بالعَرَض الأدنى البَخيلة، وظهر تَخلِّيه عن هذه الدار، واختلاطَه باللفيف والغُمار، وإقباله على ما يعني مثله من صلة الأوراد، ومداومة الاستغفار. وكُنّا لما تعرَّفنا إقامته بمالقة لهذا الغرضِ الذي شَهَره، والفضل الذي أبْرَزه للعِيان

---

(١) كلمة «والسلام» غير واردة في النفح.

(٢) عسل ذكرهم في الأفواه: أصبح حلوًا كالعسل، وهو كناية عن استعذاب الحديث عنهم. لسان العرب (عسل).

(٣) أخذه من قول سُحيم بن وثيل الرياحي: [الوافر]

أنا ابنُ جَلا وطلاّعُ الثنايا ... متى أضعِ العِمامة تعرفوني

الشعر والشعراء (ص ٥٣٨).

(٤) في النفح: «من قلائد».

(٥) في النفح: «السنا، ظاهر السناء، مجدّد على...».

(٦) الدسيعة: الخُلُق؛ ورحب الدسيعة: طيب الخُلُق والطباع. محيط المحيط (دسع).

(٧) في النفح: «مثابكم».

(٨) في النفح: «الممتثلة».

(٩) في النفح: «لا تحلأ».

وأظهره، أمَرْنا أن يُعْتَنى بأحواله، ويُعان على فراغ باله، ويُجرى عليه سَيْبٌ من ديوان الأعشار الشرعية وصريح ماله، وقلنا: أما أتاك من غير مسألة مستندٌ صحيح لاستدلاله، ففرَّ من مالقة على ما تعرَّفنا لهذا السبب، وقعد بحضرتنا مستُور المُنْتَمى والمُنْتَسب، وسكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدَّة لسكنى المُتَّسَمين بالخير، والمحترفين ببضاعة الطَّلب، بحيث لم يُتَعَرَّف وروده ووصوله إلّا ممّن لا يُؤْبَه بتعريفه، ولم تتحقق زوائده وأصوله لقلّة تَصْريفه. ثم تلاحق إرسالكم الجِلّة. فوجبت حينئذٍ الشفاعة، وعُرضت على سوق الحلم والفضل من الاستِلْطاف والاستِعْطاف البضاعة، وقررنا ما تحققناه من أمره، وانقباضه عن زَيْد الخلق وعَمْره، واستقباله الوُجهة التي من ولّى وجهه شَطْرَها فقد آثر أثيرًا، ومَن ابتاعها بمتاع الدنيا فقد نال فضلًا كبيرًا وخيرًا كثيرًا، وسألنا منكم أن تبيحوه ذلك الغرضَ الذي رماه بعزمه، وقَصَر عليه أقصى همِّه. فما أخْلَقَ مقامكم أن يفوز منه طالب الدُّنيا بسَهْمِه، ويحصل منه طالب الآخرة على حَظِّه الباقي وقَسْمِه، ويتوسّل الزاهد بزهده والعالمُ بعِلمه، ويعوِّل البريء على فضله، ويثق المذنبُ بحِلْمه. فوصل الجواب الكريم بمجرد الأمان، وهو أرَبٌ من آراب[1]، وفائدة من جِراب، ووجْهٌ من وجوه إعراب، فرأينا أن المَطْل بعد جفاء، والإعادة ليس يثقلها خَفاء، ولمجدكم بما ضمَّنا عنه وفاء، وبادرنا الآن إلى العزم عليه في ارتحاله، وأن يكون الانتقالُ عن رضًا منه من صفة حاله، وأن يَقْتَضي له ثمرة المَقْصِد، ويبلغ طِيَّة الإسعاف في الطريق إن قصد، إذ كان الأمان لمثله ممن تعلَّق بجناب الله من مثلكم حاصلًا، والدِّين المتين بين نفسه وبين المخافة فاصلًا، وطالب[2] كيمياء السَّعادة بإعانتكم واصلًا. ولما مُدَّت اليدُ في تسويغ حالةٍ هَدْيُكُمْ عليها أبدًا يُحرِّضُ، وعلمُكُم يُصرِّح بمزيتها ولا يُعرِّضُ، فكمِّلوا أبقاكم الله ما لم تَسَعْنا فيه مشاحةُ الكتاب، وألحقوا بالأصل حديث هذه الإباحة فهو أصحُّ حديث في الباب، ووفُّوا غرضنا من مجدكم، وخلُّوا بينه وبين مراده من تَرْك الأسباب، وقَصْد غافر الذنب وقابل التَّوب بإخلاص المَتاب، والتَّشمير ليوم العَرْض وموقف الحساب، وأظْهروا عليه عناية الجناب، الذي تَعَلَّق به، أعلق الله به يدكم من جَنَاب، ومَعاذ الله أن تعود شفاعتُنا من لَدُنكم عير مُكْمَلة الآراب. وقد بعثنا مَن ينوب عنا في مشافهتكم بها أحمد المَناب، ويقتضي خلاصها بالرَّغْبَة لا بالغلاب، وهما فلان وفلان. ولولا الأعذار لكان في هذا الغرض إعمال الرِّكاب، بسَبْق[3] أعلام الكِتاب، وأنتم تُولُون هذا القَصْد من مكارمكم ما يوفِّر الثناء الجميل، ويُرْبي على التَّأميل، ويكتُب على الودِّ الصريح العقد وثيقة

(١) الآراب: جمع أرب وهو البغية والمطلب. لسان العرب (أرب).
(٢) في الأصل: «وطالبنا» والتصويب من النفح. (٣) في النفح: «يسبق».

التّسْجيل. وهو سبحانه يُبقيكم لتأييد المجد الأثيل، وإنالة الرِّفْدْ الجزيل. والسلام الكريم يخصّ مقامكم الأعلى، ومَثابتكم الفُضْلى، ورحمة الله تعالى وبركاته. في الحادي والعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعمائة، والله ينفع بقَصْده، وييسر علينا الرجعة إلى وَجْهه وفضله[١].

مشيخته: قال[٢]: فمِمَّن أخذتُ عنه، واستفدتُ منه عَلَماها، يعني تلمسان، الشامخان، وعالماها الراسخان: أبو زيد عبد الرحمـٰن، وأبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد الله بن الإمام[٣]، وحافظها ومُدرِّسها ومُفتيها أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المِشْذالي[٤]، صهر شيخ المتأخرين[٥] أبي علي ناصر الدين[٦] على ابنته، ومشكاةُ الأنوار التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسْه نارٌ، الأستاذ أبو إسحـٰق إبراهيم بن حكيم الكِناني[٧] السَّلوى، رحمه الله. ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور[٨]، والشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن[٩] البَرُّوني، وأبو عمران موسى بومِن[١٠] المَصْمودي الشهير بالبخاري. قال: سمعت البرُّوني يقول: كان الشيخ أبو عمران يُدرِّس البُخاري[١١]، ورفيق له يدرِّس صحيحَ مُسْلم، وكانا يُعْرفان بالبُخاري ومُسلم، فشهدا عند قاض، فطلب المشهودُ عليه بالإعذار فيهما، فقال له أبو عمران: أتمكِّنُه من الإعذار في الصَّحيحين البُخاري ومسلم؟ فضحك القاضي، وأصلح بين الخصمين. ثم قال: ومن شيوخي الصلحاء الذين لقيت بها، خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط، أدرك أبا

---

(١) قوله: «والله ينفع حتى: وفضله» غير وارد في النفح.

(٢) تحدث المقري عن مشيخة ابن الخطيب في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢٠٦، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٣ - ٢٢٤، ٢٢٨).

(٣) ترجمة ابني محمد بن عبد الله بن الإمام في التعريف بابن خلدون (ص ٢٨) والديباج المذهب (ص ١٥٢) ونيل الابتهاج (ص ١٣٩).

(٤) في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢١٣): «المشدّالي». وترجمة المشدّالي في نيل الابتهاج (ص ٣٧٧).

(٥) في النفح: «المدرسين».

(٦) هو منصور بن أحمد بن عبد الحق، المتوفّى سنة ٧٣١ هـ. ترجمته في نيل الابتهاج (ص ٣٧٧) وعنوان الدراية (ص ١٣٤).

(٧) كلمة «الكناني» غير واردة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢١٤).

(٨) ترجمة أبي عبد الله بن عبد النور في التعريف بابن خلدون (ص ٤٦) وجذوة الاقتباس (ص ١٩٠) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٠).

(٩) في النفح (ج ٧ ص ٢١٤): «الحسين». وترجمه البروني في نيل الابتهاج (ص ٢٢٨).

(١٠) هذه الكلمة غير واردة في النفح.

(١١) في النفح: «يدرس صحيح البخاري».

إسحٰق الطيَّار. ومنهم أبو عبد الله بن محمد الكرموني، وكان بصيرًا بتفسير الرُّؤيا، فمن عجائب شأنه، أنه كان في سجن أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق مع مَن كان فيه، من أهل تلمسان أيام محاصرته لها، فرأى أبا جمعة علي التَّلالسي الجرايحي منهم، كأنه قائم على ساقيةٍ دائرةٍ، وجميع أقداحها وأقواسها تصب في نقير في وسطها، فجاء ليشرب، فاغترف الماء، فإذا فيه فرْثٌ ودَم، فأرسله، واغترف فإذا هو كذلك، ثلاثًا أو أكثر، ثم عَدَل إلى خاصَّة ماء، فجاءها وشرب منها. ثم استيقظ، وهو النهار، فأخبره، فقال: إن صَدَقت الرؤيا، فنحن عن قليل خارجون من هذا السجن. قال: كيف؟ قال: الساقية الزمان، والنَّقير السلطان، وأنت جرايحي، تدخل يدك في جوفه فينالها الفَرْث والدَّم، وهذا ما لا يحتاج معه إلى دليل، فأُخْرِج، فوجد السلطان مطعونًا بخنجر، فأدخل يده في جوفه، فناله الفرث والدّم، فخاط جراحته وخرج، فرأى خاصّة ماء، فغسل يده وشرب. ولم يلبث السلطان أن توفي، وسَرَّحوا من كان في سجنه. ومن أشياخه الإمام نسيجُ وحده، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد الآبلي التلمساني، وهو رُحْلة الوقت في القيام على الفنون العقلية، وإدراكه وصحَّة نظره.

حدَّث قال: قَدِم على مدينة فاس، شيخُنا أبو عبد الله محمد بن يحيىٰ الباهلي، عُرف بابن المُسَفِّر، رسولًا من صاحب بجاية. وزاره الطلبة، فكان مما حدّثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين، يَسْتَشْكلون كلامًا وقع في تفسير سورة الفاتحة من كتب فخر الدين، واستشكله الشيخ معهم. وهذا نصه: ثَبَت في بعض العلوم العقلية، أن المُرَكَّب مِثْل البسيط في الجنس، والبسيطُ مثل المُرَكَّب في الفصل، وأن الجنس أقوى من الفصل، فأخبروا بذلك الشيخ الآبلي لما رجعوا إليه، فتأمله ثم قال: هذا كلام مُصَحَّف، وأصله أن المركَّب قَبْل البسيط في الحِسّ، والبسيط قبل المركَّب في العَقْل، وأن الحِسَّ أقوى من العقل، فأخبروا ابن المُسَفِّر، فلجَّ، فقال لهم الشيخ: التمسوا النسَخ، فوجدوا في لَفْظ بعضها كما قال الشيخ.

رحلته: رحل[١] إلى بجاية مُشَرِّقًا، فلقي بها جلَّة، منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيىٰ الباهلي، ابن المُسَفِّر[٢]. ومنهم قاضيها أبو عبد الله محمد ابن الشيخ

---

(١) راجع نفح الطيب (ج ٧ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧، ٢٣٩).

(٢) توفي ابن المسفر في عام ٧٤٣ هـ، وترجمته في نيل الابتهاج (ص ٢٣٧) والديباج المذهب (ص ٣٣٢).

أبي يوسف يعقوب الزَّواوي، فقيه ابن فقيه. ومنهم أبو علي[١] حسن بن حسن إمام المَعْقولات بعد ناصر الدين. وبتونس قاضي الجماعة وفقيهها أبو عبد الله بن عبد السلام[٢]، وحضر دروسه، وقاضي المَناكح أبو محمد اللخمي[٣]، وهو حافظُ فقهائها في وقته، والفقيه أبو عبد الله بن هارون شارح ابن الحاجِب في الفقه والأصول. ثم حجَّ فلقي بمكة إمام الوقت أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمٰن التَّوْزَري، المعروف بخليل، وإمام المقام أبا العباس رضيّ[٤] الدين الشافعي، وغير واحد من الزَّائرين والمجاورين وأهل البلد. ثم دخل الشام، فلقي بدمشق شمس الدين بن قَيِّم الجَوْزية، صاحب ابن تَيْمِيَّة، وصدر الدين الغُماري المالكي، وأبا القاسم بن محمد اليماني الشافعي وغيرهم. وببيت القدس أبا عبد الله بن مُثْبت، والقاضي شمس الدين بن سالم، والفقيه أبا عبد الله بن عثمان، وغيرهم.

تصانيفه: أَلَّف[٥] كتابًا يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية، ضمَّنها كل أصيل[٦] من الرأي والمباحثة. ودوَّن في التَّصوّف إقامة المُريد، ورِحْلة المُتَبتِّل، وكتاب الحقائق والرَّقائق، وغير ذلك.

شعره: نقلتُ[٧] من ذلك قوله: هذه لمحةُ العارض لتكملة أَلْفِيَّة ابن الفارِض، سَلَبَ الدهرُ من فرائدها مائة وسبعة وسبعين، فاستعنت على ردِّها بحول الله المعين.

من فصل الإقبال[٨]: [الطويل]

رفضتُ السِّوى وهو الطَّهارة عندما ... تَلَفَّعْتُ في مِرْطِ الهوى وَهْوَ زينتي

وجئتُ الحِمَى وهو المُصَلّى مُيَمِّمًا ... بوُجهةِ قلبي وجهها وهو قِبْلتي

وقمتُ وما استفتحتُ إلّا بذكرها ... وأحْرَمْتُ إحرامًا لغير تجلَّةِ[٩]

فديني إن لاحتْ ركوعٌ وإن دَنَتْ ... سجُودٌ وإن لاهَتْ[١٠] قيامٌ بحَسْرةِ

(١) في النفح: «أبو علي حسين بن حسين».

(٢) هو محمد بن عبد السلام المُنَسْتيري، المتوفى سنة ٧٥٠ هـ. وترجمته في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٩) والتعريف بابن خلدون (ص ١٩) والديباج المذهب (ص ٣٣٦) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٠).

(٣) في النفح: «الأجمي».

(٤) في النفح: «بن رضي».

(٥) النص في نفح الطيب «ج ٧ ص ٢٦٦).

(٦) في النفح: «أصل».

(٧) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٠٦).

(٨) القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨).

(٩) في النفح: «تحلّة» بالحاء غير المعجمة.

(١٠) لاهت: تسترت. محيط المحيط (لاه).

على أننا في القُرْب والبُعْد واحدٌ تؤلّفنا[١] بالوصل عينُ التَّشتُّت
وكم من هَجِيرٍ خُضتُ ظمآنَ طاويًا إليها ودَيْجُورٍ طويتُ برحلةٍ[٢]
وفيها لقيتُ الموتَ أحْمَرَ والعِدا بزُرقةِ[٣] أسنانِ الرِّماح وحِدَّةِ
وبيني وبين العَذْل فيها منازلٌ تُنَسِّيك أيامَ الفِجار ومُؤْتةِ
ولمّا اقْتَسَمْنا خُطَّتَينا فحاملٌ فجارٍ بلا أجرٍ وحاملُ بَرَّةِ
خلا مَسْمعي من ذكرها فاستعدته فعاد ختامُ الأمرِ أصْلَ القضيَّةِ
وكم لي على حُكْم الهوى من تجلُّدٍ دليلٌ على أنّ الهوى من سَجيّتِي
يقول سَميري والأسا سالم الأسى ولا تُوضَعُ الأوْزارُ إلّا لمِحْنَةِ
لو أنّ مجوسًا بَتَّ موقِدَ نارِها لما ظلّ إلّا مَنْهلًا ذا شريعة
ولو كنتُ بَحْرًا لم يكن فيه نَضْحة لعينٍ إذا نارُ الغرام استحرَّتِ[٤]
فلا رَدْمَ مِنْ نَقْبِ[٥] المعاولِ آمنٌ ولا هَدْمَ إلّا منكَ[٦] شيد بقوّة
فممّ تقولُ الأسْطِقسّات[٧] منك أو علامَ مزاجٌ رُكِّبت أو طبيعةِ
فإنْ قام لم يَثْبُتْ له منكَ قاعدٌ وإلّا فأنتَ الدَّهْرَ صاحبُ قِعْدة
فما أنت يا هذا الهوى؟ ماءٌ أو هوا أم النارُ أم دسّاسُ عِرْقِ الأمومة؟
وإني على صبري كما أنت[٨] واصفٌ وحاليَ أقوى القائمين بحُجَّة
أقلُّ الضَّنى أن عجَّ من جسميَ الضَّنى وما شاكَهُ مِغْشارُ بعضِ شَكِيَّتي
وأيسرُ شوقي أنني ما ذكرْتُها ولم أنسَها إلّا احترقْتُ بلَوْعة
وأُخفي الجوى قرْعُ الصواعق منكَ في جَواي وأخفى الوَجد صَبْرُ المودّة
وأسهلُ ما ألقى من العَذْل أنني أُحِبُّ أَقَلِّيْ[٩] ذكرِها وفضيحَتي
وأوْجُ حظوظي اليوم منها حضيضُها بالأمس وَسَلْ حَرَّ الجفونِ الغزيرة
وأوجزُ أمري أنّ دهري كلَّه كما شاءتِ الحسناءُ يومَ الهزيمة

---

(١) في الأصل: «تألّفنا» والتصويب من النفح.
(٢) طاويًا: أي طاويًا بطني من الجوع. طويت: قطعت واجتزت. لسان العرب (طوى).
(٣) في الأصل: «مُزَرَّقَة» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٤) استحرّت: اشتدّت. محيط المحيط (حرر).
(٥) في الأصل: «نقيب» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٦) في الأصل: «إلاك شُيِّد» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٧) في الأصل: «الأسفطسات» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٨) في النفح: «أنا».
(٩) في الأصل: «أفلي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

أرُوحُ وما يلقى التأسُّفُ راحتي ... وأغدُو ما يعدُو التفجُّعَ خِطَّتي
وكالبيضِ بِيضُ الدهر والسُّمْر سودُه ... مساءتُها في طيِّ طِيبِ المَسَرَّة
وشأنُ الهوى ما قد عَرَفْتُ ولا تَسَلْ ... وحسْبُك أن لم يُخْبرِ الحبَّ رؤيتي
سقامٌ بلا بُرءٍ، ضلالٌ بلا هُدًى ... أُوامٌ بلا ريٍّ، دَمٌ لا بقيمةِ
ولا عَتْبَ فالأيامُ ليس لها رضًا ... وإن تَرْضَ منها الصَّبْرَ فَهْوَ تَعَنُّتي[1]
ألا أيها اللُّوَّامُ عني قَوِّضوا ... رِكابَ ملامي فهو أولُ محنتي
ولا تَعْذِلُوني في البكاء ولا البُكى ... وخلُّوا سَبيلي ما استطعتم ولَوْعتي
فما سَلْسَلَت بالدمع عيني إن جَنَتْ ... ولكن رَأتْ ذاك الجمالَ فَجُنَّتِ
تجلَّى وأرجاءُ الرَّجاء حَوالِكٌ ... ورُشْديَ غاوٍ والعماياتُ عَمَّت
فلم يَسْتَبِنْ حتى كأنيَ كاسفٌ ... وراجعْتُ إبصاري[2] له وبَصِيرتي

ومن فصل الاتصال[3]: [الطويل]

وكم موقف لي في الهوى خُضْتُ دونه ... عُبابَ الرّدى بين الظُّبا والأسِنَّةِ
فجاوزت في حدِّي مُجاهدتي له ... مُشاهدتي لمّا سَمَتْ بي هِمّتي
وحلّ جمالي في الجلال فلا أرى ... سوى صورةِ التَّنزيه في كلّ صورة
وغِبْتُ عن الأغيار في تِيه حالتي ... فلم أنتبهْ حتى امْتَحى اسمي وكنيتي
وكاتبْتُ ناسُوتي بأمّارةِ الهوى ... وعدتُ إلى اللاهوت بالمطمئنّة
وعلمُ يقيني صار عينًا حقيقةً ... ولم يَبْقَ دوني حاجبٌ غير هَيْبَتي
وبدَّلْتُ بالتَّلوين تمكينَ عزَّةٍ ... ومن كلّ أحوالي مقامات رِفْعَة
وقد غبتُ بعد الفرق والجمع موقفي ... مع المحو والإثباتِ عند تثبّتي
وكم جُلْتُ في سَمِّ الخِياط[4] وضاق بي ... لبَسْطي وقَبْضي بَسْطُ وجه البسيطة
وما اخترتُ إلّا دنَّ بقراط زاهدًا ... وفي مَلَكوت النفس أكبرُ عبرة
وفقري مع الصَّبر اصطفيتُ على الغنى ... مع الشكر إذ لم يحظ فيه مَثُوبتي
وأكتمُ حبّي ما كَنى عنه أهلُه ... وأكني إذا هُمْ صَرَّحوا بالخَبِيَّة
وإنّيَ في جنسي ومنه لواحِدٌ ... كنوع، فَفَضْلُ النوعِ علّةُ حصّتي

---

(١) في الأصل: «بغيتي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٢) في الأصل: «أبصاري»، والتصويب من النفح.
(٣) القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩) وجاء فيه: «وفي » بدل «ومن».
(٤) سَمُّ الخِياط: ثقب الإبرة. محيط المحيط (سمم) و(خيط).

تَسَبَّبْتُ في دعوى التوكّل ذاهبًا ... إلى أنَّ أجْدَى حيلتي تركُ حيلتي
وآخرُ حَرْفٍ صار منّيَ أولًا ... مريدًا وحَرْفٌ في مقام العُبودة
تعرَّفْتُ يوم الوقف منزلَ قومها ... فبتُّ بجمع سَدَّ خَرْقَ التَّشَتُّت
فأصبحتُ أقضي النفسَ منها مُنى الهوى ... وأقضي على قلبي برعي الرعيَّة
فبايَعْتُها بالنفس دارًا سكنْتُها ... وبالقلبِ منه منْزِلا فيه حَلَّت
فخلَّص الاستحقاقُ نفسي من الهوى ... وأوجب الاسترقاقُ تسليمَ شُفْعَة
فيا نَفَسُ لا ترجع تقطَّع بيننا ... ويا قلبُ لا تجزع ظَفِرْتَ بوَحْدَةِ

ومن فصل الإدلال[1]: [الطويل]

تبدَّتْ[2] لعيني من جمالك لمحةٌ ... أبادتْ فؤادي من سَناها بلَفْحَةِ[3]
ومَرَّتْ بسمعي من حديثك مُلحةٌ ... تبدَّتْ لها فيك القِران وقَرَّتِ
ملامي أَبِنْ، عذري استَبِنْ، وَجْدِيَ استعنْ ... سماعي أعِنْ، حالي أبِنْ، قائلي اَصْمتِ
فمن شاهِدَيْ سُخْط ومن قاتِلَي[4] رضا ... وتلوينُ أحوالي وتمكينُ رُتبتي
مَرَامي إشاراتٍ، مَراعي تفكّرٍ[5] ... مَراقي نهاياتٍ، مَراسي تَثَبُّتِ
وفي موقفي والدَّارُ أَقْوَتْ رسومُها ... تُقَرِّبُ أشواقي تُبَعِّد حسرتي
مَعاني أماراتٍ، مغاني تَذَكُّرٍ ... مَباني بِداياتٍ، مثاني تلفُّت
وبُثَّ غرامٌ، والحبيبُ بحضرةٍ ... ورُدَّ سلام والرقيبُ بغفلة
ومطلعُ بَدْرٍ في قضيبٍ على نَقا ... فُوَيْقَ محلّ عاطلٍ دون دُجْيَة
ومَكْمَنُ سِحْرٍ بابِلِيّ له بما ... حَوَتْ أَضْلُعي فعلُ القَنا السَّمْهريَّة
ومنبتُ مِسْكٍ من شقيقِ ابنِ منذرٍ ... على سَوْسَنٍ غضّ بجُنَّةٍ وجَنَّة
ورصفُ اللآلي في اليواقيت كلّما ... تُعَلّ بصرفِ الرَّاح في كل سُحْرَةِ
سَلِ السلسبيلَ العَذْبَ عن طعم ريقه ... ونُكْهته يخبركَ عن عِلْم خِبْرة
ورُمّانُ كافورٍ عليه طوابعٌ ... من النَدِّ[6] لم تحمل به بنتُ مُزْنة
ولُطْفُ هواء بين خَفْقٍ وبانَةٍ ... ورِقَّة ماء في قواريرِ فِضَّةِ
لقد عَزَّ الصَّبرُ حتى كأنّه ... سُراقةُ لحظٍ منك للمتلفّت

---

(١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٠٩ ـ ٣١١).
(٢) في الأصل: «تبوّب»، والتصويب من النفح. (٣) في الأصل: «بلفعة» والتصويب من النفح.
(٤) في النفح: «قائلي». (٥) في الأصل: «تعكر» والتصويب من النفح.
(٦) النَّدُّ: عود يُتَبَخَّر به. لسان العرب (ندد).

وأنت وإن لم تُبْقِ مني صَبابةً … مُنى النفسِ لم تقصدْ سواك بوُجْهة
وكلُّ فصيح منك يُسري لمسمعي … وكلُّ مليح منك يَبْدو لمُقْلتي
تهونُ عليَّ النَّفسُ فيك وإنها … لتكرُم أن تَغْشى سواك بنظرة
فإنْ تنظريني بالرِّضا تُشفَ علَّتي … وإن تُظْفريني باللقا تُطْفَ غُلَّتي
وإن تذكريني والحياة بقَيْدها … عدلتُ لأُمتي مُنيتي بمنيَّتي
وإن تذكريني بعدما أسكنُ الثرى … تجلَّتْ دُجاه عند ذاك وولَّتِ
صِليني وإلّا جَدِّدي الوعدَ تُذركي … صَبابةَ نفسٍ أيقنتْ بتَفَلُّت
فما أمُّ بَوٍّ هالكٍ بتَنُوفةٍ[1] … أُقيمَ لها خلفَ الجِلاب فدَرَّت
فلمّا رأته لا ينازعُ خِلْفها … إذا هي لم تَرْسِلْ عليه وضَنَّت
بَكَتْ كلّما راحتْ عليه وإنها … إذا ذكرته آخرَ الليل حَنَّتِ
بأكثرَ منّي لَوْعَةً غير أنني … رأيتُ وقار الصَّبر أحسنَ حِلْية
فرحْتُ كما أغدو إذا ما ذكرتها … أُطامنُ أحشائي على ما أجَنَّت
أُهَوِّن ما ألقاه إلّا من القِلَى … هوًى ونوًى نَيلُ الرِّضا منك بغيتي
أخوضُ الصَّلَى أطفِي الغُلا والعلوّ لا … أصلّ السَّلا أرعى الخَلَى بين عَبْرتي
ألا قاتلَ الله الحمامةَ غُدْوةً … لقد أضْلَتِ الأحشاءَ نيرانَ لَوْعَةِ
وقاتلَ مَغْناها وموقفَ شَجْوِها … على الغُصن ماذا هيَّجَتْ حين غنَّتِ
فغَنَّتْ غِناءً أعجميًّا فهيَّجَتْ … غراميَ من ذِكْرى عهودٍ تَولَّت
فأرسَلَتِ الأجفانُ سُحْبًا وأوقدتْ … جَوَايَ الذي كانت ضُلُوعي أكَنَّتِ[2]
نظرتُ بصحراء البريقين نظرةً … وصلَتْ بها قلبي فَصَلَّى وصَلَّتِ
فيا لهما قلبًا شجيًّا ونظرة … حجازِيَّةً لو جُنَّ طرفٌ لَجُنَّتِ
وواعجبًا للقلبِ كيف اعترافُه … وكيف بَدَتْ أسرارُهُ خَلْفَ سِتْرة
وللعين لمّا سُوئِلت كيف أخْبرَت … وللنفس لما وُطِّنَتْ كيف ذَلَّتِ
وكُنّا سَلَكْنا في صعودٍ من الهوى … يُسامي بأعلام العُلا كلَّ رُتْبَة
إلى مستوًى ما فوقه فيه[3] مستوى … فلمّا توافَينا ثبتُّ وزلَّتِ

---

(١) البَوُّ: ولد الناقة. التنوفة: الأرض الواسعة التي لا ماء فيها ولا إنسان. محيط المحيط (بوو) و(تنف).
(٢) أكنّت: سترتْ. محيط المحيط (كنن).
(٣) كلمة «فيه» ساقطة من الإحاطة، وقد أضفناها من النفح.

وكنّا عقدْنا عُقْدَةَ الوصل بيننا ... على نَحر قُربانٍ لدى قَبْر شَيْبة
مؤكدةٌ بالنُّذَر أيام عهده ... فلمّا تواثَقنا اشتَدَدْتُ وحَلَّتِ

ومن فصل الاحتفال[١]: [الطويل]

أزورُ اعتمارًا أَرْضَها بتَنَسُّكٍ ... وأقصدُ حَجًّا بيتها بتحلّةِ
وفي نشأتي الأخرى ظهرتُ بما علَتْ ... له نشأتي الأولى على كلّ فِطْرَة
ولولا خفاءُ الرَّمْزِ لا ولن ولم ... تجذها لشملي مَسْلَكًا بتشَتُّتِ
ولو لم يُجَدَّدْ عَهْدَنا عقدُ خِلَّةٍ ... قضيتُ ولم يَقْضِ المُنى صِدْقُ توبةِ
بعثتُ إلى قلبي بشيرًا بما رأتْ ... على قدم عَيْناي منه فكَفَّتِ
فلم يَغْدُ أن شام البشارةَ شامٌ ما ... جفا الشّام من نُور الصفات الكريمةِ
فيالك من نورٍ لو أنَّ التفاتةً ... تُعارَضُ منه بالنفوس النّفيسةِ
تحدّثُ أنفاسُ الصَّبا أن طيبَها ... بما حَمَلتْه من حَراقةِ حُرْقَة
وتنبىء آصالُ الربيع عن الرُّبا ... وأشجاره إن قد تجلَّتْ فجلَّت
وتخبر أصواتُ البلابل أنها ... تغنَّتْ بترجيعي[٢] على كلّ أَيْكة
فهذا جمالي منك في بُعْد حَسْرتي ... فكيف به إن قرَّبتني بخلّةِ
تَبَدَّى وما زال الحجابُ ولا دَنا ... وغاب ولم يُفقِدْه شاهدُ حضرتي
له كلُّ غَيْرٍ في تجلِّيه مظهرٌ ... ولا غَيْر إلّا ما مَحَتْ كفُّ غيرةِ
تجلّي دليلٍ واحتجابُ تنزهٍ ... وإثباتُ عرفانٍ ومحوُ تَثَبُّت
فما شِئتَ من شيء وآليتُ أنه ... هو الشيء لم تَحْمَدْ فجارِ أَليَّتِي
وفي كل خَلْقٍ منه كلُّ عجيبةٍ ... وفي كلّ خُلْقٍ منه كل لطِيفَةٍ
وفي كل خافٍ منه مَكْمَنُ حِكْمةٍ ... وفي كل بادٍ منه مظهرُ جَلْوة
أراه بقلْبِ[٣] القَلْبِ واللُّغزِ كامنًا ... وفي الزَّجر والفَال الصحيح الأدلَّة
وفي طيِّ أوفاقِ الحساب وسرِّ ما ... يتمّ من الأعداد فابدأ بستَّةِ
وفي نَفَثاتِ السِّحرِ في العُقَدِ التي ... تَطُوعُ[٤] لها كلُّ الطِّباع الأبِيَّةِ
يصوّر شكلًا مِثْلَ شَكْلٍ ويَغْتَلي ... عليه بأوهام النفوسِ الخبيثةِ

---

(١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣١١ ـ ٣١٣).
(٢) الترجيع: ترديد الصوت، وأراد هنا الغناء. لسان العرب (رجع).
(٣) في الأصل: «يُقلِّب» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٤) في الأصل: «تطوّع» وهكذا ينكسر الوزن.

وفي كلِّ تَصْحيفٍ وعضوٍ بذاته ... اختِلاج وفي التَّقْويم مَجْلى لرؤيةِ
وفي خُضْرة الكمّون تُزْجي شرابَهُ ... مواعيدُ عَزْقوبٍ على إثر صُفْرة
وفي شَجَرٍ قد خُوِّفَتْ قَطْع أصلها ... فبان بها حِمْلٌ لأقْرَبِ مدَّةِ
وفي النَّخل في تَلْقيحه واعتبر بما ... أتى فيه عن غير البَرِيَّة واسكتِ
وفي الطابع السَّبْتي في الأحرف التي ... يُبَيِّنُ منها النَّظْم كلَّ خِفْية
وفي صَنْعة الطِّلسمْ والكيمياء والـ ... كنُوز وتَغْوير المياه المَعِينة
وفي حِرْز أقسام المؤدّبِ مُحْرِزٍ ... وحزبِ أصيلِ الشّاذليّ وبكرةِ
وفي سِيمياء الحاتِميّ ومذهب ابـ ... ـنِ سَبْعينَ إذ يُعزى إلى شرّ بدْعة
وفي المُثُل الأولى وفي النِّحَلِ الأُلى ... بها أوهموا لمّا تساموا بسنَّة
وفي كل ما في الكَوْن من عجبٍ وما ... حَوَى الكونُ إلّا ناطقًا بعجيبة
فلا سِرَّ إلّا وهو فيه سريرةٌ ... ولا جَهْرَ إلّا وهو فيه كجِلْية
سَلِ الذِّكر عن أنصاف أصناف ما ابتنى ... عليه الكلامُ من حُروف سليمة
وعن وَضْعها في بعضها وبلوغ ما ... أتَتْ فيه أمضى عَدِّها وتَثَبُّت
فلا بدَّ من رَمْز الكنوز لذي الحِجا ... ولا ظُلْمَ إلّا ظُلمُ صاحبِ حِكْمَة
ولولا سلامٌ ساقَ للأَمْن خِيفتي ... لعاجل مَسُّ البرد خوفي لمَيْتَتي
ولو لم تَداركني ولكن بعطْفها ... دَرَجتُ رجائي أنْ نَعَتْني خَيْبتي
ولو لم تُؤانسني عنّا قبل لم ولم ... قضى العَتْبُ مني بُغيةً بَعْدَ وَحْشتي
ونعمٌ أقامتْ أمرَ مِلْكي بشكرها ... كما هوَّنَتْ بالصبر كلَّ بَليَّةِ

ومن فصل الاعتقال[1]: [الطويل]

سَرَتْ بفؤادي إذ سَرَتْ فيه نظرتي ... وسارتْ ولم تُثْنِ العِنانَ بعطفةِ
وذلك لما أطْلَع الشمسَ في الدُّجى ... مُحيًّا ابنةِ الحيِّين في خَير ليلةِ
يمانيَّةٌ لو أنْجَدتْ حين أنجدتْ[2] ... لما أبْصَرتْ عيناكَ حيًّا كميِّتِ
لأصْحَمَةٍ[3] في نُصْحها قدمٌ بنى ... لكلِّ نجاشِيّ بها حِصْنَ ذِمَّة
أَلَمَّتْ فَحَطَّتْ رَحْلها ثم لم يكن ... سوى وقفةِ التَّوديع حتى استقلَّتِ

(١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣١٣ ـ ٣١٥).
(٢) أنجدت الأولى: من النجدة. وأنجدت الثانية: دخلت نجدًا. لسان العرب (نجد).
(٣) أصحمة: هو نجاشي الحبشة، الذي استقبل بالحبشة مهاجري المسلمين وأحسن معاملاتهم، ولمّا توفي صلّى عليه النبيّ ﷺ صلاة الغائب.

فلو سَمَحَتْ لي بالتِفاتٍ وَحُلّ من مهاوي الهوى والهُون جدَّ تفَلُّتي
ولكنها هَمَّتْ بنا فتذكَّرَتْ قضاءَ قُضاةِ الحُسْن قِدْمًا فصَدَّتِ
أَجَلْتُ خيالًا إنني لا أُجِلُّهُ ولم أَنْتَسِبْ منه لغير تَعِلَّةِ
على أنني كلِّي وبعضي حقيقةٌ وباطلُ أوصافي وحقٌّ حقيقتي
وجِنْسي وفَصْلي والعوارضُ كلّها ونوعي وشخصي والهواءُ وصورتي[١]
وجِسمي ونفسي والحَشا وغرامُه وعَقْلي وروحانِيَّتي القُدْسِيَّة
وفي كلّ لفظٍ عنه مَيْلٌ لمسمعي وفي كل معنًى منه معنًى لِلَوْعتي
ودهري به عيدٌ ليوم عُرُوبةٍ وأمريَ أمري والوَرَى تحت قَبْضتي
ووقتي شهودٌ في فِناء شَهِدْتُه ولا وقتَ لي إلّا مَشاهدُ غَيْبَة
أراه معي حِسًّا ووَهْمًا وإنه مَناطُ الثُّريَّا من مدارك رؤيتي
وأسمعُه من غير نُطْقٍ كأنه يُلَقِّنُ سمعي ما تُوَسْوِسُ مُهجتي
ملأتَ بأنوار المحبَّة باطني كأنَّكَ نورٌ في سِرارِ سَريرتي
وجَلَّيتَ بالإجلال أرجاء ظاهري كأنَّك في أُفْقي كواكبُ زينة
فأنت الذي أُخْفيه عند تَسَتُّري وأنت الذي أُبْديه في حين شُهْرتي
فَتِهْ أحتمل، واقْطَعْ أصِلْ وأَغْلُ اسْتَفِلْ ومُرْ أمتَثِلْ وأَمْلِلِ أمِلْ، وازم أثْبُتِ
فقلبيَ إن عاتَبْتُه فيك لم أجِدْ لعَتْبي فيه الدهرَ موقعَ نُكْتة
ونفسيَ تَنْبُو عن سواكَ نَفاسةً فلا تَنْتَمي إلّا إليك بمِنَّةِ
تعَلَّقتِ الآمالُ منك بفوق ما أرى دُونه ما لا يُنال بحِيلَةِ
وحامَتْ حواليها وما وافَقَتْ حِمًى سحائبُ يَأْسٍ أمطرتْ ماءَ عَبْرتي
فلو فاتني منك الرِّضى ولحِقْتني بعفوٍ بكيتُ الدهرَ فَوْتَ فَضيلة
ولو كنتُ في أهل اليمين مُنَعَّمًا بكيتُ على ما كان من سَبْقِيَّةِ
وكم من مقام قمتُ عنك مسائلًا أرى كلَّ حيٍّ كلَّ حيٍّ ومَيِّت
أتيتُ بفاراب أبا نَصْرها فلم أجِدْ عنده عِلْمًا يُبَرِّدُ غُلَّتي
ولم يَدْرِ قولي ابنُ سيناء سائلًا فقُلْ كيف أرجو عنده بُرْءَ عِلَّتي
فهل في ابن رُشْد بعد هذين مُرْتجى وفي ابن طُفيل لاحْتِثاثِ مَطِيَّتي؟
لقد ضاع لولا أن تداركني حِمًى من الله سعيٌ بينهم طول مُدَّتي
فَقَيَّضَ لي نَهْجًا إلى الحقّ سالكًا وأيقظني من نومِ جهلي وغَفْلتي

(١) يستعمل الشاعر في هذا البيت اصطلاحات علم المنطق.

فحصَّنْتُ أنظار الجُنَيدِ[١] جُنَيْدِها ... بتركِ فلي من رغبةٍ ريحُ رهبةِ
وكسَّرْتُ عن رَجْل ابن أدهَم أدْهَمًا ... وأنقذْتُه من أسْرِ حُبِّ الأسْرَة
وعُدتُ على حَلّاجِ شُكْري[٢] بصَلْبه ... وألقيتُ بلعامَ التَّفاتي[٣] بهوَّة
فَقَوْليَ مشكورٌ ورأييَ ناجح ... وفِعْليَ مَحْمودٌ بكلِّ مَحَلَّة
رضيتُ بعِرْفاني فأعْلَيْتُ للعُلا ... وأجْلَسني بعد الرِّضا فيه جُلّتي
فعشْتُ ولا ضيرًا أخافُ ولا قِلَى ... وصِرْتُ حبيبًا في ديار أحِبَّتي
فها أنا ذا أُمْسي وأُصْبحُ بينهم ... مُبَلَّغَ نفسي منهمُ ما تَمَنَّتِ

وأنشدني قوله في حال قبض وقيّدتُها عنه[٤]: [الطويل]

إليكَ بسطْتُ الكَفَّ أستنزلُ الفَضْلا ... ومنك قبضْتُ الطَّرْفَ أستشعرُ الذُّلّا
وها أنا ذا قد قمْتُ[٥] يُقدمني الرَّجا ... ويُحجمني[٦] الخوفُ الذي خامر العَقْلا
أُقَدِّمُ رِجْلًا إن يضيء بَرْقُ مطمعٍ ... وتُظْلِمُ أرجائي فلا أنقلُ الرِّجْلا
ولي عَثَراتٌ لست آملُ أن هَوَتْ ... بنفسيَ ألّا أستقلَ وأن أصْلى
فإن تُدَرِّكني رحمةٌ أنتعشْ بها ... وإن تكُنِ الأخرى فأوْلى بيَ الأَوْلى

قال، ومما نظمته من الشعر[٧]: [مجزوء الكامل]

وَجْدٌ تُسَعِّره الضلو ... عُ وما تُبَرِّدُهُ المدامعْ
هَمٌّ تحرِّكه الصَّبا ... بةُ والمهابةُ لا تُطاوعْ
أملي[٨] إذا وَصَلَ الرَّجا ... أسبابَهُ فالموتُ قاطعْ
بالله يا هذا الهوى ... ما أنتَ بالعُشّاقِ صانِعْ؟

قال: ومما كتبت به لمن بلغني عنه بعض الشيء[٩]: [الرمل]

نحن، إن تسأل بناسٍ، معشرٌ ... أهلُ ماءٍ فَجَّرَتْهُ الهِمَمُ
عَرَبٌ من بِيضهم أرزاقُهُم ... ومن السُّمْر الطوال الخيَمُ

---

(١) في الأصل: «الجُنْد» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٢) في الأصل: «سكرى» والتصويب من النفح. (٣) في الأصل: «التفاني» والتصويب من النفح.
(٤) الأبيات في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣١٥).
(٥) في الأصل: «قدمت» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٦) في النفح: «ويحجم بي». (٧) الأبيات في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣١٥).
(٨) في النفح: «أملٌ».
(٩) الأبيات في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣١٥ ـ ٣١٦).

عَـرَّضـت أحـسـابـهـم أرواحـهـم دون نَـيْـلِ الـعِـرض وهـي الـكـرم
أورثـونـا الـمـجـد حـتـى إنـنـا نَـرْتـضـي الـمـوتَ ولا نَـزْدحـم
ما لنا في الناس من ذنبٍ سوى أنـنـا نَـلْوي إذا مـا اقـتـحـمـوا

قال: ومما قلته مذيِّلًا به قول القاضي أبي بكر بن العربي[١]: [مجزوء الوافر]

أمـا والـمَـسْـجـدِ الأقـصـى ومـا يُـتـلـى بـه نَـصًّـا
لـقـد رَقَـصَـتْ بـنـات الـشـو قِ بـيـن جـوانـحـي رقـصـا

قـولـي: [مـجـزوء الـوافـر]

فـأقـلـع بـي إلـيـه هـوًى جَـنـاحًـا عَـزْمُـهُ قُـصّـا[٢]
أقـلَّ الـقـلـبَ واسـتـعـدى عـلى الـجُـثْـمـانِ فـاسْـتَـعْـصـى
فـقـمـتُ أجـول بـيـنـهـمـا فـلا أدنـى ولا أقـصـى

قال: ومما قلته في التورية بشأن راوي المدوّنة[٣]: [البسيط]

لا تَـعْـجَـبَـنَّ لـظبـيٍ قد دَهـا أسـدًا فقد دها أسدًا من قَبْلُ سُحنونُ

قال: ومما قلته من الشعر[٤]: [البسيط]

أنْبَتَّ عودًا بنعماءٍ[٥] بدأتَ بها فضلًا وألبَسْتها بعد اللّحى الوَرَقا
فظلَّ مُسْتشعِرًا مُسْتدثرًا أرِجًا[٦] ريّانَ ذا بهجة يستَوْقفُ الحَدَقا
فلا تشِنْه بمكروه الجَنَى فلكمْ عَوَّدْتَه من جميلٍ من لَدُن خُلِقا
وانْفِ القَذَى عنه وآثِرِ الدهر منبته وغَـذِّهِ بـرجـاءٍ واسْـقِـهِ غَـدقـا[٧]
واحْفَظْهُ من حادثاتِ الدهرِ أجمعها ما جاء منها على ضوءٍ وما طَرَقا

ومما قيّدتُ عنه أيام مجالسته ومقامه بغرناطة، وقد أجرى ذكر أبي زيد ابن الإمام، أنه[٨] شهد مجلسًا بين يدي السلطان أبي تاشفين عبد الرحمٰن بن أبي حمُّو،

(١) الأبيات في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣١٦).
(٢) أقلع: نشر شراع السفينة، وهنا يشبّه الهوى بالملّاح.
(٣) البيت في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣١٦). (٤) الأبيات في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣١٧).
(٥) في النفح: «النعماءِ».
(٦) مستشعرًا: لابسًا الشعار، وهو اللباس الذي يلامس البدن. مستدثرًا: لابسًا الدثار. لسان العرب (شعر) و(دثر).
(٧) الغَدَق: بالفتح: الماء الكثير. لسان العرب (غدق).
(٨) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢٠٨ ـ ٢١١).

ذكر فيه أبو زيد المذكور، أن ابن القاسم مُقَيد بالنظر بأصول مالك، ونازعه أبو موسى عُمران بن موسى المِشْذالي[١]، وادّعى أنه مُطْلق الاجتهاد، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه أو[٢] يبلغه عنه لما ليس من قوله، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة. قال: فلو تقَيّد بمذهبه لم يخالفه لغيره، فاستظهر أبو زيد بنصٍّ لشرف الدين بن[٣] التلمساني، ومثّل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك، والمزني إلى الشافعي. فقال أبو موسى عُمران[٤]: هذا مثال، والمثال لا يُلزم[٥] صحّته، فصاح به أبو زيد[٦] ابن الإمام وقال لأبي عبد الله بن أبي عمر[٧]: تكلَّمْ، فقال: لا أعرف ما قال هذا الفقيه، والذي أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فسادُ المُمثَّل به، فقال أبو موسى للسلطان: هذا كلام أصولي مُحقق، فقلت لهما[٨] يومئذ، وأنا حديث السن: ما أنصفهما[٩] الرَّجل، فإن المثل[١٠] كما يؤخذ على جهة التحقيق، كذلك يُؤخذ على جهة التقريب، ومن ثَمَّ جاء ما قال[١١] هذا الشيخ، أعني ابن أبي عمران[١٢]، وكيف لا وهذا سيبويه يقول: وهذا مثال ولا يُتكلّم به، فإذا صحّ أن المثال قد يكون تقريبًا، فلا يلزم صحة المثال، ولا فساد الممثّل لفساده، فهذان القولان من أصل واحد.

وقال: شهدتُ مجلسًا آخر عند هذا السلطان، قُرِىء فيه على أبي زيد ابن الإمام حديثُ: «لقّنوا موتاكم لا إلـه إلا الله»، من[١٣] صحيح مُسْلم، فقال له الأستاذ أبو إسحـٰق بن حكم السَّلوي: هذا المُلَقَّن مُحتَضَر حقيقةً، ميِّت مجازًا، فما وجه ترك مُحْتَضِريكم إلى موتاكم، والأصل الحقيقة؟ فأجابه أبو زيد بجواب لم يُقْنعه. وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض «التنقيح»، فقلت: زعم القرافي أن المُشْتقّ إنما يكون حقيقة في الحال، مجازًا في الاستقبال، مختلفًا فيه في الماضي، إذا كان محكومًا به. وأما[١٤] إذا كان متعلّق الحكم كما هنا، فهو حقيقةٌ مُطْلقًا إجماعًا، وعلى هذا التقرير لا مجاز ولا سؤال. ولا يقال: إنه احتجّ على ذلك بما فيه نظر؛ لأنّا نقول: إنه نقل الإجماع، وهو أحد الأربعة التي لا يُطالب عنها[١٥] بالدليل، كما ذكر أيضًا. بل

---

(١) في النفح: «المشدّالي».
(٢) في النفح: «ويبلغه».
(٣) كلمة «بن» غير واردة في نفح الطيب.
(٤) في النفح: «فقال عمران».
(٥) في النفح: «تلزم».
(٦) في النفح: «أبو موسى».
(٧) في النفح: «عمرو».
(٨) في النفح: «لهما وأنا يومئذ حديث. . .».
(٩) في النفح: «أنصفتما».
(١٠) في النفح: «المُثُل كما تؤخذ».
(١١) في النفح: «قاله».
(١٢) في النفح: «عمرو».
(١٣) في النفح: «في».
(١٤) في النفح: «أمّا».
(١٥) في النفح: «مدّعيها».

نقول: إنه أساء حيث احتجّ في موضع الوفاق، كما أساءَ اللخمي وغيره في الاحتجاج على وجوب الطّهارة ونحوها. بل هذا أشنع، لكونه مما علم كونه من الدِّين ضرورة[١]. ثم إنّا لو سَلَّمْنَا نَفْيَ الإجماع، فلنا أن نقول: إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التي يعقبها الموت عادة؛ لأنّ تلقينه قبل ذلك، إن لم يدهش، فقد يُوحش، فهو تنبيه على وقت التلقين: أي لقِّنوا مَنْ تحكمون بأنه ميت. أو يقال[٢]: إنما عَدَل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام، ألا ترى اختلافَهم فيه: هل هو[٣] أخذ من حضور الملائكة أو حضور الأجل، أو حضور الجُلّاس؟ ولا شك أن هذه حالة خفِيَّة يُحتاج في نصبها[٤] إلى دليل الحكمة أو إلى وصفٍ ظاهر يضبُطها، وهو ما ذكرناه، أو من حضور الموت، وهو أيضًا ممّا لا يُعرّف بنفسه، بل بالعلامات. فلمّا وجب اعتبارُها، وجب كون تلك التسمية إشارة إليها، والله أعلم.

وقال: وكان أبو زيد يقول، فيما جاء من الأحاديث: ما[٥] معنى قول ابن أبي زيد: «وإذا سلّم الإمامُ، فلا يلبث[٦] بعد سلامه ولينصرف»، وذلك بعد أن ينتظر[٧] من يُسلّم مَنْ خلفه لئلّا يمر بين يَدَيْ أحد، وقد ارتفع عنه حكمه، فيكون كالداخل مع المسبوق جمعًا بين الأدلة.

وقلت[٨]: وهذا من مُلَح الفقيه. وقال: كان أبو زيد يعني الإمام، يُصَحِّف قول الخُونجي في الجمل والمقارنات التي يمكن اجتماعه معها، فيقول: و«المفارقات»، ولعلّه في هذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعي لمّا قرأ عليه: [مجزوء الكامل]

وغَـرَرْتَـنـي وزَعَـمْـتَ أنـك لابـنٌ فـي الـصَّـيـف[٩] تـامـرْ

فـقـال: [مـجـزوء الكامـل]

وغَـرَرْتَـنـي وزعـمـتَ أنـك لا تَـنـي[١٠] بـالـضَّـيـف تـامـرْ

فقال: أنت في تصحيفك أشهر من الحُطيئة، أو كما يُحكى[١١] عن الشافعي أنه لما صلّى في رمضان بالخليفة، لم يكن يومئذ يحفظ القرآن، فكان ينظر في

(١) في النفح: «بالضرورة».
(٢) في النفح: «أو نقول».
(٣) كلمة «هو» غير واردة في النفح.
(٤) في النفح: «في نصبها دليلًا على الحكم إلى وصف».
(٥) في النفح: «من».
(٦) في النفح: «يثبت».
(٧) في النفح: «ينتظر بقدر ما يسلّم...».
(٨) في النفح: «قلت».
(٩) في النفح: «بالصيف».
(١٠) في النفح: «لابن».
(١١) في النفح: «كما حكي عمن صلّى بالخليفة في رمضان، ولم...».

المصحف، وقرأ الآية «صنعة الله أصيب بها من أساء. إنما المشركون نحس. وعدها إياه[١]، تقية لكم خيرٌ لكم. هذا أن دعوا للرحمـٰن ولدًا، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه»[٢].

وقال[٣]: وذكر أبو زيد ابن الإمام في مجلسه يومًا أنه سُئل بالمشرق عن هاتين الشريطتين[٤]: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾[٥]، فإنهما يستلزمان[٦] بحكم الإنتاج «ولو علم الله فيهم خيرًا لتولّوا وهم معرضون» وهو محال. ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين، فقال ابن حكم: قال الخونجي: والإهمال بإطلاق لفظه، لو وأن في المتَّصلة، فهاتان القضيتان على هذا مُهملتان، والمهملة في قوة الجُزئية، ولا قياس على[٧] جُزئيَّتين. فلما اجتمعت ببجاية بأبي علي حسين بن حسين، أخبرته بهذا، وبما أجاب به الزَّمخشري وغيره، ممّا يرجع إلى انتفاء أمر[٨] تكرار الوسط. فقال لي: الجوابان في المعنى سواء؛ لأن القياس على الجزئيَّتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرار[٩] الوسط. وأخبرت بذلك شيخنا أبا عبد الله الآبلي، فقال: إنما يقوم القياس على الوَسط، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جُزئيتين ولا سالبتين، إلى سائر ما يُشترط، فقلت: ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلًا لمُجمل ما ينبني عليه الوسط[١٠] وغيره، وإلا فلا مانع لما قاله ابن حسين. قال الآبلي: وأجبتُ بجواب السُّلوي، ثم رجعت إلى ما قاله الناس، لوجوب كون مُهملات القرآن كلِّية؛ لأن الشَّرطية لا تنتج جزئيَّة. فقلت: هذا فيما يُساق منها للحجة مثل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١١]. أما في مثل هذا فلا قلت[١٢]. وكان يلزم السؤال الأول لو لم يكن للمتولي سبب تأخر، حسبما تبين في مسألة، لو لم يطع الله، فلينظر ذلك في اسم شيخنا أبي بكر يحيـىٰ بن هُذيل رحمه الله.

وقال[١٣]: لما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فَرْحون، نزيل طيبة، على تربتها السلام، سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين: [الوافر]

---

(١) في النفح: «أباه».
(٢) في النفح: «يعنيه».
(٣) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢١٥).
(٤) في النفح: «الشرطيتين».
(٥) سورة الأنفال ٨، الآية ٢٣.
(٦) في النفح: «تستلزمان».
(٧) في النفح: «عن».
(٨) في النفح: «انتفاء تكرر الوسط».
(٩) في النفح: «تكرر».
(١٠) في النفح: «من الوسط».
(١١) سورة الأنبياء ٢١، الآية ٢٢.
(١٢) كلمة «قلت» غير واردة في النفح.
(١٣) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢١٥ ـ ٢١٨).

رأتْ قَمَرَ السماءِ فأذْكَرَتْني ... ليالِيَ وَصْلِنا[١] بالرَّقْمتينِ
كلانا ناظرٌ قَمَرًا ولكنْ ... رأيتُ بعينِها ورأتْ بعيني

ففكّر ثم قال: لعل هذا الرجل كان ينظر إليها، وهي تنظر إلى قمر السماء، فهي تنظر إلى القمر حقيقة، وهو لفَرْط[٢] الاستحسان يرى أنها الحقيقة. فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة. وأيضًا وهو ينظر إلى قمر مجازًا، وهو لإفراطه استحسانها[٣] يرى أنّ قمر السماء هو المجاز، فقد رأت بعينه؛ لأنها ناظرةُ المجاز. قلت: ومن هذا يُعلم وجه الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ والفاء فأذكَرتني بمثابة قولك أذكرتني، فتأمّله، فإن بعض مَنْ لا يفهم كلام الأستاذ كل[٤] الفهم، ينشده: «وأذكرتني». فالفاء في البيت الأول، مُنبِّهة على الثاني، وهذا النحو يسمى «الإيذان في علم البيان».

وقال: سألني ابنُ حكم عن نسب هذا[٥] المُجيب في هذا البيت: [الكامل]

ومُهَفْهَفِ الأعطافِ قلْتُ له انتسبْ ... فأجابَ ما قَتْلُ المُحبِّ حرامُ

ففكرت ثم قلت له[٦]: أراه تميميًا؛ لإلغائه «ما» النافية. فاستحسنه مني لصغر سني يومئذ. وسأل ابنُ فرحون ابنَ حكم يومًا[٧]: هل تجد في التّنزيل ستَّ فاءات مُرتبة ترتيبها في هذا البيت: [البسيط]

رأى فَحَبَّ فرامَ الوَصْل فامتنعتْ ... فَسَامَ صَبْرًا فأعْيا نَيْلُه فَقَضى

ففكر ابن[٨] حكم، ثم قال: نعم قوله عزّ وجلّ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟﴾[٩] إلى آخرها، فمنعت له البناء في ﴿فَتَنَادَوْا۟﴾. فقال لابن فرحون: فهل عندك غيره؟ فقال: نعم، قوله عزّ وجلّ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾[١٠] إلى آخرها، فمنع لهم بناء الآخرة لقراءة الواو. فقلت له: امنع ولا تُسند، فيقال[١١]: إن المعاني قد تختلف باختلاف الحروف، وإن كان السَّند لا يسمع الكلام عليه. وأكثر ما وجدت الفاء تنتهي في كلامهم إلى هذا العدد، سواء بهذا الشرط وبدونه، كقول نوح عليه السلام: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ

---

(١) في النفح: «وصلها».
(٢) في النفح: «لإفراط».
(٣) في النفح: «الاستحسان «لها يرى...».
(٤) في النفح: «حقّ».
(٥) كلمة «هذا» غير واردة في النفح.
(٦) كلمة «له» غير واردة في النفح.
(٧) كلمة «يومًا» غير واردة في النفح.
(٨) في النفح: «ففكر ثم قال».
(٩) سورة القلم ٦٨، الآيات ١٩ ـ ٢١.
(١٠) سورة الشمس ٩١، الآية ١٣.
(١١) في النفح: «فيقال لك».

﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾[(١)]. وكقول امرىء القيس: «غشيت ديار الحيّ بالبَكَرات، البيتين[(٢)]». لا يقال قوله: فالحبُّ[(٣)] سابع؛ لأنا نقول إنه عطف على «عاقل» المجرّد منها، ولعلّ حكمة السّتة أنها أول الأعداد التامة، كما قيل في حكمة خلق السمٰوات والأرض فيها، وشأن اللسان عجيب.

وقال[(٤)]: سمعت ابن حكم يقول: كتب[(٥)] بعض أدباء فاس إلى صاحب له: [المجتث]

ابْـعَـثْ إلـيَّ بـشـيءٍ   مَـدارُ فـاسٍ عـلـيـهِ
ولـيـس عـنـدك شـيءٌ   مِـمّـا أُشِـيـرُ إلـيـهِ

فبعث إليه ببطّة من مرّي[(٦)] شُرب، يشير بذلك إلى الرّياء.

وحُدِّثت أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن أحمد بن المَلْجوم دعي[(٧)] إلى وليمة، وكان كثير البَلْغم، فوضع بين يديه صِهره أبو العباس بن الأشقر غُضارًا من اللّوز المطبوخ بالمَرّي، لمناسبته لمزاجه، فخاف أن يكون قد عَرّض له بالرياء. وكان ابن الأشقر يُذكر بالوقوع في الناس، فقدّم[(٨)] له القاضي غُضار المَقْروض، فاستحسن الحاضرون فِطْنته.

وقال عند ذكر شيخه أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي: دخلت عليه بالفقيه أبي عبد الله السّطي في أيام عيد، فقدّم لنا طعامًا، فقلت: لو أكلت معنا، فرجونا بذلك ما يُرفع من حديث «مَن أكل مع مغفور له، غُفِرَ له» فتبسّم، وقال لي: دخلت على سيدي أبي عبد الله الفاسي بالإسكندرية، فقدّم

---

(١) سورة يونس ١٠، الآية ٧١.

(٢) بيتا امرىء القيس هما [الطويل]:

غَشِيتُ ديارَ الحَيِّ بِالبَكَراتِ   فـعـارِمَـةٍ فَـبُـرْقَـةِ الـعِـيـراتِ
فَـغَـوْلٍ فَـحِـلِّـيـتٍ فَـمَـنْـعِـجٍ   إلى عاقلٍ فالجُبِّ ذي الأمراتِ

ديوان امرىء القيس (ص ٧٨).

(٣) في النفح: «فالجُبُّ».

(٤) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢١٨ ـ ٢٢١).

(٥) في النفح: «بعث».

(٦) البطّة: إناء كالقارورة. محيط المحيط (بطط). والمرّي، بتشديد الراء: نوع من مستحضرات تتخذ في صنع الأطعمة، ويقال إنه مركب يصنع من الدقيق والملح والعسل والتمر وأشياء أخرى. ويقال هو نوع يعمل من السمك المالح واللحوم المالحة. ملحق معجم المعاجم العربية لدوزي (مادة مري) وكتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين (ص ٨٢).

(٧) في النفح: «حضر وليمة».   (٨) في النفح: «فناوله القاضي».

لنا[١] طعامًا، فسألته عن هذا الحديث فقال: وقع في نفسي[٢] شيء، فرأيت النبيّ ﷺ في المنام، فسألته عنه، فقال[٣]: لم أقُله، وأرجو أن يكون كذلك. وصافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد الله زيان، بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصعيدي، بمصافحته أبا العباس أحمد المُلَثَّم، بمصافحته المُعَمَّر، بمصافحته رسول الله ﷺ.

وحدَّث عن شيخه أبي محمد الدَّلاصي، أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد، فكان يخصّه لدينه وعقله، بالنداء باسمه، وإنما كان يَنْعَق[٤] بمماليكه: يا ساقي، يا طبَّاخ، يا مُزَين. فناداه[٥] ذات يوم: يا فرّاش، فظنّ أَن[٦] ذلك لموجدة[٧] عليه. فلم ير أثر ذلك، وتصوَّرت له به خَلْوة، فسأله عن مخالفته لعادته[٨]، فقال له: لا عليك، كنتُ يومئذ جُنُبًا، فكرهت أن أذكر[٩] اسم رسول الله ﷺ، على تلك الحالة. وقال: أنشدني المجاصي، قال: أنشدني الإمام[١٠] نجم الدين الواسطي، قال: أنشدني شرف الدين الدمياطي، قال: أنشدني تاج الدين الآمدي[١١]، مُؤلف «الحاصل»، قال: أنشدني الإمام فخر الدين[١٢] لنفسه: [الطويل]

نهايةُ إقدام العقول عِقالُ ... وأكثرُ سَعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وَحْشة[١٣] من جسومنا ... وحاصلُ دنيانا أذىً[١٤] ووَبالُ[١٥]

---

(١) كلمة «لنا» غير واردة في النفح.
(٢) في النفح: «نفسي منه شيء».
(٣) في النفح: «فقال لي».
(٤) يقال: نعق الغراب إذا صوَّت، ونعق الراعي الغنم: صاح بها، وينعق بمماليكه: ينادي. لسان العرب (نعق).
(٥) في النفح: «فنادى به ذات...».
(٦) كلمة «أن» غير واردة في النفح.
(٧) الموجدة: الغضب. لسان العرب (وجد).
(٨) في النفح: «لعادته معه فقال».
(٩) في النفح: «فكرهت ذكر رسول...».
(١٠) كلمة «الإمام» غير واردة في النفح.
(١١) في النفح: «الأرموي».
(١٢) هو فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن البكري الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، إمام مفسّر وطبيب وأديب وشاعر. توفي سنة ٦٠٦ هـ. ترجمته في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٨٢) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٦٢) والبداية والنهاية (ج ١٣ ص ٥٥). وأبياته هذه في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٨٤) وعيون الأنباء (ص ٤٦٨) والوافي بالوفيات (ج ٤ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١). وفي البداية والنهاية (ص ٥٦) فقط البيتان الثاني والثالث.
(١٣) في عيون الأنباء: «في عقلة».
(١٤) في الوافي بالوفيات: «ردى».
(١٥) في الأصل: «ودبال»، والتصويب من المصادر المذكورة.

ولم نستفدْ من بحثنا طولَ عمرنا سوى أن جَمَعْنا فيه قِيلٌ وقالُ[١]

وكم مِن رجال قد رأينا ودولة[٢] فبادوا جميعًا مُسرعين وزالوا

وكم مِن جبال قد عَلَتْ شُرُفاتها رجالٌ فماتوا والجبال جبال[٣]

وقال[٤]: وقد مرَّ من ذكر الشريف القاضي أبي علي حسين بن يوسف بن يحيىٰ الحسني في عِداد شيوخه وقال: حدَّثني أبو العباس الرُّندي عن القاضي أبي العباس بن الغمّاز[٥]، قال: لمّا قدم القاضي أبو العباس بن الغماز من بلنسية، نزل بِجاية؛ فجلس بها في الشهود مع عبد الحق بن ربيع[٦]، فجاء عبد الحق يومًا، وعليه بُرْنس أبيض، وقد حَسُنت شارته، وكمُلت هيئته، فلمّا نظر إليه ابن الغماز أنشده: [الخفيف]

لَبِسَ البُرْنُسَ الفقيهُ فباهى ورأى أنه المليحُ فَتَاها[٧]

لو زَلَيخا رأته حين تَبَدّى لتمنَّتْه أن يكونَ فتاها

وقال أيضًا: إن ابن الغمّاز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزَّيْتُونة، فنزل الشهود من المئذنة وأخبروا أنهم لم يُهِلُّوه[٨]. وجاء حفيد له صغير، فأخبره أنه أهَلَّه، فردّهم معه، فأراهم إياه، فقال: ما أشبه الليلة بالبارحة. وقد[٩] وقع لنا مثل هذا مع أبي الربيع بن سالم[١٠]، فأنشدنا فيه: [الطويل]

توارى هلال الأُفْق عن أَعْيُن الوَرَى وأرْخَى حجاب الغَيْم دون مُحَيَّاهُ

فلمّا تَصَدّى لارتقاب شقيقِهِ تَبَدّى له دون الأنام فحيَّاهُ

---

(١) في الوافي بالوفيات: «... طول دهرنا سوى... فيه قلت وقالوا».

(٢) في وفيات الأعيان وعيون الأنباء: «وكم قد رأينا من رجال ودولة».

(٣) في المصدرين السابقين: «فزالوا» بدل «فماتوا». ورواية عجز البيت في الوافي بالوفيات هي:
وما فزالت والجبال جبالُ

(٤) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢٢٢).

(٥) هو أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز الأنصاري؛ ولي قضاء بجاية، وتوفي بتونس سنة ٦٩٣ هـ. عنوان الدراية (ص ٧٠).

(٦) لعبد الحق بن ربيع ترجمة ضافية في عنوان الدراية (ص ٣٢).

(٧) تاها: فعل ماض من التيه، والألف للإطلاق، وأصل القول: تاه.

(٨) لم يهلّوه: لم يَرَوه. لسان العرب (هلل). (٩) كلمة «وقد» غير واردة في النفح.

(١٠) هو سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي، المتوفى سنة ٦٣٤هـ. وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

وجرى في ذكر أبي عبد الله بن النجار[١]، الشيخ التعالمي من أهل تلمسان، فقال[٢]: ذكرتُ يومًا قول ابن الحاجب فيما يُحرَّم من النساء بالقرابة، وهي «أصول وفصول، أول أصوله، وأول فصل من كل أصل وإن عَلا»، فقال: إن تَركَّبَ لفظُ التَّسمية العُرْفية من الطَّرفين حلَّت، وإلّا حَرُمَتْ، فتأمّلتُه، فوجدته كما قال: لأن أقسام هذا الضابط أربعة: التَّركيب من الطرفين، كابن العم وابنة العم مقابِلُه كالأب والبنت، والتركيب[٣] من قِبَل الرجل كابنة الأخ والعمّ مقابلُه كابن الأخت والخالة.

وذكر الشيخ الرئيس أبا محمد عبد المهيمن بن محمد الحَضْرمي. وقال[٤]: كان يُنكر إضافة الحَوْل إلى الله عزّ وجلّ، فلا يجيز أن يقال: «بحَوْل الله وقُوَّته»، قال: لأنه لم يُرِدْ إطلاقه[٥]، والمعنى يقتضي امتناعُه؛ لأنّ الحَوْلَ كالحيلة، أو قريبٌ منها.

وحَكى[٦] عن شيخه أبي زيد عبد الرحمـٰن الصِّنهاجي[٧]، عن القاضي أبي زيد عبد الرحمـٰن بن علي الدُّكالي، أنه اختصم عنده رَجُلان في شاة، ادَّعى أحدهما أنه أودعها الآخر، وادّعَى الآخر أنها ضاعت منه، فأوْجَب اليمين على المُودع[٨] أنها ضاعت من غير تضييع، فقال: كيف أُضيِّع، وقد شغلتني حراستُها عن الصلاة، حتى خرج وقتها؟ فحكم عليه بالغرْم، فقيل له في ذلك، فقال: تأوَّلتُ قول عُمر: و«من ضَيَّعها فهو لما سواها أضْيَع».

وحكى عن الشيخ الفقيه رُحْلة الوقت أبي عبد الله الآبِلي، حكاية في باب الضَّرب، وقوة الإدراك، قال[٩]: كنت يومًا مع القاسم بن محمد الصَّنهاجي، فوردت عليه طُومارَة مِنْ قِبَلِ القاضي أبي الحجاج الطرطوشي فيها: [السريع]

خَـيـراتُ مـا تـحـويـه مـبـذولـةٌ ومَـطْـلـبـي تَـصْـحـيـفُ مَـقْـلُـوبِـهـا

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن يحيىٰ بن علي بن النجار، وترجمته في التعريف بابن خلدون (ص ٤٧) ونيل الابتهاج (ص ٢٣٩) وجذوة الاقتباس (ص ١٩٠) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٢٢٤).
(٢) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢٢٥). (٣) في النفح: «التركب».
(٤) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨).
(٥) إطلاق الأسماء على الله سبحانه وتعالى مختلف فيه بين العلماء.
(٦) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢٢٩).
(٧) في النفح: هو أبو زيد عبد الرحمـٰن بن يعقوب بن علي الصنهاجي المكتب.
(٨) في النفح: «المودع عنده أنها».
(٩) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢).

فقال لي: ما مطلبُه؟ فقلت: «نارنج». ودخل[١] عليه وأنا عنده بتلمسان الشيخ الطبيب[٢] أبو عبد الله الدبّاغ المالقي[٣]، فأخبرنا أن أديبًا استجدى وزيرًا بهذا الشَّطْر: «ثمّ حبيبٌ قلّما يَنْصِف» فأخذته وكتبته، ثم قلبته وصحّفته، فإذا به[٤]: قَصَبتا مِلَفّ شحمي.

وقال: قال[٥] شيخنا الآبلي: لما نزلتُ تازة مع أبي الحسن بن برّي، وأبي عبد الله التّزجالي، فاحتجت إلى النوم، وكرهت قطعهما إلى[٦] الكلام، فاستَكْشَفْتُ منهما عن معنى هذا البيت للمعري: [الطويل]

أقـولُ لـعـبـد الله لـمّـا سـقـاؤنـا ونحن بوادي عبد شمس وهاشمِ

فجعلا يفكّران فيه، فنمتُ حتى أصبحا، ولم يجداه، وسألوني عنه، فقلت: معناه «أقول لعبد الله لمّا وهي سقاؤنا، ونحن بوادي عبد شمس: شِمْ لنا بَرْقا».

قلت: وفيه نظر[٧]. وإن استَقْصَينا مثل هذا، خرجنا عن الغرض.

مولده: نقلت من خطه: كان[٨] مولدي بتلمسان أيام أبي حمُّو موسى بن عثمان بن يَغْمُراسِن بن زيّان. وقد وقفتُ على تاريخ ذلك، ورأيت[٩] الصَّفح عنه؛ لأن أبا الحسن بن موسى[١٠] سأل أبا الطاهر السِّلَفِي عن سِنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألتُ أبا الفتح بن زيّان بن مَسْعَدة[١١] عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت[١٢] محمد بن علي بن محمد اللبّان عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت حمزة بن يوسف السَّهمي عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت أبا بكر محمد بن علي النفزي[١٣] عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت بعض أصحاب الشافعي عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت أبا إسماعيل التّرمِذي عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت الشافعي[١٤] عن

---

(١) في النفح: «دخل عليه الآبلي وأنا...».
(٢) كلمة «الطبيب» غير واردة في النفح.
(٣) في النفح: «المالقي المتطبب».
(٤) في النفح: «فإذا هو».
(٥) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٢٣٣).
(٦) في النفح: «عن الكلام، فاستكشفتهما».
(٧) في النفح: «قلت: وفي جواز مثل هذا نظر».
(٨) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ١٩٨ ـ ١٩٩).
(٩) في النفح: «ولكني رأيت».
(١٠) في النفح: «مؤمن».
(١١) قوله: «بن مسعدة» غير وارد في النفح.
(١٢) في النفح: «سألت علي بن محمد اللبان».
(١٣) في النفح: «محمد بن عدي المنقري».
(١٤) في النفح: «سألت بعض أصحاب الشافعي عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت الشافعي...».

سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت مالك بن أنس عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، ليس من المروءة إخبار الرجل عن سنّه[١].

وفاته: توفي بمدينة فاس في أخريات محرم من عام تسعة وخمسين وسبعمائة، وأراه توفي في ذي حجة من العام قبله. ونقل إلى تُربة سلفه بمدينة تِلِمسان حرسها الله.

محمد بن عِياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي

من أهل سَبْتة، حفيد القاضي الإمام أبي الفضل عِياض، يكنى أبا عبد الله.

حاله: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: كان من عُدُول القضاة، وجلّة سراتهم، وأهل النزاهة فيهم، شديدَ التحري في الأحكام والاحتياط، صابرًا على الضعيف فيهم والملهوف، شديد الوطأة على أهل الجاه وذَوي السَّطوة، فاضلًا، وقورًا، حسن السَّمت، يُعرِّفُه كلامه أبدًا، ويزينُه ذلك لكثرة وقاره، محبًّا في العلم وأهله، مُقرِّبًا لأصاغر الطلبة، ومكرِّمًا لهم، ومُعتنيًا بهم، مُعْمِلًا جَهْده في الدَّفع عنهم، لما عسى أن يسوءهم؛ ليحبِّبَ إليهم العِلْم وأهلَه، ما رأينا بعده في هذا مِثله. سكن مالقَة مع أبيه عند انتقال أبيه إليها، إلى أن مات أبوه سنة خمس وخمسين وستمائة.

حدّثني شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب، وجرى ذكر إعرابه لفظ من حديثه عن شيوخه، قال: دخلت على القاضي المذكور، فسأل أحدُنا عن أبيه، فقال: ابن فلان. وذكر معرفةً مشتركة بين تجّار فاس، فقال: أيهما الذي ينحت في الخشب، والذي يعمل في السلاح؟ فما فَطِن لقصده لسذاجته. وحدّثني عن ذكر جَزالته أنها كانت تقع له مع السلطان مُسْتَقضيه، مع كونه مرهوبًا، شديدَ السَّطوة، وقائع تُنْبىء عن تصميمه، وبُعْده عن الهوادة؛ منها أن السلطان أمر بإطلاق محبوس كان قد سجنه، فأنْفَذ بين يدي السلطان الأمر للسَّجّان بحبسه، وتوعَّده إن أطلقه. ومنها إذاعة ثبوتِ العيد في أُخريات يوم كان قد أمل السلطان البُرُوز إلى العيد في صباحه، فنزل عن القلعة ينادي: عبد الله، يا ميمون، أخبر الناس عن عِيدهم اليوم، وأمثال ذلك.

مشيخته: قرأ بسَبتة، وأسْنَد بها، فأخذ عن أبي الصبر أيوب بن عبد الله الفهري وغيره، ورحل إلى الجزيرة الخضراء، فأخذ بها كِتاب سيبويه وغيره تفقيهًا على النحويّ الجليل أبي القاسم عبد الرحمٰن بن القاسم القاضي المُتَفنن. وأخذ بها أيضًا كتاب «إيضاح الفارسي» عن الأستاذ أبي الحجاج بن مَغْرور، وأخذ بإشبيليةَ وغيرها

(١) في النفح: «المروءة للرجل أن يخبر بسنّه».

عن آخرين. وقرأ على القاضي أبي القاسم بن بَقِيّ بن نافحة، وأجاز له. وكتب له من أهل المشرق جماعة كثيرة، منهم أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر بن أبي الفتح الصَّيْدلاني، وأجاز له بإصْبَهان، وهو سَبْط حسن بن مَنْدة، أجاز له في شوال سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة. وتحمل عن أبي علي الحداد، شيخ السِّلَفي الحافظ عن محمود الصيرفي ونظائرهما، وجماعة من إصبهان كثيرة كتبوا له بالإجازة. وكتب له من غيرها من البلاد نيّفٌ وثمانون رجلًا، منهم أحد وستون رجلًا كتبوا له مع الشيخ المحدث أبي العباس المغربي، والقاضي أبي عبد الله الأَزْدي، وقد نصح على جميعهم في برنامجيهما، واستوفى أبو العباس الغربي نصوص الإسْتَرعات، وفيها اسم القاضي أبو عبد الله بن عِياض.

مَن روى عنه: قال الأستاذ أبو جعفر، رحمه الله: أجاز لي مرتين اثنتين[1]. وقال: حدّثني أبو عبد الله مشافهة بالإذن، أنبأنا أبو الطاهر بركات بن إبراهيم الخُشُوعي كتابةً من دمشق، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن أحمد الرَّازي، المعروف بابن الحطّاب، بالحاء المهملة، أخبرنا محمد بن أحمد بن عبد الوهاب البغدادي بالفسطاط، أخبرنا موسى بن محمد بن عَرَفة السمسار ببغداد، قال أبو عمرو بن أحمد بن الفضل النَّفَزي: أخبرنا إسماعيل بن موسى، أخبرنا عمر بن شاكر عن أَنَس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي عَلَى الناس زمان، الصَّابر منهم عَلَى دينه، كالقابض على الجَمْر».

هذا الإسناد قريب يعزُّ مثله في القرب لأمثالنا، ممن مولده بعد الستمائة، وإسماعيل بن موسى من شيوخ التِّرمِذي، قد خرَّج عنه الحديث المذكور، لم يقع له في مُصَنَّفه ثلاثي غيره.

مولده: بسبتة سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

وفاته: توفي بغرناطة يوم الخميس الثامن والعشرين لجمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة.

محمد بن عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى ابن عياض اليحصبي

من أهل سَبتة، ولد الإمام أبي الفضل، يكنى أبا عبد الله.

(١) في الأصل: «اثنين» وهو خطأ نحوي.

حاله: كان فقيهًا جليلًا، أديبًا، كاملًا. دخل الأندلس، وقرأ على ابن بَشْكُوال كتاب الصِّلة، ووُلي قضاء غرناطة. قال ابن الزُّبير: وقفت على جزء أَلّفه في شيء من أخبار أبيه، وحاله في أخذه وعلمه، وما يرجع إلى هذا، أَوْقَفَني عليه حفدتُه بمالقة.

وفاته: توفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة.

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد ابن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان ابن عبد السلام بن جبير الكِناني[١]

الواصل إلى الأندلس.

أَوّليّته: دخل جَدُّه عبد السلام بن جُبير في طالِعة بَلْج بن بِشْر بن عِياض القُشَيري في محرم ثلاث وعشرين ومائة. وكان نزوله بكورة شَذُونَة. وهو من ولد ضَمْرة بن كِنانة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدْركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. بَلَنْسِي الأصل، ثم غَرْناطي الاستيطان. شَرَّق، وغَرَّب، وعاد إلى غرناطة.

حاله: كان[٢] أديبًا بارعًا، شاعرًا مجيدًا، سَنِيًّا فاضلًا، نزيه المُهِمة، سَرِيّ النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة في الخط. كَتَب بسَبتة[٣] عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن، وبغرناطة عن غيره من ذوي قرابته، وله فيهم أمداح كثيرة. ثم نزع عن ذلك، وتوجَّه إلى المشرق. وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره، مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته. ونَظْمه فائق، ونثره بديع. وكلامه المُرْسل، سهل حسن، وأغراضه جليلة، ومحاسنه ضخمة، وذِكْره شهير، ورحلته نسيجةُ وحْدِها، طارت كل مطار، رحمه الله.

رحلته: قال مَن عُني بخبره[٤]: رحل ثلاثًا من الأندلس إلى المشرق، وحجّ في كل واحدة منها. فَصَل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال، ثمان وسبعين وخمسمائة، صحبة أبي جعفر بن حسان، ثم عاد إلى وطنه

---

(١) ترجمة ابن جبير في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٥٩٥) والتكملة (ج ٢ ص ١٠٩) وزاد المسافر (ص ٧٢) والنجوم الزاهرة (ج ٦ ص ٢٢١) وشذرات الذهب (ج ٥ ص ٦٠) والمغرب (ج ٢ ص ٣٨٤) ونفح الطيب (ج ٣ ص ١٣٨) ومقدمة كتابه «رحلة ابن جبير».

(٢) النص في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٧ - ٦٠٨).

(٣) في الذيل: «في شبيبته».

(٤) راجع الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٥٩٦).

غَرناطة لثمان بقين من محرم واحد وثمانين، ولقي بها أعلامًا يأتي التعريف بهم في مشيخته، وصنّف الرحلة المشهورة، وذكر مناقله فيها وما شاهده من عجايب البُلدان، وغرايب المشاهد، وبدايع الصَّنايع، وهو كتاب مُؤنس ممتع، مُثير سَوَاكن النفوس إلى الرِّفادة على تلك المعالم المكرمة والمشاهد العظيمة.

ولما[١] شاع الخبرُ المُبْهج بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي[٢]، قَوِي عزمُه على عمل الرحلة الثانية، فتحرك إليها من غرناطة، يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ثم آبَ إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة[٣] خلت من شعبان سبع وثمانين. وسكن غرناطة، ثم مالقَة، ثم سَبْتة، ثم فاس[٤]، منقطعًا إلى إسْماع الحديث والتصوُّف، وتَرْوِية ما عنده. وفَضْلُه بديع، ووَرَعُه يتحقق، وأعماله الصالحة تَزْكُو. ثم رحل الثالثة من سبتة، بعد موت زوجته عاتِكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر الوَقَّشِي[٥]، وكان كَلِفًا بها، فعظُم وجْدُه عليها. فوصل مكة، وجاور بها طويلًا، ثم بيت المقدس، ثم تجوّل بمصر والإسكندرية، فأقام[٦] يُحدِّث، ويُؤخذ عنه إلى أن لحق بربه.

مشيخته: روى بالأندلس عن أبيه، وأبي الحسن بن محمد بن أبي العَيْش، وأبي عبد الله بن أحمد بن عروس، وابن الأصِيلي. وأخذ العربية عن أبي الحجاج بن يَسْعون. وبسبتة عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي السَّبتي. وأجاز له أبو الوليد بن سبكة، وإبراهيم بن إسحٰق بن عبد الله الغَسَّاني التونسي، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي الميَّانجي، نزيلا مكة، وأبو جعفر أحمد بن علي القرطبي الفَنْكي، وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد البغدادي، وصَدْر الدين أبو محمد عبد اللطيف الحَجَري رئيس الشَّافعية بإصبهان. وببغداد العالم الحافظ المُتَبحر نادرة الفَلَك أبو الفرج، وكناه أبو الفضل ابن الجَوْزي. وحضر بعض مجالسه الوَعْظية وقال فيه: «فشاهدنا رجلًا ليس بعمرو ولا زيد، وفي جوف الفِرا كلُّ الصَّيد»، وبدمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة بن علي بن عبد الله بن عباس السَّلمي الجِواري، وأبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبي عَصْرون، وأبو الطاهر

---

(١) انظر: الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٥ ـ ٦٠٦).
(٢) في الذيل: «بوري».
(٣) في الأصل: «عشر» والتصويب من الذيل.
(٤) في الذيل: «ثم فاس ثم سبته».
(٥) في الذيل: «أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمٰن الوقشي».
(٦) في الذيل: «فأقام بها».

بركات الخُشُوعي، وسمع عليه، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الإصْبَهاني من أئمة الكتاب، وأخذ عنه بعض كلامه، وغيره، وأبو القاسم عبد الرحمٰن بن الحسين بن الأخضر بن علي بن عساكر، وسمع عليه، وأبو الوليد إسماعيل بن علي بن إبراهيم والحسين بن هِبَةَ الله بن محفوظ بن نصر الرَّبْعي، وعبد الرحمٰن بن إسماعيل بن أبي سعيد الصُوفي، وأجازوا له، وبحَرَّان الصُوفي العارف أبو البركات حيَّان بن عبد العزيز، وابنه الحاذي حذوَه.

مَن أخذ عنه: قال ابن عبد الملك[١]: أخذ[٢] عنه أبو إسحٰق بن مُهيب، وابن الواعظ، وأبو تمام بن إسماعيل، وأبو الحسن بن[٣] نصر بن فاتح بن عبد الله البجّائي، وأبو الحسن بن علي الشّادي[٤]، وأبو سليمان بن حَوْط الله، وأبو زكريا، وأبو بكر يحيىٰ بن محمد بن أبي الغُصْن[٥]، وأبو عبد الله بن حسن بن مُجبر[٦]، وأبو العباس بن عبد المؤمن البنّاني[٧]، وأبو[٨] محمد بن حسن اللّواتي، وابن[٩] تامتيت، وابن محمد المؤرُورِي، وأبو عمر بن سالم، وعثمان بن سفيان بن أشقر التَّميمي التونسي.

وممّن أخذ عنه[١٠] بالإسكندرية، رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله، وبمصر رشيد الدين بن العطّار، وفخرُ القضاة ابن الجيَّاب، وابنه جمال القضاة.

تصانيفه: منها نظمُه. قال ابن عبد الملك[١١]: «وقفت منه على مجلد متوسط يكون على[١٢] قدر ديوان أبي تمام حبيب بن أوس. ومنه جزء سماه «نتيجة وَجْدِ الجوانح في تأبين القَرِين الصالح» في مراثي زوجه أم المجد. ومنه جزء سماه «نظم الجُمان في التشكي من إخوان الزمان». «وله ترسيل بديع، وحِكَمٌ مُسْتجادة»، وكتابُ رحلته. «وكان أبو الحسن الشّادي يقول: إنها ليست من تصانيفه، وإنما قيّد معاني ما

(١) الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧). (٢) في الذيل: «رُوي عنه».
(٣) في الذيل: «وأبو الحسن ابن أبي نصر فاتح بن...».
(٤) في الذيل: «وابن محمد الشاري».
(٥) في الذيل: «أبو بكر يحيىٰ بن عبد الملك بن أبي الغصن».
(٦) في الأصل: «مجير» والتصويب من الذيل.
(٧) في الذيل: «وآباء العباس: ابن عبد المؤمن والنباتي».
(٨) في الذيل: «وابن محمد». (٩) في الذيل: «ابن».
(١٠) في الذيل: «وممن رُوي عنه». (١١) الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٨).
(١٢) كلمة «على» ساقطة من الذيل والتكملة.

تضمنته، فتولى ترتيبَها، وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه، على ما تلقاه منه». والله أعلم.

شعره: من ذلك القصيدة الشهيرة التي نظمها، وقد شارف المدينة المكرّمة طِيبة، على ساكنها من الله أفضل الصلوات، وأزكى التسليم(١): [المتقارب]

أقول وآنستُ بالليلِ نارا ... لعلَّ سِراجَ الهُدى قد أَنارا
وإلّا فما بالُ أُفْقِ الدُّجى ... كأنَّ سَنا البَرْقِ فيه اسْتَطارا
ونحن من الليل في حِنْدِسٍ ... فما بالُه قد تَجَلّى نهارا؟
وهذا النَّسيم شذا المِسْك قد ... أُعِيرَ أم المِسْكُ منه اسْتعارا؟
وكانت رواحِلُنا تشتكي ... وَجاها فقد سابَقَتْنا ابْتِدارا
وكنّا شكونا عناءَ السُّرى ... فَعُدْنا نُباري سِراعَ المهارى
أظنُّ النفوسَ قد اسْتَشعرتْ ... بلوغَ هوًى تَخِذَتْهُ شِعارا
بشائرُ صُبْحِ السُّرى آذنَتْ ... بأنَّ الحبيبَ تَدانى مَزارا
جرى ذِكْرُ طيْبَةَ ما بيننا ... فلا قَلْبَ في الركب إلّا وطارا
حنينًا إلى أحمدَ المصطفى ... وشوقًا يهيجُ الضلوعَ اشتعارا
ولاح لنا أُحُدٌ مُشْرِقًا ... بنورٍ من الشُّهداء اسْتنارا(٢)
فمن أجلِ ذلك ظلَّ الدُّجى ... يحلُّ عقُودَ النجوم انتثارا
ومِنْ طَرَبِ الرَّكْب حثَّ الخطا ... إليها ونادى البِدارَ البدارا
ولمّا حَلَلْنا فِناءَ الرسولِ ... نَزَلْنا بأكرم مجدٍ(٣) جِوارا
وحين دَنَوْنا لفرضِ السلام ... قَصَرْنا الخُطا ولزِمْنا الوقارا
فما نُرسل اللّحظَ إلّا اختِلاسًا ... ولا نُرجع(٤) الطَّرْف إلّا انكِسارا
ولا نُظْهِرُ الوَجْدَ إلّا اكتتامًا ... ولا نلفُظُ القولَ إلّا سِرارا
سوى أننا لم نُطِقْ أعْيُنًا ... بأدمعها غلَبَتْنا انفِجارا
وقفْنا بروضة دار السلام(٥) ... نُعِيدُ السلامَ عليها مرارا

---

(١) القصيدة في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٢ ـ ٦٠٣). وورد منها الأبيات الثلاثة الأول في نفح الطيب (ج ٣ ص ٢٣٥).
(٢) في الأصل: «استعارا»، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٣) في الذيل والتكملة: «خلق». (٤) في الذيل والتكملة: «نرفع».
(٥) رواية صدر البيت في الذيل والتكملة هي: وقفنا بروضته للسلام.

ولولا مهابتُه في النفوس لثمنا الثَّرى والتزمْنا الجِدارا
قضينا بزَوْرَته[١] حَجَّنا وبالعُمْرتين[٢] ختمْنا اعتِمارا
إليكَ إليكَ نبيَّ الهُدَى ركبْتُ البحارَ وجُبْتُ القفارا
وفارقْتُ أهلي ولا مِنَّةٌ ورُبَّ كلام يجرُّ اعتذارا
وكيف نمنُّ على مَن به نُؤَمِّلُ للسيِّئاتِ اغتفارا
دعاني إليك هوًى كامنٌ أثارَ منَ الشوقِ ما قد أثارا
فناديتُ[٣] لَبَّيك داعي الهوى وما كنت عنكَ أُطيقُ اصْطبارا
ووطَّنْتُ نفسي بحكمِ[٤] الهوى عليَّ وقلْتُ رضيتُ اختيارا
أخوضُ الدُّجى وأروض السُّرى ولا أطْعَمُ النومَ إلّا غِرارا
ولو كنتُ لا أستطيع السبيلَ لطرْتُ ولو لم أُصادفْ مطارا[٥]
وأجْدَرُ من نال منك الرضى محبُّ ثراك[٦] على البُعد زارا
عسى لحظةٌ منكَ لي في غدٍ تُمَهِّدُ لي في الجِنان القرارا
فما ضلَّ مَنْ بِمَسْراكَ[٧] اهتدى ولا ذُلَّ مَنْ بذرَاك استجارا

وفي غبطةِ مِنْ منَّ الله عليه لحجّ بيته، وزيارة قبره ﷺ يقول[٨]: [المتقارب]

هنيئًا لمن حَجَّ بيتَ الهُدى وحَطَّ عن النَّفسِ أوزارَها
وإنَّ السعادةَ مضمونةٌ لمن حجَّ[٩] طيْبَةَ أوزارها

وفي مثل ذلك يقول[١٠]: [المتقارب]

إذا بلغ المرء[١١] أرض الحجاز فقد نال أفضلَ ما أمَّ لَهْ[١٢]

---

(١) في الذيل: «بزورتنا». (٢) في الذيل: «وبالعمرين».
(٣) في الأصل: «فناديتك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٤) في الذيل: «لحكم».
(٥) أخذه من قول الأعمى التطيلي من موشحة تامة:
امتنع النومُ وشطَّ المزارْ ولا قرارْ طِرْتُ ولكنْ لم أصادفْ مطارْ
ديوان الأعمى التطيلي (ص ٢٦١) وجيش التوشيح (ص ٢٤) وتوشيع التوشيح (ص ١٠٦).
(٦) في الذيل: «ذراك». (٧) في الذيل: «بهداك».
(٨) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٤) ونفح الطيب (ج ٣ ص ٢٤١).
(٩) في الذيل: «حَلّ».
(١٠) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٤) ونفح الطيب (ج ٣ ص ٢٣٦).
(١١) في النفح: «العبد».
(١٢) في الأصل والذيل والتكملة: «أمّله»، والتصويب من النفح.

وإن[١] زار قَبْرَ نبيِّ الهُدى ... فقد أَكْمَلَ الله ما أَمَّلَهْ[٢]

وفي تفضيل المَشْرق[٣]: [الكامل]

لا يستوي شَرْقُ البلاد وغَرْبُها ... الشرقُ حازَ الفَضْلَ باستحقاقِ[٤]

انظرْ[٥] جمال[٦] الشمس عند طلوعها ... زَهْراءَ تُعْجِبُ[٧] بهجةَ الإشراق

وانظرْ إليها عند الغروبِ كئيبةً ... صفراءَ تُعْقِبُ ظُلْمَةَ الآفاق

وكفى بيومِ طلوعها من غَرْبها ... أن تؤذنَ الدنيا بعزم[٨] فراق

وقال في الوصايا[٩]: [الطويل]

عليكَ بكتمانِ المصائب واصْطَبِرْ ... عليها فما أبقى الزمانُ شَفِيقا

كفاكَ من الشكوَى[١٠] إلى الناس أنها[١١] ... تَسُرُّ عدوًا أو تُسيءِ[١٢] صديقا

وقال[١٣]:

لصانِعِ[١٤] المعروف فَلْتَةُ عاقلِ ... إن لم تَضَعْها في محلِّ عاقلِ[١٥]

كالنفس في شهواتها إن لم تكنْ ... وقفًا[١٦] لها عادتْ بضرٍّ عاجل

نثره: من حكمه قوله[١٧]: إنْ شَرُفَ الإنسان فشرفٌ[١٨] وإحسان، وإن فاق فتفضُّلٌ وإرفاق[١٩]، ينبغي أن يحفظَ الإنسان لسانه، كما يحفظ الجفنُ إنسانه. فربَّ كلمة تقال، تُحدث عَثرة لا تُقال. كم كَسَتْ فَلَتات الألسنة الحِداد، من ورائها ملابس

---

(١) في النفح: «فإن».
(٢) في الذيل: «أمَّ له».
(٣) الأبيات في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦١٠ ـ ٦١١).
(٤) في الذيل والتكملة: «باسترقاق».
(٥) في الأصل: «انظرْ إلى جمال» وكذا ينكسر الوزن.
(٦) في الذيل والتكملة: «لحال».
(٧) في المصدر نفسه: «تصحب».
(٨) في المصدر نفسه: «بوشك».
(٩) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦١٢ ـ ٦١٣).
(١٠) في الأصل: «بالشكوى»، وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.
(١١) في الذيل والتكملة: «أنه».
(١٢) في الذيل والتكملة: «تسوء».
(١٣) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٩ ـ ٦١٠).
(١٤) في الأصل: «وصانع» والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٥) في الذيل والتكملة: «قابل».
(١٦) في الذيل: «وفقًا».
(١٧) قابل بالذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٨ ـ ٦٠٩).
(١٨) في الذيل والتكملة: «فبفضلٍ».
(١٩) في الذيل والتكملة: «وإنفاقٍ، ينبغي للإنسان أن يحفظ لسانه».

حِداد[١]. نحن في زمن لا يَحْظَى فيه بنفاق، إلّا مَنْ عامل بنِفاق. شُغِلَ الناس عن طريق الآخرة بزخارف الأغراض، فلجُوا في الصُّدود عنها والإعراض، آثروا دنيا هي أضغاث أحلام، وكم هَفَت في حبها من أحلام، أطالوا فيها آمالهم، وقَصَروا أعمالهم، ما بالُهم، لم يتفرغ لغيرها بالهُم، ما لَهم في غير ميدانها استِبَاق[٢]، ولا بِسوَى هواها اشتياق[٢]. تالله لو كُشِفَت الأسرار، لما كان هذا الإصْرار، ولسَهرت العُيون، وتفجّرت من شؤونها الجُفُون[٣]. فلو أن عينَ البصيرة من سنتها هابّةٌ، لرأتْ جميع ما في الدنيا ريحًا[٤] هابّة، ولكن استولى العَمَى على البَصَائر، ولا يعلم الإنسان[٥] ما إليه صائر. أسأل الله هدايةَ سبيله، ورحمةً تورد نسيم الفردوس وسَلْسَبيله، إنه الحنَّان المنَّان لا ربَّ سواه.

ومنها[٦]: فَلَتات الهِبات، أَشْبَهُ شيء بفلتاتِ الشَّهوات. منها نافعٌ لا يُعْقِبُ ندمًا، ومنها ضارٌّ يُبْقِي في النفس ألمًا. فضرَرُ الهبة وقوعُها عند مَن لا يعتقد لحقِّها أداء، وربما أثمرت[٧] عنده اعتداء. وضررُ الشهوة أن لا توافق ابتداء، فتَصير لمتبِّعِها[٨] داء، مثلُها كمثَل السُّكر يلتذُّ صاحبه بحلاوة[٩] جِناه، فإذا صحا يعرف[١٠] قدْر ما جَناه. عكسُ هذه القضية هي الحالة المرضية.

مولده: ببَلَنْسيةَ سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وقيل: بشاطبة سنة أربعين وخمسمائة.

وفاته: توفي بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان أربع عشرة وستمائة.

محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمٰن بن علي بن شَبْرين[١١]

يكنى أبا بكر، شيخنا الفقيه القاضي المؤرخ الكاتب البارع، رحمة الله عليه.

---

(١) في الذيل والتكملة: «من ملابس الحداد». (٢) في الذيل والتكملة: «استنان».
(٣) في الذيل: «العيون». (٤) في الذيل: «ريحٌ».
(٥) في الذيل: «المرء». (٦) الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٩).
(٧) في الأصل: «أثرت»، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٨) في الذيل: «فتعود لمستعملها». (٩) في الذيل: «بحلو».
(١٠) في الذيل: «تعرّف».
(١١) ترجمة ابن شبرين في الكتيبة الكامنة (ص ١٦٦) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠) واللمحة البدرية (ص ٦٤، ٩٠، ٩٨) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٨٥).

أَوَّلِيَّته: أصله[١] من إشْبِيلِيَة، من حصن شِلْب من كورة باجَة، من غربيّ صُقْعها، يعرفون فيها ببني شَبْرين معرفة قديمة. وُلّي جدُّه القضاء بإشبيلية، وكان من كبار أهل العلم، تشهد بذلك الصلاة. وانتقل أبوه منها عند تغلُّب العدو عليها عام ستة وأربعين وستمائة، فاحتل رُنْدة ثم غَرناطة، ثم انتقل إلى سُكنى سَبْتة، وبها وُلد شيخنا أبو بكر، وانتقل عند الحادثة إلى غرناطة[٢]، فارتَسَم بالكتابة السلطانية، ووَلّي القضاء بعدة جهات، وتأثّل مالًا وشهرة، حتى جَرَى مجرى الأعيان من أهلها.

حاله: كان[٣] فريد دهره، ونسيج وحده في حُسْن السَّمْت والرُّواء[٤]، وكمال الظَّرف وجمال الشَّارة، وبراعة الخطّ، وطيب المجالسة، خاصِّيًا، وقورًا، تام الخُلُق، عظيم الأبَّهة، عذب التِّلاوة لكتاب الله، من أهل الدين والفضل والعدالة، تاريخيًّا، مقيِّدًا، طُلَعة اختيار أصحابه، محققًا لما ينقله، فَكِها مع وقاره، غَزِلًا، لَوْذَعيًّا، عليّ شأن الكتابة، جميل العشرة، أشدّ الناس على الشِّعر، ثم على المحافظة، ما يحفظه من الأبيات من غير اعتيام ولا تنقيح، يُناغي الملكين في إثباتها، مقرَّرةَ التواريخ، حتى عظم حجم ديوانه، تفرَّدت أشعاره بما أبرَّ على المكثرين، مليحَ الكتابة، سهلها، صانعًا، سابقًا في ميدانها، راجحًا كفَّة المنثُور. وكانت له رحلةٌ إلى تونس، اتّسع بها نِطاق روايته. وتقلّب بين الكتابة والقضاء، منحوس الحظ في الاستعمال، مُضَيَّقًا فيه، وإن كان وافر الجَدّ، مُوسَّعًا عليه.

وجرى ذكره في كتاب «التاج المحلّى» بما نصُّه:

خاتمةُ المحسنين، وبقية الفُصحاء اللَّسِنين، ملأ العيون هَدْيًا وسَمْتًا، وسلك من الوقار طريقة لا تَرى فيها عِوَجًا ولا أمْتًا، ما شئت من فضل ذاتٍ، وبراعة أدوات. إن خطَّ، نزل ابن مُقلة عن دَرَجته وإن خطَّ. وإن نظم أو نثر، تَبِعت البلغاء ذلك الأثر. وإن تكلّم أنْصَتَ الحفلُ لاستماعه، وشرع لدُرَره النَّفيسة صِدْق أسماعه. وفد على الأندلس عند كائنة سَبتة، وقد طرحت النَّوى برحاله، وظَعَنَ عن رَبْعه بتوالي إمْحاله، ومُصَرِّف بلاده، والمستولي على طارِفِها وتالِدها، أبو عبد الله بن الحكيم، قدَّس الله صداه، وسقى مُنْتداه، فاهتزّ لقدومه اهتزاز الصَّارم، وتلقاه تلقي الأكارم، وأنْهَض إلى لقائه آماله، وألقى له قبل الوسادة ماله، ونَظَمه في سَمْط الكُتّاب، وأسْلاه عن أعمال

(١) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠).
(٢) في تاريخ قضاة الأندلس: «ثم عاد عند الحادثة التي كانت بها في أواخر عام ٧٠٥ إلى غرناطة».
(٣) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠).
(٤) في المصدر السابق: «وجمال الرواء».

الأقتاد، ونزل ذمامه تأكُدًا في هذه الدول، وقُوفي له الآتية منها على الأُول، فتصرَّف في القضاء بجهاتها، ونادته السيادة هاك وهاتها، فجدَّد عهد حُكَّامه العدول من سَلَفه وقضاتها. وله الأدب الذي تحلّت بقلائده اللَّبات والنُّحور، وقَصَرت عن جواهره البحُور. وسيمرّ من ذلك في تضاعيف هذا المجموع ما يشهد بِسعَة ذَرْعه، ويخبر بكرم عُنصره، وطيِّب نبعه.

مشيخته: قرأ[١] على جدّه لأمّه الأستاذ الإمام[٢] أبي بكر بن عُبيدة الإشبيلي، وسمع على الرئيس أبي حاتم، وعلى أخيه أبي عبد الله الحسين، وعلى الأستاذ أبي إسحٰق الغافقي، وعلى الشريف أبي علي بن أبي الشرف، وعلى الإمام أبي عبد الله بن حُريث. وسمع على العَدْل أبي فارس عبد العزيز الجزيري. وسمع بحضرة غرناطة على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وعلى العدل أبي الحسن بن مستقور، وعلى الوزير أبي محمد بن المُؤذن، وعلى الخطيب أبي عبد الله بن رُشيد. وبمالقة على الخطيب ولي الله تعالى، أبي عبد الله الطَّنجالي، وعلى الوزير الصَّدر أبي عبد الله بن ربيع، وعلى القاضي العدل أبي عبد الله بن بُرطال. وببجاية على الإمام أبي علي ناصر الدين المِشْذالي، وعلى أبي العباس الغَبْريني. وبتونس على أبي علي بن عُلوان، وعلى قاضي الجماعة أبي إسحٰق[٣] بن عبد الرَّفيع، وسمع على الخطيب الصُّوفي وليّ الله تعالى، أبي جعفر الزيات، والصوفي أبي عبد الله بن بُرطال، وعلى الصدر أبي القاسم محمد بن قائد الكَلاعي. وأجازه عالم كثير من أهل المشرق والمغرب.

شعره: وشعره متعدِّدُ الأسفار، كثير الأغراض. وفي الإكثار مُجلِّل الاختيار، فمنه قوله[٤]: [الطويل]

أخَذْتِ بكظمِ الرُّوحِ يا[٥] ساعةَ النوى ... وأضرمْتِ في طيِّ الحشا لاعجَ الجَوى

فَمَن مُخبري يا ليت شعري متى اللِّقا ... وهل تَحْسُنُ الدنيا وهل يرجع الهوى؟

سلا كلُّ مشتاقٍ وأكثر[٦] وَجْدُه ... وعند النَّوى[٧] وجدي وفي ساكن الهوى

ولي نيَّة ما عشت في حِفظ عهدهم ... إلى يومِ ألقاهم وللمرء ما نوى

(١) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠).
(٢) كلمة «الإمام» ساقطة في تاريخ قضاة الأندلس.
(٣) اسمه في المصدر السابق: إبراهيم بن عبد الرفيع.
(٤) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٧٠ ـ ١٧١).
(٥) في الكتيبة الكامنة: «في ساعة».
(٦) في الكتيبة الكامنة: «وأقصر».
(٧) في الكتيبة الكامنة: «اللوى».

وقال: [المنسرح]

باتُوا فمن كان باكيًا يَبْكِ ... هذي رِكابُ الشرى بلا شَكٍّ
فمن ظهور الرِّكاب معملة ... إلى بطون الرُّبى إلى الفلْكِ
تصدّع الشَّمْلُ مثلما انحدرتْ ... إلى صبوبٍ جواهرُ السِّلْكِ
كُنْ بالذي حدَّثوا على ثقةٍ ... ما في حِديث الفراق من إفْكِ
من النوى قَبْلُ لم أزلْ حَذِرًا ... هذا النَّوى جَلَّ[1] مالكَ المُلْك

وقال: [السريع]

يا أيها المُعرِّض اللّاهي ... يسوؤني هَجْرُك واللهِ
يا[2] ليت شِعري كم أرى فيك ... لا أقفك عن ويِّه وعزاه[3]
ويحي مغيري إلى باخل واه ... مَنْ ذا الذي رآه[4]
من يُرِدِ الله فيه فتنةً ... يُشْغلْه في الدنيا بتيَّاهِ
يا غُصُنَ البانِ ألا عَطْفةٌ ... على مُعنًّى جِسْمُه واهِ؟
أَوْسَعني بعدك ذُلّا وقد ... رًا يُثْنِيا[5] عندك ذا جاهِ
ذكرُك لا ينفكُّ عن خاطري ... وأنت عني غافِل ساهِ
يكفيك يا عثمان من جفوني ... لو كان ذَنْبي ذنب جهجاهِ
هيهات لا مُعترض لي على ... حُكْمك أنت الآمر النّاهي[6]

قلت: جهجاه المشار إليه رجل من غُفّار، قيل: إنه تناول عصا الخُطْبة من يد عثمان، رضي الله عنه، فكسرها على ركبته، فوقعت فيها الأَكلة فهلك.

وقال: [البسيط]

يا من أعاد صباحي فقده حَلَكا ... قَتَلْتَ عبدك لكن لم تَخَفْ دركا
مصيبتي ليست كالمصائب لا ... ولا بُكائي عليها مثل كلِّ بُكا
فمن أُطالب في شَرْع الهوى بدمي ... لَحْظي ولحظُك في قَتلي قد اشتركا

(١) في الأصل: «جلَّ مني مالك...» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «فيا» وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) عجز هذا البيت مضطرب، لم أهتد إلى تقويمه.
(٤) البيت مضطرب في الوزن والمعنى معًا.
(٥) في الأصل: «يُثْنى» وهكذا ينكسر الوزن.
(٦) في الأصل: «الناه».

وقال، وقد سبقه إليه الرُّصافي؛ وهو ظريف: [المنسرح]

أشكو إلى الله فَرْطَ بَلْبالي[1] ولوْعَةً لا تزال تُذكي لي
بمهجتي حائكٌ شُغِلْتُ به حُلْوُ المعاني طِرازُه عالي
سألْتُه لَثْمَ خالِه فأبى ومَنّ ذا نَخْوة وإذلال
وقال حالي يصُون خالي يُدني فَويحي بالحال والخال[2]
يُقَرِّبُني الآلُ من مواعده وأتقي منه سَطْوة الآل
لكن على ظُلْمه وقسوته فلسْتُ عنه الزَّمانَ بالسالي

وقال أيضًا مضمنًا[3]: [البسيط]

لي هِمَّةٌ كلما حاولْتُ أُمْسِكُها على المَذَلَّةِ في أرجاء[4] أرضيها
قالت: ألم تَكُ[5] أرْضُ الله واسعةً حتى يُهاجِرَ عَبْدٌ مؤمِنٌ فيها

وقال مُسْترجعًا من ذنبه، ومُسْتوحشًا من شَيْبه: [السريع]

قد كان عيبي قبلُ[6] في غَيْبِ فمذ بدا شَيْبي بدا عَيْبي
لا عُذْرٌ اليومَ ولا حُجّةٌ فَضَحْتَني والله يا شَيْبي

وقال[7]: [الخفيف]

أثْقَلَتْني الذنوبُ ويحي ووَيْسي ليتني كنت زاهدًا كأُوَيسِ[8]

وجَرَت بينه وبين السلطان ثالث الأمراء من بني نصر[9]، بعد خلعه من مُلْكه، وانْتِثار سِلْكه، واستقراره بقصبة المُنكّب، غريبًا من قومه، مُعَوَّضًا بالسهاد من نومه،

---

(١) البَلْبال: شدة الهمّ والوساوس. محيط المحيط (بلبل).
(٢) في الأصل: «والحال» بالحاء المهملة.
(٣) البيتان في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠) والكتيبة الكامنة (ص ١٧٢).
(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «أرجا أراضيها».
(٥) في الأصل: «تكن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(٦) في الأصل: «من قبل في...» وهكذا ينكسر الوزن.
(٧) البيت في الكتيبة الكامنة (ص ١٧٢).
(٨) هو أويس القرني أحد زهّاد القرن الأول الهجري. وجاء في الكتيبة الكامنة بعد هذا البيت التالي:

إنما أصل محنتي حبُّ دنيا هي ليلى ولي بها وَجْدُ قَيسِ

(٩) هو محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، الملقب بالمخلوع، وقد حكم غرناطة من سنة ٧٠١ هـ إلى سنة ٧٠٨ هـ. اللمحة البدرية (ص ٦٠).

قد فلَّ الدهر سباته، وتركه يندب ما فاته، والقاضي المترجم به يومئذ مُدَبِّرُ أحكامها، وعَلَم أعلامها، ومتولّي نَقْضها وإبرامها، فارتاح يومًا إلى إيناسِه، واجتلاب أدبه والتِماسه، وطلب منه أن يعبّر عن حاله بِبَيانه، وينوب في بثّه عن لسانه، فكتب إليه: [الطويل]

قفا نَفَسًا فالخَطْب فيها يهون ... ولا تَعْجلا إنّ الحديث شجونُ
عَلِمْنا الذي قد كان من صَرْف دهرنا ... ولسنا على علم بما سيكون
ذكرنا نعيمًا قد تقضّى نعيمُه ... فأقْلَقنا شوقٌ له وحنين
وبالأمس كُنّا كيف شِئنا وللدُّنا ... حِراك على أحكامنا وسكون
وإذا بابُنا مَثْوى الفؤاد ونحونا ... تُمَدُّ رقابٌ أو تُشير عيونُ
فَنَغَصَّ من ذاك السرور مَهْنأ ... وكَدَرٌ من ذاك النَّعيم مَعينُ
ونبا عن الأوطان بين ضرورة ... وقد يَقْرُب الإنسان ثم يَبين
أيا معهد الإسعاد حُيِّيت معهدًا ... وجادَك من سَكْب الغمام هَتُون
تريد الليالي أن تُهين مكانَنا ... رُويدك إنّ الخير ليس يَهُون
فإن تكن الأيام قد لَعِبَتْ بنا ... ودارت علينا لِلْخطوب فنون
فمن عادة الأيّام ذلُّ كِرامها ... ولكنّ سَبيل الصابرين مُبين
لئن خاننا الدهر الذي كان عَبْدنا ... فلا عجب إنّ العَبيد تخون
وما غضّ منّا مَخْبَري غير أنه ... تضاعف إيمانٌ وزاد يقين

وكتب إلى الحكم بن مسعود، وهو شاهد المواريث بهذه الدُّعابة التي تستخفُّ الوقور، وتَلِج السَّمع المَوْقور:

أطال الله بقاء أخي وسيدي، لأهل الفَرائض يُحسِن الاحتيال في مُداراتهم، وللمنتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط في أمواتهم، ودامت أقلامه مُشْرعة لصَرْم الأجل المُنَسَّأ، مُعدَّة لتحليل هذا الصِّنف المُنشَّأ من الصَّلصال والحمأ. فمن ميِّتٍ يُغسل وآخر يُقبر، ومن أجَلٍ يُطوى وكَفَنٍ يُنشر، ومن رَمْس يُفتح وباب يُغلق، ومن عاصبٍ يُحْبَس ونَعْشٍ يُطلق، فكلما خَرُبت ساحة، نشأت في الحانوت راحة، وكلما قامت في شَعْبٍ مناحة، اتّسعت للرزق مِساحة، فيباكر سيدي الحانوت وقد اخْتَسى مَرَقته، وسهَّل عَنْقَفته، فيرى الصَّعْبة بالمناصب شَطْرا، فيلحظ هذا برفْق وينظر إلى هذا شَزْرا، ويأمر بشقّ الجيوب تارة والبحثِ عن الأوساط أخرى. ثم يأخذ القَلَم أخذًا رفيقًا، ويقول وقد خامَرَه السرور: رحِم الله فلانًا لقد كان لنا صديقًا، وربما أذبَره بالانزعاج الحَثيثُ، وقال مستريحٌ منه كما جاء في الحديث. وتختلف عند ذلك

المراتب، وتَتَبين الأصدقاء والأجانب، فيَنْصرف هذا، وحظّه التهريب، والنظر الحديد، وينفَصِل هذا وبين يديه المُنْذر الصّيت والنعش الجديد. ثم يَغْشى دار الميت ويسألُ عن الكَيْت والكيت، ويقول: عليّ بما في البَيْت. أين دعاء الثّاغية والرّاغية؟ أين عقُود الأملاد بالبادية؟ وقد كانت لهذا الرجل حالًا في حال. وقد ذُكر في الأسماء الخمسة فقيل: ذو مال. وعيون الأعوام تَرْنو من عَلِ، وأعناقهم تَشْرئبُ إلى خلف الكِلَل، وأرْجُلهم تدبُّ إلى الأسْفاط دَبيب الصُّقور إلى الحَجَل. والموتى قد وجبت منهم الجنوب، وحضر المَوْروث والمَكْسوب، وقُيِّد المَطْعوم والمشروب. وعُدَّت الصحاح، ووُزِنت الأرطال وكِيلت الأقْداح. والشُّهود يُغلظون على الورثة في الأليّة، ويصونهم بالبتات في النشأة الأوّلية. والروائح حين تُفعم الأرض طيبًا، وتُهدي الأرواح شذًا يفعل في إزعاجها على الأبدان فِعلًا عجيبًا. والدلّالُ يقول: هذا مفتاح الباب، والسّمسار يصيح: قام النّدا فما تنتظرون بالثبات؟ والشّاهد يصيح فَتَغلو صيحته، والمُشْرف يَشْرب فتسقط سِبْحته. والمحتضر يهِسُّ ألا حيّ فلا تسمعون، ويباهي لون العباء عليه الجواب رب أرْجعون. ما هذا النَّشِيج والضَّجيج؟ مُتِّ كلا لم أمُت. ومَن حجَّ له الحجيج، فترتفع له الأصوات، كي لا يُفسح فيه الممات. ويُبْقر بطنَه برَغمه، ويُحفر له بجانب أبيه وبحذا أمِّه. ثم يشرع في نفسه الفَرْض، ولو أكفئت السمٰوات على الأرض. ويقال لأهل السِّهام: أحْسِنوا، فالإحسان ثالث مراتب الإسلام، وقد نصَّ ابن القاسم على أجرة القَسَّام. وسوَّغه أصْبَغ وسُحنون، ولم يختلف فيه مطَّرف وابن الماجِشون. إن قِيل إيصال الحقائق إلى أرْجائها، حَسَن فجزاء الإحسان إحسان، وقيل إخراج النِّسَب والكسور كِفايه، فللكاهنين حُلْوان. اللهمّ غَفْرًا، ونَستَقيل الله من انبِساط يجرُّ غَدْرًا، ونسألُ الله حَمْدًا يوجب المزيد من نَعْمائه وشكرًا. ولولا أن أُغفل عن الخَصْم، وأُثْقل رَحْل الفقيه أبي النجم، لأستَغِلّن المجلس شَرْحًا، ولكان لنا في بَحْر المُباسطة سبْح، ولأفَضْنا في ذكر الوارث والوُرّاث، وبيَّنّا العِلّة في أقسام الشهود مع المُشْتغل بنسبة الذكور مع الأناث. والله يَصِل عزَّ أخي ومجده، ويَهب له قوة تخصُّه بالفائدة وجدَّه، ويَزِيده بصيرة يتَّبع بها الحقوق إلى أقصاها، وبَصَرًا لا يُغادر صغيرة ولا كبيرةً إلّا أحصاها، ودام يُحصي الخَراريب والفَلوس والأطمار، ويملأ الطَّوامر بأقلامه البديعة الصَّنعة، ويصل الطُّومار بالطُّومار والسلام.

والشيء بالشيء يذكر، قلتُ: ومن أظرف ما وقعتُ عليه في هذا المعنى، قال بعض كتاب الدولة الحكَمية[1] بمنورقة، وقد ولّاه خُطّة المواريث، وكتب إليه راغبًا

(١) هي دولة أبي عثمان سعيد بن حكم بن عمر بن حكم القرشي الذي ضبط منورقة وأقام عليها=

في الإعفاء: [الطويل]

وما نلْتُ من شغْل المواريث رُقعة ... سوى شرح نَعْشٍ كلّما ماتَ مَيِّتُ
وأكتُب للأموات صَكًّا كأنهُمْ ... يُخاف عليهمْ في الجِباب التَّفَلُّتُ
كأني لعَزْرائيلَ صِرْتُ مُناقضًا ... بما هو يمْحو كلَّ يوم وأُثبتُ

وقال: فاستظرفها الرئيس أبو عثمان بن حكم وأعفاه.

مولده: في أواخر أربعة وسبعين وستمائة.

وفاته: قال في العائد: ومضى لسبيله، شهابًا من شُهُب هذا الأفق، وبقيّة من بقايا حَلْبة السَّبْق، رحمه الله، في ليلة السبت الثاني من شهر شعبان المكرم عام سبعة وأربعين وسبعمائة، وتخلّف وفْرًا لم يشتمل على شيء من الكُتُب، لإيثاره اقتناء النَّقدين، وعيَّن جراية لمن يتلو كتاب الله على قبره على حدٍّ من التَّعْزرة والمحافظة على الإتقان. ودفن بباب إلبيرة في دار اتخذها لذلك.

محمد بن أحمد بن قُطبة الدَّوسي[1]

من أهل غرناطة، يكنى أبا القاسم.

حاله: مجموع خِلال بارعة، وأوصاف كاملة، حسن الخَطّ، ذاكرٌ للتاريخ والأخبار، مُسْتَوْلٍ على خصال حميدة من حُسْن رواء وسلامة صدر، إلى نزاهة الهِمَّة، وإرسال السَّجِية، والبُعْد عن المُصانعة، والتحلّي بالوقار والحِشْمة، شاعر، كاتب. ومناقِبُه يقْصُر عنها الكثير من أبناء جنسه، كالفروسيَّة، والتجنُّد، والبسالة، والرِّماية، والسِّباحة، والشطرنج، متحَمِّد بحَمْل القَنا، مع البراعة، مديم على المروءة، مُواس للمحاويج من معارفه. ارتسم في الديوان فظهر غِناؤه، وانتقل إلى الكتابة، معزَّزَة بالخُطط النّبيهة العِلْمية، وحاله الموصوفة متَّصلة إلى هذا العهد، وهو معدود من حَسَنات قطره.

= أحسن قيام، وهادن الأعداء، وطالت مدته في ذلك، وحسنت سيرته إلى أن مات سنة ٦٨٠ هـ. ترجمته في بغية الوعاة (ص ٢٥٥) واختصار القدح المعلى (ص ٢٨) والمغرب (ج ٢ ص ٤٦٩) والحلة السيراء (ج ٢ ص ٣١٨) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧٤) والذيل والتكملة (ج ٤ ص ٢٨) والروض المعطار (ص ٥٤٩، مادة: منورقة).

(١) ترجم ابن الخطيب في الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٩) لرجل قد يكون هو نفسه المترجم له، تحت عنوان: «الكاتب أبو القاسم محمد بن أبي بكر بن محمد بن أحمد بن قطبة الهرميسي» وقال إن ابن قطبة كتب له قصيدتين، الأولى لامية ساكنة والثانية يائية، وهذا ما ينطبق على المترجم له هنا في الإحاطة.

وثبت في «التاج المحلى» بما نصُّه: «سابقُ رَكْض المُحَلَّى، أتى من أدواته بالعجائب، وأصبح صدرًا في الكتّاب وشَهْمًا في الكتائب. وكان أبوه، رحمه الله، بهذه البلدة، قُطْبَ أفلاكها، وواسطَة أسْلاكها، ومُؤتمن رؤسائها وأملاكها، وصدْرَ رجالها، ووليّ أرباب مجالها، فقد نَثَل ابنه سهامَها، فخبر عدالةً وبراعةً وفهمًا، وألقاه بينهم قاضيًا شهمًا، فظهر منه نجيبًا، ودعاه إلى الجهاد سميعًا مجيبًا، فصَحِب السَّرايا الغَرِيبة المُغيرة، وحضر على هذا العهد من الوقائع الصغيرة والكبيرة، وعلى مُصاحبة البعوث، وجَوْب السُّهول والوعوث، فما رفض اليراعةَ للباتِر[1]، ولا ترك الدَّفاتر للزمان الفاتِر.

شعره: وله أدب بارع المقاصد، قاعدٌ للإجادة بالمراصد. وقال من الرَّوْضيات وما في معناها: [الطويل]

دعيني ومَطْلول الرِّياض فإنني ... أنادم في بَطْحائها الآسَ والوَرْدا
أعلّل هذا بخُضْرة شارب ... وأحْكي بهذا في توَرُّدِه الخدًّا
وأزهرُ غَضُّ البان رائدُ نسمة ... ذكرتُ به لينَ المعاطف والقدّا

وقال: [الطويل]

وليل أدرْناها سُلافًا كأنها ... على كفِّ ساقيها تَضَرُّمُ نارِ[2]
غُنينا عن المصباح في جُنْح ليلها ... بِخَدٍّ مدير لا بكأس عقارِ

وقال: [الرمل]

يومُنا يوم سرور فَلْتَقُمْ ... تَصْدَع الهمَّ بكاساتِ المُدامِ
إنما الدُّنيا منامٌ فلتكن ... مغرمًا فيها بأحلى المنامِ

وقال: [الطويل]

وبي منك ما لو كان للشرب ما صحا ... وبالهَيْم ما روّتْ صداها المناهلُ
أحبّك ما هبَّتْ من الروض نَسْمة ... وما اهتزّ غصنٌ في الحديقة مائل
فإن شئت أن تهجر وإن شئت فلتُقْبِل ... فإنّي لِما حَمَّلْتَني اليوم حامل

وقال: [الكامل]

كم قلتُ للبدر المنير إذا بدا ... هيهات وجهُ فلانة تحكي لنا

---

(١) في الأصل: «الباتر». والباتر: السيف القاطع. لسان العرب (بتر).

(٢) في الأصل: «نارًا».

فأجابني بلسان حال واعتنى | لا الشمس تحكيها فأحكيها أنا
وصرفت وجهي نحو غُصْن أمْلدَ | قد رام يُشْبه قدّها لمّا انثنى
فضحكت هُزءًا عند هزّ قوامها | إذا رام أن يُحكى قوامًا كالقنا

وكتبت إليه في غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

جوانحُنا نحو اللقاء جوانحُ | ومقدارُ ما بين الدِّيار قريبُ
وتمضي الليالي والتزاوُرُ مُعْوزُ | على الرغم منّا إنّ[1] ذا لغريبُ
فديتك عَجِّلْها لعيني زيارة | ولو مثل ما ردّ اللّحاظ مريب
وإنّ لقائي جَلَّ عن ضرب موعد | لأكرمَ ما يُهدى الأريب أريب

فراجعني بقوله، والتجنّي شيمةٌ: [الطويل]

لعمرك ما يومي إذا كنت حاضرًا | سوى يوم صبٌّ من عداه يغيبُ
أزور فلا ألفي لديك بشاشةً | فيبعد منّي الخطْوُ وهو قريبُ
فلا ذنب للأيام في البعد بيننا | فإني لداعي القُرب منك مجيبُ
وإنّ لقاءً جاء من غير موعد | ليحسنَ لكن مرَّة ويَطيبُ

وإحسانه كثير، وفيما ثبت كفاية لئلّا نخرج عن غرض الاختصار.

محمد بن محمد بن أحمد بن قُطبة الدَّوسي[2]

يكنى محمد أبا بكر، أخو الذي قبله.

حاله: تِلْوُه في الفضل والسَّراوة، وحُسْن الصورة، ونصاعة الطّرف، مُرْبٍ عليه بمزيد من البشاشة والتنزُّل، وبَذْل التودُّد، والتبريز في ميدان الانقطاع، متأخر عنه في بعض خلال غير هذا. ذكيُّ الذهن، مليح الكتابة، سهلها، جيّد العبارة، متأتّي اليراع، مطلق اليد، حسن الخطّ، سريع بديهة المنثور، معمٌّ، مخول في التخصُّص والعدالة. كتب الشّروط بين يدي أبيه، ونسخ كثيرًا من أمّهات الفقه، واستظهر كتبًا، من ذلك «المقامات الحريرية». وكتب بالدار السلطانية، واختصّ بالمراجعة عمّن بها، والمفاتحة أيام حركات السلطان عنها إلى غيرها. حميد السيرة، حسن الوساطة، نجْدِيُّ الجاه،

(١) في الأصل: «وإنّ» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) ترجمة أبي بكر محمد بن محمد ابن قطبة الدوسي في نثير فرائد الجمان (ص ٣١٨) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٦٧).

مشكور التصرُّف، خفيف الوطأة. ووُلّي الخطابة العليّة، مع الاستمساك بالكتابة. ولم يُؤثر عنه الشعر[١]، ولا عوّل عليه.

محمد بن محمد بن محمد بن قطبة الدَّوسي

يكنى أبا بكر، وقد ذكرنا أباه وعمّه، ويأتي ذكر جَدّه.

حاله: نبيل المقاصد في الفن الأدبي، مشغول به، مفتوح من الله عليه فيه، شاعر مَطْبوع، مُكثر، انقاد له مَرْكِب النظم، في سنّ المراهقة، واشتهر بالإجادة، وأنشد السلطان، وأخذ الصِّلة، وارتسم لهذا العهد في الكتابة. وشرع في تأليف يشتمل على أدباء عصره.

شعره: ومما خاطب به أحد أصحابه: [الطويل]

إذا شمتُ من نحو الحِمى في الدُّجا بَرْقا ... أبى الدَّمْعُ إلّا أن يسيل ولا يَرْقى
ومهما تذكّرْتُ الزمان الذي مضى ... تقطَّعت الأحْشاء من حرِّ ما ألقى
خليلَيّ، لا تجزع لمَحْل فأدمعي ... تبادر سَقْيًا في الهوى لمن استَسْقى
وما ضرُّ من أصبحْتُ ملك يمينه ... إذا رقّ لي يومًا وقد حازني رِقًّا
فنيتُ به عشقًا وإن قال حاسدٌ ... أضلّ الورى من مات في هاجر شقًّا
تلهَّب قلبي من تلهُّب خدِّه ... فيا نِعم ذاك الخدُّ فاض بأن أشْقَى

ومنها:

وكم من صديق كنت أحْسَبُ أنه ... إذا كذِبَتْ أوهامُنا رفع الصِّدْقا

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدَّوسي[٢]

ابن عَمّ المذكورين قبله، يكنى أبا القاسم.

حاله: حسن[٣] الصورة، لازَم القراءة على شيوخ بلده، ونظم الشعر على الحَداثة، وترشح للكتُبِ بالدار السلطانية مع الجماعة، ممن هو في نظمه.

---

(١) قال عنه ابن الأحمر إنّ الشعر فتح له بابه وهو صغير، وأتى منه بما ملأ الأقطار بالكثرة، وأورد له بعض في «نثير فرائد الجمان» (ص ٣١٩ ـ ٣٢٠).

(٢) ترجمة أبي القاسم محمد بن محمد ابن قطبة الدوسي في الكتيبة الكامنة (ص ٢٧٢).

(٣) يبدو أن نظرة ابن الخطيب لأبي القاسم تغيرت عند تأليف الكتيبة الكامنة، فهو هناك يذمّه وينعته بأقبح النعوت، على خلاف ما ورد هنا.

ومن شعره، كتب إليّ بما نصُّه: [الكامل]

اخسبْ وحَدِّهْ يومَ رأسك ربما تُعطي السَّلامة في الصراع سُلَّما

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدَّوسي

أخو الفقيه أبي بكر بن القاسم بن محمد المذكور.

حاله: شاب حسن فاضل، دَمِث، متخلِّق، جميل الصورة، حسن الشكل، أحمر الوجْنَتين. حَفِظ كُتبًا من المبادىء النحوية، وكتب خطًّا حسنًا، وارتسم في ديوان الجُنْد مثل والده، وهو الآن بحاله الموصوفة.

شعره: قيّد أخوه لي من الشعر الذي زعم أنه من نظمه، قوله: [المتقارب]

حلفتُ بمن ذاد عنِّي الكَرَى وأَسْهَرَ جَفْنيَ ليلًا طويلا
وألْبَس جسمي ثياب النُّحول وعذَّب بالهجر قَلْبي العليلا
ما حُلْتُ عن وُدِّه ساعةً ولا اغْتَضْتُ منه سواه بديلا

محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيىٰ ابن عبد الرحمٰن بن يوسف بن جُزَيّ الكَلْبي[1]

من أهل غرناطة وأعيانها، يكنى أبا عبد الله.

أوّليّته: تُنظر في اسم أبيه في ترجمة المُقْرئين والعلماء.

حاله: من أعلام الشُّهرة على الفَتاوة، وانتشار الذكر على الحَداثة، تبريزًا في الأدب، واضطلاعًا بمعاناة الشعر، وإتقان الخطّ، وإيضاحًا للأحاجي والمُلْغزات. نشأ بغرناطة في كنفِ والده، رحمه الله، مقصُور التّدريب عليه، مشارًا إليه في ثُقُوب الذهن، وسَعَة الحِفظ، ينطوي على نُبل لا يظهر أثرُه على التفاتةٍ، وإدراك، تُغَطّي شُغْلتَه مخيَّلة غير صادقة، من تغافله. ثم جاش طبعُه، وفَهِق حوضُه، وتفجّرت ينابيعه، وتوقّد إحسانه.

ولمّا فقد والده، رحمه الله، ارتسم في الكتابة، فبذَّ جلّة الشعراء، إكثارًا واقتدارًا، ووفور مادة، مجيدًا في الأَمْداح، عجيبًا في الأَوْضاع، صدِّيقًا في النَّسيب، مطبوعًا في المقطوعات، معتدلًا في الكتابة، نشيط البنان، جَلِدًا على العمل، سيَّال

(١) ترجمة محمد بن جزي في الكتيبة الكامنة (ص ٢٢٣) ونثير فرائد الجمان (ص ٢٩٢) وأزهار الرياض (ج ٣ ص ١٨٩) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٧٠).

المجاز، جَمُوح عِنان الدُّعابة، غَزِلًا، مُؤْثِرًا للفكاهة. انتقل إلى المغرب لشُفُوف خَصْله، على ما قد قسَّم الحظوظ. سبحانه من رَزَقه بهذه البلاد، فاستقرَّ بباب مَلِكه، مَرْعِيَّ الجناح، أثيرَ الرتبة، مطلق الجِراية، مقرَّر السِّهام، مُعْتبًا وطنه، راضيًا عن جيرته، دَيْدَن من يستند إلى قديم، ويتحيَّزُ إلى أصالة.

تواليفه: أخبرني عند لقائه إياي بمدينة فاس في غرض الرسالة؛ عام خمسة[1] وخمسين وسبعمائة، أنه شرع في تأليف تاريخ غرناطة، ذاهبًا هذا المذهب الذي انتُدِبْتُ إليه، ووقفت على أجزاء منه تشهد باضطلاعه، وقيَّد بخطِّه من الأجزاء الحديثة والفوائد والأشعار ما يفوت الوَصْف، ويفوق الحَدّ. وجرى ذكره في «التاج» بما نصه[2]:

«شمسٌ في سماءِ[3] البلاغة بازغة، وحجَّة على بقاءِ الفِطرة الغريزية[4] في هذه البلاد المغربية بالغة، وفريدةُ وقت أصاب من فيها نادرة أو نابغة، من جِذْع[5] بن علي القادح، وجَرَى[6] من المعرفة كل بارح، لو تعلَّقت الغوامض بالثُّرَيَّا لنالها، وقال أنا لها. وربما غَلَبت الغَفْلة على ظاهره، وتنطَبق[7] أكمامُها على أزاهره، حتى إذا قدح في الأدب زَنْده، تقدّم المواكب بَنْدَه، إلى خطٍّ بارع، يعنُو طَوال الطويل منه إلى سرٍّ وبراعة، كما ترضى المِسْك والكافور عن طِرْس وحبر.

شعره: فمن غرامياته وما في معناها قوله[8]: [الطويل]

متى يتلاقى شائقٌ ومَشُوقُ ... ويُصبحُ عاني[9] الحُبِّ وهو طليقُ
أما أنها أمنيَّة عَزَّ نيلُها ... ومَرْمًى لعمري في الرَّجاءِ[10] سحيق
ولكنني[11] خدعتُ[12] قلبي تَعِلَّةً ... أخافُ انْصداعَ القلبِ فهو رقيق
وقد يُرْزَقُ الإنسانُ من بعد يأسه ... وروضُ الرُّبى بعد الذبولِ يروق

(١) في الأصل: «خمس» وهو خطأ نحوي. (٢) قارن بالكتيبة الكامنة (ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤).
(٣) كلمة «سماء» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الكتيبة الكامنة.
(٤) في الكتيبة: «العربية هي بالمغربية بالغة». (٥) في الكتيبة: «من جَذَعِ أَبَرَّ على القارح».
(٦) في الكتيبة: «وزَجَر. . . كل سانح، لا بارح».
(٧) في الأصل: «وتنطفق» ولا معنى له. وفي الكتيبة الكامنة: «وانطبق كمامه».
(٨) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦).
(٩) في الأصل: «عير» وقد اخترنا هذه الكلمة من الكتيبة؛ لأنها أكثر ملاءمة للمعنى.
(١٠) في الأصل: «الرجا» وهكذا ينكسر الوزن.
(١١) في الأصل: «ولكني» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.
(١٢) في الكتيبة: «خادعت».

تباعدْتُ لما زادني القربُ لوعةً ... لعلّ فؤادي من جَواه يُفِيق
ورمتُ شفاءَ الداءِ بالداء مِثلَه ... وإني[١] بألّا أشتفي لَحَقِيق
وتالله ما للصَّبِّ في الحبِّ راحةٌ ... على كلّ حالٍ إنه لمَشُوق
ويا[٢] ربِّ قد ضاقتْ عليّ مَسالكي[٣] ... فها أنا في بَحْرِ الغرام غريق
ولا سلوةٌ ترجى ولا صبرٌ[٤] ممكنٌ ... وليس إلى وصْل الحبيب طريق
ولا الحبُّ عن تعذيب قلبيَ يَنْثَني ... ولا القلبُ للتَّعذيبِ منه يُطيق
شجونٌ يضيقُ الصَّدْرُ عن زَفَراتها ... وشوقٌ نِطاقُ الصبر عنه يضيق
نثرْتُ عقودَ الدّمع ثم نَظَمْتُها ... قريضًا فذا دُرٌّ وذاك عَقيق
بكيتُ أسًى حتى بكى حاسِدي معي ... كأنّ عَذُولي عاد وهو صديقُ[٥]
ولو أنّ عند الناس بعضَ محبّتي ... لما كان يُلْفى[٦] في الأنام مُفيقُ
أيا عينُ كفِّي الدمعَ ما بقي الكَرَى ... إذا منعوكِ النّوم[٧] سوف تذوق
ويا نائمًا[٨] عن ناظريَّ أما ترى[٩] ... لشمسِكَ من بعدِ الغُروب شروق؟
رويدَكَ رِفقًا بالفؤاد فإنه ... عليك وإن عاديتَه[١٠] لَشَفيقُ
نقضْتَ عهودي ظالمًا بعد عَقْدِها ... ألا إنّ عَهْدي كيف كنتَ وثيق
كتمتُك حُبِّي[١١] يعلمُ اللهُ مُدَّةً ... وبين ضلوعي من هواك حريق
فما زلتَ بي حتى فُضِحْتُ[١٢] فإن أكنْ ... صبرْتُ[١٣] فبعد[١٤] اليومِ لسْتُ أُطيق

وقال[١٥]: [الكامل]

ومُوَرَّدِ الوَجَناتِ معسولِ اللّمى ... فَتّاكِ لَحْظِ[١٦] العينِ في عشّاقِهِ

---

(١) في الكتيبة: «فإني».
(٢) في الكتيبة: «أيا».
(٣) في الكتيبة: «مذاهبي».
(٤) في الكتيبة: «ولا الصبر».
(٥) في الكتيبة الكامنة: «... حتى بكتْ ليَ حُسَّدي كأنّ عدوّي صار وهو...».
(٦) في الأصل: «يلقى» والتصويب من الكتيبة.
(٧) في الكتيبة: «اليوم».
(٨) المصدر نفسه: «غائبًا».
(٩) المصدر نفسه: «يُرى».
(١٠) المصدر نفسه: «عَذَّبْتَهُ».
(١١) المصدر نفسه: «حُبًّا».
(١٢) المصدر نفسه: «حتى افتضحْتُ».
(١٣) المصدر نفسه: «صبوتُ».
(١٤) في الأصل: «بعد» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(١٥) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ٢٢٤).
(١٦) في الأصل: «فَتّاكُ بلحظ»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

الخمرُ بين لِثاتِهِ والزَّهرُ في وَجَناته والسِّحْرُ في أحداقِهِ
ميّادُ[١] غُصْنِ البان في أثوابه ويلوحُ بَدْرُ التِّمِّ في أطواقه
مَنْ للهلال[٢] بثَغْره أو خَدِّه[٣] هَبْ أنه يحكيه في إشراقه
ولقد تَشَبَّهَتِ الظِّباءُ[٤] بشُبْهَةٍ من خَلْقِهِ وعَجزْنَ عن أخلاقه
نادمْتُهُ وسنًا مُحَيًّا الشمس قد ألقى على الآفاق فَضْلَ رواقه
في روضةٍ ضحكتْ ثُغورُ أقاحِها وأَسالَ[٥] فيها المُزْنُ من آماقه
أسقيه كأسَ سُلافةٍ كالمِسْك في نَفَحاتِهِ والشهدِ عند مَذاقه
صفراءَ لم يُدِرِ الفتى أكْواسها إلّا تداعى هَمُّهُ لفراقِهِ
ولقد تَلينُ الصَّخر[٦] من سَطَواته فيعودُ للمعهود من إشفاقه
وأظلُّ أرشفُ من سُلافة[٧] ثغره خمرًا تُداوي القلبَ من إحراقه
ولربما عَطَفَتْهُ عندي[٨] نَشْوةٌ تشفي[٩] الخبالَ بضمِّه وعناقه
أرجو نِداه[١٠] إذا تبسَّم ضاحكًا وأخافُ منه العَتْبَ في إطراقه
أشكو القساوةَ من هواي[١١] وقَلْبِهِ والضَّعْفَ من جَلَدي ومن ميثاقه
يا هل لعَهْدٍ قد مضى من عودةٍ أم لا سبيلَ بحالةٍ لِلحاقه
يا ليت[١٢] لو كانت لذلك حيلةٌ أو كان يُعْطى المرءُ باستحقاقه
فلقد يروقُ الغُصنُ بعد ذُبوله ويَتِمُّ[١٣] بدرُ التِّمِّ بَعْدَ مُحاقه

---

(١) في الأصل: «ينادى غصنُ...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(٢) في الأصل: «للهلاك» والتصويب من الكتيبة.
(٣) في الكتيبة: «بخدّه أو ثغره».
(٤) في الأصل: «الظبَا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(٥) في الأصل: «وأمال»، وقد اخترنا هذه الكلمة من الكتيبة لأنها أكثر ملاءمة للمعنى.
(٦) في الكتيبة: «الصمّ». (٧) في الكتيبة: «أقاحي».
(٨) في الكتيبة: «نحوي».
(٩) في الأصل: «فشفى الخيالُ» والتصويب من الكتيبة.
(١٠) في الكتيبة: «رضاه». (١١) في الكتيبة: «هواه».
(١٢) في الأصل: «يا ليت شعري لو...» وهكذا ينكسر الوزن، ولذلك حذفنا كلمة «شعري» ليستقيم الوزن، كما في الكتيبة الكامنة.
(١٣) في الكتيبة: «ويروق».

ومما اشتهر عنه في هذا الغرض[١]: [الكامل]

ذَهَبَتْ حشاشةُ قلبيَ المصدوع[٢] بين السّلام ووقفة التوديعِ
ما أنصف الأحبابُ يوم وداعهم صَبًّا[٣] يحدِّث نفسه برجوع
أنْجِدْ بغَيْثك[٤] يا غمام فإنني لم أرْضَ يوم البَيْن فَغْل[٥] دموع
من كان يبكي الظاعنين بأدمع فأنا الذى أبكيهم بنجيع
إيهِ وبين الصَّدْر مني والحشا شَجَنٌ طُوِيَت على شَجاه ضلوعي[٦]
هاتِ الحديثَ عن[٧] الذين تحمَّلوا واقدحْ[٨] بزَنْد الذِّكر نار ولُوعي
عندي شجون في التي جَنَتِ النَّوى[٩] أشكو الغَداة[١٠] وهنّ في توديع[١١]
من وَصْليَ الموقوف أو من سُهْدي[١٢] الـ ـموصولِ أو من نَوميَ المقطوع[١٣]
ليت الذي بيني وبين صبابتي بعد[١٤] الذي بيني وبين هُجوعي
يا قلب[١٥] لا تجزع لما فعَل النّوى[١٦] فالحرُّ ليس لحادثٍ بِجَزُوعِ
أَفَبَعْدَ[١٧] ما غُودِرْتَ في أشراكه تَبْغي النُّزوع؟ ولات حين نُزوع
ومهفهفٍ مهما هبت ريح الصَّبا أبْدتْ له عِطْفاه عطف مُطيع
جمع المحاسن وهو منفرد بها فاعْجَبْ لحُسْنٍ مُفْرِدٍ مجموع
والشمس لولا إذنه ما آذَنَتْ خجلًا وإجلالًا له بطلوع[١٨]

---

(١) القصيدة في نثير فرائد الجمان (ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨)، وبعضها في نفح الطيب (ج ٨ ص ٧٧ ـ ٧٨) وأزهار الرياض (ج ٣ ص ١٩٧).
(٢) في الأصل: «الصدوع» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من نثير فرائد الجمان.
(٣) في النثير: «صَبٌّ». (٤) في النثير: «بدمعك».
(٥) في الأصل: «قلّ» والتصويب من نثير فرائد الجمان.
(٦) في الأصل: «ضلوع» والتصويب من النثير. (٧) في النثير: «على».
(٨) في النثير: «تقدَحُ».
(٩) في النثير وأزهار الرياض: «من أي أشجاني التي جَنَتِ الهوى». وفي النفح: «من أي أشجاني التي جَنَتِ النوى»
(١٠) في النفح وأزهار الرياض: «العذاب». (١١) في المصادر الثلاثة: «تنويع».
(١٢) في المصادر الثلاثة: «هَجْري».
(١٣) في هذا البيت والبيتين التاليين مصطلحات الحديث وهي: الموقوف، والموصول، والمقطوع، والصحيح، والموضوع، والمسند.
(١٤) في النثير: «مثل». (١٥) في النثير: «يا قلبي».
(١٦) في النثير: «الهوى».
(١٧) في الأصل: «أَبَعْدَ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من نثير فرائد الجمان.
(١٨) في الأصل: «مطلوع»، والتصويب من النثير.

ما زلتُ أسقي خدَّه من أدمعي ... حتى تفتَّح عن رياض ربيع
إن كان يرنُو عن نواظر شَادِنٍ ... فلربَّ ضِرغام بهنَّ صريع
عجبًا لذاك الشعر زاد بفَرْقه ... حُسْنًا كحسن الشِّعر بالتَّصريع
منع الكرَى ظلمًا وقد منع الضَّنا ... فشقَيت[1] بالممنوح والممنوع
جرَّدْتُ ثوبَ العزِّ عني طائعًا ... أتراه يَعْطِفه عليّ خضوعي؟
لم أنتفع[2] لِبْسا من الملبوس في ... حُبِّي ولا بِعذارِيَ المخلوع
بجماله استَشْفَعْتُ في إجماله ... ليحوز أجْرَ مُنَعَّم وشفيع
يا خادعي عن سَلْوتي وتصبُّري[3] ... لولا الهوى ما كنتُ بالمخدوع
أوْسَعتني بعد[4] الوصال تفرُّقا ... وأثْبَتَني سوءًا لحُسْنِ صنيعي
أسرعْتَ فيما تَرتضي فجزيتَني[5] ... بطويل هُجران إليّ سريع[6]
أشْرَعْتَ رُمْحًا من قِوامك ذابلًا[7] ... فمنعتَ من[8] ماء الرُّضاب شروعي
خُذْ من حديثِ تولّعي وتولُّهي ... خبرًا صحيحًا ليس بالمصنوع[9]
يَرْويه خدِّي مُسْنِدًا عن أدمعي ... عن مُقْلتي عن قلبيَ المصدوع[10]
كم من ليالٍ في هواك قطعْتُها ... وأنا[11] لذكراهنّ في تَقْطيع
لا والذي طبَعَ الكِرام على الهوى ... ويعزُّ سلوان[12] الهوى المطبوع
ما غيَّرتْني الحادثات ولم أكن ... بمُذيع سرٍّ للعهود مُضِيع
لا خَيْر في الدنيا وساكِنها[13] معًا ... إن كان قلبي منك غير جميع

وقال في غير ذلك في غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

وقالوا عداك البختُ والحزم عندما ... غدوتَ غريب الدّار منزلُك الفنتُ

---

(١) في النثير: «فسُقيتُ».
(٢) في النثير: «لم أقتنع بسقامي الملبوس في...».
(٣) في النثير: «ويا خادعي... ومصبّري».
(٤) في النثير: «بعدًا بفضل تقرّبي وجزيتني سوءًا...».
(٥) في النثير: «فأثبتني». (٦) في النثير: «صريع».
(٧) في الأصل: «دايلًا» والتصويب من النثير. (٨) في النثير: «في».
(٩) في النثير: «... تولعي وصبابتي... ليس بالموضوع». وفي النفح: «أو من حديث تولّهي وتولّعي... ليس بالموضوع».
(١٠) في النفح: «المفجوع». (١١) في النثير: «قلبي».
(١٢) في الأصل: «وبرّ سوا أن»، والتصويب من نثير فرائد الجمان.
(١٣) في النثير: «الدنيا وفي لذاتها إن كان جمعي منك...».

ألـم يـعـلـمـوا أنّ اغـتـرابـي حُـرامـة وأن ارتحالي عن دارِهم هو البَخْتُ؟
نعم لست أرضى عن زماني أو أرى تَهادي السفنِ المواخرِ والبُخْتُ
لقد سئمتْ نفسي المقام ببلدة بها العيشةُ النَّكراء والمكسب السُّحْتُ
يُذَلّ بها الحرُّ الشريف لعَبْده ويجفوه بين السَّمت من سنةٍ ستُّ
إذا اصطافها المرء اشتكى من سمُومها أذًى ويرى فيه أذًا يَبِتُّ
ولستُ كقوم في تعصبُّهم عتْوًا يقولون بغدادُ لغرناطة أختُ
رغبتُ بنفسي أن أساكن مَعْشرًا مقالُهم زورٌ ووُدُّهم مَقْتُ
يدسّون في لين الكلام دَواهيًا هي السُّمُّ بالآل المشود لها لَتُّ
فلا درَّ دُرُّ القوم إلّا عصيبة إليَّ بإخلاص المودّة قد مَتُّوا
وآثرْتُ أقوامًا حمدْتُ جوارهم مقالُهم صدقٌ ووُدُّهم بَحْت
لهم عن عِيان الفاحشات إذا بدت تَعامٍ وعن ما ليس يعينُهم صَمْتُ
فما ألِفوا لَهْوًا ولا عَرَفوا خَنًى ولا علموا أنّ الكُروم لها بِنْتُ
به كل مُرتاح إلى الضَّيف والوَغى إذا ما أتاه منهما النبأ البَغْتُ
وأشعَثُ ذي طَمْرين أغناه زُهْدُه فلم يتشوَّف للذي ضَمَّه التَّخْتُ
صبورٌ على الإيذاء بغيضٌ على العدا معينٌ على ما يتّقي جأشه الشَّتُّ[1]
ولي صاحبٌ مثلي يمانٍ جعلتُه جليسي نهارًا أو ضجيعي إذا بتُّ
وأجْرَدُ جرَّار الأعنّة فارِح كُمَيْتٌ وخيرُ الخَيْل قدّاحُها الكَمْت
تسامَتْ به الأعراق في آل أعوج ولا عِوَج في الخلق منه ولا أمْتُ
وحسْبي لعضّات النوائب مُنجدا عليها الكُمَيت الهند والصَّارم الصَّلت
قطعْتُ زماني خبرةً وبلوتُه فبالغَدر والتَّخفيف عندي له نَعْت
ومارستُ أبناء الزمان مُباحثًا فأصبح حَبْلي منهم وهو مُنْبَتُّ
وذي صَلَفٍ يمشي الهُوينا ترفُّقًا على نفسه كيلا يزايلها السَّمت
إذا غبتُ فهو المَزْوة القوم عندهم له الصَّدر من ناديهم وله الدّسْت
وإن ضمَّني يومًا وإياه مَشْهد هو المُعْجم السُّكَيت والعمّة الشَّخْتُ
فحسبي عُداتي أن طويتُ مآربي على عزمهم حتى صفًا لهمُ الوقت
وقلْتُ لدنياهم إذا شئتِ فاغربي وكنت متى أعزم فقلبي هو البَتُّ
وأغْضيتُ عن زلّاتهم غير عاجز فماذا الذي يبغُونه لهم الكبْتُ؟

---

(١) الشَّتُّ: المتفرّق. محيط المحيط (شتت).

وقال[(١)]: [الكامل]

لا تعدُ ضَيْفك إن ذهبْتَ لصاحبٍ تَـغْـتَـدُهُ لـكـنْ تَـخَـيَّـرْ وانْـتَـقِ
أوَ ما ترى الأشجارَ مهما رُكِّبَتْ إنْ خُولِفَتْ أصنافُها لم تغلق[(٢)]

ومنه في المقطوعات: [السريع]

وشـادنٍ تَـيَّـمَـنـي حُـبُّـه حَـظِّـيَ مـنـه الـدَّهْـرَ هِـجْـرانُـهُ
مـورَّد الـخـديـن حُـلْو الـلَّمى أحمر مُضْني الطَّرْف وَسنانُهُ
لم تنطَو الأغصان في الروض بل ضـلَّت لـه تـسـجـد أغـصـانُـهُ
يـا أيـهـا الـظَّـبـي الـذي قَـلْبُـه تُـضـرَّم فـي الـقـلـب نـيـرانُـهُ
هـل عَطْفـةٌ ترجى لـصبّ شبح لـيـس يـرجـى عـنـك سُـلوانُـهُ؟
يـودُّ أن لـو زُرْتـه فـي الـكَـرَى لـو مـتَّـعَـتْ بـالـنـوم أجـفـانُـهُ
قـد رام أن يَـكْـتُـبَ مـا نـابَـه والـحـبُّ لا يـمـكـن كـتْـمـانُـهُ
فـأفـضـيـتُ أسـرارَهُ واسْـتَـوى إســـرارُهُ الآن وإعـــلانُـــهُ

وقـال[(٣)]: [مـخـلـع الـبـسـيـط]

نـــهـــارُ وَجْـــهٍ ولـــيـــلُ شَـــعْـــرٍ بـيـنـهـمـا الـشَّـوقُ يُـسْـتـشـارُ
قـــد طَـــلَـــبـــا بـــالـــهـــوى فـــؤادي فـأيـن[(٤)] لـي عـنـهـمـا الـفـرارُ؟
وكـيـف يـبْـغـي الـنـجـاة شـيء يـطـلُبُـه الـلـيـلُ والـنـهـارُ؟

وقـال فـي الـدُّوبـيـت:

زارَتْ لـيـلًا وأطْـلَعـت فـجْـرهـا صُبْحًا فَجَمَعَتْ بين صبح وظلامْ
لما بَصُرت بالشمس قالت يا فتى جَمْعُ الإنسان بين الأختين حَرامْ

وقال في غرض التَّورية[(٥)]: [الطويل]

أبِحْ ليَ يا رَوضَ[(٦)] المحاسنِ نظرةً إلى وَرْدِ ذاكَ الخَدِّ أرْوي به الصَّدى[(٧)]
وبـالله لا تَـبْـخَـل عـلـيّ بـعَـطْـفَـةٍ[(٨)] فإني رأيت[(٩)] الرَّوض يوصف بالنَّدى

(١) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٨٣).
(٢) في النفح: «تعلق» بالعين غير المعجمة.
(٣) الأبيات في نثير فرائد الجمان (ص ٣٠٢).
(٤) في النثير: «وأين».
(٥) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٢٢٧) ونثير فرائد الجمان (ص ٣٠٠).
(٦) في الأصل: «... لي في رياض المحاسن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(٧) في المصدرين: «... الخَدِّ كنتُ لك الفدا».
(٨) في الكتيبة: «بقطفة».
(٩) في المصدرين: «عهدت».

وقال[١]: [السريع]

وعاشقٍ صلّى ومِحرابُه ... وَجْهُ غزالٍ ظَلَّ يَهْواهُ
قالوا تَعَبَّدْتَ[٢]؟ فقلتُ نعم ... تَعَبُّدًا يُفْهَمُ مَغْناهُ

وقال وهو مليح جدًّا[٣]: [الخفيف]

وصديقٍ شكا بما[٤] حَمَّلوه ... من قضاءٍ يَقْضي بطول[٥] العَناءِ
قلْتُ فارْدُدْ ما حمَّلوك عليهمْ ... قال مَنْ يستطيع[٦] رَدَّ القضاء؟

وقال[٧]: [المتقارب]

لسانان هاجا[٨] مَنْ خاصماه ... لسان الفتى ولسان القضا
إذا لم تَحُزْ واحدًا منهما ... فلست أرى لك أن تنطقا

وقال[٩]: [الكامل]

تلك الذُّؤابة[١٠] ذُبْتَ من شوقي لها ... واللّحْظُ يحميها بأيِّ سلاحِ
يا قَلْبُ فانجح[١١] لا إخالك ناجيًا ... من فِتْنةِ الجَعْديِّ والسفّاحِ[١٢]

وإحسانه كثير. ويدل بعضُ الشيء على كلِّه، ويخجُر طلُّ الغيث على وبله.

وفاته: اتصل بنا خبر وفاته بفاس مَبْطونًا في أوائل ثمانية وخمسين وسبعمائة. ثم تحقَّقْتُ أن ذلك في آخر شوال من العام قبله[١٣].

---

(١) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٨٣).
(٢) في الأصل: «تعبد» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(٣) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٢٨) ونثير فرائد الجمان (ص ٣٠١).
(٤) في الكتيبة: «لما». (٥) في المصدرين: «بفرط».
(٦) في الأصل: «يستطع» وهو خطأ نحوي لأنه ليس مجزومًا، وكذا أيضًا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(٧) كلمة «وقال» ساقطة في الأصل. (٨) في الأصل: «هَجَيا» وهكذا ينكسر الوزن.
(٩) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٨٣). (١٠) في النفح: «الذوائب».
(١١) في الكتيبة: «فانْجُ وما إخالك».
(١٢) أراد بالجَعْدي الشَّعر الذي عبّر عنه بالذؤابة، وأراد بالسفّاح اللّحظ، وفي الكلمتين تورية.
(١٣) كذا جاء في نفح الطيب (ج ٨ ص ٧٠ ـ ٧١).

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمـٰن بن إبراهيم ابن يحيـىٰ بن محمد بن الحكيم اللخمي[(١)]

يكنى أبا القاسم.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: فرعُ دوحة الأصالة والخصُوصيَّة، والعلم والدين، والمكانة والجلالة، مُجْلي بيته، ومجدِّد مآثره برًّا، ومجاملة، وخيريَّة. نشأ بأطراف جُمْلته من الفنون؛ من حساب وفريضة وأدب وقراءة ووثيقة، إلى خطٍّ حسن، وأدب تكفَّله، حتى انقاد له أو كاد. أُغبِط في وقيعة الطاعون قاضيًا ببعض الجهات، وكاتبًا للدار السلطانية، فكانت فيه الفجيعة عظيمة.

وجرى ذكره في «التاج المحلّى» بما نصُّه[(٢)]: «من فروع[(٣)] مجدٍ وجلالة، ورث الفضل لا عن كَلالة. أشرف، مجيدٌ، معظَّمٌ، مُخَوَّل في العشيرة، وصل لُباب المجد بفرائد الخلال الأثيرة، وأصبح طِرْفًا في الخير والعفاف، واتّصف من العدالة بأحسن اتِّصاف، وسلك[(٤)] من سَنَن سَلَفه، أثَرَ هادٍ[(٥)] لا يزال يُرشده ويدلُّه، ويسدِّدُه فيما يعقده أو يُحلّه، واتَّسَم بميسَم الحياء، والحياء خيرٌ كله، إلى نزاهة لا ترضى بالدُّون، ونجابة تتهالك في صون الفنون، وطمح في هذا العهد إلى نَمَط في البلاغة رفيع، وجَنَح إلى مساجلة ما يستحسنه من مُخْترع وبديع، وصدرت منه طُرَف تُسْتَملح، وتُسْتَحلى إذا استحلى. ونحن نورد ما أمكن من آياته، ونجلي بعض غُرَرِه وشيَّاته.

شعره: ومن مقطوعات آياته: [الطويل]

وَهَبَّتْ فَهَزَّتْ عندما أنْ[(٦)] رأتْ به ... الطَّلا مثْل الطفل يرضع في المَهْدِ

وروضٍ[(٧)] حَباهُ المُزْنُ خلْعَةَ بَرْقَةٍ ... وباتتْ رُباه من حِباه على وَعْدِ

يحدِّثنا عن كَرْمها ماءُ[(٨)] مُزْنِها ... فتُبْدي ابتسامَ الزَّهْر في لَثْمة الخَدِّ

عَـجِبْـنـا لِمـا رأيـنـا مـن بـرِّهـا[(٩)] ... بُدُور حباب الكأس تلعبُ بالنَّرْدِ

---

(١) ترجمة محمد بن محمد ابن الحكيم اللخمي في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٦).

(٢) قارن بالكتيبة الكامنة (ص ١٩٦).

(٣) في الكتيبة: «فرع محمدة وجلالة».

(٤) في المصدر نفسه: «واقتفى».

(٥) في الأصل: «هذا» والتصويب من الكتيبة.

(٦) كلمة «أن» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.

(٧) في الأصل: «والروض حياه» وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) في الأصل: «ما من» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له.

(٩) صدر هذا البيت مضطرب، ومنكسر الوزن.

وقال: [الطويل]

شَرِبْنا وزنْجيُّ الدَّياجيَ مُوقِدٌ مصابيحَ مِنْ زهْرِ النجومِ الطَّوالِعِ
عقارًا رَأَتْه حين أقبل حالكًا فجاءتْ بمُصْفَرٍّ من اللون فاقِعِ
عجبتُ لها ترتاع منه وإنها لفي الفَرْقد قرَّت لِدَم المدامع[1]

وقال: [الخفيف]

لاح في الدُّرِّ والعقيق[2] فَحَيًّا أم مزاجٌ أدّاه صَرْفُ المُحيّا؟
من بنات الكروم والرُّوم بِكْرًا أَقْبَلَتْ ترتدي حياءً[3] يُهَيّا
خِلْتُها والحَبابُ يطفو عليها شفقًا فوقه نجومُ الثُّريّا
قهوةٌ كالعروس في الكأس تُجْلى صاغ من لؤلئتها[4] المَزْجُ حَلْيا

وقال: [البسيط]

ويومِ أُنْسٍ صَقيلِ الجوِّ ذي نظر كأنه من وَمِيض البرق قد خُلقا
ما زلتُ فيه لشمس الطَّست مُصْطحبًا وبالنجوم وبالأكواس مُغْتَبِقا
صفراء كالعَسْجد المسبُوك إن شَرِبت تُبْدي احْمرارًا على الخدَّين مؤتلقا
كذلك الشمس في أخرى عَشِيَّتها إذا توارتْ أثارتْ بعدها شَفَقا

وقال[5]: [الطويل]

بنَفسي حبيبٌ صال[6] عاملُ قدِّه عليَّ ولمّا يَنعطفْ وَهْوَ كالغُصْنِ
ويا عَجَبًا منه متى صار ذابلًا ونُضْرَتُه لم تنأ عن خَوْطِهِ اللّدْنِ[7]
وأعجبُ مِن ذا أن سَيْف لِحاظه يمزِّقُ أفلاذَ الحَشَا وهو في الجَفْن

وقال[8]: [الكامل]

بأبي وغيرِ أبي غزالٌ نافرٌ بين الجَوانح يَغْتَدي ويَرُوحُ
قمرٌ تلألأ واستنار جبينُه[9] غَارَت به بين الكواكب يُوحُ

---

(١) عجز البيت منكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «العقيق» وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «حَيًا» وهكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «لؤلئها» وهكذا ينكسر الوزن.
(٥) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٧).
(٦) في الكتيبة: «مال».
(٧) في الأصل: «ونضرته تُنارُ عن حوطة اللَّدُنِ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.
(٨) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٧).
(٩) في الأصل: «حبيبه» والتصويب من الكتيبة.

لم يَرْضَ غيرَ القلبِ منزلةً فهل ... يا ليتَ شِعْري بالذِّراعِ يَلُوحُ

ومما نسب لنفسه وأنشدنيه: [الكامل]

ليلُ الشَّباب انجابَ أولَ وَهْلَةٍ ... عن صُبْح شَيْبٍ لست عنه براضِ

إن سرَّني يومًا سوادُ خِضابه ... فنُصُوله عن ساقيَ[1] ببياضِ

هلّا اختفى فَهْوَ الذي سرق الصِّبا ... والقَطْع في السَّرقات أَمرٌ ماضِ

فعليه ما اسطاع[2] الظهورَ بلَمَّتي ... وعليّ أن ألقاه بالمِقْراض

وفاته: توفي، رحمه الله، بغرناطة في السابع عشر شهر ربيع الآخر عام خمسين وسبعمائة، في وقيعة الطاعون، ودفن بباب إلبيرة رحمة الله عليه.

محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن علي ابن محمد اللَّوشي اليحصُبي[3]

يكنى أبا عبد الله، ويعرف باللوشي.

أوَّليّته: من لَوْشَة، وقرأ العلم بها، وتعرّف بالسلطان الغالب بالله محمد قبل تَصَيُّر الملك له، وتقدم عنده. تضمّن ذكرَه الكتاب المسمّى بـ«طُرْفة العصر في أخبار بني نصر»، وتقرر ذلك في حرف الحاء في اسم أبي عمر اللوشي، كاتب الدولة النَّصرية، رحمه الله.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: كان، رحمه الله، من أهل الحسب والأصالة، شاعرًا، مدّاحًا. نشأ مُدلّلًا في حُجور الدولة النصرية، خفيفًا على أبوابها، مُفَضَّلًا على مُدّاحها. ثم تجنّى بآخرة، ولزم طَوْرًا من الخمول في غير تَشَكٍّ، أعرض به عن أرباب الدُّنيا، وأُعْرِض عنه، واقتصر على تبلُّغ من عُلالة مُؤمِّل كان له خارج غرناطة، غيرُ مُساد من ثَلْمه، ولا مُصْلح في خَلَله، أخذ نفسه بالتَّقشُّف، وسوء المسكن، والتهاون بالملْبَس، حملًا عليها في غير أبواب الرياضة، مجانبًا أرباب الخُطَط، وفيًّا لمن لحقته من السلطان مَوْجِدة، تختلف معاملته لمن يعرفه في اليوم مرّات، من إعراض عنه، وقَبُول عليه، ولصوق به، كل ذلك عن سلامة، وتهيُّب نفس. مليح الدُّعابة، ذاكرًا لفنون من الأناشيد، حسن الجدّ، متجافيًا عن الأعراض.

---

(١) في الأصل: «ساق» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «ما استطاع» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) ترجمة محمد بن محمد اللوشي اليحصبي في الكتيبة الكامنة (ص ١٧٥) ونثير فرائد الجمان (ص ٣٢٩).

وجرى ذكره في «التاج» بما نصُّه[١]: شاعر مُفْلق، وشهابٌ في أفق[٢] البلاغة متألِّق، طبَّق مفاصل الكلام بحُسام لسانه، وقلَّد نحُورَ الكلام[٣] ما يُزري بجواهر الملوك[٤] من إحسانه. ونشأ في حُجور الدولة النصرية مُدلَّلًا بمتاته، متقلبًا في العزِّ في أفانينه وأشْتاته، إذ لسَلَفه الذِّمام الذي صَفَت منه الحياض والحمام، والوِداد الذي قَصُرَتْ عنه الأنْداد، والسابقة التي أزْرَى بخبرها العِيان، وشهدت بها أزْجُونة وجيّان، محيِّز ثمرة الطيب. وله همَّة عالية، بعيدة المرمى، كريمة المنتمى، حَمَلته بآخرة على الانقباض والازدراء والزهد في الازدياد والاستكثار، والاقتصاد والاقتصار، فعَطَف على انتجاع غلَّته، والتزام محلَّته، ومُباشرة فلاحة صان بها وجْهَه؛ ووفَّاه الدهر حقَّه ونجمه، واحتجبت عقائلُ بيانه لهذا العهد وتقنَّعت، وراوَدتها النَّفْس فتمنَّعت، وله فكاهة وأنْس الزمان مناجاة القِينات، عند البَيات، وأعذبُ من معاطاة الرَّاح في الأقداح».

شعره: قال: وله أدبٌ بلغ في الإجادة الغاية، ورفع للجبين من السُّنن الرَّاية. ومن مقطوعاته يودع شيخنا الفقيه القاضي أبا البركات بن الحجاج: [الطويل]

رأوني وقد أغرقت في عَبَراتي ... وأحرقتُ في ناري لدى زَفَراتي

فقالوا سَلُوه تعلموا كُنْه حاله ... فقلْتُ سَلُوا عني أبا البركات

فمن قال إني بالرَّحيل مُحَدِّثٌ ... روت عنه أجفاني غريبَ ثبات

ونادى فؤادي رَكْبه فأجابه ... ترحَّل وكُن في القوم بعض عُدات

ومن مقطوعاته البديعة من قصيدة مجازيّة: [الطويل]

سيخطب قَسُّ العزم في مِنْبر السُّرى ... وهل في الدُّنا يوم المسير أطيقُ؟

وأقطع زَنْد الهَجْر والقَطْعُ حَقُّهُ ... فما زال طِيبُ العمر عنّي يريقُ[٥]

مولده: في حدود ثمانية وسبعين وستمائة.

وفاته: في الموفّى عشرين من شهر ربيع الثاني من عام اثنين وخمسين وسبعمائة.

---

(١) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٥). (٢) كلمة «أفق» ساقطة من الكتيبة الكامنة.
(٣) في الكتيبة: «الملوك». (٤) في المصدر نفسه: «السلوك».
(٥) في الأصل: «يسترقُ» وهكذا ينكسر الوزن، وفيه عيب القافية.

محمد بن محمد بن عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن يحيىٰ ابن الحكيم اللخمي[١]

يكنى أبا بكر.

أوّليّته: مرّت في اسم ذي الوزارتين.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: «كان صَدْر أبناء أصحاب النِّعم، وبقيّة أعلام البيوت، تَرفَ نشأة، وعزَّ تربية، وكرَم نفس، وطيبَ مجالسة، وإمتاع محاضرة، وصحة وفاء، وشياع مشاركة في جملة فاضلة، محدِّثًا تاريخيًا، كاتبًا بليغًا، حسن الخطِّ، مليح الدُّعابة، ظريف التوقيع، متقدم الحيلة في باب التحسين والتنقيح، يَقْرض الشعر، ويَفكُّ المُعمَّى، ويقوم على جُمل الكتاب العزيز، حفظًا وتجويدًا، وإتقانًا، ويسْرُد نِتَف التاريخ، وعيون الأخبار، إلى حُسْن الخلق، وكمال الأبَّهة، وحلاوة البساطة، واحتمال المُنابَشة، والمثابرة على حفظ المودة، والاستقالة من الهَفْوة، والتمسُّك بالاستِعْتاب والمعْذِرة. كتب بالدار السلطانية أكثر عُمْره، وتصدَّر بعد في قيادة المواضع النَّبيهة، محاربًا ذا قدرة في ذلك، ومع ذلك فشائعُ المعروف، ذائع المشاركة. قيّد الكثير، ودوّن وصنَّف، وحمل عن الجلّة ممن يَشُقّ إحصاؤهم، وكان غرَّة من غرر هذا القطر، وموكبًا من مواكب هذا الأفق، لم يتخلف بعده مثلُه.

وجرى ذكره في «التاج المحلّى» بما نصّه[٢]: «ماجدٌ أقام رسْم[٣] المجد بعد عفَائه، فوفّى الفضل حقّ وفائه. بيتُه في رُندة أشهر في الأصالة من بيت امرىء القَيْس، وأرْسَى في بُحْبُوحة الفخر من قواعد الرَّضوى وأبي قَبيس. استولى على الجود البديع البعيد المَدى، وحجَّت إليه من كل فج طُلَّاب النَّدى، وعَشَت إلى ضوء ناره فوجدت على النار التُّقى والهُدى. وُلّي الوزارة النَّصرية التي اعتصر منها طريفًا بتالد، فأحيت مآثرها الخالدة مآثر يحيىٰ بن خالد[٤]. ولمّا أدار عليها الدهر كأس النَّوائب، وخَلُص إليها سهمه الصَّائب، بين صحائف الكُتُب وصفائح الكتائب، تطلَّعت من خلالها الرائقة لُباب الوجود، وبَكَتْها بسَيْل أجفانها عينُ الباس والجود، وطَلَع على

---

(١) ترجمة محمد بن محمد بن الحكيم في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٥) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٤٢).

(٢) قارن بالكتيبة الكامنة (ص ١٩٥). (٣) في الكتيبة: «ربع».

(٤) هو يحيىٰ بن خالد البرمكي، وزير الخليفة هارون الرشيد.

أعقاب هذه الفضائل مُحَلًّى من صفحاتها، وأعاد لو ساعده الدهر من لَمَحاتها، وارتقى من الكتابة إلى المحلّ النَّبيه، واستحقّها من بعض ميراث أبيه، وبَنى وشيَّد، ودوَّن فيها وقيَّد، وشَهُر في كَتْب الحديث وروايته، وجَنَى[١] ثمرة رِحْلة أبيه، وهو في حِجْر ذُؤابته[٢]، وأنشأ الفهارس، وأحيا الأثر الدَّارس، وألّف كتابه المسمى بـ«الموارد المُستَعذبة والمقاصد المُنتخبة» فسَرَح الطَّرْف، وروضُه طيِّب الجنى والعرْف. وله شعرٌ أنيق الحِلْية، حاز في نمط العِلْية. وبيني وبين هذا الفاضل وِداد صافي الحِياض، وفكاهة كقِطَع الرِّياض، ودُعابة سَحبت الدَّالة أذيالها، وأدارت الثِّقة والمقة جريالها. وسيمرّ في هذا الديوان كل رائق المُحَيّا، عاطر الريّا.

مشيخته: قرأ على الأستاذ أبي جعفر الحريري، والأستاذ أبي الحسن القِيجاطي، والأستاذ إسحـٰق بن أبي العاصي. وأخذ عن الطّم والرّمّ، من مشايخ المشرق والمغرب، فمنهم الولي الصالح فضل بن فضيلة المعافري، إلى العدد الكثير من أهل الأندلس، كالخُطباء الصلحاء أبي عبد الله الطَّنجالي، وأبي جعفر الزيّات، وأبي عبد الله بن الكمّاد، وغيرهم من الرُّنْدِيين والمالَقيين والغَرْناطيين، حسبما تضمنه برنامجه.

تواليفه: ألّف الكتاب المسمى، «الفوائد المُنْتَخبة والموارد المُسْتَعْذبة». وكمَّل التاريخ المسمى بـ«بميزان العمل» لابن رَشيق. ودوَّن كتابًا في عبارة الرؤيا سمّاه «بشارة القلوب بما تخبره الرؤيا من الغُيوب» و«الأخبار المُذَهَّبة» و«الإشارة الصُّوفية، والنُّكت الأدبية». والهَوْدج في الكتب. والإشارة في ألف إنشاده.

شعره وكتابته: قال في التاريخ ما نصُّه: «وتهادته إلى هذا العهد رُتَب السِّيادة، واستُعْمل في نبيهات القيادة؛ فوُجِّه إلى معقل قرطمة من كورة ريُّه وهو واليه، وبطاحُه في مجرى جِياده وصَحر عواليه. وقد حللتُ مالَقة صُحبة الرَّكب السلطاني في بعض التَّوجُّهات، إلى تلك الجهات، في بعض ما أتحف من مقعده، المتصل المستمر، بهديَّة مشتملة على ضروب من البرّ فخاطبته مقيمًا لسوق الانبساط، وغير حائدٍ على الوِداد والاغتباط، على ما عوَّل عليه من حمل الإفراط، والانتظام في هذا المعنى والانخراط: [الطويل]

أُلامُ على أخذ القليل وإنما ... أُعامل أقوامًا أقلَّ من الذَّرِّ
فإن أنا لم آخذْهُ منهمْ فقدْتُهُ ... ولا بُدَّ من شيءٍ يُعين على الدَّهْرِ

---

(١) في الكتيبة: «واجتنى ثمره رحلةً إليه؛ وهو...».
(٢) في المصدر نفسه: «دايته، ودوّن الفهارس...».

سيدي، أطلق الله يدك بما تَمْلك، وفَتَر عن منحك البُخل لئلّا تهلك. كنت قد هوَّمت، وحذّرني القلق فتلوَّمت. ولَوْمي كما علمْتَ سيء الخصال، عزيز الوِصال. يمطُل دَيْني، ويعاف طيره وِرِدْ عيني. فإذا الباب يدقُّ بحجر، فأنبأني عن ضَجَر، وجارُ الجنب يُؤخذ بالذّنب، فقمت مُبادرًا وجَزِعت، وإن كان الجَزَع مني نادرًا. واستفهمتُ من وراء الغَلَق، عن سبب هذا القَلَق. فَقالت امرأة من سكان البوادي: رابطةُ الفؤاد يا قوم، رسول خَيْر، وناعق طَيْر، وقرعُ إذلال، لا فرعُ إدلال. حُطُّوا شعار الحَرْب والحَرَب، فقد ظفرتم ببلوغ الأَرَب، فتأَخرْتُ عن الإقدام، وأنهَدْتُ إليه، فحَنَّ عمر بن أبي ربيعة عمن كان بالدّار من الخُدّام، فأسْفَرت الوقيعة عن سلام وسُلم، ولم يَزِن أحد منا بكلِم. ونظرْتُ إلى رجل قرطبي الطَّلعة والأخلاق، خاوٍ على الإطلاق، تنهّد قبل أن يُسَلِّم، وارتمض لما ذهب من الشَّبيهة وتألّم. شَنْشَنة معروفة، وعينُ تلك الجهات معاذ الله مصْرُوفة. وقد حمَّلته سيادتكم من المبرّة ضروبًا شتَّى، وتجاوَزْتَ في المسرّات غاية حتى. ولم تُضع عضوًا من جَسَده، فضلًا عن مَنْكبه ويده، إلّا علَّقْتَه وعاءً ثقيلًا، وناطَتْ به زَنْبِيلًا. واستلقى كالمَنِيّ إذا ترك المُعْترك، وعَلَت حوله تلك الأثقال، وتعاورها الانتقال، وكثُر بالزُّقاق القيلُ والقال. فلمّا تخلَّصتُ إلى الدار، وسترتْ معرفتها بالجدار، وتناولها الاختبار الفاضح، وبان قصورُها الواضح، فتلاشتْ، بعد ما جاشَتْ، ونظرت إلى قَعْب من اللَّبن الممزوق، الذي لا يُستعمل في البيوت ولا يباع في السُّوق، فأذكرتني قول الشاعر: [البسيط]

تلك[(١)] المكارم لا قُعْبانَ مِنْ لبنٍ ... شِيبَتْ بماءٍ فعادتْ بَعْدُ أبْوالا

أما زُبْده فرُفع، وأما جُبْنه فاقتِيت به وانتُفع، وأما من بعثه من فضلاء الخُدَّام فدُفع، وكأني به قد ألحّ وصُفع، والتفت إلى قُفَّة قد خِيطت، وبعُنق ذاك البائس قد نِيطت، رَمَس فيها أفراخ الحمائم، وقُلِّدت بجيده كما يُتقلد بالتمائم، وشُدَّ حَبْلُها بمخنقه، وأُلزم منها في العاجل طائرُه في عنقه، هذا بعد ما ذُبحت، وأما حشوها فرُبحت. ولو سلكتم الطريقة المُثلى، لحفِظْتم جثّتها من العَفَن كما تُحفظ جُثة القتلى، وأظنكم لم تُغفلوا هذا الغرض الأدنى، ولا أهملتم هذه الهمم التي غريزة في المَبْنى. فإني رميتُ منها اللّهو رمي المُختبر، فكَلُح من مرارة الصبر، ولما أخرجْتُها من كَفَن القفّة، واستدعيت لمواراتها أهل الصُّفة، تمثّلت تمثّل اللبيب،

---

(١) في الأصل: «في تلك...» وهكذا ينكسر الوزن.

بقول أبي تمام حبيب[(١)]: [الكامل]

هُنّ الحَمامُ فإنْ كسَرْتَ عِيافَةً[(٢)] مـن حـائِهِـنَّ فـإنـهـنَّ حِـمـامُ[(٣)]

ولو أن إحدى الدَّجاجتين لاحت عليها مُخَيِّلة سِرّ، لكانت من بقايا مواطني ديوك بني مُرّ، وبعث بها حلالُك حلالَه، وأهدى منها اجتهاد مَن أحْسَن. ولم يكن بالهديّة ما يُذكر، ولا كانت مما يُنكر، أستغفر الله، فلو لم تكن التُّحفة، إلّا تلك الفكاهة العاطرة والغمامة الماطرة، التي أحسَبُها الأمل الأقصى، وتجاوزت إلّا مِن التي لا تُعدّ ولا تُحصى، للزم الشكر ووجب، وبرز من حُرِّ المدح ما تيسّر واحتجب. فالمكارم وإن تغَيَّرت أنسابُها، وجُهل انتسابُها، وادُّعي إرثُها واكتسابُها، إليكم تَنشر يدها، وتَسعى لأقدامها، ولبَنْيَتكم تميل بهواديها، وبساحتكم يسيل واديها، وعلى أرضكم تسُحُّ غواديها. ومِثلي أعزكم الله، لا يُغضي من قدر تُحفكم الحافلة، ولا يَقْدر من شكرها على فريضة ولا نافِلة، ولكنها دُعابة معتادة، وفكاهة أصدرتها وِدادة. ولا شكّ أنكم بما جُبِلتم عليه قديمًا وحديثًا، تغتفرون جفائي، الذي سيَّرتموه سَمَرًا وحديثًا في جنب وفائي، وتُغضون وتتحملون، وبقول الشاعر تتمثّلون، وأسمع من الألفاظ اللغوية التي يُسرّ بها سَمْعي، وإن ضمنت شَتْمي ووصفي: [الطويل]

بـعـثـت بـشـيء كـالـجـفـاء وإنـمـا بـعـثـت بـعُـذْري كـالـمُـدلّ إلى غَـدْرِ
وقـلـت لـنـفـسـي لا تَـرْدعـي فـإنـه كما قيل شيء قد يُعين على الدهر
وما كـان قـدر الـوُدّ والـمـجـد مـثـله فـخـذه عـلى قـدر الـحـوادث أو قَـدْري
وإن كنت لم أحسن صنيعي فإنَّني سأحسن في حُسن القبول له شكري
وقَـدْرُك قـدر الـنـيـل عـنـدي وإنـنـي لـدى قـدرك الـعـالـي أدقُّ مـن الـذَّرّ
قَـنَـعْـتُ وحظّي من زماني وودُكم هـبـاءً ومـثـلـي لـيـس يـقـنـع بـالـنَّـزْر
أتـانـي كـتـاب مـنـك بـاهٍ مـبـارك لـقـيـتُ بـه الآمـال بـاهـتـة الـثَّـغْـر
جلا من بَنات الفِكْر بكْرًا وزفَّها إلى ناظري تختال في حَبَر الحِبْر
فـألـفـاظـهـا كـالـزَّهـر والـزهـر يـانـع وقَدْرُ المعاني في الأصالة كالزهر
نـجـوم مـعـانٍ فـي سـمـاء صـحـيـفـة ولـكـنـهـا تُـسري النجوم ولا تسري
تـضـمَّـن مـن نـوع الـدعـابـة مـا بـه رجوتُ الذي قد قيل في نَشْوة الخمر

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام (ص ٢٤٧) من قصيدة من ٥٦ بيتًا.

(٢) العيافة: زجر الطير. (٣) الحِمام، بكسر الحاء: الموت.

رعى الله مَسْراها الكريم فجلّ ما ... جَلَتْهُ من البُشْرى وأبْدَتْ من البِشْرِ
لعمري لقد أذْكَرْتني دولةَ الصِّبا ... وأهْدَيتِ لي نوعَ الجلال من السِّحْر
ولما أتَتْ تلك الفكاهة غَذْوةً ... وجدتُ نشاطًا سائر اليوم في بِشري
ولا سيما إن كان مُلْحم بُرْدها ... عميدُ أولي الألباب نادرة العصر
نشرتُ بها ما قد طويتُ بِساطَه ... زمانًا وبي طيُّ الأمور مع النشْر
ونعم خليل الخير أنت محافظًا ... على سُنَن الإخلاص في السِّرِّ والجهر
ودونَكَها تلهو بها وتُديرها ... سُحَيْريّة الأنفاس طيِّبة النَّشْرِ

فراجعني بقوله:

وقد منّ سيدي الجواب، محتويًا على العجب العُجاب، فيالكِ من فكاهة كَوْثَرية المناهل، عَنْبرية المسائل، ولو لم يكن إلّا وصْفُ القرطبي المستوى الطَّلعة، الشُّرَطي الصَّنعة. وأما وصف اللبن وفراخ الحمام، فقد بَسَطتم في المزاح القول. وامتنعتم في الكلام الفَصْل. وذلك شيء يعجز عن مُساجلتكم فيه أربابُ البلاغة والبيان، فكيف بمثْلي ممن له القول المُهَلهل النَّسيج الواهي البيان. ولا بدَّ من عَرْض ذلك على سيدي القُطْب الكبير الإمام، وأستاذنا عَلَم الأعلام، وكبير أئمة الإسلام، فيحكم بيننا بحكم الفَصْل، ويُنصف بما لديه من الحق والعدل. وقد كنت أحيد عن مراجعتكم حِيدَة الجبان، وأميل عن ذلك ميلة الكَوْدَن[١] عن مجاراة السُّمْر الهِجان، وأعدل عن مساجلة أدبكم الهتّان، عدول الأعْزَل عن مبارزة جيِّد السِّنان. إلى أن وثقت بالصفح، وعوَّلت على ما لديكم من الإغضاء والسَّمْح، ووجَّهتُ حاملة السرّ والظروف، كي تتصل الهدايا ولا ينقطع المعروف. وأستَقِيل من انبساط يجرُّ عُذْرًا، وأسأله سبحانه وتعالى حمدًا يوجب المزيد من إنعامه وشكرًا. دام سيدي وآماله مساعدة، والكلمة على فضله واحد.

ومن شعره في النُّسْك واللَّجإ إلى الله تعالى[٢]:

أيا مَنْ له الحُكْمُ في خَلْقه ... ويا مَنْ[٣] بِكَرْبي له أشتكي
تَوَلَّ أموري ولا تُسْلمني ... وإن أنت أسْلَمْتني أهلكِ
تعاليتَ من مُفْضل[٤] منعم ... ونُزِّهْتَ من طالبِ مُدْرِكِ

---

(١) الكَوْدن: الفيل، والمراد هنا البطيء في مشيه. محيط المحيط (كود).
(٢) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٦).
(٣) في الأصل: «ومن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.
(٤) في الكتيبة: «من مُنْعمٍ مفضلٍ».

ومن ذلك ونقلته من خطّه[١]: [الطويل]

تَـصَـبَّـرْ إذا مـا أَدْرَكَـتْـكَ مُـلِمَّـةٌ ... فَـصُـنْـعُ إلـهِ الـعـالـمـين عـجـيـبُ
ومـا يـدْرِك[٢] الإنـسـانَ عـارٌ بـنَـكْـبَـةٍ ... يُـنَـكَّـبُ[٣] فـيـهـا صـاحـبٌ وحـبـيـبُ
ففي مَنْ مضى للمرء ذي العقل أُسْوَةٌ[٤] ... وعـيـشُ كـرامِ الـنـاسِ لـيـس يَـطـيـبُ
ويوشك أن تَهْمي سحائبُ نعمةٍ ... فَـيُـخْـصِـبَ رَبْـعٌ لـلـسّـرورِ[٥] جَـديـبُ
إلٰهك يا هذا مجيبٌ[٦] لمن دعا ... وكـلُّ الـذي عـنـد الـقـريـبِ قـريـبُ

مولده: عام خمسة وستين وستمائة.

وفاته: من «عائد الصلة»، قال: وختم الله عمره بخير العمل من الإنابة والتهدُّج، والتزام الورد، وإن كان مُسْتصحب الخيرية. وحلّ ببلد ولايتهم رُنْدة، فكانت بها تُرْبته في الثالث والعشرين لربيع الآخر عام خمسين وسبعمائة.

محمد بن محمد بن علي بن العابد الأنصاري

وُلِدَ المذكور بعد، الكاتب بالدار السلطانية.

حاله: من كتاب طُرْفةِ العصر وغيره، قال: كان كاتبًا مشهورًا، بليغًا، ذا معرفة، بارع الخطّ، أوْحَد زمانه في ذلك، وقورًا، مُعذَّب اللفظ، منحطًا في هوى نفسه، مُحارفًا[٧] بحرفة الأدب على جلالة قدره. وكتابته نقيّة، جانحة إلى الاختصار.

شعره: وثيق، تقلُّ فيه أرواح المعاني كشعر أبيه، وتوشيحه فائق. تولّى كتابة الإنشاء لثاني الملوك النصريين[٨]، واستمرّ قيامه بها على حَجْر شديد من السلطان ومَحْمل؛ لملازمته المُعاقرة وانهماكه في البطالة، واستعمال الخمر، حتى زعموا أنه قاء يومًا بين يديه، فأخَّره عنها، وقدّم الوزير أبا عبد الله بن الحكيم. وفي ذلك

(١) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٥) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٤٢).
(٢) في النفح: «وما يلحق». (٣) في الكتيبة: «فينكب».
(٤) الأُسْوة: بضم الهمزة وكسرها؛ هو ما يأتسي به الحزين يتعزّى به. مختار الصحاح (أسا).
(٥) في الأصل: «من ربع السرور» والتصويب من المصدرين.
(٦) في النفح: «قريبٌ».
(٧) المحارفة: الاحتيال، والمراد هنا الاحتراف. محيط المحيط (حرف).
(٨) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، وقد حكم غرناطة من سنة ٦٧١ هـ حتى سنة ٧٠١ هـ. ترجمته في اللمحة البدرية (ص ٥٠)، وتقدمت ترجمته في الجزء الأول من الإحاطة.

يقول: [الطويل]

أمن عادة الإنصاف والعدل أن أُجْفا　　لأن زعموا أني تحسَّيْتُها صِرْفا؟

وأقام بقيّة عمره تحت رِفْدٍ وبرّ.

وفاته: توفي في حدود التسعين وستمائة. وكان شيخنا ابن الجيّاب قد آثره بكُتُبه، وكانت نفيسة أعلاها بخط أبيه، رحمه الله.

محمد بن مالك المُرّي الطِّغْنَري[١]

من أهل غرناطة، من ذوي البيتية والحسب فيها. ذكره الأستاذ[٢] في الكتاب المسمّى بالصلة، والغافقي[٣]، وغيرهما.

حاله: أديب نبيل، شاعر؛ على عهد الأمير عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس، صاحب غرناطة. قال: وكان أولًا يميل إلى البطالة والراحة. ثم إنه استيقظ من غفلته، وأقلع عن راحته، وأجبَّ في تَوْبته. وكان من أهل الفضل والخير والعلم.

من تواليفه: كتابه الشهير في الفلاحة، وهو بديع، سمّاه «زهرة البستان، ونُزْهة الأذهان»، عبرة في الظَّرف. قال: وجرى له مع سَماجة[٤] خليفة عبد الله بن بلقّين قصة. إذ فاجأه سماجة مع إخوان له، ولم يَشْعروا به، فأنشده ابن مالك ارتجالًا، وقد أخذ بلِجام دابته: [الخفيف]

بينما نحن في المُصَلّى نُساقُ　　وجناحُ العَشِيِّ فيه جُنوحُ

إذ[٥] أتانا سماجةٌ يتلألأ　　فرَدى[٦] الشمسِ مِنْ تجلِّيهِ[٧] يُوحُ

فطفِقْنا يقول بعضٌ لبعض　　أَغَبُوقٌ شَرابُنا أم صَبُوحُ؟

---

(١) ترجمة محمد بن مالك في الذخيرة (ق ١ ص ٨٠٥)، والطِّغْنري، نسبةً إلى طِغْنر Tignar، إحدى قرى غرناطة. وكنيته كما جاء في الذخيرة، أبو عبد الله.

(٢) المقصود هنا الأستاذ ابن الزبير صاحب كتاب «صلة الصلة».

(٣) هو محمد بن عبد الواحد الغافقي، المعروف بالملاحي.

(٤) سماجة الصنهاجي من وزراء باديس بن حبوس، صاحب غرناطة، وكان حازمًا شديد السطوة، مرهوب الجانب، شجاعًا، جوادًا، فاضلًا. ثم لزم أمير غرناطة عبد الله بن بلقين بن باديس مدة كوزير، ثم أبعده عبد الله عن غرناطة، فلجأ إلى المرية وعاش في كنف صاحبها المعتصم بن صمادح. راجع مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ١٦١).

(٥) في الأصل: «إذا» وهكذا ينكسر الوزن.　(٦) في الأصل: «ردى» وهكذا ينكسر الوزن.

(٧) في الأصل: «تجليله» وهكذا ينكسر الوزن ولا معنى له.

قال: فتكلّم الوزير سماجة باللسان البربري مع عبيده، فرجعوا مسرعين، ووقف سماجة مع الوزير ابن مالك، إلى أن أتاه عبيدُه، بوعاء فيه جملة كبيرة من الدراهم، تنيف على الثلاثمائة دينار. فقال: ادفعوها إليه، وانصرف. وأتاهم العبيد مع الدراهم، بطعام وشراب. قال ابن مالك: وذلك أوّل مال تأثّلته.

شعره: ومنه(١) [السريع]

صُبَّ على قلبي هوًى لاعجُ ... ودَبَّ في جسمي ضنًى دارجُ
في شادِنٍ أحمرَ(٢) مُسْتأنسٍ ... لِسانُ تَذْكاري به لاهجُ
ما(٣) قدرُ نَعْمانَ إذا ما مَشى ... وما عسى يفعله(٤) عالجُ؟
فَقَدُّهُ مِنْ رقَّةٍ مائسٌ ... وردْفُهُ من ثُقله(٥) مائج
عنوانُ ما في ثَوْبه وَجْهُهُ ... تَشابَهَ الداخلُ والخارجُ
فلا تَقِيسوهُ ببدْرِ الدُّجى ... ذا مُغْلَمُ الوَجْهِ وذا ساذَجُ

وقد نسبها بعض الناس لغيره.

وفاته: قال الأستاذ: كان حيًا سنة ثمانين وأربعمائة. وأمر أن يكتب على قبره: [الخفيف]

يا خليلي، عَرِّجْ على قبري تجدْ ... أكْلةَ(٦) التُّرْبِ بين جَنْبَي ضريحِ
خافِتُ الصوتِ إنْ نَطَقْتُ ولكنْ ... أيُّ نُطْقٍ إن اعتبرْتَ فَصيحِ؟
أبصَرَتْ عينيَّ العجائبُ لكنْ ... فرّقَ(٧) الموت بين جسمي وروحي(٨)

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن عبد الملك الأوسي

المدعو بالعَقْرب، من إقليم الآش(٩).

حاله: كان حسن النظم والنثر، ذكيًا من أهل المعرفة بالعربية والأدب، موصوفًا بجودة القريحة، والنبل والفِطْنة.

---

(١) الأبيات في الذخيرة (ق ١ ص ٨٠٨). (٢) في الذخيرة: «أحور».
(٣) كلمة «ما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الذخيرة.
(٤) في الذخيرة: «يبلغه». (٥) في الذخيرة: «ثِقَل».
(٦) في الأصل: «من أكلة» وهكذا ينكسر الوزن.
(٧) في الأصل: «لما فرّق...» وهكذا ينكسر الوزن.
(٨) في الأصل: «وروح» بدون ياء. (٩) أي من إقليم وادي آش Guadix.

أدبه وشعره: ذكره الملّاحي وقال: حدّثني قاضي الأحكام بغرناطة، أبو القاسم الحسن بن قاسم، الهلالي صاحبنا، قال: كان الأستاذ أبو عبد الله العقرب جارَنا، قد وقع بينه وبين زوجه زهرة بنت صاحب الأحكام، أبي الحسن علي بن محمد تنازُع، فرفعته إلى القاضي بغرناطة، أبي عبد الله بن السّماك العاملي، وكنت يومئذ كاتبًا له، فرأى القاضي قوّته وقدرته على الكلام وضعفها، وإخفاق نظمها، وشفق لحالها. وكان يرى أن النساء ضعاف، وأن الأغلب من الرجال يكون ظالمهن. وكان كثيرًا ما يقول في مجلسه: رُويدك، رفقًا بالقَوارير، وحين رأى ما صدر عن القاضي من الجُمل، فقلت له: وأين حلاوة شعرك والقاضي أديب يهتزّ إليه ويرتاح؟ فطلب مني قرطاسًا، وجلس غير بعيد، ثم كتب على البديهة بما نصُّه: [الكامل]

لله حـيٌّ، يـا أمـيـم، حـواكِ ... وحَـمـائمٌ فـوق الـغـصـون حـواكِ
غـنَّيْـنَ حتى خِلتُـهُنَّ عَنَيْنَني ... بـغـنـائـهـنَّ فـنُـحْـتُ فـي مَـغْـنـاك
ذَكَّرنني[١] ما كنت قد أنسَيْتُه ... بـخـطـوب هـذا الـدهـر من ذكـراك
أشكو الزَّمان إلى الزَّمان ومن شكى ... صَرْفَ الزمان إلى الزمان فشاكي
يا ابن السِّماك[٢] المُسْتَظِلّ برمحه ... والعُزْل[٣] ترهب ذا السلاح الشاكي
راع الـجـوار فـبـيـنـنـا فـي جَـوِّنـا ... حقّ السُّرى والسير في الأفلاك
وابسطْ إلى الخلق المؤوب ببسطة ... ظَـرْف الـكـرام بـعـفّـة الـنُّـسـاكِ
وأنا ذاكر إن لم يَفُتْ من لم يَمُتْ ... فـــدارُك ثـــم دارُك ثـــم ذاكِ[٤]

ثم دفعها إلى القاضي، فكتب القاضي بخطه في ظهر الرقعة: لَبَّيك، لبَّيك. ثم أرسلني أصلح بين العَقْرب وزوجه، فإن وصل صلحهما إلى خمسين دينارًا، فأنا أؤدّيها عنه من مالي، فجمعت بينهما، وأصلحت بينهما عن تراض منهما، رحمهما الله تعالى.

محمد بن علي بن عبد الله بن علي القيسي العرادي

من أهل غرناطة.

---

(١) في الأصل: «ذكّرتني» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى معًا.
(٢) السِّماك: كوكب نيّر صغير في جهة الشمال، يقال له السماح الرامح. محيط المحيط (سمَك).
(٣) في الأصل: «والعزّل» بتشديد الزاي، وهكذا ينكسر الوزن. والعُزْل: جمع أعزل وهو أحد السماكين لأنه لا سلاح معه. محيط المحيط (عزل).
(٤) هذا البيت منكسر الوزن.

حاله: كان فتى حسن السَّمْت، ظاهر السكون، بادي التَّصَوُّن والعفَّة، دمِث الأخلاق، قليل الكلام، كثير الحياء، مليح الخط، ظريفه، بادي النَّجابة. أبوه وجَدُّه من تجار سوق العِطر، نُبهاء السوق. نظم الشعر، فجاء منه بعجب، استرسالًا وسهولة، واقتدارًا، ونفوذًا في المُطَوَّلات، فأنِفتُ له من الإغفال، وجذبْتُه إلى الدار السلطانية، واشتدَّت براعته، فكاد يستولي على الأمر لولا أن المَنِية اخترمته شابًا، فثكُل منه الشعر، قريعُ إجادة، وبارع ثُنَيَّة شهرة، لو انفسح له الأمد.

مولده: في ذي الحجة عام أحد وثلاثين وسبعمائة.

وفاته: توفي مبطونًا على أيام قريبة من إسراعه بغرناطة، عن سنّ قريبة من العشرين، في عام خمسة وخمسين وسبعمائة. وأبوه أمين العطارين.

محمد بن علي بن العابد الأنصاري

يكنى أبا عبد الله، أصله من مدينة فاس.

حاله: من خطّ القاضي أبي جعفر بن مَسْعدة، عَلَم كتّاب دار الإمارة النَّصرية الغالِبيّة، الذي بِنُوره يسْتَضبحون، وسراجُهم الذي بإشراقه وبهجته ونَهْج مَخدِته يهتدون. رفع لواء الحمد، وارتدى بالفهم والعلم والحلم. كان، رحمه الله، إمامًا في الكتابة، والأدب، واللغة، والإعراب، والتاريخ والفرائض والحساب، والبرهان عليه، عارفًا بالسِّجلات والتَّوثيق، أربَى على الموثِّقين من الفحول المبرِّزين في حِفْظ الشعر ونظمه، ونسبته إلى قائله حافظًا مبرِّزًا. درس الحديث، وحفظ الأحكام لعبد الحق الإشبيلي، ونسخ الدواوين الكبار، وضبط كتب اللغة، وقيَّد على كتب الحديث، واختصر التّفسير للزمخشري، وأزال عنه الاعتزال، لم يفْتَر قطّ من قراءة أو درس أو نسخ أو مطالعة، ليله ونهاره. لم يكن في وقته مِثْلُه.

مشيخته: أخذ بفاس عن أبي العباس أحمد بن قاسم بن البقّال الأصُولي، وأبي عبد الله بن البيوت المقرّي، وعن الزاهد أبي الحسن بن أبي الموالي، وغيرهم.

شعره: ومنه قوله: [الكامل]

طَرَقَتْ تَتِيه على الصَّباح الأبْلجِ … حَسْناءُ تختالُ اختيالَ تَبرُّجِ
في ليلةٍ قد أُلبِسَتْ بظلامها … فضْفاضَ بُرْدٍ بالنجوم مُدَبَّجِ

وشعره مُدوّن كثير.

وفاته: توفي بحضرة غرناطة عام اثنين وستين وسبعمائة في ذي القعدة منه.

محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأزدي الإلبيري الغرناطي[(١)]

من أهل قرية سُكون، يكنى أبا القاسم، ويعرف بالأندلسي، وكأنها تفرقة بينه وبين الحكمي أبي نواس.

أوّليّته: قال غير واحد من المؤرخين[(٢)]: هو من ذرية يزيد بن حاتم بن قَبيصة بن المُهَلَّب بن أبي صُفرة، وقيل: من ولد أخيه رَوْح بن حاتم.

حاله: كان من فحول الشعراء، وأمثال النظم، وبرهان البلاغة، لا يُدرك شأوه، ولا يُشَقُّ غُباره، مع المشاركة في العلوم، والنفوذ في فكِّ المعمَّى. خرج من الأندلس ابن سبع وعشرين سنة، فلقي جوهرًا المعروف بالكاتب مولى المعزِّ بن المنصور العُبَيدي، صاحب المغرب، وامتدحه، وكان لئيمًا، فأعطاه مائتي درهم، فوجَد لذلك، وقال: أههنا كريمٌ يُقصد؟ فقيل: بلى، جعفر بن يحيىٰ بن علي بن فلاح بن أبي مروان، وأبو علي بن حمدون، فامتدحهما، ثم اختصّ بجعفر بن يحيىٰ وأبي علي، فبالغا في إكرامه، وأفاضا عليه من النعم والإحسان ما لم يمرَّ بباله، وسارت أشعاره فيهما، حتى أُنشدت للمعزِّ العبيدي، فوجهه جعفر بن علي إليه في جُملة طُرف وتُحف بعث بها إليه، كان أبو القاسم أفضلَها عنده، فامتدح المعز لدين الله، وبلغ المعزُّ من إكرامه الغاية. ثم عاد إلى إفريقية، ثم توجه إلى مصر، فتوفي ببَرْقَة.

وجرى ذكره في «تَخْليص الذهب» من تأليفنا بما نصُّه: «العُقاب الكاسرة، والصَّمصامة الباترة، والشَّوارد التي تهادتها الآفاق، والغايات التي أعجز عنها السُّباق».

وَصْمَتُه: وذكره ابن شَرَف في مقاماته، قال: وأما ابن هاني محمد، فهو نَجْدِي الكلام، سَرْدِي النظام، إلّا أنه إذا ظهرت معانيه، في جزالة مبانيه، رَمى عن منجنيق،

---

(١) ترجمة ابن هانيء الأندلسي في التكملة (ج ١ ص ٢٩٥، رقم ١٠٢١) ومطمح الأنفس (ص ٣٢٢) والمطرب (ص ١٩٢) وجذوة المقتبس (ص ٩٦) وبغية الملتمس (ص ١٤٠) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢١٥) ومعجم الأدباء (ج ٥ ص ٤٦٨) وعبر الذهبي (ج ٢ ص ٣٢٨) وشذرات الذهب (ج ٣ ص ٤١) والفلاكة والمفلوكون (ص ١٠٢) والمغرب (ج ٢ ص ٩٧) والنجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٦٧) ورايات المبرزين (ص ١٥٠) ومرآة الجنان (ص ٣٧٥) والأعلام (ج ٧ ص ١٣٠) ونفح الطيب (ج ١ ص ٢٨٢) و(ج ٤ ص ١٨٣) و(ج ٥ ص ١٨٧).

(٢) قارن بالتكملة (ج ١ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦).

لا يؤثر في النَّفيق. وله غَزَل مَعَرِّي، لا عُذْري، لا يقنع بالطَّيف، ولا يُصفع بغير السيف، وقد قدَّه به الذات، وعظُم شأنه فاحتمل الثواب، وكان يَقِف دولته في أعلى منزلته، ناهيك من رجل يستعين على صلاح دنياه، بفساد أُخْراه، لرداءة دِينه، وضَعْف يقينه. ولو عَقِل ما ضاقت عليه معاني الشِّعر، حتى يستعين عليه بالكفر.

شعره: كان أول ما مدح به جعفر بن علي قوله[١]: [الكامل]

أُحِبُّ بتيّاكَ القِبابِ قِبابا ... لا بالحُداةِ ولا الرِّكابِ ركابا[٢]

فيها قلوبُ العاشقين تخالُها ... عَنَمًا بأيدي البِيض والعُنّابا[٣]

وقال يمدح جعفر بن علي من القصيدة الشهيرة[٤]: [الطويل]

أَلَيْلَتَنا إذا أرْسَلَتْ واردًا وَحْفا[٥] ... وبانَتْ[٦] لنا الجوزاء في أُذْنها شَنْفا[٧]

وبات لنا ساقٍ يقوم[٨] على الدُّجى ... بشمعةِ صُبْحٍ[٩] لا تُقَطُّ[١٠] ولا تُطفا

أَغَنُّ غضيضٌ خَفَّف[١١] اللِّينُ قَدَّه ... وأَثْقَلَت[١٢] الصَّهْباءُ أجفانَه الوُطْفا[١٣]

ولم يُبْقِ إرعاشُ المُدام له يَدًا ... ولم يُبْق إعناتُ[١٤] التَّثَنّي له عِطْفًا

نزيفٌ قضاه السُّكْرُ إلّا ارتجاجَةً ... إذا كَلَّ عنها[١٥] الخَصْرُ حَمّلها الرِّدفا

---

(١) ديوان ابن هانىء الأندلسي (ص ٤٩).

(٢) الحُداة: الذين يسوقون الإبل؛ أراد أنه يحب القباب لأنها تخص الحبيب، ولا يحب الحُداة ولا الإبل لأنها سبب بعد الحبيب عنه.

(٣) العنم: شجرة حجازية لها ثمر أحمر يشبّه به البنان المخضب. يقول: إن تلك القباب حمر، كأنها عنم أو عناب بأيدي النساء البيض.

(٤) ديوان ابن هانىء الأندلسي (ص ٢٠٧ ـ ٢١٠) ورايات المبرزين (ص ١٥١ ـ ١٥٤). وورد منها في المغرب (ج ٢ ص ٩٧ ـ ٩٨) فقط سبعة أبيات.

(٥) في الأصل: «وجفا» والتصويب من الديوان والمغرب. والوارد: الشعر الطويل المسترسل. والوحف: الكثيف المسودّ.

(٦) في الديوان والمغرب: «وبتْنا نرى الجوزاء».

(٧) الشَّنف: ما يعلّق في أعلى الأذن، وهو القرط.

(٨) في المغرب: «يصول».

(٩) في الديوان: «نجم».

(١٠) لا تُقط: لا يُقطع رأسُها.

(١١) في الأصل: «جفّف» والتصويب من الديوان والمغرب.

(١٢) في الديوان: «وثقّلت».

(١٣) الأغن: الذي في صوته غِنّة. والغضيض: الفاتر الطرْف المسترخي الأجفان. والوُطف: جمع أوطف وهو الذي كثر شَعْرُ حاجبيه وعينيه.

(١٤) الإعنات: من أعنته: أي أدخل عليه مشقّة شديدة.

(١٥) في الديوان: «عنه الخصر حَمّله...».

يقولون حِقْفٌ فوقه(١) خَيْزُرانَةٌ ... أما يَعرفون الخَيْزُرانَةَ والحِقْفا؟

جعلْنا حَشايانا(٢) ثيابَ مُدامِنا ... وقدَّتْ لنا الظَّلماءُ من جِلْدها لُحْفا

فمن كَبِدٍ تُدني إلى كبدٍ هَوًى ... ومن شَفَةٍ تُوحي إلى شَفَةٍ رَشْفا

بِعَيْشكَ نبِّهْ كأسه وجفونَهُ ... فقد نُبِّهَ الإبريقُ من بعد ما أغْفا

وقد فكّت الظلماء بعض قيودنا ... وقد قام جيشُ الليل للصبح فاصْطَفّا(٣)

وولّتْ نجومٌ للثُّريّا كأنها ... خواتيمُ تَبْدو في بَنان يدٍ تَخْفى

ومَرَّ على آثارها دَبَرانُها ... كصاحب رِدءٍ(٤) كُمِّنَتْ خيلُه خَلْفا

وأقبلتِ الشِّعْرى العَبُورُ مُلِمَّةً(٥) ... بِمِرْزَمِها اليَعْبُوبِ تَجْنُبُهُ طِرْفا(٦)

وقد قبَّلتها(٧) أختُها من ورائها ... لتَخرُقَ من ثِنْيَيْ مَجرَّتِها سِجْفا(٨)

تخافُ زئيرَ الليث قدَّم(٩) نَثْرةً ... وَبَرْبَرَ في الظَّلْماء يَنْسِفُها نَسْفا(١٠)

كأنّ مُعلّى قُطْبِها(١١) فارسٌ له ... لِواءانِ مَرْكوزانِ قد كَرِه الزَّحْفا

كأن السِّماكين اللذين تَظاهرا ... على لُبَّتَيْه(١٢) ضامنانِ له الحَتْفا(١٣)

فذا رامِحٌ يُهْوي إليه سِنانَهُ ... وذا أعْزَلٌ قد عَضَّ أنْمُلَهُ لَهْفا

كأنّ قُدامى النَّسْر والنَّسْرُ واقعٌ ... قُصِصْنَ فلم تَسْمُ الخَوافي له ضَعْفا(١٤)

كأن أخاه حين دَوَّم طائرًا ... أتى دون نِصْف البَدْر فاختطف النِّصْفا

كأن رقيب الليل(١٥) أجْدَلُ مَرْقَبٍ ... يُقَلِّبُ تحت الليل في ريشه طَرْفا

---

(١) في الأصل: «فوقي» والتصويب من الديوان والمغرب...

(٢) الحشايا: جمع حشية وهي الفراش المحشوّ.

(٣) في الديوان: «وقد ولّت الظلماء تقفو نجومها... جيش الفجر لليل واصطفّا».

(٤) في الأصل: «ردىء» والتصويب من الديوان. (٥) في الديوان: «مُكِبّة».

(٦) المرزم: نجم من الشّعرى اليمانية. اليعبوب: الفرس السريع الطويل. تجنبه: تقوده إلى جانبها. الطِّرْف: المهر.

(٧) في الديوان: «وقد بادرتْها».

(٨) أختها: الشعرى الشامية. الثِّنْيُ: الطيّ، الطاقة. السِّجْفُ: السِّتْر.

(٩) في الديوان: «يَقْدُم».

(١٠) النَّثرة: أنف الأسد، وكوكبان بينهما قدْر شبر. بربر: غضب وصاح.

(١١) معلّى القطب: نجم في القطب. (١٢) في الديوان: «على لِبْدتيه».

(١٣) في الديوان: «حَتْفًا». والسماكان: كوكبان، يقال لأحدهما السماك الرامح وللآخر السماك الأعزل.

(١٤) في الديوان: «به ضَعْفا». والقدامى: الريشات الكبار في مقدم الجناح. النسر: كوكب، وهما كوكبان؛ النسر الطائر، والنسر الواقع. الخوافي: الريشات الصغار في مؤخر الجناح.

(١٥) في الديوان: «النجم». ورقيب النجم: هو النجم الذي يغيب بطلوع النجم الذي يراقبه. =

كأنّ بني نَعْش ونَعْشٍ[١] مَطافلٌ ... بوَجرةَ قد أضلَلْنَ في مَهْمَهٍ خِشْفا[٢]
كأنّ سُهاها[٣] عاشِقٌ بين عُوَّدٍ ... فآونةً يَبْدو وآونةً يَخْفى
كأنّ سُهَيلا[٤] في مطالعِ أُفْقه ... مُفارِقُ إلْفٍ لم يَجدْ بَعْدَه إلْفا
كأنّ الهَزِيع الآبنُوسيَّ مُوهِنا[٥] ... سَرى بالنسيج الخُسْروانيِّ مُلْتَفّا[٦]
كأن ظلام الليل إذ مالَ مَيْلَةً ... صريعُ مُدامٍ بات يَشْرَبُها صِرْفا
كأن نجوم الصُّبح خاقانُ مَعْشرٍ[٧] ... من التُّرك نادى بالنَّجاشيِّ فاستَخْفى[٨]
كأن لواء الشمس غُرَّةُ جعفرٍ ... رأى القِرْنَ فازدادتْ طلاقتُه ضِعْفا[٩]
وقد جاشتِ الظلماء[١٠] بِيضًا صوَارمًا ... ومركوزةً[١١] سُمْرا وفَضْفاضةً زَغْفا[١٢]
وجاءت عِتاقُ الخيل تَرْدي كأنها ... تَخُطُّ لنا أقلامُ آذانِها صُحْفا
هنالك تَلْقى جعفرًا خَيْرَ[١٣] جعفرٍ ... وقد بُدِّلَتْ يُمناه من لينها[١٤] عنْفا
وكائنْ[١٥] تراه في الكريهةِ جاعلا[١٦] ... عزيمتَهُ بَرْقًا وصَوْلَتَهُ خَطْفا

وشعره كثير مدوّن، ومقامُه شهير. وفيما أوردناه كفاية. وهو من إلبيرة الأصيلة.

وفاته: قالوا: لمّا توجَّه إلى مصر، شرب بِبَرقة وسَكِر ونام عُريانًا، وكان البرد شديدًا فأَفْلج، وتوفي في سنة إحدى وستين وثلاثمائة[١٧]، وهو ابن

= والأجدل: الصَّقْر.

(١) في الديوان: «ونَعْشًا».

(٢) في الأصل: «قَشَفا» والتصويب من الديوان. وبنات نعش: سبعة كواكب. والمطافل: ذوات الأطفال من الإنس والوحش، وأراد هنا بها الظِّباء، واحدها: مطفل. وجرة: موضع بين مكة والبصرة. الخشف: الظبي.

(٣) السُّهى: كوكب خفيّ.

(٤) سهيل: كوكب.

(٥) في الديوان: «لونُه».

(٦) الهزيع: قطعة من الليل. الآبنوسيّ: نسبة إلى الآبنوس وهو شجر لون عوده أسود، صلب. الخُسْرواني: حرير رقيق أبيض منسوب إلى خسرو أحد ملوك الفرس.

(٧) في الديوان: «كأن عمود الفجر خاقان عسكر».

(٨) شبّه عمود الفجر بملك الترك، وهو الخاقان، في بياضه، وشبّه الليل بالنجاشيّ ملك الحبشة في سواده.

(٩) القِرْن: الخصم. طلاقته: بشاشته.

(١٠) في الديوان: «الدأماء».

(١١) في الديوان: «ومارنة».

(١٢) الزَّغف: الواسعة من الدروع.

(١٣) في الديوان: «غير».

(١٤) في الديوان: «من رِفْقها».

(١٥) في الأصل: «وكاينٌ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(١٦) في الأصل: «عاجلًا» والتصويب من الديوان.

(١٧) جاء في التكملة (ج ١ ص ٢٩٦) أنه توفي سنة ٣٦١ هـ، وقيل: سنة ٣٦٢ هـ. وفي وفيات=

اثنتين[١] وأربعين سنة. ولما بَلَغت المعزَّ وفاتُه، تأسَّف عليه وقال: هذا رجل كنا نطمع أن نفاخر به أهل المشرق.

محمد بن يحيىٰ بن محمد بن يحيىٰ بن علي بن إبراهيم ابن علي الغسّاني البرجي الغرناطي[٢]

يكنى أبا القاسم، من أهل غرناطة.

حاله: فاضل[٣] مُجْمع على فضله، صالح الأبوّة، طاهر النشأة، بادي الصِّيانة والعفَّة، طِرْف في الخير والحشمة، صدْرٌ في الأدب، جَمُّ المشاركة، ثاقب الذهن[٤]، جميل العشرة، مُمتع المجالسة، حسن الخطِّ[٥] والشعر والكتابة، فذٌّ في الانطِباع، صَنيع[٦] اليدين، يحكم على[٧] الكثير من الآلات العِلمية، ويجيد تفسير الكتاب[٨]. رَحَلَ إلى العُدْوة[٩]، وتوسّل إلى ملكها، مُجدِّد الرسم، ومقام[١٠] الجلّة، وعلمُ دَسْت الشعر والكتابة، أمير المسلمين أبي عنان فارس[١١]، فاشتمل عليه، ونوّه به، وملأ بالخير يَدَه، فاقتنى جِدَةً وحُظْوَةً وشُهْرةً وذكرًا[١٢]، وانقبض مع استرسال المُلْك[١٣]، وآثر الراحة، وجَهَد في التماس الرِّحلة الحجازية، ونبذ الكلَّ، وسلا الخُطَّة، فأسعفه سلطانه بغرضه، وجعل حَبْله[١٤] على غاربه، وأصحبه رسالة إلى النبيِّ الكريم من إنشائه، متصلة بقصيدة من نظمه، وكلاهما تُعْلن[١٥] في الخلفاء بُعْدَ شأوه، ورسوخَ قَدَمِ عِلْمه، وعراقة البلاغة، في نَسَب خَصْله، حسبما تضمَّنه الكتاب

= الأعيان: توفي سنة ٣٦٢ هـ.

(١) في الأصل: «اثنين» وهو خطأ نحوي.

(٢) ترجمة محمد بن يحيىٰ الغساني البرجي في الكتيبة الكامنة (ص ٢٥٠) ونيل الابتهاج طبعة فاس (ص ١٧٢) والتعريف بابن خلدون (ص ٦٤) وجذوة الاقتباس (ص ١٩٧) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٢٤١) وأزهار الرياض (ج ٥ ص ٧٧).

(٣) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٠٣).

(٤) في النفح: «الفهم».

(٥) في النفح: «حسن الشِّعْر والخط».

(٦) في النفح: «صناع».

(٧) في النفح: «محكم لعمل الكثير».

(٨) في النفح: «الكتب».

(٩) في النفح: «العدوة ولقي جلّة وتوسّل».

(١٠) في النفح: «ومقام أُولي الشهرة وعامر دست».

(١١) كلمة «فارس» غير واردة في النفح.

(١٢) كلمة «وذكرًا» غير واردة في النفح.

(١٣) في النفح: «الملك لفضل عقله، حتى تشكى إليَّ سلطانه بثَّ ذلك عند قدومي عليه، وآثر الراحة...».

(١٤) في النفح: «حبل همّه». والمعنى أنه تركه وشأنه.

(١٥) في النفح: «يعلن».

المسمى بـ«مُساجلة البَيان». ولما هلك ووُلّي ابنه، قدّمه قاضيًا بمدينة مُلْكِه، وضاعف التّنويه به، فأجرى الخُطّة، على سبيل من السّداد والنزاهة. ثم لمّا وُلّي السلطان أبو سالم عمُّه، أجراه على الرسم المذكور، وهو الآن بحاله الموصوفة، مَفْخر من مفاخر ذلك الباب السلطاني على تعدُّدِ مفاخره، يحظى بكل اعتبار.

شعره: ثبتُ[١] في كتاب «نفاضة الجراب» من تأليفنا، عند ذكر المُدْعَى الكبير بباب ملك المغرب، ليلة ميلاد رسول الله ﷺ، وذِكْر مَنْ أنشد ليلتئذ من الشُّعَراء ما نصُّه:

وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضي، جُملة[٢] السّذاجة، وكرم الخلق، وطيب النفس، وخِدْن العافية، وابن الصَّلاح والعبادة، ونشأة القرآن، المُتحيّز إلى حِزب السلامة، المنقبض عن الغُمار، العَزوف عن فضول القول والعمل، جامع المحاسن، من عقل رصين، وطَلَب ممتع، وأدب نقّادة[٣]، ويدٍ صَناع، أبو القاسم بن أبي زكريا البَرْجي، فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة[٤]: [البسيط]

أصغى إلى الوَجْد لَمّا جَدَّ عاتِبُهُ ... صَبٌّ له شُغُلٌ عَمَّنْ يُعاتِبُهُ
لم يُغطِ لِلصبرِ مِنْ بعد الفراق يَدًا ... فَضَلَّ مَنْ ظَلَّ إرشادًا يخاطبُهُ
لولا النَّوى لم يَبِتْ حرّان[٥] مكتئبًا ... يُغالبُ الوَجْدَ كَتْمًا وهو غالبه
يستودعُ[٦] الليلَ أسرارَ الغَرام وما ... تُمْليه أشجانُهُ فالدَّمْعُ كاتبُه
لله عصرٌ بشَرْقيِّ الحِمى سَمَحَتْ ... بالوصل أوقاتُهُ لو عادَ ذاهِبُه
يا جيرةً أوْدَعوا إذ وَدَّعوا حُرَقًا ... يَصْلى بها مِنْ صَميم القلب ذائبُه[٧]
يا هل تُرى تَجْمَعُ[٨] الأيامُ فُرْقَتَنا ... كَعَهْدِنا أو يردُّ القلْبَ ساكبُه؟
ويا أُهَيْلَ وِدادي، والنَّوى قَذَفٌ ... والقُرْبُ قد أُبْهِمتْ دوني مذاهبُه
هل ناقضُ العهدِ بَعْدَ البُعْدِ حافِظُهُ ... وصادعُ الشَّمْل يوم الشِّعب شاعِبُه؟

---

(١) النص في نفاضة الجراب (ص ٣٨٢) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٢٠٤).
(٢) في نفاضة الجراب: «حملة».
(٣) في نفاضة الجراب: «نقاوة». وفي نفح الطيب: «وأدب ونقاوة».
(٤) القصيدة في نفاضة الجراب (ص ٣٨٢ ـ ٣٨٦) والكتيبة الكامنة (ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٨)، وجاء في الكتيبة الكامنة أنه قال هذه القصيدة عام ٧٠١ هـ.
(٥) في الأصل: «حيران» والتصويب من المصادر الثلاثة.
(٦) في الكتيبة: «يُوادع».
(٧) في الكتيبة: «نائبه».
(٨) في الكتيبة: «ترجع الأيامُ أُلفتنا... ويردّ... سالبُهُ».

ويا ربوعَ الحِمَى لا زلْتِ ناعمةً يبكي عهودَكِ مُضنى الجسمِ شاحبُه
يا مَن لقلبٍ مَعَ الأهواء مُنعطفٌ في كل أوْبٍ له شوقٌ يُجاذبه
يسمو إلى طَلَب الباقي بهمَّته والنفسُ بالمَيْلِ للفاني تُطالبُه
وفتنةُ المرءِ بالمألوف مُعْضِلَةٌ والأُنسُ بالإلْف نحو الإلْف جاذبُه
أبكي لعهد الصِّبا والشَّيْبُ يضحك بي[1] يا للرِّجال سَبَتْ جَدّي ملاعبُه
ولن ترى كالهوى أشجاهُ سالفُهُ ولا كوعدِ المُنى أحلاه كاذبُه
وهمَّةُ المرء تُغليه وتُرْخِصُه مَنْ عَزَّ نَفْسًا لقد عَزَّتْ مطالبُه
ما هان كسْبُ المعالي أو تناوُلُها بل هان في ذاك ما يَلْقاه طالبُه
لولا سُرى الفَلَكِ السَّامي لما ظهرتْ آثارُه ولما لاحَتْ كواكبُه
في ذمَّة الله رَكْبٌ للعلا رَكِبوا ظَهْرَ السُّرى فأجابتْهُمْ نجائبُه
يرمون عَرْضَ الفلا بالسَّير عن عُرُضٍ[2] طيَّ السِّجلِّ إذا ما جَدَّ كاتبه
كأنهمْ في فؤاد[3] الليل سِرُّ هوًى لولا الضِّرامُ لما خَفَّتْ جوانبه
شَدُّوا على لَهَبِ الرَّمْضاء وَطْأَتَهُمْ فغاصَ في لُجَّة الظَّلْماء راسبُه
وكَلَّفوا الليل من طولِ السُّرى شططًا فخلَّفوه وقد شابَتْ ذوائبه
حتى إذا أبْصَرُوا الأعلام ماثلةً[4] بجانِبِ الحُرَمِ المَحْمِيِّ جانبه
بحيث يأمنُ مَنْ مَوْلاه خائفُه من ذَنْبِهِ وينالُ القَصْدَ راغبه
فيها وفي طِيبةَ الغرَّاءِ لي أَمَلٌ يُصاحبُ القلبَ منه ما يُصاحبه
لم[5] أنس لا أنس أيامًا بظلِّهما سقَى ثراهُ عَميمُ الغَيْثِ ساكبُه
شوقي إليها وإن شَطَّ المزارُ بها شوقُ المقيم وقد سارتْ حبائبه
إنْ ردَّها الدهرُ يومًا بعد ما عَبِثَتْ في الشَّمْل منّا يداهُ لا نُعاتبُهُ[6]
مَعاهدٌ شَرُفَتْ بالمصطفى فَلَها مِنْ فَضْلِهِ[7] شرفٌ تَغلو مراتبُه
محمدُ المُجْتَبَى الهادي الشَّفيعُ إلى رَبِّ العبادِ أمينُ الوحي عاقبُه
أوْفى الورى ذممًا، أسماهُمُ هِممًا أعلاهُمُ كرمًا، جَلَّتْ مناقبه
هو المُكَمَّلُ في خَلْق وفي خُلُقٍ زَكَتْ حُلاهُ[8] كما طابَتْ مناسبه

---

(١) في الكتيبة: «لي».
(٢) في الأصل: «غرض» والتصويب من المصادر الثلاثة.
(٣) في الكتيبة: «سواد».
(٤) في نفاضة الجراب: «مائلة».
(٥) في الكتيبة: «ما أنس».
(٦) في نفاضة الجراب: «تعاتبه».
(٧) في الكتيبة: «من أجله».
(٨) في الكتيبة: «علاه».

عِـنـايـةٌ قـبـل بَـدْءِ الـخـلـق سـابـقـةٌ مِـنْ أجـلـهـا[١] كـان آتـيـه وذاهـبـه
جـاءتْ تُـبَـشِّـرُنـا الـرُّسْـلُ الـكـرامُ بـه كـالـصُّـبْـح تـبدو تـباشـيـرًا كـواكـبُـهُ[٢]
أخـبـارُه سِـرُّ عِـلْـمِ الأوّلـيـن وسَـلْ بِـدَيْـرِ تَـيْـمـاء مـا أبـداه راهـبُـه
تَـطابَقَ الـكـونُ فـي الـبُـشْرى بـمـولـده وطَـبَّـقَ الأرضَ أعـلامًـا تُـجـاوبـه
فـالـجـنُّ تـهـتـفُ إعـلانًـا هـواتـفُـه والـجـنُّ تـقـذفُ إحـراقًـا ثـواقـبُـه
ولـم تـزلْ عـصـمـةُ الـتـأيـيـد تَـكْـنُـفُـه حتى انجلى الحَقُّ وانزاحتْ شوائبه
سـرى وجـنـحُ ظـلامِ الـلـيـلِ مُـنْـسَـدِلٌ والنَّجْمُ لا يهتدي في الأفق ساربُه
يـسـمـو لـكـلِّ سـمـاء مـنـه مـنـفـردٌ عـن الأنـام وجَـبْـرائـيـلُ صـاحـبـه
لـمُـنْـتـهَـى وَقَـفَ الـرُّوحُ الأمـيـنُ بـه وامـتـاز قُـربًـا فـلا خَـلْـقٌ يُـقـاربـه
لِقابِ[٣] قوسين أو أدنى فما علمتْ نَـفْـسٌ بـمـقـدار مـا أولاه واهـبـه
أراه أسـرارَ مـا قـد كـان أوْدعـه فـي الـخَـلْـق والأمـرِ باديه وغـائـبـه
وآبَ والـبَـدْرُ فـي بـحـر الـدُّجـى غَـرِقٌ والـصُّـبْـحُ لـمَّـا يـؤبْ لـلشـرق آيـبُـه
فـأشـرقـتْ بـسِـنَـاه الأرضُ واتَّـبَـعَـتْ سُـبْـلَ الـنـجـاة بـمـا أبْـدَتْ مـذاهـبـه
وأقـبـلَ الـرُّشْـدُ والْـتـاحـتْ زواهـرُهُ وأدْبَـرَ الـغَـيُّ فـانـجـابـتْ[٤] غـيـاهـبـه
وجـاء بـالـذكـرِ آيـاتٍ مُـفَـصَّـلَـةً يُـهْـدى بـهـا مـن صِـراط الله لاحِـبُـه
نـورٌ مـن الـحِـكَـم لا تـخـبـو سـواطِـعُـه بَـحْـرٌ مِـنَ الـعـلْـم لا تَـفْـنـى عـجـائـبُـه
لـه مَـقـامُ الـرِّضـا الـمـحـمـودِ شـاهـدُهُ فـي مـوقـف الـحَـشْـرِ إذ نـابـتْ نـوائـبـه
والـرُّسْـلُ تـحـت لـواء الـحـمـد يَـقْـدَمُـهـا مـحـمـدٌ أحـمـدُ الـسـامـي مـراتـبُـهُ
لـه الـشـفَّـاعـاتُ مـقـبـولًا وسـائـلُـهـا إذا دهـى الأمْـرُ واشـتـدَّتْ مـصـاعـبـه
والحوض يَروي الصَّدى من عَذْب مورده لا يـشـتـكـي غُـلَّـةَ الـظـمـآن شـاربُـه
مـحـامـدُ الـمـصـطـفـى لا يـنـتـهـي أبـدًا تَـعْـدادُهـا، هـل يَـعُـدُّ الـقَـطْـرَ حـاسـبُـه؟
فَـضْـلٌ تَـكَـفَّـلَ بـالـدَّاريـن يُـوسِـعُـهـا نُـعْـمـى ورُحْـمـى فـلا فَـضْـلٌ يُـنـاسـبـه
حسبي التوسُّلُ منها بالذي سَمَحَتْ بـه الـقـوافـي وجَـلَّـتْـهـا غـرائـبـه
حَـيّـاه مـن صلواتِ الله صَـوْبُ حَـيًـا تُـحْـدى إلـى قـبـره الـزَّاكـي نـجـائـبـه

---

(١) في الكتيبة: «من أجله».
(٢) هذا البيت والأبيات التالية غير واردة في الكتيبة الكامنة.
(٣) القاب: المقدار، وما بين المقبض والسِّيَة من القوس. وفي القرآن الكريم: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، ومحيط المحيط (قوب).
(٤) انجابت: انجلت وانكشفت. محيط المحيط (جيب).

وخَلَّدَ اللهُ مُلْكَ المستعين به ... مُؤَيَّدَ الأمرِ منصورًا كتائبُهُ
إمامُ عدلٍ بتقوى اللهِ مشتملٌ ... في الأمر والنهي يُرْضيه يُراقبه
مُسَدَّدُ الحُكْمِ ميمونٌ نقيبتُه ... مُظَفَّر العزم صَدْقُ الرأي صائبه
مُشَمِّرٌ للتُّقى أذيالَ مجتهدٍ ... جَرّارُ أذيالِ سُحْبِ الجودِ ساحبه
قد أوسَعَتْ أَمَلَ الرَّاجي مكارمُه ... وأحْسَبَتْ[1] رغبةَ العافي رغائبه
وفاز بالأمن محبورًا مُسالِمُهُ[2] ... وباءَ بالخزي مقهورًا مُحاربه
كم وافدٍ آملٍ مَغْهُودَ نائلِهِ ... أثنى وأثْنَتْ بما أولى حقائبُهُ
ومُستجيرٍ بعزٍّ من مَثَابتِهِ ... عَزَّتْ مراميه وانقادتْ مآربه
وجاءه الدهرُ يَسْتَرضيه مُعتذرًا ... مُستغفرًا من وقوع الذنب تائبُه
لولا الخليفةُ إبراهيمُ لانبهمتْ ... طُرْقُ المعالي ونال المُلْكَ غاصبُه
سَمَتْ لنيل تراثَ المجدِ هِمَّتُهُ ... والملكُ ميراث مجدٍ وهو عاصبه[3]
يُنميه للعزِّ والعَلْيا أبو حسن ... سَمْحُ الخلائق محمودٌ ضرائبه
من آل يعقوبَ حَسْبُ الملك مفتخرًا ... بباب عزِّهمُ السامي تعاقُبُه
أطوادُ حِلْمٍ رَسا بالأرض مَحتِدُهُ ... وزاحمتْ[4] مَنْكِبَ الجوزا مناكبُه
تحفُّها من مَرينٍ أبحرٌ زَخَرَتْ ... أمواجُها وغمامٌ ثار صائبه
بكلِّ نجمٍ لدى الهَيْجاء مُلْتَهِبٌ ... يَنْقَضُّ وسط سماء النَّقْع ثاقبُهُ
أَكُفُّهم في دياجيها مَطالِعُه ... وفي نحور أعاديهم مَغاربُه
يا خيرَ مَنْ خَلُصَتْ لله نِيَّتُه ... في المُلْكِ أو خَطَبَ العلياءَ خاطبُه
جَرَّدْتَ والفتنةُ الشَّعواءُ مُلْبِسةٌ ... سيفًا من العَزْمِ لا تَنْبُو مضاربُه
وخُضْتَها غير هَيّابٍ ولا وَكِلٍ ... وقلّما أدرك المطلوبَ هائبه
صَبَرْتَ نفسًا لعُقْبى الصبر حامدةً ... والصبرُ مذ[5] كان محمودٌ عواقبه
فليهنِ دينُ الهُدى إذ كنتَ ناصرَه ... أمنٌ يواليه أو خوفٌ يجانبه
لا زال ملكَكَ والتأييدُ يخدمه ... تَقْضي بخفض مُناويه قواضبُه[6]

---

(١) أحسبت: أكثرت وأجزلت. لسان العرب (حسب).
(٢) في نفاضة الجراب: «مسالبُه».
(٣) في النفاضة والنفح: «غاصبه» بالغين المعجمة.
(٤) في الأصل: «وزاحتْ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفاضة والنفح.
(٥) في نفاضة الجراب: «منذ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر الأخرى.
(٦) القواضب: جمع قاضب وهو السيف القطّاع. محيط المحيط (قضب).

ودُمْتَ في نِعَمٍ تضفو[١] ملابسُها | في ظلِّ عزٍّ عُلًا تصفو مشاربُه
ثم الصلاة على خَير البريّةِ ما | سارتْ إليه بمشتاقٍ ركائبُه

ومن شعره ما قيَّده لي بخطه صاحبُ قلم الإنشاء بالحضرة[٢] المَرِينية، الفقيه الرئيس الصدر المتفنن أبو زيد بن خلدون[٣]: [الطويل]

صَحا القلبُ عمّا تعلمينَ فأقْلَعا | وعَطَّلَ من تلك المعاهدِ أرْبُعا[٤]
وأصبحَ لا يلْوي على حَدِّ منزلٍ | ولا يَتْبعُ الطّرفَ الخَليَّ المُودِّعا
وأضحى من السُّلوان في حِرْز مَعْقِلٍ | بعيدٍ على الأيام أن يَتَضَعضعا
يرد الجفانَ النُّجْلَ عن شُرُفاته | وإن لحظتْ عن كل أجْيَدَ أتْلَعا
عزيزٌ على داعي الغرام انقيادُه | وكان إذا ناداه للوَجْد أهْطَعا[٥]
أهابَ به للشَّيب أنصحُ واعظٌ | أصاخ له قلبًا مُنيبًا ومَسْمَعا
وسافر في أُفْق التفكّر والحجا | زواهرُهُ لا تبرحُ الدَّهر طُلَّعا
لعمري لقد أنْضَيْتَ عزمي تَطَلُّبًا | وقَضَّيتُ عُمْري رُقْيةً[٦] وتطلُّعا
وخُضْتُ عُبابَ البحرِ أخضرَ مُزْبِدا | ودُسْتُ أديمَ الأرض أغْبرَ أسْفَعا[٧]

ومن شعره حسبما قيّده المذكور[٨]: [المتقارب]

نَهاه النُّهَى بَعْدَ طولِ التجاربْ | ولاحَ له منهجُ الرُّشْدِ لاحِبْ[٩]
وخاطبه دَهْرُهُ ناصحًا | بألسنةِ الوَعْظِ مِنْ كلِّ جانبْ
فأضحى إلى نُصْحه واعيًا | وألْغَى حديثَ الأماني الكواذبْ
وأصبحَ لا تَسْتبيه[١٠] الغواني | ولا تَزْدريه حظوظُ المناصبْ

---

(١) في الأصل: «تضفوا». وفي نفاضة الجراب: «تصفو».
(٢) الحضرة المرينية: هي عاصمة بني مرين بالمغرب.
(٣) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٠٨).
(٤) الأَرْبُع: جمع ربع وهو الدار. لسان العرب (ربع).
(٥) أهْطَعَ: أسرع. لسان العرب (هطع). (٦) في النفح: «رِقْبَةً».
(٧) الأسفع: الأسوَد المائل إلى الحمرة. لسان العرب (سفع).
(٨) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٢٥١) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٢٠٨).
(٩) اللاحب: الطريق الواضح. محيط المحيط (لحب).
(١٠) في الكتيبة: «لا تشتهيه».

وإحسانه[١] كثير في النظم والنثر، والقصار والمطولات. واستعمل في السِّفارة إلى ملك مصر وملك قَشْتالة، وهو الآن قاضي[٢] مدينة فاس، نسيجُ وَحْدِهِ في السلامة والتّخصيص[٣]، واجتناب فضول القول والعمل، كان الله له.

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف ابن محمد الصَّريحي[٤]

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن زَمْرك. أصله من شرق الأندلس، وسكن سلفهُ رَبَض البَيّازين من غرناطة، وبه وُلد ونشأ، وهو من مفاخره.

حاله: هذا[٥] الفاضل صَدْرٌ من صدور طلبة الأندلس وأفراد نُجبَائها، مختصٌ[٦]، مقبول، هشٌّ، خَلوب، عذْب الفكاهة، حلو المجالسة، حَسن التوقيع، خفيف الروح، عظيم الانطباع، شَرِه المذاكرة، فَطِن بالمعاريض[٧]، حاضر الجواب، شُعْلة من شعل الذكاء، تكاد تَحْتَدم جوانبه، كثير الرقة، فكِه، غَزل مع حياء وحشمة، جوادٌ بما في يده، مشارك لإخوانه. نشأ عفًّا، طاهرًا، كَلِفًا بالقراءة، عظيم الدُّؤوب، ثاقب الذهن، أصيل الحفظ، ظاهر النُّبل، بعيدٌ مدى الإدراك، جيِّد الفهم، فاشتهر فضله، وذاع أرَجُه، وفشا خبره، واضطلع بكثير من الأغراض، وشارك في جُملة[٨] من الفنون، وأصبح مُتلقِّف كُرَة البحث، وصارخ الحَلْقة، وسابق الحَلْبة، ومظنّة الكمال. ثم ترقّى في دَرَج المعرفة والاضطلاع، وخاض لجَّة الحفظ، وركض قلم التَّقييد والتَّسويد والتعليق، ونصب نفسه للناس، متكلّمًا فوق الكرسي المنصوب، وبين[٩] الحَفْل المجموع، مُستظهرًا بالفنون[١٠] التي بَعُدَ فيها شأوُه، من العربية والبيان واللغة، وما يقذف به في لُج النقل، من الأخبار والتفسير. متشوِّفًا مع ذلك إلى السُّلوك، مصاحبًا للصُّوفية، آخذًا نفسه بارتياضٍ ومجاهدة، ثم عانى الأدب، فكان

---

(١) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٠٩). (٢) في النفح: «قاضي حضرة الملك».
(٣) في النفح: «والتخصّص».
(٤) ترجمة ابن زمرك في الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٢) ونثير فرائد الجمان (ص ٣٢٧) ونيل الابتهاج طبعة فاس (ص ٢٨٢) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٧) ونفح الطيب (ج ١٠ ص ٣) واسمه في الأزهار والنفح: «محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي».
(٥) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٤ ـ ٥) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٨ ـ ٩).
(٦) في النفح: «مختصر».
(٧) أي المعاريض من الكلام، وهو ما عرض به ولم يُصرّح.
(٨) في النفح: «كثير». (٩) في النفح: «وفوق المحفل».
(١٠) مستظهرًا بالفنون: متقوّيًا بها.

أمْلَك به، وأعمل الرّحلة في طلب العلم والازدياد، وترقّى[١] إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب، ثم عن السلطان، وعُرف في باب[٢] الإجادة. ولمّا جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس، واستقرَّ بالمغرب، أنُس به، وانقطع إليه، وكرَّ صحبة[٣] رِكابه إلى استرجاع حقّه، فَلُطف منه محلُّه، وخَصَّه بكتابة سرِّه. وثابت الحال، ودالت الدولة، وكانت له الطائلة، فأقرَّه على رَسْمه معروف الانقطاع والصّاغية، كثير الدالّة، مضطلعًا بالخُطّة خطًّا وإنشاءً ولسْنًا ونقْدًا، فحسُن منابُه، واشتهر فضلُه، وظهرت مشاركته، وحَسُنت وساطته، ووَسِع الناس تخلُّقه، وأرضى للسلطان حَمْله، وامتدّ في ميدان النثر[٤] والنظم باعُه، فصدر عنه من المنظوم في أمداحه قصائد بعيدة الشّأو في مَدَى الإجادة، [حسبما يشهد بذلك، ما تضمَّنه اسم السلطان، أيَّده الله، في أول حرف الميم، في الأغراض المتعددة من القصائد والميلاديّات، وغيرها[٥]]. وهو بحاله الموصوفة إلى الآن[٦]، أعانه الله تعالى[٧] وسدّده.

شيوخه: قرأ[٨] العربية على الأستاذ رُحلة الوقت[٩] في فنّها أبي عبد الله بن الفخّار ثم على إمامها[١٠] القاضي الشريف، إمام الفنون اللّسانية، أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني، والفقه والعربية على الأستاذ المفتي أبي سعيد بن لُب، واختصَّ بالفقيه الخطيب الصَّدْر المحدِّث أبي عبد الله بن مرزوق فأخذ عنه كثيرًا من الرِّواية، ولقي القاضي الحافظ أبا عبد الله المقَّري عندما قدم[١١] رسولًا إلى الأندلس، وذاكره، وقرأ الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزّواوي، وروى[١٢] عن جملة، منهم القاضي أبو البركات ابن الحاج، والمحدِّث أبو الحسن[١٣] ابن التلمساني، والخطيب أبو عبد الله ابن اللوشي، والمقرىء أبو عبد الله ابن بيبش. وقرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشّريف الرحلة الشهير أبي عبد الله العَلَوي التّلمساني، واختصّ به اختصاصًا لم يَخْلُ فيه من إفادة[١٤] مران وحُنكة في الصّناعة[١٥].

---

(١) في النفح: «فترقّى».
(٢) في النفح: «في بابه بالإجادة».
(٣) في النفح: «في صحبة».
(٤) في النفح: «النظم والنثر».
(٥) ما بين قوسين ساقط في النفح.
(٦) في النفح: «إلى هذا العهد».
(٧) كلمة «تعالى» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفح.
(٨) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٥).
(٩) في النفح: «رحلة إلى المغرب في...».
(١٠) كلمة «إمامها» ساقطة في النفح.
(١١) في النفح: «قدم من الأندلس».
(١٢) في النفح: «ويروي عن جماعة».
(١٣) في النفح: «أبو الحسين».
(١٤) في النفح: «استفادة».
(١٥) في النفح: «في الصنعة».

شعره: وشعره(١) مترامٍ إلى نَمط(٢) الإجادة، خفاجيّ(٣) النّزعة، كَلِفٌ بالمعاني البديعة، والألفاظ الصّقيلة، غزير المادة. فمنه في غرض النّسيب(٤):

رضيتُ بما تَقْضي عليّ وتحكُمُ ... أُهان فأقصى أم أصافي فأُكْرَمُ
إذا كان قلبي في يديك قيادُه ... فمالي عليك في الهوى أتَحَكَّمُ
على أن رُوحي في يديك بقاؤُه ... بوَصْلك يحيى أو بهجرك يُعْدَمُ
وأنت إلى المُشْتاق نارٌ وجنّة ... ببُعدك يَشْقى أو بقُربك يَنْعَمُ
ولي كَبِدٌ تَنْدى إذا ما ذُكِرتم ... وقلْبٌ بنيران الشوق يَتَضَرَّم
ولو كان ما بي منك بالبرق ما سَرى ... ولا استصحب الأنواء تبكي وتبْسُم
أراعي نجوم الأُفْق في اللّيل ما دَجَى ... وأقْرب من عينيّ للنوم أنجم
وما زلت أخفي الحبّ عن كل عادل ... وتُشْفي دموع الصَّب ما هو يَكتم
كَسَاني الهوى ثوب السَّقام وإنه ... متى صحّ حبُّ المرء لا شيء يُسْقم
فيا مَنْ له العقل الجميل سجيَّةً ... ومن جُود يمناه الحيا يُتَعلّم
وعنه يُروّي الناس كلّ غريبة ... تُخَطُّ على صفح الزمان وتُرسم
إذا أنت لم تَرحم خضوعي في الهوى ... فمن ذا الذي يُحني عليّ ويرحم
وحلمك حِلْمٌ لا يليق بمذنب ... فما بال ذنبي عند حِلْمك يعظُم؟
ووالله ما في الحيّ حيٌّ ولم ينل ... رضاك وعمَّته أياد وأنعم
ومن قبل ما طوّقتني كل نعمة ... كأنّي وإياها سِوار ومِغْصَم
وفتّحتَ لي باب القَبول مع الرضى ... يغضُّ الحيُّ طرفي كأني مُجرم
ولو كان لي نفس تخونك في الهوى ... لفارقتُها طوعًا وما كنت أندم
وأترك أهْلي في رضاك إلى الأسى ... وأُسلم نفسي في يديك وأسلم
أما والذي أشْقَى فؤادي في الهوى ... وإن كان في تلك الشّقاوة يَنْعُم
لأنت من قلبي ونزهةُ خاطري ... ومورد آمالي وإن كنتُ أُحْرَم

---

(١) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٠٩) و(ج ١٠ ص ٥).

(٢) في النفح: «هدف».

(٣) نسبة إلى ابن خفاجة، شاعر الطبيعة في الأندلس.

(٤) لم ترد هذه الأبيات في نفح الطيب.

ومن ذلك ما خاطبني به، وهي[١] من أول نظمه، قصيدةً مطلعها: [الطويل]

«أما وانصداع النُّور في[٢] مطلع الفجْر»

وهي طويلة[٣]. ومن بدائعه التي عَقُمَ عن مثلها قياسُ قيس، واشتهرت بالإحسان اشتهار الزُّهد بأُوَيس[٤]، ولم يحل مُجاريه ومُباريه إلّا بويح ووَيس، قوله في إعذار الأمير ولدِ سلطانه، المنوّه بمكانه، وهي من الكلام الذي عُنيت الإجادة بتَذْهيبه وتهذيبه، وناسب الحسن بين مديحه ونَسِيبه[٥]: [الطويل]

مَعاذَ الهوى أن أصْحَبَ القلْبَ ساليا ... وأن يُشْغَلَ اللوّامُ بالعَذْلِ باليا

دعانيَ أُعْطِ الحبَّ فضلَ مَقادتي ... ويقضي عليَّ الوَجْدُ ما كان قاضيا

ودون الذي رام العواذلُ صَبْوَةٌ ... رَمَتْ بي في شِعْبِ الغرام المراميا

وقلْبٌ إذا ما البرقُ أوْمضَ مَوْهِنًا[٦] ... قَدَحْتُ به زَنْدًا من الشوق واريًا

خليليَّ إني يومَ طارقةِ النَّوى ... شَقِيتُ بمن لو شاء أنْعَمَ باليا

وبالخَيْفِ يومَ النَّفر يا أمَّ مالك ... تخلّفْتِ[٧] قلبي في حِبالك عانيا[٨]

وذي أُشَرٍ عَذْبِ الثَّنايا مُخَصَّرٍ ... يُسَقِّي به ماءُ النعيم الأقاحيا

أَحُومُ عليه ما دَجا الليلُ ساهرا ... وأُصْبِحُ دون الوِرْد ظمآنَ صاديا[٩]

يُضيء ظلامُ الليلِ ما بين أضلُعي ... إذا البارقُ النَّجْديُّ وَهْنًا بَدا لِيا

أجِيرتَنا بالرَّمْلِ والرَّمْلُ منزلٌ ... مَضى العيشُ فيه بالشَّبيبةِ حاليا

ولم أرَ رَبْعًا منه أقْضى لُبانةً ... وأشْجَى حمَاماتٍ وأحْلى مَجانيا

سَقَتْ طَلَّهُ[١٠] الغُرُّ الغوادي ونَظَّمَتْ ... من القَطْر في جيد الغصون لآليا

---

(١) في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٥): «وهو». (٢) في النفح: «من».

(٣) وردت في الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٤ ـ ٢٨٨) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٦٤ ـ ١٦٦)، وعدد أبياتها ٥٩ بيتًا، ومطلعها:

لكَ اللهُ مِنْ فذِّ الجلالةِ أوْحَدِ ... تطاوعُه الآمالُ في النَّهْي والأمرِ

(٤) هو أويس القرني أحد أعلام الزهد في العصر الأموي، قُتل في وقعة صفين عام ٢٧ هـ. الأعلام (ج ٢ ص ٣٢) ومصادر حاشيته.

(٥) القصيدة في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٦) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٥٦).

(٦) المَوْهِنُ من الليل: نصفه أو بعد ساعة منه. لسان العرب (وهن).

(٧) تخلّفتِ: تركْتِهِ خلفي. لسان العرب (خلف).

(٨) العاني: الأسير. لسان العرب (عنا).

(٩) في الأصل: «ضاريًا» والتصويب من المصدرين.

(١٠) في الأزهار: «ظِلّهُ».

أَبُثُّكُمْ أني على النَّأي حافظٌ ... ذِمامَ الهوى لو تحفظونَ ذِماميا
أُناشدكُمْ والحُرُّ أوفى بِعَهْدِهِ ... ولن يَعْدَمَ الأحسانُ والخيرُ[١] جازيا

وورد[٢] على السلطان أبي سالم ملك المغرب، رحمة الله تعالى عليه، وَفْدُ الأحابيش بهديّة من ملك السودان، ومن جملتها الحيوان الغريب المسمّى بالزَّرافة[٣]، فأمر من يُعاني الشعر من الكُتّاب بالنظم في ذلك الغرض، فقال وهي من بدائعه: [الكامل]

لولا تألُّقُ بارقِ التِّذكار ... ما صابَ واكفُ دَمْعيَ المِدْرارِ
لكنه مهما تَعَرَّضَ خافقًا ... قَدَحَتْ يَدُ الأشواقِ زَنْدَ أُواري[٤]
وعلى[٥] المَشُوقِ إذا تذكّر معهدًا ... أن يُغْرِيَ الأجفانَ باستعْبار
أَمُذَكِّري غرناطةً حَلَّتْ بها ... أيدي السَّحاب أزِرَّةَ النُّوّار؟
كيف التخلُّصُ للحديث وبيننا[٦] ... عَرْضُ الفَلاةِ وطافحِ زخّار[٧]؟
وغريبةٍ قَطَعَتْ إليكَ على الوَنى ... بِيدًا تَبِيدُ بها هُمُومُ السَّاري
تُنْسيه طِيَّتَهُ[٨] التي قد أمَّها ... والرَّكْبُ فيها مَيِّتُ الأخبار
يَقْتادُها من كلّ مُشْتمِلِ الدُّجى ... وكأنما عيناه جذوةُ نار
خاضوا بها لُجَجَ الفَلا فتَخلّصَتْ ... منها خلوصَ البَدْر بَعْدَ سِرار
سَلِمَتْ بِسَعْدِكَ مِنْ غوائلِ مِثْلِها ... وكفى بِسَعْدِكَ حاميًا لِذِمار
وأتتْكَ يا مَلِكَ الزمانِ غريبَةٌ ... قَيْدُ النواظرِ نُزْهَةُ الأبْصار
مَوْشِيَّةُ الأعطافِ رائقةُ[٩] الحِلى ... رقَمَتْ بدائِعَها يَدُ الأقْدار
راقَ العيونَ أديمُها فكأنه ... روضٌ تَفَتَّحَ عن شقيقِ بَهارِ
ما بين مُبْيضٍّ وأَصْفَرَ فاقعٍ ... سال اللُّجَينُ به خلال نُضارِ
يَحْكي حدائقَ نَرْجِسٍ في شاهِقٍ ... تَنْسابُ فيه أراقمُ الأنهار

(١) في الأصل: «الخير والإحسان» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(٢) النص والقصيدة في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٠ ـ ١١) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٧٠ ـ ١٧٢).
(٣) في النفح: «الزرافة».
(٤) الأُوار: حَرُّ النار، واللَّهَبُ. محيط المحيط (أور).
(٥) في أزهار الرياض: «عَلَّ المشوقَ...».
(٦) في أزهار الرياض: «ودونها».
(٧) في نفح الطيب: «وطافحُ الزَّخّار».
(٨) الطِّيَّة: النيّة والوجهة. لسان العرب (طوى).
(٩) في أزهار الرياض: «رائعة».

وأنشد[١] السلطان في ليلة ميلاد رسول الله ﷺ، عَقِب ما فرغ من البنْية الشهيرة ببابه، رحمه الله تعالى: [الطويل]

تـأمّـلَ أطـلالَ الـهـوى فـتـألّـمـا — وسِيما الجَوَى والسُّقم منها تعلّما
أخُو زَفرةٍ هاجَتْ له منه[٢] ذكرةٌ — فأنْجَدَ في شِعْبِ الغرام وأتْهَما

وأنشد[٣] السلطان في وجهة للصَّيد أعملها، وأطلق أعِنَّة الجياد في ميادين ذلك الطِّراد وأرسلها قوله: [الكامل]

حَـيّـاكِ يـا دارَ الـهـوى مـن دارِ — نَـوْءُ الـسِّـمـاك بِـدِيـمَـةٍ مـدْرارِ
وأعـادَ وَجْـهَ رُبـاكِ طَـلْقًا مُشْرِقًا — مُـتَـضـاحِـكًـا بـمـبـاسـم الـنَّـوّار
أَمُـذَكِّـري دارَ الـصَّـبـابـةِ والـهـوى — حيثُ الشَّبابُ يرفُّ[٤] غُصْنَ نُضارِ
عـاطَـيْـتَـنـي عنـهـا الـحـديثَ كأنـما — عـاطَـيْـتَـنـي عـنـهـا كـؤوسَ عُـقـار
إيـهٍ وإن أذْكَـيْـتَ نـارَ صَـبـابـتـي — وقَـدَحْـتَ زَنـدَ الـشَّـوْقِ بـالـتَّـذْكـار
يـا زاجِـرَ الأظْـعـانِ وَهْـيَ مَـشُـوقَـةٌ — أشْـبَـهْـتَـهـا فـي زَفْـرة وأُوار
حَـنَّـتْ إلـى نَـجْـدٍ ولـيـسـتْ دارَهـا — وصَـبَـتْ إلـى هِـنْـدِيَّـةٍ والـقـار[٥]
شـاقَـتْ بـه بَـرْقَ الـحِـمـى واعـتـادهـا — طيفُ الكَرَى بمزارها المِزْوارِ[٦]

ومن شعره في غير المطولات[٧]: [الطويل]

لقد زادني وَجْدًا وأغرى بيَ الجَوى — ذُبالٌ[٨] بـأذيـالِ الـظَّـلام قد الـتـفَّـا
تُـشـيـرُ وراءَ الـلـيـلِ مـنـه بَـنـانَـةٌ — مُخَضَّبَةٌ والليلُ قد حَجَبَ الكَفّا
تَلُوحُ سِنانًا حين لا تَنْفَحُ الصَّبا — وتبدو[٩] سِوارًا حين تَثْني له العِطْفا
قَطَعْتُ به ليلًا يُطارحني الجَوى — فـآونـةً يـبـدو وآونـةً يَـخْـفـى

---

(١) النص مع بيتي الشعر في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٢).
(٢) في النفح: «له نارُ ذكرةٍ».
(٣) النص والقصيدة في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٢ ـ ١٣) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٠٣).
(٤) في أزهار الرياض: «يروق حُسْنَ نضارِ». (٥) في النفح: «هِنْدِيّة والغار».
(٦) رواية البيت في أزهار الرياض هي:
لـكـنـهـا شـامـتْ بـه بَـرْقَ الـحِـمـى — واعـتـادهـا طَـيْـفُ الـكَـرى بـمـزارِ
(٧) الأبيات في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٦) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٦٩).
(٨) الذُّبال: جمع ذُبالة وهي الفتيلة، وأراد المصباح الذي يصفه ابن زمرك في هذه الأبيات.
(٩) في النفح: «وتُبْدي».

إذا قلتُ لا يبدو أشالَ لسانَه وإن قلتُ لا يخبو الصَّبابة إذ لفا[١]
إلى أن أفاق الصُّبْحُ من غَمْرَةِ الدُّجى وأَهْدى نسيمُ الروضِ من طِيبه عَرْفا
لك اللهُ يا مِصْباحُ أشبَهْتَ مُهجتي وقد شَفَّها من لوعةِ الحُبِّ ما شفًّا

وممّا ثبت له في صدر رسالة[٢]: [الطويل]

أَزُورُ بقلْبي مَعْهَدَ الأُنْسِ والهَوى وأَنْهَبُ من أَيْدي النسيم رسائلا
ومَهْما سألْتُ البَرْقَ يَهْفو من الحِمَى يُبادره[٣] دَمْعي مجيبًا وسائلا
فياليتَ شِعْري والأماني تَعَلُّلٌ أَيَرْعى ليَ الحَيُّ الكِرامُ الوسائلا؟
وهل جِيرَتي الأولى كما قد عَهِدْتُهُمْ يُوالُون بالإحسانِ مَنْ جاء سائلًا؟

ومن أبياته الغراميات[٤]: [الوافر]

قيادي قد تَمَلَّكَهُ الغَرامُ ووَجْدي لا يُطاقُ ولا يُرامُ[٥]
ودمعي دُونَهُ صَوْبُ الغَوادي وشَجْوي[٦] فوق ما يَشْدو[٧] الحَمامُ
إذا ما الوَجْدُ لم يَبْرحْ فؤادي على الدُّنيا وساكِنِها السَّلامُ

وفي غرض يظهر من الأبيات[٨]: [الطويل]

ومُشْتملٍ بالحسنِ أحْوى مُهَفْهَفٍ قضى رجعُ طَرْفِي من محاسنه الوَطَرْ[٩]
فأبصرْتُ أشباهَ الرياضِ محاسنًا وفي خَدِّه جُرحٌ بَدا منه لي أَثَرْ
فقلْتُ لجلّاسي خذوا الحَذَرَ إنما به وَصَبٌ من أسهم الغُنْجِ والحَوَرْ
ويا وجنةً قد جاورتْ سيفَ لَحْظِهِ ومن شأنها تَدْمي من اللَّمح بالبَصَرْ
تَخَيَّلَ للعينينِ جُرحًا وإنما بَدا كَلَفٌ منه على صفحةِ القمرْ

---

(١) في النفح: «لا يخفى الضياء به كَفًا» وفي أزهار الرياض: «لا يخبو الضياءُ به كَفًا».
(٢) نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٦) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٧٠).
(٣) في أزهار الرياض: «يبادرُ به».
(٤) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٨) ونفح الطيب (ج ١٠ ص ١٦ - ١٧).
(٥) يُرام: يطلب. لسان العرب (روم).
(٦) في الكتيبة: «وشوقي».
(٧) في الكتيبة: «يُشكي». وفي النفح: «يشكو».
(٨) الأبيات في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٧).
(٩) الأحوى: الأسمر، ومن كان لونه لون صدإ الحديد. الوطر: الحاجة. لسان العرب (هوى) و(وطر).

وممّا يرجع إلى باب الفخر، ولَعَمْري لقد صدق في ذلك[١]: [الطويل]

ألائمة[٢] في الجود والجودُ شيمتي[٣] ... جُبِلْتُ على آثارها[٤] يوم مولدي
ذَريني فلو أنّي أُخَلَّدُ بالغنى ... لكنتُ ضنينًا بالذي مَلَكَتْ يدي

ومن مقطوعاته[٥]: [المتقارب]

لقد علمَ اللهُ أنّي امرؤ ... أُجَرِّرُ ثوبَ العَفافِ القَشِيبْ
فكم غَمَّضَ الدهرُ أجفانَهُ ... وفازتْ قِداحي بوصل الحبيبْ
وقيلَ رقيبُكَ في غَفْلَةٍ ... فقلتُ أخافُ الإلهَ الرَّقيبْ

وفي مدح كتاب «الشِّفا»[٦] طلبه الفقيهُ أبو عبد الله بن مرزوق عندما شرع في شرحه[٧]: [الطويل]

ومَسْرَى رِكابٍ للصَّبا قد وَنَتْ به ... نجائبُ سُحْبٍ للتراب نُزُوعُها
تسلُّ سيوفَ البرق أيدي حُداتها ... فتنهلُّ خوفًا من سُطاها دُمُوعُها

ومنها:

ولا مِثْلَ تعريفِ الشِّفاءِ حقوقَهُ ... فقد بانَ فيه للعقولِ جميعُها
بمرآةِ حُسْنٍ قد جَلَتْها يَدُ النُّهى ... فأوصافُهُ يَلْتاحُ فيه بَديعُها
نجومُ اهتداء، والمدادُ يُجنُّها ... وأسرارُ غَيْبٍ واليراعُ تُذِيعُها
لقد حُزْتَ فضلًا يا أبا الفضل شاملًا ... فيُجْزيك عن نصح البرايا شفيعُها
ولله مَمَّنْ قد تصدَّى لشرحه ... فلبّاه من غُرِّ المعاني مُطِيعُها
فكم مُجملٍ فَصَّلْتَ منه وحكمةٍ ... إذا كتَم الإدماجُ منه تُشِيعُها
محاسنُ والإحسانُ يبدو خلالها ... كما افْتَرَّ[٨] عن زَهر البِطاح ربيعُها

---

(١) البيتان في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٧) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٠).
(٢) في الأصل: «يا لائمي» والتصويب من نفح الطيب. وفي أزهار الرياض: «ولائمتي».
(٣) في النفح: «شيمة». (٤) في المصدرين: «إيثارها».
(٥) الأبيات في أزهار الرياض (ج ٢ ص ١٠) ونفح الطيب (ج ١٠ ص ١٧).
(٦) كتاب «الشفا» للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، واسمه كاملًا: «الشفا، بالتعريف بحقوق المصطفى».
(٧) البيتان في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٧ ـ ١٨).
(٨) افترّ: ابتسم. مختار الصحاح (فرر).

إذا ما أُصولُ المَرْءِ طابتْ أرُومَةً[(١)] فلا عجبٌ أن أَشْبَهَتْها فروعُها
بقَيتَ لأعلامِ الزمانِ تُنيلُها هُدًى ولأحداثِ الخطوبِ تَرُوعُها

ومما امتزج فيه نثره ونظمه، وظهر فيه أدبه وعلمه، قوله يخاطبني جوابًا عن رسالة خاطبت بها الأولاد، وهم مع مولانا أيّده الله بالمُنَكّب[(٢)]: [مخلع البسيط]

ما لي بِحَمْلِ الهوى يَدانِ من بعد ما أعوزَ التَّداني
أصبحْتُ أشكو إلى[(٣)] زمانٍ ما بِتُّ منه على أمانِ
ما بالُ عينيك تَسْجُمانِ والدَّمْعُ يرفضُّ كالجُمانِ؟
ناداك والإلْفُ عنك وانِ والبعدُ من بعده كواني؟[(٤)]
يا شُقّة[(٥)] النفس، مِنْ هوانِ لُجَج[(٦)] في أبْحُرِ الهوانِ
لم يَثْنني[(٧)] عن هواك ثانِ يا بُغيةَ القلبِ[(٨)] قد كفاني[(٩)]

يا جانحة الأصيل، أين يذهب قرصُك المذهّب، وقد ضاق بالشوق المَذْهب. أمسَت شموس الأنس محجوبة عن عيني، وقد ضرب البُعْد الحجاب بينها وبيني. وعلى كل حال، من إقامة وارتحال. فما مَحَلك من قلبي محلا بينها. وما كنت لأقنع من وجهك تخيُّلًا وشبيهًا. ومن أين انتظمت لك عقول التّشبيه واتّسقت، ومن بعض المواقع والشمس لو قطعت. صادك مَنْذور، وأنت تتجمل بثَوْبي زُور، وجيبُ الظلام على دينارك حتى الصباح مَزْرور، ووراءك من الغُروب غريمٌ لا يرحم، ومُطالب تُتقلّب منه في كفّه المطالب. ويا بَرْق الغمام من أي حجاب تبتسم، وبأي صبح تَرتسم، وأي غُفل من السحاب تَسِم. أليْسَت مباسم الثغور، لا تُنجد بأُفُقي ولا تغور؟ هذا وإن كانت مباسِمُك مُساعدة، والجوُّ مُلبس لها من الوُجوم شعارًا، فلطالما ضَحِكت فأبكت الغوادي، وعَقت الرائح والغادي. أعوذ بواشِم البروق، بنواسم الطَّفَل والشروق، ذوات الزائرات المتعددة الطُّروق، فهي التي قطعت وهادًا ونِجادًا، واهتدت بسيف الصباح من السحاب قُرابًا ومن البروق نجادًا، واهتدت خبر الذين أحبُّهم

(١) الأرُومة: الأصل. لسان العرب (أرم).
(٢) الأبيات في أزهار الرياض (ج ٢ ص ١٠ - ١١).
(٣) في الأصل: «من» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.
(٤) في الأصل: «كوانِ» والتصويب من أزهار الرياض.
(٥) في الأزهار: «يا شِقْوة». (٦) في الأزهار: «لَجَجْتُ».
(٧) في الأصل: «لم يُثْنِ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.
(٨) في الأصل: «القلوب» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.
(٩) في الأصل: «كفانِ» والتصويب من أزهار الرياض.

مُسْتَظرفًا مُسْتَجادًا، فعالها ولعلها، والله يَصِل في أرض الوجود نَهْلها وعلَّها، وأن يُبل ظَعِين الشوق بنسيمها البليل، وأن نعوضه من نار الغَلِيل، بنار الخَلِيل، وخير طبيب يداوي الناس وهو عليل. فشكواي إلى الله لا أشكو إلى أحد. هل هو إلّا فرد تَسْطو رياح الأشواق على ذُبالته، وعُمر الشوق قد شبَّ على الطَّوْق، ووهب الجمع للفرق ولم يقنع بالمشاهدة بالوصف دون الذَّوق. وقلب تُقسم أحشاؤه الوَجْد، وقَسَمٌ بالَه الغَوْر والنَّجد. وهموم متى وردت قُليْب القلب، لم تَبرح ولم تُعَد، فللّه الأمر من قَبْلُ ومن بعد.

أستغفر الله يا سيدي الذي يوقد أفكاري حلوُ لقائه، وأتنسَّم أرواح القبول من تلقائه، وأسأل الله أن يُديم لي آمالي بدوام بقائه. إن بَعُدَ مداه، قربت منَّا يَداه، وإن أخطأنا رِفْدُه أصَبْنا نَداه. فثمرات آدابه الزُّهر تجيء إلينا، وسحائب بَنانه الغُرّ تُصوِّب دوالينا أو علينا، على شَحَط هواه، وبُعد منتواه. ولا كرسالة سيدي الذي عمَّت فضائله وخصَّت، وتلت على أولياء نعمته أنباء الكمال وقصَّت، وآي قضى كل منها عجبًا، ونال من التِماح غُرَّتها واجْتِلاء صفحتها أرَبًا. فلقد كرُمت عنه بالاشتراك في بُنوَّته الكريمة نَسَبًا، ووصلْتُ لي بالعناية منه سببًا. تولّى سيدي خيرك من يتولّى خير المحسنين، ويُجزل شكر المُنعِمين. أما ما تحدَّث به من الأغراض البعيدة العَذِيبة، وأخبر عنه من المعاني الفريدة العجيبة، والأساليب المُطيلة، فيعجز عن وصفه، وإحكام رَصفه، القلمُ واللسان، ويعترف لها بالإبداع المستولي على أمد الإحسان البديع وحسَّان. ولقد أجهدت جِياد الارتجال، في مجال الاستعجال، فما سمحت القريحة إلّا بتوقُّع الآجال، وعادت من الإقدام إلى الكَلال. فعلمت أن تلك الرسالة الكريمة، من الحق الواجب على مَنْ قرأها وتأمّلها، أن لا يجري في لُجّة من ميادينها، ويديم يراع سيدي الإحسان كرينها، لكن على أن يفسح الرياض للقَصِي مدى، ويقتدي بأخلاق سيدي التي هي نُور وهُدى، فإنه والله يبقيه، ويقيه ممّا يتّقيه، بعد ما أعاد في شكوى البَيْن وأبدى، وتظلّم من البعد واستَعْدى، ورفع حكم العِتاب عن ذرات النّسيم والاقتِعاب، ورعى وسيلة ذكرها في مُحْكم الكتاب. وولّى فضله ما تولّى، وصرف هواه إلى هوى المولى أن صُور السعادة على رأيه، أيّده الله تُجلّى، وثمرة فكره المقدس، أيّده الله تَتحلّى. شكر الله له عن جميع نِعمه التي أولى، وحفظ عليه مراتب الكمال التي هو الأحقّ بها والأولى. وقد طال الكلام، وجَمَحت الأقلاح. ولسيدي وبركتي الفضل، أبقى الله بركته، وأعلى في الدارين درجته، والسلام الكريم يخصّكم، من مملوككم ابن زَمْرك، ورحمة الله وبركاته، في الخامس عشر لجمادى الأولى عام تسعة وستين.

وخاطبني كذلك، وهو من الكلام المرسل: أبو معارفي، ووليُّ نعمتي، ومعيد جاهي، ومقوِّمُ كمالي، ومَوْرد آمالي، ممن توالى نعمه عليّ، ويتوفّر قسمه لدي؛ وأبوء له بالعجز، عن شكر أياديه التي أحيت الأمل، وملأت أكُفَّ الرغبة، وأنطقت الحدائق، فضلًا عن اللسان، وأياديه البيض وإن تعددت، ومِنَنُه العميمة وإن تجدَّدت، تقصر عن إقطاع أسمى شرف المجلس في الروض الممطور بيانه. فماذا أقول، فيمن صار مؤثرًا إليّ بالتقديم، جاليًا صورة تشريفي، بالانتساب إليه في أحْسَن التقويم...[1] وإني ثالث اثنين أتشرف بخدمتها، وأسحب في أذيال نعمتها: [الطويل]

خليليّ، هل أَبْصَرْتُما أو سَمِعْتُما ... بأكرمَ مَنْ تَمْشي إليه عبيدُ؟

اللهمَّ، أوْزِعْني شكر هذا المُنعم، الذي أثْقَلَتْ نعمُه ظهر الشكر، وأنهضت كمال الحمد، اللهمّ أدم بجميع حياته، وأمتع بدوام بقائه الإسلام والعباد، وأمسك بيُمن آرائه رَمَق ثغر الجهاد. يا أكرم مسؤول، وأعزَّ ناصر. تفضّل سيدي، والفضل عادته، بالتعريف بما يقرُّ عين التطلُّع ويقنع غُلَّة التشوّف. ولقد كان المماليك لما مَثُلنا بين يدي مولانا، أيّده الله، لم يقدم عملًا عن السؤال ولا عن الحال، إقامةً لرسم الزيارة، وعملًا بالواجب، فإنني أرى الديار بطرفي، فعلى أن أرى الديار بعيني، وعلى ذلك يكون العمل إن شاء الله. وإن سأل سيدي شَكَر الله احتفاءه، وأبقى اهتمامه، عن حال المماليك، من تعب السفر، وكدِّ الطريق، فهي بحمد الله دون ما يظنّ. فقد وصلنا المُنَكّب تحت الحفظ والكلاءة، مُحْرزين شرف المساوقة، لمواكب المولى، يَمّن الله وُجْهته، وكتب عِصْمته، واستقرَّ جميعنا بمحلّ القَصَبة، وتاج أهبتها، ومهبّ رياح أجرائها، تحت النعم الثرّة، والأُنْس الكامل الشامل. قرّب الله أمد لقائكم، وطلع على ما يسرُّ من تلقائكم. ولما بلغنا هذه الطِّيَّة، وأنخنا المطيَّة، قمنا بواجب تعريفكم على الفور بالأدوار، ورفعنا مخاطبة المالك على الابتدا. والسلام.

مولده: في الرابع عشر من شوال ثلاثة وثلاثين وسبعمائة.

انتهى السفر السادس هنا، والحمد لله ربّ العالمين

* * *

(١) بياض في الأصل.

ومن السفر السابع المُفتَتَح بقوله
ومن الطّارئين منهم في هذا الباب

محمد بن أحمد بن محمد بن أبي خيثمة الجبّائي

سكن غرناطة، يكنى أبا الحسن.

حاله: كان مبرِّزًا في علوم اللسان نحوًا ولغةً وأدبًا، متقدمًا في الكتابة والفصاحة، جامعًا فنون الفضائل، على غَفْلة كانت فيه.

مشيخته: روى عن أبي الحسن بن سهل، وأبي بكر بن سابق، وأبي الحسن بن الباذِش، وأبي علي الغساني وغيرهم. وصحب أبا الحسن بن سِراج صحبة مُواخاة.

تواليفه: صنَّف في شرح غريب البخاري مصنَّفًا مفيدًا.

وفاته: توفي ليلة الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وخمسمائة.

محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد الإستجِّي الحميري

من أهل مالَقة، وأصله من إسْتِجَّة، انتقل سلفه إلى مالقة، يكنّى أبا عبد الله.

حاله: كان من جملة حَمَلة العلم، والغالب عليه الأدب، وكان من أهل الجلالة، ومن بيت علم ودين. أقرأ ببلده، وقَعَد بالجامع الكبير منه، يتكلّم على صحيح البخاري، وانتقل في آخر عمره إلى غَرناطة.

وقال الأستاذ[1]: كان من أبرع أهل زمانه في الأدب نظمًا ونثرًا.

شعره: منقولًا من خط الوزير الرَّاوية أبي محمد عبد المنعم بن سِماك، وقد ذكر أشياخه فقال: الشيخ المتفنن الأديب، البارع، الشاعر المُفْلق، قرأ على أشياخها، وأقْرَأ وهو دون العشرين سنة. وكانت بينه وبين الأستاذ المقرىء الشهير أبي العباس، الملقب بالوَزَعي، قرابة، وله قصيدة أولها: [الكامل]

ما للنسيم لدى الأصيل عليلا

ومنها:

حتى النسيم إذا ألّم بأرضهم   خلعوا عليه رقَّةً ونُحولا

---

(١) هو ابن الزبير، صاحب كتاب «صلة الصلة».

وكان يقول: كان الأستاذ أبو العباس يستعيدني هذا البيت ويقول: نعم أنت قريبي. وقَدِم على غرناطة، أظنّ سنة تسع وثلاثين وستمائة.

محنته: قال الأستاذ: جرى له قصة، نُقل بعض كلامه فيها، على بعض أحاديث الكُتّاب من جهة استشهاد أدبي عليه فيها، غالب أدبه، فأطلق عِنان الكلام، وما أكثر مما يطاق فيما يأنَفُه إدراكات تلك الأفهام، ولكل مَقام مقال، ومن الذي يَسْلم من قيل وقال. وكان ذلك سبب الانقطاع، ولم يُؤت من قصر باع، وانتقل إلى غرناطة، فتوفي في أثر انقطاعه وانتقاله.

شعره: من ذلك قوله في غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

قضوا في رُبى نَجْد ففي القلب مرساه ... وغَنُّوا إن ٱبْصَرْتُمُ[١] ثَمّ مغناه

أما هذه نجد أما ذلك الحِمَى؟ ... فهل عَمِيت عيناه أم صُمّ[٢] أُذْناه؟

دعوه يُوَفِّي ذِكْره باتّشامه ... ديون هواه قبل أن يتوفّاه

ولا تسألوه سَلْوةً فمن العَنا ... رياضة من قد شاب في الحب فَوْداه[٣]

أيحسَب من أَصْلَى فؤادي بحبِّه ... بأني[٤] سأسلو عنه، حاشاه حاشاه؟

متى غَدَر الصَّبُّ الكريم وفى[٥] له ... وإن أتلف القلبَ الحزين تلافاه

وإن حَجَروا مغناه وصرَّحوا به ... فإن معناه أحقُّ بمعناه

ويا سابقًا عِيس الغرام سيوفه ... وكلٌّ إذا يخشاه في الحبّ يخشاه

أرِحْها فقد ذابت من الوَجْد والسُّرى ... ولم يبق إلّا عَظْمها أو بقاياه

ويا صاحبي عُجْ بي على الخَيْفِ[٦] من مِنى ... وما للتعنّي[٧] لي بأنّي ألقاه

وعرِّج على وادي العقيق لعلّني ... أسائل عمَّن كان بالأمس مأواه

وقل لليالي قد سَلَفْن بعَيْشه ... وعُمْرٌ على رغم العذول قَطَعْناه

هل العود أرجوه أم العُمْر ينقضي ... فأقضي ولا يُقْضى الذي أتمنّاه؟

---

(١) في الأصل: «إن أبصرتم» وهكذا ينكسر الوزن، لذلك جعلنا همزة القطع همزة وصل.

(٢) في الأصل: «صُمّتْ» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) الفَوْد: معظم شعر الرأس مما يلي الأذن. محيط المحيط (فود).

(٤) في الأصل: «أني أسلو...» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) في الأصل: «وفّى» بتشديد الفاء، وكذا ينكسر الوزن.

(٦) الخَيْف: ما انحدر عن غلظ الجبل. محيط المحيط (خيف).

(٧) في الأصل: «وما التعني لي من بأني ألقاه» وكذا لا يستقر الوزن والمعنى معًا.

ومن شعره أيضًا، قوله، رحمه الله: [الطويل]

سَرَت من رُبى نَجْدٍ مُعطَّرة الرَّيّا ... يموت لها قلبي وآونة يَحْيا
تُمَسِّحُ أعطاف الأراك بليلة ... وتنشر كافورًا على التربة اللَّمْيا
وتَرْتدُّ[1] في حِجْر الرياض مريضة ... فتُحيي بطيب العَرْف من لم يكن يَحْيا
وبُشْرى[2] بأنفاس الأحِبَّة سُحْرَةً ... فيسرع دمعُ العين في إثْرِها جَرْيا
سقى[3] الله دَهرًا ذِكْره بنعيمه ... فكم لجفوني عند ذِكْراه من سُقْيا
نآني[4] مُحيّاه الأنيق وحُسْنُه ... ومن خُلُقي قد كنت لا أحمل النأيا
وبي رَشأ من أهل غرناطةٍ غدا ... يجود بتعذيبي ويبخل باللُّقْيا
رماني فصابني[5] بأول نظرة ... فيا عجبًا من علَّم الرَّشَأ الرَّمْيا
وبدَّد جسمي نوره وكأنه ... أشعَّةُ شمسٍ قابلتْ جسدي ملْيا
تصوَّر لي من عالم الحُسْن خالصًا ... فمن عجب أن كان من عالم الدنيا
وهمَّ بأن يَرْقى إلى الحُور جسمه ... فثَقَّلتُه كُتْبًا وحَمَّلتُهُ حَلْيا
إذا ما انثنى أو لاح أو جاح أوْ رنا ... سبَا القُضْبَ والأقمار والمِسْك والضيا
رعى الله دهرًا كان ينشر وصله ... برود طواها البين في صدره طيّا

مشيخته: ومما يشتمل على أسماء شيوخه، ويدلّ على تبحُّره في الأدب ورسوخه، إجازته أبا الوليد إسماعيل بن تبر الأيادي، وعندها يقال: أتى الوادي: [الخفيف]

إنّ لي عند كلِّ نفحةِ بستا ... نِ من الورد أو من الياسمينا
نظرةً والتفاتةً أتمنَّى ... أن تكوني حللْتِ فيما تَلينا

ما هذه الأنوار اللائحة، والنُّوار الفائحة، إني لأجد ريح الحكمة، ولا مُفَنِّد، وأرد مورد النعمة، ولا مُنْكد، أمِسْكُ دارين يُنهب، أم المَنْدل الرطب في الغرام المُلْهب، أم نَفَحت أبواب الجنّة ففاح نسيمها، وتوضحت أسباب المِنَّة فلاح

(١) في الأصل: «ومرتد».
(٢) في الأصل: «وبشرت».
(٣) في الأصل: «سقني» وهكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «ملني». ونآني محيّاه: بعد عني.
(٥) في الأصل: «فأصابني» وهكذا ينكسر الوزن.

وسِيمُها: [الطويل]

مُحيَّاك أم نور الصباح تبسَّما ... وريّاك أم نور الأقاحي[١] تنسَّما
فمن شمَّ من ذا نفحةً رقَّ شيمةً ... ومن شام من ذا لمحةً راق مَبْسِما؟

أجل خُلق الإنسان من عَجَل. قال رسول الله ﷺ: لتفهموا أسرار الحِكَم وتعوا، وإذا رأيتم رياض الجنّة فارتَعُوا، يعني مجالس الذِّكر، ومأنَس النظر والفكر، ومطالع المناظرة، ومواضع المحاضرة، فهذه بتلك، وقد انتظمت الجواهر النبوية في سِلْك، ولهان حِمَى للعطارة وطيس، بين مِسْك المداد وكافور القراطيس. فيا أيها المعلم الأوحد، والعالم الذي لا تنكر أمامته ولا تُجحد، حوَّمت على علم الملوك، ولزمْت بحلم طريق الحكم المسلوك، فلم تعد أملَ الحكماء، ولم تَعُد إلّا بعمل العلماء، وقد قال حكيمهم الفاضل، وعظيمهم الذي لا مُناظر له ولا مُفاضل: إذا خدمتَ الأمراء فكن بين استلطاف واستعطاف، تَجْن المعارف والعوارف دانية القِطاف، فتُعلِّمهم وكأنك تتعلَّم منهم، وترويهم وكأنك تروي عنهم، فأجريتَ الباب، وامترَيتَ من العلم اللُّباب، ثم لم تُبعد، فقد فعل النحويون ذلك في يَكْرُم، ويَعِد، ويَعِزُّ، ولا غرو أن تقرأ على مَن هو دونك، وتَسْتجيز الإجازة عن القوم العظام يقصدونك. فهذا رسول الله ﷺ، قد أمره الله بأن يقرأ على أُبيّ بن كعب، فهل في حيِّ الخواطر الذكية من حيّ؟ فقال له، رضي الله عنه: الله أمرك أن تقرأ عليّ، والعناية الرّبانية تُنادي إليّ إليّ، وإذا قال لي: من أحبُّ مولاي، واستعار لزينته حُلاي:

فما على الحبيب من اعتراض ... وللطَّبيب تصرُّفٌ في المِراضِ[٢]
قد يَرْحل المرء لمطلوبه ... والسبب المطلوب في الرَّاحلِ[٣]

عجتَ متواضعًا، فما أبرمتَ في معاجك، ولا ظلمت في السؤال نعجته إلى نعاجك، فإنه سرُّ الله، لا يحلُّ فيه الإفشاء، وحكمةُ الله البالغة، والله يؤتي الحكمة من يشاء، وإن لبِست من التواضع شعارًا، ولبست عن الترفع تنبيهًا على السِّر المكتوم وإشعارًا، فهذه الثريّا من العجائب إذا ارتفعت في أعلى صعودها، وأسمى راياتها الخافقة وبنودها، نهايةُ وجودها الحسّي عدم، وغاية وصْفِها الشَّبهي أن تُشَبَّه بقدم، فإذا همَّت بالركوع، وشمَّت في المغرب ريح الوقوع، كان لها من السُّمو القِدْح

(١) في الأصل: «الأقاحِ».
(٢) المِراض: جمع مَرِض وهو ذو المَرَض. محيط المحيط (مرض).
(٣) هذا البيت على البحر السريع.

المُعَلَّى، وعادت قرطًا تتزيّن به الآذان وتتحلّى:

وفي الشرق كأسٌ وفي مغاربها قِرْطٌ وفي وسط السماء قَدَمُ

هذه آثار التواضع مَتْلُوَّة السُّوَر، مجلُوَّة الصُّور، وكان بعضهم إذا أعطى الصَّدقة، يعطيها ويده تحت يد السَّائل، وهكذا تُفْهم المسائل. فإنه لما سَمِع النبوة تقول: اليد العليا خير من اليد السُّفلى، أراد أن يؤثر المقام الأعلى. ولما أعطى أبو بكر، رضي الله عنه، ماله كله، أعطى عُمر، رضي الله عنه، النصف من المال، لا احتياطًا على ماله، ولكن ليقف لأبي بكر في مقام القصور عن كماله، تَفْويضًا وتسليمًا، وتنبيهًا لمن كان له قَلْب وتعليمًا. ورؤي الدَّراقطني، رحمه الله عليه، يحبس أباه بركابه، فلا يُنكر عليه، فقيل له في ذلك، فقال: رأيته يبادر إلى فضيلة، فكرهت مخالفته: [البسيط]

فوق السماء وفوق الزُّهْر ما طلبوا وهُمْ إذا[1] ما أرادوا غايةً نزلوا

وإلى هذا وصل الله حِفْظك، وأجزك من الخيرات حظَّك، فإنه وصلتني الكُرّاسة المباركة، الدَّالّة على التفنن في العلوم والمشاركة، فبينما أنا أتلو الإجازة، وأريق صدور البيان وإعجازه، أُلقي إليَّ كتاب كريم، إنه من أبي الوليد، وإنه بسم الله الرحمٰن الرحيم، فحِرْت، ووقفت كأنني سُحِرْت، وقلت: ساحران تظاهرا معًا، وأحدهما قاتلي، فكيف إذا اجتمعا: [الطويل]

فلو كان رُمحًا واحدًا لاتَّقيته ولكنه رمحٌ وثانٍ وثالثُ
ومن لَعِبت بشيمته المثاني فأحْرَى أن تطير به المثالثُ[2]

وطار بي الشوق كلّ مطار، وقرأت سماء فكرتي سورة الانفطار، وكِدْت أصعد إلى السماء توقُّدًا، واختلط بالهواء تودُّدًا: [الكامل]

كانت جواهرنا أوائل قبل ذان فالآن صارت بالتحول ثوانْ
وُجدت وراء الحسن وهي كثيفة فوجودهن الآن في الأذهانْ

ولم يكف أن بُهِرت بالحُسْن الخَلوب، حتى أُمرت أن أنظم على ذاك الأسلوب، وبالحريّ لذلك النثر البديع، الحريريّ أو البديع، ولذلك النَّظم العجيب، المُتنبي أو حبيب، ولذلك التصوف الرقيق، الحارث بن أسد ذي التحقيق. وأما الحديث، فما لك تقطع تلك المسالك، إلّا أن العربية ليس لأحد معه فيها دليل،

(١) في الأصل: «وإذا» وكذا ينكسر الوزن. (٢) هذا البيت على البحر الوافر.

أستغفر الله إلّا للخليل، لكن أصول الدين مجريَّة، تركت تلك الميادين. هنّاك الله جَمْع كل مَنْقَبة جليلة، فترى الفضيلة لا تردّ فضيلة، فمر الرديف وقد رَكِب غضنفرًا، أو المُدّعي صفة فضل، وكلُّ الصَّيد في جوف الفَرا[1]. من يُزحم البحر يغرق، ومن يُطعم الشجر يَشْرُق. وهل يُبارى التوحيد بعمل، أو يُجارى البُراق بجمل؟ ذلك انتهى إلى سِدْرة المنتهى، وهل انبرى ليلطم خدَّه في الثرى؟ لا تقاس الملائكة بالحدّادين، ولا حُكماء يونان بالفدادين. أفي طريق الكواكب يُسلك، وعلى الفَلَك الأثير يُستملك؟ أين الغَدُ من الأمس، وظُلمة الغَسَق من وضَح الشمس؟ ولولا ثقتي بغمام فضلك الصَّيِّب، لتمثلت لنفسي بقول أبي الطيب[2]: [الطويل]

إذا شاء أن يَلْهُو بِلِحْيَةِ أَحْمَق ... أراه غُباري ثم قال له ٱلْحَقِ[3]

فإن رضيت أيها العلم، فما لجُرح إذا أرضاكم. ألم تر كيف أُجاري أعْوج بمغرب أهْوج وأُجاري ذا العِقال بجحش في عِقال؟ ظهر بهذه الظُّلمة، ذلك الضياء، وبضدِّها تتبين الأشياء. وما يزكو بياض العاج حتى يُضاف إلى سواد الأبنوس. ألفاظ تذوب رقَّة، وأغراض تملك حُبَّ الكريم ورِقَّة الزَّهر، والزَّهر بين بَنان وبيان، والدرُّ طَوْع لسان وإحسان: [الوافر]

وقالوا ذاك سحرٌ بهاليٌّ[4] ... فَقُلْتُ وفي مكان الهاءِ باءُ

وأما محاسن أبي الوليد، فيقصر عنها أبو تمام وابن الوليد: [المتقارب]

معانٍ لبِسْن ثياب الجمال ... وهزَّت لها الغانيات القُدُودا

كَسَوْن عَبِيدًا ثياب عَبيد ... وأضحى لبيدُ لديها بليدا

وكيف أعجب من إجرائك لهذه الجياد، وأياديك من إياد؟ أورِثْت هذه البراعة المساعدة، عن قِسِّ بن ساعدة؟ أجدُّك أنت الذي وصف رسول الله ﷺ، فقال: كأني أنظر إليه في سوق عكاظ على جَمَل أوْرَق، وهو يقول أيها الناس: مطرٌ ونبات، وآباء وأمهات، إلى قوله: [مجزوء الكامل]

في الذاهبينَ الأوّليـ ... ـنَ مِنَ القرونِ لنا بصائرْ

---

(١) قوله: «كلّ الصَّيد في جوف الفَرا» مثلٌ يضرب لمن يُفَضَّل على أقرانه. والفَرا: الحمار الوحشي، وجمعه فِراء. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ١٣٦).

(٢) هو بيت من قصيدة مؤلفة من ٤٣ بيتًا، وهو في ديوان المتنبي (ص ٣٦٢).

(٣) يقول: إذا أراد سيف الدولة أن يسخر بأحمق من الشعراء أراه أثر المتنبي، ثم أمره أن يلحق به، لأنه لا يقدر على ذلك. والغبار واللحاق استعارة من سباق الخيل.

(٤) في الأصل: «بأهلي».

لـــمّـــا رأيـــتُ مـــواردَ　　　لـلـمـوت لـيـس لـهـا مـصـادرْ
أيـــقـــنـــتُ أنّـــي لا مـــحـــا　　　لـة حـيـث صـار الـقـوم صـائـرْ

إيه بغير تمويه. رجَع الحديث الأول إلى ما عليه المُعَوَّل. سألْتَني، أيها السيد الذي يجب إسعافه، أن أُرغم أنفَ القلم حتى يجري رُعافه، وأن أكَحِّل جُفون الأوراق بمداد الأقلام، وأن أجمع الطُّروس والأمِدَّة[١]، بين إصباح وإظلام، وأطرِّز بياض السُّوسن بخضرة الآس، وأبرز العلم الأبيض تحت راية بني العباس، فقلت مبادرًا مُمْتَثِلًا، وجُلْت في ميدان الموافقة متمثِّلًا: [البسيط]

لبَّيك لبَّيك أضعافًا مضاعفةً　　　إنّي أجَبْتُ ولكنْ داعيَ الكرمِ
أتى من المجد أمرٌ لا مَرَدَّ له　　　أمشي على الرأس فيه لا على القَدَم

دعاء والله مُجاب؛ ونداء ليس دونه حِجاب: [المتقارب]

كـتـبـت ولـو أنـي أسـتـطـيـع　　　لإجـلال قـدرك بـيـن الـبَـشَـرْ
قَـدَدْتُ الـبَـرَاعـة مـن أنـمـلـي　　　كـأنّ[٢] الـمِـداد سـواد الـبَـصَـرْ

نعم أجزتُ، سيدي الفقيه الأجل، الخطيب الأكرم، العالم العَلَم، الأوحد الأكمل، الحسيب الأحفل الأطول، أبا الوليد بن الفقيه الأجل، المعظم الموقر، المكرم المبارك الأظهر، المرحوم أبي زكريا يحيىٰ بن سعيد بن قتري الأيادي القَرْموني، ونبيه السّادات النجباء المباركين، أبا القاسم أحمد، وأبا إسحٰق إبراهيم، وأبا الحسين بتزيا. ونعمت الأغصان والشجرة، والأفنان والثمرة، أقرّ الله بهم أعْيُن المجد، ولا زالوا بدورًا في مطالع السَّعد، ولا برحوا في مكارم يجنون نُوَّارها، ويَجْتَلون أنوارها، وتفيض عليهم يد العناية الإلـٰهية، نهرها الكَوْثري ونهارها، جميع ما رويتُه قراءة وسماعًا، وإجازة ومناولة، من العلوم على اختلافها، وتباين أصنافها، بأي وجه رويته، وعلى أي وصف تقلّدتُه ودريتُه، وكذلك أجزْتهم جميع ما قلته وأقوله، من مَسْطور ومَرْسوم، ومنثور ومنظوم، وتصرَّفت فيه من منقول ومفهوم، وقصائدي المسماة بالرُّوحانيات، ومُعَشَّراتي الحبيبات، وما نظمته من الوَتَريات، وشرحي لشعر أبي الطيب المسمى بـ«ظهور الإعجاز بين الصدور والأعجاز»، وكتابي المسمى «شمس البيان في لَمْس البَنان»، والزهرة الفائحة في الزُّهرة اللائحة، ونَفح

(١) الطروس: جمع طِرْس وهو الصحيفة. والأمِدّة: سَدى الغَزْل والمِساك في جانبي الثوب إذا ابْتُدِىء به، والمراد هنا: الحبر، مفردها: مِداد. لسان العرب (طرس) و(مدد).
(٢) في الأصل: «وكأن» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفت الواو.

الكمامات في شرح المقامات، واقتراح المتعلمين في اصطلاح المُتَكلمين، وكتاب التَّصَوُّر والتصديق، في التوطية لعلم التحقيق، ورَقْم الحُلل، في نظم الجمل، ومفتاح الإحسان، في إصلاح اللسان. وما أنشأته من السلطانيات نظمًا ونثرًا، وخطابة وشعرًا. والله تعالى يجعل أعمالنا خالصة لوجهه بمنّه وكرمه، فليقل الفقيه الأجل، وبنوه الأكرمون، رضي الله عنهم، أنبأنا وأخبرنا وحدّثنا، أو ما شاءوا من ألفاظ الرواية، بعد تحري الشروط المرعيّة، في الإجازات الشرعية، وإن ذهبوا حفظ الله كمالهم، وأراهم في الدارين آمالهم، إلى تَسْمية من لي من المشايخ، قدّس الله أرواحهم، وزحزح عن النار أشباحهم:

فمنهم الأستاذ الخطيب الكبير، العالم الفاضل الجليل، البَقيّة الصالحة، آخر الأدباء، وخاتمة الفضلاء، أبو جعفر أحمد بن يحيىٰ بن إبراهيم الحميري القرطبي الدّار، رضي الله عنه. قرأت عليه بقرطبة شعر أبي الطيب قراءة فهم لمعانيه، وإعراب لألفاظه؛ وتحقيق للغته، وتنقير عن بديعه. وكذلك قرأت عليه أكثر شعر أبي تمام. وسمعتُ عليه كتاب الكامل لأبي العباس المبرّد، ومقامات التميمي، كان يرويها عن مُنْشئها، وكانت عنده بخط أبي الطاهر. وتفقهت عليه «تَبْصِرة الضمري». وكان على شياخته، رحمه الله، ثابت الذهن، مُقبل الخاطر، حافظ المُعَيّا: [الوافر]

يـروع رَكـانـةً ويـذوب ظَـرْفـا فـمـا تـدري أشـيـخ أم غـلامُ

نأتيه بمقاطيع الشعر فيصلحها لنا. ويقف على ما نستحسنه منها، فنجده أثْبَت منّا، ولقد أنشدته يومًا، في فتًى مفقود العين اليسرى: [الكامل]

لم تزو إحدى زهرتيه ولا انثنت عـن نـورهـا وبـديـع مـا تـحـويـهِ
لـكـنـه قـد رام يُـغـلق جَـفْـنـه لـيـصـيـبَ بـالـسَّـهـم الـذي يـرمـيـهِ

فاستفادهما وحفظهما، ولم يزل، رحمه الله، يعيدهما مستحسنًا لهما، متى وقع ذكرى. وكان يروي عن الإمام المازَري بالإجازة، وعن القاضي أبي مروان بن مَسرّة، وعن الأستاذ عباس، وعن أبي عبد الله بن أبي الخصال.

ومنهم الفقيه الأجل العالم العَدْل، المحدّث الأكمل، المتفنن، الخطيب، القاضي أبو محمد بن حَوْط الله. سمعت عليه كتبًا كثيرة بمالقة، بقراءة الفقيه الأستاذ أبي العباس بن غالب، ولقيته بقرطبة أيضًا، وهو قاضيها. وحدَّثني عن جَدِّي، وعن جملة شيوخ، وله برنامج كبير، وأخوه القاضي الفاضل أبو سليمان أيضًا منهم.

ومنهم الفقيه الأجلّ، العالِم العَلَم، الأوحد، النحوي، الأديب المتفنن، أبو علي عمر بن عبد المجيد الأزدي، قرأت عليه القرآن العزيز مفردات، وكتاب الجُمل، والإيضاح، وسيبويه تفقهًا، وكذلك الأشعار السِّتة تفقهًا، وما زلت مواظبًا له إلى أن توفي رحمه الله. وكان فريد عصره في الذكاء والزكا. ولم يكن في حَلْبة الأستاذ أبي زيد السُّهيلي أنجَب منه على كثرتهم. وقد قال الأستاذ أبو القاسم السهيلي للإمام المنصور، رضي الله: هو أقْعَدُ لكتاب سيبويه منّا. وقال لي يومًا، وقد نظر إلى طالب يُصغي بكليته إلى ثان، فقلت: ماذا؟ فقال: إنَّ حُبَّ الشيء يعمي ويصمّ، فقلت له: ويعيد الصُّبح ليلًا مُدْلَهِمّ، فاستحسنه.

ومنهم الفقيه الأجلّ، الأديب الأريب الكامل، اللغوي الشهير، أبو علي ابن كسرى المَوْري، قريبي ومُعَلِّمي. وكان من طلبة أبي القاسم السُّهيلي، وممن نبغ صغيرًا. وهو الذي أنشد في طفولته السيد أبا إسحٰق الكبير بإشبيلية: [الكامل]

قسما بحُمْصَ[1] وإنه لعظيمُ　　فَهْيَ المقامُ وأنتَ إبراهيمُ

وكان بالحَضْرة الأستاذ أبو القاسم السهيلي، فقام عند إتمامه القصيدة، فقال: لمثل هذا كنت أُحسِيك الحسا، ولمثل هذا كنت أواصل في تعليمك الإصباح والإمسا. وقد أنشد هذا لأمير المؤمنين أبي يعقوب[2]، رضي الله عنه: [الطويل]

أمعشَر أهلِ الأرض بالطُّولِ والعَرْض　　بهذا أنادي في القيامة والعرضِ
فقد قال الله فيك ما أنت أَهْلُه　　فيقضى بحكم الله فيك بلا نَقْض
فإياك يُغنى ذو الجلال بقوله　　كذلك مكَّنّا ليوسف في الأرض

ومنهم الفقيه الأجل، العالم المحدّث، الحافظ الفاضل المؤثر، السيد أبو محمد القرطبي، قرأت عليه القرآن بالروايات مفردات، وتفقهت في الجمل والأشعار، وأجازني جميع ما رواه. وكذلك فعل كل واحد ممن تقدّم ذكره. وكان، رحمه الله، آخر الناس علمًا ونزاهة وحسن خلق، وجمال سَمْت وأبهة ووقار، وإتقان وضبط، وجودة وحفظ.

---

(١) حمص هنا هي إشبيلية، وقد سميت إشبيلية بحمص لشبهها بها.
(٢) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، وقد حكم المغرب والأندلس من سنة ٥٥٨ هـ إلى سنة ٥٨٠ هـ. ترجمته في البيان المغرب ـ قسم الموحدين (ص ٨٣، ١٣٠) والحلل الموشيّة (ص ١١٩).

ومنهم الفقيه الأجل، الحاج الفاضل، الشَّهيد في كائنة العِقاب[١]، المحدِّث الورع، الزاهد الطاهر، أبو عبد الله بن حسين بن صاحب الصلاة الأنصاري، وعليه كان ابتدائي للقراءة، وكان مبارك التعليم، حسن التفهيم، شديد التواضع.

ومنهم الفقيه الأجل الفاضل الورع، المحدث، الحاج المُلْهم، المجاب الدعوة، الميمون النَّقيبة، الأوَّاب، أبو الحجاج بن الشيخ، رضي الله عنه. وهذا الكتاب على الإطالة مني، ولكن القرطاس فَنِي، والسلام الأتمُّ عليكم، ورحمة الله وبركاته. قال ذلك، وكتبه العبد المعترف بذنبه، الراجي رحمة ربّه، محمد بن عبد الله الحميري ثم الإسْتِجي، في أواسط شعبان المكرم من عام أحد وأربعين وستمائة.

وفاته: من خطِّ الوزير أبي محمد عبد المنعم بن سماك، قال: قَدِم غرناطة، أظنّ سنة تسع وثلاثين وستمائة، وشكى علّة البطن مدة ثمانية أشهر بدار أبي، رحمه الله، مرَّضناه الثلاثة الأخوة، إلى أن توفي، رحمه الله، ودفن بمدفنه، مَغْنى الأدب، بروضة الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك.

محمد بن أحمد بن علي الهوّاري[٢]

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن جابر، من أهل ألمريّة.

حاله: رجل[٣] كفيف البصر، مدلٌّ على الشعر، عظيم الكفاية والمِنّة على زَمانَتِه[٤]. رحل إلى المشرق، وتظافر[٥] برجل من أصحابنا يعرف بأبي جعفر الإلبيري، صارا رُوحين في جسد، ووقع الشِّعر منهما بين لَحْيَي أسد، وشمَّرا[٦] للكُدْية، فكان وظيف الكفيف النَّظم، ووظيف[٧] البصير الكَتْب، وانقطع الآن

(١) كانت وقعة العقاب في منتصف شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ، بين الناصر أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف الموحدي وجيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن، وكانت الهزيمة فيها للمسلمين، فكانت السبب في هلاك الأندلس. البيان المغرب ـ قسم الموحدين (ص ٢٦٣) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٤٩).

(٢) ترجمة ابن جابر الهواري في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٥٥).

(٣) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٥٥).

(٤) الزمانة: العاهة الدائمة. لسان العرب (زمن).

(٥) في النفح: «وتظاهر».

(٦) في النفح: «وشمَّر للعلم وطلبه، فكان وظيفة الكفيف...».

(٧) في النفح: «ووظيفة».

خبرهما. وجرى ذكره في الإكليل بما نصُّه[١]: محسوبٌ من طلبتها الجِلّة، ومعدود فيمن طلع بأفقها من الأهِلَّة، رحل إلى المشرق، وقد أصيب ببصَره، واستهان في جنب الاستفادة[٢] بمشقَّة سفره، على بيان عذره، ووضوح ضُرِّه.

شعره: وشعره كثير، فمنه قوله[٣]: [الطويل]

سلو مَسَرَّ[٤] ذاك الخالِ في صفحة الخدِّ ... متى رَقَمُوا بالمِسْكِ في ناعم الوَرْدِ

ومَنْ هزَّ[٥] غُصْنَ القَدِّ منها لِفتْنتي ... وأوْدَعَهُ رُمَّانَتَيْ ذلك النَّهْدِ

ومَنْ مَتَّعَ[٦] القُضْبَ اللّدانَ بوصلها[٧] ... إلى أن أعزَنَ[٨] الحسنَ من ذلك القَدِّ

فتاةٌ تفُتُّ القلبَ مني بِمُقْلَةٍ ... له رِقَّةُ الغُزْلان في سَطْوَة الأسْد

تَمَنَّيتُ أنْ تُهدي إليَّ نهودها ... فقالت رأيتَ البَدْرَ يُهْداه أو يُهْدِي

فقلت وللرُّمان[٩] بُدٌّ من الجنى ... فتاهتْ وقالتْ باللَّواحظ لا الأيْدِي

فقلتُ أليس القلبُ عندكِ حاصلًا[١٠]؟ ... فقالت[١١] قلوبُ الناس كلُّهُمُ عندي

وقلْتُ[١٢] اجعليني من عَبيدك في الهوى ... فقالت كفاني كم لحُسْنيَ من عَبْدِ

إذا شئتَ أن أرضاك عَبْدًا فمُتْ جَوًى[١٣] ... ولا تَشتكي[١٤] واصْبِرْ على ألم الصَّدِّ

ألم تَرَ النَّحلَ يُحْمَلُ ضُرُّها ... لأجل الذي تَجْنيه من خالص الشهد؟

كذلك بَذْلُ النَّفيس سَهْلٌ لذي النُّهى ... لما يكسِبُ الإنسانُ من شرف الحمد

ألستَ ترى كَفَّ ابنِ جانةَ طالما[١٥] ... أضاعَ كريمَ المالِ في طلب المَجْدِ

---

(١) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٥٦).
(٢) في النفح: «الإفادة».
(٣) القصيدة في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٥٦ ـ ١٥٧).
(٤) في النفح: «حُسْن». (٥) في الأصل: «هو» والتصويب من النفح.
(٦) في الأصل: «ومز متى» ولا معنى له، وقد صوبناه من النفح.
(٧) في النفح: «بوصفها».
(٨) في الأصل: «أعزر» ولا معنى له، والتصويب من النفح.
(٩) في النفح: «أللرمّانِ».
(١٠) في الأصل: «فقلت ليس للقلب عندك حاصل» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١١) في الأصل: «وقالت» والتصويب من النفح. (١٢) في النفح: «فقلْتُ».
(١٣) في الأصل: «هَوًى» والتصويب من النفح.
(١٤) في الأصل: «ولا تشكي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١٥) في الأصل: «... ترى أزجاته طالما» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

ومن شعره أيضًا قوله[١]: [الكامل]

عَرِّجْ على بانِ العُذَيبِ ونادِ ... وأنشدْ فَدَيْتُكَ أين[٢] حَلَّ فؤادي

وإذا مَرَرْتَ على المنازل بالحِمى ... فاشرحْ هنالك لَوْعتي وسُهادي

إيهِ فديتُكِ يا نُسَيْمَةُ خَبِّري ... أرب[٣] الأحبَّةِ والحِمى والوادي

يا سعدُ، قد بانَ العُذَيبُ وبانُهُ ... فانزلْ فديتُك قد بَدا إسعادي

خُذْ في البِشارة مُهجتي يومًا إذا ... بانَ العُذيبُ ونُورُ حُسْنِ سعاد[٤]

قد صَحَّ عيدي يوم أُبصِرُ حُسْنَها ... وكذا الهلالُ علامةُ الأعيادِ

وممّا نقلناه من خبر قيّده لصاحبنا الفقيه الأستاذ أبي علي منصور الزواوي، وممّا أدعاه لنفسه[٥]: [الوافر]

عليَّ لكلِّ ذي كَرَم ذِمامُ ... ولي بمداركِ المَجْدِ اهتمامُ

وأَحْسَنُ ما لديَّ لقاءُ حُرّ ... وصحبةُ[٦] مَعْشَرٍ بالمجد هاموا[٧]

وإني حين أُنسبُ مِنْ أُناسٍ ... على قِمَمِ النجوم لها[٨] مَقام

يميلُ بهم إلى المجد ارتياحٌ ... كما مالتْ بشاربها المُدام[٩]

هُمُ لبسوا أديمَ الليلِ[١٠] بُرْدًا ... لِيُسْفِر من مرادهُمُ[١١] الظلامُ

هُمُ جعلوا مُتونَ العِيس[١٢] أرضا ... فمذ عزموا الرَّحيلَ فقد أقامُوا[١٣]

فمن كلِّ البلاد لنا ارتحالٌ ... وفي كلِّ البلاد لنا مُقامُ

وحَوْلَ مواردِ العلياء منها[١٤] ... لنا مع كلِّ ذي شَرَفٍ زِحام

تصيبُ سهامُنا غَرَضَ المعالي ... إذا ضَلَّتْ عن الغَوْص[١٥] السِّهامُ

---

(١) الأبيات في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٥٧).
(٢) في الأصل: «إنْ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٣) في النفح: «كيف».
(٤) في الأصل: «ونوّر حُسْنُه سعادي»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٥) القصيدة في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٥٧ ـ ١٥٨).
(٦) في الأصل: «وصحبتُهُ مَعْشَرٌ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٧) في الأصل: «هام» والتصويب من النفح. (٨) في النفح: «لهمْ».
(٩) في الأصل: «بشارَتُها المرامُ»، والتصويب من النفح.
(١٠) في الأصل: «القيل» والتصويب من النفح. (١١) في النفح: «عن أديمهم».
(١٢) في الأصل: «العيش» والتصويب من النفح. (١٣) في الأصل: «أقامُ» والتصويب من النفح.
(١٤) في النفح: «منّا». (١٥) في النفح: «الغَرَض».

وليس لنا من المجد اقتناعٌ ولو أنّ النجومَ لنا خيام[1]
نُنزّه عرضَنا عن كل لَوْم فليس يَشين سُؤدَدَنا ملام
ونبذل لا نقول العام ماذا سواء كان خِصب أو حُطام
إذا ما المَحْلُ عَمَّ بلاد قوم أثبناها فجاد بنا الغمام
وإن حضر الكرام ففي يدينا مَلاك أمورهم ولنا الكلام
وفِينا المُستشار بكل عِلْم ومنّا اللَّيث والبطل الهمام
فميدان الكلام لنا مداه وميدان الحروب بنا يُقام
كلا الأمرين ليس له بِقَوم سوانا يوم نازلة تمام
يُريق دم المداد بكل طِرْس وليس سوى اليراع لنا سهام
وكتب بالمثقّفة العوالي بحيث الطِّرْسُ لبّات وهام
إذا عَبَسَتْ وجوه الدهر منّا إليها فانثنتْ ولها انتقام
لقد عَلِمت قلوب الرُّوم أنّا أناس ليس يعُوزنا مرام
وليس يُضيرنا أنا قليل لعَمْرُ أبيك ما كثُر الكرام
إذا ما الرّاية الحمراء هُزّت نعم فهناك للحرب ازدحام
وما احمرَّت سدًى بل من دِماءٍ ليس على جوانبها انسجام
تُظَلِّل من بني نصر مُلوكا حلال النّوم عندهم حرام
فكم قطعوا الدُّجى في وصل مجد وكم سَهروا إذا ما الناس نامُوا[2]
أبا الحجاج لم تأت الليالي بأكرم منك إن عُدَّ الكرام
ولا حَمَلت ظهور الخيل أمضى وأشجع منه إن هُزَّ الحسام
وأنّي جئت من شرقٍ لغربِ ورُمْت بي الزمان كما تُرامُ
وجُرّبت الملوك وكل شخص تحدَّث عن مكارمه الأنامُ
فلم أر مثلكم يا آل نصر جمال الخَلْق والخُلُق العظام

ومنها:

لأندلس بكم شرفٌ وذكرٌ تودُّ بلوغ أدناه الشّآمُ
سعى صوبُ الغمام بلاد قوم هم في كل مَجْدبة غمام

---

(١) في الأصل: «قيام» والتصويب من النفح.

(٢) في الأصل: «نامُ».

إليك بها مهذَّبةُ المعاني يُرينها ابتسام وانتظام
لها لجناب مجدكمُ انتظام طَواف وفي أركان إسلام

نجَزت وما كادت، وقد وطِي الإيطاء صروحكم، وأعيا الإكثار حارثها وسروجها، والله وليُّ التَّجاوز بفضله.

محمد بن أحمد بن الحدّاد الوادي آشي[(١)]

يكنى أبا عبد الله.

حاله: شاعر[(٢)] مُفْلِق، وأديب شهير، مُشار إليه في التعاليم، منقطع القرين منها في الموسيقى، مضطلع بفَكِّ المُعَمَّى. سكن ألمريّة، واشتهر بمدح رؤسائها من بني صُمادِح. وقال ابن بسّام: كان[(٣)] أبو عبد الله هذا شمسَ ظَهيرة، وبَحْرَ خَبرٍ وسيرة، وديوان تعاليم مشهورة، وَضَحَ في طريق المعارف وُضوح الصُّبْح المُتَهَلِّل، وضَرَبَ فيها بقدح ابن مُقْبل[(٤)]، إلى جلالة مَقْطَع، وأصالة مَنْزِع، ترى العلْمَ ينمُّ على أشعاره، ويَتبيّن في منازعه وآثاره.

تواليفه: ديوان[(٥)] شعر[(٦)] كبير معروف. وله في العَروض تصنيف[(٧)]، مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية، والآراء الجليلة.

بعض أخباره: حدّث[(٨)] بعض المؤرخين ممّا يدلّ على ظَرْفه أنه فقد سَكَنًا[(٩)] عزيزًا عليه، وأحوجت الحال[(١٠)] إلى تكلُّف سَلْوة، فلمّا حضر الندماء، وكان قد رَصَد الخسوف بالقمر[(١١)]، فلمّا حقَّق أنه قد[(١٢)] ابتدأ، أخذ العُود

---

(١) ترجمة ابن الحداد في مقدمة ديوان ابن الحداد الأندلسي، بقلمنا، وفيها ثبت بأسماء المصادر والمراجع التي ترجمت له.
(٢) النص في نفح الطيب (ج ٩ ص ٢٥٢).
(٣) النص في الذخيرة (ق ١ ص ٦٩١ ـ ٦٩٢) ومسالك الأبصار (ج ١١، الورقة ٤٠١).
(٤) هو أبو كعب تميم بن أُبَيّ بن مُقبل؛ شاعر خنديد، كان من أوصف العرب لِقِدْح، ولذلك يقال: قدح ابن مُقْبل. توفي بعد ٣٧ هـ. الشعر والشعراء (ص ٣٦٦) وطبقات الشعراء (ص ٦١) والأعلام (ج ٢ ص ٨٧).
(٥) النص في نفح الطيب (ج ٩ ص ٢٥٢). (٦) في النفح: «شعره».
(٧) في النفح: «تصنيف مشهور مزج فيه من الألحان الموسيقية والآراء الخليلية».
(٨) النص في نفح الطيب (ج ٩ ص ٢٥٣).
(٩) السَّكَنُ: المرأة لأنها يُسْكَنُ إليها، والساكن. لسان العرب (سكن).
(١٠) في النفح: «الحاجة». (١١) في النفح: «القمري».
(١٢) كلمة «قد» ساقطة في النفح.

وغنّى[١]: [المتقارب]

شقيقُكَ غُيِّبَ في لَحْدِهِ ... وتُشْرِقُ يا بَدْرُ مِنْ بَعْدِهِ

فهلّا خُسِفْتَ وكان الخسوف[٢] ... حِدادًا لَبِسْتَ على فَقْدِهِ؟

وجعل يردِّدُها، ويخاطب البَدْر، فلم يتمَّ ذلك إلّا واعترضه الخسوف، وعَظُم من الحاضرين التعجُّب. قال[٣]: وكان مُني في صباه بصبية من الرُّوم، نصرانية، ذهبت بلُبِّه وهواه، تسمّى نُوَيرة، افتضح بها، وكثر نَسِيبُه.

شعره: قال في الغرض المذكور[٤]: [الطويل]

حَديثُكِ ما أَحلى! فَزِيدي وحَدِّثي ... عن الرَّشَإِ الفَرْدِ الجمالِ المُثَلَّثِ

ولا تَسْأَمي ذِكْراهُ فالذِّكْرُ مُؤْنسي ... وإنْ بَعَثَ الأشواقَ من كلِّ مَبْعَثِ

وباللهِ فأَرْقي خَبْلَ نَفْسي بقوله ... وفي عَقْدِ وَجْدي بالإعادة فانْفُثي[٥]

أَحَقًّا وقد صَرَّحْتُ ما بيَ أنه ... تبَسَّمَ كاللاهي، بنا، المُتَعَبِّث

وأقْسَمَ بالإنجيل إنّيَ شابقٌ[٦] ... وناهِيكَ دَمْعي من مُحِقٍّ مُحَنِّث

ولا بُدَّ مِنْ قَصِّي على القَسِّ قِصَّتي ... عساهُ مُغيثَ المُذْنِفِ المُتَغَوِّث

ولم[٧] يأتهمْ عيسى بِدِينِ قساوةٍ ... فيقسو على بَثِّي[٨] ويلهو بمُكْرَث

وقَلْبيَ مِنْ حَلْيِ التجلُّدِ عاطلٌ ... هوًى في غزالِ الواديين المرغَّث[٩]

سَيُصْبحُ سِرِّي كالصباحِ[١٠] مُشَهَّرًا ... ويُمْسي حَديثي عُرْضَةَ المتحدِّث

ويَغْرى بذكري بين كأسٍ وروضةٍ ... ويَشْدُو[١١] بشعري فوق مَثْنَى ومِثْلَثِ

---

(١) البيتان في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ٢٠٧).

(٢) رواية صدر البيت في الديوان هي: فهلّا خَسَفْتَ وكان الخسوف.

(٣) القول لابن بسام وهو في الذخيرة (ق ١ ص ٦٩٣) ولكن ببعض اختلاف عمّا هنا. كذلك ورد النص في مسالك الأبصار، (ج ١١، الورقة ٤٠١).

(٤) القصيدة في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ١٦٩ ـ ١٧٢).

(٥) في الأصل: «فابْعَثِ» والتصويب من الديوان.

(٦) في الديوان: «لمائنٌ».

(٧) في الديوان: «فلم».

(٨) في الديوان: «مُضْنًى».

(٩) في الديوان: «غزالِ ذي نِفارٍ مُرَغَّثِ».

(١٠) في الأصل: «كالصبح» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(١١) في الديوان: «ويُنْشِد شِعْري بين مَثْنًى...».

ومن شعره في الأمداح الصُّمادِحية[1]: [الطويل]

لعلَّكَ بالوادي المُقَدَّس شاطئُ وكالعَنْبر الهنديِّ ما أنت واطئُ[2]

وإنّيَ في ريّاكَ واجدُ رِيحهمْ[3] فَرَوْحُ الجَوَى بين الجوانح ناشئُ

ولي في السُّرى من نارهمْ ومَنارهمْ هُداةٌ حُداةٌ والنجومُ طوافئُ

لذلك ما حَنَّتْ رِكابي[4] وحَمْحَمَتْ عِرابي وأوحى سَيْرُها المتباطئُ

فهل هاجها ما هاجني؟ أو لعلّها إلى الوَخْد من نيران وَجْدي لواجئُ

رُويدًا فذا وادي لُبَيني وإنه لَوِرْدُ لُباناتي وإني لَظامئ

ميادينُ تَهْيامي ومَسْرَحُ ناظري فللشَّوقِ غاياتٌ لها[5] ومبادئ

ولا تَحْسِبوا غِيدًا حَمَتْها مقاصِرٌ فتلك قلوبٌ ضُمِّنَتْها جآجئ

ومنها:

محا مِلّةَ السُّلْوانِ مَبْعَثُ حُسْنِهِ فكلٌّ إلى دِينِ الصَّبابةِ صابئُ

فكيف أُرَقّي كَلْمَ طَرْفِكِ في الحَشا وليس لتمزيق المُهَنَّدِ راقئ؟

وما ليَ لا أسمو مُرادًا وهِمَّةً وقد كَرُمَتْ نَفسٌ وطابتْ ضآضئُ؟

وما أَخَّرَتْني عن تَناهٍ مبادئُ ولا قَصَّرَتْ بي عن تَباهٍ مَناشئُ

ولكنّه الدَّهرُ المُناقِضُ فِعْلُهُ فذو الفضلِ مُنْحَطٌّ وذو النقصِ نامئ

كأنَّ زماني إذ رآني جُذَيْلَهُ يلابِسُني منه[6] عدوٌّ مُمالئ

فدارَيْتُ إغتابًا ودارأتُ عاتبًا ولم يُغْنِني أني مُدارٍ مُدارئ

فألْقَيْتُ أعباءَ الزمانِ وأهلَهُ فما أنا إلّا بالحقائق عابئُ

ولازمْتُ سَمْتَ الصَّمْتِ لا عن فدامةٍ[7] فلي منطقٌ للسَّمْعِ والقلبِ صابئ[8]

ولولا عُلا المَلْكِ ابْنِ مَعْنٍ محمدٍ لما بَرِحَتْ أصدافَهُنَّ اللآلئُ

لآلئُ إلا أنَّ فِكْرِيَ غائص وعِلْميَ ذُو ماءٍ[9] ونُطْقيَ شاطئ

---

(١) القصيدة في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ١٤٠ ـ ١٤٩).

(٢) في الديوان: «فكالعنبر الهندي ما أنا واطئ».

(٣) في الأصل: «. . . واجد عزف ريحهم»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٤) في الأصل: «ركايبي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٥) في الديوان: «به».

(٦) في الديوان: «قلاني فلي منه».

(٧) في الأصل: «مذامة» والتصويب من الديوان. والفدامة: قلّة الفهم والفطنة.

(٨) في الديوان: «مالئ».

(٩) في الديوان: «دأماءُ».

تجاوزَ حَدَّ الوَهْمِ واللَّحْظِ والمُنَى وأَغْشَى الحِجا لألاؤه المتلالىءُ
فتنعكس الأبصارُ[1] وهي حَواسِرٌ وتنقلبُ الأفكارُ وهي خواسِىء

وقال من أخرى[2]: [الكامل]

أَقْبَلْنَ في الحِبَرات يَقْصِرْنَ الخُطا ويُرِينَ في[3] حُلَلِ الوَراشِينِ[4] القَطا
سِرْبُ الجَوى لا الجَوُّ عُوِّدَ حُسْنُهُ أنْ يَرْتَعي حَبَّ القلوبِ ويَلْقُطا
مالتْ معاطِفُهُنَّ مِنْ سُكْرِ الصِّبا مَيلًا يُخِيفُ قُدُودَها أن تَسْقُطا
وبِمَسْقَطِ العَلَمين أَوْضَحُ مَعْلَمٍ لِمُهَفْهَفٍ سَكَنَ الحَشا[5] والمَسْقِطا
ما أخْجَلَ البَدْرَ المنيرَ إذا مَشى يَخْتالُ والخُوْطَ النضيرَ إذا خَطا

ومنها في المدح:

يا وافِدَيْ شَرْقِ البلادِ وغَرْبِها أَكْرَمْتُما خَيلَ الوِفادةِ فارْبِطا
ورأيتُما مَلِكَ البَرِيَّةِ فاهْنأ وَوَرَدْتُما أرضَ المريّةِ فاحْطِطا
يُدْمي نُحورَ الدّارِعِينَ إذا ارتأى ويُذِلُّ عِزَّ العالَمِينَ إذا سَطا

وإحسانه كثير. دخل غرناطة، ومن بنات عملها وطنه، رحمه الله.

محمد بن إبراهيم بن خيرة[6]

يكنى أبا القاسم. ويعرف بابن المواعيني[7]، حرفة أبيه، من أهل قرطبة. واستدعاه السيد أبو سعيد الوالي بغرناطة إليه، فأقام عنده مدة من عامين في جملة من الفضلاء مثله.

حاله: قال ابن عبد الملك[8]: كان كاتبًا بليغًا، شاعرًا مجيدًا، اسْتَكتبه أبو حفص بن عبد المؤمن، وحَظِي عنده حُظوة عظيمة، لصهرٍ كان بينهما بوجه ما،

---

(١) في الديوان: «الأنصار وهي خواسرٌ وتنقلب الأبصارُ...».
(٢) القصيدة في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣).
(٣) كلمة «في» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من الديوان.
(٤) في الأصل: «الوارشين» والتصويب من الديوان. والوراشين: طيور تشبه الحمام، واحدها وَرَشان. لسان العرب (ورش).
(٥) في الأصل: «الحسا» بالسين المهملة، والتصويب من الديوان.
(٦) ترجمة ابن المواعيني في التكملة (ج ٢ ص ٤٣) واسمه فيه: «محمد بن إبراهيم بن خير». والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩١) والمغرب (ج ١ ص ٢٤٧) وتأريخ المن بالإمامة (ص ٣١١).
(٧) في التكملة: «يعرف بالمواعيني».
(٨) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩١).

ونال[١] فيه جاهًا عظيمًا، وثروة واسعة. وكان حَسن الخطّ رائقه، سلك فيه[٢] في ابتدائه مَسْلك المتقن أبي بكر بن خيرة[٣].

مشيخته: روى[٤] عن أبي بكر بن عبد العزيز، وابن العربي، وأبي الحسن شُريح، ويونس بن مُغيث، وأبي عبد الله حفيد مَكّي، وابن أبي الخِصال، وابن بقيّ[٥].

تواليفه: له[٦] تصانيف تاريخية وأدبية منها «ريحان الآداب[٧]، ورَيْعان الشباب» لا نظير له. و«الوشاح المُفَصَّل»[٨]. وكتاب في الأمثال السائرة. وكتاب في الأدب[٩] نحا فيه[١٠] منحى أبي عمر بن عبد البرّ في «بهجة المجالس».

وفاته: توفي بمرّاكُش سنة أربع وستين وخمسمائة[١١].

محمد بن إبراهيم بن علي بن باق الأموي[١٢]

مُرْسي الأصل، غَرناطي النشأة، مالَقي الإسكان، يكنى أبا عبد الله.

حاله: من عائد الصلة[١٣]: كان، رحمه الله تعالى[١٤]، كاتبًا أديبًا ذكيًا، لَوْذعيًا، يجيد الخَطّ، ويرسل النادرة، ويقوم[١٥] على العمل، ويشارك في الفَريضة. وبَذَّ السُّبّاقَ في الأدب الهَزْلي المستعمل بالأندلس. عَمَر[١٦] زمانًا من عُمْره، محارفًا للفاقة، يعالج بالأدب الكُدْية، ثم استقام له المِيْسم، وأمكنه البَخْت من امتطاء غاربه، فأنشبت الحُظْوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد ومحاسب ومدير تَجْر، فأثرى ونما ماله، وعَظُمَتْ حاله، وعهد[١٧] عندما شارف الرحيل بجملة تناهز الألف من العين، لِتُصْرفَ في وجوه من البِرّ، فتوهّم أنها كانت زكاة امتسك[١٨] بها.

---

(١) في الذيل والتكملة: «ونال باختصاص أبي حفص إياه جاهًا عريضًا وغزوة واسعة».
(٢) في المصدر نفسه: «به».
(٣) في المصدر نفسه: «خير».
(٤) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩١).
(٥) جاء في الذيل والتكملة أنه أبو القاسم أحمد بن محمد بن بقي.
(٦) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩١).
(٧) في التكملة: «الألباب».
(٨) في الذيل والتكملة: «المفصل» بالصاد المهملة.
(٩) في المصدر نفسه: «في الآداب».
(١٠) في المصدر نفسه: «به».
(١١) قال ابن الأبار في التكملة: «وتوفي في نحو السبعين وخمسمائة».
(١٢) ترجمة ابن باق الأموي في الدرر الكامنة (ج ٣ ص ٣٧٦) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠٠).
(١٣) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠١).
(١٤) كلمة «تعالى» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفح.
(١٥) في النفح: «ويقدم».
(١٦) في النفح: «غبر».
(١٧) في النفح: «عهد».
(١٨) في النفح: «أمسك».

وجرى ذكره في التاج بما نصُّه[١]: مديرُ أكْواس[٢] البيان المُعتَّق، ولَعُوبٌ بأطراف الكلام المُشَقَّق، انتحل لأول أمره الهَزْل من أصنافه، فأبرز دُرَّ معانيه من أصدافه، وجَنى ثمرة الإبداع لحين قِطافه. ثم تجاوزه إلى المُعَرَّب[٣] وتخطّاه، فأدار كأسه المُتْرَعَ وعاطاه، فأصبح لِفَنَّيه[٤] جامعًا، وفي فَلَكيه شِهابًا لامعًا، وله ذكاء يطير شَرَرُه، وإدراك تتبلَّجُ غُرَرُه، وذهن يكشف الغوامض، ويَسْبق البارق الوامِض[٥]، وعلى ذلاقَة لسانه، وانفساح أمَدِ إحسانه، فشديدُ الصَّبابة بشعره[٦]، مُغْلِ لسِعْره.

شعره: أخبرني الكاتب أبو عبد الله بن سلمة، أنه خاطبه بشعر أجابه عنه بقوله، في رَوِيِّه[٧]: [الخفيف]

أحْرَزَ الخَصْلَ من بني سلمَهْ ... كاتبٌ تخدمُ الظُّبا قَلَمَهْ
يحملُ الطِّرْسُ عن[٨] أنامله ... أثرَ الطِّرْس[٩] كلّما رَقَمَهْ[١٠]
وتمدُّ البيانَ فكرتُهُ[١١] ... مُرْسلًا حيث يَمَّمَتْ دِيَمُهْ
خَصَّني مُتحفًا بخمس إذا ... بَسَمَ الرَّوضُ فُقْنَ مُبْتَسَمَهْ
قلت أُهدى زهر الرُّبا خَضِلًا ... فإذا كلُّ زهرةٍ كَلِمَهْ
أقسم الحُسْنُ لا يُفارِقُها ... فَأَبَرَّ انتِقاؤها قَسَمَهْ
خَطَّ أسطارَها ونَمَّقَها ... فأتتْ كالعقودِ منتظمَهْ
كاسيًا من حلاه لي حُلَلًا ... رَسْمُها من بديع ما رَسَمَهْ
طالبًا عند عاطشٍ نَهَلًا ... ولديه الغُيوثُ مُنْسَجِمَهْ
يبتغي الشِّعرَ من أخي بَلَهٍ ... أخْرَسَ العِيُّ والقُصورُ فَمَهْ
أيها الفاضلُ الذي حَمِدَتْ[١٢] ... ألْسنُ المدح والثَّنا شِيَمَهْ
لا تُكلِّفْ أخاك مقترِحا ... نشرَ عارٍ لديه قد كَتَمَهْ

(١) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١).
(٢) في النفح: «أكؤس».
(٣) في النفح: «المغرب».
(٤) أي فَنَّي النظم والنثر.
(٥) الوامض: المضيء. لسان العرب (ومض).
(٦) في الأصل: «الضنانة بشعره» والتصويب من النفح.
(٧) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠١ ـ ٤٠٢).
(٨) في النفح: «من».
(٩) في النفح: «الحسن».
(١٠) في الأصل: «رقّه» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١١) في الأصل: «ويمدّ البيانَ بفكرته» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١٢) في النفح: «حفظتْ».

وابْــقَ فــي عــزّةٍ وفــي دَعَــةٍ　　صافيَ[١] العَيْش وارِدًا شَبِمَهْ[٢]

ما ثَنى الغصنُ عِطْفَهُ طربًا　　وشَدا الطيرُ فَوْقَهُ[٣] نَغَمَهْ

مشيخته: قرأ[٤] على الأستاذ أبي جعفر بن[٥] الزُّبير، والخطيب أبي عثمان بن عيسى.

وفاته: توفي[٦] بمالقة في اليوم الثامن والعشرين لمحرم[٧] عام اثنين وخمسين وستمائة[٨]، وأوصى بعد أن حُفِرَ قبره بين شيخيه الخطيبين أبي عبد الله الطّنجالي وأبي عثمان بن عيسى، أن يدفن به[٩]، وأن يُكْتَبَ على قبره هذه الأبيات: [الطويل]

تَرَحَّمْ على قبر ابن باقٍ وَحيِّهِ　　فمن حَقِّ مَيْتِ الحيِّ تسليمُ حَيِّهِ

وقل آمَنَ الرحمنُ رَوْعةَ خائفٍ　　لتفريطِهِ في الواجبات وَغيِّهِ

قد اختار هذا القبر في الأرض راجيًا　　من الله تخفيفًا بقرب[١٠] وَليِّهِ

فقد يشفعُ الجارُ الكريمُ لجارِهِ　　ويشملُ بالمعروف أَهلَ نَدِيِّهِ

وإنــي بفضلِ اللهِ أوثقُ واثقٍ　　وحَسْبي وإن أذْنَبْتُ حُبُّ نَبِيِّهِ

محمد بن إبراهيم بن سالم بن فضيلة المعافري[١١]

من أهل ألمرية، يدعى بالبيوّ[١٢]، ويكنى أبا عبد الله.

حاله: من الإكليل الزاهر: شيخٌ[١٣] أخلاقُه ليّنة، ونفسه كما قيل هَيِّنة، ينظم الشعر سهلًا مَساقُه، مُحكمًا اتّساقُه، على فاقة ما لها من إفاقة. أنشد السلطان[١٤]

---

(١) في النفح: «ضافي».　(٢) الشَّبِمُ: البارد. لسان العرب (شبم).

(٣) في الأصل: «فوق» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

(٤) النص مع الشعر في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣).

(٥) كلمة «بن» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفح.

(٦) في النفح: «وتوفي».　(٧) في النفح: «المحرم فاتح عام...».

(٨) في النفح: «وسبعمائة».

(٩) كلمة «به» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفح.

(١٠) في النفح: «بِقَدْرِ».

(١١) ترجمة ابن فضيلة المعافري في الدرر الكامنة (ج ٣ ص ٣٦٧) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠٣).

(١٢) في النفح: «المَدعوّ بالتنوء».

(١٣) النص مع بعض أبيات القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤).

(١٤) في النفح: «أنشد المقامَ السلطاني».

بظاهر بلده قوله: [الطويل]

سَرَتْ ريحُ نَجْدٍ مِنْ رُبى أرضِ بابلٍ … فهاجَتْ إلى مَسْرى سُراها بلابِلي[١]
وذَكَّرني عَرْفُ النَّسيم الذي سرى … مـعـاهـدَ أحـبـابٍ سُـراةٍ أفـاضـلِ
فأصبحْتُ مشغوفًا بذكرى منازل … أَلفتُ، فوا شوقي لتلك المنازل
فيا ريحُ هُبّي بالبطاح وبالرُّبا … ومُرّي على أغصانِ زهرِ الخمائل
وسيري بجسمي للتي الروحُ عندها … فروحي لديها مِنْ أَجَلّ الوسائل
وقولي لها عني مُعَنَّاك بالهوى[٢] … له شوقُ معمودٍ وعَبْرةُ ثاكل[٣]
فيا بأبي هيفاءَ كالغصن تَنثني[٤] … بـقـدٍّ يَـقُـدُّ[٥] كـاد يَـنْـقَـدُّ مـائـلِ
فـتـاة بـراهـا الله مـن فِـتْـنـةٍ فَـمَـنْ … رآهـا ولـم يُـفْـتَـنْ فـلـيس بـعـاقـل
لها مَنْظَرٌ كالشمس في رَوْنق الضُّحا … ولَحْظٌ كحيلٌ ساحرُ الطَّرْفِ بابلي[٦]
بطيب شَذَاها عَطَّرَتْ كلَّ عاطر … كـمـا بـحُـلاهـا زيَّـنَـتْ كـلَّ عـاطـل
رمَتْني بسهم من سهام جُفونها … فصادف ذاك السَّهْم مني مقاتلي[٧]
فظِلْت غريقًا في بحارٍ من الهوى … ومـا الـحبّ إلّا لُجَّةٌ دون سـاحـل
فيا مَنْ سَبَتْ عقلي وأَفنَتْ تجلُّدي … صِلِيني فإنَّ البُعْدَ لا شكَّ قاتلي[٨]
فلي كـبدٌ شَـوْقـي إلـيك تـفَـطَّـرَتْ … وقلبٌ بنيران الجَوَى في مشاعلي[٩]
ولي أدمعٌ تَحْكي ندا كَفِّ يوسف … أمير العلى الأرضي الجميل الفضائل
إذا مَـدَّ بـالـجـود الأنـامـلَ لـم تـزلْ … بحورُ النَّدى تَهْمي بتلك الأنامل

ومن شعره قوله من قصيدة[١٠]: [الكامل]

بَهَرَتْ كشمسٍ في غُلالة عَسْجدِ … وكـبَـدْرٍ تِـمّ فـي قـضـيـب زَبَـرجَـدِ
ثـم انـثَـنَـتْ كـالـغـصن هَزَّتْهُ الـصَّـبـا … طـربًـا فـتـزري بـالـغـصـون الـمُـيَّـدِ

---

(١) في الأصل: «بلابل» والتصويب من النفح. (٢) في النفح: «بالنوى».
(٣) المعمود: اسم مفعول من قولهم: عمده الحب إذا أحزنه. والثاكل: الفاقد. والعبرة: الدمعة. لسان العرب (عمد) و(ثكل) و(عبر).
(٤) في الأصل: «تَثَنّى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٥) في النفح: «تقدّ بقدّ». (٦) في الأصل: «بابلِ».
(٧) في الأصل: «مقاتل». (٨) في الأصل: «قاتل».
(٩) في الأصل: «مشاعل».
(١٠) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤).

حَوْراءُ بارعةُ الجمالِ غَريرة[١] تزهى فتزري بالقضيبِ الأمْلَد

إن أدْبَرتْ لم تُبْقِ عَقْلَ مُدَبِّرٍ أو أقبلتْ قتلتْ ولكن لا تَدِي[٢]

تواليفه: قال شيخنا أبو البركات: وابتُلي[٣] باختصار كتُب الناس، فمن ذلك مختصره المسمّى بـ«الدُّرر المنظومة الموسومة، في اشتقاق حروف الهجا المرسومة»[٤]، وكتاب في حكايات تسمى «روضة الجِنان»[٥]، وغير ذلك.

وفاته: توفي في أواخر رمضان من عام تسعة وأربعين وسبعمائة، ودخل غرناطة غير مرة.

محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم

من أهل جزيرة شُقر[٦]، يكنى أبا عبد الله، ويُعْرف بابن مَرْج الكُحْل[٧].

حاله: كان شاعرًا مُفْلِقًا[٨] غزلًا، بارع التَّوليد، رقيق الغزل. وقال الأستاذ أبو جعفر: كان[٩] شاعرًا مطبوعًا، حسن الكفاية، ذاكرًا للأدب، متصرِّفًا فيه. قال ابن عبد الملك: وكانت بينه وبين طائفة من أدباءِ عصره مخاطبات، ظهرت فيها إجادته. وكان مُبْتَذل اللباس، على هيئة أهل البادية، ويقال إنه كان أمِّيًا.

---

(١) في الأصل: «غريدة» والتصويب من النفح.
(٢) في الأصل: «تد» والتصويب من النفح. وتدي: تدفع الدِّيَة. لسان العرب (ودى).
(٣) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠٤).
(٤) في النفح: «الدرر الموسومة، في اشتقاق الحروف المرسومة».
(٥) في النفح: «وكتاب حكايات يسمى دوحة الجنان وراحة الجنان...».
(٦) شُقْر، بالإسبانية Jucar: جزيرة بالأندلس، قريبة من شاطبة؛ كثيرة الأشجار والأنهار. الروض المعطار (ص ٣٤٩).
(٧) ترجمة ابن مرج الكحل في المغرب (ج ٢ ص ٣٧٣) واسمه فيه: محمد بن الدمن، المعروف بمرج الكحل. وزاد المسافر (ص ٢٧) والوافي بالوفيات (ج ٢ ص ١٨١) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧٨) في ترجمة محمد بن يوسف بن هود الجذامي، وبرنامج شيوخ الرعيني (ص ٢٠٨) وروايات المبرزين (ص ٢٢٠) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١١٤، ١٥٢) والتكملة (ج ٢ ص ١٣٦) وجاء فيه أنه يعرف بمرج الكحل. والذيل والتكملة (السفر السادس ص ١١٠) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٤٧). والترجمة هنا مع الشعر في نفح الطيب (ج ٧ ص ٤٧ ـ ٥١) ووفيات الأعيان (ج ٢ ص ٣٣١) في ترجمة سكينة بنت الحسين.
(٨) في التكملة «كان شاعرًا مغلقًا بديع التوليد والتجويد...».
(٩) في النفح: «شاعر مطبوع، حسن الكتابة ذاكر للأدب متصرف فيه».

مَن أخذ عنه: روى عنه أبو جعفر بن عثمان الورّاد، وأبو الربيع بن سالم، وأبو عبد الله بن الأبّار، وابن عسكر، وابن أبي البقاء، وأبو محمد بن عبد الرحمٰن بن بَرْطلة، وأبو الحسن الرعيني.

شعره ودخوله غرناطة

قال في عُشَيَّةٍ بنهر الغُنْداق، خارج[1] بلدنا لَوْشة بنت الحَضْرة، والمحسوب مَنْ دخلها فقد دخل إلبيرة، وقد قيل: إن[2] هذا النهر من أحواز بَرْجة، وهذا الخلاف داع إلى ذكره[3]: [الكامل]

عَرِّجْ بمُنْعَرَجِ الكَثِيبِ الأعْفَرِ ... بين الفُراتِ وبين شَطِّ الكَوْثَرِ
ولْنَغْتَبِقْها[4] قَهْوَةً ذَهَبِيَّةً ... من راحَتَيْ أحْوى المراشِفِ[5] أحْوَرِ
وعَشِيَّةٍ قد[6] كنتُ أرْقُبُ وَقْتَها ... سَمَحَتْ بها الأيامُ بعد تَعَذُّر
نِلْنا بها آمالنا[7] في روضة ... تُهْدي لناشِقِها[8] شَمِيمَ العَنْبَر
والدَّهْرُ من ندم[9] يُسَفِّهُ رأيَه ... فيما مَضى منه بغيرِ تَكَدُّر
والوُرْقُ تَشْدو والأراكَةُ تَنْثَني ... والشمسُ تَرْفُل في قميصٍ أصْفَر
والرَّوضُ بين مُفَضَّضٍ ومُذَهَّب[10] ... والزَّهْرُ بين مُدَرْهَم ومُدَنَّر
والنهرُ مَرْقومُ الأباطح والرُّبى[11] ... بِمُصَنْدَلٍ مِنْ زَهْره ومُعَصْفَر
وكأنَّه وكأنَّ خُضْرَةَ شَطِّه ... سَيْفٌ يُسَلُّ على بِساطٍ أخْضَر
وكأنما ذاك الحَبابُ فِرِنْدُهُ ... مَهْما طَفا في صَفْحَةٍ كالجوهر
وكأنَّه، وجِهاتُهُ مَحْفُوفَةٌ ... بالآس والنُّعْمانِ، خَدُّ مُعَذَّر

---

(١) في النفح: «من خارج». (٢) في النفح: «إن نهر الغنداق».
(٣) في النفح: «لذكره». والشعر في الذيل والتكملة (السفر السادس ص ١١١ ـ ١١٢) ورايات المبرزين (ص ٢٢١) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣١٥ ـ ٣١٦)، ونفح الطيب (ج ٧ ص ٤٦ ـ ٤٩) والمغرب (ج ٢ ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١١٤ ـ ١١٥).
(٤) في النفح والمغرب والمقتضب والذيل والتكملة: «ولْتَغْتَبِقْها».
(٥) في المغرب والمقتضب والذيل والتكملة: «المدامع».
(٦) في الذيل والنفح: «كم كنت». وفي رايات المبرزين والمقتضب والمغرب: «كم بتُّ».
(٧) في النفح: «فلنا بهذا ما لنا في...». وفي المغرب ورايات المبرزين: «في جنّة أهْدَتْ...».
(٨) في الأصل: «لنا بشقِّها» وهكذا ينكسر الوزن. والتصويب من النفح. وفي المقتضب: «شَفَهَا نسيم العنبر».
(٩) في أزهار الرياض: «قِدَم». (١٠) في أزهار الرياض: «ومُعَسْجَدِ».
(١١) رواية صدر البيت في رايات المبرزين هي: والنهر فيها والنبات يحفُّه.

نـهرٌ يَـهِـيـمُ بـحُـسْـنِـه مَـنْ لـم يَـهِـمْ ... ويُجِيد فيه الشِّعْرَ مَنْ لـم يَـشْـعُـرِ
ما اصْفَرَّ وجهُ الشمسِ عند غروبها ... إلّا لـفُـرْقَـةِ حُـسْـنِ ذاكَ الـمَـنْـظَـر

ولا خفاء ببراعة هذا النظم[١]. وقال منها[٢]:

أرأَتْ جفونُكَ مِثْلَهُ من مَنْظرٍ ... ظِلٌّ وشمسٌ مثلُ خَدِّ مُعَذَّرِ[٣]

وهذا تتميم عجيب لم يُسبق إليه. ثم قال منها:

وقرارة كـالـعَـشْـرِ بـيـن خَـمـيـلـةٍ ... سـالـتْ مَـذانـبُـهـا بـهـا كـالأَسْـطُـرِ
فـكـأنّـهـا مَـشْـكُـولَـةٌ بـمُـصَـنْـدَلٍ ... مِـنْ يانعِ الأزهارِ أو بِمُعَصْفَر
أَمَـلٌ بَـلَـغْـنـاه بـهَـضْـبِ حديـقـةٍ ... قـد طَـرَّزَتْـهُ يَـدُ الـغَـمـام الـمُـمْـطر
فـكـأنـه والـزَّهْـرُ تـاجٌ فَـوْقَـهُ ... مَـلْـكٌ تـجـلّى فـي بِـسـاطٍ أخـضـر
راقَ الـنَّـواظـرَ مـنـه رائـقُ مَـنْـظَـرٍ ... يصفُ النَّضارةَ عن جِنان الكوثر
كـم قـادَ خـاطـر خـاطـرٍ مُـسْـتَـوْفِـزٍ ... وكـم اسْـتَـفَـزَّ جـمـالُـهُ مِـنْ مُـبْـصـر
لو لاح لي فيما تقدَّم[٤] لم أَقُلْ ... (عَرِّجْ بمُنْعَرجِ الكثيبِ الأعْفَر)

قال أبو الحسن الرُّعيني، وأنشدني لنفسه[٥]: [الكامل]

وعـشـيَّـةٍ كـانـت قـنـيـصـةَ فِـتْـيَـةٍ ... أَلِفوا من الأدبِ الصَّريحِ شيوخا
فكأنما العنقاءُ قد نَصَبوا لـهـا ... مِنَ الانحناء إلى الوقوع فُخوخا
شَـمَـلَـتْـهُـمُ آدابُـهُـمْ فـتـجـاذبـوا ... سِرَّ السُّرورِ محدِّثًا ومُصِيخا
والوُرْقُ تقرأ سيرة[٦] الطرب التي ... يُنْسيكَ منها ناسخًا[٧] منسوخا
والـنـهـر قـد صَـفَـحَـتْ بـه نـارنـجـةٌ ... فَـتَـيَـمَّـمَـتْ من كـان فـيـه مُـنِـيـخـا
فتَخالُهُمْ حُلل[٨] السَّماء كواكبًا ... قـد قـارنـتْ بـسـعـودهـا الـمـرِّيـخـا
خرق العوائدَ في السُّرور نهارُهُمْ ... فـجَـعَـلْـتُ أبـيـاتـي لـهـم[٩] تـاريـخـا

---

(١) في النفح: «هذا الشعر». (٢) في الأصل: «أيضًا» والتصويب من النفح.
(٣) المعذّر: الذي نبت عذاره وهو شعر الخدّ. لسان العرب (عذر). وجاء في النفح بيت آخر لم يرد في الإحاطة وهو:
وجـداولٌ كـأراقـمٍ حـصـبـاؤهـا ... كـبـطـونـهـا وحـبـابـهـا كـالأظـهـر
(٤) في النفح: «تقادم». (٥) الأبيات في نفح الطيب (ج ٧ ص ٤٩).
(٦) في النفح والذيل: «سورة». (٧) في الذيل والنفح: «ناسخٌ».
(٨) في الذيل والنفح: «خَلَلَ»، بالخاء المعجمة. (٩) في النفح والذيل والتكملة: «له».

ومن أبياته في البديهة[١]: [الوافر]

وعندي من مَراشِفها[٢] حديثٌ يُخبِّرُ أنَّ رِيقَتَها مُدامُ
وفي أجفانها[٣] السَّكْرى دليلٌ وما[٤] ذُقْنا ولا زَعَمَ الهُمامُ
تعالى الله ما أجرَى دموعي إذا عَنَّتْ[٥] لِمُقْلتيَ الخِيام
وأَشْجاني إذا لاحتْ بُروقٌ وأَطْرَبَني إذا غَنَّتْ حَمام[٦]

ومن قصيدة[٧]: [الطويل]

عذيري من الآمال خابتْ قُصودها ونالتْ جزيلَ الحظِّ منها الأخابثُ
وقالوا: ذُكِرْنا بالغِنى، فأَجَبْتُهُمْ خمولًا وما ذكْرٌ مع البُخْلِ ماكث
يهونُ علينا أن يبيدَ أثاثُنا وتبقى علينا المَكْرُماتُ الأثائث[٨]
وما ضَرَّ أصلًا طَيِّبًا عدمُ الغِنى إذا لم يُغَيِّرْهُ من الدهرِ حادث

وله يتشوق إلى أبي[٩] عمرو بن أبي غياث: [الوافر]

أبا[١٠] عمرو متى تُقْضى الليالي بلقياكُمْ وهُنَّ قَصَصْنَ ريشي
أَبَتْ نفسي هوًى إلّا شريشًا وما[١١] بَعْدَ الجَزيرة مِنْ شَرِيش

وله من قصيدة[١٢]: [الكامل]

طَفَلَ المساءُ وللنسيم تَضَوُّعُ والأُنْسُ يَنْظِم[١٣] شَمْلَنا ويُجَمِّعُ
والزَّهْرُ يضحكُ من بكاءِ غمامةٍ رِيعتْ لِشَيْمِ سيوفِ برقٍ تلمعُ
والنَّهرُ من طَرَب يُصَفِّق مَوْجُهُ والغصنُ يرقصُ والحَمامةُ تَسْجَعُ
فانعمْ أبا عمران والْهُ بروضةٍ حَسُنَ المصيفُ بها وطابَ المَرْبَعُ

---

(١) الأبيات في نفح الطيب (ج ٧ ص ٤٩) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣١٦). وورد البيتان الأول والثاني في المغرب (ج ٢ ص ٣٧٤).
(٢) في المغرب: «معاطفها».
(٣) في المغرب: «ألحاظها».
(٤) في المغرب: «ولا».
(٥) في أزهار الرياض: «عَرَضَتْ».
(٦) في أزهار الرياض: «إذا غنّى الحَمامُ».
(٧) الأبيات في نفح الطيب (ج ٧ ص ٤٩).
(٨) في الأصل: «الأثابت»، والتصويب من نفح الطيب.
(٩) في النفح (ج ٧ ص ٤٩) «إلى عمرو بن أبي غياث». والبيتان في المصدر المذكور.
(١٠) في النفح: «أيا».
(١١) في المصدر نفسه: «ويا».
(١٢) القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٥٠).
(١٣) في النفح: «يجمع».

يا شادنَ البانِ الذي دون النقا ... حيث التقى وادي الحِمى والأَجْرَعُ
الشمسُ يغربُ نورُها ولربما ... كُسِفَتْ ونورُك كلَّ حين يَسْطَع
إن غابَ نورُ الشمس بِتنا[1] نتقي ... بِسَناكَ ليلَ تفرّقٍ يتطلّعُ
أَفَلَتْ فنابَ سناكَ عن إشراقها ... وَجِلًا من الظلماء ما يتوقّع
فأمنتُ يا موسى الغروبَ ولم أقُلْ ... «فَوَدِدْتُ يا موسى لَوَ انّك يوشعُ»[2]

وقال[3]: [الطويل]

ألا بَشِّروا بالصبح مَنْ كان باكيًا ... أَضَرَّ به الليلُ الطويلُ مع البكا
ففي الصبح للصَّبِّ المُتَيَّم راحةٌ ... إذا الليل أجْرَى دَمْعَه وإذا شكا
ولا عَجَبٌ أن يُمسك الصبحُ عَبرتي ... فلم يزلِ الكافورُ للدَّم مُمْسِكًا

ومن بديع مقطوعاته قوله[4]: [الرمل]

مَثَلُ الرِّزقِ الذي تَطْلُبُهُ ... مَثَلُ الظِّلّ الذي يمشي مَعَكْ
أنت لا تُدْرِكُهُ مُتَّبِعًا ... فإذا وَلَّيتَ عنه أتْبَعكْ[5]

وقال[6]: [الطويل]

دخلتمُ فأفسدتمْ قلوبًا بمُلْككم[7] ... فأنتم على ما جاء في سورة النَّمل[8]
وبالعدل[9] والإحسان لم تَتَخَلَّقوا ... فأنتم على ما جاء في سورة النحل[10]

---

(١) في النفح: «لسنا».
(٢) عجز هذا البيت للرصافي البلنسي، والبيت بتمامه هو:
سَقَطَتْ ولم تَمْلِكْ يمينُكَ ردّها ... فَوَدِدْتُ يا موسى لَوَ انّكَ يوشعُ
ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٠٥).
(٣) الأبيات في نفح الطيب (ج ٧ ص ٥٠).
(٤) البيتان في نفح الطيب (ج ٧ ص ٥٠) ووفيات الأعيان (ج ٢ ص ٣٣١) والتكملة (ج ٢ ص ١٣٦).
(٥) في النفح والوفيات: «تَبِعَكْ».
(٦) البيتان في نفح الطيب (ج ٧ ص ٥٠ ـ ٥١).
(٧) في النفح: «بملكها».
(٨) يشير هنا إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤].
(٩) في النفح: «وبالجود».
(١٠) يشير هنا إلى ما جاء في سورة النحل ١٦، الآية ٧٦: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

وقال أبو بكر محمد بن محمد بن جَهْور: رأيت لابن مرج الكحل مَرْجًا أحمر قد أجهد نفسه في خدمته فلم يُنْجب، فقلت[١]: [البسيط]

يا مَرْجَ كُحْلٍ وَمَنْ هذي المروج له ... ما كان أَحْوَجَ هذا المرجَ للكَحَلِ

يا حمرةَ[٢] الأرضِ من طيبٍ ومن كَرَمِ ... فلا تكنْ طَمِعًا في رزقها العَجِل

فإنَّ مِنْ شأنها إخلافَ آمِلها ... فما تُفارقها كيفيَّةُ الخَجَلِ

فقال مجيبًا بما نصّه[٣]: [البسيط]

يا قائلًا إذ رأى مَرْجي وحُمْرَتَهُ ... ما كان أَحْوَجَ هذا المرجَ للكَحَلِ

هو احمرارُ دماء الرُّوم سَيَّلَها ... بالبِيضِ مَنْ مَرَّ من آبائيَ الأول

أَحْبَبْتُهُ أنْ حَكى[٤] مَنْ فُتِنْتُ به ... في حُمْرة الخدِّ أو إخلافِهِ أملي

وفاته: توفي ببلده يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة[٥] أربع وثلاثين وستمائة، ودفن في اليوم بعده.

محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري

من أهل مرسية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الجنّان[٦].

حاله: كان[٧] محدِّثًا راوية، ضابطًا، كاتبًا بليغًا، شاعرًا بارعًا، رائق الخطِّ، ديِّنًا فاضلًا، خيِّرًا، زكيًّا[٨]. استَكْتَبه بعض أمراء الأندلس، فكان يتبرَّم من ذلك، ويَقْلَقُ منه. ثم خلَّصه الله تعالى[٩] منه. وكان من أعاجيب الزمان في إفراط القَماءة[١٠]، حتى يَظنّ رائيه إذا[١١] استدْبره أنه طفلٌ ابن ثمانية أعوام أو نحوها، متناسب الخِلْقة، لطيف الشمائل، وقورًا. خرج من بلده حين تمكّن العدو من بَيْضَته[١٢] عام أربعين

---

(١) الأبيات في نفح الطيب (ج ٧ ص ٥١). (٢) في النفح: «ما حمرة».
(٣) قوله: «بما نصّه» ساقط من النفح (ج ٧ ص ٥١).
(٤) في الأصل: «أحببته إنَّ من فتنت به» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٥) في النفح: «عام أربعة...».
(٦) ترجمة ابن الجنان في عنوان الدراية (ص ٢١٣) ونفح الطيب (ج ١٠ ص ٢٥٩).
(٧) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٢٦٠ - ٢٦١).
(٨) في النفح: «ذكيًّا».
(٩) كلمة «تعالى» ساقطة في الإحاطة، وأضفناها من النفح.
(١٠) القماءة: القصر. لسان العرب (قمأ). (١١) في النفح: «الذي».
(١٢) في النفح: «قبضته سنة ٦٤٠».

وستمائة، فاستقرّ بأوْرِيولة[١]، إلى أن استدعاه[٢] إلى سَبْتة الرئيس بها[٣]، أبو علي بن خلاص[٤]، فوفد عليه، فأجلّ وفادته، وأجْزل إفادته، وحَظِي عنده حُظْوة تامة. ثم توجّه إلى إفريقية، فاستقرّ ببجاية. وكانت بينه وبين كُتّاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته.

مشيخته: روى[٥] ببلده وغيرها[٦] عن أبي بكر عزيز بن خطّاب، وأبي الحسن[٧] سهل بن مالك، وابن قَطْرال، وأبي الرَّبيع بن سالم، وأبي عيسى بن أبي السَّداد، وأبي علي الشُّلوبين، وغيرهم.

مَن روى عنه: روى عنه صهره أبو القاسم بن نبيل، وأبو الحسن محمد بن رُزَيق.

شعره: قال القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك: وكان له في الزُّهد، ومدح النبيّ ﷺ، بدائع، ونظم في المواعظ للمذكِّرين كثيرًا. فمن ذلك قوله في توديع رمضان وليلة القدر: [الطويل]

مضى رمضانٌ كأنْ[٨] بك قد مضى ... وغاب سَناه بعد ما كان أوْمَضا

فيا عَهْدَه ما كان أكْرَم مَعْهدا ... ويا عَصْرَه أعْزِزْ عليَّ أنِ انْقَضا

ألمَّ بنا كالطيف في الصيف زائرا ... فخيَّم فينا ساعة ثم قَوَّضا

فياليت شعري إذ نوى غُرْبة النَّوى ... أبالسُّخْط عنّا قد تولّى أم الرِّضا؟

قضى الحقَّ فينا بالفضيلة جاهدًا ... فأي فتًى فينا له الحق قد قضا؟

وكم من يدٍ بيضاءَ أَسْدى لذي تُقًى ... بتَوْبته فيه الصحائفَ بيَّضا

وكم حَسَنٍ قد زاده حُسنًا وسَنًا ... محاه وبالإحسان والحُسْن عوَّضا

فللّه من شهرٍ كريم تعرَّضت ... مكارمه إلّا لمن كان أعرضا

---

(١) في النفح: «بأريولة». وهي بالإسبانية Orihuela، من بلاد شرقي الأندلس، تقع على نهر شقوره. الروض المعطار (ص ٦٧).

(٢) في النفح: «دعاه».

(٣) كلمة «بها» ساقطة في النفح.

(٤) هو أبو علي الحسن بن خلاص البلنسي، تولّى سبتة سنة ٦٣٧ هـ، ثم ثار فيها على عهد السعيد أبي الحسن علي بن إدريس بن المنصور الموحدي سنة ٦٤١ هـ، وبايع الأمير أبا زكريا الحفصي، صاحب تونس. توفي سنة ٦٤٦ هـ. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٣٥٩ - ٣٦٠).

(٥) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٢٦١).

(٦) في النفح: «وغيره».

(٧) في الأصل: «وأبي الحسن بن سهل...» والتصويب من النفح.

(٨) في الأصل: «وكأن» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا حرف الواو.

نفى بينه وبين شَجوْكَ[١] مَعْلَما — وفي إثره أَرْسِلْ جفونَكَ فَيْضا
وقِفْ بثُنيَّات الوداع فإنها — تُمحِّص مشتاقًا إليها وتُمْحِضا
وإن قُضِيَتْ قبل التفرُّق وقْفَةٌ — فمُقْضِيها من ليلة القَدْر ما قضى
فيا حُسْنَها من ليلةٍ جَلَّ قَدْرُها — وحضّ عليها الهاشِمِيُّ وحرَّضا
لعلّ بقايا الشهر وهي كريمةٌ — تُبَيِّن سرًّا للأواخر أغْمَضا
وقد كان أضفَى وِرْدَه كي يفيضه — ولكن تلاحى مَن تلاحى فقيَّضا
وقال آطْلبُوها تَسْعَدوا بِطلابها — فحرَّك أرباب القلوب وأنهَضا
جزى الله عنّا أحمدًا للجزاء[٢] — على كَرَمٍ أضْفاه بُرْدًا وفَضْفَضا
وصلّى عليه من نبيٍّ مباركٍ — رؤوف رحيم للرسالة مُرْتضى
له عِزَّةٌ أعلى من الشمس منزلا — وعَزْمَته أمضى من السَّيف مُنْتَضى
له الذِّكر يهمي فضّ مِسْك ختامه — تأرّج من ريّا فضائله الفَضا
عليه سلام الله ما انهلّ ساكِبٌ — وذهّب مَوْشِيَّ الرياضِ وفَضّضا

ومن ذلك قصيدة في الحج: [الطويل]

مذاكرةُ الذِّكرى تَهيجُ اللَّواعِجا[٣] — فعالَجْنَ أشجانًا يُكاثرْن عالجا[٤]
رِكابًا سَرَتْ بين العُذَيْب وبارق — نوافِيجَ[٥] في تلك الشِّعاب نواعِجا[٦]
تيمَّمْن من وادي الأراك منازلا — يُطَرِّينها في الأراكِ سَجاسجا[٧]
لهنّ من الأشواق حادٍ فإنْ وَنَتْ — حُداه يُرجِّعن الحنين أهازجا
ألا بِأَبِي تلك الركاب إذا سَرَتْ — هَوادِيَ يَمْلأْنَ الفلاة هوادجا

---

(١) في الأصل: «شجونك» وكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «أحمد الجزا» وكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «تذاكر الذكر وتهيج اللواعجا» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) عالج: رمال بالبادية، سمي بذلك تشبيهًا له بالبعير العالج وهو الذي يأكل العَلَجان. معجم البلدان (ج ٤ ص ٦٩).
(٥) في الأصل: «نواريج».
(٦) الرِّكاب: الإبل، واحدتها راحلة. الشِّعاب: جمع شِعْب وهو الطريق في الجبل. النواعج: جمع ناعجة وهي الناقة البيضاء والسريعة والتي يُصاد عليها. محيط المحيط (ركب) و(شعب) و(نعج). والعُذيب: ماء بين القادسية والمغيثة. معجم البلدان (ج ٤ ص ٩٢). وبارق: ماء بالعراق وهو الحد بين القادسية والبصرة. معجم البلدان (ج ١ ص ٣١٩).
(٧) في الأصل: «يطرنها إلّا في الأراك سجاسجا» وكذا ينكسر الوزن. والأراك: شجر يُستاك به وترعاه الإبل.

بَراهم سَوامح أو سُراهم فأصبحوا رسومًا على تلك الرسوم عَوالجا
لهم في منًى أسنى المُنا ولدى الصّفا يُرَجُّون من أهل الصَّفاء[١] المناهجا
سما بهمُ طَوْفٌ ببيتٍ طامح أراهُمْ قبابًا للعُلى ومعارجا
فأبدوا من اللّوعات ما كان كامنا وأَذْرَوا دموعًا بل قلوبًا مناضجا
ولمّا دنوا نودوا هُنَيّا وأقبلوا إلى الرُّكن من كل الفجاج أدارجا
وقَضّوا بتقبيل الجدار ولَثْمه حقوقًا تُقَضّي للنفوس حوائجا
إذا اعتنقوا تلك المعالم خِلْتَهُمْ أساورَ في إيمانها وجهالجا
فللّه ركبٌ يمّموا نحو مكة لقد كَرُموا قَصْدًا وحلُّوا مناسجا
أناخوا بأرجاء الرَّجاء وعرَّسوا فأصبح كلُّ مايز[٢] القِدْح فالجا
فبشرى[٣] لهمْ كم خُوِّلوا من كرامة فكانت لِما قدَّموه نتائجا
بفتحهمُ بابَ القبول وللرِّضا[٤] ووَفْدُهُمُ أضحى على الباب والجا
تميَّزَ أهلُ السَّبْق لكنَّ غيرهُمْ غدا هَمَجًا بين الخليقة هامجا
أيلحق جِلْسٌ[٥] للبيوت مَداهُمُ ولم يَلْه[٦] في تلك المدارج دارجا؟
ألا ليت شعري للضرورة هل أرى إلى الله والبيت المحجَّب خارجا؟
له الله من ذي كُرْبَة ليس يُرْتَجى لِمُرْتَجِها[٧] يومًا سوى الله فارجا
قد أسْهَمَتْ شتَّى المسالك دونه فلا نَهْجَ يَلْقى فيه لله ناهجا
يخوض بحار الذَّنْب ليس يَهابُها ويُضْعَق ذُعْرًا إن يرى البحر هائجا
جبانٌ إذا عنَّ الهُدى وإذا الهوى يَعَنُّ له كان الجريءَ المُهارجا
يتيه ضلالا في غَيابة هَمِّه فلا حجْرَ تهديه لرُشْدٍ ولا حِجا
فواحَربا لاح الصباح لمُبصرٍ وقلبيَ لم يُبْصر سوى الليل إذ سَجا
لعلَّ شَفِيعي أن يكون معاجلا لداء ذنوب بالشّفاء مُعالجا
فيُنْشِقُني بيتُ الإله نوافحًا ويُعبقُ لي قَبْرُ النَّبيِّ نوافجا

---

(١) في الأصل: «الصفا» وكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «ما بز» وكذا يختل الوزن والمعنى معًا.
(٣) في الأصل: «فبشروا» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «بفتح بابٍ للقبول وللرضا» وكذا ينكسر الوزن.
(٥) الجِلْس: الجليس. محيط المحيط (جلس).
(٦) في الأصل: «ولم يَلْعَبْ» وكذا ينكسر الوزن ولا يستقيم المعنى.
(٧) في الأصل: «لمرتجيها» وكذا ينكسر الوزن ولا يستقيم المعنى.

فما لي لإمالتي[١] سوى حُبِّ أحمد وَصَلْتُ له من قُرْبِ قلبي وشائجا
عليهِ سلام الله من ذي صَبابة حليفِ شَجًا يكنّى من البعد ناشجا
ولو أنْصَفَتْ أجفانُه حَقَّ وَجْدِهِ سَفَكْتُ دمًا للدموع موازجا

كتابته: وكتابته شهيرة، تُضرب بذكره فيها الأمثال، وتُطْوى عليه الخناصر. قالوا: لما عقد أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود البَيْعة لابنه الواثق بالإمارة من بعده، تولّى إنشاءها، وجعل الحاء المهملة سَجْعها مُرْدفًا إياها بالألف، نحو «صباحًا» و«صلاحًا»، وما أشبه ذلك، طال مجموعها فناهزت الأربعين، وطاب مَسْمَعُها، فأحرزت بُغْية المُسْتَمعين، فكتب إليه أبو المُطَرِّف ابن عَمِيرة، رسالته الشهيرة، يداعبه في ذلك، وهي التي أولها:

«تحييك الأقلام تحيّة كِسْرى، وتقِف دون مداك حَسْرى». ومنها في الغرض: «وما لكَ أمِنت تغيُّر الحالات، فشَنَنْتَ غارتك على الحاءات، ونَفَضْتَ عنها المهارق، وبعثْتَ في طلبها السّوابق، ولَفَظْتَها من الأفواه، وطَلَبْتَها بين الشِّفاه، حتى شهد أهل اللسان بتزحزحها عن ذلك المكان، وتَوَارت بالحُلوق، ولو تَغَلْغلت إلى العُروق، لآثرتْها جيادُك، واقْتَنَصها قلمُك ومِدادُك». وهي طويلة.

فراجعه بقوله: «ما[٢] هذه التحية الكِسْرَويّة؟ وما هذا الرأي وما[٣] هذه الرويّة؟ أتَنَكِيتٌ من الأقلام؟ أم[٤] تَبْكيت من الأعلام؟ أم[٤] كلا الأمرين تَوجُّه القصدُ إليه، وهو الحق مُصَدِّقًا لما بين يديه؟ وإلّا فعهدي بالقَلَم يتسامى عن عكسه[٥]، ويترامى إلى الغاية البعيدة بنفسه، فمتى لانَتْ أنابيبُه للعاجم، ودانتْ أعاريبُه[٦] بدين الأعاجم؟ وا عَجَبا لقد اسْتَنوق الجَمَل[٧]، واختلف القول والعمل، لأمرٍ ما جَدَعَ أنْفَه قَصِير[٨]، وارتدّ على عقِبِه الأعمى أبو بَصير. أمْسِ أسْتَسْقي مِنْ سَحابِه فلا يسْقيني، وأستَشْفي بأسمائه فلا يشْفيني. واليوم يُحلُّني محلّ أنو شروان، ويشكو مني شكوى اليَزيديّة[٩]

(١) في الأصل: «لإمالني» وكذا ينكسر الوزن. والإمْلة: الأمل. محيط المحيط (أمل).
(٢) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٢٦١ ـ ٢٦٧).
(٣) في النفح: «وهذه».
(٤) في النفح: «أو».
(٥) عكس القلم هو: المَلَق.
(٦) في النفح: «أعاريبه للأعاجم».
(٧) أخذه من المثل: «قد استنوق الجمل» أي صار ناقة، يضرب هذا المثل في التخليط، والمراد: تغيّرت الطباع. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٩٣) ومحيط المحيط (نوق).
(٨) هو مثل آخر، قيل في قصة احتيال قصير بن سعد القضاعي على الزبّاء ملكة تدمر حتى أخذ منها بالثأر. محيط المحيط (زبأ).
(٩) في النفح: «الزيدية».

من بني مروان، ويزعم أني أبطَلْتُ سحره[١] كما أُبطل سِحْرُ بردوران، ويخفي في نفسه ما الله مُبْديه[٢]، ويستجدي بالأثر ما عند مُسْتَجْديه. فمن أين جاءت هذه الطريقة المُتَّبعة، والطَّريفة[٣] المُبْتَدعة، أيظنّ أنَّ مُعَمَّاه لا يُفَكّ[٤]، وأنه لا يتجلَّى[٥] هذا الشَّك؟ هل هذا[٦] منه إلّا إمحاض التِّيه، وإحماض تَفْتِّيه، ونَشْوةُ من خَمْرة[٧] الهَزْل، ونخوة من ذي ولاية آمِنِ العَزْل؟ تالله لولا محلُّه من القَسَم، وفضله في تعليم النَّسَم، لأسمعته[٨] ما يَنْقطع به صَلَفه، وأودعته ما يَنْصَدع به صَدَفه، وأشَدْتُ[٩] بشرف المَشْرِقي ومجده[١٠]، وأشَرْتُ إلى تعاليه عن اللّعب بجَدِّه. ولكن هو القلم الأول، فقوله على أحسن الوجوه يُتَأوَّل، ومَعْدُود في تهذيبه، كلُّ ما لسانه يَهْذي به. وما أنسانيه[١١]، إلّا الشيطان أياديه، أن أذكرها[١٢]، وأنما أقول: [البسيط]

ليتَ التحيَّةَ كانت لي فأشكرها[١٣]

ولا عَتْبَ إلّا على الحاء[١٤]، المُبَرِّحة بالبُرَحاء، فهي التي قَيَّمت[١٥] قيامتي في الأندية، وقامت عليَّ قيام المُعْتَدية[١٦]، يتظلَّم وهو عَيْنُ الظالم، ويُلين القول وتحته سمُّ الأراقم[١٧]، ولعَمْر البراعة وما نَصَعت[١٨]، واليراعة وما صَنَعت، ما خامرني هواها[١٩]، ولا كَلِفتُ بها دون سواها. ولقد عَرَضَتْ نفسها عليّ مرارًا، فأعْرَضْتُ عنها ازورارًا، ودفعتها عني بكل وَجْه، تارة بلُطْفِ وأخرى بنَجْه[٢٠]،

(١) في النفح: «سحره ببئر ذَرْوان».
(٢) أخذه من قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].
(٣) في النفح: «والشريعة».
(٤) في النفح: «لا ينفكُّ».
(٥) في النفح: «لا ينجلي».
(٦) في النفح: «ذلك».
(٧) في النفح: «خمر».
(٨) في النفح: «لأسلمته».
(٩) في النفح: «وأشرت».
(١٠) في النفح: «المشرفي وحَدِّه».
(١١) في النفح: «وما أنساني».
(١٢) أخذه من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣].
(١٣) هو صدر بيت لكثير عزّه، والبيت بتمامه هو: [البسيط]
ليتَ التحيّة كانت لي فأشكرَها ... مكانَ يا جملُ حُيِّيتَ يا رجلُ
الأغاني (ج ٩ ص ٤٣) والشعر والشعراء (ص ٤١٨).
(١٤) قد تكون قصيدة حائية، أو رسالة بُنيت على تكرير حرف الحاء في كل كلمة.
(١٥) في النفح: «أقامت».
(١٦) في النفح: «المتعدية».
(١٧) الأراقم: جمع أرقم وهو الثعبان. لسان العرب (رقم).
(١٨) في النفح: «ولعمر اليراعة وما رضعت».
(١٩) هاء الضمير يعود إلى «الحاء».
(٢٠) النَّجْهُ: الرَدّ القبيح. لسان العرب (نجه).

وخفتُ منها السآمة، وقلت انكِحي أُسامة. فرضيت منها[١] بأبي جَهْم[٢] وسوء سَلْكته[٣]، وابن أبي سفيان وصَعْلَكته، وكانت أسرع من أمّ خارجة للخطْبة، وأسمج من سِجاح[٤] في استنجاح تلك الخُطبة. ولقد كنت أخافُ من انتقال الطباع في عِتْرتها[٥]، واستثقال الاجتماع من عشرتها[٦]، وأرى من الغَبْن والسَّفاه، أخذها وترك بنات الأفواه والشِّفاه[٧]، إذ هي أيسر مؤونة، وأكثر[٨] معونة، فغلطي[٩] فيها أن كانت بمنزل تتوارى صَوْنًا عن الشمس، ومن نِسْوة خَفِرات لا ينطقن إلّا بالهَمْس، ووجدتها أطْوَع من البَنان للكَفّ، والعِنان للوَكْف[١٠]، والمعنى للاسم، والمَغْنى للرَّسْم، والظِّلّ للشخص، والمُستبدل[١١] للنصّ. فما عرفت منها إلّا خبرًا[١٢] أرضاه، حتى حَسِبْتها من الحافظات للغَيْب بما حفظ الله، فعجبت لها الآن كيف زلّت نَعْلُها، ونَشَزَت فنشرت ما استَكْتَمها بَعْلُها، واضطربت في رأيها اضطراب المختار بن[١٣] أبي عبيد، وضربت في الأرض تسعى عليّ بكلّ مَكْر وكيد، وزعمت أنّ حرف[١٤] الجيم خدعها، والآنَ[١٥] أَخْدَعَها، وأخبرها أن سيُبلّغ بخبرها الخابور[١٦]، وأحضرها لصاحبها كما أُحضر بين يدي قيصر سابُور[١٧]، فقد جاءت إفكًا وزورًا، وكثرت من أمرها شُزورًا[١٨]، وكانت كالقَوْس أَرَنَّتْ وقد أصْمَت القنيص، والمُراوِدَة قالت ﴿مَا جَزَآءُ﴾[١٩] وهي التي قَدَّتِ

---

(١) في النفح: «مني».

(٢) يشير هنا إلى قصة فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك، حين خطبها معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم، فتزوجت أسامة بن زيد؛ لأن معاوية وصف بأنه صعلوك لا مال له، وأبو جهم كان لا يضع عصاه عن عاتقه، أي أنه كان يضرب النساء.

(٣) في النفح: «ملكته».

(٤) في النفح: «وأسمح من سجاح». وأخبار سجاح مع مسيلمة الكذاب معروفة، وقد ضرب بها المثل في الإسماح.

(٥) في النفح: «عشرتها».

(٦) في النفح: «عترتها».

(٧) بنات الأفواه والشفاه: الحروف مثل الباء والميم وغيرهما.

(٨) في النفح: «وأكبر».

(٩) في النفح: «فغلطني».

(١٠) في النفح: «للكفّ».

(١١) في النفح: «والمستدلّ».

(١٢) في النفح: «خيرًا أرضاه، وحسبتها».

(١٣) كلمة «بن» ساقطة من الإحاطة. وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي ثار عام ٦٥ هـ، مطالبًا بدم الحسين بن علي، عليهما الصلاة والسلام.

(١٤) في النفح: «أن الجيم».

(١٥) في الأصل: «والآن» والتصويب من النفح.

(١٦) الخابور: من روافد نهر الفرات؛ يريد أن يقول: إنه سيبلغ خبرها إلى مكان ناءٍ.

(١٧) هو سابور ذو الأكتاف، يقال إنه تنكّر ودخل بلاد الروم فوقع في يدي قيصر.

(١٨) في النفح: «منزورًا».

(١٩) سورة يوسف ١٢: الآية ٢٥.

القميص[١]، وربما يُظنّ بها الصدق، وظنُّ الغيب تَرْجيم، ويقال: لقد خُفضت الحاء بالمجاورة لهذا الأمر الجسيم[٢]، وتنتصر لها أختها[٣] التي خيَّمت بين النرجسة والرَّيحانة، وختمت السورة باسم جعلت ثانيه أكرَم نبيٍّ على الله سبحانه، فإن امتَعَضَتْ لهذه المتظَلِّمة[٤]، تلك التي سبقت بكلمتها بشارة المتكلّمة[٥]، فأنا ألوذ بعدلها، وأعوذ بفضلها، وأسألها أن تقضي قضاء مِثلها، وتعمل بمقتضى: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[٦] على أنّ هذه التي قد أبدَتْ مَيْنها[٧]، ونَسِيت الفضل بيني وبينها، أن قال الحَكَمان: منها كان النشوز، عادت حَرُورية[٨] العجوز، وقالت: التَّحكُّم[٩] في دين الله لا يجوز، فعند ذلك يُحَصْحِص[١٠] الحقّ، ويعلم من الأوْلى بالحُكم والأحَقّ، ويصيبها ما أصاب أروَى، من دعوةِ سعيدةٍ[١١] حين الدَّعوى، ويا وَيحها أن[١٢] أرادت أن تجني عليّ فجنت لي، وأناخَتْ لي مَرْكَب السعادة وما ابْتَغَتْ إلّا خَتْلي، فأتى شرُّها بالخير، وجاء النَّفعُ من طريق ذلك الضَّير. أتراها علمت بما يثيرُه اعوجاجُها، وينجلي عنه عَجاجُها؟ فقد أفادت عظيم الفوائد، ونظيم الفرائد، ونَفْس الفَخْر، ونَفِيس الذُّخر[١٣]، وهي لا تنكر[١٤] أن كانت من الأسباب، ولا تذكر إلّا يوم المُلاحاة والسِّباب. وإنما يستوجب الشكر جسيمًا، والثناء الذي يتضوَّع نسيمًا، الذي شرَّف إذ أهدى أشرف السَّحاءات، وعرَّف بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة في الحاءات، فإنه وإن ألَمَّ بالفكاهة، فما أملى[١٥] من البداهة، وسَمّى باسم السابق السُّكَيْت، وكان من أمر مداعبته كَيْت وكيت، وتلاعب بالصِّفات[١٦]، تلاعُب السَّيل بالصفاة، والصَّبا بالبانة، والصِّبا بالعاشق ذي اللُّبانة، فقد أغْرَب بفنونه، وأغرى

---

(١) إشارة إلى قصة امرأة العزيز في قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ [يوسف: ٢٣]. وعندما انفضح أمرها قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية.

(٢) في النفح: «لهذا الجيم».

(٣) كلمة «أختها» ساقطة في النفح.

(٤) في النفح: «التكملة».

(٥) في النفح: «الكلمة».

(٦) سورة النساء ٤، الآية ٣٥.

(٧) المَيْنُ: الكذب. لسان العرب (مين).

(٨) حرورية: أي ترفض التحكيم وتقول: لا حكم إلّا لله.

(٩) في النفح: «التحكيم».

(١٠) يُحَصْحِص الحقّ: يظهر ويبين. لسان العرب (حصحص).

(١١) في النفح: «سعدية».

(١٢) كلمة «أن» ساقطة في النفح.

(١٣) في النفح: «الدرّ».

(١٤) في النفح: «لا تشكر».

(١٥) في النفح: «بما أملّ».

(١٦) في النفح: «في الصفات تلاعب الصفاح والصَّبا بالبانة».

القلوب بفُتُونه، ونفث بجَفنه[١] الأطراف، وعَبث من الكلام المُشَقّق الأطراف[٢]، وعلم كيف يُلخص[٣] البيان، ويُخلِّص العِقْيان. فمن الحقّ أن أشكره على أياديه البيض، وأن آخذ لفظه[٤] من معناه في طَرف النقيض. تالله أيها الإمام الأكبر، والغمام المُسْتَمطر، والخبر[٥] الذي يُشْفي سائله، والبحر الذي لا يُرى ساحلُه، ما أنا المراد بهذا المَسْلك، ومن أين حَصَل[٦] النور لهذا الحَلَك؟ وصحّ أن يُقاس بين الحدَّاد والملك؟ إنه لتواضُع الأعِزَّة، وما يكون للأكارم[٧] عند المكارم من العِزَّة، وتحريض الشيخ للتلميذ، في[٨] إجازة الوضوء بالنَّبِيذ. ولو حضر الذي قُضيَ له بجانب الغربيّ أمْرُ البلاغة، وارتضى ما له في هذه الصناعة، من حُسْن السَّبك لحِلْيتها[٩] والصِّياغة، وأطاعته فيما أطلعته طاعة القوافي الحسان، وأتْبَعَته فيما جمعته لكن بغير إحسان، لأذعن كما أذْعَنْت، وظَعَن عن محلّ دعوى[١٠] الإجادة كما ظَعَنْتُ، وأنّى يُضَاهى الفُرات المَعِين[١١] بالنُّغْبَة[١٢]، ويُباهى بالفلوس مَنْ أوتي من الكنوز ما أنَّ مفاتحه لتنوء بالعُصبة، وأي حظٍّ للكَلالة في النَّشب[١٣]، وقد اتصل للورثة عمود النَّسَب. هيهات والله بُعْد[١٤] المَطْلب، وشتَّان الدُّرّ والخَشْلب[١٥]، وقد سِيم الغَلَب، ورجع إلى قيادة السَّلب، وإن كنّا ممّن تقدّم لشدّة الظمإ إلى المَنهل، وكمن أقْدَم إلى عين تَبُوك بعد النَّهي للعل والنَّهل. فقد ظهرت بذلك[١٦] المعجزة عِيانًا، وملىء ما هناك[١٧] جِنانًا، وما تَعَرَّضْنا بإساءة الأدب واللَّوم، ولكن علمنا أن آخر الشَّرْب[١٨] ساقي القوم، وإن أسْهَبْنا فما نِلْنا رتبة ذلك الإيجاز، وإن أعْرَقنا فهوانا في الحجاز، فلكم قَصِيرات الحِجال، ولنا قصيرات الخطا في هذا المجال، وإكثارنا في قِلّة، وجارنا من الفَقْر في فقر وذلّة. ومَنْ لنا بواحدة يُشْرق ضياؤها، ويُخْفي النجومَ خجلُها منها وحياؤها؟ إن لم تُطل فلأنها للفروع كالأصل، وفي المجموع[١٩] كليلة الوَصْل. فلو سطع نورها الزاهر، ونورها الذي تطيب منه

(١) في النفح: «بخفية».
(٢) في النفح: «بالأطراف».
(٣) في النفح: «يمحض».
(٤) في النفح: «وإن أخذ لفظة...».
(٥) في النفح: «والحبر».
(٦) في النفح: «حصل ذلك النور».
(٧) في النفح: «عند الكرام من الهزّة».
(٨) في النفح: «وترخيص في...».
(٩) في النفح: «لحَلْيها».
(١٠) كلمة «دعوى» ساقطة في النفح.
(١١) كلمة «المعين» ساقطة في النفح.
(١٢) النُّغْبة: الجرعة من الماء. لسان العرب (نغب).
(١٣) في النفح: «بالنشب».
(١٤) كلمة «بعد» ساقطة في النفح.
(١٥) في النفح: «والمَخْشَلَب».
(١٦) في النفح: «بعد ذلك».
(١٧) في النفح: «وملأ ما هنالك».
(١٨) في الأصل: «الشّرّاب» والتصويب من النفح.
(١٩) في النفح: «الجموع».

الأنوار الأزاهر، لسَجَدَتِ النّيرانُ ليوسف ذلك الجمال، ووجدت نَفَحات ريّاها في أعطاف الجنوب والشمال، وأسرعت نحوها النفوس إسراع الحَجِيج يوم النَّفْر، وسار خبرُها وسَرَى فصار حديث المُقِيمين والسَّفْر. وما أظن[١] تلك السَّاخرة في تَدلّيها[٢]، إلّا السَّاحرة بتَجَنّيها، إذ كانت رَبِيبَتها، بل ربيئَتها، هذه التي سَبَقَتْني لمّا سَقَتْني بسينها[٣]، ووجَدْتُ ريحَها، لما فَصَلَتْ من مصرها غيرها[٤] وحين وصلت لم يدلني على سابقها[٥] إلّا عَبيرُها، وكم رامت أنْ تَسْتَتِر عني بلَيْلِ حَبَرِها في هذه المغاني، فأغراني بهاؤها وكل مُغْرَمٍ مُغْرى ببياض صُبْح الألفاظ والمعاني. وهل كان ينفعها تلفُّحها بمِرْطِها وتلفُّعها؟ إذ نادتها المودّة، فقد عَرَفْناك يا سَوْدة. فأقْبَلْتُ على شَمِّ نَشْرها وعَرْفها، ولَثْم سَطْرها وحَرْفها، وقَرَيْتُها الثناء الحافل، وقرأتُها فَزُيِّنَتْ بها المحاضر والمحافل[٦]. ورُمْتُ أمرَ الجواب، فَغَرَّتْني[٧] في الخطاب، لكن رسمتُ هذه الرُّقعة التي هي لديكم بعَجْزي واشية، وإليكم منيّ على استحياء ماشِية، وإنْ رقَّ وَجْهُها فما رَقَّت لها حاشية، فمُنوا بقبولها على عِلّاتها[٨]، وانقَعُوا بماء سماحتكم حَرَّ غُلَلِها، فإنها وافِدةُ مَنِ استَقَرَّ قَلْبُه عندكم وثَوَى، وأقرَّ بأنه يَلْقُطُ في هذه الصناعة ما يُلْقى للمساكين من النَّوى. بقيتُمْ، سيدي الأعلى[٩] للفضل والإغضاء، ودمتم غرّة في جبين السَّمْحة البيضاء، واقْتَضَيْتم السعادة المتّصلة مدّة الاقتِضاء، بيُمْن اللهِ سبحانه. انتهى.

ومحاسنه عديدة، وآماده بعيدة.

دخوله غرناطة: دخلها مع المتوكل مخدومه، أو وَجَده بها.

مَن روى عنه: رُوي عن أبي الحسن سهل بن مالك.

وفاته: قال الأستاذ في الصلة[١٠]: انتقل إلى بجاية فتوفي بها في عَشْر الخمسين وستمائة[١١].

---

(١) في النفح: «وما ضرّ تلك».

(٢) في النفح: «في تجلّيها، الساحرة بتجنّيها، أن كانت بمنزلة ربيبتها بل تِزبها، هذه...».

(٣) في النفح: «بسيبها».

(٤) في النفح: «من مصر عِيرها».

(٥) في النفح: «ساريها».

(٦) في النفح: «فزيّنت بها المحافل».

(٧) في النفح: «فعزّني».

(٨) في النفح: «عللها».

(٩) كلمة «الأعلى» ساقطة في النفح.

(١٠) المراد «صلة الصلة» لابن الزبير.

(١١) كذا ورد في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٢٧٦).

محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمي[(١)]

من أهل[(٢)] ألمريّة، يكنى أبا عبد الله، من وجوه بلده وأعيانه، نشأ نَبيهَ البيت، ساحبًا بنفسه وبماله ذَيْلَ الحُظوة، متحلّيًا بخَصْل من خطٍّ وأدب، وزيرًا، متجنّدًا، ظَريفًا، دَرِبًا على ركوب البحر وقيادة الأساطيل. ثم انحطَّ في هواه انحطاطًا أضاع مروءته، واستهلك عَقاره، وهَدَّ بَيْته، وألجأه أخيرًا إلى اللّحاق بالعُدْوة فهلك بها.

وجرى ذكره في الإكليل بما نصُّه[(٣)]: مجموع شعر وخطٍّ، وذكاء عن درجة الظُّرفاء غير مُنحطّ، إلى مَجادة أثِيلة البيت، شهيرة الحيِّ والمَيْت. نشأ في حِجْر التَّرَف والنعمة، محفوفًا بالماليّة الجمّة، فلما غَفَل[(٤)] عن ذاته، وترعرع بين لِدَاته، أجرى خيول لذّاته، فلم يَدَعْ منها ربْعًا إلّا أقْفَره، ولا عَقَارًا إلّا عَقَره، حتى حطَّ بساحلها، واستولى بسِعْر[(٥)] الإنفاق على جميع مراحلها، إلّا أنه خَلَصَ بنَفْسٍ طيِّبة، وسَرَاوة سماؤها صَيِّبة، وتمتّع ما شاء من زِيرٍ وبَمّ[(٦)]، وتأنّس لا يعطي[(٧)] القِيادَ لهمّ. وفي عفو الله سَعَةٌ، وليس مع التوكل على الله ضَعَة.

شعره: من شعره[(٨)] قوله يمدح السلطان، وأنشدها إياه بالمضارب من وادي الغَيْران عند قدومه من ألمرية[(٩)]: [الطويل]

أثغرُك أم سِمْطٌ من الدُّرِّ يُنْظَمُ؟ وريقُك أم مِسْكٌ به الرَّاحُ تُخْتَمُ؟
ووجهُك أم بادٍ من الصُّبح نَيِّرٌ؟ وفَرْعُك أم داجٍ من الليل مُظْلِمُ؟
أُعَلِّل منك النفس والوَجْدُ مُتْلِفي وهل ينفَع التَّعليلُ والخَطْبُ أعظم[(١٠)]؟
وأقنعُ من طَيْفِ الخيالَ يزورني[(١١)] لَوَ انَّ جُفوني بالمنام تَنْعَمُ
حَمَلْتُ الهوى حينًا فلمّا علمته سلوتُ لأني بالمكارم مُغْرم

(١) ترجمة ابن شلبطور في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٥) وجاء فيه «ابن سلبطور» بالسين المهملة. وشلبطور: بالإسبانية Salvador، ما يدل على أنه من أصل مولّدي.
(٢) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣١٧). (٣) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣١٧).
(٤) في النفح: «عقل». (٥) في النفح: «بسفر».
(٦) الزِّيرُ والبَمُّ: من أوتار العود. لسان العرب (زير) و(بمم).
(٧) في النفح: «لم يُعْطِ». (٨) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٨).
(٩) ورد من هذه القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٨) فقط الأبيات الأربعة الأول، وجاء هناك: «عند قدومه ألمرية».
(١٠) في النفح: «... منك الوَجْدَ والليلُ مظلم وهل... والخطْبُ مؤلمُ».
(١١) في النفح: «بزورةٍ».

ولي في أمير المسلمين محبَّة ... فؤادي مَشْغوف بها ومُتَيَّم
بلغتُ المُنى لما لَثَمْتُ يمينه ... فها أنذا في جنَّة الخلد أنْعَم
يصوغ قومي الشِّعر في طيب ذكره ... ويُحْسِن فيه النَّظم من ليس يَنْظِم
فاستمْسك الدِّين الحنيف زمانه ... وقام منارُ الحقِّ والشِّرْك مُغرم
له نظرٌ في المشكلات مُؤيّدٌ ... والله مُهْدٍ إلى الرشد مُلْهِم
ويستغرق طارحًا فيه وابل جُوده ... فمن فِعله في جوده يُتَعلم
فلو أن أمْلاك البَسيطة أنصفوا ... لألقوا إليه الأمر طوعًا وسَلَّموا
وفي الدِّين والدنيا وفي البأس والنّدى ... لكم يا بني نصر مقامٌ معظَّم

ومنها:

إليك أمير المسلمين اقتَضَيْتُها ... حمائل شكر طيرُها مُتَرنِّم
تَنُمُّ بعَرْفِ المِسْك أنفاسُها ... إذا يفوه لراوٍ في النّدى بها فمُ
فباسمك سُيِّرت في المسامع ذكرُها ... ويغزى في أقصى البلاد ويُشْمم
ولو أنني في المدح سَحْبان وائل ... وأنجدني فيه حبيبٌ ومُسْلم
لما كنت إلّا عن عُلاك مُقَصِّر ... ومن بعض ما نشدت وتُولي وتُنعم
بَقِيت ملاذًا للأنام ورحمة ... وساعَدَك الإسْعاد حيث يُتَمِّمُ

ومن شعره مذيِّلًا على البيت الأخير حسبما نُسب إليه[(١)]: [البسيط]

نامتْ جفونُكَ يا سُؤلي ولم أَنَمِ ... ما ذاك إلّا لفرطِ الوَجْد والألم[(٢)]
أشكو إلى الله ما بي من محبّتكم ... فهو العليمُ بما نلقى مِنَ السَّقَم[(٣)]
«إن كان سَفْكُ دمي أقصى مرادِكُم ... فما غَلَتْ نظرةٌ منكم بسفكِ دَمي»

وممّا نُسب إليه كذلك[(٤)]: [السريع]

قِفْ بي ونادِ بين تلك الطُّلُولْ ... أين الأُلى كانوا عليها نُزُولْ
أين ليالينا بهم والمُنَى ... نَجْنيه غَضًّا بالرضا والقَبُولْ
لا حُمِّلوا بعضَ الذي حَمَّلُوا ... يومَ تَوَلَّتْ بالقِباب الحُمُولْ
إن غِبْتُمُ يا أهلَ نَجْدٍ ففي ... قلبيَ أنتُمْ وضلوعي حُلولْ

(١) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٨).
(٢) في النفح: «والسَّقَم».
(٣) في النفح: «... بما ألقى من الألَمِ».
(٤) الأبيات في نفح الطَيب (ج ٨ ص ٢١٨).

وممّا خاطبني[١] به: [الرجز]

تـالله مـا أوْرَى زِنـادَ الـقَـلَقِ ... سوى ريحٍ[٢] لاحَ لي بالأبْرقِ[٣]

أيقَنْتُ بالحَيْنِ[٤] فلولا نَفْحَةٌ ... نَجْدِيَّةٌ منكمْ تلافَتْ رَمَقي

لـكـنـتُ أقـضـي بـتـلظّي زفرةٍ ... وحسرةٍ بين الدموع[٥] تَلْتقي

فآهٍ مِنْ هَوْلِ النَّوى وما جَنَى ... على القلوب موقفُ التَّفَرُّق

يا حاكي الغُصْن انْثَنى مُتَوَّجًا ... بالبدرِ تحت لَمَّةٍ من غَسَق

اللهَ في نَفْسٍ مُعَنًّى أقْصِدَتْ ... من لاعجِ الشَّوق بما لم تُطِقِ

أتى على أكثرها بَرْحُ[٦] الأسى ... دَعْ ما مضى منها وأدركْ ما بقي

ولو بإلمام خيالٍ في الكرى ... إن ساعَدَ الجَفْنَ رَقيبُ الأرَقِ

فَرُبَّ زُورٍ من خيالٍ زائرٍ ... أَقَرَّ عينيَّ وإنْ لم يَصْدُق

شفيتُ[٧] من بَرْح الأسى لو أنَّ مَنْ ... أصبحَ رِقّي في يديه مُعْتِقي

ففي مُعاناة الليالي عائقٌ ... عن التَّصابي وفنونِ القَلَق

وفي ضمان ما يُعاني المرء من ... نَوائبِ الدهرِ مَشِيبُ المَفْرِقِ

هذا لعَمْري مَعَ أني لم أبت ... منها بشكوى رَوْعة أو فَرَق[٨]

فقد أخذتُ من خُطوبِ غَدْرِها ... بابن الخطيب الأَمْنَ ممّا أتّقي[٩]

فخرُ الوزارة الذي ما مثله ... بدرٌ عَلا في مغربٍ أو مشرق

ومذ أرانيه زماني لم أُبَلْ[١٠] ... مِنْ صَرْفِهِ من مُرْعد[١١] أو مُبْرِقِ

لا سيما منذ[١٢] حَطَطْتُ في حِمى ... جواره[١٣] الأمنعِ رَحْلَ أيْنُقي

أيقنْتُ أني في رجائي لم أخِبْ ... وأنَّ مَسْعى بُغْيتي لم يُخْفَق

نَدْبٌ له في كلِّ حُسْنٍ آيةٌ ... تناسَبَتْ في الخَلْق أو في[١٤] الخُلُق

---

(١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٥ - ٢١٧).

(٢) في النفح: «بريق».

(٣) الأبرق: اسم مكان.

(٤) الحَيْنُ: الهلاك. لسان العرب (حين).

(٥) في النفح: «الضلوع».

(٦) البَرْح: الشدّة. لسان العرب (برح).

(٧) في النفح: «شقيتُ».

(٨) الفَرَق، بالفتح: الخوف. لسان العرب (فرق).

(٩) في الأصل: «إلّا من ممّا أتقي». والتصويب من النفح.

(١٠) لم أُبَلْ: أصله: لم أبالِ، أي لم أكترث.

(١١) في النفح: «بِمُرْعِدٍ».

(١٢) في الأصل: «مذ» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

(١٣) في النفح: «مقامه».

(١٤) كلمة «في» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفح.

في وجهه مَسْحَةُ بِشْرٍ إنْ بَدَتْ ... تَبَهرجتْ أنوارُ شمسِ الأفق
تُغْتَبَرُ الأبصارُ في لألئها[١] ... عليه من نور السَّماح المشرق
كالدهر في اسْتِينائه وبَطْشِهِ ... كالسيف في حَدِّ الظُّبا والرونق
إنْ بَخُلَ الغيثُ استهلَّتْ يَدُهُ[٢] ... بوابلٍ من غَيثِ جُودٍ غَدِق
وإن وَشَتْ صفحة طِرْسٍ انجلى ... ليلُ دُجاها عن سَنَى مُؤتلق
بمثلها مِنْ حَبَراتٍ أخجلتْ ... حواشيَ الرَّوضِ خُدودُ المَهْرَقِ
ما راقَ في الآذان أشنافٌ سِوَى ... ملتَقِطاتِ لفظه المُفترق
تودُّ أجيادُ الغواني أن يُرى ... حُلِيُّها من درِّ ذاك المنطق
فسَلْ به هل آده[٣] الأمرُ الذي ... حُمِّلَ في شَرْخ الشباب المونق؟
إذا رأى الرّأيَ فلا يُخطئه ... يُمْنُ اختيارٍ للطريق الأوْفق
أيهِ أبا عبدِ الإلـٰه هاكَها ... عذراءَ تَخْتُو في وجوه السُّبَّق
خُذها إليك بِكْرَ فِكْرٍ يَزدري ... لديك بالأعشى لدى المُحَلِّقِ[٤]
لا زلت مرهوبَ الجنابِ مُرْتَجَى ... مَوْصُولَ عزٍّ في سُعُودٍ تَرْتَقي
مُبَلِّغَ الآمالِ فيما تبتغي ... مُؤَمَّنَ الأغراض فيما[٥] تتَّقي

ناب[٦] في القيادة البحرية عن خاله القائد أبي علي الرُّنداحي، ووُلّي أسطول المُنَكَّب برهة. توفي[٧] بمراكش في[٨] عام خمسة وخمسين وسبعمائة رحمه الله.

محمد بن محمد بن جعفر بن مُشتمل الأسلمي

من أهل ألمرية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالبلياني.

---

(١) في الأصل: «لألأتها» وكذا ينكسر الوزن. وفي النفح: «في اللألأ ما».
(٢) استهلّت يده: كثر إغداقها، وهنا يشبّه اليد بالديمة التي اشتدَّ انصبابُها على سبيل الاستعارة.
(٣) آده: ثقل عليه. لسان العرب (أدي).
(٤) الأعشى: هو الأعشى ميمون بن قيس. والمحلّق: رجل فقير استضاف الأعشى ونحر له وسقاه، ثم شكا له أن له بنات لم يتزوَّجْنَ، فأنشد الأعشى في عكاظ قصيدته الكافية بمدح المحلّق ومنها [الطويل]:
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيانها ... وباتَ على النار الندى والمُحَلَّقُ
فلم يحل الحول حتى تزوجت بنات المحلق كلهنّ. لسان العرب (حلق).
(٥) في النفح: «مِمّا».
(٦) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٩).
(٧) في النفح: «وتوفي».
(٨) كلمة «في» غير واردة في النفح.

حاله: قال شيخنا أبو البركات: ناب عني في بعض الأعمال بألمريّة، وخطب بنَحانس من غربيها، ثم خطب بحِمة مُرْشانة، وهو الآن بها، وعقد الشروط قَبْلُ بألمريّة. عفيفٌ طاهر الذّيل، نبيل الأغراض، مهذّب الأخلاق، قيّمٌ على القراءات والنحو والأدب، جيّدُ الشعر والكتابة. . . . . .[١] من الضبط، وإجادة العبارة عن المعنى المراد.

تواليفه: قال: له رَجَز في علم الكلام جيد، ورجز آخر في ألفاظ فصيح ثعلب، عرِيٌّ عن الحشو، على تَقْعير فيه يُغتفر لما جمع من اقتصاره، وله تأليف في الوباء[٢] سماه بإصلاح النيّة في المَسْألة[٣] الطاعونية.

مشيخته: قال: أخذ عنّي وعن أبيه جملة من الدواوين، وعن غيري من أهل بلده.

شعره: قال: ومما أنشدني من شعره قوله: [الطويل]

هَفا بيَ من بين المغاني عقيقُها ... ومن بينه انفَضَّتْ لعيني عقيقُها
ومالَتْ من البيداء عنها قبابُه[٤] ... وأشْرَقَني بالدمع منها شروقُها
يُهَيِّجُ أنفاسي غرامًا نسيمُها ... وتَقْدَح نارَ الشوق عندي بروقُها
ومن دون واديها ظِباءٌ[٥] خوادل[٦] ... حكى لَحْظُها ماضي الشِّفار رقيقها
فلو بَرَزَتْ للشمسِ[٧] منهنّ في الضحى ... مُخَدَّرة أضحتْ كمالًا تفوقها
نسيم الصَّبا، إن سُيِّرَتْ نحو الحِمَى ... تحيّي[٨] الدِّيار النَّازحات تشوقُها
غريبٌ كَئيبٌ مُسْتهامٌ مُتَيَّمٌ ... جريحُ الجُفون السَّاهراتِ عريقُها
فهل عَطْفَةٌ تُرجى وهل أَمَلٌ يُرى ... بعودةِ أيام تَقَضى أنيقُها؟
سَقَتْنا ومِنْ أدمع الصَّبِّ جُودها[٩] ... ومن[١٠] دِيَم الغَيْث المُلِتّات ريقها

---

(١) بياض في الأصل.
(٢) في الأصل: «الوبا».
(٣) في الأصل: «المسلة».
(٤) قوله: «من البيداء عنها» ساقط في الأصل، وقد أضفناه ليستقيم الوزن والمعنى معًا.
(٥) في الأصل: «ظِبًا» وكذا ينكسر الوزن.
(٦) الخوادل: جمع خَذْلَاء وهي المرأة الممتلئة الأعضاء لحمًا في دقة عظام. محيط المحيط (خدل).
(٧) في الأصل: «الشمس» وكذا ينكسر الوزن.
(٨) في الأصل: «فقل تحي الديار. . .» وكذا ينكسر الوزن.
(٩) في الأصل: «سقى وتعلم من أدمع الصب جودها» وكذا ينكسر الوزن.
(١٠) في الأصل: «من».

قال: وأنشدني أيضًا، وقال: كَلِفت إجازة هذا البيت الأول من هذه القصيدة، إذ ليس لي: [الكامل]

مَنْ عادلي؟ مَنْ ناصري أو مُنصفي[١]؟ هذا دمي[٢] سَفَكَتْه بنتُ المُنْصفِ
أو مَنْ يُخَلِّصني وقد أوهى صحيـ ـحُ الجسم منّي لَحْظُ طَرْفٍ مُدنفِ
جَفْنٌ تحيّر والهوى يُهْديه لفؤادِ كلٌّ من الهوى لم يألف
مُتَناعسٌ يُهْدي السُّهاد ويصرع الـ ـبَطَل الكَمِيّ بلحظه المُتضَعّف
تبدو وتَشْدو للعيون وللمسا مع فَهْيَ بين مُكَحّل ومُشَنّف
مَلَكَتْ بصنعتها عنانَ عِنانها وعَدَت عليها كأنّها[٣] لم تُعْرف
تُغْني إذا غنّت بطيب صوتها عن أن يُزَوّد لَحْنُها بالمِعْزَف
أمّا تَغَنّتْ أو تَثَنّتْ تهتف قُمْريّ نَغْمتها وغصّ المِعْطَف
يأتي على تكْرار[٤] ما غنّتْ به صدْقًا بكلّ غريب مُسْتَطرف[٥]
تُهدِي النفوسَ[٦] على اختلاف طِباعها من نُبْلها ما تشتهي بتلَطّف
كنّا وجَفْن الدهر عنّا ناعِسٌ مِنْ[٧] خَلْفِ سِتْرٍ للأمانِ مُسَجَّف
حتى وشَى بالسِّر دهرٌ حاسد كَلِفٌ بتَنْغيص الكريم الأشْرَف
واخَجْلتا إن لم أمُتْ يوم النّوى لهفًا وما إن كنتُ بَعْدُ بمنْصِف
لكنني مما نَحَلْتُ وذُبْت لم يَرَني الحِمام فكنتُ عنه أخْتَفي[٨]
كم ذا أبيتُ وليس لي من مُسْعد في حالتي غير الدموع الذُّرَّف
يا هل ترى هذا الزمانُ وصرفُه هل يَسْمحان بعودةٍ وتألُّف؟
صبرًا أبا يعقوبهم فهي النّوى لولا هَمَتْ شوقًا للقيا يوسفِ

قال: وأنشدني أيضًا لنفسه، والبيت الأخير لغيره: [البسيط]

ما للأحِبّة في أحكامهمْ جاروا؟ نَأوْا جميعًا فلا خِلٌّ ولا جارُ

---

(١) في الأصل: «من عادى ومن ناصري ومنصفي» وكذا يختل الوزن والمعنى معًا.
(٢) في الأصل: «دمعي» وكذا ينكسر الوزن. (٣) في الأصل: «كأنْ» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «تكرّر» وكذا ينكسر الوزن.
(٥) في الأصل: «أو مستطرف» وكذا ينكسر الوزن.
(٦) في الأصل: «للنفوس» وهكذا يختل الوزن والمعنى معًا.
(٧) كلمة «من» ساقطة في الأصل. (٨) في الأصل: «أختف» بدون ياء.

كيف البقاءُ[١] وقد بانتْ قبابُهُمُ ... وقد خَلَتْ منهمُ وأسفي الدّارُ؟
حُداة تمسهم بالقلب قد رحلوا ... يا ليتهمْ حملوا الجُثمان إذ ساروا[٢]
جار الزمان علينا في فراقهمُ ... من قبل أن تنقضي للصَّبِّ أوطار
ساروا فخيَّمت الأشواق بَعْدَهُمُ ... ما لي عليها سوى الآماقِ أنصار
تراك يا رَبْعَهمُ ترجو رجوعهمُ؟ ... يا ليت لو ساعَدَتْ في ذاك أقدارُ
وَدَّعتُ منهمْ شموسًا ما مطالِعُها ... إلّا من الوَشْي أطواق وأزرار
أستودع الله مَنْ فازَ الفراقُ بهم ... وخلّفونا[٣] ودَمْعُ العين مِدْرار

قلت: ولا خفاء بتَخَلُّف هذا النمط عن الإجادة، والله يَقْبِض ويَبْسُط، وشافِعُنا عرضُ الإكثار.

وفاته: توفي في آخر أربعة وستين وسبعمائة.

محمد بن محمد بن حزب الله[٤]

من أهل وادي آش، يكنى أبا عبد الله، ويعرف باسم جدِّه.

حاله: دَمِثٌ، متخلق، سهل الجانب، كثير الدُّعابة، خفيف الروح، له خطٌّ حسن، ووراقة بديعة، وإحكام لبعض العملية، واقتدار على النظم. اتصل بباب السلطان ملك المغرب، وارتَسم كاتبًا مع الجُمْلة، فارْتاش، وحسُنت حاله.

وجرى ذكره في الإكليل الزاهر بما نصُّه: راقمٌ[٥] واشي، رقيق الجوانب والحواشي، تزهى بخطِّه المهَارق والطروس، وتتجلّى في حُلل بدائعه كما تتجلّى العَرُوس، إلى خُلُق كثير التجمل، ونفس عظيمة التحمُّل. ودود سهل الجانب، عذب المذانب. لمّا قُضيت الوقيعة بطريف[٦]، أقال الله عثارها، وعجّل ثارها، قذف به موج ذلك البحر، وتفلّت إفلات الهَدْي المقرب إلى النحر، ورمى به إلى رُندة القرار، وقد عرى من أثوابه كما عرى الغرار، فتعرّف للحين بأديبها المُفْلق، وبارقها المتألق

(١) في الأصل: «البقا» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «سار».
(٣) في الأصل: «وخلّفوا» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) ترجمة ابن حزب الله في الكتيبة الكامنة (ص ٢٧٤).
(٥) قارن بالكتيبة الكامنة (ص ٢٧٤).
(٦) كانت موقعة طريف الشهيرة بين الإسبان وبني مرين، وكان مع بني مرين قوات الأندلس بقيادة سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري، سنة ٧٤١ هـ، وكانت الهزيمة فيها للمسلمين. اللمحة البدرية (ص ١٠٥).

أبي الحجاج المُنْتَشافري، فراقه ببشر لقائه، ونَهَل على الظمأ في سِقائه، وكانت بينهما مخاطبات، أنشدنيها بعد إيابه، وأخبرني بما كان من ذهاب زاده وسَلْب ثيابه.

وخاطبني من شرح حاله في ارتحاله بما نصُّه: ولما دخلْتُ رُندة الأنيقة البطاح، المحتوية على الأدب والسّماح، والعلم والصلاح، أبرز القدر أن لقيت بها شيخنا المُعَمَّر رئيس الأدباء، وقُدْوة الفقهاء، أبا الحجاج المُنْتَشافري، وكنت لم أشاهده قبل هذا العِيان، ولا سَمَح لي بلقائه صرفُ الزمان، ولم أزل أكْلَفُ بمقطوعاته العجيبة، وأولع بضرائبه الغريبة، وتأتي منه مخاطبات تُزْري بالعقود بهجة، وتطير لها العقود لهجة. نَظْمٌ كما تنفّس الصبح عن تَسْنيمه، ونثر كما تأسس الدُّر بتنظيمه، فأحلّني منه محلّ الروح من الجسد، وشهد لي أني أعزُّ مَنْ عليه وَرَد، ورآني قد ظهرت على مَضاضة الاكتِئاب، لكوني قريبَ عهدٍ بالإياب، مهزومًا انهزام الأحْزاب، خالي الوطاب[1]، نَزْر الثياب، فقال: فيم الجزع، ذهب بحول الله الخوف وأمِنَ الفزع، فأجبْتُه عَجِلًا، وقلت أخاطبه مرتجلًا: [الكامل]

لا تجزعي، نفسي، لِفَقْد معاشري ... وذهاب مالي في سبيل القادرِ
يا رُندةٌ[2]، ها أنتِ خَيْرُ بلاده ... وبها أبو حجاج المُنْتشافري
سيُريك حُسْن فرائدٍ من نظمه ... فتُزيل كل كآبة في الخاطر

فأجابني مرتجلًا: [الكامل]

سُرّاي، يا قلبي المشوق، وناظري، ... بمزارِ ذي الشَّرف السَّنيِّ الطاهرِ
روضُ المعارف زَهْرُها الزّاهي ... أَوصافه[3] أعْيَت ثناء[4] الشاكر
ولوادِ آشٍ مِنْ[5] فخارٍ لم يزل ... من كابن حزبِ الله نورَ النّاظر
وافى يُشَرِّفُ رُندةً بقدومه ... فَغَدَتْ به أفْقًا لبدرٍ زاهر
من روضة الأدباء أبدى زهرة ... قد أينعت عن فِكْر حَبْرٍ ماهر
جمع المآثر بالسَّناء[6] وبالسَّنا ... أَعْظِمْ به من صانعٍ لمآثر
ما زلت أسمع من ثَناه مآثرًا ... كانت لسامعها معًا والذّاكر

---

(١) الوطاب: جمع وَطْب وهو سقاء اللبن وهو جلد الجَذَع فما فوقه. وقوله: خالي الوطاب: أي انهزم أو قتل. محيط المحيط (وطب).
(٢) في الأصل: «ورندة» وكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «ومن أوصافه» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «ثنا» وكذا ينكسر الوزن.
(٥) كلمة «من» ساقطة في الأصل.
(٦) في الأصل: السناة».

حتى رأى بصري حقائق وصفه ... فتنعَّمَتْ كالأقمار نواظري[١]
لا زال مَحْبُوًّا بكل مَسَرَّة ... تُجري له بالحظِّ حكم مُغادر

ثم خاطبه القاضي المُنتشاقري بعد انصرافه إلى وطنه بقوله: [المتقارب]

أبى الدَّمْعُ بَعْدَكَ إلّا انفجارا ... لدهرٍ بِبُعدك في الحُكْم جارا
أذاق اللقاء الحُلْو لو لم يصل[٢] ... به للنَّوى جَرَعاتٍ مُرارا
رعى الله لَمْح ذاك اللقاء ... وإن يَكُ أشواقَنا قد أثارا
قصارايَ شكوايَ طول النوى ... وفَقْدي أناة وصل قِصارا
سقَتْني القِداح ومن بعده ... فؤادي[٣] القريح قَدَ اَذْكَتْ أوارا
أَلا يا صَبًا، هُبَّ من أرْبُعي ... إلى وادي آشيَ[٤] تُحْي الدِّيارا
ألا خُصَّ من رَبْعها منزلا ... بأربابه الأكْرَمِين استنارا
وهمْ إلى حِزْب الإلٰه الأُلى[٥] ... تساموا فَخارًا وطابوا نِجارا

فأجابه بأبيات منها[٦]:

تألّقَ بَرْقُ العُلا واستنارا ... فأجَّجَ إذ لاح في القلب نارا
وذكّرني وقت[٧] أُنسٍ مضى ... برندةَ حيثُ الجلالُ استشارا[٨]
وكانت لنفسي سَنًا[٩] في حماها ... طوالًا فأَصْبَحَتْ[١٠] لديها قِصارا
فأجريْتُ دَمْعَ العُيون اشتياقًا ... ففاضَتْ لأجل فراقي بحارا
وقالت ليَ النَّفْسُ مَنْ لم يَجِدْ ... نصيرًا سوى الدَّمْع قلّ انتصارا
قَطَعْتُ المُنى عندها لمحةً ... وودَّعْتُها وامتطيْتُ القِفارا
وضيَّعْتُ تلك المُنى غفلة ... ووافيت أبْغي المنى[١١] ديارا[١٢]

ومنها:

أرِقْتُ لذاك السَّنا ليلةً ... وما نومُها ذُقْتُ إلّا غِرارا

---

(١) عجز هذا البيت منكسر الوزن.
(٢) صدر هذا البيت منكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «فوادي القريح قد أذكت...» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «واد آش» وكذا ينكسر الوزن.
(٥) صدر هذا البيت منكسر الوزن.
(٦) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ٢٧٥).
(٧) في الكتيبة الكامنة: «أُنسَ وقت».
(٨) في الكتيبة: «استنارا».
(٩) في الكتيبة: «منى».
(١٠) في المصدر نفسه: «فأَضْحَتْ».
(١١) في الأصل: «نابس». ولا معنى لها.
(١٢) هذا البيت ساقط في الكتيبة الكامنة.

وجسمي أجلُّ الجسومِ التهابًا وقلبي أشدُّ القلوبِ انكِسارا
إلى أن تجرَّعتُ كأس النّوى وقلْتُ زماني على الشَّمْل جارا
وصَبَّرْتُ نفسي لفِقْدانها هنالك بالرَّغم ليس اختيارا

وقال من قصيدة[1]: [الطويل]

حَنَنْتُ[2] لبرق لاح من سَرْحَتَيْ نَجْدِ حنين تِهاميّ[3] يَحِنُّ[4] إلى نَجْدِ
وقلت لعلّ القلبَ تبرا كلومُهُ ومن ذا يصَدُّ النار عن شِيمة الوَقْدِ؟
لكن[5] شاركتْني في المحبَّة فُرْقة فها أنا في وَجْدي وفي كَلَفي وحدي[6]

وهو إلى هذا العهد بالحال الموصوفة.

محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميري[7]

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عيسى.

حاله: كان أديبًا، حسن الخطّ، جيّد النظم، متظرّفًا، لوذعيًّا، مطبوعًا، مُنْحطًّا في هواه، جامحًا في ميدان بطالته، معاقرًا للنَّبيذ، على حِفْظ للرسم، واضطلاع بالخدمة، وإيثار للمروءة، ومعرفة بمقادير الأمور، وتشبُّثٍ بأذيال الحُظْوة. كتب للرئاسة السَّعيدية بمالَقة، ونظر على ألقاب جِبايتها، وانتفع الناس بجاهه وماله، ووقع الثناء على حسن وساطته. ثم سافر عنها، وقد سَمَتْ مَجادة السلطان في غرض انتقالها إلى العُدْوة، مُعَوَّضة بمدينة سلا من مالقة. وكان ما كان من معاجلة الأمر، والقبض على الريِّس، وقيام ولده بالأمر، فانبَتَّ المذكور بالعُدْوة، وكانت بها وفاته.

وجرى ذكره في الإكليل الزاهر بما نصه[8]: عَلَمٌ من أعلام هذا الفن،

(١) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦).
(٢) في الأصل: «حللت» والتصويب من الكتيبة.
(٣) التهامي: نسبة إلى تهامة وهي من اليمن. معجم البلدان (ج ٢ ص ٦٣).
(٤) في الأصل: «تحنّ» والتصويب من الكتيبة.
(٥) في الأصل: «إن» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.
(٦) في الأصل: «وجد» بالجيم، والتصويب من الكتيبة الكامنة.
(٧) ترجمة محمد الحميري في الكتيبة الكامنة (ص ١٥٨) وجاء فيه أنه أبو عبد الله محمد بن محمد بن عيسى الحميري، ونفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٥) وجاء فيه أنه: أبو عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميري.
(٨) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦) والكتيبة الكامنة (ص ١٥٨ ـ ١٥٩) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٧١).

ومُشَغْشِعي[١] راح هذا الدَّن، بمجموع[٢] أدوات، وفارس يَرَاعة ودواة[٣]، ظريف المَنْزَع، أنيق المرأى والمَسْمَع، اختصّ بالرئاسة وأدار[٤] فَلَك إمارتها، واتّسم باسم كتابتها ووزارتها، ناهضًا بالأعباء، راقيًا[٥] في دَرَج[٦] التقريب والاجْتِباء، مُصانعًا دهره في راحٍ وراحة، آويًا إلى فضل وسماحة، وخِصْب ساحة، كلما فرغ من شأن خدمته، وانصرف عن ربِّ نعمته، عقد شِرْبًا، وأطفأ من الاهتمام بغير الأيام حَرْبًا، وعكف على صوت يَسْتعيده، وظَرْفٍ يُبْديه ويعيده. فلما تقلّبت[٧] بالرئاسة الحال، وقُوِّضت منها الرحال، استقرّ بالمغرب غريبًا، يقلّب طَرْفًا مُستريبًا، ويلحظ الدنيا تَبِعَةً عليه وتثريبًا[٨]، وإن كان لم يُعْدم من أمرائها[٩] حُظْوةً وتقريبًا، وما برح يبوح بشَجَنه، ويرتاح إلى عهود وطنه.

شعره وكتابته: ممّا كتبه، وبيَّن فيه أدبه قوله[١٠]: [الكامل]

يا نازحينَ ولم أُفارِقْ منهُمُ	شوقًا تأجَّجَ في الضُّلوع[١١] ضرامُهُ
غُيِّبْتُمُ عن ناظري وشَخْصُكم	حيث استقرَّ من الضلوع مقامُهُ
رَمَتِ النَّوى شملي فَشَتَّتَ نظمه	والبَيْنُ رامٍ لا تطيشُ سهامُهُ
وقد اعتدى فينا وجَدَّ مُبالغًا	وجَرَتْ بمحكم جوره أحكامُهُ
أترى الزمانَ مُؤخِّرًا في مدَّتي	حتى أراه قد انقضَتْ أيّامُهُ

تحملها[١٢] يا نسيم نَجْدِيّة النَّفَحات، وَنَجْدِيَّةَ اللَّفحات، يؤدي[١٣] عني نَغَمُها إلى الأحِبَّة سلامًا، ويورد[١٤] عليهم لَفْحُها بَرْدًا وسلامًا، ولا تقل كيف تُحَمِّلُني نارًا، وتُرْسل على الأحِبَّة مني إعْصارًا، كلّا إذا أهديتهم تحية إيناسي، وآنسوا من جانب هُبُوبك نار ضرام أنفاسي، وارتاحوا إلى هُبُوبك، واهتزُّوا في كفِّ مَسْرى جَنُوبك،

---

(١) في النفح: «ومشعشع». (٢) في النفح والكتيبة: «مجموع».
(٣) كلمة «ودواة» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المصادر الثلاثة.
(٤) في النفح: «فأدار». (٥) في النفح: «صاعدًا».
(٦) في الكتيبة: «درجات».
(٧) في الأصل: «تقليت» والتصويب من المصادر.
(٨) التثريب: اللوم. لسان العرب (ثرب). (٩) في النفح: «أمرائه».
(١٠) الأبيات في الكتيبة (ص ١٦١) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٦). والبيتان الأول والثاني في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٧٢).
(١١) في الكتيبة: «في الفؤاد».
(١٢) النص مع الشعر في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧).
(١٣) في النفح: «تؤدي إلى الأحبة نفحها سلامًا». (١٤) في النفح: «وتورد».

وتعللّوا بها تعليلًا، وأوسعوا آثار مَهَبِّك تقبيلًا، أرسلها عليهم بَلِيلًا، وخاطبهم بلطافة تَلَطُّفك تعليلًا. ألم تروني كيف جئتكم بما حَمَلني عليلًا[١]: [الوافر]

كذاك[٢] تَرَكْتُه مُلْقَى بأرض ... له فيها التعلُّلُ بالرِّياحِ
إذا هَبَّتْ إليه صَبا إليها ... وإن جاءَتْهُ مِنْ كلِّ النواحي
تساعده الحَمائمُ حين يَبْكي ... فما ينفكُّ موصولَ النِّياح[٣]
يُخاطِبُهُنَّ مهما طِرْن شوقًا ... أما فِيكنَّ واهِبَةُ[٤] الجناحِ؟

ولولا[٥] تعلُّله بالأماني، وتحدُّث نفسه بزمان التَّداني، لكان قد قضى نَحْبه، ولم أبَلِّغكم إلّا نَعْيه أو نَدْبه، لكنه يتعلّل من الآمال بالوعد المَمْطول، ويَتَطارح باقتراحاته على الزمن المجهول، ويحدّث نفسه وقد قنَعت من بُروق الآمال بالخُلّب[٦]، ووثِقت بمواعيد الدهر القُلّب[٧]، فيناجيها بوحي ضميره، وإيماء تصويره: كيف أجِدُك يوم الالتقاء بالأحباب، والتخلّص من رِبْقة الاغتراب؟ أبائنة الحضور أم بادية الاضطراب؟ كأنّي بك وقد استفزَّك وَلَهُ السرور، فصرفك عن مشاهدة الحضور، وعاقَتْك غشاوة الاستِعْبار للاستِبشار، عن اجْتِلاء مُحيَّا ذلك النهار[٨]: [البسيط]

يومٌ يُداوي زَماناتي مِنَ أزْماني ... أزالَ[٩] تَنْغِيصَ أحْياني فأَحْياني
جَعَلْتُ للهِ نَذْرًا صَوْمَهُ أبدًا ... أفي به وأُوَفِّي شَرْطَ إيماني
إذا ارتفعنا وزال البُعْدُ وانقطعتْ ... أشْطانُ دهرٍ قد التفَّتْ بأشْطاني[١٠]
أعدُّه[١١] خيرَ أعيادِ الزمانِ إذا ... أوْطَانيَ السَّعْدُ فيه تُرْبَ أوطاني

أرأيت[١٢] كيف ارتياحي إلى التّذكار، وانقيادي إلى مُعَلّلات توهُّمات الأفكار؟ كأنَّ البُعْدَ باستغراقها قد طُويت شُقَّته، وذهبت عني مشقّته، وكأنّي بالتُّخيُّل بين تلك

---

(١) الأبيات أيضًا في الكتيبة الكامنة (ص ١٦٢). (٢) في الكتيبة: «غريبٌ بعدكُمْ مُلْقَى...».
(٣) في الكتيبة: «التياح». وفي النفح: «النُّواح».
(٤) في الأصل: «واهية» والتصويب من النفح والكتيبة.
(٥) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٧).
(٦) البرق الخُلّب: البرق الذي يظنّ فيه سحابة المطر وليس فيه مطر. لسان العرب (خلب).
(٧) الدهر القُلّب: الكثير التقلّب. لسان العرب (قلب).
(٨) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٧). (٩) في الأصل: «أزبر» والتصويب من النفح.
(١٠) الأشطان: جمع شطن وهو الحبل. لسان العرب (شطن).
(١١) في الأصل: «أعدّده» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١٢) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٧ - ٣٧١).

الخمائل أتنسَّم صَباها، وأتسنَّم رُباها[١]، وأجتني أزهارها، وأجتلي أنوارها، وأجول في خمائلها، وأتنعَّم بِبُكرها وأصائلها، وأطوف بمعالمها، وأتنشّق أزهار كمائمها، وأُصِيخُ بأذن الشَّوق[٢] إلى سَجْع حَمائمها، وقد داخَلَتْني الأفراح، ونالت منّي نَشْوة الارتياح، ودنا السُّرور لتوسُّم[٣] ذهاب الأتراح. فلمّا أفقت من غَمَرات سُكري، ووثبت من هفوات فكري، وجذت[٤] مرارة ما شابه لُبِّي[٥] في استغراق دهري، وكأنّي من حينئذ عالجت وقْفَة الفِراق، وابتدأت منازعة الأشواق، وكأنما أغْمَضَتْني[٦] للنّوم، وسمح لي بتلك الفكرة الحِلم[٧]: [الكامل]

ذَكَرَ الدِّيارَ فهاجَهُ تذكارُهُ وسَرَتْ به من حينه أفكارُهُ
فاخْتَلَّ منها حيث كان حُلُولُه بالوهم فيها واستقرَّ قَرارُهُ
ما أَقْرَبَ الآمالَ من غَفَواته لو أنها قُضِيَتْ بها أوطارُهُ[٨]

فإذا جئتَها أيها القادم، والأصيلُ قد خلع عليها بُرْدًا مُوَرّسًا، والربيع قد مَدَّ على القيعان منها سُنْدُسًا، اتَّخِذْها[٩] فَدَيْتُك مُعَرَّسًا[١٠]، واجْرُرْ ذيولك فيها مُتَبَخْتِرًا[١١]، وبُثَّ فيها من طيب نَفَحَاتك عَنبرًا، وافْتُقْ عليها من نَوَافج[١٢] أنفاسك مِسْكًا أذْفَرًا، واعطف معاطف[١٣] بانِها، وأرْقِصْ قُضُبَ ريحانها، وصافحْ صفحات نهرها، ونافِخْ[١٤] نَفَحات زهرها. هذه كلّها أمارات، وعن أسرار مقاصدي عبارات، هنالك تنتعش بها صُبابات، تعالج صَبابات، تتعلّل بإقبالك، وتَعْكِف على لَثْم أذيالك، وتبدو لك في صِفَة الفاني المُتهالك، لاطِفها بلطافة

(١) أتسنَّم رباها: أعلوها وأرتفع إليها. لسان العرب (سنم).
(٢) في الأصل: «الشون» والتصويب من النفح. (٣) في النفح: «لتوهّم».
(٤) في الأصل: «وجذَذتُ» والتصويب من النفح. (٥) في النفح: «لي».
(٦) في النفح: «أغمضني النوم».
(٧) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩).
(٨) رواية البيت في أصل الإحاطة هي:
يا لِقُرْبِ الآمال من هفواته لو أنه قَضَتْ بها أوطارُهُ
وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٩) في النفح: «فاتَّخِذْها».
(١٠) المُعَرّس: مكان النزول ليلًا. لسان العرب (عرس).
(١١) في الأصل: «تبخترًا» والتصويب من النفح.
(١٢) في الأصل: «نوافح» بالحاء المهملة، والتصويب من النفح. والنوافج: جمع نافجة وهي وعاء المسك. لسان العرب (نفج).
(١٣) في الأصل: «بعاطف» والتصويب من النفح.
(١٤) المراد بـ«نافخ» المغالبة في إظهار الريح ليظهر أيهما أظهر أريحًا. لسان العرب (نفح).

اعتِلالك، وترفَّقْ بها تَرَفُّقَ أمثالك، فإذا مالت[١] بهم إلى هواك الأشواق، ولَوَوا إليك الأرْؤُس والأعناق، وسألوك عن اضطرابي في الآفاق، وتقلُّبي بين الإشآم والإعراق، فقل لهم: عَرَض له في أسفاره، ما يعرض للبَدْر في سَرَاره، من سِرِّ[٢] السَّرار، وطاقِ[٣] المَحاق، وقد تَرَكْتُه وهو يُسامر الفَرْقَدين، ويُساير النَّيِّرين، وينشد إذا راعه البَيْن[٤]: [البسيط]

وقد نكونُ وما يُخشى تَفرُّقُنا ... واليوم[٥] نحنُ وما يُرجى تلاقينا

لم يفارق وَعْثاء[٦] الأسفار، ولا ألقى من يده عصا التَّسيار، يتهاداه الغَوْر[٧] والنَّجد، ويتداوله الإرْقال[٨] والوَخْد، وقد لفَحَته الرَّمْضاء، وسَئمه[٩] الإنْضاء. فالجهات تلفُظُه، والآكام تَبْهَظه، تحمل[١٠] همومَه الرَّواسم، وتَخفى[١١] به النَّواسم: [البسيط]

لا يستقرُّ بأرضٍ حين يَبْلُغُها ... ولا له غير حَذْوِ العِيس إيناسُ

ثم إذا استَوْفوا سؤالك عن حالي، وتقلُّبي بين[١٢] حِلِّي وتَرْحالي، وبلغت القلوب منهم الحناجر، وملأت الدموعُ المحاجر، وابتلَّت ذيولك بمائها، لا بل تضَرَّجَتْ بدمائها، فَحَيِّهم عنّي تحيَّة مُنفصل، وودِّعهم[١٣] وَداعَ مُرْتحل. ثم اعطف عليهم رِكابك، ومَهِّدْ لهم جَنابك، وقُلْ لهم إذا سألني عن المنازل بعْد سُكانها، والرُّبوع بعد ظَعْن أظْعانها، بماذا أجيبُه، وبماذا يسكن وَجِيبُه[١٤]. فسيقولون لك هي البلاقِعُ[١٥] المُقْفِرات، والمعارف[١٦] التي أصبحت نَكِرات: [السريع]

صَمَّ صداها وعَفا[١٧] رَسْمُها ... واستَعْجَمتْ عن منطقِ السائلِ

---

(١) في الأصل: «أمالت» والتصويب من النفح. (٢) في النفح: «من سرار».
(٣) في النفح: «ولحاق». (٤) البيت لابن زيدون وهو في ديوانه (ص ٩).
(٥) في النفح: «فاليوم».
(٦) الوَعْثاء: المشقّة والتعب. محيط المحيط (وعث).
(٧) في الأصل: «للغور» والتصويب من النفح.
(٨) الإرقال والوَخْد: ضربان من السير السريع. لسان العرب (رقل) و(وخد).
(٩) في الأصل: «وسيّمه» والتصويب من النفح. (١٠) في النفح: «يحمل».
(١١) في النفح: «وتحياته».
(١٢) في الأصل: «بين حالي حلّي...»، والتصويب من النفح.
(١٣) كلمة «وودِّعهم» غير واردة في النفح. (١٤) الوجيب: الخفقان. لسان العرب (وجب).
(١٥) البلاقع: جمع بلقع وهو الأرض الخالية. لسان العرب (بلقع).
(١٦) كلمة «والمعارف» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفح.
(١٧) في الأصل: «وعفّى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

قُلْ لهم: كيف الرّوض وآسُه؟ وعمّاذا[١] تتأرّجُ أنفاسه؟ عَهْدي به والحَمامُ يردّد أسجاعه، والذُّباب يغني به هَزِجًا فيحكُّ بذراعه ذراعَه، وغُصونه تعتنق، وأحشاء جداوله تَصْطَفق، وأسْحاره تَتَنسَّم وآصالُه تَغْتَبق[٢]، كما كانت بقية نَضْرَته، وكما عهدتها أنيقةً خُضرته، وكيف التفاتُه[٣] عن أزرق نَهْره، وتأنُّقه في تَكليل إكليله بيانع زهره. وهل رقَّ نسيم أصائله[٤]، وصَفَتْ موارد جداوله؟ وكيف انفِساحُ ساحاته، والتفافُ دَوْحاته؟ وهل تمتدُّ كما كانت مع العَشِيِّ فَيْنانَةُ سَرْحاتِه؟ عهدي بها، المديدة الظِّلال، المُزَعْفَرة السِّرْبال، لم تُحدِّق الآن به عُيون نَرْجِسه، ولا صُدَّ[٥] بِساط سُنْدسه. وأين منه مجالس لذَّاتي، ومعاهد غَدَواتي ورَوَحاتي؟ إذ أُباري في المُجُون لمن أُباري، وأُسابِق إلى اللّذات كلَّ من يُجاري[٦]. فسيقولون لك: ذَوَتْ أفْنانُه، وانْقَصَفَتْ أغصانُه، وتكدَّرت غُدْرانه، وتغيَّر ريحهُ[٧] ورَيْحانه، وأقفرت معالمه، وأُخْرِستْ حَمائمه، واستحالت به[٨] حُلَلُ خمائله، وتغيّرت وجوه بُكَره وأصائله، فإنْ صَلْصَلَ حَنين رَعْدٍ فَعَنْ قلبي لفراقه خَفَقْ، وإنْ تلألأ بَرْقٌ فعن حَرِّ حشاي ائتَلَق، وإنْ سَحَّت السُّحب فَمُسَاعدة لجَفْني، وإنْ طال بكاؤها فعنِّي، حيّاها الله تعالى[٩] منازل، لم تَزَلْ بمَنْظوم الشَّمْل أواهل. وحين انْتَشَرتْ[١٠] نُثِرَتْ أزهارُها أسفًا، ولم تُثْنِ الريحُ من أغصانها مِعْطَفًا، أعاد الله تعالى[٩] الشَّمل فيها إلى مُحْكَم نِظامه، وجعل الدهر الذي فرَّقه يتأنَّق في أحكامه. وهو سبحانه يَجْبُر الصَّدْع، ويُعَجِّلُ الجَمْع، إنه بالإجابة جَدِير، وعلى ما يشاء قدير. إيهٍ بُنَيَّ، كيف حال من استَوْدَعْتَهُمْ أمانَتَك، وأَلْزَمْتَهُمْ صَوْنك وصِيانتك، وأَلْبَسْتَهُمْ نَسَبَكَ، ومَهَّدْتَ لهم حَسَبَكَ؟ الله في حِفْظهم فهو اللّائق بفعالك، والمناسب لشرف خِلالك، ارْعَ لهم الاغتراب لديك، والانقطاع إليك، فهم أمانَةُ الله تعالى في يَدَيْك، وهو سبحانه يحفَظُك بحفظهم، ويُوالي بلَحْظِك أسباب لَحْظِهم، وإن ذهبتم إلى معرفة الأحوال، فَنِعَمُ اللهِ مُمْتدَّةُ الظِّلال، وخَيْراتُه ضافِية[١١] السِّرْبال؛ لولا الشوق المُلازم، والوَجْدُ الذي سَكَن الحَيازم.

---

(١) في النفح: «وعَمّ».
(٢) في النفح: «تتوسّم».
(٣) في الأصل: «التفاتة» والتصويب من النفح.
(٤) في الأصل: «آصاله» والتصويب من النفح.
(٥) في النفح: «ويمدّ».
(٦) في النفح: «أجاري».
(٧) في النفح: «رَوْحه».
(٨) كلمة «به» غير واردة في النفح.
(٩) كلمة «تعالى» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفح.
(١٠) في الأصل: «انتثر»، والتصويب من النفح.
(١١) في النفح: «وارفة».

ووقفت من شعره على قصيدة من جملة رسالة، أثبتها وهي[١]: [الطويل]

أَلِلْبَرْقِ يبدو تَسْتَطِيرُ[٢] الجوانحُ ... ولِلوُرْقِ تشدو تَسْتَهِلُّ[٣] السَّوافحُ[٤]

وقلبي[٥] للبرق الخَفُوقِ مُساعدٌ ... ووجدي[٦] لِلْورق الثكالى مُطارح

إذا البَرْقُ أوْرَى في الظلام زِنادي[٧] ... فلِلْوَجْد في زَنْدِ الصَّبابة قادح

وكم وقْفَةٍ لي حيث مال بيَ الهوى ... أُغادي[٨] بها شكوى الجَوى وأُراوح

تنازِعُني منها الشُّجون[٩] فأشتكي ... ويكثُر بَثِّي عندها فأُسامح

أَبُثُّ شجوني والحمامُ يُصيخ لي ... ويُسْعدني فيما تُبيح[١٠] التَّبارح

وتَطْرَبُ أغصانُ الأراك فَتَنْثَني ... إلى صَفحة النهر الصَّقيل[١١] تُصافح

فتبتسمُ الأزهار منها تَعَجُّبًا ... فَتُهْدي إليها عَرْفَها وتُنافِح

كذلك حتى ماد عَطْفُ مثقّفي[١٢] ... وطَرْفيَ أبدى هِزَّةً وهو مارح

فلمّا التَظَى وَجْدِي ترنّم صاهِلًا ... فقلْتُ: أمِثْلي يَشْتكي الوَجْدَ نابح[١٣]؟

صرفْتُ عَدُوَّ البِيد أرخو عِنانه[١٤] ... وقلْتُ له: شَمِّرْ فإنّيَ[١٥] سابح[١٦]

تهيّأ لقطع البِيدِ واعتَسِفِ السُّرَى ... سيلْقاك غَيْظانٌ بها ومَمايح[١٧]

فَحمْحَمَ لو يسطيع[١٨] نُطْقًا لقال له[١٩] ... بمثلي تَلَقَّى هذه وتُكافح

وحَمَّلْتُهُ عَزْمًا تَعَوَّد مِثْله ... فقام به مُسْتَقبلا من يُناطح

---

(١) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ١٥٩ ـ ١٦١).
(٢) في الأصل: «تسطير» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(٣) في الأصل: «وتستهل» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(٤) في الأصل: «السوابح» والتصويب من الكتيبة.
(٥) في الكتيبة: «فقلبي».
(٦) في الكتيبة: «وجدّيَ».
(٧) في الكتيبة: «زناده».
(٨) في الأصل: «أغاد»، والتصويب من الكتيبة.
(٩) في الأصل: «للشجون» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(١٠) في الكتيبة: «تهيج».
(١١) في الأصل: «الثقيل» والتصويب من الكتيبة.
(١٢) في الأصل: «شغفي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(١٣) في الكتيبة: «سابح».
(١٤) في الكتيبة: «صرفت إلى البيداء رِخْوَ عنانه».
(١٥) في الأصل: «فإنني» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(١٦) في الكتيبة: «سائح».
(١٧) في الكتيبة: «سيلقاك غيطان بها وضحاضح».
(١٨) في الأصل: «يستطيع» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(١٩) في الكتيبة: «لي».

وَيَمَّمْتُ بِيدًا لم أصاحبْ لِجَوِّها[1] ... سوى جَلَدٍ لا يُتَّقى منه فاضح[2]
وماضي الغِرارين[3] استجدْتُ مضاءَهُ[4] ... إذا جُرِّدَتْ يومَ الجِلادِ الصَّفائحُ
ومُندمجِ صَدْقِ الأنابيب نافذٍ به ... عند كرِّي في الحروب أُفاتح
وسِرْتُ فلا ألقى سوى الوَحْشِ نافرًا ... وقد شَرَدَتْ عنّي الظِّباءُ[5] السوانح
تُحدِّقُ نحوي[6] أعْيُنًا لم يَلُحْ لها ... هُنالِكَ إنْسيٌّ[7] ولا هُو لائح
وقد زَأرَتْ أُسْدٌ تَقَحَّمْتُ غيلَها ... فقلت: تَعاوَتْ إنها لَنَوابح
وكم طاف بي للخَبْر[8] من طائف بها[9] ... فلم أُصْغِ سمعًا نحوها وهو صائح
ويَعْرِض لي وَجْهًا دميمًا ومنظرًا ... شنيعًا له تَبْدو عليه القبائح
فما راعني منه تلوُّنُ حاله ... بَلَ أيقظ عزمي فانْثَنى وَهْوَ كالح
فلمّا اكتَسَتْ شمسُ العَشِيّ شُحُوبَها ... ومالتْ إلى أُفْقِ الغروب تُنازح[10]
تَسَرْبَلْتُ للإدْلاج جُنْحَ دُجُنَّةٍ ... فهَا[11] أنذا غَرْسِي إلى القصد جانح
فخُضتُ[12] ظلامَ الليلِ والنَّجْمُ شاخصٌ ... إلَيّ بلَحْظٍ[13] طَرْفُه لِيَ لامح
يُرَدِّدُهُ[14] شَزْرًا إليَّ كأنما ... عليّ له حقدٌ به لا يُسامح
وراقَبَ من شكلٍ[15] السِّماكِ نظيرَه ... خلا أنَّ شكلي[16] أعْزَلٌ وَهْوَ رامح
يخطُّ وميضُ البَرْقِ لي منه أسْطُرًا ... على صفحة الظَّلْماء فهي لوائح
إذا خطَّها ما بين عيْنَيَّ لم أزلْ[17] ... أُكَلِّفُ دَمْعي نَحْوها فهو طامح
وما زلتُ سرًّا في حَشَا النبل[18] كامنًا ... إلى أن بدا مِن ناسِم الصُّبْح فاتح[19]

---

(١) في الكتيبة: «لِجَوْبها».
(٢) في الكتيبة: «باطح».
(٣) الغِرار: حدّ السيف.
(٤) في الأصل: «مضاه» والتصويب من الكتيبة.
(٥) في الأصل: «في الظُّبا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.
(٦) في الكتيبة: «عندي».
(٧) في الأصل: «سنًا لك أسْنى...» والتصويب من الكتيبة.
(٨) في الكتيبة: «للجنّ». والخَبْرُ: الناقة الغزيرة اللبن. محيط المحيط (غزر).
(٩) في الكتيبة: «لها».
(١٠) في الكتيبة: «تُبارح».
(١١) في الكتيبة: «فما أبدًا عَزمي إلى...».
(١٢) في الكتيبة: «وخضت».
(١٣) في الكتيبة: «بطرفِ لَحْظه لي...».
(١٤) في الأصل: «يردّه» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(١٥) في الأصل: «شكلي» والتصويب من الكتيبة.
(١٦) في الأصل: «الخلا لزمكلي» والتصويب من الكتيبة.
(١٧) في الكتيبة: «لم يَزَلْ».
(١٨) في الكتيبة: «الليل».
(١٩) في الكتيبة: «نافح».

وهَبَّ نسيمُ الصبحِ فانعَطَفتْ[١] له . قُدودُ غصون قد رَقَتْها صوادح[٢]
تَجاذبْن[٣] مِنْ ذكْري أحاديثَ لم تزلْ يُرَدِّدُها منها[٤] مُجِدٌّ ومازح
ومِلْتُ إلى التَّعْريس لما انقضى السُّرى أُرُوض له نفسي وعَزْمي جامح
ومال الكَرَى بي مَيْلةً سَكَنَتْ لها على نَصَبِ الوَعْثاء منّي الجوارح[٥]
كم[٦] أخذتْ منه الشَّمولُ بثارها فباتَ يُسَقّى[٧] وَهْوَ ريّانُ طافح
وقرَّبَتِ الأحلامُ لي كلَّ مأمَلٍ[٨] فأَدْنَتْهُ منيّ وهو في الحقِّ نازح
أرتْني وجُوهًا لو بذلْتُ لِقُرْبها حياتي لمَنْ بالقُرْب منه يُسامحُ
لَقلّ لها عُمْريَ وما مَلَكَتْ يدي وحَدَّثَتْ[٩] نفسي أنَّ تَجْرِيَ[١٠] رابح
وما زلْتُ أشكو بيننا غُصَص[١١] النَّوى وما طوَّحَتْ بي في الزمان الطوائح
فمنها ثُغورٌ للسُّرور بواسِمٌ لقُرْبه[١٢] ومنها للفِراق نَوائح
تُقَرِّبُها الأحلامُ مِنّي ودونها مهامِهُ فيها للهَجِير لوافح
وبَحْرٌ طَمَتْ أمواجُهُ وشآبيب[١٣] وقَفْرٌ به للسّالكين جوامح[١٤]
قضيتُ حقوقَ الشوقِ في زَوْرة الكَرى[١٥] فإنَّ زياراتِ الكَرَى لَموانح
يُقَرِّبْنَ[١٦] آمالا تباعَدَ بَيْنُها وتَغْبَتْ فيها بالنفوس الطَّوامح[١٧]
فلمّا تولّى عنّيَ النومُ أعقَبَتْ[١٨] همومٌ أثارتْها الشُّجونُ فَوادح
وعُدْتُ إلى شكوى البلاءِ[١٩] ولم أزلْ أُرَدِّدها والعُذْرُ منّيَ واضح
وما بلَّغَتْ عني مشافهةُ الكَرَى تُبَلِّغُها عنّي الرياحُ اللَّوافح[٢٠]
وحَسْبُكَ قَلْبٌ في إسار اشتياقِهِ وقد أسْلَمَتْه في يَدَيه الجوانحُ

---

(١) في الكتيبة: «فانقطعتْ».
(٢) في الكتيبة: «الصوادح».
(٣) في الأصل: «تجاذب ذكرى أحاديث لم أزل» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(٤) في الأصل: «مني» والتصويب من الكتيبة.
(٥) في الكتيبة: «الجوانح».
(٦) في الكتيبة: «وكم».
(٧) في الأصل: «يشقى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(٨) في الكتيبة: «الأحلام كلّ مؤمِّلِ».
(٩) في الكتيبة: «وصدقتْ».
(١٠) التَّجر: من تَجَرَ يَتْجُرُ تَجْرًا وتجارة أي باع وشرى. لسان العرب (تجر).
(١١) في الكتيبة: «مضض».
(١٢) في الكتيبة: «لقربيَ منها».
(١٣) في الكتيبة: «وسباسب».
(١٤) في الكتيبة: «جوائح».
(١٥) في الأصل: «للكرى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(١٦) في الأصل: «يُقْرِنَّ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(١٧) في الأصل: «للنفوس الطوايح» والتصويب من الكتيبة.
(١٨) في الكتيبة: «أقبلتْ».
(١٩) في الكتيبة: «البعاد».
(٢٠) في الكتيبة: «النوافح».

وفاته: قال شيخنا أبو بكر بن شبرين: توفي بسِجِلْماسة في صفر عام ستة عشر وسبعمائة.

محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل[(١)]

من أهل مالقة، يكنى أبا بكر.

حاله: من كتاب الإكليل: نابغةٌ[(٢)] مالِقية، وخَلَفٌ وبقيّة، ومَغْرِبي الوطن، أخلاقه مَشْرِقيّة. أزْمَع الرحيل إلى المشرق، مع اخضرار العود وسواد المَفْرِق[(٣)]، فلمّا توسَّطت السفينة اللُّجَج، وقارعت الثَّبَج[(٤)]، مال[(٥)] عليها البحر فسقاها كأس الحِمام، وأولدها قبل التمام، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها، وانضمّ على نوره سوادُها، جملة[(٦)] من الطلبة والأدباء، وأبناء السراة الحُسَباء، أصبح كلٌّ منهم مُطيعًا، لداعي الرَّدى وسميعًا، وأحيوا فُرادى وماتوا جميعًا، فأجْرَوا الدموع حزنًا، وأرسلوا العَبَرات عليهم مُزْنًا. وكأنّ[(٧)] البحرَ لمّا طَمَسَ سُبَل[(٨)] خلاصهم وسَدَّها، وأحال[(٩)] هَضْبَة سفينتهم وهَدّها، غار على نفوسهم النَّفيسة واستردها[(١٠)]. والفقيه أبو بكر مع إكثاره، وانقياد نِظامه ونِثاره، لم أظفر من أدبه إلّا بالقليل التافه، بعد وداعه وانصرافه.

فمن ذلك قوله وقد أبصر فتى عاثرًا[(١١)]: [الكامل]

ومُهَفْهَفٍ هافي المعاطفِ أحْوَرُ	فَضَحَتْ أشعَّةُ نوره الأقمارا
زَلَّتْ له قدمٌ فأصبح عاثرًا	بين الأنام لَعًا[(١٢)] لِذاكَ عِثارا
لو كنتُ أعلمُ ما يكون فَرَشْتُ في	ذاكَ المكانِ الخدَّ والأشفارا[(١٣)]

(١) ترجمة ابن مقاتل في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٣١٣) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧١).
(٢) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧١).
(٣) اخضرار العود وسواد المفرق: كنايتان عن الشباب.
(٤) الثَّبَج: الموج. لسان العرب (ثبج).
(٥) في النفح: «هال».
(٦) في النفح: «من جملة».
(٧) في الأصل: «وكان» والتصويب من النفح.
(٨) في النفح: «سبيل».
(٩) في النفح: «وأهال».
(١٠) في النفح: «فاستردّها».
(١١) هذه المقطوعة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧١).
(١٢) لعا: كلمة دعاء لمن عثر، ومعناها: أنعشه الله.
(١٣) الأشفار: أهداب العيون. لسان العرب (شفر).

وقال متغزّلًا[١]: [الطويل]

أيا لبني الرِّفاءِ تنضي ظباؤهم ... جُفونَ ظُباهم والفؤادُ[٢] كليمُ
لقد قَطَّعَ الأحشاءَ منهم مهفهفٌ ... له التِّبْرُ خَدٌّ واللُّجَيْنُ أديمُ
يُسَدِّدُ إذ يرمي قسيَّ حواجبٍ ... وأَسْهُمُها مِنْ مَقْلَتيهِ تسومُ
وتُسْقمني عيناه وهي سقيمةٌ ... ومن عَجَبٍ سُقْمٌ جناه سقيمُ
ويَذْبُلُ جسمي في هواه صَبابةً ... وفي وَصْلِهِ للعاشقين نعيمُ

وفاته: توفي في حدود أُخريات عام تسعة وثلاثين وسبعمائة غريقًا بأحواز الغِبْطة من ساحل ألمريّة.

محمد بن أحمد بن أحمد بن صفوان القيسي

ولد الشيخ أبي الطاهر، من أهل مالقة.

من كتاب الإكليل: نبيلٌ فطن، متحرك ذهن، كان أبوه، رحمه الله، يتبرّم بجداله، ويخشى مواقع رَشْق نِباله، ويُشِيم بأرقِّ الاعتراض في سؤاله، فيُشفق من اختلال خلاله، إذ طريقه إنما هي أذواق لا تشرح، وأسرار لا تفضح. وكان ممن اخترم، وجُدَّ حَبْلُ أمله وصُرم، فأفَل عقب أبيه، وكان له أدب يخوض فيه.

فمن ذلك، وقد أبصر فتى وسيمًا على ريحانه: [البسيط]

بدرٌ تجلّى على غصن من الآس ... يُبْري ويُسْقم فهو المُمْرِضُ الآسي
عادى المنازل إلّا القلب منزلة ... فما له وجميع الناس من ناس

وقال:

يا عالمًا بالسِّرِّ والجَهْر ... وملجأي في العُسْر واليُسْرِ
جُدْ لي بما أمَّلْتُه منك ... مولاي[٣] واجبِرْ بالرِّضا كَسْري

وفاته: في عام خمسة وسبعمائة.

محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوي[٤]

من أهل ألمريّة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بنَسَبه، وقد مرّ ذكر أبيه في العُمّال.

---

(١) المقطوعة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧١ - ٣٧٢).
(٢) في النفح: «فالفؤاد».
(٣) في الأصل: «يا مولاي» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) ترجمة البلوي في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٩٧).

حاله: هذا[١] الرجل من أبناء النِّعم، وذوي البيوتات، كثير السكون والحياء، آل به ذلك أخيرًا لِلُوثة[٢] لم يستفق منها، لَطَفَ الله به. حسنُ الخطِّ، مطبوعُ الأدب، سيّال الطبع، مَعِينه. وناب عن بعض القضاة، وهو الآن رهينُ ما ذكر، يتمنَّى أهلُه وفاته[٣]، والله وليُّ المعافاة بفضله[٤].

وجرى ذكره في الإكليل بما نصُّه[٥]: من أُولي الخِلال[٦] البارعة والخصال، خطًّا رائقًا، ونظمًا بمثله لائقًا، ودُعابةً يسترها تَجَهُّمٌ، وسكوتًا[٧] في طيِّه إدراك وتفهُّم. عُني بالرواية[٨] والتقييد، ومال في النظم إلى بعض التوليد، وله أصالة ثبتت[٩] في السَّرْو عروقُها، وتألّقت في سماء المَجادة بروقُها، وتصرّف بين النيابة في الأحكام الشرعية، وبين الشهادات العملية[١٠] المرعية.

شعره: ومن شعره فيما خاطبني به، مهنئًا في إعذار أولادي، أسعدهم الله، افتتح ذلك بأن قال:

قال يعتذر عن خدمة الإعذار، ويصل المدح والثناء على بُعْد الدار، وذلك بتاريخ الوسط من شعبان في عام تسعة وأربعين وسبعمائة[١١]: [الكامل]

لا عُذْرَ لي عن خِدمةِ الإعذار[١٢] ... ولئن[١٣] نأى وطني وشَطَّ مَزاري
أو عاقني عنه الزمانُ وصِرْفُه ... تَقْضي الأماني[١٤] عادة الأعصار
قد كنتُ أرغبُ أن أفوز[١٥] بخدمتي ... وأَحطَّ رَحْلي[١٦] عند باب الدار
بادي[١٧] المسَرّة بالصنيع[١٨] وأهله ... متشمِّرًا فيه بفضل إزاري[١٩]

---

(١) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٩٧).
(٢) في النفح: «إلى لوثَة». واللُّوثة: اختلاط في العقل يشبه الجنون. لسان العرب (لوث).
(٣) في النفح: «موته».
(٤) كلمة «بفضله» غير واردة في النفح.
(٥) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٩٨).
(٦) في النفح: «الاتصال».
(٧) في النفح: «وسكونًا».
(٨) في النفح: «بالدراية».
(٩) في النفح: «نبتت».
(١٠) في النفح: «العلمية».
(١١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٩٦ ـ ١٩٧).
(١٢) الإعذار: طعام يتخذ لسرور حادث. لسان العرب (عذر).
(١٣) في الأصل: «وإن» والتصويب من النفح.
(١٤) في الأصل: «نَقْض الأمان» والتصويب من النفح.
(١٥) في الأصل: «أفوت».
(١٦) في الأصل: «وأخطر حِلّي».
(١٧) في الأصل: «باب» والتصويب من النفح.
(١٨) في الأصل: «بالضبع» وكذا لا يستقيم المعنى.
(١٩) في الأصل: «إزار» بدون ياء، والتصويب من النفح.

مـن شـاء أن يـلقـى الـزمـانَ وأهـلـه ويـرى جـلا الإشـعـاع فـي الأفـكـار[١]
فـلـيأتِ حَـيَّ ابـن الـخـطـيب مُـلَبِّـيا فـيـفـوزَ بـالإعـظـام والإكـبـار
كم ضَمَّ من صِيدٍ[٢] كرام فَضْلُهُمْ[٣] يـسـمـو ويـعـلو فـي ذوي الأقـدار
إنْ جئتَ ناديَهُ فَتُبْ[٤] عنّي وقُلْ نـلْتَ الـمـنـى بـتـلطـفٍ ووقـار
يا من له الشرفُ القديم ومن له الـ ـحَسَبُ الـصـميمُ الـعِدُّ يـومَ فـخـار
يُـهْـنـيـك مـا قـد نِلْتَ مـن أملٍ بـه في الـفـرقـديـن الـنَّـيِّـرَيْـنِ لـساري[٥]
تَـجْـلاك قُـطْـبـا كـلّ تَـجْـرٍ[٦] بـاذخ أَمَـلانِ مَـرْجُـوَّانِ فـي الإعْـسـار[٧]
عـبـد الإلـٰـه وصِـنْـوُهُ قـمـرُ الـعـلا فـرعـانِ مِـنْ أصـلٍ زَكـا ونـجـار[٨]
نـاهـيك مـن قـمـرين فـي أفـق الـعُـلا يُـنْـمـيـهـمـا نـورٌ مـن الأنـوار
زاكي الأرومة[٩] مُعْرِقٌ[١٠] في مجده جَـمُّ الـفـضـائـل طَـيِّـبُ الأخـبـار
رَقَّـتْ طـبـائـعُـهُ وراق جـمـالُه فـكـأنـمـا خُـلِقـا مـن الأزهـار
وحَلَتْ[١١] شمائلُ حُسْنه فكأنما خـلـعـت عـلـيـه رقّـة الأسـحـار
فـإذا تـكـلّم قُـلْتَ طَـلٌّ[١٢] سـاقِـطٌ أو وَقْـعُ دُرٍّ مـن نُـحـور جَـواري
أو فَتَّ مِسْك الحبر[١٣] في قرطاسه بـالـروض[١٤] غِبَّ الـواكـف الـمِـدْرار
تـتـبسَّـم[١٥] الأقـلامُ بـيـن بـنـانـه فـتـريكَ نـظـمَ الـدرّ في الأسـطـار[١٦]
فـتـخـالُ مـن تـلك الـبـنـان كـمـائمًا ظَـلَّتْ[١٧] تُـفَـتِّـحُ نـاضـرَ الـنُّـوّار
تـلـقـاه فـيّـاضَ الـنـدى مُـتـهـلِّلًا يـلـقـاك بـالـبِـشْـرى والاسـتِـبْـشـار

(١) في النفح: ويرى جلالًا شاع في الأقطار.
(٢) في الأصل: «جيدٍ» والتصويب من النفح.
(٣) في النفح: «قَدْرُهُمْ».
(٤) في الأصل: «إذ حيث ناديه فقف...» والتصويب من النفح.
(٥) في الأصل: «يسار» والتصويب من النفح.
(٦) في النفح: «مَجْدٍ».
(٧) في الأصل: «الاعتبار» والتصويب من النفح.
(٨) في الأصل: «وبحار» والتصويب من النفح. والنِّجار: الأصل. لسان العرب (نجر).
(٩) الأرومة: أصل الشجرة ويستعار للحسب. محيط المحيط (أرم).
(١٠) في الأصل: «مغرق» والتصويب من النفح.
(١١) في الأصل: «وجَلَتْ»، وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١٢) في الأصل: «ظلّ» والتصويب من النفح.
(١٣) في النفح: «حبر المسك».
(١٤) في النفح: «فالروضُ».
(١٥) في الأصل: «تتّسم» والتصويب من النفح.
(١٦) في النفح: «الأمطار».
(١٧) في الأصل: «كأنما نهلت...» والتصويب من النفح.

بحرُ البلاغة قُسُّها وأيادُها ... سَحْبانها خَبرٌ من الأخبار[١]
إنْ ناظَرَ العلماءَ فَهْوَ إمامُهُمْ ... شرفُ المعارف، واحدُ النُّظّار
أرْبَى على العلماء بالصِّيت الذي ... قد طار[٢] في الآفاق كل مطار
ما ضرَّه إن لم يجيء متقدِّمًا ... بالسَّبْقِ[٣] يُعْرَفُ آخرُ المضمار
إن كان أخَّره الزمانُ لحكمةٍ ... ظهرتْ وما خفيتْ كضوء نهار
الشمسُ تُحْجَبُ وهي أعظمُ نيِّرٍ[٤] ... وتُرى من الآفاق إثْرَ دَراري
يا ابن الخطيب خطبْتُها لعلاكُمُ ... بِكْرًا تُزفُّ لكمْ من الأفكار
جاءتك من خجل على قَدَم الحيا ... قد طُيِّبَتْ بثَنائكَ المِعْطار
وأتتْ[٥] تؤدّي بعض حقٍّ واجبٍ ... عن نازحِ الأوطان والأوطار[٦]
مَدَّت يد التَّطْفيلِ نحو عُلاكُمُ ... فتوشَّحَتْ[٧] من جودكُمْ[٨] بنُضار
فابذلْ لها في النَّقد صَفْحَكَ إنها ... تشكو من التَّقصير[٩] في الأشعار
لا زلْتَ في دَعَةٍ وعزٍّ دائمٍ ... ومسرَّةٍ تَتْرى[١٠] مع الأعمار[١١]

ومن السُّلطانيات قوله من قصيدة نسيبها: [الطويل]

تَبَسَّمَ ثَغْرُ الدهر في القُضُب المُلْد ... فأذكى الحياءُ[١٢] خَجلةَ وَجْنَةَ الوَرْدِ
ونبَّه وَقْعُ الطَّلِّ ألحاظ نرجس ... فمال إلى الوَسْنان، عاد إلى الشُّهْد[١٣]
وثمَّ لِسَبْرٍ[١٤] الروضِ في مِسكة الدُّجى ... نسيم شذا الخير كالمسك والنَّدّ
وغطَّى ظلام الليل حُمرة أفقه ... كما دار مُسْوَدُّ العِذار على الخَدّ
وباتت قلوبُ الشُّهْبِ تخفق رقَّة ... لما حَلَّ بالمشتاق من لَوْعة الوَجْد
وأهمَى عليه الغيم أجفان مُشْفق ... يُذَكِّرُهُ[١٥] فاسْتَمْطَرَ الدَّمْعُ للخدّ

---

(١) في النفح: «خَبَرٌ من الأخبار».
(٢) في الأصل: «كان» والتصويب من النفح.
(٣) في الأصل: «السَّبْقُ» والتصويب من النفح.
(٤) في الأصل: «تِبْر» والتصويب من النفح.
(٥) في الأصل: «وأنت» والتصويب من النفح.
(٦) في الأصل: «الإمكان والأفكار» والتصويب من النفح.
(٧) في الأصل: «فتوحَّشَتْ» والتصويب من النفح.
(٨) في النفح: «حَلْيكم».
(٩) في الأصل: «شكوى التقصير..» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١٠) تَتْرى: متتابعة. محيط المحيط (ترى).
(١١) في الأصل: «الأعصار» والتصويب من النفح.
(١٢) في الأصل: «الحيا»، وكذا ينكسر الوزن.
(١٣) في الأصل: «فمال الوسنان وعاد إلى الشهد» وكذا ينكسر الوزن.
(١٤) في الأصل: «سبر» وكذا ينكسر الوزن.
(١٥) في الأصل: «بذكره» وكذا يختل الوزن.

ومـنـهـا:

كأنْ[(١)] لم أقِف في الحيّ وَقْفَةَ عاشق ... غداة افترقْنا والنّوى زَنْدها يُعْدي[(٢)]
وناديتُ حادي العِيس عرِّجْ لعلّني ... أبثُّك وَجْدي إن تمرّ على نَجْدِ
فقال اتّئذْ يا صالح ما لك ملجأ ... سوى المَلِكِ المنصور في الرِّفق والرِّفْدِ

وممّا خاطبني به قوله: [الخفيف]

عَلِّلوني ولو بوعدِ مُحالِ ... وحِلُوني ولو بطيف خيالِ
واعلموا أنني أسيرُ هواكمْ ... لست أنفكُّ إنما[(٣)] عن عِقال
فدموعي من بينكُمْ في انسكاب ... وفؤادي من سحركُمْ في اشتغال
يا أُهَيْل الحِمَى كفاني غرامي ... حَسبي[(٤)] ما قد جرّ... [(٥)] ال
مَنْ مُجيري مِن لَحْظِ ريمٍ ظلوم ... حلَّل الهجْر بعد طيب الوصال
ناعسُ الطَّرْف أسمر الجفن مني ... طال منه الجوى بطول الليالي[(٦)]
بابليُّ اللّحاظ أضْمَى فؤاده ... ورماه من غُنْجه بنبال
وكسا الجسم من هواه نُحولا ... قصْده في النّوى بذاك النحال
ما ابتدا في الوصال يومًا بعطف ... مُذ روى في الغرام باب اشتغال
ليس لي منه في الهوى من مُخبر ... غير تاج العُلا وقطب الكمال
علم الدين عزُّه وسناه ... ذِرْوَة المجد بَدْرُ أفق الجلال
هو غيثُ النّدى وبَحْرُ العطايا ... هو شمسُ الهدى فريدُ المعالي[(٧)]
إن وَشَى في الرقاع بالنقش قلْنا ... صَفْحَةُ الطِّرْسِ حُلِّيَتْ باللآلي[(٨)]
أو دَجا الخطب فهو فيه شِهاب ... رايةُ الصبح في ظلال[(٩)] الضلال
أو يَني العَضْب فهو في الأمن ماض ... صادقُ العزم ضيق المجال
لستَ تلقى مِثاله في زمان ... جلّ في الدّهر يا أخي عن مثال
قد نأى حبّي ما[(١٠)] له عن دياري ... لا لِجَدْوى ولا لنَيْل نوال

---

(١) في الأصل: «كأني» وكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «يُعدُّ»، وكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «إلّا» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «حَسْبي بما» وكذا ينكسر الوزن.
(٥) بياض في الأصل.
(٦) في الأصل: «الليال» بدون ياء.
(٧) في الأصل: «المعالِ» بدون ياء.
(٨) في الأصل: «باللآلِ» بدون ياء.
(٩) في الأصل: «ظلل» وكذا ينكسر الوزن.
(١٠) كلمة «ما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.

لكنِ اشْتَقْتُ أن أرى منه وجهًا نُورُهُ فاضحٌ لنورِ الهلالِ
وكما هِمْتُ فيه ألثم كفًا قد أتتْ بالنَّوال قبل السؤال
سألَ[1] ابن الخطيب عُذْرًا أجابت تَلْثِمُ النَّعْلَ قبل شِسْع[2] النعال
وتُوَفّي حَقَّ الوزارة عمن هو مِلْكٌ لها على كل حال

محمد بن محمد بن الشُّدَيِّد[3]

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله.

حاله: ذكر في الإكليل بما نصُّه[4]: شاعر مُجِيدٌ حَوْكَ الكلام، ولا يَقْصُرُ فيه عن درجة الأعلام. رحل إلى الحجاز لأوّل أمره فطال بالبلاد المَشْرقية ثَواؤه، وعُمِّيَت أنباؤه، وعلى هذا العهد وقفتُ له على قصيدة بخطِّه غرضُها نبيل، ومرعاها غير وَبيل، تدلّ على نَفْس ونَفَس، وإضاءة قَبَس، وهي: [الوافر]

لنا في كلِّ مَكْرَمةٍ مَقامُ ومن فوقِ النجوم لنا مُقامُ
رَوِينا من مياه الْمَجدِ لمّا وَرَدْناها وقد كَثُرَ الزحام

ومنها:

فنحن هُمُ وقُلْ لي مَنْ سوانا لنا التَّقديمُ قُدْمًا والكلامُ
لنا الأيدي الطِّوالُ بكلِّ ضرب[5] يُهَزُّ به لدى الروع الحُسام
ونحن اللّابسونَ لكلِّ دِرْعٍ يصيبُ السُّمْرَ[6] منهنَّ انْثلامُ
بأندلسٍ لنا أيامُ حربٍ مَواقِفُهُنَّ في الدنيا عظام
ثَوى[7] منها قلوبَ الرُّوم خوفًا[8] يُخَوِّفُ منه في المَهْدِ الغلامُ
حَمَيْنا جانبَ الدين احتسابًا فها هو لا يُهانُ ولا يُضام
وتحت الرايةِ الحمراءِ منّا كتائبُ لا تُطاق ولا تُرام
بنو نَصْرٍ وما أدراك ما هم أُسُودُ الحرب والقومُ الكرام

---

(١) في الأصل: «سألها» وكذا ينكسر الوزن.
(٢) الشِّسْع: قِبال النَّعْل. محيط المحيط (شسع).
(٣) ترجمة ابن الشديد في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٢).
(٤) النص مع القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣).
(٥) في النفح: «صَوْب».
(٦) في الأصل: «الشَّمْس» والتصويب من النفح؛ لأن كلمة «السُّمْر» أنسب للمعنى.
(٧) ثوى: أقام. لسان العرب (ثوى). (٨) في النفح: «خوف».

لهمْ في حربهمْ فَتَكاتُ عمروٍ فللأعمارِ عِنْدَهُمُ انصرامُ
يقولُ: عُداتُهُمْ مهما أَلَمُّوا أتونا ما من الموت اعتصام
إذا شرعوا الأسِنَّةَ يومَ حربٍ فَحَقِّقْ أنّ ذاك هو الحِمام
كأنَّ رماحهم فيها نجومٌ إذا ما أشبهَ الليلَ الغمام[1]
أُناسٌ تُخْلِفُ الأيامُ مَيْتًا بحيٍّ مِنْهُمُ فلهمْ دوام
رأينا من أبي الحجاج شخصًا على تلك الصفات له قيام
مُوَقَّى العِرْضِ محمودُ السجايا كريمُ الكَفِّ مِقْدامٌ همام
يجولُ بذهنه في كلّ شيءٍ فيدركه وإنْ عَزَّ المَرام
قَويمُ الرأي في نُوَبِ الليالي إذا ما الرأي فارقه القوام
له في كلّ معضلةٍ مَضاءٌ مَضاءُ الكَفُّ ساعده[2] الحُسام
رؤوفٌ قادرٌ يُغْضي ويعفو وإنْ عَظُمَ اجتناءٌ واجترام
تطوفُ ببيتِ سُؤْدُدِهِ القوافي كما قد طاف بالبيت الأنامُ
وتسجدُ في مَقام عُلاهُ شكرا ونعمَ الرُّكْنُ ذلك والمقام
أفارِسَها إذا ما الحَرْبُ أخْنَتْ[3] على أبطالها وَدنا الحِمام
وممطرها إذا ما السُّحبُ كفَّتْ وكَفُّ أخي الندى أبدًا غمام
لك الذكرُ الجميلُ بكلّ قطرٍ لك الشرفُ الأصيلُ المُسْتدامُ
لقد جُبْنا[4] البلاد فحيث سِرْنا رأينا أنَّ مُلْكَكَ لا يُرام
فَضلْتَ ملوكها شرقًا وغربًا وبتَّ لملكها يقظًا وناموا[5]
فأنتَ لكلّ مَغْلُوَّةٍ مَدارٌ وأنتَ لكلّ مَكْرمةٍ إمام
جَعَلْتَ بلادَ أندلس إذا ما ذُكِرَتْ تغارُ مصْرُ والشآم
مكانٌ أنتَ فيه مكانُ عزٍّ وأوطانٌ حَلَلْتَ بها كرام
وَهَبْتُكَ مِنْ بناتِ الفكر بِكْرا لها من حُسْنِ لقياك ابتسام
فَنَزِّهْ طَرْفَ مجدك في حُلاها فللمجدِ الأصيل بها اهتمامُ

---

(١) في النفح: «القتام». (٢) في النفح: «ساعدها».
(٣) أخْنَتْ على أبطالها: أتت عليهم وأهلكتْهم. لسان العرب (خنا).
(٤) في الأصل: «جينا» والتصويب من النفح. (٥) في الأصل: «ونام» والتصويب من النفح.

محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن مجاهد ابن أبي الخصال الغافقي(١)

الإمام البليغ، المحدِّث الحجَّة، يكنى أبا عبد الله. أصله من فَرْغَليط من شَقُورة، من كورة جيّان، وسكن قرطبة وغرناطة.

حاله: قال ابن الزُّبير عند ذكره: ذو الوزارتين، أبو عبد الله بن أبي الخصال. كان من أهل المعارف الجمَّة، والإتقان لصناعة الحديث، والمعرفة برجاله، والتقييد لغريبه، وإتقان ضَبْطه، والمعرفة بالعربية واللغة والأدب، والنَّسَب والتاريخ، متقدمًا في ذلك كله. وأما الكتابة والنظم، فهو إمامهما المتفق عليه، والمُتَحاكم فيهما إليه.

ولما ذكره أبو القاسم الملّاحي بنحو ذلك قال: لم يكن في عصره مثله، مع دين وفضل وورع.

قال أبو عمرو ابن الإمام الإسْتِجّي في سِمْط الجُمان، لما ذكره: البحر الذي لا يُماتح ولا يُشاطر، والغيث الذي لا يُساجل ولا يُقاطر، والروض الذي لا يُفاوح ولا يُعاطر، والطَّود الذي لا يزاحم ولا يخاطر، الذي جمع أشتات المحاسن، على ماءٍ غير ملح ولا آسِن؛ وكثُرت فواضله، فأمِنت المُماثل والمُحاسن، الذي قُصِرت البلاغة على مَختده، وألقيت أزمة الفصاحة في يده، وتشرّفت الخطابة والكتابة باعتزائهما إليه، فنَثَل كِنانتها، وأرسل كمائنها، وأوضح أسرارها ودفائنها، فحَسْبُ الماهر النِّحرير، والجَهبذ العلّامة البصير إذا أبدع في كلامه، وأيْنع في روض الإجادة نِثاره ونظامه، وطالت قَنى الخُطيّة الذبل أقلامه، أن يستنير بأنواره، ويقْتَضي بعض مناهجه وآثاره، وينثر على أثوابه مِسْك غُباره، وليعلم كيف يتفاضل الخبَر والإنشاء، ويتلو إنّ الفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء.

وعضّه العَقُور أبو نصر في قَلائده، حيث قال(٢): «هو وإن كان خامل المَنْشَأ نازِلَه، لم يُنْزله المجدُ منازله، ولا فرَّع للعَلاء هِضابًا، ولا ارتشف للسّنا رضابًا، فقد تميّز بنفسه، وتحيّز من أبناء(٣) جنسه، وظهر بذاته، وفَخَر بأدواته».

---

(١) يكنى ابن أبي الخصال أبا عبد الله، وترجمته في المعجب (ص ٢٣٧، ٢٤٠) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٨٦) وقلائد العقيان (ص ١٧٤) والمطرب (ص ١٨٧) وبغية الملتمس (ص ١٣١) والصلة (ص ٨٥٤) ورايات المبرزين (ص ١٨٨) والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ١٥٢) والمغرب (ج ٢ ص ٦٦) والمقتطف من أزاهر الطرف (ص ٨٧، ٨٩) وبغية الوعاة (ص ١٠٤).

(٢) قلائد العقيان (ص ١٧٤).

(٣) كلمة «أبناء» ساقطة في القلائد.

مشيخته: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير في الصلة[1]: روى عن الغساني، والصَّدفي، وأبي الحسن بن الباذش، وأبي عمران بن تَليد، وأبي بحر الأسدي، وأبي عبد الله النِّفَزِي، وجماعة غيرهم.

تواليفه: قال الأستاذ: وأمّا كتبه وشعره وتواليفه الأدبية، فكل ذلك مشهور، متداول بأيدي الناس، وقلَّ من يُعلم بعده، أن يجتمع له مثله، رحمه الله.

مَن روى عنه: روى عنه ابن بَشْكوال، وابن حبيش، وابن مضاء وغيرهم، وكل ذلك ذكره في رِحاله، وهو أعرف بتقدُّمه في احتفاله.

شعره: وله شعر كثير، فمن إخوانياته ما خاطب به أبا إسحٰق بن خفاجة: [الكامل]

هبَّ النسيم هبوب ذي إشفاق ... يُذهبن الهوى بجناحه الخفّاقِ
وكأنما صُبْحُ الغصونِ بنَشْوة ... باحت لها سرائر العشاق
وإذا تلاعبت الرياحُ ببانِه ... لعب الغرامُ بمهجة المشتاق
مَهْ يا نسيمُ فقد كَبُرْتَ عن الصَّبا ... لم يبق من تلك الصَّبابة باق
إن كنتَ ذاك فلست ذاك ولا ... أنا قد أذِنتُ[2] مفارقي بفراق
ولقد عَهِدْتُ سُراك من عُدَد الهوى ... والموت في نظري وفي استنشاق
أيام لو عَنَّ السُّلوّ لخاطري ... قَرَّبْتُهُ هَدْيًا[3] إلى أشواقي[4]
الهوى إلْفِي والبطالة مَرْكبي ... والأمنُ ظِلّي والشبابُ رواقي[5]
في حيث قُسِّمتِ المُدامة قسمة ... ضِيزى[6] لأن السكر من أخلاقي[7]
لا ذنب للصَّهْباء أني غاصب ... ولذاك قام السكر باستحقاق
ولقد صدَدْتُ الكأس فانقبضتْ بها ... من بعدها انبَسطتْ يمينُ السَّاقي
وتركتُ في وسط النَّدامى خلَّة ... هامت بها الوُسْطى من الأعلاق
فاسْتَسْرَفُوني مُذْكرين وعندهم ... أنى أدين اللهو دين نفاق
وحَبابُها نَفَث الحباب وربما ... سَدِكت يد الملسوع منه بِراق

---

(١) المراد «صلة الصلة».
(٢) في الأصل: «أذَنتك» وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) الهَدْي: ما يُهدى إلى الحَرَم من النَّعَم. لسان العرب (هدى).
(٤) في الأصل: «أشواقِ».
(٥) في الأصل: «رواقِ».
(٦) القسمة الضِّيزى: الناقصة الجائرة. محيط المحيط (ضاز).
(٧) في الأصل: «من أخلاقِ».

وكأنه لما توقّر فوقها[١] نورٌ تَجسَّم من نَدى الأحدَاق
لو بارح نَفْح النّوى في روضة فأثارها وسَرى عن الأحداق
ولقد جَلُوا والله يَذرأ كيدهم فتّانةَ الأوصافِ والأعراق
أغوى بها إبليسُ قِدْمًا آدمَ[٢] والسِّرُّ يُرْمى في هواها الباقي[٣]
تالله أصرف نحوها وجْدَ الرضا لو شَعْشَعت برضا أبي إسحٰق

ومن نسيبه[٤]: [المنسرح]

وليلةٍ عَنْبَريَّةِ الأُفُقِ رَوَيتُ فيها السرورَ من طُرُقِ
وكنت حَرّانَ فاقتدحْتُ بها نارًا من الرّاح بَرَّدَتْ حُرَقي[٥]
وافت[٦] بها[٧] عاطلًا وقد لَبِسَتْ غَلالةً فُصِّلَتْ من الحَدَقِ
فاجا[٨] بها الدهرُ من بنيه دُجًى[٩] لقيته كالإصباح في نَسَق[١٠]
قامتْ لنا في المقام أوْجُهُهُمْ وراحُهُمْ بالنجوم والشَّفَق
وأطلع[١١] البدر من ذُرى غُصن تَهفو عليه القلوبُ كالوَرَق
من عبدِ شمسٍ بدَا سناه وهل ذا[١٢] النور[١٣] إلّا لذلك[١٤] الأفقِ
مَدَّ بحمراءَ مِنْ مُدامته بيضاءَ كفٌّ[١٥] مِسْكِيَّةَ العَبَق
فخلتها وردة مُنَعَّمة تحمل من سُوسنٍ على طبق

---

(١) في الأصل: «من فوقها» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «أدمًا».
(٣) في الأصل: «وهي السِّر يرتمي في هواها الباقِ».
(٤) القصيدة في المغرب (ج ٢ ص ٦٧) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٩٣).
(٥) في الأصل: «حرقِ». (٦) في الذخيرة: «حَلَّتْ».
(٧) في المصدرين: «بنا».
(٨) في الأصل: «فأجا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المغرب. وفي الذخيرة: «فجاءها الدهر...». وفاجا: أي: فاجأ، وقد خففها لكي لا ينكسر الوزن.
(٩) في الذخيرة: «هوًى».
(١٠) رواية عجز البيت في المصدرين هي: بفتية كالصباح في نسقِ.
(١١) في المغرب: «واطّلع».
(١٢) في الأصل: «ذاك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(١٣) في المغرب: «البدر».
(١٤) في الأصل: «لذاك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(١٥) في الذخيرة: «كفًّا».

يَشْرَبُ في الراح حين يَشْرَبُها[١] ما غادرتْ مُقْلتاه من رَمق[٢]

وقال[٣]: [المنسرح]

يا حبذا ليلةٌ لنا سلَفَتْ أَغْرَتْ بنفسي الهوى وما[٤] عَرَفَتْ
دارتْ بظلمائها المُدامُ فكم نَرْجِسةٍ من بنفسِج قُطِفَتْ

وقال في مُغَنٍّ زار، بعده أغبَّ وشطَّ المزار[٥]: [الكامل]

وافى وقد عَظُمَتْ عليَّ ذنوبُهُ في غَيبةٍ قَبُحَتْ بها آثارُهُ
فمحا إساءَتَهُ لنا[٦] إحسانُهُ واستغفرتْ لذنوبه أوتارُهُ

وقال يعتذر عن استبطاء مُكاتَبة[٧]: [الطويل]

ألم تعلموا[٨] والقَلْبُ رَهْنٌ لديكُمْ يخبِّرْكُمْ[٩] عني بمُضْجِره[١٠] بَعْدي؟
فلو[١١] قَلَّبَتْني[١٢] الحادثاتُ مكانكُمْ لأَنْهَبْتُهَا وَفْري وأَوْطأْتُها[١٣] خَدِّي
ألم تعلموا أني وأهلي وواحدٌ[١٤] فداءٌ[١٥] ولا أرضى بتَفْدِيَةٍ[١٦] وَحْدي؟

ومن قوله في غرض المدح يخاطب تاشفين بن علي، ويذكر الوقعة بكَرَكى، يقول فيها: [البسيط]

الله أعطاك فَتْحًا غير مشترك وردَّ عزمك عن فَوْتٍ إلى دَرَكِ

---

(١) في الأصل: «نشرتُ. . . حين نشرتُها» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين، وجاء في الذخيرة: «بالراح» بدل: «في الراح».
(٢) في المغرب: «من رمقي».
(٣) البيتان في الذخيرة (ق ٣ ص ٧٩٣ ـ ٧٩٤). وبغية الوعاة (ص ١٠٥).
(٤) في الذخيرة: «وقد».
(٥) البيتان في قلائد العقيان (ص ١٧٥) وبغية الملتمس (ص ١٣١) والمطرب (ص ١٨٧) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٩٦).
(٦) في الذخيرة: «بنا».
(٧) الأبيات في قلائد العقيان (ص ١٧٧) والمطرب (ص ١٨٨) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٩٧).
(٨) في الذخيرة: «ألم تسألوا».
(٩) في الذخيرة: «فيخبركم».
(١٠) في المصادر: «بمضمره».
(١١) في القلائد والمطرب: «ولو».
(١٢) في المطرب والذخيرة: «قبلتني».
(١٣) في الأصل: «واودلّاتها». والتصويب من المصادر الثلاثة.
(١٤) في المصادر: «وواحدي».
(١٥) في الأصل: «فدا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر.
(١٦) في المطرب: «بتَقْدمتي».

أرسلْ عِنان جوادٍ أنت راكبُه ... واضمُمْ يديك ودَعْه في يد المَلِكِ
حتى يصيرَ إلى الحسنى على ثقة ... يُهدي سبيلك هادٍ غير مُؤتعك
قد كان بُعْدُك للأعداء مَملكة ... حتى استَدَرَّت عليهم كورةُ الفلك
سارتْ بك الجرْدُ[1] أو طارَ الفضاءُ[2] بها ... والحينُ قد قيَّد الأعداء في شَرَك
فما تركْتَ كمِيًّا غير مُنعَفِر ... ولا تركْتَ نجيعًا غير مُنسَفك
ناموا وما نام موتور على حَنَقٍ ... أسدى إذًا فرصة ليست[3] من السلك
فَصَبَّحَتْهُمْ جنودُ الله باطشةً ... والصبح من عَبَرات الفجر في مُسُك
من كل مُبتدر كالنَّجم مُنكدر ... تفيض أنفسهم غيظًا من المَسَك
فطاعنوكم بأرماح وما طَعنت ... وضاربوكم بأسياف ولم تَحِك
تَعَجَّلَ النَّحر فيهمْ قبل موسمه ... وقدَّمَ الهَدْيَ منهمْ كلُّ ذي نُسُك
فالطيرُ عاكفةٌ والوحشُ واقفةٌ ... قد أثقلَتْها لحومُ القوم عن حَرَك
عَدَتْ على كل عادٍ منهُمُ أُسَرٌ ... بُعِثْنَ[4] في حَنْجرٍ[5] رَحْبٍ وفي حَنَك
كلي هنيئًا مريئًا واشكري مَلِكًا ... قَرَتْكِ أسيافُه في كل مُعْتَرِكِ
فلو تَنَضَّدت الهامات إذ نشرت ... بالقاع للغيظان بالنَّبك
أبرح وطالب بباقي الدهر ماضيه ... فيوم بَدْرٍ أقامه الفيء في فَدَك
وكم مضى لك من يوم بِنْتَ له ... في ماقط برماح الحظِّ مُشْتبك
بالنَّقْع مُرْتكم بالموت مُلْتئم ... بالبِيض مشتمل بالشمز مُختبك
فحصُ القِباب إلى فحص الصعاب ... إلى أرْيُولة مَداساتٍ إلى السَّكك
وكم على حَبْر محمود وجارته ... للرُّوم من مُرْتكل غير مُتَّرك
وفُيِّت للصُّفر حتى قِيل قد غدروا ... سَمَوْت تطلب نصر الله بالدَّرك
فأسْلَمتهم إلى الإسلام غَدْوَتهم ... وأذْهَب السيف ما بالدِّن من حُنُك
يا أيها الملك السامي بهمَّته ... إلى رضى الله لا تَعْدَم رضى المَلِك
ما زلت تُسمعه بُشرى وتُطلعه ... أخرى كدرٍّ على الأجياد مُنسَلك
بيَّضت وجه أمير المؤمنين بها ... والأرض من ظُلْمة الإلحاد في حَلَك

---

(١) الجُرْد: جمع أجرد وهو الفرس السبّاق. محيط المحيط (جرد).
(٢) في الأصل: «الفضا» وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) كلمة «ليست» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى معًا.
(٤) في الأصل: «بعثه» وهكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.
(٥) المراد الحنجرة وهي الحلقوم.

فاستَشعر النَّصر واهتزَّت منابرُه بذكر أرْوَع للكفار مُختَنك
فأخلَدَك ولمن والاك طاعته خُلودَ بِرٍّ بتقوى الله مُمْتَسِك
وافيتَ والغيثُ زاخر قد بكى طَربًا لمَّا ظفرت وكم بلَّله من الضَّحك
وتمَّم الله ما أنشأت من حُسْن بكل مُنتَسِبك منه ومُنتمك
وعن قريب تُباهي الأرض من زهير سماها بها غَضَّة الحَبَك
فعُد وقُد واعتمدْ واحمدْ وسُدْ وأبِد وقُلْ وصِلْ واستَطِلْ واستولِ وانْتَهِكِ
وحسْبُك الله فردًا لا نظير له تغنيك نُصْرته عن كل مُشْترك

ومن قوله في غرض الرثاء، يرثي الفقيد أبا الحسن بن مغيث[(١)]: [البسيط]

الدهر ليس على حُرّ بمؤتَمن
وأيّ عِلْق تخطَّته يَدُ الزمنِ
يأتي العَفَاء[(٢)] على الدنيا وساكنها
كأنه[(٣)] أدبرٌ لم يَسْكُنْ إلى سَكَنِ
يا باكيًا فُرْقَةَ الأحبابِ عن شَحَطٍ[(٤)]
هلّا بكيتَ فراقَ الرُّوح للبَدَن؟
نورٌ[(٥)] تَقَيَّد[(٦)] في طِينٍ[(٧)] إلى أجل
وانحاز[(٨)] عُلْوًا[(٩)] وخلَّى الطينَ في الكَفَن[(١٠)]
كالطير في شرك يسمو إلى دَرَك
حتى تخلَّص من سقم ومن دَرَن
إن لم يكن في رضى الله اجتماعُهما
فيا لها صَفْقَةً تَمَّتْ على غَبَنِ[(١١)]

---

(١) وردت من هذه القصيدة فقط الأبيات الثالث والرابع والسادس والسابع في المعجب (ص ٣١٣ - ٣١٤) منسوبة إلى ابن طفيل، صاحب رسالة «حي بن يقظان».
(٢) في الأصل: «العفا» وكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «كأن» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) الشَّحط: البعد.
(٥) النور: كناية عن الروح.
(٦) في المعجب: «تردَّدَ».
(٧) الطين: كناية عن البدن.
(٨) في المعجب: «فانحاز».
(٩) في الأصل: «عَنْوًا»، والتصويب من المعجب.
(١٠) في المعجب: «الكفن».
(١١) في الأصل: «... الله التقي وهما فيا لها صفقه بُتَّتْ على دَغَنِ»، والتصويب من المعجب. والغبن: الخطأ.

يـا شَـدَّ مـا افـتـرقـا مـن بـعـد مـا اغـتـنـقـا[١]
أظـنُّـهـا مـحـرقـةً[٢] كـانـت عـلـى دَخَـن[٣]
وربَّ ســارٍ إلــى وجــه يُــسَــرُّ بــه
وافـى وقـد نـبـت الـمـرعـى عـلى الـدِّمَـن
أتــى إلــى الله لا ســمــعٌ ولا بــصــرٌ
يـدعـو إلـى الـرُّشـد أو يُـهـدي إلـى الـسُّـنَـن
فــي كــل يــوم فِــراق لا بــقــاء لــه
مــن صــاحــبٍ كَــرمٍ أو ســيِّــد قِــمــن
أعـيـا أبـا حَـسَـن فَـقْـد الـذيـن مـضـوا
فَـمـنْ لـنـا بـالـذي أعـيـا أبـا حـسـن
كـأنَّ الـبـقـيـة فـي قـوم قـد انـقـرضـوا
فـهـاج مـا شـاء ذاك الـقـرن مـن شَـجَـن
يُــعــدّ فِــدًا وفــي أثــوابــه رمــز مــن
كــل ذي خُــلُق عــمــرو وذي فِــطَــن
وإنّ مــن أوْجَــدَتــنــا كــلَّ مُــفْــتَــقــد
حــيــاتــه لــعــزيــز الــفَــقْــد والــظَّــعَــن
مــن لِلْمــلوك إذا خَــفَّــتْ حــلومــهــم
بــمــا يُــقــاوم ذاك الــطــيــش مــن سَــكَــن
ومــنــهــا:

يا يونس لا تَسِر أصبحنا لوَحْشَتنا نشكو اغترابًا وما بِنّا عن الوطن
ويـا مُطاعًا مُطيعًا لا عناد له في كل أمر على الإسلام مُؤتمن
كم خَطَتْ كارتجاج البحر مُبْهمة فَرَّجْتها بحُسام سُلَّ من لَسَن
طود المهابة في الجلا وإن جَذَبَتْ عِـنـانـه خَلْوة هـزَّت ذُرَى وَتَـر
أكْرِم به سببًا تلقى الرسول به لخمسٍ واردة في الفَرْض والسُّنَن
ناهيك من مَنْهج سَمَّ القصور به هـوىً فـمـن قَـدْر عالٍ إلـى فَـدَن
من كل وادي التُّقى يسقى الغمام به فيستهل شروق الضَّرع باللبن
تجمّلَتْ بك في أحسابها مُضَر وأصْلُ مجدك في جُرْثومة اليمن

(١) في المعجب: «اعتلقا». وألف الاثنين يعود إلى الروح والبدن.
(٢) في المعجب: «هدنة». (٣) الدَّخَنُ: الفساد.

من دولة حولها الأنصار حاشدة ... في طامح شامخ الأركان والقُنَن

من الذين هُمْ رووا وهُمْ نصروا ... من عَيْسة الدِّين لا من جَذْوة الفتن

إن يَبْدُ مطّلع منهم ومُستمع ... فارغبْ بنفسك عن لَحظٍ وعن أُذُن

ما بَعْد منطقه وشيٌ ولا زَهَرُ ... ولا لأعْلاق ذاك الدُّرّ من ثَمَن

أقول وفينا فضلُ سُؤدَده ... أستغفر الله ملء السِّر والعَلَن

محمدٌ ومغيثٌ نِعْم ذا عوضًا ... هما سُلالة ذاك العارض الهَتِن

تقيَّلا هَدْيه في كل صالحة ... نصر السّوابق عن طَبْع وعن مَرِن

ما حلّ حَبْوَته إلّا وقد عقدا ... حُبًا بما اختار من أيْدٍ ومن منن

غُرُّ الأحِبَّة عند حسن عهدهما ... وإن يؤنسَ في الأثواب والجِنَن

علمًا وحلمًا وترحيبًا وتَكْرِمة ... للزائرين وإغضاء على زَكَن

يا وافد الغيث أوْسِعْ قبره نزَلا ... ورَوْمًا حول ذاك الدِّيم من تُكن

وطبق الأرض وَبْلا في شفاعته ... فنعم رائد ذاك الرِّيف واليَمَن

وأنتِ يا أرض كوني مرَّةً بأبي ... مثوًى كريمٍ ليوم البَعْث مُرْتهن

وإن تردَّت بتُرْبٍ فيك أعظُمه ... فكم لها في جِنان الخُلْد من رَدَن

ومن شعره قوله مخمِّسًا، كتب بها، وقد أقام بمراكش يتشوق إلى قرطبة: [الطويل]

بَدَت لهم بالغُور والشَّمل جامعُ ... بروقٌ بأعلام العُذَيب لوامعُ

فباحت بأسرار الضمير المدامعُ ... ورُبَّ غرام لم تنله المسامعُ

أذاع بها من فيضها لا يُصَوِّبُ[1]

ألا في سبيل الشَّوق قَلْبٌ مؤثّلُ ... بركب إذا شاء والبروق تحملُ

هو الموت إلّا أنني أتحمَّلُ ... إذا قلت هذا مَنْهلٌ عَزَّ مَنْهَلُ

ورايةُ برقٍ نحوها القلبَ يَجنِبُ

أبى الله إمّا كلُّ بُعْدٍ فثابتُ ... وإما دنُوُّ الدار منهمْ ففائتُ

ولا يلفت البين المصَمِّم لافتُ ... ويا ربّ حيّ البارقَ المتهافتُ

غرابٌ بتفريق الأحبَّة يَنْعَبُ

---

(١) في الأصل: «... فيضها التصويب» وهكذا ينكسر الوزن، ولا تتلاءم القافية مع التي تلتها.

خذوا بدمي ذاكَ الوَسِيق المُضَرَّجا ... وروضًا بغَيْض العاشقين تأَرَّجا
عفى الله عنه قاتلًا ما تحرَّجا ... تمشَّى الرَّدى في نَشْره وتدرّجا
وفي كل شيء للمَنِيَّة مَذْهَبُ

سَقى الله عهدًا قد تقلَّص ظلُّه ... حَيا قَطْرِه يحيى الرُبا مستهلُّهُ
وعى به شخصًا كريمًا أُجِلُّه ... يُصِحُّ فؤادي تارة ويُعِلُّهُ
ويُلمُّه بالذكر طَوْرًا ويُشْعبُ

رماني على قُرْبٍ بشَرْخ ذكائِهِ ... فأغشَتْ جُفوني نظرةٌ من ذكائِهِ
وغُصَّتْ بأدنى شُعبة من سمائه ... شِعابي وجاء[1] البحر في غُلَوائه
فكلٌّ بقرب[2] رذع خَدَّيه يركبُ

ألم يأته أنّي ركنتُ قعودا ... وأجمعْتُ عن وَفْزِ الكلام قعودا
ولم أعتصر للذِّكر بَعْدك عودا ... وأزهَقني هذا الزمان صُعودا
فرَبْع الذي بين الجوانح سَبْسَبُ

على تلك مِنْ حالٍ دعَوْتُ سميعا ... وذَكَّرْتُ رَوْضًا بالعقاب مريعا
وتملأ الشعب المَذْحِجي جميعا ... وسربًا بأكناف الرُّصافة ريعا
وأحداق عينٍ بالحِمام تُقَلَّبُ

ولم أنسَ ممشانا إلى القَصْر ذي النَّخْلِ ... بحيث تجافى الطود عن دَمِثٍ سَهْلِ
وأشرفُ لا عن عظْم قدْر ولا فضل ... ولكنه للمُلْك قام على رِجْلِ
يقيه تباريحَ الشمال ويَحْجُبُ

فكم وجعٍ[3] ينتابُه برسيسِهِ ... ويرتحل الفتى بأرجلِ عِيسِهِ
أَبِقْ أمَّ عمرو في بقايا دَرِيسه ... كسحق اليماني مُغْتليه نفيسه
فرُقْعته تُسْبي القلوبَ وتُعْجِبُ

وبيضاءَ للبيض البهاليل تعتزي[4] ... وتَعتَزُّ بالبان جلالا وتَنْتَزي
سوى أنها بعد الصَّنيع المُطَرَّز ... كساها البِلَى والثُّكل أثواب مُعْوِزِ
يبكي وتبكي للزائرين وتَنْدِبُ

---

(١) في الأصل: «وجا» وهكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «قرب» وكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «توجّع» وهكذا ينكسر الوزن. (٤) في الأصل: «تعتزيه».

وكـم لـك بـالـزّهـراء مـن مُـتـردّدِ ووقـفـة مُتّسقِ الـمـجـامـعِ مُـقـصـدِ
يسكن من خَفْق الجوانح باليدِ ويَهْتِك حُجْبَ النّاصر بن محمدِ
ولا هيبةٌ تُخشى هنالك وتُرْهَبُ

لنعم مقام الخاشع المُتَنسّكِ وكانت في محلّ العَبْشَمين المُمَلّكِ
متى يورد النّفْس العزيزة يَسْفِكِ وإن يَسْمُ نحو الأبلق الفرد يملكِ
وأي مـرام رامـه يـتـصـعّـبُ

قصورٌ كان الماء يعشق مَبْناها فطوْرًا يرى تاجًا بمَفْرِق أعلاها
وطورًا يرى خلخال أسْوَق سُفْلاها إذا زَلّ وَهْنًا عن ذوائبَ يهواها
يقول هَوَى بدرًا أو انقَضّ كوكبُ

أتاها على رَغْم الجبال الشّواهقِ وكلُّ مُنيف للنجوم مُراهقِ
وكم دَفَعت في الصّدر منه بعانقِ فأوْدَع في أحشائها والمفارقِ
حسابًا بأنفاس الرياح يَذْرَبُ

هي الخُود من قرن إلى قدم حُسْنا تناصف أقصاها جمالًا مع الأدنى
ودَرَجٍ كأفلاك[1] مبنى على مبنى توافَقْن في الإتقان واختلف المعنى
وأسباب هذا الحُسْن قد تتشَعّبُ

فأين الشُّموس الكالِفات بها ليلا وأين الغُصون المائسات بها مَيْلا
وأين الظِّباء[2] السابحات بها ذيلا وأين الثَّرى رَجْلا وأين الحصا خيلا
فوا عجبا لو أن من يَتَعَجّبُ

كم احتَضَنَتْ فيها القِيانُ المزاهرا وكم فاوَحَتْ فيها الرِّياضُ المجامِرا
وكم ساهَرَتْ فيها الكواكب سامِرا وكم قد أجاب الطيرُ فيها المزامرا
عظيم من الدنيا شعاع مُطَنّبُ

كأن لم يكن يُقضى بها النّهي والأمرُ ويُجبي إلى خزائنها البرُّ والبحرُ
ويُسْفر مخفورًا بذمّتها الفخرُ ويُصبح مختومًا بطِينَتها الدهرُ
وأيامه تُعزى إليها وتُنسَبُ

(١) في الأصل: «كالأفلاك» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «الظبا» وهكذا ينكسر الوزن.

ومالك عن ذات القِسِيّ النّواضحِ وناصحةٌ تُغزى قديمًا لناصحِ
وذي أثَرٍ على الدهر واضحِ يُخبر عن عهدٍ هنالك صالحِ
ويَغمرُ ذكر الذاهبين ويخربُ

تلاقى عليه فيضُ نهرٍ وجدولِ تَصَعَّد من سِفْلٍ وأقبل من عَلِ
فهذا جنوبيّ وذلك شمالي[١] وما اتفقا إلّا على خير منزلِ
وإلاّ فإن الفضل منه مُجَرَّبُ

كأنهما في الطِّيب كانا تنافرا فسارا إلى وَصْل القضاء وسافرا
ولمّا تلاقى السابقان تناظرا فقال وليُّ الحق مَهْلًا تظافرا
فكُلُّكما عَذْبُ المجاجة طيِّبُ

ألم يعلما أن اللَّجاج هو المقْتُ وأن الذي لا يقبل النِّصْف مُنبَتُّ
وما منكما إلّا له عندنا وقتُ فلما استبان الحقُّ واتجه السَّمْتُ
تقشَّع من نور المودة غَيْهَبُ

وإن لها بالعامريَّة لَمَظْهرا ومُسْتَشْرَفًا يُلْهي العيون ومَنْظرا
ورَوْضًا على شطّي خضارة أخضرا وجَوْسق مَلِك قد عَلا وتجبَّرا
له تَرَّةٌ عند الكواكب تُطْلَبُ

أُغيّره[٢] في عُنْفوان الموارد وأثبتُه في ملتقى كل واردِ
وأبْرِزه للأرْيَحيّ المجاهدِ وكلّ فتًى عن حُرْمة الدين زايدِ
حفيظتُه في صدره تَتَلَهّبُ

تَقَدَّم عن قصر الخلافة فرسخا وأَصْحَر بالأرض الفضاء ليصرخا
فحالته أرض الشِّرك فيها مُنَوَّخا كذلك من جاس الدِّيار ودوَّخا
فرذعَتُه في القلب تَسري وتُرْهِبُ

أولئك قوم قد مضوا وتصدَّعوا قضوا ما قضوا من أمرهم ثم ودَّعوا
فهل لهم رِكْزٌ يُحَسُّ ويُسْمع؟ تأمَّل فهذا ظاهر الأرض بَلْقَع
إلاّ أنهم في بطنها حيث غُيِّبوا[٣]

---

(١) في الأصل: «شمأل».
(٢) في الأصل: «غيره» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له.
(٣) في الأصل: «غُيِّبُ».

ألستَ ترى أن المقام على شَفا — وأن بياض الصُّبح ليس بذي خَفا
وكم رَسْم دارٍ للأجِنَّة قد عفا — وكأنَّ حديثًا للوفود مُعرّفا
فأصبح وحش المُنْتدى يُتَجَنَّبُ

ولله في الدَّارات ذات المصانعِ — أخلّاء صِدْقٍ كالنجوم الطَّوالعِ
أشِيع بينهم كلُّ أبيض ناصعٍ — وأزجع حتى لست يومًا براجعِ
فياليتني في قِسْمتي أتهيَّبُ

أقرطبة لم يُثنني عنك سُلْوانُ — ولا بمثل إخواني بمَغْناك إخوانُ
وإني إذا لم أُسْقَ ماءك ظمآنُ — ولكنْ عَداني عنك أمرٌ له شانُ
وموطني آثارٌ تُعَدُّ وتُكْتَبُ

لك الحقُّ والفضل الذي ليس يُدْفَعُ — وأنتِ لشَمْسِ الدِّين والعلم مطلعُ
ولولاك كان العلم يُطوى ويُرفع — وكل التُّقى والهُدى والخير أجمعُ
إليك تناهى والحسود مُعَذَّبُ

ألم تَكُ خُصَّتْ باختيار الخلائفِ — ودانت لهم فيها ملوك الطَّوائفِ
وعضّ ثِقاف المُلْك كلَّ مخالفِ — بكل حسام مُرْهف الحدِّ راعفِ
به تُحقن الآجال طورًا وتُسْكَبُ

إلى مُلْكها انقاد الملوك وسلَّموا — وكعبتُها نَدا الوفود ويَمَّمُوا
وفيها استفادوا شَرْحهم وتعلَّموا — وعاذوا بها من دهرهم وتحرَّموا
فنكَّب عنهم صرفه المُتَسحِّبُ

علوتِ فمَا في الحُسْن فوقك مُرْتَقى — هواؤك مختارٌ وتُرْبك مُنْتَقى
وجسرُك للدنيا وللدِّين مُلْتقى — وبيتُك مربوع القواعد بالتُّقى
إلى فضله لأكباب تُنْضى وتُضْرَبُ

تولّى خيار التابعين بقاءه — وخَطّوا بأطراف العَوالي فناءه
ومدّوا طويلًا صيتَه وثناءه[1] — فلا زال مخلوعٌ عليه سَناءه[2]
ولا زال سَعْيُ الكائدين يُخيّبُ

---

(١) في الأصل: «وثناء».

(٢) في الأصل: «سناه».

وبـالـغُ فـيـه كـلُّ أروَع أصْـيَـدِ طـويـل الـمـعـالـي والـمـكـارم والـيـدِ
وشـادوا وجـادوا سـيِّدًا بـعـد سـيّـدِ فـبـادوا جـمـيـعًـا عـن صـنـيـع مُـخَـلَّـدِ
يـقـوم عـلـيـه الـثـنـاء ويـخْـطـبُ

مـصـابـيـحـه مـثْـلُ الـنـجـوم الـشَّـوابـكِ تـمـزِّق أثـواب الـنـجـوم الـحَـوَالـكِ
وتـحـفـظـه مـن كـل لاهٍ وسـالـكِ أجـادِل تـنـقـضُّ انـقـضـاض الـنَّـيـازكِ
فـإبـشـارهـم بـالـطَـبْـطَـبـيـة تُـنْـهَـبُ

أجِـدُك لـم تَـشـهـد بـهـا لـيـلة الـقَـدْرِ وقـد جـاش بِـرُّ الـنـاس مـنـه إلـى بَـحْـرِ
وقـد أُسْـرِجَـتْ فـيـه جـبـالٌ مـن الـزَّهْـرِ فـلـو أن ذلـك الـنُّـورَ يُـقْـبَـسُ مـن فَـجْـرِ
لأوْشَـك نـور الـفـجـر يَـفْـنـى ويَـنْـضَـبُ

كـأنَّ لـلـثُّـرَيَّـاتِ[1] أطـوادُ نـرجـسٍ[2] ذوائـبُـه تَـهْـفُـو بـأدنـى تـنـفُّـسِ
وطـيـب دخـان الـنَّـدّ مـن كـل مُـعَـطَّـس وأنـفـاسُـه فـي كـل جـسـم ومَـلْـبَـسِ
وأذيـالـه فـوق الـكـواكـب تُـسْـحَـبُ

إلـى أن تـبـدَّتْ رايـةُ الـفـجْـر تـزحـفُ وقـد قَـضَـى مـنـهـمـا[3] الـذي لا يُـسوِّفُ
تـولّـوا وأزهـار الـمـصـابـيـح تُـقْـطـفُ وأبـصـارُهـا صـونًـا تُـغـضُّ وتُـطْـرِفُ
كـمـا تُـنْـصـل الأرمـاح ثـم تُـرَكَّـبُ

سـلامٌ عـلـى غـيـابـهـا وحـضـورهـا سـلام عـلـى أوطـانـهـا وقـصـورهـا
سـلام عـلـى صـخـرائـهـا وقـبـورهـا ولا زال سـورُ الله مـن دون سـورهـا
فـحـسـن دفـاع الله أحْـمَـى وأرْهَـبُ

وفـي ظـهـرهـا الـمـعـشـوق كـل مـرفَّـعِ وفـي بـطـنـهـا الـمَـمْـشـوق كـل مُـشَـفـعِ
مـتـى تـأتـه شـكـوى الـظُّـلامـة تُـرفـعِ وكـل بـعـيـد الـمُـسْـتـغـاثِ مُـدَفَّـعِ
مـن الله فـي تـلـك الـمـواطـن يَـقْـرُبُ

وكـم كُـرْبـة مـلْء الـجـوانـح والـقـلـبِ طَـرَقـت وقـد نـام الـمـواسـون مـن صَـحْـبِ
بـرَوعـتـهـا قـبـر الـوالـي لـي وَهَـبٌ ونـاديـت فـي الـتُّـرب الـمُـقَـدَّس يـا ربِّ
فـأبَـتْ بـمـا يـهـوى الـفـؤاد ويَـرْغَـبُ

---

(١) في الأصل: «للثرياوات». (٢) في الأصل: «من نرجس».
(٣) كلمة «منهما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى معًا.

فيا صَحْبي حان قَبْلَك مصرعي وكنتَ على عهد الوفا والرِّضا معي
فحطٌّ بضاحي ذلك السُّرى مَضجعي وذَرْني فجار القوم غير مُرَوَّعِ
فعندهم للجار أهلٌ ومَرْحَبُ
رعى الله مَن يرعى العهود على النَّوى ويُظْهر بالقول المُحَبَّر ما نوى
ولِبْيته من مُسْتَحكم الوُدِّ والهوى يرى كلَّ وادٍ غير واديه مُجْتَوى
وأهدى سبيله الذي يُتَجَنَّبُ

كتابته: وكتابة ذي الوزارتين، رحمه الله، كالشمس شُهرة، والبحر والقَطْر كثرة؛ ونحن نثبت له شيئًا من ذلك لئلّا يخلو هذا الكتاب من شيء من بيَانه. كتب يراجع الوزير أبا بكر بن عبد العزيز، من رسالة كتب بها إليه مع حاج يضرب القُرعة:

أطال الله بقاءَ وليّي وإمامي الذي له إكْباري وإعْظامي، وفي سِلْكه اتِّسامي وانتِظامي، وإلى مُلْكه انتسابي واعْتِزائي، وبوُدِّه افتخاري وانْتِزائي، للفضائل مجيبًا ومبديًا، وللمحامد مشتملًا ومُرْتديًا، وبالغرائب مُتْحفًا ومُهْديًا، ولا زال الرَّخاء وأزِل، وجدٌّ من المصافاة وهَزَل، وسَحَت من المراعاة وجَزُل. وصل كتابُه صحبة عرّاف اليمامة، وفخر نَجْد وتِهامة، يُقرّظه ويزكّيه، ويصفُه بالخبِّ يفسّره ويُجليه، والخفِيَّ يظهره ويبديه. ولعله رائد، لابن أبي صائد، أو هاد للمسيح الدّجال قائد. أشهد شهادة إنصاف، أن عنده لعَضْبًا صاف، ولو كان هناك ناظر صادق طاف، ولله خفايا الألْطَاف، لقلتُ هو بادٍ غير خاف، من بين كل ناعلٍ وحاف. وسأخبرُك، أيّدك الله، بما اتَّفق، وكيف طار ونَعَق، وتوسَّد الكرامة وارتَفَق، طَرَقَ له وصفُك ونَعْتك، وثَقَّفه بَرْيك ونحتك، ورفعه للعيون جَدُّك وبختك، وامتدت نحوه النواظر، واستَشْرَفه الغائب والحاضر، وتسابق إليه النّابه والخامل، وازدحم عليه العاطل والعامل. هذا يلتمس مزيدًا، وذاك يَبْتغي حظًا جديدًا، وهذا يطلب تَقْليدًا، وذلك يَسُلُّ إلى مَغاليقه إقليدًا. فكلما حَزَب، وغلّ وجلب، حَلَب واستَدَرَّ، وتلقاه وإن ساءه الغيب بما سَرَّ. وكنت واتغْتُ جملة من الأعيان، ووافقت ثُلّة من جِلّة الإخوان، على تَمْشِية أمره، وتَوْشِية ذِكره؛ فلمّا صَدَقت تلك الفِرقة، واستوت بهم تلك الفُرْقة، أحضرْناه للسّبار، وأقعدْناه للنّقد والاختِيار، وأردْنا أن نقف على جلايا تلك الأخبار، فأحضرنا طَحْنًا ونَطْعًا، وسَرَينا عنه من الوَحْشَة قَطْعًا، وقلْنا له خذ عفوك، ولا تورِدْنا إلّا صَفْوك، ولا تصانِعْنا في الكريهة التي نراها، والحادثة تُسْتَفْظع ذكراها؛ فما عندنا جهل، وما منّا إلّا مُحْتَنِك كَهْل، لا يتكاده حَزَن ولا يستخفّه سهل، فسكن جائشُ فَوْره، وضرب بلحيته على زَوْرِه، ثم صعّد فينا النظر وصوَّب، واستهلّ صارخًا وثَوَّب، وتحرّج من الكذب

وتَحَوُّب، وقال: لست للعشرة خابطًا، ولا للطَّرْف غامضًا، ولا عن الصدق إذا صَدَع حائدًا، ولا للغَدْر ممَّن وقع منه ذائدًا، ولا بمعجزات النبُوَّة لاعبًا، ولا لصريح الجدِّ مُداعبًا، ولا تطيبُني مسألة ولا حُلوان، ولا تستَفِزُّني نَضائد كثيرة ولا ألوان. إنما هو رَسْمٌ وخَطٌّ، ورفع وحَطٌّ، ونَحْسٌ وسعدٌ، ونقد ووعد، ويوم وغَد. فقلنا له الآن صحَّت الوفادة، وأيْنَعَت الإرادة. ثم نظر إلينا نظر المستَقِلِّ، واجتذب النِّطع اجتذاب المُدِلّ، ونثل الطِّحن وهاله، وأداره حتى استدار هالُه، ثم قال: يا أيها الملأ هذا المبتدأ، فأيكم يبدأ. فرمقني القوم بأبصارهم وفَغَروا وكبَّروا، وليتَهم عند ذلك صفَّروا، فقلت: يا قوم قد عضَضْتُ على ناجِذي حِلْمًا، وقتلت شأني كلَّه عِلْمًا، وعقدت بيني وبين غدٍ سَلْمًا، فكيف أستَكْشِف عما أعرف، وأسبقهم عمّا لا يستبهم. على الرحمٰن توكلت، وعلى الشيطان تَرَكَّلت، ومن كَسْبي أكلت، وفي مَبْرك السَّلامة بَرَكت، وجسيمات الأمور تَرَكَتْني وتَرَكْتُ، والنفس المطمئنة رجوت، ولعلني قد نجوتُ، وأصبت فيما نَحَوْتُ. فلحظتني عند هذه المقالة عينُه، وطواني صدقُه ومَيْنُه. ثم صار القوم دوني أنجية، وأعدَّ له كل تَوْرية وتَغْمية. فقال قائل منهم: تعالوا نشترك في ضمير، ونَرْمِه بهذا الطاغية ابن رُذْمير، ففي كل قلب منه نَدْب كبير، والسؤال عنه دين وأدب، فإن أصابه استرحنا من النَّصَب والشُّخوص، وحِرنا من العموم إلى الخصوص، وإن أخطأه فهو لما سواه أَخْطَأ، ولما يدَّعيه ويريدُه منه أبْطَأ. فقالوا: نِعْم ما عرضت، وأحْسِن بما رويت وفَرَضت. فلمّا رأيناه يُثْقل التَّعريض، ويُحكم التقرير والتعويض، قلْنا له: حقِّق ضميرك كل التحقيق، وضَعْ مِسْبحتك في الدقيق. فابتدر ما أمر، وحسَرَ عن ذراعه وشمَّر، ومرت أصبعُه في خطِّه مرّ الذَّر المتهالك، ووقعت وَقْع القطر المُتَدارك، لا تمس الطِّحن إلّا تحليلًا، وغَمْزًا كالوهم قليلًا، فطورًا يستقيم سبيلًا، وتارة يستدير إكليلًا، وآونة يأتي بالسماء ونجومها قَبِيلًا. فكان هنالك لنعش من بنات، وللثُّريا من إخوات، وطير قابِضات، وصافّات وأسراب ناشراتٍ خافقات. فلمّا استوفى عُدَدَه، وبلغ أَمَدَه، وختم طرائِقَه وقِدَدَه، وأعطى الأصول وفروعها، وتدبّر تفاريقها وجموعها، فجمع وتقَبَّض، وفَتَر ثم انتَفَض، وصعّد ذهنه وتَسافه، وأخذ الطِّحن فَسافَه؛ وزفر وشهق، وعشَّر ونهق، وألصق بظهره حشاه، وكتم الرَّبو ثم أفشاه، وقال: هذا الذي كنت أخشاه، عَمِيتم الأثر، وكتمتم حقيقة الخبر، وعَثَرتم خاطي فما عَثَر، ونثرتم نظام الحدْس فما انتثر. سألتم عن رُوح شارد، وشيطان مارد، وصادر مع اللَّحظات وارد، لا يُوطن دارًا، ولا يأوي قرارًا، ولا يُطعم النَّوم إلّا غِرارًا[1]. نعم أمْرُه عندي مستقر، هو زِنْديق مُسْتتر؛ وشهاب من شُهُب الكفر مستمر.

---

(١) الغِرار: السهم. لسان العرب (غرر).

ثم رجّع البصر واختصر، وعاد إلى الحساب يتقرّاه، والصواب يتحرّاه، وتتبّع أديم الطّحن فَفَراه، وقال: أعوذ بالله من شرّ ما أراه. إلى كم أُرى في غلاء وبلاء؟ كأني لست ذا أمْرار وأحْلاء، تالله لو كانت قَزعة رفعة وعلاء؛ ما غاب عني اللّحياني ذو السَّبَلة، ولواجهنا البياض ذو الغُرّة المستقلّة مواجهة حسان لجَبَلة. النَّحس على هذه الروح قد رُتّب؛ وكُتب عليه من الشقاء ما كُتب، وأخرج النُّصرة الداخلة من العَتَب. ثم أشار إلى الحُمرة، وكأنما وضع يده على جَمْرة، وقال: كَوْسَجَ نَعِيٍّ، وسِناط الوجه شَقِيٌّ، وثِقاف وطريق، وجماعة وتفريق، وقَبْضُ خارج، ومَنْكوس مارج. ثم وضع عمامته، ولَوْلَب هامته، وأمال وجهه فجرًا طلقًا، ثم عرضه مَجنًا مُطْرقًا، وعقد أنامله عضًّا، وأدمَى صدره دعًّا ورضًّا، وقطع بَصَره لمحًا وغضًّا، وتكفّأ وتقلّع، وأدْلَعَ لسانه فانْدَلَع. فقلنا: شرٌّ تأبّطه، أو شيطان يتخبَّطه، أو قَرين يستنزله ويَخْتُله، أو رؤى في الذرة والغاب يَفْتِله. ثم تجاحظ وتحاذر، وتضاءل وتنازر، وقال: والذي أحيا عازر، وأخرج إبراهيم من آزَرْ، وملك عِنان الريح وأذعن له كل شيء بالسجود والتّسبيح، إنه لمن عُبّاد المسيح، هيهات هيهات، لا أُضَعْضِع بظَنٍّ، ولا يُقَعْقَع لي بِشَنّ، ولا أنازع من هذه الفنون في فَنّ. قد ركبت أثْباج البحار، وقطعت نِياط المَفاوز والقِفار. وشافَهَني الحرُم والبيت، وصافحني الحجر الكُمَيْت، وأحْرَمْتُ ولَبَّيت، وطُفت ووفيت، وزُرت المصطفى ﷺ، وتحفّيت. ثم مِلْت على عَدَنْ، وانحدرت عن اليمن، واستسقيت كل راعِدة، وأتيت كل قاعِدة؛ ورأيت صاحب الجمل قُسّ بن ساعدة، ووردت عُكاظ، وصدّقت الحفّاظ، وقُدْت العصية بِنِسْع، ومسَحْت الشامات بأَخْمُس وتِسع، ووقفت حيث وقف الحكَمَان، وشَهِدت زحف التُّركمان، وكيف تصاولت القُروم، وغُلبت الرُّوم، وهزم المدبر المقبل، واكتَسَحت الجِحاش الإبل. فقلنا: لله أنت، لقد جَلَيت عن نفسك، وأربى يومُك على أمسك، ولقد صدق مُطْريك، ووَفَت صحيفة تَزكُيك، وما كانت فراستنا لتخيب فيك. فماذا تَسْتَقْري من اللوح، وترى في ذلك الروح؟ بِعَيْشك ألا ما أمْتَعْتنا بالإفشاء والبَوْح! فرجع في البحث أدْراجه، وطالع كواكبه وأبْراجه، وظلّ على مادة الطَّحن يرقُم ويَرمُق، ويفْتُق ويَرْتَق. ثم جعل يبتسم، وقال: أحلف بالله وأقسم، لقد استقام النَّسم، وإنه لكما أُرسم وأُسِم، وإني لا أجده إلّا لاغبًا مَبْهورًا، ومنكودًا مقهورًا، ولن يلبث إلّا شهورًا. قد أفَل طالع جَدِّه، وفُلَّ حَدُّه، وأتي عليه نقي خَدِّه، وصيٌّ لم يَمْلِك أبوه ومَلَك جَدُّه، فقلنا: صرّحت وأوضحت، وشَهَرت هذا المَسْتُور وفضحت، وإن ساعدك قدر، وكان لك عن هذا الوُرود صَدَر، فحظك مُبْتدر، وخطُّك صاف لا يشوبه كَدَر. فقال: هذا أمر قد آن أو كان، وسيأتيكم الخبر الآن، فانفصلْنا وأصْغَينا الآذان، وجعلنا نتلقى الرُّكبان، فلم يَرُعْنا إلّا النَّعمى الناجمة، والبُشْرى الهاجمة، بما

بان، فأدهنا في شانه، ولم يكن يعاوده خوف طغيانه، فإذا الخبر لم يَخْطُ صِماخه، وكأنما كان عودًا وافى مناخه، أو طائرًا أمَّ أفراخه. فلم يَنْشِب أن أقبل يَصْمُد نحونا أي صَمْد، ويتعرضنا على عَمْد، تعرُّض الجوزاء للنجوم؛ وينقضُّ انقضاض نَيازك النجوم، وقال: ألم يأنُ أن تدينوا لي بالإكبار، وتعلموا أني من الجَهابِذة الكِبار؟ فقلْنا: منك الإسْجاح، فقد مَلَكت ومنك ولك النجاح، أيّة سَلَكْت. فأطْرَق زَهْوًا، وأعرض عنا لهْوًا، وقال: اعلموا أن القُرْعة لو طوت أسرارها، ومنعتني أخبارها، لمزَّقْتُ صِدارها، وذَرَوْتُ غُبارها، ولكان لي عنها أوسع مُنْتَدح، وأنْجَد زِناد يُقْدح، أين أنتم عن رَصْدي الأحلاك، وعِلْمي بالأفْلاك؟ أنا في مَرَج الموج، وأوْج الأوْج، والمتفرد بعلم الفَرْد والزَّوج، ومُسْتَرط السَّرَطان، ومُسْتَدِير الدَّبَران، وبائع المُشْتري بالميزان، والقابض بيوم الحساب والعمل، على روق الثَّور وذنب الحَمَل، أعْقِد نَصْل العقرب، وأقيِّد الأبعد والأقرب، لصَيْد أوابِدها بالدقائق والدَّرَج، حتى اضطُر سارحها إلى الحَرَج، وأصْبِحُها في أضيق مُنْعَرج، أنا استذكرْتُ بالأنْبار، فَرْحَة الإقبال وتَرْحة الإدبار، وطالعت إقليدس فاستنبطْتُه، وصارعْتُ المَجَسْطِي فجَسْطنته، وارتَمَطْتُ إلى الأرْتِماطيقي، وأطَقْتُ الألوطيقي، ولحظتُ التحليل بحلّ ما عقده، وانْتَضَيْتُه ما مَطَل به الجهابذة فنفَّذه. وعاينتُ زُحل، حين استقلَّ على بعيره ورَحَل، وضايقتُه في ساحته، وحصرتُه في مِساحته، وحضرت قِرانه، وشَهِدت تقدُّمه ومُرانه، وشاهدته شَفْرًا بشَفْر، وناجاني برقًا يُعدّ في الكُفْر، وتخريبه لمُلْك الصُّفْر، وتفريقُه لبلاد اللَّطِينة، وإنجاز الوعد في فتح قُسَنْطينة. أنا عقدت رشا الدَّلو، وذَرَوْتُ غُبار الحُوت للفِلْو. أنا اقتدحتُ سَقْط الجَوْزَهَرْ، فلاح بعد خفائه وظَهَر. أنا استَثَرْتُ الهلال من مكامن سَرَرِه، وأخذت عليه ثنايا سَفَره، وقَدَدْتُ قُلامته من ظُفُره، ودللت طير الصَّاير على شجره، فجنيتُ المُرَّ من ثمره، أنا طرقت الزُّهرة في خِدْرها، وصافحتها من الفكرة بيد لم تَدْرِها. أنا أذكيت على ذكاء فظلَّت تَلْتَهب، وأحْرَزتها من الوهم شَطْنًا أجذبها به فتنجذب. أنا أنْعى للمُعْتَبرين حياتَها، فيشبهون الحَسَنة ويتحرُّون أوقاتها، حتى تَنْتَشر بعد الطيِّ حياتُها، وتستقيل من العِثار آياتها. أنا انتضيت للشباب شَرْخًا، وأضرمت للمِرِّيخ عقارًا ومَرخًا، حتى أتغانى بملاحم حُروبه، وحوادث طلوعه وغُروبه، وتلَمُّظِه إلى النَّجيع، وولوغه في مُهْجة البطل السَّجيع. أنا أبرى من اللَّمَم، وأشفى من الصَّمم، وأنقل العَطْس إلى الشَّمَم. فقلْنا: أمّا الأولى، فقد سلّمنا لك جميعها، وأمّا هذه الثلاثة فلن تستطيعها. قال: فَلِم تعجزون ولا تَسْتَخزون؟ فقلْنا: مَن كان له علاج فبِنَفْسه يبدأ، ونَغَب بغيره. ولسنا نريدك، ولكن تهتزُّ يدُك. قال: أما من بينهم رَوِي، وألقى في رُوعه ما ألقى في رُوعي، فمَثَله كالصّارم، حُسْنُه في فِرِنْده، لا غِمْده، وجماله في حَدّه لا في خَدِّه،

والمرء كما قيل بأصْغَرَيه، لا بمَنْخَريه، والشأن في الحَيْزوم، لا في الخَيْشوم، وفي الذَّكَرين، لا في الأُنْثَيين، وبعد، فهو كلام ظاهره إجْمال، وباطنه احتمال، وسأنبِّئكم بغزارة سَيْله، وفجر ليله. أما الأفطس فيدلي الضّغْنة، ويتزوج في آل جِفْنَة. فإن الله أتمَّ، جاء الولدُ أتمَّ، وإن نام عِرْقُ خاله، بَقِي الولد بحاله. وأما الأصَمُّ، فيخرج عن الغلام، وبلا فال، ويطلب في بني السَّميعة بَرَكَة الاسْمِيَّة والفال، فإن الله أراد، ظَفِر بالمُراد، وجاء ابنه أسْمَع من قُراد[1]. فأحسَّ من بعض الحاضرين تمريضًا، وعاين طَرْفًا غَضيضًا، فتعكَّر وتشذَّر، وطوّف وحذّر، وقال صاحب الشريعة، سمّاهم بني السّميعة، قوموا يا بني اللّكيعة، فقد قطعتم رزقي، وآذيتم طُرقي، وأذْلَلتم ضَرْبي وطَرْقي، وسدَدْتُم طَوْقي، وأخذتم على أُفُقي غَرْبي وشَرْقي. ذَرُوني للتي هي للبَلِيّة تَجْني، ثم الوَجْد يَعني، لو شَرِب نواديه إثْر تَجَنِّي. ثم نجا بعَزْمته سَمِيلًا، وأرسل بنات نَعْشٍ ذيلًا، وقد أفاد بما استصحب من مَيامِنك ليلًا، كذّبني أيّدك الله عند نواه، ولم يُطْلعني طَلْع ما نواه؛ وما ذاك إلّا لمطمع لَواه، ومَغْنَم هواه. فَرُفِعت لي بعد وداعه نَجْوة، ورَمَتْني بشخصه فَجْوة، فقلت: ما أراك إلّا غائل، أوْرثَت عنك الحبائل. فسُراك سُرى قَيْن، وحديثك مَيْن، ألم تعبر دُجَيْلا، ويمّمت سُهَيْلا؟ فقال: طَرِبتُ إلى الأصفية الصِّغار، وشاقني الشوق بين الطّواغيت والأصْفار. فقلت له: هلمّ إلى خطٍّ نعيده، وحظٍّ نستفيده. فقال: لولا أن تقولوا الساعة متى، وتطالبوني بإحياء الموتى، لما أجمعْتُ إلى الغرب غروبًا، ولأريتُكم من الحذْق ضروبًا. ثم قال: إن لي بالحَضْرة أفراخًا، وأمَّا استصرخْتُ عليها استصراخًا، وانسلخْتُ منها انسلاخًا، وأعيا عليّ أمره فلم أعلم له ظَعْنًا ولا مناخًا. فلبثت كذلك أيامًا، ثم اعتمَّ عليّ أمره اعتِيامًا، ولم أعرف له إنْجادًا ولا اهتمامًا، فإذا به وقد أضمرْتُ عنه بأسًا، ولم أطمع فيه رأسًا، قد أشَبَّ لي شبابًا، ولمعت صلْعتُه شِهابًا، تكتنفه صُرَّة، وبِيُمناه قَوْصَرة[2]، وتؤود يسراه جرّة. فقلت له: قاتلك الله، ما أشدّ فَقْداتك إلّا فقدتك، وما أذكر وجداتك إلّا وجدتك، أين أفراخُك، والأمُّ التي جذبها استِصْراخك؟ فقال: الصعلوك، لو أعلم مذاهبه، تُحرَّم مناهبه، وتُخدم مراهبه. ذَرْني وعلاجي، أحاجي وأداجي، وأعاين وأناجي، وأتقلب في بَرَكة دُعاء الباجي. فقلت له: مالك وللمَيْت، ورحم الله من سمَّيت. قال: لمّا أذن الله فالتَأمت الشِّيمة، وتمزّقت عني المَشِيمة، همَمْتُ بالسَّرَق، ولففت في

(١) منه المثل: «أَسْمَعُ من قُرادٍ»، وذلك أنه يسمع صوتَ أخفاف الإبل من مسيرة يوم، فيتحرك لها. مجمع الأمثال (ج ١ ص ٣٤٩، رقم المثل ٨٧٨).

(٢) القوصرة: وعاء للتَّمر. محيط المحيط (قوصر).

الخَرْق، وفارقت من الضيق مُنتداه، وأفْلتتْني يداه؛ فحنّكني السعد بتَمْر المدينة، وسقاني من ماء البَلْدة الأمينة، وعوّذني بدعوات متينة. فها أنا كما ترى أتهادى وأجتذب، وأستَحْلي وأستَعْذب. فقلْنا: لعَمْرك إنه لفضلٌ عميم، لولا الصّميم، وإنها لمَنْقَبة، لولا العقبة، وأثْرَة مُلتَمسة، لولا العَطْسة، فقال: دعنا من زخاريفك، وأَغْضِضْ من عِنان تصاريفك. البازل[1] لا يكون إلّا ذميمًا، والليث لا يوجد إلّا شَميمًا. ثم قام وحَمَل، وابتدر وارتجل: [مجزوء الخفيف]

عـيـشُـنـا كـلّه خُـدَعْ	فـاتْـرُكِ الـلومَ عـنـكَ وَدَعْ
أنـا كـالـلـيـث والـليـو	ث بـأرسـائـهـا تَـرُعْ
ولـهـا الأوجُـه الـسَّيـ	ـمـه مَـنْ يَـلْقَـهـا يُـرَعُ
أيُّ حـسـن لـمـازن	بـيـد الـدَّلّ يُـخـتـرعْ؟
أنـا كـالـسّـيـف حـدُّه	لا يـبـالـي بـمـا وقـع
إنـمـا الـحُـسْـن لـلمـهـا	ة ولـلظَّـبـي يـا لَكِـعْ

فقلت: تَبًّا لك سائر اليوم، إنك لتَريش وتَبري، وتُقدُّ وتفري، وتحاسن وتُقابح، وتُهارش وتُنابح، وتُحبّ وتتأمل، وتُحسن وتغلغل، وتُشاعر وتُراجز، وتُناطح وتناجز. وأنت على هذا كله مُصِرٌّ، ما جزاؤك إلّا ريح فيها صِرٌّ، فما هو إلّا أن غفلت عنه لمحة طَرْف، أو نفحة عَرْف، ثم التفتُّ وإذا به قد أفلس، وكأنما كان برْقًا خُلّس، ولم أدر أقام أو جلس.

ومحاسنه القَطْر الذي لا يُعدُّ، والأمر الذي يأخذه الحدُّ. وكفى بهذه الرسالة دليلًا على جلالة مقداره، وتدفُّق بحاره وفَخَاره؛ لما اشتملت عليه من بلاغة وبيان، وبساط حال أنت على خبره بعيان، وعلوم ذات افتنان، خلّد الله عليه الرحمة، وضاعف له المنّة والنعمة.

مولده: بأوائل ربيع الثاني عام خمسة وستين وأربعمائة[2].

وفاته: من خطّ الحافظ المحدّث أبي القاسم بن بشكوال، رحمه الله: كان[3] ممن أصيب أيام الهَرَج بقرطبة، فعظم المصاب به، الشيخ الأجلّ، ذو الوزارتين، السيد الكامل، الشهير الأثير، الأديب، اللغوي، السَّري، الكاتب البليغ، معجزة زمانه

---

(١) البازل: ما بزل نابه من الإبل في السنة التاسعة. محيط المحيط (بزل).

(٢) قال في معجم الصدفي (ص ١٥٤): «ومولده سنة خمس، وقيل: سنة ثلاث وستين وأربعمائة».

(٣) هذا النص غير وارد في الصلة. وجاء في الصلة بعض مما ذكر هنا.

وسابق أقرانه، ذو المحاسن الجمة، الجليلة الباهرة، والأدوات الرفيعة الزكية، الطاهرة الكاملة، المُجْمع على تناهي نباهته، وحَمْد خصاله وفصاحته، من لا يُشقُّ غباره، ولا تلحق آثاره، معجزة زمانه في صناعة النثر والنظم، أبو عبد الله بن أبي الخصال، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونضّر وجهه. أُلْفي مقتولًا قرب باب داره بالمدينة، وقد سلب ما كان عليه، بعد نهب داره، واستئصال حاله، وذهاب ماله، وذلك يوم السبت الثاني عشر من شهر ذي الحجة من سنة أربعين وخمسمائة. فاحتمل إلى الرّبض الشرقي بحومة الدرب، فغُسّل هنالك وكُفّن، ودفن بمقبرة ابن عباس عصر يوم الأحد بعده، ونعي إلى الناس وهم مشغولون بما كانوا بسبيله من الفتنة. فكثر التفجّع لفَقْده، والتأسّف على مصاب مثله، وأجمعوا على أنه كان آخر رجال الأندلس علمًا وحلمًا، وفهمًا ومعرفة، وذكاء وحكمة ويقظة، وجلالة ونباهة، وتفننًا في العلوم. وكان له، رحمه الله، اهتمام بها، وتقدم في معرفتها وإتقانها. وكان، رحمه الله، صاحب لغة وتاريخ وحديث، وخبر وسير، ومعرفة برجال الحديث مضطلعًا بها، ومعرفة بوقائع العرب وأيام الناس، وبالنثر والنظم. وكان جَزْل القول، عذب اللفظ، حلو الكلام، عذب الفكاهة، فصيح اللسان، بارع الخطِّ حُسنِه ومُتْقنه. كان في ذلك كله واحد عصره، ونسيج وحده، يُسلَّم إليه في ذلك كله، مع جمال مَنْظره، وحسن خلقه، وكرم فعاله، ومشاركته لإخوانه. وكان مع ذلك كله جميل التواضع، حسن المعاشرة لأهل العلم، مسارعًا لمهماتهم، نهاضًا بتكاليفهم، حافظًا لعهدهم، مكرمًا لنُبهائهم، واسع الصدر، حسن المجالسة والمحادثة، كثير المذاكرة، جمَّ الإفادة. له تصانيف جليلة نبيهة، ظهر فيها علمه وفهمه، أخذها الناس عنه مع سائر ما كان يحمله ويتقنه، عن أشياخه الذين أخذ عنهم، وسمع منهم، وقرأ عليهم.

وقال غيره: قتل بدرب الفرعوني بقرب رَحبة أبان، بداخل مدينة قرطبة، قرب باب عبد الجبّار يوم دخلها النصارى مع أميرهم ملك طليطلة، يوم قيام ابن حَمْدين، واقتتاله مع يحيىٰ بن علي بن غانية المسُوفي المُلَثَّم المرابطي يوم الأحد لثلاث عشرة مضت من ذي الحجة عام أربعين وخمسمائة. قتله بَرْبَرُ المصامدة رجّالة أهل دولة اللثام لحُسْن ملبسه، ولم يعرفوه، وقتلوا معه ابن أخته عبد الله بن عبد العزيز بن مسعود، وكان أنكحه ابنته، فقتلا معًا. وكان محمد خيرة الشيوخ، وعبد الله خيرة الأحداث، رحمهما الله تعالى.

محمد بن مُفَضل بن مُهيب اللخمي

يكنى أبا بكر، من أهل شِلب من العَليا.

حاله: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: كان منقبضًا عن الناس، أديبًا، شاعرًا، خمّس عشرينيات الفازاري، رحمه الله تعالى. وذكره صاحب الذيل، وقال لي شيخنا أبو البركات، وهو جدّه، أبو أبيه، ما معناه: كان شريفًا، عالي الهمة، عظيم الوقار، أَلُوفا، صَمُوتا، نحيف الجسم، آدم اللون، خفيف العارض، مُقطَّب الوجه، دائم العبوس، شامخ الأنف، إلّا أنه كان رجلًا عالـمًا راسخًا، عظيم النزاهة، حافظًا للمروءة، شهير الذكر، خطيبًا مِصْقعًا، مَهيبًا كشهرته، قديم الرياسة، يُعضِّد حديثُه قديمَه. واستقرّ بألمرية، لمّا تغلّب العدو على بَلَد سلفه. ولمّا توفي شيخ المشايخ؛ أبو إسحٰق بن الحجاج، تنافس الناس من البلدين، وغيرهم، في خُطْبة بنته. قال شيخنا أبو البركات: ومن خطِّه نقلت، وكان ابن مهيب واحدًا منهم في الإلحاح بالخُطبة، متقدمًا في حَلْبتهم، بجيوش الأشعار. ورام غلبَتَه ذوو اليسار، من حيث كان بحمراء جيش الإعسار، فأذلّهم بالمقابلة في عُقر الدار، فلم يراجعوا من الغنيمة إلّا بالفرار. قلت: وجلب في هذا المعنى شعرًا كثيرًا، ناسب الغرض. ونال من المُتَغلب على ألمريّة، على عهده، حُظْوة، فاستظهر به تارة على معقل مَرْشانة، وتارة على الرسالة إلى الحَضْرة الحفصية بتونس. ولما آب من سفره إليها، سعى به لديه بما أوجب أن يحجُرَ عليه التَّصرف، وسجنه بمنزله. فلمّا قصد ألمرية الغالب بالله، مُسْتَخلصًا إياها من يد الرئيس أبي عبد الله بن الرَّميمي، ونزل بمدينتها، وحاصر قَصَبتها، وقع اختيار الحاصر والمحصور على تعيين ابن مهيب، بمحاولة الأمر، وعقد الصلح، رضًى بدينه وأمانته، فعَقَد الصلح بينهما على أن يسلم ابن الرميمي القصبة، ويُعان على ركوب البحر بماله وأهله وولده، فتأتّى ذلك واكتَسب عند الغالب بالله، ما شاء من عزّة وتَجلة.

وقفني شيخنا أبو البركات على ظهير سلطاني، صدر عن الأمير الغالب بالله، يدل على جلالة قدره، نصُّه:

هذا ظهيرٌ كريم، أظهر العناية الحافلة لمُسْتَوحيها ومُسْتَحِقّها، وأجراه من الرعاية الكاملة على الحُبِّ طرقُها. أمر بإحكام أحكامه، والتزام العمل بفصوله وأقسامه، الأمير أبو[1] عبد الله محمد بن يوسف بن نَصْر نَصَر الله أعلامه، وأدام لإقامة قِسْط العدل أيامه، لوليّه العليّ المكانة، وصفيّه المليء بأثْرَتي المعرفة

(١) كلمة «أبو» ساقطة في الأصل. وقد حكم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر غرناطة من سنة ٦٣٥ هـ إلى سنة ٦٧١ هـ. اللمحة البدرية (ص ٤٢).

والدِّيانة، الحريّ بما اختصّه، أيّده الله، من الحفظ لمرتبته السامية والصِّيانة. للشيخ الفقيه، الجليل، العالم، الأوحد، العَلَم، الأتقى، الأزهر، الفاضل، الخطيب الأرفع، المحدّث الثقة، الرَّاوية، الصالح، السَّنِي، الحافظ، الحافل، الماجد، السَّرِي، الطاهر، المُكَرّم، المبرور، الكامل، أبي بكر ابن الشيخ الوزير الأجلّ، الفقيه، الحسيب، الأصيل، الأمجد، المكرم، المبرور، الأفضل، المرحوم، أبي عمرو بن مَهِيب، أدام الله عزّة جانبه، ووصل بالعلم والعمل ارتقاء مراتبه، أقام به الشّواهد على اعتقاده، أنه أخْلَصُ أوليائه وُدًّا، وأفضلهم قصدًا، وأكرمهم عهدًا، حين ظهرت له، أيّده الله، آثار آرائه الأصيلة، وبانت في الصلاح والإصلاح مَيامِنُ مناقبه الجميلة، ووجب له من العناية والمزيّات أتمّ ما توجبه معارفه، وتقتضيه مَجادته، وزَهادته، التي لا يُفنّد في وصفها واصف. وأعلن بأنه دام عزّه، أحقُّ من حُفِظَت عليه مرتبةُ صدور العلماء الراسخين في العلم، وأُبقِيت مزيّةُ ما تميز به التّقى والوَرَع الكافي والحِلْم، وبَرَع بصلة العناية بجانبه، لما أهّلته إليه معرفته من نَفْع المتعلمين، وإرشاد من يَسْتَرشده في مسائل الدين من المسلمين، وأفصَح بأنه أولى مخْصوص بالتجلّة والتوقير، وأجدُر مَنصُوص على أن قَدْره لديه معتمدٌ بالتكريم والتكبير. وأمَرَ، أعلى الله أمْرَه، أن يستمرّ له ولزوجه الحرّة الأصيلة الزكية، التقية الصالحة، المصونة المكرمة المبرورة، عائشة بنت الشيخ الفقيه الجليل العالم الصالح السَّني، الزاهد الفاضل، المرحوم المقدس، الأرْضَى، أبي إسحٰق ابن الحاج؛ ما اطّردت به العادة لهما قديمًا وحديثًا، وتضمنه الظهيران الكريمان، المؤرخ أحدهما بالعشر الأواخر لشوال عام خمسة وثلاثين وستمائة، من صَرْف النظر في أعْشارهما وزَكَواتهما إليهما، ليضعا ذلك في أحقّ الوجوه، ويؤدّيا فيه حقّ لله تعالى، ما مِثْلُهما علمًا ودينًا من يؤدّيه، موكولًا ذلك لله، إلى ما لديهما، من نشر الأمانة، مصروفًا إلى نظرهما الجاري مع العلم والديانة، وتجديد أحكام ما بأيديهما من الظّهائر والأوامر القديمة والحديثة، المتضمنة تَسْويغ الأملاك، على اختلافها، وتباين أجناسها وأوصافها، لهما ولأعقاب أعقابهما، على التأبيد والتّخليد، والمُحاشاة من اللّوازم، والمعاوز والمغارم، وأن يطّرد لشركائهما، وعَمَرَة أملاكهما، ووكلائهما، وحواشيهما، ومن اتصل بهما، جميل العناية، وحَفِيل الرعاية، وموصول الحماية، الاستمرار الذي يطّرد العمل به مدى الأيام، وتتوالى التّمْشِية له من غير انصرام على الدوام، مُوَفّى بذلك، ما يحقّ لجانب الفقيه العالم، الأوحد الأسنى، أبي بكر، أدام الله عزته، من حظوظ الإجلال، مُنْتَهًى فيه إلى أبعد آماد العنايات الشريفة، الفَسِيحة المجال، مُقْضًى على حقّ ما انفرد به من العلم، واتصف به من الديانة، اللذين أضْفَيا عليه ملابس البهاء والجلال. فمن وقف على هذا الظهير الكريم من الولاة

والعمّال، وسائر ولاة الأشغال، وليتلقَّه بغاية الائتمار والامتثال، إن شاء الله. وكتب في الثاني عشر من ذي الحجة عام ثلاثة وأربعين وستمائة.

مشيخته: أخذ عن أبي العباس أحمد بن مُنْذر الإشبيلي، تلا عليه بإشبيلية، وعلى عباس بن عطية أبي عمرو. وروى عن أبي محمد عبد الكبير الإشبيلي، وصَحِب أبا الحسن بن زَرْقون، وتفقّه عليه. وانتقل إلى ألمرية، فصحب أبا إسحٰق البِليفيقي وأخذ عنه، وتزوج ابنته. وأجاز له أبو عبد الله بن هشام الشّوّاش وغيره. ثم انتقل آخر عمره إلى سَبْتة.

شعره: نقلت من خطِّ شيخنا أبي البركات قوله في غرض الوصية: [الطويل]

أليلَ النّوى، هل من سبيلٍ إلى فَجْرِ؟ ويا قَلْبُ، كم تَأْسَى ويا دَمْعُ، كم تَجْري

أبى القَلْبُ إلّا أن يهيم بحبِّكُمْ وأن تَبْرحوا إلّا القليل عن الفكر

رحَلْتُ عنكم لا بقلبي وإنما تركْتُ لديكُمْ حين وَدَّعْتُكُمْ سِرّي

أعود بدهر الوَصْل من حين هَجْرِكُمْ ورُبَّ وصالٍ مُسْتعادٍ من الهَجْر

لِتَلْعابِ[1] نفسي لست أنفق قربكمْ لزُهْديَ فيكُمْ بل حَرِصْتُ على البَرّ

تُقَطِّعُ أكبادٌ عليكُمْ صَبابةً فاصْبِرْ فإنّ[2] الخير أجْمَع في الصبر

وبالقلب مَن لا يصلح الصبر عنهمُ وإن كان خيرًا فَهْوَ عنهمْ من الشَّرّ

فلولاهُمُ ما كنتُ أحْسَبُ ساعةً فَقَدْتُكُمُ فيها عِيانًا من العُمْر

ألا يا أخي فاسمعْ وَصاتي[3] فإنها أَتَتْكَ[4]، لعَمْري، مِنْ أخٍ سالم الصَّدْر

يُحِبُّك في ذات الإلٰه ويبتغي بحبِّك عند الله مُدَّخر الأَجْر

ألا إنما التوفيق كنت مِنَ اَهله[5] مراعاةَ حقِّ الله في السِّرِّ والجهر

بتوحيده في ذاته وصفاته وأفعاله أيضًا وفي النَّدْ[6] والأمر

فثابر على القرار والأَثَر الذي يَصِحُّ عن المختار والسّادة الغُرّ

وعُدَّ لك الخيرات عما سواها وكن بها مُسْتمسكًا أبد الدهر

إذا يسلك الشيطان فجًّا سوى الذي سَلَكْتَ ولا يَلفي سبيلًا إلى مكر

---

(١) في الأصل: «للعباب» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى معًا.
(٢) في الأصل: «إن» وكذا ينكسر الوزن.
(٣) الوَصاة، بفتح الواو: الوصية. محيط المحيط (وصى).
(٤) في الأصل: «لبّتك»، وهو ما لا معنى له.
(٥) في الأصل: «من أهله» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا همزة القطع همزة الوصل.
(٦) في الأصل: «الندى» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى معًا.

وفرِّقْ من[1] الأجناس حاشا تقيَّهمْ فقد ظهر الإفساد في البَرِّ والبحر
ولا تَنْسَني واذكُرْ أخاك بدعوةٍ فإنك منه يا أخي لَعَلى ذِكْر

قال شيخنا أبو البركات: ومن شعره، ومن خطِّه نقلت: [الكامل]

للصالحين إلى الصلاح طريقُ رَحُبَتْ بهمْ وغَدَتْ عليك تضيقُ
صرفوا النفوس من الهوى عن صَوْبها فَغَدَتْ إلى طلب النّجاة تَتُوقُ

منها بعد أبيات:

يا قرَّةَ العينِ اسْتَمعْ مِنْ ناصحٍ في صَدْره قَلْبٌ عليك شفيقُ
أنت الشّقيق ولادةً ولذلك لي روحٌ لروحك في الخُلوصِ شقيقُ
لا تخْدَعَنَّكَ تُرَّهاتٌ أُحْدِثَتْ وخُزَعْبَلاتٌ للجهول تروقُ
واعكفْ على القرآن دهرك واجتمعْ فالشُّغْلُ عنك لغيره تفريق
إنّ الحديث وفِقْهَه وعلومه هذا الذي للمؤمنين يليق
واهجرْ بني الدنيا فإنّ بِهَجْرهم يتضاعف الإيمانُ والتصديق
والْحَقْ بقومٍ قد عَنَوا بتجارة نَفَقَتْ لهمْ يوم القيامة سُوق
واحفظْ لسانك عن أذيَّةِ[2] مُسْلم فسِبابه قال الرسول فسوق
لا تَبْكِ هَمَّ الرزق فهو مُقَدَّرٌ والعَبْد طول حياته مَرْزوق
ولْتَرْضَ بالرحمٰن ربًّا حاكمًا ودَعِ الفضول فمنه ضَلَّ فريق
حلُّوا عقال عقولهمْ وتحكّموا إنّ التحكم بالعقول مُروق
ولقد أَتَتْكَ نصيحتي ولِشَمْسِها في أُفُقِ حُبِّك يا حبيبُ شُروق
فكنِ القريبَ مكانُه من نفعها فمكان سَدّتها إليك سحيق
واصطدْ بباري العزم أطيار الرضا فأخوك غايةُ بازِه التّحليق
ولتجعل التسبيحَ شأنك إنه في الصَّعْب ممن شأنُه التَّصْفيق
واقنعْ بعلم الوَحْي علمًا ثم لا يذهبْ بك التَّشْقيق والتوفيق
لا تَرْضَ فيه بالدنيَّة وَلْتَمُتْ عَطَشًا إذا لم تُسْقَ منه رحيق
ما كلُّ عِلْمٍ يُهْتَدى بحصوله منه الرّكيك نَعَمْ ومنه رقيق

(١) كلمة «من» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن.
(٢) في الأصل: «إذاية».

كمداركِ الأصوات منها طيِّبٌ ... تسلو النفوس به ومنه نهيق
وعليكُمُ مِنّي تحيّةُ من له ... قَلْبٌ إليكم أجمعين[1] مَشُوق

وقال: ألفيت بخطه ما نصُّه: وكان بعض السفهاء قد كتب إليَّ بيتين من شعرٍ وهما: [الطويل]

إليك، أبا بكر، رَفَعْتُ وسيلتي ... ومِثْلُك من تُلْقى إليه الوسائلُ
غَرقت ببحر الذُّل يومًا وليس لي ... بأرضكم إلّا اهتمامك ساحلُ

وأساء المحاولة في دفعها، فصرفته، ولم أقف عليهما، فضرب عليهما، وكتب في ظهرهما: [الطويل]

حلَلْتَ، أبا بكر، بموطن عزة ... فأنسيتَ ما قد كنتَ فيه من الذُّلّ
وأصلك من كبْر وكن مُتكَبِّرا ... وكيف يطيب الفرع من ذلك الأَصْلِ؟

وكتبت إليه صُحْبَةَ دراهم وَجَّهْتُ بها إليه: [الطويل]

جَفَوْتَ وما زال الجفاء[2] سجيّةً ... لمثلك ما إن زال تُبْلى بها مِثْلي[3]
وما قلتَ في أصلي فكذْبة فاجر ... رأى الفرع محمودًا فعاب على الأَصْلِ
وبالإفك ما عَثَرْتَ لا بحقيقة ... فما الكِبْرُ من شأني ولا كنتُ في ذلّ
وما زلت، والله، الحميد مُكَرّمًا ... وفي نائبات الدهر للعقد والحلّ
ولو كنتَ مَنْ يتّقي الله لم تكن ... تُمِرُّ[4] متى تَسْخَطْ وعند الرِّضا تُحلي[5]
أما قلتَ أني ساحل لك عندما ... غَرِقْتَ ببحر الذُّلّ في زمن المَحْل؟
وكيف نَسَخْتَ المدح بالذَّمّ قبل أن ... تبثَّ لي الشكوى وتُدْلي بما تُدْلي[6]
ولكنّ لُؤمَ الطَّبْعِ يحمل أهله ... على الصَّعْب من سَبِّ الكرام أو النَّيْل
إذا[7] كان بعض الكِبْر نقصًا فإنه ... عليك من الأوغاد يُحسب في الفَضْل
وما الذُّلُّ إلّا ما أتى بك نحونا ... فقيرًا من التّقوى سليبًا من العقل
ومطلوبُك الدُّنيا فخذْها خسيسةً ... توافي خسيس النَّفْس والقول والفعل

---

(١) في الأصل: «أجمعه» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «الجفا» وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «مَثَلُ» وهكذا ينكسر الوزن، وأعتقد أنه خطأ في الطبع.
(٤) في الأصل: «تمد» بالدال.
(٥) في الأصل: «تحل». يقول: يُضِرّ متى يَسْخُط، وعند الرضا ينفع.
(٦) في الأصل: «تُدْل» بدون ياء. (٧) في الأصل: «إنْ» وكذا ينكسر الوزن.

وما الجود إلّا ما أصبْتَ مكانه ... ومهما فَقَدْتَ الأصل لا عارَ في البُخْل

ومثلُك من يُجفي ويقلب خاسئًا ... فلستَ لإسداء الصَّنيعة بالأهل

ولكنني عَوَّدْتُ نَفسيَ عادةً ... من البَذْل لم أعدلْ بها قطُّ عن نَذْل

فخذها، لحاكَ الله، غير مبارك ... لسعيك فيها يا ابن خانية النَّغل

ومثليَ مَنْ يُؤذَى فيحتمل الأذى ... ولكنه قد يَدْرَأ[1] الجَهْلَ بالجهل

وقد قال من لا شكّ في قوله مِنْ حِكْـ ... ـمةٍ إنما القتلُ أذهبُ للقتل[2]

فإن زِدْتَنا زِدنا وإن كنتَ نادمًا ... قَبِلْناك أخذًا في أمورك بالعدل

ففي كل شيء لستُ عنك مقصِّرًا ... بما شئت من قطْع وما شئْتَ من وَصْل

قال الشيخ: قول الهاجي: وأصلك من كِبْر، معناه التعريض يكون سلف أبي بكر بن مَهيب، علوًا في أنفسهم وتكبروا، فثاروا بسبب ذلك بطبيرة وجهاتها، ثار منهم عبد الرحمٰن جدُّ أبي بكر، ثم حسن، ثم عامر أخوه، وإلى هذا أشار أبو بكر بن مهيب بقوله في بعض شعره: [الكامل]

إن لم أكن مَلِكًا فكنتُ رئيسًا[3]

وأنشد في الصلة الزبيرية[4]، قوله رحمه الله: [الكامل]

أَمَلي من الدنيا المباحة كِسْرةٌ ... أُبقي بها رمقي ودارٌ نابيهْ

قد أضرَبَ الزمانُ عن سكانها ... فكأنها في القَفْرِ دارٌ خاليهْ

ومن شعره في المقطوعات: [الطويل]

تَرَحَّلَ صَبْري والولوعُ مقيمُ ... وصَحَّ اشتياقي والسُّلُوُّ سقيمُ

فياليت شعري هل أفوز بعطف من ... زيَّنت خدِّي وَرْدًا عليه أقوم[5]؟

ويا جَنَّةً قد حِيلَ بيني وبينها ... بقلْبيَ مِنْ شَوقي إليكِ جحيمُ

دخوله غرناطة: قال الشيخ: دخل غرناطة مرتين، أخبرني بذلك الشيخ القاضي أبو الحسن بن عُبيدة، وهو بصير بأخباره، إذ هو من أصحاب سلفه، وممن رافق جدَّه في الكَتْب عن بعض الأمراء مدة، وفي الخطابة بألمَريّة أخرى.

---

(١) في الأصل: «يُدر» وكذا لا يستقيم المعنى والوزن معًا. ودَرَأ الجهل بالجهل: دفعه دفعًا شديدًا.

(٢) في الأصل: «... من الحكما القَتْلُ...» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى معًا.

(٣) في الأصل: «رَيِّسا» وكذا ينكسر الوزن. (٤) أي كتاب «صلة الصلة» لابن الزبير.

(٥) عجز هذا البيت لا يستقيم وزنه ولا معناه.

وفاته: توفي بسبتة أول ليلة من جمادى الآخرة عام خمسة وأربعين وستمائة.

محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي

حاله: من صلة ابن الزبير: كان كاتبًا بارعًا، شاعرًا مجيدًا، له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام، وغير ذلك، مع نباهة وحُسْن فهم، ذو فضل وتعقل، وحسن سَمْت. وورد على غرناطة، واستُعمل في الكتابة السلطانية مدة، وكان معلوم القَدْر، معظّمًا عند الكافة. ثم إنه رجع إلى مُرْسية، وقد ساءت أحوالها، فأقام بها مدة، ثم انفصل عنها، وقد اشتدّت أحوالها، واستقر بالعُدْوة بعد مُكابدة.

قلت: أخبرني شيخنا أبو الحسن الجياب، رحمه الله، قال: كان شَكِس الأخلاق، متقاطبًا، زاهيًا بنفسه؛ ابتدأ يومًا كتابًا مُصَدَّرًا بخطبته، فقال فيه يصف صحابة رسول الله ﷺ «عفوة العفوة»، وتركه لأمر عرض له، فنظر إليه الفقيه عمر اللّوْشي، وهو كاتب المقام السلطاني، فظنّ لقصوره أنه وَهَم، وأراد «الصفوة» فأصلحه، فلمّا عاد ونظر إليه مزّقه، وكسر الآلة، وقال: لا أقيم بموضع بلغ فيه الجهل إلى هذا القَدْر، ويُتَسَوَّر به الإصلاح على قلم يُطْمع بعد في مقامه. وانصرف، واستقرّ بتِلْمسان، كاتبًا عن سلطانها أبي يحيىٰ يَغْمُراسن بن زيّان. وزعموا أن المستنصر أبا عبد الله ابن الأمير أبي زكريا، استقدمه على عادته في استدعاء الكتّاب المشاهير والعلماء، وبعث إليه ألف دينار من الذهب العَيْن، فاعتذر وردّ عليه المال، وكانت أشقّ ما مرّ على المستنصر، وطهر له عُلُوُّ شأنه، وبُعْدُ همَّته.

مشيخته: روى عن القاضيين أبي عيسى بن أبي السَّداد، وأبي بكر بن مُحرز، وعن الأستاذ أبي بكر محمد بن محمد، المعروف بالقرشي، وقرأ وسمع على هؤلاء ببلده، وأجاز له كتابةً أبو الربيع بن سالم وغيره.

شعره: من ذلك قوله: [الكامل]

اقنعْ بما أوتيته تَنَلِ الغِنى ... وإذا دَهَتْك مُلِمَّةٌ فَتَصَبَّرِ

واعلَمْ بأنّ الرزق مقسوم فلو ... رُمْنا زيادة ذرَّة لم نقدر

والله أرحمُ بالعباد فلا تَسَلْ ... أحدًا تَعِش عَيْش الكِرام وتُؤجر

وإذا سخطت لبؤس حالك مرة ... ورأيت نفسك قد غَوَتْ فلتبصر

وانظرْ إلى مَن كان دونك تدّكرْ ... لعظيم نعمته عليك وتشكر

ومما قاله في صباه: [الكامل]

يــــا دعـــــوة شـــــاكِ[١] | مـا قـد دَهـاه مـن لِحـاظِ رَشـاكِ
ظَبْيٌ تصدّى للقلوب يصيدها | مـن نـاظِـرَيـه فـي سـلاحِ شـاك
ورَمَى وإن قالوا رنا عن فاترٍ | سـاج عـليـه سيمـة[٢] الـنُّسّـاك
قد كنت أحذر بطشه لو أنني | أبـصـرت مـنـه مـخـايـل الـفتّـاك
أو ما عليه ولا عليه حاكمٌ | يحمي ثُغُورك أو يَحُوطُ حماك
أو ما لجارك ذمّةٌ مرعيّةٌ | أبذا يَظلُّ دمُ الغريب طِلاك؟
إني استنمْتُ إلى ظلالك ضلّة | فإذا ظباؤك ماضيات ظباك
ما لي أخاطب بانَةً ما أن تَعي | قولًا ولا تَرثي لدمعة باك؟
أكريمة الحَيَّين، هل لمُتَيَّم | رَحْمَى لديك فأرتجي رحماك؟
أَصبَيْتني بعد المشيب وليس من | عُذر لمن لم يُصْبِهِ ثراك
لولاكِ[٣] ما جَذَبَتْ عِناني لوعةٌ | والله يـشـهـد أنـنـي لَوْلاك
لـمّا دعا داعي هواكِ أَجَبْتُه | من لا يجيب إذا دَعَتْ عيناكِ؟
أَصْلَيْتني نارَ الصُّدود وإنّني | راضٍ بـأن أُصْـلَى ولا أَسْـلاكِ
وأَبَحْتُ ما منع التشرُّع من دمي | بالله مَنْ أفتاكِ قَتْلَ فتاكِ؟
وتركْتُ قلبي طائرًا متخبِّطًا | بشباكِ[٤] خَتْلِكِ أو بطعْن سباك
ومنعْتُ أجفاني لذيذ منامها | كي لا يتيح ليَ الكَرَى لُقْياك
ولقد عجبْتُ وأنتِ جِدُّ بخيلة | كأنْ[٥] أعزتِ الشمس بَعْضَ حُلاك
إني لَأَيْأَسُ من وصلك تارة | لكنْ أُعلِّلُ مَطْمعي بُعلاك
أسْماك أنك قد خَفَضْتِ مكانتي | هلّا خَلَعْتِ عليّ من سيماك؟
إني مُعنّاكِ المتيَّم فليكنْ | حظّي لديكِ مناسبًا مَغْناك
تثني معاطفك الصِّبا خُوطيّة | وكذا الصِّبا فصِباك مِثْلُ جِماك
أَبْعَدْتني منها بطعنة رامح | ألذاك سمَّتْك الورى بسماك؟
أَأموت من عَطَش وثغرك مَوْرِدٌ | فيه الحياة اسْتَوْدَعَتْها فاك؟
هلا تني عن حُلوةٍ فَلِعِلَّةٍ | وضعتْ أداة النفي في اسم لَماك

(١) صدر هذا البيت مختل الوزن والمعنى.
(٢) في الأصل: «سيم» وكذا لا يستقيم الوزن.
(٣) في الأصل: «لولا» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.
(٤) في الأصل: «شباك» وكذا ينكسر الوزن.
(٥) في الأصل: «أن» وكذا ينكسر الوزن.

وقال يجيب أبا عبد الله بن خميس، رحمه الله، عن قصيدة بعث بها إليه أولها: [الكامل]

رُدْ في حدائق مائها مرتادُ قد لذَّ موروِدٌ وطابَ مُرادُ
زُرْقُ الأسنّةِ دون زُرْق حَمامها وظُبًى كما رَنَتِ العيونُ حِدادُ

هذه الأبيات: [الكامل]

نِعْمَ المراد لمن غدا يرتادُ مرعًى يرفّ نباتُه ومِهادُ
سالَتْ على العافي جداولُه كما صالت على العادي ظُبًى تَنَادُ[١]
فَشَدَدْتُ رَحْلَ مطيّتي منه إلى حيث السيادة تُبتنى وتُشادُ
وركبتُ ناجيةً[٢] مبارية الصَّبا خَضْراء[٣] فوق خُضارةٍ[٤] تُعتادُ
يغتادُها سكانها قُلَّب على من كان من سكانها استبداد
عجبًا لهمْ أحلامُهُمْ عاديَّةٌ تَمْضي عليهمْ حكمها أعواد
خَبَّرْ تِلِمْسانًا بأَني[٥] جئتُها لمّا دعاني نحوها الرُّواد
وأعاقها[٦] سمعًا ولم أر حُسْنها إلّا أناسًا حدّثوا فأجادُوا[٧]
ولربَّ حُسْنٍ لا ثواه ناظرٌ ويراه لا يخفى عليه فؤاد
ودخلْتُها فدخلْتُ منها جنَّة سكانها لا تخفى ولا حياد[٨]
ورأيت فضلًا باهرًا ومكارمًا وعُلا تغاضر دونها التَّعداد
أهل الرِّواية والدراية والنَّدى في نُورهمْ أبدًا لنا استِمْداد
فهمُ إذا سُئلوا بحارُ معارف ولدى السكينة والنهى أطواد
درجاتها ينحَطُّ عنها غيرهُمْ ومن الورى قَترٌ ومنه وِهاد
فأجلُّهُمْ وأحلُّهُمْ من مهجتي بمكانةٍ ما فوقها مُزْداد
وأودُّ حين أخطُّ أطيب ذكرهم لو أنّ أسْوَد مُقْلَتَيَّ مِداد

---

(١) في الأصل: «العادي بدا ناد» وكذا لا يستقيم الوزن ولا معنًى له. والعادي: العدو.
(٢) الناجية: الناقة السريعة تنجو بمن ركبها. محيط المحيط (نجا).
(٣) في الأصل: «خضرًا» وكذا ينكسر الوزن. والخضراء: السماء. محيط المحيط (خضر).
(٤) الخُضارة: عَلَمٌ للبحر غير منصرف. محيط المحيط (خضر).
(٥) في الأصل: «بأنني» وكذا ينكسر الوزن.
(٦) في الأصل: «وعاقتها» وكذا لا يستقيم المعنى ولا الوزن.
(٧) في الأصل: «فأجاد».
(٨) عجز البيت مختل الوزن والمعنى معًا.

وقال يخاطبه وقد وقف على بعض قصيدة: [الكامل]

رقَّتْ حواشي طبعِكَ ابنَ خميسِ فهفا قريضُك بي وهاج رَسيسي
ولمثله يَصْبُو الحليم ويمتري ما للشروق به وسيرُ العِيس
لك في البلاغة والبلاغةُ بعض ما تحويه من أَثَرِ مَحَلُّ رئيسي
نَظْمٌ ونثر لا تُبارى فيهما مهَّدت[1] ذاك وذا بعلم الطُّوسِ

وقال عند وفاته وربما نُسبت لغيره: [الخفيف]

ربِّ أنت الحليم فاغفرْ ذنوبي ليس يعفو عن الذنوبِ سواكا
ربِّ ثَبِّتْ عند السؤال لساني وأَقِمْني على طريق هُداكا
ربِّ كن لي[2] إذا وقفتُ ذليلًا ناكسَ الرأي أسْتحي أن أراكا
ربِّ من لي والنارُ قد قَرُبَتْ لي وأنا قد أبحْتُ عَهْدَ حِماكا؟
ربِّ مالي من عُدَّة لمآلي غير أني أعددت صِدْق رجاكا
ربِّ أقررتُ أنني[3] عَبْدُ سوء حِلْمُك الجمُّ غرَّه فعصاكا
ربِّ أنت الجواد بالخير دومًا لم تزل راحمًا فَهَبْ لي رضاكا
ربِّ إن لم أكن لفضلك أهْلًا باجْتِرائي فأنت أهلٌ لذاكا

نثره: ومن نثره ما خاطب به صديقين له بمرسية من مدينة إشبيلية:

كتبتُه، كتب الله لكما فوزًا بالحسنى، وأجْناكما من ثمرات إحسانه أكثر ما يُجْنى. من إشبيلية، وحالي بحمد الله حسنة، ونفسي بحبّ قربكما مُرْتَهنة، وعليّ بما لديكما من السَّراوة التي جُبِلْتما على فِطْرتها، وامتَزْتُما في الاجتلاء بغُرَّتها، علم لا يدخله الشكّ، ونِسْبتي إلى وُدّكما الذي لبسْته مَعْلمًا، وتقلّدْتُه مَحْرمًا، لا يعبّر عن معناها إلّا بما لا يزال ولا ينفكُّ. فلنثْنِ عِنان القلم عن مداده، ونأخذ في حديث سواه. وصلنا إشبيلية ضحوة يوم الثلاثاء خامس ربيع الآخر، ولقينا الإفانْت[4] على ميلين، وفُزْنا بما ظهر من بِشْره واعتنائه بقرار الخاطر، وقرة العين، ونزلنا في الأخْبِية

(١) في الأصل: «تمهدّت» وكذا ينكسر الوزن.
(٢) كلمة «لي» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.
(٣) في الأصل: «أني» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) المراد: الإنفانت، بالإسبانية Infante، وهو لقب كان يطلق على ولي عهد ملك قشتالة، إذ كانت إشبيلية آنذاك تابعة لقشتالة لأنها سقطت في أيدي الإسبان سنة ٦٤٦ هـ. وصارت عاصمة لقشتالة. راجع: الإحاطة (ج ٢ ص ٤٣١) تحقيق عنان، حاشية رقم ٦.

خارج البلد، موضعًا يعرف بالقنب[١]، قد تفجّر عيونًا، وجمع ماؤه وهواؤه من المحاسن فنونًا، وعرض علينا النزول في الدّيار داخل المدينة، فرأينا المقام فيه أحد الأسباب المُسْعِدة على حفظ الصحة المَعِينة، ورغبنا عن المدينة لحرّها الوهاج، وغبارها العَجاج، ومائها الأجاج. ولمّا ثاب من النشاط البارح، واستقلّ من المَطَيّ الرازح، طفت في خارجها وداخلها، ووقفت على مبانيها المشيَّدة ومنازلها، ورأيت انسياب أراقِشها، وتقصيت آثار طُرْيانَتِها[٢] وبراقِشها، فشاهدتُ من المباني العتيقة، والمنارة[٣] الأنيقة، ما يملأ أعين النُّظّار، وينفسح فيه مجال الاعتبار، على أني ما رأيتها إلّا بعد ما استولى عليها الخَسْف، وبان عنها الظَّرف، ونبا عنها الطَّرف، فلا ترى من مغانيها إلّا طللًا دارسًا، ولا تلمح من بدائعها إلا مُحيّا عابسًا، لكن الرائي إذا قَدَّر وضعها الأول، وركب وهمه من مبانيها ما تحلّل، وتخيّل في ذهنه حُسْنَها وتمثل، تصور حُسْنًا يدعو إلى المجون، ويُسْلي عن الشجون، لولا أنها عُرِضت لأشمط راهب، لما دان إلّا بدَن ولا تقرّب بغير قارب، وحسبي أن أصفها بما يقيها من القبول، وأقول إنها في البلاد بمنزلة الربيع من الفصول، ولولا أن خاطري مُقَسّم، وفكري حدّه مثلم، لقضيت من الإطناب وطَرًا، ولم أدع من معاهدها عينًا إلّا وصفتها ولا أثرًا.

وفاته: توفي بتلمسان يوم عاشوراء سنة ست وثمانين وستمائة.

محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأُمي[٤]

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الصايغ، بالصاد المهملة، والغين المعجمة، من أهل ألمريّة.

حاله: من خطّ[٥] شيخنا أبي البركات في «الكتاب المُؤْتمن على أنباء أبناء الزمن»: كان سهلًا، سَلِسَ القياد، لذيذ العشرة، دَمِثَ الأخلاق، ميّالًا إلى الدَّعة، نَفُورًا عن النَّصَب، يركن إلى فضل نَباهة وذكاء، يُحاسب بها[٦] عند التحصيل والدراسة والدُّؤوب على الطلب، من رجل يجري من الألحان على مضمارٍ لطيف،

(١) القنب: بالإسبانية El Campo، وهو الحقل أو الميدان.
(٢) طريانة: بالإسبانية Triana وهي ضاحية بإشبيلية على نهر الوادي الكبير.
(٣) هي منارة المسجد الجامع بإشبيلية، وتعرف اليوم باسم La Giralda.
(٤) ترجمة ابن لب الأمي في الكتيبة الكامنة (ص ٨٨) وبغية الوعاة (ص ٦٠) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٠٣) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٣٥٨ وما بعدها).
(٥) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٥٩). (٦) في النفح: «بهما».

ولم يكن له صوت رخيم، يُساوق[١] انطباعه في التّلحين، يخبر[٢] ذلك بالأوتار. وحاول من ذلك بيده مع أصحابه، ما لاذ به الظرفاء منهم. واسْتُعْمل بدار الأشراف بألمرية، فأحكم تلك الطريقة في أقرب زمان، وجاء زمامه يروق مَنْ ذلك العملُ شأنه[٣]. ثم نهَضت به هِمَّتُه إلى أرفع من ذلك، فسار إلى غرناطة، وقرأ[٤] بها العربية وغيرها، وانخرط في سِلْك نبهاء الطلبة لأدنى مدة. ثم رحل إلى بلاد المشرق في حدود العشرين وسبعمائة، فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هوائها[٥] علّة كان يشكوها، وأخذ في إقراء العربية بها، وعُرف بها إلى أن صار يدعى بأبي عبد الله النحوي. قال شيخنا المذكور: ورأى في صغره فأرةً أنثى، فقال: هذه قُرَيْنَة، فلُقِّب بذلك، وصار هذا اللقب أغلب عليه[٦] من اسمه ومعرفته.

وجرى ذكره في التاج بما نصه[٧]: لُجُّ معرفةٍ لا يغيض[٨]، وصاحب فنون يأخذ فيها ويُفيض. نشأ ببلده مُشَمِّرًا عن ساعد اجتهاده، وشارك[٩] في قُنن[١٠] العلم ووهاده، حتى أينع روضُه، وفَهَقَ[١١] حوضُه. ثم أخذ في إراحة[١٢] ذاته، وشام بارقة[١٣] لذَّاته، ثم سار في البطالة سير الجَمُوح، وواصل الغَبُوق بالصَّبُوح، حتى قضى وَطَرَه، وسيم بَطَره، وركب الفُلْك، وخاض اللُّجَجَ الحُلْك، واستقرَّ بمصر على النعمة العريضة، على شكّ في قضائه[١٤] الحجَّة العريضة، وهو اليوم[١٥] بمدرستها الصالحية، نبيهُ المكانة، معدودٌ في أهل العلم والديانة.

مشيخته: قرأ بألمرية على المكتِّب أبي عبد الله المَيُرْقي، وأخذ عن شيخ الجماعة أبي الحسن بن أبي العيش، وقرأ بالحضرة على الخطيب أبي الحسن[١٦] القِيجاطي وغيره. وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبي حيّان، وانتفع به وبجاهه.

---

(١) يساوق: يجاري ويوازي. لسان العرب (سوق).
(٢) في النفح: «فجبر».
(٣) في النفح: «من شأنه».
(٤) في النفح: «فقرأ».
(٥) في الأصل: «هواها» والتصويب من النفح.
(٦) كلمة «عليه» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفح.
(٧) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩).
(٨) لا يغيض: لا ينضب. لسان العرب (غيض).
(٩) في النفح: «وسائرًا».
(١٠) القُنَن: جمع قُنّة وهي القمّة. لسان العرب (قَنن).
(١١) فَهَقَ: امتلأ. لسان العرب (فهق).
(١٢) في النفح: «راحة».
(١٣) في النفح: «بارق».
(١٤) في النفح: «في قضاء حجة الفريضة».
(١٥) كلمة «اليوم» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفح.
(١٦) في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٥٩): «على الخطيب أبي علي القيجاطي وطبقته».

شعره: قال شيخنا أبو البركات: وكان أخذ من قَرْض جيد الشعر بالحظّ الوافر. فمن شعره ما نقله إلينا الحاج الحافظ المُكَتِّب أبو جعفر بن غصن، حسبما قيّده عنه بمصر[(١)]: [الكامل]

بُعْدُ المَزارِ ولَوْعَةُ الأشواق[(٢)] ... حَكَما بِفَيْضِ مدامعِ الآماقِ
وخفوقُ نَجْدِيّ النسيم إذا سَرى ... أذكى لهيبَ فؤاديَ الخفّاقِ
أَمُعَلِّلي إنّ التواصل في غدٍ ... من ذا الذي لِغَدٍ فَدَيتُكَ باق؟
إنّ الليالي سُبَّقٌ قد[(٣)] أقبلتْ ... وإذا تولّتْ لم تُنَلْ بلحاق
عُجْ[(٤)] بالمطيّ على الحمى، سُقِيَ الحِما ... صَوْبَ الغَمامِ الواكفِ الرَّقْراق
فيه[(٥)] لذي القَلْبِ السليم ودادُهُ ... قَلْبٌ سليمٌ يا[(٦)] له من راقِ[(٧)]
قَلْبٌ غداةَ فراقهم فارقْتُه ... لا كان في الأيام يومُ فراقِ[(٨)]
يا ساريًا والليلُ ساجٍ عاكفٌ ... يَفْري الفَلا[(٩)] بنجائبٍ[(١٠)] ونياق
عَرِّجْ على مَثْوى النَّبيّ محمدٍ ... خيرِ البَرِيَّةِ ذي المَحَلِّ الراقي[(١١)]
ورسولِ ربِّ العالمين ومَنْ له ... حفظُ العهودِ وصحّةُ الميثاق
الظّاهرُ الآياتِ قام دليلُها ... والطّاهرُ الأخلاق والأعراق
بَدْرُ الهدى[(١٢)] البادي الذي[(١٣)] آياتُه[(١٤)] ... وجَبينُه كالشمس في الإشراق

---

(١) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ٨٨ ـ ٩٠) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٣).
(٢) في الأصل: «ولَوّعَتْه أشواق» والتصويب من المصدرين.
(٣) في المصدرين: «إنْ».
(٤) في الأصل: «فصفحٌ تمدّونه على...». وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(٥) في الكتيبة: «فبه». (٦) في النفح: «ما له».
(٧) جاء في الكتيبة بدل عجز هذا البيت عجزُ البيت التالي. والسليم: المريض. والراقي: الذي يستعمل الرقية لمداواة المرض. لسان العرب (سلم) و(رقى).
(٨) هذا البيت غير وارد في الكتيبة.
(٩) في الأصل: «يَفْتَري للعلا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(١٠) النجائب: الإبل السريعة. لسان العرب (نجب).
(١١) في الأصل: «المنخل البراق» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة. وفي النفح: «المقام» بدل «المحلّ».
(١٢) في الكتيبة: «الهوى».
(١٣) كلمة «الذي» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المصدرين.
(١٤) في النفح: «... الهدى وهو الذي آياته».

الشّافعُ المقبولُ مَنْ عَمَّ الورى ... بالجود والإرفاد والإرفاق
والصّادق[١] المأمونُ أكرَمُ مُرْسَلٍ ... سارتْ رسالتُه إلى الآفاق
أعلى الكرام نَدًى وأبسطُهمْ يدًا ... قَبَضَتْ عِنانَ المجد باستحقاق
وأشدُّ خلقِ اللهِ إقدامًا إذا ... حَمِيَ الوطيسُ وشَمَّرَتْ عن ساق
أمضاهُمُ والخيلُ تعثرُ في القنا[٢] ... وتجولُ سَبْحًا في الدَّم المِهْراق
مَنْ صَيَّرَ الأديانَ دينًا واحدًا ... من بَعْدِ إشْراكٍ[٣] مضى ونفاق
وأَحَلَّنا من حُرمةِ الإسلام في ... ظِلٍّ ظليلٍ وارفِ الأوراق
لو أنَّ للبَدْرِ المنيرِ كمالَهُ ... ما ناله[٤] كشفٌ ونكسٌ[٥] مَحاق
لو أنَّ للبحرين جُودَ يمينه ... أَمِنَ السّفينُ غوائلَ الإغراق[٦]
لو[٧] أنّ للآباء رحمةَ قَلْبِهِ ... ذابتْ نفوسهُمُ[٨] من الإشفاق
ذو العلم[٩] والحِلْمِ الخَفِيِّ[١٠] المُنْجلي ... والجاه والشّرفِ القديم الباقي
آياتُهُ شُهُبٌ وغُرٌّ بنانِهِ ... سُحُبُ النَّوالِ تُدَرُّ بالأرْزاق
ماجت[١١] فُتوحُ الأرض وهو غياثُها ... وَرَبَتْ رُبى الإيمان وهو الساقي[١٢]
ذو رأفةٍ بالمؤمنين ورحمةٍ ... وهُدًى وتأديبٍ بحُسْنِ سياق
وخصالِ مَجْدٍ أُفْرِدَتْ بالخَصْلِ في ... مَرمى الفَخار وغايةِ السُّبّاق
ذو المعجزاتِ الغُرّ والآي التي ... كم آيةٍ فُقِدَتْ وهُنَّ بواقي
ثَنَتِ المُعارض حائرًا[١٣] لمّا حكتْ ... فَلَقَ الصّباح وكان ذا إفلاق
يقظ الفؤادِ سُرًى وقد هَجَع الوَرى ... لمقامِ صدقٍ فوق ظهرِ بُراق
وسما وأملاكُ السَّماءِ تحفُّه ... حتى تجاوزَهُنّ سَبْعَ طِباق

---

(١) في النفح: «الصادق».
(٢) في النفح: «الوغى».
(٣) في الأصل: «إشراق»، والتصويب من المصدرين.
(٤) في الكتيبة: «ما طاله».
(٥) في الكتيبة: «وكشف».
(٦) في النفح: «الإيساقِ».
(٧) في الكتيبة: «أو».
(٨) في الكتيبة: «قلوبهمُ».
(٩) في الكتيبة: «ذو الحلم والعلم».
(١٠) في الأصل: «ذو العلم والخفيّ المنجلي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(١١) في الأصل: «فاحتْ فيوحُ الأرض...»، والتصويب من النفح.
(١٢) في الأصل: «وهو الشاق» والتصويب من النفح.
(١٣) في الأصل: «خيرًا» والتصويب من النفح.

منـهـا:

يا ذا الذي اتصلَ الرَّجاءُ[١] بحبله … وانبَتَّ من هذا الْورى[٢] بطلاقِ

حُبِّي إليك وسيلتي وذخيرتي … إنـي مـن الأعـمـال ذو إملاق[٣]

وإليكَ أَعْمَلْتُ الرَّواحلَ ضُمَّرًا … تختالُ بين الوَخْدِ والإعناق[٤]

نُجُبًا إذا نَشَرَتْ[٥] حُلى[٦] تلك العلا[٧] … تَطْوي الفلا مُمْتدَّةَ الأعناق

يَحْدو بهنَّ من النَّحيب مُرَدَّدٌ … وتقودهنّ أزِمَّةُ الأشواق

غَرَضٌ إليه فوَّقْتنا[٨] أسْهُمًا … وهي القِسِيّ بُرِينَ كالأفواق

وأنَخْتُها[٩] بفنائك الرَّحْب الذي … وَسِعَ الوَرَى بالنائل الدفّاق[١٠]

وقِرى[١١] مؤمِّلك الشفاعةُ في غَدٍ … وكفى بها هبةً من الرزّاق

وعليكَ يا خيرَ الأنام تحيّةٌ … نُحيي النفوسَ بِنَشْرِها الفتّاق

تتأرَّجُ الأرجاءُ من نَفَحاتها[١٢] … أرَجَ النَّديِّ بمدحك المِصْداقِ

منـهـا[١٣]:

قَسَمًا بطيبِ ترابِ طَيْبَةَ إنه … مِسْكُ الأنوفِ وإثْمدُ[١٤] الأحداقِ

وبشأنِ[١٥] مسجدها الذي برحابه … لِمُعامِلِ الرّحمٰنِ أيُّ نَفاق

لَأَجُودُ فيه بأدْمُعٍ أسْلاكُها … منظومةٌ بترائبِ وتراقِ

(١) في الأصل: «الرجا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(٢) في الأصل: «لِلْورى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(٣) الإملاق: الفَقْر. لسان العرب (ملق).
(٤) الوَخْد والإعناق: ضربان من السير السريع. لسان العرب (وخد) و(عنق).
(٥) في النفح: «نشدت».
(٦) كلمة «حلى» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من المصدرين.
(٧) في الأصل: «الفلا» والتصويب من المصدرين.
(٨) في الأصل: «فَوَّقْنا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح. وفي الكتيبة: «فَوَّقَتْها».
(٩) في المصدرين: «فأنَخْتها».
(١٠) في الأصل: «الدّفّاق»، والتصويب من المصدرين.
(١١) في الأصل: «وقَوّى» والتصويب من المصدرين.
(١٢) في الأصل: «لفحاتها» والتصويب من المصدرين.
(١٣) الأبيات التالية غير واردة في الكتيبة.
(١٤) الإثْمد: حجر يُكْتَحَلُ به. محيط المحيط (ثمد).
(١٥) في الأصل: «وأثبار مسجده» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

أغـدو بـتَـقْـبـيـلٍ عـلـى حَـضـبـائِهِ ... وعـلـى كـرائـم[١] جُـذْرِهِ بـعـنـاق
وعـليـكَ ذا الـنُّـورَيـنِ[٢] تـسـليـمٌ لـه ... نـورٌ يـلـوحُ بـصَـفْـحـةِ الـمُـهْـراق
كُـفْـؤ[٣] الـنـبـيِّ وكُـفْـؤُ أعـلـى جَـنّـةٍ ... حِـيـزتْ لـه بـشـهـادةٍ وصـداق
وعلى أبي السِّبْطَينِ[٤] مَنْ سَبقَ الألى ... سبـقـوا إلـى الإسـلام أيّ[٥] سـبـاق
الطاهرُ الصِّهر[٦] ابن عَمِّ المصطفى ... شَـرفٌ عـلـى الـتَّـعـمـيـم[٧] والإطـلاق
مُبْدي القضايا[٨] من وراء حِجابها ... ومُـفَـتِّـح الأحـكـام عـن إغـلاق
يـغـزو الـعُـداةَ بـغـلظـةٍ فَـيَـهُـدُّهُـمْ[٩] ... بـصـوارمٍ تـفـري الـفِـقـارَ رقـاقِ
رايـاتُـه لا شـيءَ مـن عِـقـبـانـهـا ... بـمـطـارِ يـومِ وغـىً ولا بـمُـطـاق
وعـلـى كـرام سـتَّـة عـشـرت[١٠] بـهـمْ ... عـنـد الـنـظـامَ لَـيـالـي[١١] الـنُّـسّـاق
مـا بـيـن أروعَ مـاجـدٍ نـيـرانُـهُ ... جَـنْـحَ الـظـلامِ تـشـبُّ لـلطـرّاق
وأخي حروب صَدَّهُ رشفُ[١٢] القنا ... عـمّـا قـدودٍ مـثـلهـنّ رِقـاق
مـا غَـرَّدَتْ شَـجْـوًا مُـطَـوَّقـة ومـا ... شَـقَّـتْ كمامَ الرَّوْض[١٣] عن أطواق
وعـلـى الـقـرابـةِ والـصّـحـابـةِ كـلِّهـم ... والـتـابـعـيـنَ لـهـمْ لـيـومِ تـلاقِ

ولمّا سنّى اللهُ في الرُّوم الوقْعَة المُبيرة والوقيعة الشهيرة التي أجْلت عن قتل مليكهم معركتُها، وانتهت للفتح معركتها وحركتها، وعمَّت الإسلام بإتْعاس فلّ الكفْر بركتُها، قَدِم مع الوفود من أهل بلده، وهنّأ أمير المسلمين[١٤] بفتحه ذلك، وطلوع

---

(١) في الأصل: «كرام جُذره» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

(٢) ذو النورين: هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، تزوج بنتين من بنات رسول الله ﷺ على التعاقب، فلقِّب بذي النورين.

(٣) في الأصل:

«كُفُوًا لنبي وكفوا على جنة ... خُيِّرت ....»

والتصويب من النفح.

(٤) أبو السبطين: هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام.

(٥) في النفح: «يومَ». (٦) في النفح: «الطهر».

(٧) في النفح: «التخصيص».

(٨) في الأصل: «القضا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

(٩) في الأصل: «فيعيدهم»، والتصويب من النفح.

(١٠) في النفح: «عشرت». (١١) في المصدر نفسه: «لآلىء».

(١٢) في النفح: «رَشْقُ».

(١٣) في الأصل: «روض» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

(١٤) هو السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد، حكم غرناطة من سنة ٧١٣ هـ إلى سنة ٧٢٥ هـ. راجع اللمحة البدرية (ص ٧٨).

ولده، فقال: [الكامل]

أمليكُ أم بَدْرُ الدُّجى الوضّاحُ — وحُسامُهُ أم بارقٌ لمّاحُ؟
أعلى المسالك ما بَنَتْهُ يدُ التُّقى — وعمادُها الأعلام والأرماحُ
وأحَقُّ مَن يدعى خليفة ربِّه — ملكٌ خلافته هُدًى ونجاحُ
كأمير أندلسٍ وناصرها الذي — أفنى العُداةَ حُسامُه السَّفاحُ
أسمى الملوك أبو الوليد المُرْتضى — وأعزُّ من شَرُفَتْ به الأمداحُ
هو دَوْحةُ المَلِكِ العَليِّ فروعُها — وبراحَتَيْهِ ترزق الأذواحُ
وبمحوِ رسْمِ عداته بلبانِهِ[١] — نطقَ الكتابُ وخُطَّتِ الألواحُ
بَدْرُ الكمال لو آنّ[٢] بَدْرًا مِثْلَهُ — لم يُبْدِ خَشيةَ نُوره الإصباحُ
بَحْرُ النّوال لو آنَّ[٢] بَدْرًا مثله — لارتاع خَشْيةَ فَيْضه الملّاح
ولمثله قاد الجياد عدوُّه — فَخبا له قِدْحٌ وخاب قِداح
أهْواه شيطان الهوى في لُجّة — إنّ الهوى بأليفه طَمّاح
طَمَعُ الشّقيِّ أَضَلَّه وأذلَّه — كل المطامع للغَبيِّ فصاح
فأبادهُمْ وملوكُهُمْ فَتْحٌ بدا — وبسَعْد جَدِّك ربُّنا فتّاح
وفواصلٌ تُبْرى بهنّ مفاصل — وصفائحٌ[٣] يُفرى بهنّ صِفاح
لم تُفْنِ كلَّهُمُ سيوفُ الهند بل — لسيوف جُودك في النفوسِ جراح
ما زال حيُّ عُداك يحسدُ مَيْتَهُمْ — ويحثُّ فَوْتًا عاجلًا فيُراح
فاقْتُلْ كبيرَهُمُ وأَحْيِ صغيرهمْ — واسْبِ النّساءَ[٤] فما عليك جُناح
تَسْبيح[٥] ما حاط العُداة وما حموا — وحِماك يا منصور ليس يُباح
يا أمّة الكُفرانِ تفنيدًا وهل — لجفون أعْمَى ينجلي مصباح؟
أتركْتُمُ بِطرو[٦] وحيدًا مُفردا — يَشْدو عليه الطائر الصيَّاحُ؟
وجُوان[٧] يرتشفُ الندى فنديمُه — غِربانُه ووسادُه الصُّفّاحُ[٨]

(١) في الأصل: «بلبّاته» وكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «أنّ» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا همزة القطع همزة وصل.
(٣) في الأصل: «وصِفاحٌ» وكذا ينكسر الوزن. (٤) في الأصل: «النسا» وكذا ينكسر الوزن.
(٥) في الأصل: «تستبيح» وكذا ينكسر الوزن.
(٦) هو بطره بن ألهونش بن هرانده بن شانجه، صاحب قشتالة. راجع اللمحة البدرية (ص ١١٩).
(٧) هو الدون خوان Don Juan، الوصيّ على ملك قشتالة.
(٨) الصُّفّاح: حجارة عريضة رقيقة. محيط المحيط (صفح).

وكذلك المُطْرانُ جاد رسومه ... قطْر المنايا الصارمُ الطَّفّاح
أرؤوسُ[١] تَبْيَضُّ النعامُ بمَرْجنا ... أصنافكُمْ هذي أم الأشباح؟
ما لِلمَطامير اشتكتْ من ضيقها ... بالمال والأسرى وهنّ فساح؟
جارَتْ بكُمْ أبطالنا فكأنكم ... كَشحٌ وجيش المسلمين وشاح
تَبًّا لرُوميّ يهيمُ براحة ... أيرام عن خَيْل الإلٰه براح؟
قُصَّتْ قوادِمكُمْ فما إقدامُكُمْ ... والليلُ[٢] جنح الكُفر تغيض جناح
هذا فلا تستعجلوا ببلادِكم ... ستَرون كيف يكون الاستِفْتاح
قَدْ إنْثَنتْ[٣] بطحاؤنا بحطامكمْ ... ونباتُها الريْحان والتفاح
تالله ما كنتمْ بأول عسكر ... أمَلَ النجاح وحِينُه يَجتاح
القسُّ غَرَّكُمُ ليهلكَ نَسْلَكُمْ ... بسيوفنا إنْ إفْكَه لصراح
كم ذا يسخُرُكُمْ ويَسْخَرُ منكم ... غَدْرًا ومَكْرًا إنه لوَقاح

منها:

وفوارس نَشَأوا لِنَهْبِ فراس ... طلبوا انتِشاءَ للدِّما لا الراحُ[٤]
أزْبَوا على الأسَد الهِزَبْر بسالةً ... مَعَ أنهمْ غرُّ الوجوه صباحُ
خاضوا بحار الحرب يَطْمُو بحرُها ... ووطيسُها حامي الصَّلى لفّاحُ
ما هُمْ ببذل نفوسهمْ ونفيسهمْ ... وعن[٥] النوال أو النِّزال سِجاح
وإذا هُمُ ذُكروا بنادٍ فانْتَشِقْ ... مسكًا تضوّع عَرْفُه النفّاح
فغدا وراح النصرُ يُقْدم جمعهمْ ... ويحفّهمْ حيث اعتدوا أو راحوا[٦]
سَناكَ مولانا بسَعْدٍ مُقبل ... خلصاءُ قد عَمَّتْهُمُ الأفراحُ[٧]
وبنجلك البَدْر الذي آفاقُه ... مُلْكٌ وهالتُهُ هُدى وصلاحُ
بَدْر البدور فلا بدارَ عليه ... وبذا أنارتْ[٨] أربعٌ وبِطاح

---

(١) في الأصل: «أم تبيض» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا كلمة «أم».
(٢) في الأصل: «ولليل» وكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «قد انثنت» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا همزة الوصل همزة قطع.
(٤) في الأصل: «انتشاو الدّما للراح» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.
(٥) في الأصل: «عن النوال والنزال...»، وكذا ينكسر الوزن.
(٦) في الأصل: «راح».
(٧) في الأصل: «له أفراح» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.
(٨) في الأصل: «نارت» وكذا ينكسر الوزن. وأنارت ونارت: كلاهما بمعنى وهو أضاء.

فلكمْ عدوّ ما[١] أَفَلَّ بزوغه ... خَسَفَتْ به الأوجالُ والأتراح
وهُنا ونالك بالأمير تجدُّدٌ ... كلٌّ بحُبِّك نَفْسُه ترتاح
قد جاء بعد العسْر يُسْرٌ شامل ... قد جاء بعد الشِّدة الإنجاح
فالحمد لله الذي قد خَصَّنا ... ولنا بحمدك بعده إفصاح
وعلى المقام المولَويّ تحيّةٌ ... كالزَّهر إذ تُهدي شذاه رياح
ما خطَّ مَدْحك في الطُّروس مُحَبِّرٌ ... ومحا[٢] دياجيرَ الأصيلِ صباحُ

وقال يرثي الخطيب ببلده، الشهير الفاضل، أبا الحسن بن شعيب، رحمه الله:
[الطويل]

بَوادِي لقد حملْتِ ما ليس لَقُواهُ ... فراقٌ ولا[٣] من شرف الأرض تَقْواه
بُليتَ بذا التفريق فاصْبِرْ فربما ... بَلَغْتَ بحسن الصبر ما تتمنّاه[٤]
شجا كلَّ نَفسٍ فَقْدُ أَنفَسِ جوهر ... تُعَدُّ ولا تُحصى كِرام سجاياه
بكى كلُّنا حزنًا عليه كما بكى ... لفُرْقته مِحْرابُه ومُصَلّاه
فلله خَطْب جليل لقد رمى ... أجلَّ خطيب بالجلالة مَضْماه
فلولاكُمُ يَغْلِبْ تأسِّينا الأسى ... ولم يشمل الشَّمْلَ التفجُّعُ لولاه
فلم يبق إلّا مَنْ جَفا جَفْنه الكَرَى ... ومَنْ جانَبَتْ وَصْلَ المضاجع جَنْباه
وفاء[٥] المرّي وَفّى فوُفّي أجْرُه ... وأضْفَى بإصفاء الإله وصافاه
أبي الحسن العَدْل الرِّضا المحسن الذي ... أتَتْه بأضعاف الزيادة حُسْناه
خطيب جلا فصل الخطاب بيانُه ... وأعدل قاضٍ فاضل في قضاياه
وجسم الهدى الرَّحب السبيل وروحه ... ولفظُ العُلى الفخر الأصيل ومعناه
مطيعٌ رفيعٌ خاضعٌ متواضعٌ ... كريمٌ حليمٌ طاهرُ القَلْبِ أوّاهُ
متى يَمْشِ[٦] هَوْنًا ليس إلّا لمسجد ... تَمِدْ[٧] خجلًا أرضٌ بها حطَّ نَعْلاه
تكلّمه عزفٌ وذكرٌ وحكمةٌ ... تلذّ بها الأسماعُ ما كان أحْلاه

---

(١) كلمة «ما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها لكي يستقيم الوزن.
(٢) في الأصل: «ومحي دجاجر» وكذا لا يستقيم لا المعنى ولا الوزن. والدياجير: جمع ديجور وهو الظلام. محيط المحيط (دجا).
(٣) في الأصل: «ولى شرف» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «ما تمناه» وكذا ينكسر الوزن. (٥) في الأصل: «وفاة».
(٦) في الأصل: «يمشى» وكذا ينكسر الوزن.
(٧) في الأصل: «تميد» وكذا ينكسر الوزن. وهو فعل مجزوم لأنه جواب فعل الشرط.

كذا صَمْتُهُ خَوْفٌ وفكْرٌ وخَشْيَةٌ فما زال يخشى اللهَ والكلُّ يَخْشاه
يصوم وقد طال النهار مُهجّرًا وتُبْجِرُ بالليل التغمُّض[1] عيناه
فكم دارس أحياه من أربُع التُّقا وكم غاسِق من حِنْدِس الليل أحْياه
فيا طَيِّبًا أَصْلًا وذكْرًا وتُرْبة ومنه استفاد الطِّيبُ أطيب ريّاه
وفي حرقة تحنو ومرأى وباطنا[2] وأمْن سنا شمس الضحى من مُحَيّاه
مُحَيًا يُرَوّي الناظرين تهلُّلا فتعرفه في الصالحين بسيماه
بحُبِّك هامَتْ كلّ نفس مُنيبة كذا من أحبَّ اللهَ حَبّبه الله
فما أنْعَمَ الأرض التي بك قُدِّسَتْ وآثر ذيّاك الضريح وأنْداه
بُشْراك إنّا قد شغلْنا بحزننا ورِضْوان بُشْراه بذلك بُشْراه
عزًا لأهْليه الأهِلة أنهم لهمْ يَغْتري من بعده العزُّ والجاه
نال شُعيب في الزمان بدُورَه ولم تكن الشمس المنيرة إلّاه
أُعزِّي أولي الإيمان كلّا بفقْده نَعَمْ وأُسَنِّيه بحبّه مأواه
سقى الله وَسْمِيَّ الحَيا ذلك الثرى وغاداه صَوْبُ الغاديات وميّاه
كما قد سقاه ليلة الدَّفن ربُّه من الغيثِ وكّاف السحاب وأسخاه
ترضُّوا عن القاضي الإمام خطيبكم فقد رضي الرحمنُ عنه وأرضاه
وصلُّوا على هادي الأنام نبيّكم صلاةً بها يمحو المسيء خطاياه
عليك سلام الله ما الروض فاح إنْ سَرَتْ سَحَرًا ريحُ الصَّبا بخزاماه

وفاته: توفي، رحمه الله، في رمضان، تحقيقًا من سنة خمس[3] على شكّ وسبعمائة، أخبرني بذلك مَن يُوثق به.

محمد بن عبد الله بن الحاج البضيعة

من أهل مالقة، وتردّد كثيرًا على الحضرة، مُسْترفدًا ومُنشدًا، وفي غير ذلك من الأغراض، يكنّى أبا عبد الله.

حاله وشعره: من الإكليل: شاعر اتخذ النظم بضاعة، وما ترك السعي في مذاهبه ساعة، أجرى في الملا، لا في الخلا، وجعل ذكره دلوه من الدِّلا، وركض

(١) في الأصل: «للتغمض» وكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «وفي حشرقة تحن ومرتجًا وباطنًا» وكذا لا يستقيم لا المعنى ولا الوزن.
(٣) الصواب أنه توفي سنة خمسين وسبعمائة كما جاء في بغية الوعاة (ص ٦٠). وجاء في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٠٣) أنه مات بالطاعون عام ٧٤٩ هـ.

في حَلْبة النجبا النجائب، ورمى في الخواطي بسهم صائب، فخرج بَهْرجُه ونَفَق، وارتَفَد بسببه وارْتَفَق. وهو الآن قد سالمته السنون، وكأنّما أمِن المَنُون، من رجل مَكْفُوف الأذى، حسن الحالة إلّا إذا، هذا قُلت، ثبت هذا والمذكور حيٌّ، وقد مات، رحمه الله.

ومن شعره: [الطويل]

رجائيَ[1] في المولى العظيم عظيم غَنِيت به حيث الغِناءُ مُديمُ
وحَسْبي الرجا فيمن عليه مُعَوَّلي حديث حديثٍ لم يزل وخديمُ
وما عَرَفَتْ نَفْسي سوى بابِ فَضْلِهِ على ثقةٍ أنّ الكريم كريمُ
فإنْ قيل عنّي مُذنب قلت سيّدٌ كفيل بغفران الذنوب رحيمُ
وما اعْتَصم المملوك إلّا بحَبْله فجانِبُه نُعْمَى لنا ونَعيمُ
رضاه سبيلٌ للنجاة وحبُّه طريقٌ لجنّاتِ النّعيم قديمُ

وأنشد يومًا الأمير ثالث الأمراء من بني نصر[2] يهنيه بالملك ويُعزّيه[3]: [الوافر]

على مَنْ تُنْشَرُ اليومَ البُنودُ؟ وتحت لواء مَنْ تسْري الجنودُ؟

وقال[4]: على هذا الكذا، الذي بين يديك، فخجل، وعظُم استظراف الحاضرين لذلك.

وفاته: توفي في كذا وسبعمائة.

محمد بن عبد الله بن فُطيس

يكنى أبا عبد الله، من أهل مالَقة. وقال الأستاذ[5]: من بيت فُطيس الألْبيريين.

---

(١) في الأصل: «رجاى» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) هو السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، الملقب بالمخلوع، وقد حكم من سنة ٧٠١ هـ حتى سنة ٧٠٨ هـ. اللمحة البدرية (ص ٦٠).
(٣) الحكاية والبيت في اللمحة البدرية (ص ٦١).
(٤) في اللمحة البدرية أن ضمير «قال» يعود إلى السلطان أبي عبد الله المخلوع، وجاء هناك هذه العبارة: «فقال له السلطان: على هذا الزبَلح الذي ترى قدّامك ـ يعني نفسه ـ فاستطرفها الناس، وخجل الشاعر».
(٥) الأستاذ: هو أبو جعفر بن الزبير، صاحب كتاب صلة الصلة.

حاله: قال: طبيبٌ ماهر، وأديب شاعر؛ كان في أيام بني حسُّون، يخفُّ عليهم، وله فيهم أمداح كثيرة. يُذكر أنه دخل يومًا على القاضي أبي مروان بن حسُّون، بعد انقطاع عن زيارته، فعَتَبه القاضي، فاعتذر، ثم أنشد: [مخلع البسيط]

يا حاملًا من عُلاه تاجًا ... ومن سَنا وجهه سراجا
لو كان رؤدي عديل وُدِّي ... لكنتُ من بابك الرِّتاجا
إن لم يُعرِّج عليك شخصي ... نَفْسي وروحي عليك عاجا

وذكره ابن عسكر في كتابه.

محمد بن عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن يحيىٰ بن محمد بن فتوح بن محمد بن أيوب بن محمد بن الحكيم اللخمي ذو الوزارتين[١]

يكنى[٢] أبا عبد الله، رُنْدي النشأة، إشبيلي الأصل، يرجع بيته، وبيت بني حجاج، وبيت بني عباد، إلى جُرثومة واحدة. وانتقل سلفُه إلى رُنْدة في دولة بني عباد، ويحيىٰ جدّ والده هو المعروف بالحكيم لطبِّه. وقدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة أيام السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر، إثْرَ قُفوله من الحج في رحلته التي رافق فيها العلّامة أبا عبد الله بن رُشَيد الفهري، فألحقه السلطان بكُتّابه، وأقام يكتب له في ديوان الإنشاء، إلى أن توفي هذا السلطان، وتقلّد الملك بعده وليّ عهده أبو عبد الله المخلوع، فقلّده الوزارة والكتابة، وأشرك معه في الوزارة أبا سُلطان عبد العزيز بن سلطان الدَّاني، فلمّا توفي أبو سُلطان أفرده السلطان بالوزارة، ولقّبه ذا الوزارتين، وصار صاحبَ أمره، إلى أن توفي بحضرة غرناطة قتيلًا، نفعه الله تعالى، غُدْوَة يوم الفِطر، مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة، وذلك لتاريخ خلع سلطانه، وخلافة أخيه أمير المسلمين، أبي الجيوش، مكانه.

حاله: كان[٣]، رحمه الله تعالى، عَلَمًا في الفضيلة والسَّراوة، ومكارم الأخلاق، كريم النفس، واسع الإيثار، متين الحُرْمة، عالي الهمة، كاتبًا بليغًا، أديبًا،

---

(١) ترجمة أبي عبد الله ابن الحكيم في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٠) و(ج ٨ ص ٤٢) ضمن ترجمة ولده أبي بكر محمد بن أبي عبد الله بن الحكيم الرندي.
(٢) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٢ ـ ٤٣). (٣) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٣).

شاعرًا، حسن الخطّ، يكتب خطوطًا على أنواع كلّها جميلة الانطباع، خطيبًا، فصيح القلم، زاكي الشِّيم، مُؤثِرًا لأهل العلم والأدب، بَرًّا بأهل الفضل والحَسَب، نَفقَت بمدته للفضائل أسواق، وأشرقت بإمداده للفضائل آفاق[١]. ومن «عائد الصلة»: كان[٢]، رحمه الله، فريد دهره سماحة، وبشاشة، ولَوْذَعيَّةً، وانطباعًا، رقيق الحاشية، نافذ العَزْمة، مُهتزًّا للمديح، طَلْقًا للأمل، كَهفًا للغريب، بَرْمَكي المائدة[٣]، مُهَلَّبي الحَلْوى[٤]، ريّان من الأدب، مضطلعًا بالرواية، مستكثرًا من الفائدة. يقوم على المسائل الفقهية، ويتقدم الناسَ في بابِ التَّحسين والتَّقبيح، ورَفْع راية الحديث والتَّحديث، نَفَّق بضاعة الطلب، وأَحْيا معالم الأدب، وأكرم العلم والعلماء، ولم تَشْغَلْه السياسة عن النظر، ولا عاقَهُ تدبيرُ الملك عن المطالعة والسماع والإفراط[٥] في اقتناء الكتب، حتى ضاقت قصوره عن خَزائنها، وأَثْرَتْ أنديتُه من ذخائرها. قام له الدَّهْرُ على رِجْل[٦]، وأخدمه صُدور البُيوتات، وأعلام الرِّياسات، وخُوطب من البلاد النازحة، وأُمِّلَ من[٧] الآفاق النائية.

رحلته ونباهته: رحل[٨] إلى الحجاز الشريف من بلده، على فَتاء سِنِّه، أول عام ثلاثة[٩] وثمانين وستمائة، فحجّ وزار، وتجوّل في بلاد المشرق، مُنْتجعًا عواليَ الرواية في مَظانِّها، ومُنَقِّرًا عنها عند مُسِنِّي شيوخها، وقيّد الأناشيد الغريبة، والأبيات المُرْقِصة، وأقام بمكة شرّفها الله، من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم، فأخذ بها عن جماعة يأتي ذكرهم في مشيخته. وانصرف إلى المدينة المشرَّفة، ثم قَفَل مع الرَّكْب الشامي إلى دمشق، ثم كَرَّ إلى المغرب، لا يمرّ بمجلس عِلْم أو تَعَلُّم إلّا رَوَى أو رُوِّي. واحتلّ رُنْدة، حرسها الله، أواخر عام خمسة وثمانين وستمائة، وأقام[١٠] بها عَيْنًا في قرابته، وعَلَمًا في أهله، مُعَظَّمًا عندهم[١١]، إلى أن أوْقَع السلطان بالوزراء من بني حبيب، الوقِيعة البَرْمَكِيَّة[١٢]. وورد رُنْدة في أثر ذلك، في شهر جمادى الآخرة من عام ستة وثمانين وستمائة، فتعرَّض إليه، ومدحه[١٣]، وهنّأه بقصيدة طويلة

---

(١) هنا ينتهي النص في نفح الطيب.
(٢) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٧ ـ ٤٨).
(٣) برمكي المائدة: نسبة إلى البرامكة الذين كانوا مضرب المثل في الكرم والضيافة.
(٤) مهلبي الحلوى: نسبة إلى بني المهلب بن أبي صفرة، وكانوا مضرب المثل في أكل الحلوى.
(٥) في النفح: «وأفرط».
(٦) قام له الدهر على رجل: كناية عن مطاوعة الدهر له.
(٧) في النفح: «في».
(٨) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٨ ـ ٤٩).
(٩) في الأصل: «ثلاث»، وهو خطأ نحوي.
(١٠) في النفح: «فأقام».
(١١) في النفح: «لديهم».
(١٢) المراد وقيعة هارون الرشيد بالبرامكة.
(١٣) كلمة «ومدحه» غير واردة في النفح.

من أوليات شعره، أولها[١]: [الرمل]

هـل إلـى رَدِّ عَـشِـيّـاتِ الـوصـالِ سَبَبٌ أم ذاك مِنْ ضَرْبِ المُحالِ؟

فلمّا أنشدها إياه، أُعْجب به، وبحُسْن خطّه ونَصاعة ظَرْفه، فأثنى عليه، واستدعاه إلى الوفادة على حَضْرته، فوفد[٢] إليها في آخر العام المذكور، فأثبته في خواصّ دولته، وأحْظاه لديه، إلى أن رقّاه إلى كتابة الإنشاء ببابه. واستمرّتْ حاله، مُعظَّم القَدْر، مخصوصًا بالمزية، إلى أن توفي السلطان، ثاني الملوك من بني نصر، وتقلّد الملك بعده، وليُّ عهده أبو عبد الله، فزاد في إحظائه وتقريبه، وجمع له بين الكتابة والوزارة، ولقّبه بذي الوزارتين؛ وأعطاه العلامة، وقلّده الأمر، فبَعُد الصِّيتُ، وطاب الذِّكرُ، إلى أن كان من الأمر[٣] ما يأتي به الذكر قريبًا إنشاء الله تعالى.

مشيخته: قرأ[٤] بُرُندة على الشيخ النحوي أبي الحسن علي بن يوسف العَبْدَري السَّفاح، القرآن العظيم بالروايات السَّبع، والعربية وغير ذلك. وعلى الخطيب بها أبي القاسم بن الأَيْسَر، وأخذ عن والده جميع مَرْوِيّاته. واستجاز له في صغره أعلام ذلك الزمان، وأخذ في رحلته عن الجِلّة من الجملة الذين يضيق عن أمثالهم الحصر.

فمنهم أبو اليمن جار الله ابن عساكر، لقيه بالحَرَم الشّريف، وانتفع به، واستكثر من الرواية عنه. ومنهم الشيخ أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحرّاني، المعروف بابن هِبَة الله الحراني. ومنهم الشيخ الشريف[٥] أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمر بن معطي ابن الإمام الجزائري ـ جزائر المغرب ـ نزيل بغداد. ومنهم الشيخ أبو الصفا خليل بن أبي بكر بن محمد المرادي الحنبلي، لقيه بالقاهرة. ومنهم الشيخ رَضِي الدين القَسْطَميني أبو بكر. ومنهم الشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدِّمياطي، إمام الديار المصرية، في الحديث ومؤرخها وحافظها. ومنهم عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن أحمد الخيمي، شهاب الدين أبو عبد الله، نزيل مَشْهد الحُسَين بن علي، قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التي أولها[٦]: [البسيط]

يا مَطْلَبًا ليس لي في غيره أَرَبُ إليك آلَ التقَّصّي وانتهى الطَّلَبُ

(١) هو مطلع قصيدة طويلة سترد في هذه الترجمة بعد قليل.
(٢) في النفح: «فوفد آخر عام ستة وثمانين». (٣) في النفح: «من أمره ما كان».
(٤) النص في النفح (ج ٣ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢). (٥) في النفح: «الشرف».
(٦) البيت في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦١) و(ج ٧ ص ٢٤٦) وجاء في الجزء السابع: «التقضي» بالضاد المعجمة.

ومنها البيت المشهور الذي وقع النزاع فيه[١]:

يا بارقًا بأعالي الرَّقْمَتَيْنِ بَدا لقد حَكَيْتَ ولكنْ فاتَكَ السَّبَبُ[٢]

ومنهم عبد المولى يحيىٰ بن حماد البَعْلبكي؛ مولده سنة إحدى عشرة وستمائة. ومنهم محمد بن بكر بن خلف بن أبي القاسم الصَّفار. ومنهم الشيخ أبو الفضل الأديب جمال الدين بن أبي الخير بن علي بن عبد الله بن رواحة. ومنهم محمد بن يحيىٰ بن عبد الله القرشي جمال الدين أبو صادق، ومن تخريجه «الأربعون المرويّة بالأسانيد المصرية»، وسمع الحَلَبِيّات من ابن عماد الحرّاني والشيخ أبي الفضل عبد الرحيم خطيب الجزيرة، ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمائة. ومنهم الشيخ محمد بن عباس الأشعري تقي الدين الحافظ أبو القاسم. ومنهم الشيخ محمد بن إسماعيل بن عبد الله بن عبد المجيد الأنماطي. ومنهم أبو البدر بن عبد الله بن أبي الزبير، الكاتب المصري. ومنهم الشيخ عبد الرحيم بن عبد المنعم بن خلف التُّدميري. ومن رؤساء شيوخه؛ الشيخ محيي الدين أبو الفضل. ومنهم زينب بنت الإمام أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، تُكنّى أُم الفضل، وسمعت من أبيها. ومنهم محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد الخُراساني، أبو عبد الله مُوَقَّر الدين، وألبسه خِرْقة التصوف. ومنهم الشيخ محمد بن يحيىٰ بن هَبِيرة الشَّيباني شرف الدين. ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن عيسى بن يوسف بن إبراهيم بن إسماعيل السِّلَفي. ومنهم الشيخ علي بن عبد الكريم بن عبد الله الدِّمشقي، أبو الحسن؛ ولد سنة سبع وتسعين وخمسمائة. ومنهم الشيخ غازي بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الجلاوي. ومنهم الشيخ نور الدين علي بن محمد أبي البركات الأنصاري المقرىء بحَرَم الخليل، سمع من أبي الحسن علي بن شجاع. ومنهم يوسف بن داود بن عيسى بن أيوب الحنفي.

ومنهم الملك الأوحد يعقوب بن الملك الناصر صلاح الدين[٣] داود بن الملك المعظّم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب. ومنهم عبد المنعم بن يحيىٰ بن إبراهيم بن علي بن جعفر القرشي الزُّهري خطيب القُدْس. ومنهم الشيخ عبد الحفيظ بن بَدْران، ويُدْعى عليّ الدين من أهل بانياس، سمع من ابن صيصرى. ومنهم الشيخ علي بن عبد الرحمٰن بن عبد المنعم المقدّسي. ومنهم الشيخ محمد بن

(١) البيت في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦١). (٢) في النفح: «الشَّنَبُ».

(٣) في الأصل: «صلاح الدين وداود»، والتصويب من النفح.

محمد بن سالم بن يوسف بن أسلم القرشي، جمال الدين. ومنهم عبد الواسع بن عبد الكافي شمس الدين. ومنهم الشيخ أحمد بن أحمد الزَّجاجي البغدادي الإمام تقي الدين. ومنهم عبد الجميل بن أحمد بن الزَّجاج. ومنهم فاطمة بنت إبراهيم بن محمد بن محمود بن جوهر البعلبكي، الشيخة الكاتبة الخيِّرة أم الخير. ومنهم الشيخ يوسف ابن أبي ناصر السفاوي. ومنهم الشيخ عبد السلام بن محمد بن مزروع، أبو محمد عفيف الدين. ومنهم الشيخ أحمد بن عثمان بن محمد الشافعي البخاري شمس الدين. ومنهم الشيخ عبد الله بن خير بن أبي محمد بن خلف القرشي. ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الباقي بن علي الصَّواف شرف الدين. ومنهم الشيخ علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن زُريق الكاتب، لقيه بتونس. ومنهم الشيخ سليمان بن علي بن عبد الله الكاتب التِّلِمساني عفيف الدين الصُّوفي الأديب نزيل دمشق، ومولده بتلمسان. ومنهم الشيخ محمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد الميموني البُستي القسطلاني قطب الدين، الإمام المفتي شيخ دار الحديث الكامِلية بالقاهرة المُعِزِّية. ومنهم الشيخ عبد الكريم بن علي بن جعفر القرشي جمال الدين. ومنهم الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الظاهر جمال الدين. ومنهم محمد بن محمد بن إبراهيم النجاشي. ومنهم الشيخ عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر الطبري، إمام الروضة النبوية ثم الصخرة القُدْسية. ومنهم الشيخ فخر الدين عثمان بن أبي محمد بن إسماعيل بن جَنْدرة. ومنهم الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن عبد العَلي بن أنسكرت فخر الدين. ومنهم الشيخ ثابت بن علي بن عبد العزيز بن قاسم بن عبد الرازق، سمع على ابن المغير البغدادي. ومنهم الشيخ أمين الدين أبو الهامات جبريل بن إسماعيل بن سيد الأهل الغساني. ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله الأندلسي الأصل شرف الدين، سمع من علم الدين الشيخوني وغيره. ومنهم الشيخ محمد بن محمد الشامي الشافعي الدمشقي، إمام مسجد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، يدعى شمس الدين، سمع من الزبيدي. ومنهم الشيخ يحيىٰ بن الخضر بن حاتم الأنصاري، يعرف بابن عزِّ الدولة.

وأجاز له جماعة، منهم ابن عماد الحرّاني، ومنهم ابن يحيىٰ بن محمد بن محمد الهَمْداني كمال الدين، وسمع من ابن الزَّجّاج وابن رَوَاح الحِميري. ومنهم الشيخ عبد الملك أبو المعالي بن مُفَضل الواسطي، عُرف بابن الجَوْزي، سمع على جماعة، منهم شُعيب الزعفراني. ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن ياسر بن شاكر الحاكمي. ومنهم الإمام مفتي المسلمين، رضي الله عنه. ومنهم أبو عبد الله محمد بن

أبي بكر بن خليل العَسْقَلاني المكّي. ومنهم الخطيب أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد بن محمد بن رُحَيمة الكِناني، خطِيب بِجايه. ومنهم قاضي القضاة ببلاد إفريقية أبو العباس ابن الغَمّاز البَلَنْسي، لقيه بتونس. ومنهم الفقيه العلّامة الوزير أبو القاسم محمد بن عبد الله بن يحيىٰ بن عبد الرحمٰن بن يوسف بن جُزي الكلبي. ومنهم الشيخ أبو محمد عبد الله بن يوسف الخلابي. ومنهم الشيخ المغربي أبو محمد الحجاج بن يوسف بن إبراهيم بن عتّاب، لقيه بتونس. ومنهم الشيخ الفقيه أبو بكر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن يربوع السَّبتي. ومنهم الإمام قُدْوة النحاة أبو الحسين عبيد[1] الله بن أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن أبي الربيع القرشي. ومنهم الإمام أبو علي ناصر الدين منصور بن أحمد بن عبد الحق الزَّواوي المِشْدالي، من أهل بجاية. ومنهم الخطيب القاضي أبو عمرو إسحٰق بن أبي إسحٰق بن عبد الوهاب الرُّندي، إلى طائفة كبيرة من أهل المشرق والمغرب.

محنته: أغرَى به الأمير ولي العهد، بسبب أمور اختلف فيها، منها أبيات في هَجْو الدولة النصرية، الله أعلم بصحة نِسْبتها إليه، فأوقِع به، وناله بين يديه نكالٌ كبير أفْلَت منه برِفق، واختفى مدة في المآذن المُقْفلة والأماكن الخفِية، حتى أصحى له جوُّ سخطه، وقضى الله بردّ أمره إليه، واستيلائه على ما وراء بابه.

مَن روى عنه: أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحٰق بن أبي العاصي، وتدَبَّج معه رفيقه عبد الله بن رُشيد وغير واحد. وكان ممدوحًا، وممن مدحه الرئيس أبو محمد عبد المُهيمن الحَضْرمي، والرئيس أبو الحسن بن الجيّاب، وناهيك بهما. ومن بديع مدح ابن الجياب له، قصيدة رائية رائقة، يهنِّئه فيها بعيد الفطر، منها في أولها[2]: [البسيط]

يا قادمًا عمَّتِ الدنيا بشائِرُهُ ... أَهلًا بِمَقْدمِكَ الميمونِ طائرُهُ
ومَرْحَبًا بك من عِيدٍ تَحُفُّ به ... من السعادة أجنادٌ تُظاهرُه[3]
قَدِمْتَ فالخلقُ في نُعْمى وفي جَذَلٍ ... أبْدَى بك البشرَ باديه وحاضرُهُ[4]
والأرضُ قد لَبِسَتْ أثوابَ سُنْدُسِها ... والرَّوضُ قد بَسَمَتْ منه أزاهرُهُ
حاكتْ يَدُ الغيثِ في ساحاته حُلَلًا ... لمّا ساقها دِراكًا منك باكرُه
فلاحَ فيها من الأنوار باهرُها ... وفاح فيها من النُّوّار عاطرُه

(١) في النفح (ج ٣ ص ٣٦٢): «عبد الله».
(٢) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٣ ـ ٤٥) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٤).
(٣) في المصدرين: «تظافره». (٤) أراد بحاضره سكان الحاضرة.

وقام فيها خطيبُ الطَّيْرِ مرتجلا ... والزَّهْرُ قد رُصِّعَتْ منه منابره
مَوْشيُّ ثَوْبٍ طَواهُ الدَّهْرُ آوِنَةً ... فها هو اليوم للأبصار ناشره
فالغُصْنُ مِنْ نَشْوَةٍ يَثْني مَعاطِفَهُ ... والطَّيرُ من طَرَبٍ تَشْدو مَزاهِرُه
وللكِمام انشقاقٌ عن أزاهرها ... كما بَدَتْ لك من خِلٍّ ضمائرُهُ
لله يومُكَ ما أذكى فضائلَهُ ... قامت لدين الهوى[1] فيه شعائره
فكم سَرِيرةِ فضلٍ فيك قد خُبِئَتْ ... وكم جمالٍ بَدا للناس ظاهره
فافْخَرْ بحقٍّ على الأيام قاطبةً ... فما لفضلكَ من نِدٍّ يظاهره[2]
فأنتَ في عصرنا كابنِ الحكيم إذا ... قِيسَتْ بفخرِ أولي العَلْيا مفاخره
يَلْتاحُ منه بأُفُق المُلْكِ نُوْرُ هُدًى ... تضاءلُ الشمسُ مهما لاح زاهرُهُ
مَجْدٌ صميم على عَرْش السِّماك سَما ... طالتْ مَبانيه واسْتَعْلَتْ مظاهره
وزارةُ الدِّين والعِلْم الذي رُفِعَتْ ... أعلامُهُ والنَّدى الفيّاض زاخرُه
وليس هذا بِبِدْعٍ من مَكارمه ... ساوَتْ أوائلَهُ فيه أواخره
يَلْقى الأمورَ بصدرٍ منه مُنْشَرِحٍ ... بَحْرٌ وآراؤه العظمى جواهره
راعى أمورَ الرّعايا مُعْمِلًا نَظَرًا ... كمِثْلِ عَلْياهُ مَعْدُومًا نظائرُهُ
والمُلْكُ سَيَّرَ في تدبيره حِكَمًا ... تنالُ ما عجزتْ عنه عساكره
سياسةُ الحكم[3] لا بَطْشٌ يكدّرها ... فهو المَهيبُ وما تُخْشى بوادره
لا يَصْدُرُ الملْك إلّا عن إشارته ... فالرُّشْدُ لا تَتَعدّاه مصائره
تجري الأمورُ على أقصى إرادته ... كأنما دَهْرُهُ فيه يُشاوره
وكم مَقام له في كل مَكْرُمَةٍ ... أنَسَتْ مواردَهُ فيها مصادرُه
فَفَضْلُها طَبَّقَ الآفاقَ أجمعها ... كأنه مَثَلٌ قد سار سائره
فليس يَجْحَدُه إلّا أخو حَسَد ... يرى الصباحَ فيغشى منه ناظره
لا مُلْكَ أكبرُ مِنْ مُلْكٍ يدبِّرُهُ ... لا مَلْكَ أَسْعَدُ من مَلْكٍ يؤازره
يا عِزَّ أَمْرٍ به اشتدَّتْ مضاربُه ... يا حُسْن مُلْكٍ به ازدانتْ محاضره
تُثْني البلادُ وأهلوها بما عرفوا ... ويشهدُ الدهرُ آتيه وعابره[4]
بُشْرى لآمله الموصولِ مأمَلُهُ ... تَعْسًا لحاسده المقطوعِ دابرُهُ
فالعِلْمُ قد أشرقتْ نورًا مطالعُه ... والجودُ قد أسْبَلَتْ سَحًّا مواطره

(١) في المصدرين: «الهدى».
(٢) في أزهار الرياض: «يناظره».
(٣) في المصدرين: «الحلم».
(٤) في المصدرين: «وغابره» بالغين المعجمة.

والناس في بِشَرٍ[١] والمُلْك في ظَفرٍ — عالٍ على كلّ عالي القَدْرِ قاهره
والأرضُ قد مُلِئتْ أمْنًا جوانبُها — بِيُمْنِ مَنْ خَلُصَتْ فيها سرائره
والى[٢] أياديه من مَثْنى وواحدةٍ[٣] — تُساجلُ البحرَ إنْ فاضتْ زواخرهُ
فكلّ يومٍ تَلَقّانا عوارفُه — كساه أموالَهُ الطُّولى دفاترُه
فمن يؤدّي لما أولاه من نِعَمٍ — شكرًا ولو أنّ سَحْبانًا يُظاهرُهُ
يا أيها العَبْد[٤] بادِرْ لَثْمَ راحَتِهِ — فَلَثْمُها خيرُ مأمولٍ تُبَادرُه
وافخرْ بأن قد[٥] لَقِيتَ ابنَ الحكيم على — عَصْرٍ يُباريك أو دَهْرٍ تُفاخره
ولّى الصيامُ وقد عَظَّمْتَ حُرْمَتَهُ — فأَجْرُه لَكَ وافيه ووافرُه
وأقبلَ العِيدُ فاستقبِلْ به جَذَلًا — واهْنَأْ به قادمًا عَمَّتْ بشائرُه

ومن مدح الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحَضْرمِي له قوله: [الطويل]

تراءى سحيرًا والنسيم عليلُ — وللنَّجم طَرْفٌ بالصباح كليلُ
وللفجر نَهْرٌ خاضه الليل فاعتلتْ — شوى أدهم الظَّلْماء منه خجول
بريقٌ بأعلى الرَّقْمتين كأنه — طلائع شُهْبٍ والسماء تجول
فمزَّقَ ساجي الليل منه شرارة — وخَرَّقَ سِتْر الغيم منه نُصول
تبسّم ثَغْرُ الروض عند ابتسامه — وفاضت عيونٌ للغمام همول
ومالتْ غصون البان نَشْوى كأنها — يُدار عليها من صباه شُمول
وغنّت على تلك الغصون حمائم — لهنّ حفيفٌ فوقها وهَديل
إذا سَجَعَتْ في لحنها ثم قَرْقَرَتْ — يطيح خفيفٌ دونها وثقيل
سقى الله رَبْعًا لا يزال يشوقني — إليه رسومٌ دونها وطلول
وجاد رُباه[٦] كلّما ذرّ شارق — من الوَدْق[٧] هتّانٌ أجشُّ هَطُول
وما ليَ أسْتَسْقي الغمام ومَدْمَعي — سفوحٌ على تلك العِراص هَمُول؟
وعاذِلة باتت تلوم على السُّرى — وتُكثر من تِعْذَالها وتُطيل
تقول إلى كم ذا فراقٌ وغربةٌ — ونأيٌ على ما خيَّلَتْ ورحيل

---

(١) في أزهار الرياض: «يُسْرٍ».
(٢) في الأصل: «وإلى» والتصويب من المصدرين.
(٣) في المصدرين: «ومَوْحَدَةٍ».
(٤) في المصدرين: «العيد».
(٥) كلمة «قد» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من المصدرين.
(٦) في الأصل: «ريّاه» وكذا ينكسر الوزن.
(٧) الوَدْق: المطر. محيط المحيط (ودق).

ذَرِينيَ أَسْعى للّتي تُكْسِب العلا ... سناء وتُبْقي الذِّكْرَ وَهْوَ جميل
فأمّا تَريني من مُمارسة الهوى ... نحيلا فحدُّ المَشْرفيّ نحيل
وفوق أنابيب اليراعة صَفْوة ... تَزِينُ وفي قدِّ القناة ذبول
ولولا السُّرى لم يَحْتل البدرُ كاملًا ... ولا بات منه للسُّعود نَزِيلُ
ولولا اغتراب المرء في طلب العلا ... لما كان نحو المجد منه وصول
ولولا نوال ابن الحكيم محمد ... لأصبح رَبْعُ المجد وهو مَحيل
وزيرٌ سما فوق السِّماك جلالة ... وليس له إلّا نجومٌ قَبِيل
من القوم أمّا في النّديّ(١) فإنهمْ ... هضاب وأمّا في النّدى فسيول
حَوَوْا شرف العَلْياء إرْثًا ومَكْسِبًا ... وطابت فروعٌ منهمُ وأصول
وما جونةٌ هطّالة ذات هَيْدب ... مَرَتْها شمول مُرْجف وقبول
لها زَجَل من رَعْدها ولوامع ... من البَرْق عنها للعيون كُلول
كما هَدَرت وسط القِلاص وأرسلت ... شقاشِقها عند الهياج فحول
بأجْوَد من كفّ الوزير محمد ... إذا ما توالت للسِّنين مُحول
ولا روضةٌ بالحسن طيّبة الشَّذا ... يَنُمّ عليها أذْخَرٌ وجليل
وقد أُذْكيت للزّهر فيها مجامر ... تُعَطِّر منها للنسيم ذيول
وفي مُقل النَّوّار للطَّلّ عَبْرة ... تردِّدُها أجفانها وتُحيل
بأطيب من أخلاقه الغُرّ كلّما ... تفاقم خَطْبٌ للزمان يهول
حويتَ، أبا عبد الإله، مناقبًا ... تفوت يَدَي مَنْ رامها وتطول
فغَرناطةٌ مِصْرٌ وأنت خَصِيبُها ... ونائلُ يُمْناك الكريمة نِيلُ
فداكَ رجالٌ حاولوا دَرْكَ العلا ... ببخلٍ وهل نال العلاء بخيل؟
تَخَيَّرَكَ المولى وزيرًا وناصحًا ... فكان له مما أراد حصول
وألقى مقاليد الأمور مُفوِّضا ... إليك فلم يَعْدل يمينك سُول
وقام بحفظ المُلْك منك مؤيَّدٌ ... نَهوضٌ بما أعيا سواك كفيل
وساس الرعايا منك أشْوَسُ باسل ... مبيدُ العِدا للمُعْتَفين مُنيل
وأبْلَجُ وقّاد الجبين كأنما ... على وَجْنتيه للنُّضار مَسِيل
تهيم به العلياء حتى كأنها ... بُثَيْنةُ في الحُبّ وَهْوَ جَميلُ
له عزَمات لو أُعير مضاؤها ... حُسامٌ لما نالت ظُباه فلول

(١) النديُّ: النادي للمجلس.

سَرى ذكره في الخافقين فأصبحت ... إليه قلوب العالمين تميل
وأغدَى قَريضي جودُه وثناؤه ... فأصبح في أقصى البلاد يجول
إليك أيا فخر الوزارة أرْقَلَتْ ... برَحْليَ هوجاء الثَّجاء ذَلول
فَلَيْتُ إلى لقياك ناصيةَ الفَلا ... بأيدي رِكابٍ سَيْرُهُنَّ ذَميل
تُسَدِّدُني سهمًا لكل ثَنيَّة ... ضوامِرُ أشباه القِسِيّ نحول
وقد لَفَظَتْني الأرضُ حتى رَمَتْ إلى ... ذَراك برحلي هَوْجل وهَجُول
فقيّدْتُ أفراسي به وركائبي ... ولَذَّ مقامٌ لي به وحلول
وقد كنت ذا نَفْسٍ عَزُوفٍ وهمّة ... عليها لأحداث الزمان دَحُول
وتهوى العُلا حظي وتُغْري بضدّه ... لذاك اعتَرَتْهُ رقَّةٌ ونحول
وتأبى لي الأيام إلّا إدالةً ... فَضونك لي أنّ الزمان مُديل
فكل خضوعٍ في جنابك عِزَّةٌ ... وكل اعتزازٍ قد عَداك خُمول

شعره: وبضاعته في الشعر مُزْجاة، وإن كان أعْلَم الناس بنقده، وأشدّهم تيقُّظا لمواقعه الحسنة وأضدادها. فمن ذلك قوله، ورفعه إلى السلطان ببلده رُندة، وهو إذا ذاك فتى يملأ العين أبّهة، ويستميل القلوب لباقة، وهي، ومن خطه نقلتُ[(١)]: [الرمل]

هل إلى رَدِّ عَشِيّاتِ الوصالِ ... سَبَبٌ أم ذاك من ضَرْبِ المُحالِ؟
حالة يَسْري بها الوَهْمُ إلى ... أنها تُثْبِتُ بُرءًا باعتلالِ
وليالٍ[(٢)] ما تبقّى بعدها ... غيرُ أشواقي إلى تلك اللّيالي
إذ مَجالُ الوصْلِ فيها مسرحي ... ونَعيمي آمرٌ فيها ووال
ولحالاتِ التّراضي جولةٌ ... مَرَجَت[(٣)] بين قَبُول واقتبال
فبوادِي الخَيف خوفي مُسْعَدٌ ... وبأكنافِ مُنًى أسنى نوال[(٤)]
لست أنسَى الأنسَ فيها أبدًا ... لا ولا بالعَذْل في ذاك أُبالي
وغزالٍ قد بدا لي وَجْهُه ... فرأيتُ البَدْرَ في حال الكمال
ما أمالَ التِّيهُ من أعطافه ... لم يَكُنْ إلّا على فضل[(٥)] اعتدال

---

(١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣).
(٢) في الأصل: «وليالي» وهكذا ينكسر الوزن، وهو خطأ نحوي، لذلك صوبناه من نفح الطيب.
(٣) في النفح: «مَرِحَتْ». (٤) في النفح: «موال».
(٥) في النفح: «خصل».

خُصَّ بالحسْن فما أنت ترى بعده للناس حظًّا في الجمال
مَنْ تَسَلّى عن هواه فأنا بسواهُ عن هَواه غيرُ سال
فلئن أتعبني حُبّي له فكم نِلْتُ به أَنْعَمَ حال
إذ لآلي[1] جيدِه مِنْ قِبَلي ووشاحاهُ يميني وشمالي
خَلَّفَ النومُ لي السُّهدَ به وترامى الشَّخْصُ لا طيفُ الخيال
فَيُداوى[2] بِلَماه ظمئي مَزَجَكَ الصَّهْباءَ بالماء الزُّلال
أو إشادات[3] بناءِ المَلِك الـ أَوْحَدِ الأسمى الهُمامِ المُتعالي
مَلِكٌ إنْ قلتَ فيه مَلَكًا لم تكنْ إلّا محقًّا في المقال
أيَّد الإسلامَ بالعدل فما أن ترى رَسْمًا لأصحاب الضّلال
ذو أيادٍ شَمَلَتْ كلَّ الوَرى ومعالٍ يا لها خيرُ مَعال
هِمَّةٌ هامتْ بأحوالِ التقى وصفاتٌ بالجلالات حِوال
وقف النَّفْسَ على إجهادها بين صوم وصلاةٍ ونوال

ومنها في ذكر القوم الموقع بهم[4]:

وفريق من عُتاة عاندوا أمره فاستوجبوا سوء نكالِ
غَرَّهُمْ طولُ التّجافي عنهُمُ مَعَ شيطانٍ لهم كان مُوال
فلقد كانت بهمْ رُنْدةُ أو أهلُها في سوء تدبير وحال
ولقد كان النِّفاقُ مَذْهَبًا فاشيًا بين هاتيك التلال
ما يعود اليوم إلّا بادروا بِرواة ونكيرات ثقال
طُوِّقوا النُّعمى فلمّا أنكروا طُوِّقوا العَذْل بذي البيض العَوال
ماطل الدهر بهمْ غريمه فهو الآن وفي بَعْدَ المطال
ولقد كنت غريم الدهر إذ شدَّني جورُهُمُ شدَّ عِقال
ولكم نافرتُه مجتهدًا عندما ضاق بهم صَدْرُ احتمالي
أعقبوا جزاء ما قد أسْلَفوا في الدُّنا ويعقبوه في المآل

---

(١) في الأصل: «لآلىء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٢) في النفح: «فتداوى».
(٣) في الأصل: «أو أشادت ثنا الملك...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٤) من هنا حتى آخر البيت: (في المآل) غير وارد في نفح الطيب.

وهي طويلة ومنها:

أيها المولى الذي نعماؤه أعجزتْ عن شكرها كُنْهَ المقالِ
ها أنا أُنْشِدُكُمْ مُهَنِّئًا من بديع النّظم بالسِّحْر الحلالِ
فأنا العبد الذي حُبُّكُمُ لم يزلْ والله في قلبي وبالي
أوْرَقَتْ روضةُ آمالي لكمْ وتولّاها الكبير المُتعالي[1]
واقتنيْتُ الجاهَ من خِدْمتكمْ فهو[2] ما أذخره من كَنْزِ مال

ومنها:

يا أميرَ المسلمين هذه خدمة تنبىء عن أصدق حالِ
هي بنتُ ساعةٍ أو ليلةٍ سَهُلَتْ بالحُبِّ في ذاك الجلال
ما عليها إذ أجادتْ مَدْحَها من بعيدِ الفهمِ يُلْغيها وقالِ
فَهْيَ في تأدية الشكر لكمْ أبدًا بين احتفاء واحتفالِ

وكتب، رحمه الله، يخاطب أهله من مدينة تونس[3]:

حيِّ حيِّ بالله يا ريحَ نَجْدِ وتَحَمَّلْ عظيمَ شوقي ووجْدي
وإذا ما بَثَثْتَ حالي فَبَلِّغْ من سلامي لهمْ على قَدْرِ وُدِّي
ما تناسَيْتُهُمْ وهل في مغيبي هم[4] نسوني على تطاوُل بُعْدي
بيَ شوقٌ إليهم ليس يُعْزى لجميلٍ[5] ولا لسُكّان نَجْد
يا نسيمَ الصَّبا إذا جئْتَ قومًا مُلِئَتْ أرْضُهُمْ بِشِيحٍ ورَنْد
فَتَلَطَّفْ عند المرور عليهمْ وحقوقًا لهمْ عليَّ فَأَدِّ
قلْ لهمْ قد غدوتُ من وَجْدهم في حالِ شوقٍ لكلّ رَنْدٍ وزَنْدِ
وإن استفسروا حديثي فإني باعتناء الإله بُلِّغْتُ قَصْدي
فله الحمدُ إذ حَباني بلطفٍ عنده قلَّ كلُّ شُكْرٍ وحَمْد

(١) في النفح: «... بكم مذ تولّاها الربابُ المتوالي».
(٢) في النفح: «فهي».
(٣) القصيدة في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤).
(٤) في النفح: «قد». (٥) أراد جميل بن معمر، صاحب بثينة.

قال شيخنا أبو بكر ولده: وجدت بخطّه، رحمة الله عليه، رسالة خاطب بها أخاه أبا إسحٰق إبراهيم افتتحها بقصيدة أولها[١]: [الكامل]

ذَكَرَ اللّوى شَوْقًا إلى أقمارِهِ ... فقضى أسًى أو كاد مِنْ تَذْكارِهِ
وعلا زَفيرُ حريقِ نارِ ضلوعِهِ ... فرمى على وَجَناتِهِ بشَرارِهِ
لو كنتَ تُبْصِرُ خطّه في خدِّه ... لقرأتَ سِرَّ الوَجْدِ مِنْ أسطاره
يا عاذِلِيه أَقْصِروا فلربما[٢] ... أفضَى عتابُكُمُ إلى إضراره
إن لم تعينوه على بُرَحائِهِ[٣] ... لا تُنكروا بالله خَلْعَ عذاره
ما كان أكْتَمه لأسرار الهوى ... لو أنَّ جُنْدَ الصَّبْر مِنْ أنصاره
ما ذَنْبُهُ والبَيْنُ قَطَّع قَلْبَه ... أسفًا وأذكى النار في أعْشاره
بَخلَ اللّوى بالساكنيه وطيفهمْ ... وحديثِه ونسيمِه ومَزارِهِ
يا بَرْقُ خُذْ دمعي وعَرِّجْ باللّوى ... فأسْفَحْهُ في باناته وعَراره
وإذا لقيتَ بها الذي بإخائه ... أَلْقى خطوبَ الدَّهر أو بجوارِهِ
فاقْرَ السلامَ عليه قَدْرَ محبتي ... فيه وتَرْفيعي إلى مقْداره
وأَلْمُمْ[٤] بسائر إخوتي وقرابتي ... مَنْ لم أكُنْ لجوارهمْ بالكاره
ما منهمُ إلّا أخٌ أو سيّدٌ ... أبدًا أرى دأبي على إكباره
فاثبتْ[٥] لذاك الحيّ أنَّ أخاهُمُ ... في حِفْظِ عهدهُمُ على اسْتبصاره
ما مَنْزل اللذات في أوطانه ... كلّا ولا السُّلوان من أوطاره[٦]

وقال، رحمه الله، في غرض كلّفه سلطانه القول فيه[٧]: [الوافر]

ألا وأصِلْ مواصلةَ العُقارِ ... ودَعْ عنكَ التخلُّقَ بالوَقارِ
وقُمْ واخلعْ عِذارك في غَزالٍ ... يحقُّ لمثله خَلْعُ العِذار
قضيبٌ مائسٌ من فوق دِعْصٍ ... تَعَمَّمَ بالدُّجى فوق النهار
ولاحَ بخدِّه ألفٌ ولامٌ ... فصار مُعَرَّفًا بين الدراري

(١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥) وورد البيتان الأول والثاني أيضًا في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٩).
(٢) في النفح: «فلشدّ ما».
(٣) في الأصل: «عليّ برجائه» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٤) في الأصل: «وألْمِمْ» وهكذا ينكسر الوزن.
(٥) في النفح: «فابْثُثْ».
(٦) هذا البيت لم يرد في النفح.
(٧) الأبيات في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٥).

رماني قاسمٌ والسينُ صادٌ ... بأشفارٍ تنوبُ عن الشِّفار
وقد قُسِمَتْ محاسنُ وجنتيه ... على ضِدّين من ماء ونار
فذاك الماءُ من دَمْعي عليه ... وتلك النارُ من فرطِ اسْتِعاري[1]
عَجِبْتُ له أقامَ برَبْعِ قلْبي ... على ما شَبَّ فيه من الأُوار
أَلِفْتُ الحبَّ حتى صار طبعًا ... فما أحتاجُ فيه إلى ادِّكار
فما لي عن مذاهبه ذهاب ... وهذا فيه أشعاري شِعاري[2]

وقال العلّامة ابنُ رُشَيد في «مَلْء العَيْبة»[3]: لما قَدِمْنا المدينة سنة ٦٨٤ هـ، كان معي رفيقي الوزير أبو عبد الله بن أبي القاسم الحكيم، وكان أرْمَد[4]، فلمّا دخلنا ذا الحُليفة أو نحوها، نزلْنا عن الأكوار، وقَوِي الشوق لقرب المزار، فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتِسابًا لتلك الآثار، وإعظامًا لمن حلّ في[5] تلك الديار، فأحسّ بالشفاء، فأنشد لنفسه في وصف الحال قوله: [الطويل]

ولمّا رأينا من ربوع حبيبنا ... بيَثْرِبَ أعلامًا أثَرْنَ لنا الحُبَّا
وبالتُّرْب منها إذ كَحَلْنا جفونَنا ... شُفينا فلا بأسًا نخافُ ولا كربا
وحين تَبَدَّى للعيون جمالُها ... ومن بُعْدها عنّا أُديلت لنا قُرْبا
نزلْنا من[6] الأكوار نمشي كرامة ... لمن حَلَّ فيها أن نُلِمَّ به رَكْبا
نُسِحُّ سِجالَ الدَّمْع في عَرَصاتها ... ونَلْثِمُ من حُبٍّ لواطئه التُّرْبا
وإن بقائي دونه لخَسارةٌ ... ولو أنّ كَفِّي تملأ الشرقَ والغَرْبا
فيا عجبًا ممن يُحِبُّ بِزَعْمه ... يُقيمُ مع الدعوى ويستعملُ الكُتْبا
وزَلّاتُ مثلي لا تُعدُّ كثيرةٌ[7] ... وبُعْدي عن المختار أَعْظَمُها ذَنْبا

ومن شعره قوله[8]: [السريع]

ما أَحْسَنَ العَقْلَ وآثارَهُ ... لو لازم الإنسانُ إيثارَهُ

---

(١) في الأصل: «استعار» والتصويب من النفح. (٢) في الأصل: «شعار» والتصويب من النفح.
(٣) النص مع الأبيات في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦).
(٤) الأرمد: المصاب بمرض الرمد. لسان العرب (رمد).
(٥) كلمة «في» ساقطة في النفح. (٦) في النفح: «عن».
(٧) في النفح: «لا تُعَدَّدُ كثرةً».
(٨) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٦). كما وردت في المصدر نفسه (ج ٤ ص ٣١٠) منسوبة إلى صالح بن شريف.

يَصُونُ بالعقل الفتى نَفْسَهُ ... كما يصونُ الحُرُّ أسرارَهُ
لا سيما إن كان في غُرْبَةٍ ... يحتاجُ أن يَعْرِفَ مِقْدارَه

وقوله رحمه الله[1]: [البسيط]

إني لأعْسِرُ أحيانًا فيلحقني ... يُسْرٌ من الله إنّ العُسْرَ قد زالا
يقولُ خيرُ الورى في سُنَّةٍ ثبتتْ ... (أَنْفِقْ ولا تَخْشَ من ذي العرش إقلالا)

وهو من أحسن ما قاله رحمه الله.

ومن شعره قوله[2]: [الطويل]

فَقَدْتُ حياتي بالفراق[3] ومَنْ غدا ... بحالِ نوًى عَمَّنْ يُحِبُّ فقد فَقَدْ
ومن أجل بُعْدي من[4] ديارِ أَلِفْتُها ... جحيمُ فؤادي قد تَلَظَّى وقد وَقَدْ

وحُكي أن ذا الوزارتين المترجم، لما اجتمع مع الفقيه الكاتب ابن أبي مَدْين، أنشده ابن أبي مدين[5]: [الطويل]

عَشِقْتُكُم بالسّمع قبل لقاكمُ ... وسَمْعُ الفتى يَهْوى لعَمْري[6] كَطَرْفِهِ
وحبَّبني ذكرُ الجليس إليكمُ ... فلمّا التقينا كنتمُ فَوْقَ وَصْفِهِ

فأنشده ذو الوزارتين ابن الحكيم قوله[7]: [البسيط]

ما زلتُ أسمعُ عن عَلْياكَ كلَّ سَنًا ... أبهى من الشمس أو أجْلَى من القمرِ
حتى رأى بَصَري فوق الذي سَمِعَتْ ... أذني فوفَّقَ بين السَّمْع والبصرِ

ومن نظمه مما يكتب على قوس[8]: [الكامل]

أنا عُدَّةٌ للدين في يَدِ مَنْ غَدا ... لله منتصرًا على أعدائِهِ
أحكي الهلالَ وأسْهُمي في رَجْمِها ... لمن اعتدى تَحكي رجوم[9] سمائه
قد جاء في القرآن أني عُدَّةٌ ... إذ نَصَّ خيرُ الخلق مُحْكَم آيِهِ
وإذا العدوُّ أصابه سهمي فقد ... سَبَقَ القضاءُ بهلكه وفنائه

---

(١) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٦).
(٢) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٦).
(٣) في النفح: «بالعراق».
(٤) في النفح: «عن».
(٥) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٧).
(٦) في الأصل: «العمر»، والتصويب من النفح.
(٧) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٧).
(٨) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٩ - ٥٠).
(٩) في النفح: «نجوم».

ومن[١] توقيعه ما نقلته من خط ولده أبي بكر في كتابه المسمى بـ «الموارد المستعذبة»، وكان[٢] بمدينة وادي آش الفقيه الكذا أبو عبد الله محمد بن غالب الطريفي، فكتب[٣] يومًا إلى الشيخ خاصة والدي[٤] أبي جعفر بن داود، قصيدة طويلة على روي السِّين، يشتكي[٥] فيها من جَوْر[٦] مشرف بلدهم إذ ذاك أبي القاسم بن حسّان، منها: [البسيط]

فيا صَفيَّ أبي العباس، كيف ترى ... وأنت كيِّس[٧] من فيها مِنَ آكْياسِ
ولُوه إن كان ممّن ترتضون به ... فقد دنا الفتحُ للأَشْراف في فاسِ

ومنها يستطر ذكر ذي الوزارتين، رحمه الله:

للشرق فضلٌ منه أشرقتْ شُهُبٌ ... من نورهم أَقْبَسُونا كل مِقباسِ

فوقع عليها رحمة الله تعالى عليه ورضوانه[٨]: [البسيط]

إن أفْرَطَتْ بابن حسّان غوائلُهُ ... فالأمر يكسوه ثوبَ الذُّل والياس[٩]
وإن تَزِلَّ به في جَوْره قَدَمٌ ... كان الجزاءُ له ضربًا على الرَّاس
فقد أقامنيَ المولى بنعمته ... لبثِّ أحكامه بالعدل في الناس

كتابته: وهي مرتفعة عن نمط شعره، فمن ذلك رسالة كتبها عن سلطانه في فتح مدينة قِيجاطة[١٠]:

من الأمير فلان، أيده الله ونصره، ووفّقه لما يحب حتى يكون ممن قام بفرض الجهاد ونشره. إلى ابننا الذي نمنحه الحُبَّ والرضى، ونسأل الله أن يهبه الخلال التي تُسْتحسن والشِّيم التي تُرتضى، الولد الأنْجب، الأرْضى، الأنجد، الأرْشد، الأسْعد، محمد، وإلى الله تعالى إسعاده، وتولى بالتوفيق والإرشاد سَداده،

(١) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٥٠).
(٢) في النفح: «وكان بوادي آش الفقيه الطريفي».
(٣) في النفح: «فكتب إلى خاصة والدي أبي جعفر».
(٤) في الأصل: «والدي وخاصة أبي. . .»، والتصويب من النفح.
(٥) في النفح: «يتشكّى».
(٦) كلمة «جور» غير واردة في النفح.
(٧) في النفح: «أكْيَسُ».
(٨) كلمة «ورضوانه» غير واردة في النفح.
(٩) في النفح: «ثوب الذكر والباسِ».
(١٠) قيجاطة، بالإسبانية Quesada: مدينة من أعمال ولاية جيان. الإحاطة (ج ٢ ص ٤٦٥) حاشية ٨.

وأطْلع عليه من أنباء الفتوح المُبَشِّرة بالنصر الممنوح ما يكمل من بُغيته في نصر دين الإسلام ويُسني مراده.

أما بعد حمد الله، الذي جعل الجهاد في سبيله أفضل الأعمال، الذي يقربه إلى رضاه، وندب إليه بما وعد من الثواب عليه، فقال: يا أيها النبي، حَرِّض المؤمنين على القتال، تنبيهًا على محل الثقة، بأن الفئة القليلة من أوليائه، تغلب الفئة الكثيرة من أعدائه، وتُدارك دين الإسلام بإنجاز وعده في قوله، ولَيَنْصُرَنّ الله من ينصره، على رغم أنف مَن ظن أنه خاذله، تعالى الله عن خِذْلان جنده. والصلاة والسلام على نبيّه ورسوله ومُجتباه، لهداية الخلق لسلوك سبيل الحق، والعمل بمقتضاه. قال تعالى فيما أنزل: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾[1] تحريضًا على أن يمحو ظلام ضلالهم بنور هداه ﷺ، وعلى آله الأبرار، وأصحابه الأشداء على الكفار، الذين جرَّدوا في نُصْرَة دينه صَوارمَ العزم وأمضوا ظُباه، وفتحوا ما زَوَّى له من مشارق الأرض ومغاربها حتى عمَّ الإسلام حدّ المعمور ومنتهاه. فإنّا كتبنا لكم، كتب الله لكم من سماع البشائر ما يعود بتحويل الأحوال، وأطْلع عليكم من أنباء الفتوح ما يلوح بآفاق الآمال، مُبَشرًا باليُمن والإقبال. من قيجاطة، وبركات ثقتنا بالله وحده، تُظْهر لنا عجائب مكنونات أَلْطافه، وتَجنِينا ثمار النصر في إبّان قِطافه، وتُسَخِّر لنا وِرْد مَشْرع الفتح فتَرد عذب نِطافه، والحمد لله الذي هدانا لأن نتَقَلَّد نجادها، ونمتطي جوادها، ونسْتوْرِي زنادها، ونستَفْتِح بها مغالق المآرب، ولطائف المطالب، حتى دَخَلت الملّة الحنيفية في هذه الجزيرة الأندلسية أغوارها وأنجادها. وقد[2] تقرّر عند الخاص والعام، من أهل الإسلام، واشتهر في جميع[3] الأقطار اشتهار الصبح في سواد الظلام، أنّا لم نَزَلْ نَبْذُل جُهْدنا في أن تكون كلمة الله هي العُلْيا، ونَسْمح في ذلك بالنفوس والأموال رجاءَ ثوابِ الله لا لغرض[4] دُنيا. وأنّا ما قصَّرْنا في الاستنْصار والاستِنْفار[5]، ولا قَصَرنا[6] عن الاعتضاد لكلّ من أمَّلنا معونته[7] والاستظهار، ولا اكتفينا بمُطَوَّلات الرسائل وبنات الأفكار، حتى اقتحمْنا بنفوسنا لُجَجَ البحار، وسمحْنا بالطّارف من أموالنا والتّلاد، وأعطينا رجاء نُصْرَة الإسلام موفورَ الأموال والبلاد، واشترينا بما أنعم الله به علينا ما فَرَض الله على كافة أهل الإسلام من الجهاد، فلم

(١) سورة التوبة ٩، الآية ١٢٣.

(٢) من هنا حتى قوله: «إلى بلوغ الأمنية والمأمول» وارد في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٦ - ٣٦٧).

(٣) في النفح: «آفاق».

(٤) في النفح: «لا لعَرَض الدنيا».

(٥) في النفح: «في الاستنفار والاستنصار».

(٦) في النفح: «ولا أقصرْنا».

(٧) في النفح: «معاملته».

يكن بين تَلْبية المدعوّ وزُهده، وبين قبوله وردّه، إلّا كما يحْسُو الطائر ماء الثِّماد ويأبى الله أن يَكِلَ نصر[١] هذه الجزيرة إلى سواه، وأن يجعل فيها سَبَبًا إلّا لمن أخلص لوجهه الكريم علانيته ونَجْواه. ولمّا أسلم الإسلام بهذه الجزيرة الغريبة إلى مثاويه[٢]، وبقي المسلمون يتوقّعون حادثًا ساءت ظنونهم لمباديه، ألقينا إلى الثقة بالله تعالى وحده يَدَ الاستسلام، وشمَّرنا عن ساعد الجِدّ والاجتهاد[٣] في جهاد عَبَدَة الأصنام، وأخذْنا بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٤] أخْذَ الاعتزام، فأمَدَّنا الله تعالى بتوالي البشائر، ونَصَرنا بألطافٍ أغنى فيها خلوصُ الضمائر عن قُوّاد[٥] العساكر، ونفلنا[٦] على أيدي قُوّادنا ورجالنا من السّبايا والغنائم ما عُدّ[٧] ذكره في الآفاق كالمثل السائر ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[٨]، وكيف يُحْصيها المحصي أو يَحْصُرها الحاصر. وحين أبْدَتْ لنا العناية الربّانيّة وجوه الفُتُوح[٩] سافرةَ المُحَيّا، وانْتَشَقْنا نسيم[١٠] النّصر الممنوح عَبِق الرّيّا، استخرْنا الله تعالى في الغزو بأنفسنا[١١] ونِعْم المُسْتخار، وكتبْنا إلى من قرب من عمّالنا[١٢] بالحضّ على الجهاد والاستِنْفار. وحين وافى مَنْ خَفَّ للجهاد من الأجناد والمُطَوِّعين، وغَدَوا بحكم رغبتهم في الثواب على طاعة الله مجتمعين، خرجْنا بهم ونَصْرُ الله تعالى أهدى دليل، وعناية الله بهذه الفئة المُفْرَدة من المسلمين، تقضي بتَقْريب البعيد من آمالنا، وتكْثير القليل. ونحن نسأل الله تعالى أن يحملنا على جادّة الرّضا والقَبُول، وأن يرشدنا إلى طريق يُفْضي[١٣] إلى بلوغ الأمنية والمأمول[١٤]، إلى أن حَللْنا عشيّة يوم الأحد ثاني يوم خروجنا بمقربة حصن اللّقْوة فأذَنا به التّدبير، واستشرنا من أوليائنا من تحققنا نصحه فيما يشير، فاقتضى الرأي المقترن بالرّشاد، المؤذن بالإسعاد، قصد قيجاطة لما رجي من تيسير فتحها، وأملا في إضاءة فجر الأماني لديها، وبيان صُبْحها، فسِرْنا نحوها في جيش يجرُّ على المَجَرّة ذيل النقع المُثار، ويضيق عن كثرته واسع الأقطار، ويُقِرُّ عين الإسلام بما اشتمل عليه من الحُماة والأنصار، تطير بهم نيّاتهم بأجْنِحَة العزم إلى

---

(١) في النفح: «نُصْرة الإسلام بهذه الجزيرة إلى سواه، ولا يجعل فيها شيئًا إلّا...».
(٢) في النفح: «مُناويه».
(٣) كلمة «والاجتهاد» ساقطة في النفح.
(٤) سورة البقرة ٢، الآية ١٩٥.
(٥) في النفح: «قود».
(٦) في الأصل: «ونقلنا» والتصويب من النفح. ونفَّل القائدُ جُنْدَه: أعطاهم ما غنموه. لسان العرب (نفل).
(٧) في النفح: «ما غدا».
(٨) سورة إبراهيم ١٤، الآية ٣٤.
(٩) في النفح: «الفتح».
(١٠) في النفح: «نسائم».
(١١) في النفح: «بنفسنا».
(١٢) في النفح: «أعمالنا».
(١٣) في النفح: «تفضي».
(١٤) لهنا ينتهي النص في النفح.

قبض أرواح الكفار. فلمّا وصلنا إلى وادي على مَقْربة منها نزلنا به نريح الجياد، ونكمل التأهُب للقتال والاستعداد، وبات المسلمون ليلتهم يسألون الله تعالى بأن يمنحهم الإعانة بتأييده والإمداد. وحين فجر الفجر وأنار النهار، وقدحت به الأصباح زَنْد الأنوار، رَكِبنا إليها والعساكر قد انتظمت عقودها، والسيوف قد كادت تلفظها غُمودها، وبصائر الأولياء المجاهدين قد لاح من نصر الله تعالى معهودها. فلمّا وصلناها وجدنا ناسًنا قد سَبَقوا إليها بالبُوس، وهَتَكوا سِتر عِصْمَتها المحروس، وأُذِنَ لها بزوال النعم وذهاب النفوس، فعاجلها الأولياء بالقتال، وأهدوا إليها حُمْر المنايا من زُرْق النِّصال، ورَشَقوا جنودها بالنِّبال، وجَدُّوا بنات الآجال، فلما رأوا ما لا طاقة لهم به لاذوا بالفرار من الأسوار، وولّوا الأدبار، وودّعوا الديار وما فيها من الآثار. وتَسَنَّم المسلمون ذِرْوة البلد الأول فملكوه، وخَرَقوا حجاب السِّتر المسدول عليه وَهَتَكوه، وتسرعوا إلى البلد الثاني وقد ملأ النصارى أسواره من حُماة رجالهم، وانتقوهم من مُتَخَيِّري أبطالهم، ممن وثقوا بإقدامه في حماية ضلالهم، فحمل عليهم المسلمون حَمْلة عرَّفوهم بها كيف يكون اللِّقاء، وصَرَفوهم إلى ما تنصرف إليه أرواحهم من الشَّقاء، وأظهروا لهم من صدق العزايم ما علموا به أن لدين الإسلام أنصارًا لا يرغبون بأنفسهم عن الذَّبِّ عنه وحماية راياته، ولا يَصْدُرون إلا إلى طاعة الله ابتغاء مَرْضاته. وبادر جماعة إلى إضرام باب المدينة بالنيران، وعقدوا تحت سماء العَجاج منها سماء الدُّخان، ورموا النصارى من النِّبال بشُهُب تتبع منهم كل شيطان. فهزم الله النصارى، وولوا أدبارهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فأخْلَوْا بروجهم وأسوارهم، وتَسَنَّمها المسلمون مُعْلنين شعار الإسلام، رافعين من الرايات الحُمْر كواكب في سماء السَّعادة تُبَشِّر بتيسير كل مرام. ودخلوا المدينة فألفوا بها من القُوت والعَتاد، والمتاع الفاخر الذي يربو على التَّعداد، ما ملأ كلَّ يمين وشمال، وظهروا عليها بعد بلوغ الأماني على الكمال، وقتلوا بها من الحُماة أعداء أبدوا في حماية ضلالهم ماضي الغِنا والاعتزام، وأعملوا فيهم ماضي العوامل وشَبا الإضرام. وارتفع النصارى إلى القَصَبة لائذين بامتناعها، مُعْتصمين بعُلُوِّها وارتفاعها، مُتَخَيِّلين لضلالهم، وعدم استبصارهم أن نور الهدى لا يحلُّ بديارهم. فرأينا أن نُرقي الرجال إلى أبراج البلد وأسواره، وأمرناهم أن يبيتوا طول ليلتهم مُضَيِّقين على مَن اعتصم بالقصبة في حِصاره، وعَمَدنا بالعسكر المظفر إلى موضع استيطانه من المحلة المنصورة واستقراره. فلمّا بدا ضوء الصباح بنور الإشراق، ولاح وجْه الغزالة طارحًا شعاعه على الآفاق، أمرنا بترتيب العساكر على القصبة للحصار، وعيَّنّا لكل جماعة منهم جهةً يبادرون إلى منازلتها بالقتال أشدّ البدار، فانتهى المسلمون من ذلك إلى غاية لم تَخْطُر

للكافرين ببال، وجرَّعُوهم كؤوس المنايا، وأداروا بها بنات الحَنايا، فأفضت السِّجال وأظهر الكفار، مع وقوعهم في بحر الموت صبرًا وطمعوا أن يقيموا بذلك لصُلْبانهم عُذْرًا. فلما رأوا من عَزمنا ما لم تتخيله ظنونُهم وأوهامهم، وصابرَهم المسلمون عند النزال مصابرةً عَظُم فيها إقدامهم وثَبّتت أقدامهم، ألقوا بأيديهم إلى التَّهْلكة إلقاء من هاله لَمعان الأسِنّة واهتزاز رُدَيْنِيات القنا، ولاذوا بطلب الأمان لياذ الغريق بالساحل بعد ما أشرف على الفنَا، وهبط زعيمهم مقتحمًا خطر تلك المسالك، متضرِّعًا تضرع من طمع في الحياة بعد ما أخذته أيدي المهالك، وشَرَط أن يُمَلّكنا القصبة، ويبقى خديمًا لنا بما بيده من البلاد الكثيرة والكَتِيبة المنتخبة، فلم نظهر له عند ذلك قَبُولًا، ولم نجعل له إلى تكميل ما رغب فيه سبيلًا، فقاده البَأس الشديد إلى الإذعان، ورغب أن يُكمل ما نريده على شرط الأمان. فأسْعَفْنا رغبته على شروط، بَعُدَ عَهْدُ المسلمين بمثلها، وهُيِّئت الأسباب بما نعتمده من الثقة بالله وحده في أمورنا كلها، وذلك على كذا وكذا. وحين كَمُلت الشروط حقّ التكميل، وظهرت لنا منه أمارات الوفاء الجميل، دخلنا القصبة حماها الله، وقد أغْنى يوم النصر عن شَهْر السلاح، كما أغنى ضوء الصبح عن نور المصباح، ورُفعت على أبراجها حُمر الأعلام، ناطقةً عن الإسلام، بالتعريف والإعلام. وفي الحين وجهنا من يَقْبِضْ تلك الحصون، ويُزيل ما بها من جُرْم الكفر المأفون، أمناء رجالنا. فالحمد لله على هذه النعمة التي أحدثت للقلوب استبشارًا، وخَفَضت عَلَم التثليث ورفعت للتوحيد منارًا، وأظهرت لِلملّة الحنيفية على أعدائها اعتلاءً واستكبارًا. وهذا القدر من الفتح وإن كان سامي الفَخْر، باقي الذكر بقاء الدهر، فإننا لنرجو من فضل الله أن يُتْبعه بما هو أعلى منه متانةً، وأعظم في قلوب أهل الإيمان موقعًا وأعز مكانة، وأن يرغم بما يظهر على أيدينا من عز الإسلام، أنف من أظهر له عنادًا وخِذْلانًا. فاستبشروا بهذا الفتح العظيم وبشِّروا، واشكروا الله عليه، فواجب أن تشكروا. وقد كتبنا هذا، ونحن على عزمنا في غزو بلاد الكفار، والسعي الحميد إلى التنكيل بهم والإضرار، والمسلمون أعزهم الله في أرضهم يشنون المغار، ويمتلكون الأنجاد منها والأغوار، ويكثرون القتل والأسار، ويُحَكِّمون أينما نزلوا السَّيف والنار، والسلام.

ومن نثر آخر إجازة ما صورته[1]:

---

(١) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٥) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧)، وفي الأزهار يخاطب ابن الجياب الشيخ أبا علي عمر الجراوي.

وها أنا أجري منه[١] على حُسْنِ مُعْتَقده، وأَكِلُهُ في هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضى تَوَدُّده، وأُجيزُ له ولولديه، أقرَّ الله بهما عَيْنه، وجمع بينهما وبينه، رواية جميع ما نقلته وحملته[٢]، وحُسْنُ اطلاعه يُفَصِّل من ذلك ما أجملْتُه، فقد أَطْلَقْتُ لهم الإذن في جميعه، وأَبَحْتُ لهم الحَمْل عني ولهم الاختيار في تنويعه. والله سبحانه وتعالى[٣] يُخلِّص أعمالنا لذاته، ويجعلها في ابتغاء مَرْضاته. قال هذا[٤] محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكيم حامدًا لله عزَّ وجلَّ، ومصلِّيًا ومسلمًا.

وفاته: قُتل، رحمه الله، صَبيحة عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة[٥]، وذلك لتاريخ خلع سلطانه. واستولت[٦] يد الغوغاء على منازله، شغلهم بها مُدَبِّرُ الفتنة خيفةً من أن يعاجلوه قبل تمام أمره، فضاع بها مال لا يُكتب، وعُروضٌ لا يُعْلَمُ لها قيمة من الكُتُب، والذَّخيرة والفرش والآنية والسلاح والمتاع والخُرْثِيّ، وأُخْفِرَتْ ذمَّته[٧]، وتُعَدِّي به عُدوة القتل إلى المُثْلَة[٨]، وقانا الله مصارع السوء، فَطِيفَ بشِلْوه، وانتُهبَ فضاع ولم يُقْبَرْ، وجرتْ فيه شناعة كبيرة، رحمه الله تعالى.

مولده: بُرُنْدَة ظهر يوم الاثنين الحادي والعشرين من ربيع الأول المبارك، من عام ستين وستمائة. وممّن رثاه شيخنا أبو بكر بن شِبْرين رحمه الله تعالى بقوله[٩]: [الطويل]

سَقَى الله أشلاءً كَرُمْنَ على البِلى ... وما غَضَّ من مقدارها حادثُ البَلا
ومِمّا شَجاني أنْ أُهِينَ مكانُها ... وأُهْمِلَ قَدْرٌ ما عهدناه مُهْمَلا
ألا اَصْنعْ بها يا دَهْرُ ما أنت صانعٌ ... فما كنتَ إلّا عَبْدها المُتَذَلِّلا
سَفَكْتَ وما كان الرُّقُوء نوالَهُ ... لقد جئتَها[١٠] شَنْعاءَ فاضِحَةَ المَلا

---

(١) في المصدرين: «معه». (٢) في أزهار الرياض: «ما حملته ونقلته».
(٣) في أزهار الرياض: «والله عزّ وجلّ يخلّص...».
(٤) في الأزهار: «قال هذا وكتبه محمد بن عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن يحيىٰ بن محمد اللخمي بن الحكيم، عفا الله عنه، حامدًا الله عزّ وجلّ، ومصليًا على رسوله المصطفى، ومسلمًا عليه وعلى آله، في منتصف جمادى الآخرة عام ثلاثة وسبعمائة».
(٥) كذا جاء في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٧). (٦) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٥٠ ـ ٥١).
(٧) أُخْفِرَتْ ذمَّتُه: نقضت عهوده ولم تحفظ حرمته. لسان العرب (خفر).
(٨) المُثْلَة: التمثيل بالقتل. لسان العرب (مثل).
(٩) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٨٥ ـ ٨٧).
(١٠) في النفح: «جئتما».

بكَفَّيْ سَبَنْتى أزرقِ العينِ مُطْرِقٍ[(١)] عدا فغدا في غَيِّه مُتَوَغِّلا
لَنِعْمَ قتيلُ القومِ في يوم عِيده قتيلٌ تُبَكِّيه المكارمُ والعُلا
ألا إنّ يومَ ابنِ الحكيم لَمُثْكِلٌ فؤادي، فما يَنْفَكُّ ما عشتُ مُثْكَلا
فَقَدْناه في يوم أغرَّ مُحَجَّلٍ ففي الحَشْرِ نَلْقاه أَغَرَّ مُحَجَّلا
سَمَتْ نحوه الأيامُ وهو عَمِيدُها فلم تشكرِ النُّعمى ولم تحفظِ الوَلا
تعاوَرَتِ الأسيافُ منه مُمَدَّحًا كريمًا سما فوق السِّماكين مَنْزِلا[(٢)]
وخانته رِجْلٌ في الطَّوافِ به سَعَتْ فناءَ بِصَدْرٍ للعلوم تحمَّلا
وجُدِّلَ لم يَحْضُرْه في الحيِّ ناصرٌ فمن مُبلغ الأحياءِ أنَّ مُهَلْهَلا[(٣)]
يَدُ الله في ذاكَ الأديم مُمَزَّقًا[(٤)] تُبارِكُ ما هَبَّتْ جنوبًا وشَمْألا
ومِنْ حَزَني أن لَسْتُ أعرف مَلْحَدًا له فأرى للتُّرْب منه مقبلا
رُوَيْدك يا مَنْ قد غدا شامتًا به فبالأمس ما كان العمادَ المُؤَمَّلا
وكنّا نُغادي أو نُراوحُ بابَه وقد ظلّ في أوْجِ العُلا مُتَوقِّلا[(٥)]
ذكرناه يومًا فاستَهَلَّتْ جفونُنا بدمعٍ إذا ما أَمْحَل العام أَخْضَلا
ومازَجَ منه الحُزْنُ طولَ اعتبارنا ولم نَدْرِ ماذا منهما كان أطْوَلا
وهاج لنا شَجْوًا تَذَكُّرُ مجلسٍ له كان يُهْدي الحيَّ والملأَ الأُلى
به كانت الدنيا تُؤخِّر مُدْبِرًا من الناس حَتْمًا أو تُقَدِّم مُقْبلا
لِتَبْكِ عيونُ الباكيات على فتًى كريمٍ إذا ما أَسْبَغَ العُرْفَ أَجْزَلا
على خادم الآثار تُتْلى صَحائحا على حامل القرآن يُتْلى مفصَّلا
على عَضُدِ المُلْك الذي قد تضوَّعَتْ مكارمُه في الأرض مِسْكًا ومَنْدَلا

---

(١) السَّبَنْتى: النمر. محيط المحيط (سبت). وصدر هذا البيت عجز بيت من قصيدة تنسب إلى جزء بن ضرار، أخي الشماخ، قاله في عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، والبيت هو: [الطويل]

وما كنتُ أخشى أن تكون وفاته بكفَّيْ سَبَنْتى أزرقِ العينِ مطرقِ

طبقات ابن سلام (ص ١١١).

(٢) في النفح: «مزحلًا».

(٣) إشارة إلى قول الشاعر في مهلهل بن ربيعة: [الكامل]

من مبلغ الحيَّين أنّ مهلهلاً أضحى قتيلاً في الفلاة مجندلا

(٤) هذا من قول جَزْء بن ضرار: [الطويل]

عليك سلامٌ من أميرٍ وباركتْ يَدُ اللهِ في ذاك الأديمِ المُمَزَّقِ

الشعر والشعراء (ص ٢٣٥).

(٥) متوقّلًا في أوج العلا: صاعدًا فيه. لسان العرب (وقل).

على قاسمِ الأموال فِينا على الذي ... وضعْنا لديه كلَّ إصْرٍ على عُلا
وأنّى لنا من بعده مُتَعَلَّلُ ... وما كان في حاجاتنا مُتَعَلِّلا
ألا يا قصيرَ العُمْر يا كاملَ العُلا ... يمينًا لقد غادَرتَ حُزْنًا مؤثَّلا
يسوءُ المُصَلَّى أن هَلَكْتَ ولم تُقَمْ ... عليك صلاةٌ فيه يشهدها المَلا
وذاك لأنَّ الأمرَ فيه شهادةٌ ... وسُنَّتُها محفوظةٌ لن تُبَدَّلا
فيا أيها المَيْتُ الكريمُ الذي قضى ... سعيدًا حميدًا فاضلًا ومُفَضَّلا
لِتَهْنَك[1] من ربِّ السماء شهادةٌ ... تُلاقي بِبُشْرَى وجْهِك المُتَهَلِّلا
رثيتُك عن حبٍّ ثَوى في جوانحي ... فما وَدَّعَ القلبُ العميدُ وما قَلا[2]
ويا رُبَّ من أوليْتُه منك نعمةً ... وكنتَ له ذُخْرًا عتيدًا ومَوْئِلا
تناساك حتى ما تَمُرُّ بباله ... ولم يَدَّكِر[3] ذاك النَّدى والتَّفَضُّلا
يُرابضُ في مَثْواك كلَّ عَشيَّةٍ ... صَفِيفَ شَواءٍ أو قديدًا[4] مُعَجَّلا[5]
لَحَى الله من ينسى الأذِمَّةَ رافضًا ... ويُذْهَلُ مهما أصبح الأمر مُشْكلا
حَنانَيْكَ يا بَدْرَ الهُدى فَلَشَدَّ ما ... تركْتَ بُدُورَ الأفق بعدك[6] أُفَّلا
وكنتَ لآمالي حياةً هنيئةً ... فغادرْتَ مني اليوم قَلْبًا مُقَتَّلا
فلا وأبيك الخيرِ ما أنا بالذي ... على البُعْدِ يَنْسى من ذِمامك ما خلا
فأنت الذي آوَيْتَني مُتَغَرِّبًا ... وأنت الذي أكرمتني مُتَطَفِّلا
فإن لم أنَلْ منك الذي كنتُ آملًا ... فما كنتَ إلّا المُحسِنَ المُتَفَضِّلا[7]
فآليتُ لا ينفَكُّ قلبي مُكْمَدًا ... عليك ولا ينفَكُّ دمعي مُسْبَلا

محمد بن عبد الرحمٰن العقيلي الجراوي

من أهل وادي آش، وسكن غرناطة.

---

(١) في الأصل: «لِتَنْهَلَ» والتصويب من النفح.
(٢) هذا من قول الله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ٣].
(٣) يَدَّكِر: يتذكر. محيط المحيط (دكر). (٤) في النفح: «قديرًا».
(٥) أخذه من قول امرىء القيس في معلقته: [الطويل]
وظلَّ طُهاةُ اللحمِ من بَيْنِ مُنْضِجٍ ... صَفِيفَ شواءٍ أو قَديرٍ مُعَجَّلِ
ديوان امرىء القيس (ص ٢٢).
(٦) في الأصل: «بعد» والتصويب من النفح. (٧) هذا البيت غير وارد في نفح الطيب.

حاله: فقيه أديب مُتَطَبِّب، متفنن في علوم جمة، شاعر مطبوع، يكنّى أبا بكر. مدح الأمير علي بن يوسف اللمتوني بقوله: [مجزوء الكامل]

رحلوا الركائب موهِنًا فأذاع عَرْفُهُمُ السَّنا
والحَلْي قد أغرى بهمْ لمّا ترنّم مُغْلِنا
كم حفّ حول جِماهمُ من كلّ خطّار القَنا

قال أبو جعفر بن الزبير، ينفك منها قصائد: [الكامل]

رحلوا الركاب موهِنًا ليكتّموا ظَعْن الحمُول وهل تُوارى الأنْجُمُ؟
فأذاع سرُّهُمُ السَّنا ورمى بهمْ فلُّ الذميل شذاهُمُ المُتَنسّمُ
كم حفّ حمل قبابهمْ وركابهمْ من ليثِ غابٍ في براثنه الدمُ
من كل خطّار القناة مموّه بين الرحيل نَضْبُه يستسلم

وهي طويلة، خاطب بها أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشُفين. وقال في وصف القصيدة: [الطويل]

أيا ملكًا يسمو بسَعْد مُساعد وقَدْرٍ على عُلْوِ الكواكب صاعدِ
نظمت قصيدًا في عُلاك مُضَمّنًا ثلاث قوافٍ في ثلاث قصائدِ
إذا فُصِلَتْ أغنَى عن البعض بعضُها وإن وُصِلَتْ كانت ككعبٍ وساعدِ

فأجازه بظهير كريم بتحرير ماله وتنويهه.

محمد بن عبد الرحمٰن المُتأهل

من أهل وادي آش، يعرف بعمامتي.

حاله: من التاج: ناظم أبيات، وموضح غُرر وشيات، وصاحب توقيعات رفيعات، وإشارات ذوات شارات. وكان شاعرًا مِكثارًا، وجوادًا لا يخاف عِثارًا. أُدخل على أمير بلده المخلوع عن مُلْكه، بعد انتِثار سِلْكه، وخروج الحَضرة عن ملكه، واستقراره بوادي آش، مروع البال، معلّلًا بالآمال، وقد بلغه دخول طبرنش في طاعته، فأنشده من ساعته: [مجزوء الكامل]

خُذها إليك طبرنشا شَفَّعْ بها وادي الأشا
والأمّ تتبع بنتها والله يفعل ما يشا

ومن نوادره العذبة يطلب خطة الحسْبة: [الطويل]

أَنِلْنيَ يا خَيْرَ البريّةِ خُطّةً تُرَفّعُني قَدْرًا وتكسبني عزّا

فأعتزُّ في أهلي كما اعتزّ بَيْدَقٌ على سُفْرة الشطرنج لما انثنى فرزا

فوقع الأمر بظهر رقعته ما ثبت في حرف النون عند ذكره، والاحتجاج بفضله.

وفاته: كان حيًا بعد سنة سبع عشرة وسبعمائة. وفد على الحضرة مرات كثيرة.

محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طُفَيل القيسي[(١)]

من أهل وادي آش، يكنى أبا بكر.

حاله: كان عالمًا، صَدْرًا، حكيمًا، فيلسوفًا، عارفًا بالمقالات والآراء، كلفًا بالحكمة المشرقية، محققًا، متصوفًا، طبيبًا ماهرًا، فقيهًا، بارع الأدب، ناظمًا، ناثرًا، مشاركًا في جملة من الفنون.

مشيخته: روى عن أبي محمد الرُّشاطي، وعبد الحق بن عطية وغيرهما.

حُظْوته ودخوله غرناطة:

اختصّ بالريس أبي جعفر، وأبي الحسن بن مَلْحان. قال ابن الأبار في تُحفته[(٢)]: وكتب لوالي غرناطة وقتًا.

تواليفه: رسالة حيّ بن يقظان، والأرجوزة الطبيّة المجهولة، وغير ذلك.

شعره: قال: وهو القائل من قصيدة في فتح قَفْصة سنة ست وسبعين[(٣)]، وأُنفِذت إلى البلاد[(٤)]: [الطويل]

ولمّا انقضى الفَتح الذي كان يُرتجى وأصبح حزب الله أغْلَبَ غالبِ

وأنجزَنا وَعْدٌ من الله صادقٌ كفيل بإبطال الظنون الكواذبِ

وساعدنا التّوفيق حتى بيَّنت مقاصدنا مشروحة بالعواقبِ

وأذعن من عَليا هلالُ بن عامر أبيٌّ ولبّى الأمرَ كلُّ مجانبِ

---

(١) ترجمة ابن طفيل في المعجب (ص ٣١١) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٣٠) في ترجمة أبي الوليد بن رشد.

(٢) المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥).

(٣) في الأصل: «وتسعين»، وقد صوّبناه عن ابن عذاري؛ إذ روى أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدي فتح قفْصة في شهر رمضان من عام ٥٧٦ هـ. البيان المغرب ـ قسم الموحدين (ص ١٤١).

(٤) القصيدة في البيان المغرب ـ قسم الموحدين (ص ١٤١ ـ ١٤٢).

وهبّوا إذا[١] هبَّ النسيم كما[٢] سرى ... ولم يتركوا بالشَّرق عَلْقة آيب
يُغَصُّ بهم عُرْض الفَلا وهو واسع[٣] ... وقد زاحموا الآفاق من كل جانب
كأنّ بسيط الأرض حَلْقَة خاتم ... بهم وخِضَمُّ البحر بعض المذانب
ومَدَّ على حكم[٤] الصغار لسلمنا ... يديه عظيمُ الروم في حال راغب
يُصرِّح بالرؤيا[٥] وبين ضلوعه ... نَفَسُ مذعور ونُفرة راهب
وعى من لسان الحال أفصح خُطْبة ... وما[٦] وضحَت[٧] عنه فِصاح القَواضبِ
وأبْصَر مَتْن الأرض كفّة حامل ... عليه وإضراه في كفّ حالب
أشرنا بأعناق الجياد إليكم ... وعُجْبًا عليكم من صدور الرّكائب
إلى بُقْعة قد بيّن[٨] الله فضلها ... بمن حلّ فيها من وليٍّ[٩] وصاحب
على الصَّفوة الأدْنَين منّا تحيةٌ ... توافيهم بين الصَّبا والجَنائب

وله أيضًا[١٠]: [الطويل]

أَلَمَّتْ وقد نام الرقيب[١١] وهَوَّما ... وأسْرَتْ إلى وادي[١٢] العَقِيق من الحِمى
وراحتْ[١٣] إلى نَجْدٍ فرُحْتُ مُنَجِّدا ... ومَرَّتْ بنُعمان فأضحى مُنَعَّما
وجَرَّتْ على تُرْبِ المُحَصَّبِ[١٤] ذيلَها ... فما زال ذاك التُّرْب نهبًا مقسَّما
تناقله[١٥] أيدي التُّجار[١٦] لطيمة ... ويحمله الداريُّ[١٧] أيَانَ يَمَّما
ولمّا رَأتْ أن لا ظلامَ يَجِنّها ... وأنّ سُراها فيه لن يَتَكتما
سَرَتْ[١٨] عذبات الرَّيْطِ عن حُرّ وجهها ... فأبدتْ شُعاعا يرفع اليوم مظلما[١٩]

---

(١) في البيان المغرب: «كما».
(٢) في البيان المغرب: «إذا».
(٣) في البيان المغرب: «... عرض الفيافي وطولها».
(٤) في البيان المغرب: «رغم».
(٥) في البيان المغرب: «بالرغبى».
(٦) في الأصل: «ما» وهكذا ينكسر الوزن.
(٧) في البيان المغرب: «وما صمتت».
(٨) في البيان المغرب: «يمن».
(٩) في البيان المغرب: «إمام».
(١٠) القصيدة في المعجب (ص ٣١٢ ـ ٣١٣) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥ ـ ١٢٦).
(١١) في المعجب: «المُشيح».
(١٢) في الأصل: «وأسرت الوادي...» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين السابقين.
(١٣) في الأصل: «وراح»، والتصويب من المقتضب.
(١٤) في الأصل: «المُخصب»، والتصويب من المصدرين. والمُحَصَّب: مكان بين مكة ومنى.
(١٥) في المعجب: «تناوله».
(١٦) في المقتضب: «الرجال لِطيَّةٍ».
(١٧) في الأصل: «الدارين» والتصويب من المصدرين. والداريّ: الملاح الذي يلي الشراع.
(١٨) في المعجب: «نضتْ».
(١٩) في المعجب: «فأبدت مُحَيًا يُذهش المتوسّما». وفي المقتضب: «... شعاعًا يرجع الصبحَ=

فكانّ تجلّيها حجابَ جمالها كشمس الضُحى يَغشَى بها الطَّرْفُ كلَّما
ولمّا رأتْ زُهْر الكواكب أنها هي النيِّر الأَسْمى وإن كان باسما
بكتْ أسفًا أن لم تَفُزْ بجوارها وأسْعَدها صوبُ الغمام فأسْجَما
فجلَّتْ يَمُجُّ القَطْر ريّان بُرْدها فتُنفِضه كالدُّر فذًّا وتوأما
يضمّ علينا الماء فضل زكاتها كما[1] بلّ سقط الطَّلّ نورًا مُكَمَّما
ويَفْتَقُ نَضح الغيث طيب عَرْفها نسيم الصَّبا بين العَرار مُنَسَّما
جَلَتْ عن ثناياها وأوْمَضَ برقُها[2] فلم أدرِ مَنْ شَقَّ الدُّجُنَّةَ منهما
وساعدني جَفْنُ الغمام على البكا فلم أدرِ وَجْدًا[3] أيَّنا كان أسْجَما
ونظم سِمْطي ثغرها ووشاحها فأبصَرْتُ دُرَّ الثغر أحْلَى وأنظما
تقول وقد ألْمَمْتُ أطراف كمِّها يدي وقد أنْعَلتْ أخْمَصُها الفما
نشدْتُك لا يَذْهَبْ بك الشوق مذهبًا يُسَهِّل صعبًا أو يُرَخِّص مَأثما
فأقْصَرْتُ[4] لا مُستغنيًا عن نوالها ولكن رأيتُ الصَّبْر أوفى وأكْرما

وقال[5]: [الوافر]

أتذكرُ إذ مَسَحْتُ بفيك عَيْني[6] وقد حَلَّ البُكا فيها عُقُودَهْ
ذكرْتُ بأنْ ريقَك ماءُ وَرْد فقابلْتُ الحرارةَ بالبُرُودَهْ

وقال: [الوافر]

سألتُ من المليحة بُرْءَ دائي برَشْفِ بَرُودها العَذْبِ المزاجِ
فما زالتْ تُقبِّل في جفوني وتُنْبهرني بأصنافِ الحِجاج
وقالت إنّ طَرْفك كان[7] أصلًا لدائك فليُقَدَّمْ في العلاج

وفاته: توفي بمراكش سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وحضر السلطان[8] جنازته.

= معلما».
(١) في الأصل: «كمل» وكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له.
(٢) في المعجب: «بارقٌ». (٣) في المعجب: «دمعًا».
(٤) في المعجب: «فأمسكْتُ».
(٥) البيتان في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥).
(٦) في المقتضب: «دَمْعي».
(٧) كلمة «كان» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.
(٨) السلطان هو المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، وقد حكم المغرب والأندلس من سنة ٥٨٠ هـ إلى سنة ٥٩٥ هـ. ترجمته في البيان المغرب ـ قسم=

محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن عبيد الله ابن عيّاش التُّجيبي البُرْشاني[(١)]

من أهل حصن بُرْشانة المحسوب في هذه العِمالة، يكنى أبا عبد الله، كاتب الخلافة.

حاله: قال القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك[(٢)]: كان كاتبًا بارعًا، فصيحًا، مُشرفًا على علوم اللسان، حافظًا للّغات والآداب، جَزْلًا، سَريَّ الهمّة، كبير المقدار، حسن الخلق، كريم الطباع[(٣)]، نفّاعًا بجاهه وماله، كثير الاعتناء[(٤)] بطلبة العِلْم والسعي الجميل لهم، وإفاضة المعروف على قُصّاده، مستعينًا على ذلك بما نال من الثروة والحُظْوة والجاه عند الأمراء من بني عبد المؤمن، إذ كان صاحب القلم الأعلى[(٥)] على عهد المنصور وابنه، رفيع المنزلة والمكانة لديهم، قاصدًا[(٦)] الإعراب في كلامه، لا يخاطب أحدًا[(٧)] في كلامه من الناس، على تفاريق أحوالهم، إلّا بكلام مُعْرَب، وربما استعمله[(٨)] في مخاطبة خَدمته[(٩)] وأمته، من حُوشِيِّ الألفاظ، ما لا يكاد يستعمله[(١٠)]، ولا يفهمه إلّا حُفَّاظ اللغة من أهل العلم، عادة أَلِفَها واستمرّت حاله عليها.

مشيخته: روى[(١١)] عن أبي عبد الله بن حُميد، وابن أبي القاسم السُّهَيلي، وابن حُبَيْش، وروى عنه بنوه أبو جعفر، وأبو القاسم[(١٢)] عبد الرحمٰن، وأبو جعفر بن عثمان، وأبو القاسم البلوي.

= الموحدين (ص ١٧٠) والمعجب (ص ٣٣٦) والحلل الموشية (ص ١٢١).

(١) ترجمه ابن عياش في التكملة (ج ٢ ص ١١٦) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٤). والبرشاني: نسبة إلى بُرْشانة Purchena وهي عمل ألمرية، وهي حصن على مجتمع نهرين، من أمنع الحصون. الروض المعطار (ص ٨٨) والتكملة (ج ٢ ص ١١٦).

(٢) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٥).

(٣) في الذيل والتكملة: «الطبع».

(٤) في المصدر نفسه: «الاعتبار».

(٥) في المصدر نفسه: «الأعلى عند المنصور منهم فابنه الناصر، فابنه المستنصر، رفيع...».

(٦) في المصدر نفسه: «عامدًا».

(٧) في المصدر نفسه: «أحدًا من أصناف الناس...».

(٨) في المصدر نفسه: «استعمل».

(٩) في الأصل: «قدمته» والتصويب من الذيل والتكملة.

(١٠) في الذيل والتكملة: «يستعمل».

(١١) النص في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥).

(١٢) في الأصل: «وأبو القاسم، وعبد الرحمٰن» والتصويب من الذيل والتكملة.

تواليفه: له[1] اختصارٌ حسن في إصلاح المنطق، ورسائل مشهورة، تناقلها الناس، وشِعْرٌ يُحْسِن في بعضه.

جاهه: حدّث الشيخ أبو القاسم البلوي، قال[2]: كنت أخِفُّ إليه[3]، وأشفع عنده في كبار المسائل، فيسرع في قضائها. ولقد عَرَضت لبعض أصحابي من أهل بلاد الأندلس حاجةٌ مُهِمَّةٍ كبيرة، وجب عليّ السعي فيها، والتماس قضائها وفاء لربِّها، ولم يكن لها إلّا ما قَدَرتُه من حسن نظره فيها، ورجوته من جميل أثره في تيسير أمرها، وكان قد أصابه حينئذٍ التِياثٌ لَزِم من أجله داره، ودخلت[4] عليه عائدًا، فأطال السؤال عن حالي، وتبسَّط معي في الكلام، مبالغة في تأنيسي، فأجْمَلْتُ ذكر الحاجة[5]، ورغبت منه في الشَّفاعة عند السلطان في شأنها، وكان مضطجعًا، فاستوى جالسًا، وقال لي: جَهِل الناسُ قَدْري، وكرَّرها ثلاثًا، في[6] مثل هذا أشفع إلى أمير المؤمنين؟ هات الدَّواة والقرطاس، فناولته إياهما، فكتب برغبتي، ورفعه إلى السلطان، فصُرِف في الحين مُعَلَّمًا، فاستدعاني، ودفعه إليّ، وقال: يا أبا القاسم، لا أرضى منك أن تُحجم عني في التماس قضاء حاجة تعرَّضت لك خاصة، وإن كانت لأحد من معارفك عامة، كَبُرت أو صَغُرت، فألتَزِم قضاءها، وعليّ الوفاء، فإن لكل مَكْسَب[7] زكاة، وزكاة الجاه بَذْلُه.

وحدّثني شيخي أبو الحسن بن الجيّاب، عمن حدّثه من أشياخه، قال: عرض أبو عبد الله بن عيّاش والكاتب ابن القالمي على المنصور كتابين، وهو في بعض الغَزَوات، في كَلَب البَرْد، وبين يديه كانُون جَمْرٍ. وكان ابن عياش بارعَ الخطِّ، وابن القالمي ركيكَه، ويفضُله في البلاغة، أو بالعكس الشكّ مني. وقال المنصور: أي كَتْبٍ لو كان بهذا الخط؟ وأي خطٍّ لو كان بهذا الكَتْبِ؟ فرضي ابن القالمي، وسَخِط ابن عياش. فانتزع الكتاب من يد المنصور، وطرحه في النار وانصرف. قال: فتغيّر وجهُ المنصور، وابتدر أحد الأشياخ، فقال: يا أمير المؤمنين، طَعَنتُم له في الوسيلة التي عرَّفته ببابكم، فعَظُمت غَيْرَتُه لمعرفته بقَدْر السبب الموصل إليكم. فسُرِّي عن المنصور، وقال لأحد خدّامه: اذهب إلى السَّبي، فاختَرْ أجمل نساء الأبكار؛ وأتِ بابن عياش؛ فقلْ له: هذه تُطْفىء من خُلُقك. قال ابن عياش يخاطب ولَدَه، وقد حدَّث الحديث: هي أُمُّك، يا محمد، أو فلان.

---

(١) النص في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٥).
(٢) النص في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٦).
(٣) في الذيل والتكملة: «عليه».
(٤) في الذيل والتكملة: «فدخلت».
(٥) في الذيل والتكملة: «ذكر تلك الحاجة».
(٦) في الذيل والتكملة: «أفي».
(٧) في المصدر نفسه: «مكتسب».

بعض أخباره مع المنصور ومحاورته الدّالة على جلالة قدره:

قال ابن خميس: حدّثني خالي أبو عبد الله بن عسكر أن الكاتب أبا عبد الله بن عيّاش، كتب يومًا كتابًا ليهودي، فكتب فيه، ويحمل على البرّ والكرامة. فقال له المنصور: من أين لك أن تقول في كافر، ويحمل على البرّ والكرامة؟ فقال: ففكّرت ساعة، وقد علمت أن الاعتراض يلزمني، فقلت: قال رسول الله ﷺ: إذا أتاكم كريمُ قوم، فأكرموه، وهذا عام في الكافر، وغيره. فقال: نعم هذه الكرامة، فالمبرة أين أخذّتها؟ قال: فسكتُّ ولم أجد جوابًا. قال: فقرأ المنصور: ﴿أعوذُ بالله من الشَّيطانِ الرَّجِيم﴾[1] ﴿لا يَنهاكُمُ اللهُ عَنِ الدين لَمْ يقاتِلُونكم في الدِّين ولَمْ يُخرِجُوكُم مِنْ ديارهم أَنْ تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إليهمْ إن الله يُحِبُّ المُقْسِطِين﴾[2]. قال: فشهدْتُ بذلك، وشكرته.

شعره: من شعره[3]: [الطويل]

بلنسيةٌ، بيني عن العليا[4] سَلْوَةً ... فإنكِ روضٌ لا أَحِنُّ لِزَهْرِكِ
وكيف يُحِبُّ المرءُ دارًا تَقَسَّمَتْ ... على صارِمَيْ[5] جُوعٍ[6] وفِتْنَةِ مُشْرِكِ؟

وذكره الأديب أبو بحر صفوان بن إدريس في «زاد المسافر» عند اسم ابن عيّاش، قال: اجتمعنا في ليلة بمرّاكش، فقال أبو عبد الله بن عيّاش: [البسيط]

وليلةٍ من ليالي الصَّفْح قد جَمَعَتْ ... إخوانَ صِدْقٍ ووصْلٌ للدهر مُخْتلِسُ[7]
كانوا على سُنَّة الأيام قد بعُدُوا ... فألَّفَتْ بينهم لو ساعد الغَلَسُ

وقال من قصيدة: [الكامل]

أشفارها أم صارِمُ الحجَّاجِ؟ ... وجُفُونها أم فِتْنَةُ الحلّاجِ؟
فإذا نظرْتَ لأرضها وسمائها ... لم تَلْفَ غير أسِنَّةٍ وزُجاجِ

---

(١) سورة النحل ١٦، الآية ٩٨. وصواب الآية: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.
(٢) سورة الممتحنة ٦٠، الآية ٨. وصواب الآية: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ إلى آخر الآية.
(٣) البيتان في الروض المعطار (ص ١٠١) ونفح الطيب (ج ١ ص ١٧٢) ومعجم البلدان (ج ١ ص ٤٩١) وفيه ينسبهما ياقوت إلى ابن حريق.
(٤) في الأصل: «العلياء» وكذا ينكسر الوزن. وفي سائر المصادر: «عن القلب».
(٥) في معجم البلدان: «على ضاربي».
(٦) في الأصل: «جذع» والتصويب من المصادر الثلاثة.
(٧) في الأصل: «للدهر غير مختلس» وكذا لا يستقيم لا الوزن ولا المعنى، لذا حذفنا كلمة «غير».

وقال في المُصْحف الإمام، المنسوب إلى عثمان بن عفان، لما أمر المنصور بتَحْلِيَته بنفيس الدُّرِّ من قصيدة[1]:

ونُفِّلْتَهُ[2] من كلِّ مَلْكٍ ذخيرةً	كأنهُمْ كانوا بِرَسْمِ مكاسِبِهْ
فإن وَرِثَ الأمْلاكَ شَرْقًا ومَغْربًا	فكمْ قد أخلُّوا جاهلين بواجِبِهْ
وألبَسْتَه الياقوتَ والدرَّ[3] حِلْيةً	وغيرُك قد روّاه مِنْ دَمِ صاحِبِهْ

كتابته: قال ابن سعيد في المُرْقصات والمُطْربات[4]: أبو عبد الله بن عيّاش، كاتب الناصر وغيره، من بني عبد المؤمن، وواسِطَةُ عِقْد تَرْسِيله، قوله في رسالة كتبها في نزول الناصر على المَهْدِية بحرًا وبرًا، واسترجاعها من أيدي المُلَثَّمين:

ولما حَلَلْنا عُرَى السَّفر، بأن حللْنا حِمَى المَهْدِيّة، تفاءلنا بأن تكون لمن حَلَّ بساحتها هَدِيّة، فأحْدَقْنا بها إحداق الهُدْب بالعَيْن، وأطَرْنا لمختلس وصالها غِرْبان البَيْن، فبانت بليلةً باسِنِيّة، وصابَح يومًا صافحته فيه يد المَنِية. ولما اجْتَلينا منها عروسًا قد مُدَّ بين يديها بِساط الماء، وتوجهت بالهلال وقَرّطَته بالثُّريا ووُشِّحَت بنجوم السَّماء، والسُّحب تَسْحَب عليها أزدانها فترتَديها تارة مُتَلَثِّمة، وطورًا سافرةً، وكأنما شُرُفاتها المُشرفة أنامل مُخْضَبة بالدَّياجي، مخْتَتَمة بالكواكب الزّاهرة، تُضْحي عن شنَبٍ لا تزال تُقَبِّله أفواه المجانيق، وتُمْسِي باسمةً عن لعسٍ لا تَبْرح تَرْشِفُه شِفاهُ سِهام الحريق، خَطَبْناها فأرادت التَّنْبيه على قَدْرها، والتوْفير في إعلاء مَهْرها، ومن خَطَب الحسناء لم يُغْله المَهْرُ فتمنَّعت تَمَنُّع المَقْصورات في الخيام، وأطالت إعمال العامل في خِدمتها وتجريد الحسام، إلى أن تحقَّقَت عِظَم مَوْقِعها في النفوس، ورأت كثرة ما ألقي لها من نِثار الرؤوس، جَنَحت إلى الإخصان بعد النُّشوز، ورأت اللِّجاج في الامتناع من قبول الإحسان لا يجوز، فأمْكَنَت زمامها من يدِ خاطبها، بعد مطاولة خَطْبِها وخِطابها، وأمْتَعَته على رغم رُقَبِها بعناقها ورَشْفِ رُضابها، فبانت مُعرَّسًا حيث لا حِجال إلّا من البُنود، ولا خُلوق إلّا من دماء أبطال الجنود، فأصبح وقد تلألأت بهذه البشائر وجوه الأفكار؛ وطارت بمسارها سوائحُ البراري وسوانحُ البحار. فالحمد

---

(١) الأبيات في التكملة (ج ٢ ص ١١٦) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٧).

(٢) في الأصل: «ونَقَلْتَ» وكذا ينكسر الوزن. والتصويب من الذيل والتكملة. وفي التكملة: «ونُقِلْتَهُ».

(٣) في الأصل: «الدرّ والياقوت». وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٤) لم يرد شيء من هذا في المرقصات والمطربات، وجاء فيه (ص ٩٢) بيتان من الشعر لأبي جعفر بن عياش، شاعر المائة السابعة، وليس لأبي عبد الله بن عياش.

لله الذي أقرَّ الحقَّ في نصابه، واسْتَرْجعه من أيدي غُصّابه، حمدًا يجمع شمل النِّعم، ويُلْقِحُها كما تُلْقِح الرياح الدِّيم، فشَنِّفوا الأسماع بهذه البشائر، واملئوا الصُّدور بما يرويه لكم من أحاديثها كل وارد وصادر، فهو الفتحُ الذي تفتَّحت له أبواب السماء، وعمّ الخير واليمن به بَسِيطَي الثَّرَقِ والماء؛ فشكر الله عليه، فرض، في كل قُطْرٍ من أقطار الأرض.

دخل غرناطة، مُرتادًا، ومُتعلمًا، ومُجتازًا.

مولده: بُبرشانة بلده، عام خمسين وخمسمائة.

وفاته: توفي بمراكش في شهر رجب[1] الفرد من عام ثمانية عشرة وستمائة، رحمه الله.

محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد الهَمْداني

من أهل وادي آش، يكنى أبا القاسم ويعرف بابن البرّاق[2].

حاله: قال ابن عبد الملك[3]: كان محدِّثًا حافظًا، راويةً مكثرًا، ثقةً ضابطًا[4]، شُهِر بحفظ كتب كثيرة من الحديث وغيره، ذا نظر صالح في الطُّبّ[5]، أديبًا بارعًا، كاتبًا بليغًا، مُكثرًا لجيِّدِه[6]، سريع البديهة في النظم والنثر، والأدب أغلبُ عليه. قال أبو القاسم ابن المواعيني: ما رأيت في عباد الله أسْرَعَ ارتجالًا منه.

مشيخته: روى[7] عن أبي بحر يوسف بن أحمد بن أبي عَيْشون، وأبي بكر بن زَرْقون، وابن قيد[8]، وابن إبراهيم بن المل، وابن النِّعمة وصَحْبه[9]، ولَقِيه بمرّاكش، ووليد بن مُوفق، وأبي عبد الله بن يوسف بن سعادة، ولازمه أزيد من ست سنين وأكثر عنه، وابن العُمْرسي، وأبي العباس بن إدريس، والخرُّوبي، وتلا عليه بالسَّبع،

(١) في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٧): «وتوفي بمراكش لخمس بقين من جمادى الآخرة...». وفي التكملة (ج ٢ ص ١١٦): «توفي بمراكش في العشر الأواخر من جمادى الأخيرة...».

(٢) ترجمة ابن البراق في رايات المبرزين (ص ١٦٦) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٣٣) وزاد المسافر (ص ١٥١) والمطرب (ص ٢٤١) والتكملة (ج ٢ ص ٧٦) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٥٧) وبغية الملتمس (ص ١١٤) والمغرب (ج ٢ ص ١٤٩) وكنيته فيه: أبو عمرو، ونفح الطيب (ج ٥ ص ٥٣).

(٣) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٦٧).

(٤) في الذيل والتكملة: «ضابطا ثقة».

(٥) في الأصل: «في الطلب» والتصويب من الذيل والتكملة.

(٦) في المصدر نفسه: «مكثرًا مجيدًا».

(٧) قارن بالذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٥٨).

(٨) في الذيل والتكملة: «وابن فيد».

(٩) في الذيل والتكملة: «ونجبة».

وأكثر عنه، وعَرَض عليه من حفظه كثيرًا، وابن مضاء، وأبي علي بن عرب[١]، وأبي القاسم بن حُبَيش، وابن عبد الجبار، وأبي محمد بن سهل الضرير، وعاشر وقاسم بن دَحْمان، وأبي يوسف بن طلحة. وأجاز له أبو بكر بن العربي، وابن خير، وابن مَنْدلة[٢]، وابن تَمارة[٣]، وأبو الحسن شريح، وابن هُذيل، ويونس بن مُغيث، وأبو الجليل[٤] مفرج بن سلمة، وأبو عبد الله حفيد مكي، وأبو عبد الرحمٰن بن مساعد، وأبو عامر محمد بن أحمد السالمي، وأبو القاسم ابن بشكوال، وأبو محمد بن عبيد الله، وأبو مروان البيّاضي، وابن قُزمان، وأبو الوليد بن حجاج.

مَن روى عنه: روى[٥] عنه ابنه أبو القاسم، وأبو الحسن بن محمد بن بقي الغَسّاني، وأبو عبد الله محمد[٦] بن يحيىٰ السُّكري، وأبو العباس النَّباتي، وأبو عمرو بن عيّاد، وهو أسنُّ منه، وأبو الكرم جودي.

تواليفه: صنّف[٧] في الأدب[٨] مصنَّفات منها «بهجة الأفكار، وفرجةُ[٩] التَّذكار، في مختار الأشعار»، و«مباشرة ليلة السَّفح»[١٠]، ومقالة في الإخوان، خَرَّجها من شواهد الحكم، ومصنَّف في أخبار معاوية، و«الدُّر المنظم في الاختيار[١١] المعظَّم»، و«مجموع في الألغاز»[١٢]، و«روضة الحدائق، في تأليف الكلام الرائق»، مجموع نظمه ونثره، وملقى[١٣] السبل في فضل رمضان، وقصيدته في ذكر النبيّ ﷺ، وخطرات الواجد في رثاء الواحد، ورجوع[١٤] الإنذار بهجوم العِذار، إلى غير ذلك.

محنته: غرّبه الأمير ابن سعد[١٥] من وطنه، وألزمه سكنى مُرْسية، ثم بَلَنسية. ولما مات ابن سعد آخر يوم من رجب سبع وستين وخمسمائة، عاد إلى وطنه واستقرّ به يفيده الديّة، إلى آخر عمره.

(١) في الذيل والتكملة: «عريب».
(٢) في الذيل والتكملة: «وابن فندلة».
(٣) في الذيل والتكملة: «وابن نمارة».
(٤) في الذيل والتكملة: «وأبو الخليل».
(٥) قارن بالذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٦٧).
(٦) كلمة «محمد» ساقطة في الذيل والتكملة.
(٧) قارن بالذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٦٨).
(٨) في الذيل والتكملة: «في الآداب».
(٩) في الأصل: «وفرصة» والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٠) في الذيل والتكملة: «ومباشرة ليلة السفح، من خبر أبي الأصبغ عبد العزيز ابن أبي الفتح...».
(١١) في الأصل: «الإحسار» والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٢) في الذيل والتكملة: «في ألغاز».
(١٣) في الذيل والتكملة: «ملتقى السبيل...».
(١٤) في الأصل: «ورجوم» والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٥) هو الأمير محمد بن سعد بن مردنيش الجذامي، أمير بلنسية ومرسية، وقد تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

شعره: وشعره كثير. فمن ذلك القصيدة الشهيرة في مدح رسول الله ﷺ، وذكر صحابته[١]: [الكامل]

بالهَضْبِ هَضْبِ زرودَ أو تلعاتِها شاقتك[٢] هاتفةٌ على نَغَماتها
مصدورةٌ تفتنُّ في ترجيعها[٣] فيبين نَفثُ السِّحر في نَفَثاتها
إن راقها[٤] رأدُ الضحى أو راعها جَنْحُ الدُّجى سِيّانِ في ذِكراتها
هذا يُمَتِّعُها وذاك يشوقها والموت[٥] في يَقَظاتها وسِناتها
ولوِ[٦] التَّعَللُ بالكَرَى ينتابُها نضحتْ فَزَوْرُ[٧] الطَّيفِ بَرْحَ شَكاتها
لكنَّ بين جُفونها ومنامها[٨] حَرْبًا[٩] تثير النهبَ في كَرّاتها
ولئن نطقتَ لها به فتقولْ مَنْ للرِّياح[١٠] بمُلتقى هبّاتها؟
مَطْلُولةُ الفَرْعين تُلْحفُها الرُّبى كَنفًا[١١] وتُلْثِمُها لمَى زَهَراتها
ويُسِيغها[١٢] ماءُ النَّخيلة جَرْعةً لغِياضها[١٣] من مُجْتَنى نخلاتها

منها:

يا من تَبَلَّجَ نورُه عن صادعٍ بالواضحات الغُرِّ من آياتها
يا شارعًا في أمّةٍ جُعِلَتْ به وَسَطًا نالت[١٤] مستدامَ حياتها

---

(١) هي مخمسة، وهي طويلة، وقد وردت كاملة في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٦٩ ـ ٤٨٢) ومطلعها:

يا مُسْبلاً من عينه عبراتِها أشجَتْكَ هاتفةٌ على أثلاتِها
أم شمْتَ بارقةً بِعُرْض فلاتها بالهَضْب هَضْبِ زرودَ أو تلعاتها؟
شاقتْك هاتفة على نغماتها

(٢) في الأصل: «ساقتك» والتصويب من الذيل والتكملة.
(٣) في الأصل: «في جيعها» والتصويب من الذيل والتكملة.
(٤) في الأصل: «إن راغها راد»، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٥) في الذيل والتكملة: «فالموت».
(٦) في الأصل: «ولولا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٧) في الذيل والتكملة: «بِزَوْرِ».
(٨) في الأصل: «وهنامها» والتصويب من الذيل والتكملة.
(٩) في الأصل: «خرزًا» والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٠) في الأصل: «من يلقى الرياح بملتقى...» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.
(١١) في الأصل: «كنفًا ويلثمها المنى...» والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٢) في الأصل: «وتسغيها» والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٣) في الذيل والتكملة: «تعتاضها».
(١٤) في الأصل: «فغالت» والتصويب من الذيل والتكملة.

في دارِ خُلْدٍ لا يَشِيب وليدُها ... حيث الشّبابُ يَرِفُ في جَنّاتها
وتَسنّمَ[١] الرّضوانُ في أكنافها ... وتنسَّمَ[٢] الرّيحانُ من جَنَباتها
يا مُصْطَفاها يا[٣] مُرفَع قَدْرها ... يا كَهْفَها يا مُنتهى غاياتها[٤]
يا مُنتَقاها من أرُومةِ هاشم ... يا هاشِمَ الصُّلبان في نَزَاوتها
يا خاضِدًا للشِّرْك شَوْكَةَ حزبه ... يا يافعًا[٥] للعُرْب في جَمَراتها

قلت: نقل الشيخ[٦] أزيد من ذلك أو ضعفه أو نحوه. إلى أن قال: وهي طويلة، قلتُ: وثقيلةُ الرُّوح. ولقد صدق في قوله.

ومن شعره: [السريع]

يا بَدْرَ تِمٍّ طالعًا في الحَشا ... بَرَّح بي منك أوان المغيبْ
حظُّك من قلبي تعذيبُه ... وحظُّه منك الأسى والوجِيبْ
فمن يكن يُزهى بلبس المُنى ... فإن زَهْوي بلحاس النَّحيب
في ساعة قصر أنيابها ... غيبتُه لي وحضور الرقيب
لعلّ مَن باعد ما بيننا ... يُفَرِّج الكُرْبة عمّا قريبْ

وقال: [الكامل]

رشَوا[٧] القِبابَ بأدمع مَفْضُوضة ... ذوى للفراق وأكبُدٍ تَتَصرَّمُ
فللنَّفس في تلك الرُّبوع حبيبةٌ ... والقلب في إثْر الوداع مُقَسَّمُ
هل لي بهاتيك الظُّبا إلماعة؟ ... أم هل لذاك السِّرب شَمْلٌ يُنْظم؟
حَقًّا فقدتُ الذّات عند فراقهم ... فالشَّخص يُوجد والحقيقة تُعْدم

وفاته: توفي ببلده لثلاث بقين من رمضان ست وتسعين وخمسمائة[٨]. قال أبو القاسم المواعيني: عَثَر في مَشْيه فسقط، فكان سبب مَنِيَّته، ودخل غرناطة في غير ما وُجْهة منها، راويًا عن أبي القاسم بن الفرس، ومع ذلك فهو من أحوازها وبُنَيَّاتها.

---

(١) في الأصل: «وتنسّمُ» والتصويب من الذيل والتكملة.
(٢) في الأصل: «وشيمُ» والتصويب من الذيل والتكملة.
(٣) كلمة «يا» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الذيل والتكملة.
(٤) في الأصل: «بأكنفها... علياتها»، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٥) في الذيل والتكملة: «يا نابغًا».
(٦) هو الشيخ أبو الحسن الرعيني.
(٧) في الأصل: «رثوا» بالثاء.
(٨) في بغية الملتمس: توفي في سنة ٥٩٥ هـ. وولادته في المصادر: سنة ٥٢٩ هـ.

محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد ابن خاتمة الأنصاري[١]

من أهل ألمريّة، يكنى أبا عبد الله.

حاله: من كتاب الإكليل ما نصُّه[٢]: ممن ثَكَلَتْهُ اليراعة، وفَقَدَتْه البراعة، تأدّب بأخيه[٣]، وتهذّب، وأراه في النظم المَذهب، وكساه من التفهُّم والتعليم البُرْد[٤] المُذَهَّب، فاقتفى واقتدى، وراح في الحَلْبة واغتدى، حتى نَبلُ وشَدا، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى. وأما خطُّه فقيد الأبصار، وطُرْفة من طُرَف الأمصار، واعْتُبط[٥] يانع الشَّبيبة، مُخْضَرّ الكتيبة.

شعره: [البسيط]

كفُّوا الملام فلا أُصْغي إلى العَذَل ... عَقْلي وسَمْعي عن العُذّالِ في شغلِ

يقول في هذه القصيدة:

هَزْلُ المحبَّة جدٌّ والهوان هوًى ... والصَّبُّ يتْلف بين الجدّ والهزل
مَنْ مُسْعِدي وفؤادي لا يساعدني ... أو مَنْ شَفيعي وذلّي ليس يشفع لي
أعلِّل النَّفْس بالآمال أُطْمِعُها ... حتى وقَعْتُ من التَّعليل في عِلل
لئن كنت تَجهل ما في الحبّ من مِحَنٍ ... أنا الخبير فغيري اليوم لا تَسَلِ
أنا الذي قد حَلَبْتُ الحبَّ أشْطُرَه ... فلم يُفِدني لا حولي ولا حيلِ
لا أشرب الرّاح كي أخلُو براحتها ... لكن لأدفَع ما بالنَّفْس من كسلِ
ولا أجول بطَرْفي في الرياض سوى ... ذكْرِي لأيامنا في ظلّها الأول
أنا العَهْدُ مضى ما كان أعْذَبُه ... لم يبق لي غير آياتٍ من الخَبَل
كم فَدَيتُك يا قلبي وأنت على ... تلك الغِواية لم تَبْرَح ولم تزل
فاختَرْ لنفسك إما أن تُصاحبَني ... حُلْوًا وإلّا فَدَعْني منك وارتَحِل
فقد تبعتُك حتى سرْتُ من شَغَفي ... ولَوْعتي في الهوى أعجوبة المُثُل

---

(١) ترجمة ابن خاتمة الأنصاري في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٠١) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٤).
(٢) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥).
(٣) هو أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد، ويعرف أيضًا بابن خاتمة، المتوفى سنة ٧٧٠ هـ، وترجمته تقدمت في الجزء الأول، وله ديوان شعر مطبوع، حققه الدكتور محمد رضوان الداية.
(٤) في النفح: «الرداء».
(٥) اعتُبط: مات شابًا. لسان العرب (عبط).

ومن شعره[١]: [الرمل]

وَمَضَ البَرْقُ فثار القَلَقُ ... ومضى النَّومُ وحَلَّ الأَرَقُ
ويَنْعاني من غرامي قد شكا ... ودموعي من وُلوعي تَنْطقُ[٢]
ودليلي في غليلي زَفْرَتي ... وعذابي بانتِحابي أَصْدَقُ
وحَسُودي من وَقُودي رقَّ لي[٣] ... ضمّنا فيها الحمى والأبْرَقُ[٤]
وعَشِيّاتٍ تَقَضَّتْ باللّوى ... في مُحَيًّا[٥] الدهرِ منها رَوْنَقُ
إذ شبابي والتَّصابي جُمِعا ... ورياضُ الأُنْس غَضٌّ مُونَقُ[٦]
شتَّ[٧] يومُ البَيْنِ شملي ليت ما ... خُلِقَ البينُ لقلبٍ يعشق
آهِ من يومٍ قضى لي فُرْقةً ... شابَ منّي يومَ حَلَّتْ مَفْرِقُ

ومن ذلك: [الطويل]

أيا جيرةَ الحيِّ المُمَنَّع جارُهُ ... سقى ريقُكُمْ دَمْعي إذا بَخُلَ الوَبْلُ
متى غِبْتُمُ عنّي فأنتمْ بخاطري ... وإن تقصدوا ذُلّي فقد لَذَّني الذُّلُّ
عذابُكُمُ قُرْبٌ وبُخْلُكُمُ ندى ... وإذلالُكُمْ عزٌّ وهُجْرانُكُمْ وَصْلُ
وأنتمْ نَعيمي لا نَعِمْتُ بغيركُمْ ... ورَوْضيَ لا ماءٌ[٨] أريد ولا ظِلُّ

ومن ظريف نزعاته قوله[٩]: [البسيط]

الرَّفْعُ نَعْتُكُمُ لا خانكمْ[١٠] أملُ ... والخَفْضُ شيمةُ شأني[١١] والهوى دُوَلُ
هل منكُمُ لي عطفٌ بَعْدَ بُعْدِكُمُ؟ ... إذ ليس لي منكُمُ يا سادتي بَدَلُ

---

(١) ورد منها ستة أبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٥).
(٢) هذا البيت والذي يليه لم يردا في نفح الطيب.
(٣) رواية صدر البيت في النفح هي: مذ تَذَكَّرْتُ لأيام خَلَتْ.
(٤) في الأصل: «والأيفق»، والتصويب من النفح. و«الأبرق»: غِلَظٌ فيه حجارة ورملٌ وطين مختلطة، والجمع أبارِق. محيط المحيط (برق).
(٥) في الأصل: «مخيّلى» وكذا ينكسر الوزن والتصويب من النفح.
(٦) في النفح: «مُورق». (٧) شَتَّ: فرّق. لسان العرب (شتت).
(٨) في الأصل: «ما» وكذا ينكسر الوزن.
(٩) البيتان في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٠١) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٣٦٥).
(١٠) في الأصل: «خابكم» والتصويب من النفح. (١١) في النفح: «مثلي».

وفاته: اعتُبط في الطاعون في أوائل ربيع الأول عام خمسين وسبعمائة. وَرَدَ إلى الحضرة غير ما مرة.

محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قُزْمان الزُّهْري[١]

من أهل قرطبة، يكنى أبا بكر.

حاله: نسيجُ وَحْده أدبًا وظرفًا ولَوْذَعِيَّةً وشهرة. قال ابن عبد الملك: كان أديبًا بارعًا، محسنًا، شاعرًا حُلو الكلام، مليح التَّنْدير، مبرِّزًا في نظم الطريقة الهزلية، بلسان عوام الأندلس، الملقب بالزَّجَل. قلتُ[٢]: وهذه الطريقة بديعةٌ يتحكَّم فيها ألقاب البديع، وتَنْفَسِح لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر. وبلغ فيها أبو بكر مَبْلَغًا حَجَرَهُ الله عن سواه؛ فهو آيتُها المعجزة، وحجَّتها البالغة، وفارسها العَلَم، والمُبْتَدَى فيها والمُتَمِّم، رحمه الله. وقال الْفَتْح فيه[٣]: «مبرِّزٌ في البيان، ومُحرزٌ السَّبق[٤] عند تسابق الأعيان، اشتمل عليه المتوكل[٥] على الله اشتمالًا رقَّاه[٦] إلى مجالس، وكساه ملابس، واقتطع[٧] أسمى الرُّتَب وتبوّأها، ونال أسنى الخُطط[٨] وما تمالأها».

شعره: قال الفَتْحُ[٩]: وقد أثبت له ما يُعلم[١٠] به رفيع قدره، ويُعرف كيف أساء الزمن[١١] بغدره، قوله[١٢]: [الكامل]

رِكِبوا السيولَ من الخيول وركَّبوا فوق العَوالي السُّمْرِ زُرْقَ نِطافِ[١٣]

---

(١) ترجمة ابن قزمان في المغرب (ج ١ ص ١٠٠) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٩٥) ورايات المبرزين (ص ١٢٦) والوافي بالوفيات (ج ١ ص ٥٤) ونفح الطيب (ج ٥ ص ١٧٢) و(ج ٦ ص ٧٠) و(ج ٩ ص ٢٤١).

(٢) القول لابن الخطيب معلقًا على قول ابن عبد الملك المراكشي.

(٣) يخلط ابن الخطيب هنا بين المترجم له وبين عمّه أبي بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان القرطبي، المتوفى سنة ٥٠٨ هـ. وقول الفتح بن خاقان في قلائد العقيان (ص ١٨٦).

(٤) في القلائد: «الخصل».

(٥) هو المتوكل بن الأفطس، صاحب بطليوس، في عصر ملوك الطوائف، وقد قتله المرابطون سنة ٤٨٨ هـ.

(٦) في القلائد: «أرقاه».

(٧) في المصدر نفسه: «فاقتطع».

(٨) في المصدر نفسه: «الحظوظ».

(٩) قلائد العقيان (ص ١٨٦).

(١٠) في القلائد: «ما تعلم به حقيقة قدره، وتعرف...».

(١١) في المصدر نفسه: «الزمان».

(١٢) في المصدر نفسه: «فمن ذلك قوله» والبيتان في المغرب (ج ١ ص ١٠٠) منسوبين إلى أبي بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان، عمّ المترجم له.

(١٣) في الأصل: «قِطاف» والتصويب من القلائد والمغرب.

وتـجـلّلوا الـغُـذْرانَ مـن مـاذيِّـهِـمْ ... مُـرْتَـجَّـةً إلّا عـلـى الأكـتـافِ

وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبي الخصال[1] يستدعيه إلى مجلس أُنس: [البسيط]

إنـي أهـزُّك هـزَّ الـصَّـارم الـخَـذِم ... وبـيـنـنـا كـلُّ مـا تَـذْريـه مـن ذِمَـمِ

ذا شاكَ[2] من قَطْع أُنسٍ أنتَ واصلُه ... بـمـا لـديـك مـن الآداب والـحِكَـم

وشـتَّ شـمـلُ كِـرامٍ أنـت نـاظـمُـه ... ورَدَّ دعـوة أهـل الـمـجـد والـكـرم

ولـو دُعـيت إلـى أمـثـالـهـا لـسَـعتْ ... إلـيـك سَـعْـيَ مَـشُـوقٍ هـائـم قَـدِم

وإن نشطْتَ لتصريفي صرفْتُ له ... وجهي وكنتُ من الأعوان والخَدَم

ومـا أريـد سـوى عـفـوٍ تـجـود بـه ... وفي حديثك ما يُشْفى من الألَم

أنـت الـمُـقَـدَّم فـي فـخـرٍ وفـي أدب ... فاطلَعْ علينا طلوع السيِّد العَمِم

فأجابه رحمه الله: [البسيط]

أتـى مـن الـمـجـد أمرٌ لا مَـرَدَّ لـه ... نَمْشي على الرأس فيه لا على القَدَم

لَبَّـيـك لـبّـيـك أضـعـافًـا مُـضـاعـفـة ... إنـي أَجَبْـتُ ولـكـنَّ داعـي الـكَـرَم

لـي هـمَّـةٌ ولأهـل الـعِزِّ مَـطْـمَـحُـهـا ... لا زلتَ في كلِّ مَجْد مطمح الهمم

وإنَّ حَـقَّـك مـعـروف ومـلـتَـزم ... وكيف يُوجد عندي غيرُ مُلتَزِم؟

زَفْنٌ[3] وَرقْصٌ وما أحببْتَ من مُلح ... عندي وأكثر ما تَذْريه من شِيَم

حتى يكون كلامُ الحاضرين بها ... عند الصَّباح وما بالعهد من قِدَم

يا ليلة السَّفح هلَّا عُدْتِ ثانية ... سـقـى زمـانـك هـطَّالٌ مـن الـدِّيَـم

وقال في غرض النَّسيب[4]: [السريع]

يـا رُبَّ يـومٍ زارنـي[5] فـيـه مَـنْ ... أَطْـلَـعَ مـن غُـرَّتِـهِ[6] كـوكـبـا

ذو شَـفَـةٍ لَـمْـيـاءَ مـعـسـولـةٍ ... يَـنْـشَـعُ مِـنْ خـدَّيـه مـاءُ الـصِّـبـا

---

(١) تقدمت ترجمة ابن أبي الخصال في هذا الجزء من الإحاطة.

(٢) في الأصل: «ذاك شاكٍ» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) الزَّفْن: الرقص. لسان العرب (زفن).

(٤) الأبيات في المقتضب (ص ٩٥) ونفح الطيب (ج ٥ ص ١٧٢).

(٥) في الأصل: «زادني» والتصويب من المصدرين.

(٦) في الأصل: «غَرْبه» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

قُلْتُ له هَبْ[١] لي بها قُبْلَةً فقال لي مُبتسمًا: مَرْحَبا
فذقْتُ شيئًا لم أذُقْ مثله لله ما أحلى وما أعذبا
أسْعَدني الله بإسعاده يا شِقْوَتي[٢] يا شِقْوتي لو أبى

وقال: [المنسرح]

جئْتُ لتوديعه وقد ذَرَفَتْ عيناي من حَسْرَةٍ وعيناهُ
في موكبِ البَيْن باكِيَيْنِ[٣] ولا أصْعَبَ مِنْ موقفٍ وقفْناه
معانقًا جِيدَه على حذر فمن رآني مُقَبِّلًا فاه
نَغَّصَ توديعه لعاشقه ما كان من قَبْلُ قد تمنّاه

وقال يعتذر ارتجالًا وأحسن ما أراد[٤]: [البسيط]

يا أهل ذا المجلس السّامي سَراوتُه[٥] ما مِلْتُ لكنني مالتْ بيَ الرّاحُ
وإن[٦] أكنْ مُطْفِئًا[٧] مِصْباحَ بيتِكُمُ فكلُّ من فيكُمُ[٨] في البيت مصباحُ

وقال يُهنّيء بعرس: [الكامل]

صَرَفَتْ إليك وجوهَها الأفراحُ وتكنَّفَتْكَ سعادةٌ ونجاحُ
فاقْضِ المآرب في زمانٍ صالح لا سُدَّ عنك من الزّمان صلاحُ
إن كان كالشمس المنيرة حُسْنها فالبَدْرُ أنتَ وما عليك جُناحُ
لا فرق بينكما لرأيٍ فاستوى زيُّ النساء قلادةٌ ووشاح
هل يُوقد المصباح عندكما مُهَجًا وكلاكما بِبَهائه مِصْباح؟
أحْرَزْتَ يا عبد العزيز محاسنا كثُرَتْ فلم تَسْتَوْفِها الأمداح
يا من له كفٌّ تجود وأضلعٌ مَطْوِي على حِفظ الوداد سجاح[٩]

---

(١) في الأصل: «وهَبْ» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(٢) الشِّقْوة: الشقاء. لسان العرب (شقا).
(٣) في الأصل: «باكين» بياء واحدة، وكذا ينكسر الوزن.
(٤) البيتان في المغرب (ج ١ ص ١٠٠) وجاء فيه أنه قالهما وقد رقص في مجلس شرب، فأطفأ السراج بأكمامه.
(٥) في المغرب: «سرارته». (٦) في المغرب: «فإنْ».
(٧) في الأصل: «مطعنًا» والتصويب من المغرب.
(٨) في المغرب: «فكل من قد حواه البيت. . .».
(٩) في الأصل: «شجاح» بالشين المعجمة. والسّجاح: الذي يحسن العفو. لسان العرب (سجح).

ما أَلقَتْ الحاجات دوني قُفْلها ... إلّا ويمن يمينك المِفْتاح
في كل ما تنحو إليه ملاحةٌ ... وكذاك أفعال المَليح مِلاح

ومن حكمه قوله[1]: [الوافر]

كثيرُ المال تَبْذُلُه فيبقى ... ولا[2] يبقى مع البُخل القليلُ
ومن غَرَسَتْ يداه ثِمارَ جُودٍ ... ففي ظلّ الثناء له مَقِيلُ

وقال رحمه الله[3]: [الوافر]

وعهدي بالشَّباب وحُسْن قدِّي ... حكى أَلِفَ ابْنِ مُقْلَةَ في الكتابِ[4]
فصِرْتُ اليوم مُنْحَنيًا كأني ... أُفَتِّشُ في التُّراب على الشباب[5]

وقال رحمه الله[6]: [الرمل]

يُمسك الفارسُ رُمْحًا بيدٍ[7] ... وأنا أُمسِكُ فيها قَصَبةْ
وكلانا[8] بطلٌ في حَرْبه ... إنْ الأقلام رِماحُ الكَتَبَةْ

قال ابن عبد الملك: أنشدت على شيخنا أبي الحسن الرُّعيني، قال: أخبرنا الراوية أبو القاسم بن الطَّيْلسان، قال: سألته، يعني أبا القاسم أحمد بن أبي بكر هذا، أن ينشد شيئًا من شعر أبيه المُغْرب، فأخرج لي قطعة بخط أبيه وأنشده. وقال: أنشدني أبي رحمه الله لنفسه: [المنسرح]

أحْسَنُ ما نِيط في الدُّعاءِ[9] لمن ... رُتِّب في خُطَّةٍ من الخُططِ
خَلَّصَكَ اللهُ من عَوائقها ... ودُمْتَ في عِصْمة من الغلطِ
مُقَرَّبًا منك ما تُسَرُّ به ... وكل مكروهةٍ على شَحَطِ
الكلُّ بالعدل منك مُغْتبط ... وليس في الناس غيرُ مُغْتبط
وليس يخليك من أنا لَكَها ... من عملٍ بالنّجاة مُرْتبط

---

(١) البيتان في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٩٥) ونفح الطيب (ج ٦ ص ٧١).
(٢) في المقتضب: «وقد يبقى من الذكر القليل».
(٣) البيتان في المقتضب من كتاب تحفة النادم (ص ٩٥ ـ ٩٦) ونفح الطيب (ج ٥ ص ١٧٢).
(٤) هو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ، يضرب به المثل بحسن خطّه. وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٣٥٤، ٣٥٧).
(٥) في المصدرين: «على شبابي».
(٦) البيتان في المقتضب (ص ٩٦).
(٧) كلمة «بيد» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المقتضب.
(٨) في المقتضب: «فكلانا».
(٩) في الأصل: «الدعا» وكذا ينكسر الوزن.

فـانـفِـذْ بـعـونِ اللهِ[١] مُـجْـتـهـدًا ... بقلبِ صافي الضميرِ[٢] مرتبطِ
يـا صـاحـب الأمـر والـذي يَـدُه ... نـائـلُهـا لـلعُـفـاة غـيـر بَـطـي[٣]
رفَـعْـتُـمُ يـا بـنـي رَفـاعـةَ مـا ... كـان مـن الـمـعـلوات فـي هَـبَـط
ومِـنْـبـر الـحـق مـن سـواه بـكـمْ ... فـهـا هـو الآن غـيـرُ مُـخْـتـلـط
وانْـضَـبـط الأمـرُ واسـتـقـام لـكُـمْ ... ولـم يـكـن[٤] قَـبْـلَ ذا بـمُـنْـضَـبِـط
أتَـيْـتَ فـي كـل مـا أتـيـتَ بـه ... فـالـغيثُ بـعد الـرجاءِ[٥] والـقَـنَـط
جَـلَلْت عـمّـن سِـواك مـنـزلـةً ... فـلـسـتَ مِـمّـن سِـواك فـي نـمَـط
أنـت مـن الـمـجـد والـعُـلا طـرفٌ ... وكـلُّهُـمْ فـي الـعُـلا مـن الـوَسَـط

كتابته: وقفتُ من ذلك على أفانين. منها في استهلال شهر رمضان قوله:

سلام على أُنس المجتهدين، وراحة المُتَهَجِّدين، وقرّة أعين المهتدين، والذي زيَّن الله به الدُّنيا وأعزّ به الدين. شرَّف الله به الإسلام، وجعل أيامه رُقومًا في عواتق الأيام، وشهوره غُرَرًا في جِباه الأعلام، وحلّ به عن رقاب الأمة قَلائد الآثام، ونزَّه فيه الأسماع عن المكاره وصان الأفواه من رَفَثِ الكلام. أشهد أن الله أثْنى عليك، وأدخل مَن شاء الجنَّة على يديك، وخصَّك من الفضائل بما يمشي فيه التَّفسير حتى يَكلّ، ويَسْأم ذلك اللسان ويملُّ، وأبادت ذنوب الأمة بمثل ما أبادت الشمس الظِّلّ، ذلك الذي يتهلل للسماء هلاله، ويهتزُّ العرش لجلاله، وترتج الملائكة في حين إقباله، وتدخل الحُور العين في زينتها تكريمًا، وتلتزم إجْلالَه وتعظيمًا، ويهتدي فيه الناس إلى دينهم صراطًا مستقيمًا، وتُغَلُّ الشياطين على ما خُيِّلت، وتذوق وبال ما كادت به وتخيَّلت، ويشمِّر التَّقيُّ لعبادة ربِّه ذيلًا، وتهبط الملائكة إلى سماء الدنيا ليلًا، وينتظم المُتَّقون في ديوانه انتظام السِّلك، ويكون خُلُوف فَم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك، وتفتح الجنَّة أبوابًا، ويُغفر لمن صامه إيمانًا واحتسابًا، جزاءً من ربك عطاءً حسابًا، وبما فضَّلك الله على سائر الشهور، وقضى لك بالشَّرف والفضل المشهور. فَرَضَك في كتابه، ومدحك في خطابه، حيث قال: شهرُ رمضان الذي أُنزل فيه القرآن، هُدًى للناس وبيِّنات من الهدى والفُرقان، يعني تكبير الناس

(١) في الأصل: «الله» وكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «صفيّ بالضمير» وكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «بط».
(٤) في الأصل: «ولم يكن من قبل...»، وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا كلمة «من».
(٥) في الأصل: «الرجا» وكذا ينكسر الوزن.

عليك، وتقليب أحداقهم بالنظر إليك، حين لُثِمت بالسحاب، ونظرت من تحت ذلك النِّقاب، وقد يمتاز الشَّيْب وإن استتر بالخِضاب، حتى إذا وقف الأئمَّة منك على الصَّحيح، وصرَّحوا برؤيتك كلَّ التصريح، نَظَرت كل جماعة في اجتماعها، وتأهَّبت القرَّاء لإشفاعها، واندفعت الأصوات باختلاف أنواعها، وتضرعت الألباب، وطلبت المواقف أواخر الأعشار والأحزاب، وابتدئت آلْـم ذلك الكتاب، عندما أوقدت قناديل كأنما قد بَدَت من الصباح، ورقصت رقص النواهد عند هبوب الرياح، والله نُور السمٰوات والأرض مَثلُ نوره كمِشكاة فيها مصباح، فأمّلَك المسلمون في سرٍّ وجهر، وحُطَّت أثقال السيئات عن كل ظَهْر، والتُمست الليلةُ التي هي خيرٌ من ألف شهر، فنشط الصالحون بك صومًا، وهجر المُتهجِّدون في ليلك نومًا، وأكْمَلْنَاك إن أذن الله ثلاثين يومًا. فيا أيها الذي رَحَل، رحل بعد مُقامه، وقام للسَّفر من مقامه، ورأى مَن قضى حقَّه ومَن قصَّر في صيامه، فمشى الناس إلى تَشْييعه، وبَكَوا لفراقه وتوديعه، ونَدِم المُضَيِّع على ما كان من تَضْييعه، ولم يثق بدوام العيش إلى وقت رجوعه، فعضَّ على كفِّه ندمًا، وبكَتْ عينه ماء وكَبِده دمًا. رويدًا حتى أمرح في ميدان فِراقك، وأتضرّع إلى حَنانك وإشفاقك، وأتشفى من تَقْبيلك وعناقك، وأسألُ منك حاجةً إن أراد الله قضاءها، وشاء نفوذها وإمضاءها، إذا أنت وَقَفْت لربِّ العالمين، فَقَبِلك من قوم وردَّك في وجوه آخرين. إن تُثني جميلًا، فعسى يصفح لعهده وإن أساء، فعَلِم الله أني نويت التوبة أولًا وآخرًا، وأملْت الأداء باطنًا وظاهرًا، وكنتَ على ذلك لو هَدى الله قادرًا، وإنما عُلِم، من تقصير الإنسان ما عُلِم، وللمرء ما قُضي عليه به وحُكم، وإن النفس لأمّارةٌ بالسُّوء إلّا من رَحم، فإنْ غَفر فبطَوْله وإحسانه، وإن عاقب فيما قدَّمت يدُ العبد من عصيانه، فيا وَحْشَة لهذه الفرقة، ويا أسفًا على بعد الشُّقة، ويا شدَّ ما خلَّفْتَه لنا بفراقك من الجَهْد والمشقة، ولطالما هَجَر الإنسان بك ذنبه، وراقب إعظامًا لكربه، وشَرَحْتَ إلى أعمال البرِّ قلبه. ومع هذا أتراك ترجع وترى، أم تُضَمُّ علينا دونك أطباق الثَّرى؟ فيا وَيْلتا إن حلَّ الأجل، ولم أقضِ دَيْنك، ورجَعْت وقد حال الموت بيني وبينك، فأغرب، لا جعله الله آخر التوديع، وأيُّ قلب يستطيع.

وقال في استهلال شوال:

ولكل مقام مقال. الله أكبر هذا هلالُ شوّال قد طَلَع، وكرَّ في منازله وقَطَع، وغاب أحد عشر شهرًا ثم رَجَع. ما لي أراه رقيق الاستهلال، خفيّ الهلال، وروحًا تردّد في مثل انملال؟ ما باله أمسى الله رسْمَه، وصحَّح جسمه، ورفع في شهور العام اسمه؟ على وجهه صُفرةٌ بَيِّنة، ونار إشراقِه ليِّنة، وأرى السحاب تعتمده وتَقِف،

وتغشاه سُوَيْعة وتنصرف، ما أراه إلّا بِطُول ذلك المقام، وتوالي الأهوال العِظام، أصابه مرض في فصْلٍ من فصول العام، فعادته كما يُعاد المريض، وبَكَتْه الأيام الغُرُّ والليالي البِيض، وقُلْنَ: كلأَكَ الله وكفاك، وحاطك وشفاك، وقُلْ: كيف نجدك لا فضَّ فاك، هذا على الظّن لا على التحقيق، ومجازٌ لا يحْكمُ التَّصديق. ولَيَبْعُدُ مثل هذا المقدار، أن يَقْدح فيه طول الغَيْب وتواتُر الأسفار. أليس هو قد أَلِفَ مجالي الرِّياح، وصَحِب بَرْد الصَّباح، وشاهد الأهْوِية مع الغَدْو والرَّواح، وطواها بتجربته طيَّ الوِشاح؟ ما ذاك إلّا أنّه رأى الشمس في بعض الأيام ماشية، والحُسْن يأخذ منها وسَطًا وحاشية، ودلائل شبابها ظاهرةٌ فاشية، فوقع منها في نفسه ما وقع، وثَبَت على قلبه من النَّظر ما زرع، ووقع في شَرَكها وحقٌّ له أن يقع. فرَثَتْ هي لحاله وأشفقت، ونَهَجت بوصالها وتأنّقت، وقطعت من معدن نَيْلها وأنفقت، ورأت أنها له شاكلةٌ يبلغ أمَلَها، وتبلغ مَأْمَله، ولذلك ما مدَّت لذيذ السَّماح، فتعرَّضت بالعشِيّ وارتصدها في الصباح، مع ما أيقنّا به من الانقطاع، ويمسُّنا من الاجتماع، كما نَفِد القَدَر، وصدر الخبر، وقال: تعلن لا الشمس ينبغي لها أن تُدْرِك القمر، فوَجَد لذلك وجْدًا شديدًا، وأذاقه مع الساعات شوقًا جديدًا، وأصبح بها دنفًا، وأمسى عميدًا، حتى سَلَب ذلك بَهاه، وأذهب سَناه، وردّه النحول كما شاه، ولقي منها مثل ما لقي غَيْلانُ من ميّته، وجميلٌ من بُثَينته، وحنّ إليها حنين عُروة إلى عَفْراء، وموعدهما يوم وهَب ناقته الصَّفراء. على رِسْلك أني وَهَمت، وحَسِبت ذلك حقًّا وتوهَّمت، والآن وقد فَطِنت، وأصبت الفَصَّ فيما ظننت، إنه لقي رمضان في إقباله، وضَمَّه نُقْصان هلاله، وصامه فجأة ولم يَكُ في باله، فأثّر ذلك في وجهه الطَّلْق، وأضعفه كما فعل بسائر الخَلْق، وها هو قد أقبل من سفره البعيد، فَقُل هو هلال الفِطْر أو قُلْ هو هلال العيد، فَلَقه صباح مَشى الناس فيه مَشْي الحبَاب، ولبسوا أفضل الثياب، وبرزوا إلى مُصَلّاهم من كل باب، فارتفعت هِمَّةُ الإسلام، وشرُفَت أمة محمد عليه السلام، وخَطَب بالناس ودعا للإمام، عندما طلعت الشمس بوجه كدْوَرِ المرآة، ولونٍ كصفا المهراة، وخرج لا يُنْسيها ريمُ الفلاة. وقضوا السُّنَّة، وبذلوا الجهد في ذلك والمِنَّة، وسألوا من الله أن يُدْخِلهم الجنَّة، ثم خطبوا حمدًا لله وشكرًا، وذكروه كذكرهم آباءهم أو أشدُّ ذكرًا، ثم انصرفوا راشدين، وافترقوا حامدين، وشَبَك الشيخ بيديه، ونظر الشّاب في كفّيه، ورجعوا على غير الطريق الذي أتوا عليه، فلقد استَشْفَى من الرُّؤية ذو عينين، وتذكّر العاشق موقف البَيْن، وشقَّ المُتَنَزِّه بين الصَّفين، فنقل عينيه من الوَشْي إلى الدِّيباج، ووجوهٌ كضوء السِّراج، وعيونٌ أقْتَل من سيف الحجّاج، ونظراتٍ لا يُدفع داؤها بالعلاج، وقد زُيِّنت العيون بالتكحيل، والشعور بالتَّرجيل، وكُرِّر السِّواك على مواضع التَّقْبيل، وطُوِّقت الأعناق بالعقود، وضُرب الفِكر في صفحات الخدُود، ومُدَّ بالغالية

على مواضع السجود، وأقبلت صَنْعاء بأوْشِيتها، وعنت بأرديتها، ودخلت العروس في حِلْيَتها، ورُقِمَت الكفوف بالحنّاء، وأُثني على الحُسْن وهو أحقُّ بالثناء، وطُلِّقت التَّوبة ثلاثًا بعد البناء، وغصَّ الذِّراع بالسِّوار، وتُختِّم في اليمين واليسار، وأُمسكت الثياب بأيدي الأبكار، ومشت الإماء أمام الأحرار، وتقدمت الدَّايات بالأطفال الصِّغار، وامتلأت الدُّنيا سرورًا[1]، وانقلب الكلُّ إلى أهله مسرورًا. وبينما كانت الحال كما نَصَصْت، والحكاية كما قَصَصْت، إذ تلألأت الدنيا بَرْقًا، وامتدَّ مع الأُفُقين غربًا وشرقًا، ورَدَّ لمعانه عيون الناظرين زُرْقًا، ولولا أنه جرّب حتى يذرى، لقيل قد طلعت مع الشمس شمسٌ أخرى، حتى أقبل من شَرُفَت العربُ بنسبه، وفَخَر الإسلام بسببه، مَن انتَسَب إلى زَهْرَةٍ وقُصَيّ، وازدانت به آل غالب وآل لُؤي، مَن إذا ذُكر المجد فهو مُمْسك بعده، أو الفضل فهو لابسٌ بُرْدَه، أو الفخر فهو واسِطَةُ عِقْده، أو الحُسْن فهو نسيج وحده، الذي رفع لواء العليا، وعارضت مكارمه صوب الحيا، وحَكَت محاسنه زهرة الحياة الدنيا. فأما وجهُه فكما شَرَقت الشمس وأشْرَقت، وغَرُبت كواكب سمائها وشَرُقت، وتفتَّحت أطواق الليل عن غُرر مجده وتشقَّقت. ولولا حيًا يغلب عليه، وخَفَرٌ يصحبه إذا نظرت إليه، لاستحال النهار، وغارت لنوره كواكب الأسحار، ولكاد سَنا بَرْقه يذهب بالأبصار، لا يحفل بالصبح إذا انْفَلَق، ولا بالفجر إذا عمَّ آفاق الدُّجا وطبَّق، ولو بدا للمسافر في ليله لطَرَق، وقد عجم الأبنوس على العاج، وأدار جَفْنًا كما عَطَف على أطفالها النِّعاج، يَضْرب بها ضرب السيف، ويُلِمّ بالفؤاد إلمام الطَّيف، ويتلقَّاها السَّحَر تلقِّي الكريم للضيف. لو جرَّدها على الرِّئم لوقف، أو على فِرْعون ما صرف من سِحْره ما صرف، أو على بِسْطام ابن قَيْس لألقى سِلاحه وانصرف. وأما أدواته فكما انشقَّت الأرض عن نباتها، وأخذت زُخْرُفها في إنباتها، ونَفَح عَرف النَّسيم في جَنَباتها، يتفنَّن أفانين الزهر، ويتقلب تقلّب الدهر، وتطلعُ له نوادر كالنجوم الزهر، لو أبصره مُطَرِّف ما شهر بخطِّه، ولا جرَّ من العُجْبِ ذيل مِرْطِه، ولا كان المخبر معه من شَرْطه. وأما أنه لو قُرِىء على سحبان كتابَه، وانحدر على نهره عُبابه، وملأت مسامعه أطنابه وأسبابه، ما قام في بيانه ولا قَعد، ولنزل عن مَقامه الذي إليه صَعد، ولا خَلَّف من بلاغته ما وعد. لَعمْرُك ما كان بِشْر بن المعتمر يتفنَّن للبلاغة فنونًا، ولا يتقبَّلُها بطونًا ومُتونًا، ولا أبو العتاهية ليُشْرِطَها كلامًا موزونًا، ولا نمَّق الحَسَنُ بن سهل الألفاظ، ولا رَفَع قسُّ بن ساعدة صوتَه بعُكاظ، ولا أغاظ زيدُ بن علي هشامًا بما أغاظ، وأما مكارمه

---

(١) في الأصل: «سررًا».

فكما انْسَكب الغيث عن ظِلاله، وخرج الوَدْقُ من غِلاله، فتدارك النِّعمة عن فوتها، وأحيا الأرض بعد مَوْتها، ذلك الشريف الأجلُّ، الوزير الأفضل، أبو طالب ابن القُرشي الزُّهري، أدام الله اعتزازه، كما رَقَم في حُلَل الفخر طِرازه، فاجتمعت به السيادة بعد افتراقها، وأشرق وجه الأرض لإشراقها، والتفَّت الثياب بالثياب، وضُمَّ الرِّكاب بالرِّكاب، ولا عهدٌ كأيام الشباب، فوصل القريب البعيد، وهنّوه كما جرت العادة بالعيد، فوقف مع رِكابه وسَلّمت، وجرت كلامًا وبه تكَلّمت، فقلت: تقبَّل الله سعيك، وزكّى عملك، وبلّغك فيما تودّه أمَلَك، ولا تأمّلْتَ وجهًا من السُّرور إلّا تأمّلَك، ونَفَعك بما أوليت، وأجزل حظّك على ما صُمْت وصَلّيت، ووافَقَتْك لعلَّ وساعدتك لَيْت، وهنّاك عيد الفطر وهنّأته، وبدأك بالمسرات وبدأته، وتبرّأ لك الدهر مما تحسد وبرّأته. وهكذا بحول الله أعيادٌ واعتياد، وعمرٌ في دوام وعزٌّ في ازدياد، والسُّنّة تفصح بفضلك إفصاح الخطباء من إياد، وأقرأ عليك سلام الله ما أشرق الضُّحى، ودام الفِطْر والأضحى.

دخوله غرناطة: دخل غرناطة، وتردّد إليها غير ما مرة، وأقام بها، وامتدح ابن أضحى(١) وابن هاني، وابن سعيد وغيرهم من أهلها. قال ابن سعيد في «طالعه»: وقد وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة، واجتماعه بجنّته بقرية الزاوية من خارجها، بَنزْهون القليعية الأديبة، وما جرى بينهما، وأنها قالت له بعقب ارتجال بديع، وكان لبس غِفارة صفراء: أحسنت يا بقرة بني إسرائيل، إلّا أنّك لا تَسُرُّ النّاظرين، فقال لها: إن لم أسُرّ الناظرين، فأنا أسُرّ السامعين، وإنما يُطلب سرور الناظرين منك، يا فاعلة يا صانعة. وتمكّن السُّكر من ابن قزمان، وآل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى رموه في البركة، فما خرج منها إلّا وثيابه تقطر، وقد شرب كثيرًا من الماء، فقال: اسمعْ يا وزير ثم أنشد(٢): [السريع]

إيـهِ أبـا بـكـر ولا حَـوْلَ لـي ... بِـدَفْـعِ أغـيـانٍ وأَنْـذالِ
وذات فَـرْجٍ(٣) واسـعٍ دافـقٍ ... بـالـمـاء يـحـكـي حـالَ أذيـالي(٤)
غـرَّقـتـنـي فـي الـمـاء يـا سـيـدي ... كَـفِّـرْه بـالـتـغـريـق فـي الـمـال

---

(١) هو الوزير أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى، من بيت عظيم بغرناطة، ثار بها ودعا لنفسه بعد مقتل تاشفين بن يوسف بن تاشفين المرابطي سنة ٥٣٩ هـ. توفي سنة ٥٤٠ هـ. وقد تقدم التعريف به في الجزء الأول من الإحاطة في ترجمة أبي بكر المخزومي الأعمى. وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

(٢) الأبيات في نفح الطيب (ج ٦ ص ٧١). (٣) في الأصل: «جرح» والتصويب من النفح.

(٤) في الأصل: «أذيال» والتصويب من النفح.

فأمر بتجريده، وخلع عليه ما يليقِ به، ولم يمرَّ لهم بعد عهدهم بمثله.

ولم ينتقل ابن قزمان من غرناطة، إلّا بعد ما أجزل له من الإحسان، ومدحه بما هو في ديوان أزجاله.

مِحنته: جَرَت عليه بابن حَمْدين[١] محنة كبيرة عظُم لها نكاله، بسبب شَكاسَةِ أخلاق كان موصوفًا بها، وحدَّةٍ شَقِي بسببها. وقد ألمّ الفتح في قلائده بذلك، واختلّت حاله بآخرة، واحتاج بعد انفصال أمر مخدومه الذي نَوّه به.

وفاته: توفي بقرطبة لليلة بقيت من رمضان سنة خمس وخمسين وخمسمائة، والأمير ابن سعد يحاصر قرطبة رحمه الله.

محمد بن غالب الرُّصافي[٢]

يكنى أبا عبد الله، بلنسي الأصل، سكن غرناطة مدة، ثم مالقة.

حاله: قال الأستاذ[٣]: كان فحلًا من فحول الشعراء، ورئيسًا في الأدباء، عفيفًا، ساكنًا، وقورًا، ذا سَمْت وعقل. وقال القاضي[٤]: كان شاعرًا مُجيدًا، رقيق الغزل، سَلِس الطبع، بارع التَّشبيهات، بديع الاستعارات، نبيل المقاصد والأغراض، كاتبًا بليغًا، ديِّنًا، وقورًا، عفيفًا، متفقهًا، عالي الهمة، حسن الخَلْق والخُلق والسَّمت، تام العقل، مُقْبلًا على ما يعنيه من التَّعيش بصناعة الرَّفي التي كان يعالجها بيده، لم يَبْتَذل نفسه في خدمة، ولا تعرض لانتجاع بقافيةٍ، خلا وقت سُكناه بغرناطة، فإنه امتدح واليها حينئذٍ، ثم نَزَع عن ذلك، راضيًا بالخُمول حالًا، والقناعة مالًا، على شدَّه الرغبة فيه، واغتنام ما يصدر عنه.

أخبار عقله وسكونه: قال الفقيه أبو الحسن شاكر بن الفخّار المالقي، وكان خبيرًا بأحواله: ما رأيت عمري رجلًا أحسن سَمْتًا، وأطول صَمْتًا، من أبي عبد الله الرصافي. وقال غيره من أصحابه: كان رفّاء، فما سمع له أحد من جيرانه كلمة في أحد. وقال أبو عمرو بن سالم: كان صاحبًا لأبي، ولقيته غير ما مرة، وكان له

---

(١) هو أبو جعفر بن حمدين، قاضي قرطبة، الذي ثار بها في رمضان من العام ٥٣٩ هـ. وتمّ له الأمر إلى أن ثار عليه ابن غانية في شعبان من عام ٥٤٠ هـ. راجع الجزء الرابع من الإحاطة في ترجمة يحيى بن علي بن غانية.

(٢) ترجمة ابن غالب الرصافي في مقدمة ديوانه بقلم محققه الدكتور إحسان عباس، وفيها ثبت بأسماء المصادر التي ترجمت له.

(٣) المراد بالأستاذ أبا جعفر ابن الزبير صاحب كتاب: صلة الصلة.

(٤) المراد بالقاضي: ابن عبد الملك المراكشي صاحب كتاب: الذيل والتكملة.

موضع يخرج إليه في فصل العصير، فكنت أجتاز عليه مع أبي فألثم يده، فربما قبّل رأسي، ودعا لي، وكان أبي يسأله الدعاء فيخجل، ويقول: أنا والله أصغر من ذلك. قال: وكان بإزائه أبو جعفر البَلَنسي، وكان مُتوقِّد الخاطر، فربما تكلم مع أحد التجار، فكان منه هفوة، فيقول له جلساؤه: شتّان والله بينك وبين أبي عبيد الله في العقل والصمت، فربما طالبه بأشياء ليجاوبه عليها، فما يزيد على التبسم. فلما كان أحد الأيام، جاء البلنسي ليفتح دكانه، فتعمّد إلقاء الغِلْق من يده، فوقع على رأس أبي عبد الله، وهو مقبل على شغله، فسال دمه، فما زاد على أن قام ومَسَح الدم، ثم ربط رأسه، وعاد إلى شغله. فلمّا رأى ذلك منه أبو جعفر ترامى عليه، وجعل يُقبِّل يديه، ويقول: والله ما سمعت برجل أصبر منك، ولا أعقل.

شعره: وشعره لا نهاية فوقه رونقًا ومائية، وحلاوة وطلاوة، ورقَّة ديباجة، وتمكُّن ألفاظ، وتأصُّل معنى. وكان، رحمه الله، قد خرج صغيرًا من وطنه، فكان أبدًا يكثر الحنين إليه، ويُقْصر أكثر منظومه عليه. ومحاسنه كثيرة فيه، فمن ذلك قوله[1]: [الطويل]

خليليَّ، ما للبيدِ قد عَبِقَتْ نَشْرا؟ ... وما لرؤوسِ الرَّكْبِ قد رُنِّحَتْ[2] سُكْرا؟
هل المِسْكُ مَفْتُوقًا[3] بمَدْرَجَةِ الصَّبا ... أمِ القومُ أجْرَوْا من بلنسيةٍ ذِكْرا؟
خليليّ، عُوجا بي قليلا[4] فإنه ... حديثٌ كبَرْدِ الماء في الكَبِد الحَرّى
قِفا غيرَ مأمورينِ ولْتَتَصَدّيا[5] ... على ثقةٍ للمُزْنِ[6] فاستَسْقِيا القَطْرا
بجسرِ مَعانٍ والرُّصافةِ أنه ... على القَطْر أن يَسْقي الرُّصافةَ والجِسرا[7]
بلادي التي رِيشَتْ قُوَيدِمتي[8] بها ... فريخًا وأورثتني قرارتُها وَكْرا
مبادئُ[9] أنيقِ[10] العَيْشِ في رَيّقِ الصِّبا ... أبى الله أن أنسى اغتراري بها غُرًّا[11]

---

(١) القصيدة في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٦٨ ـ ٧١).
(٢) في الأصل: «رجحت» والتصويب من الديوان.
(٣) في الأصل: «مفتوتًا» والتصويب من الديوان. (٤) في الديوان: «عليها».
(٥) في الديوان: «وَلْتَصَدّيا بها». (٦) في الديوان: «للغيث».
(٧) الرصافة: من أبدع منازه بلنسية تقع بين بلنسية والبحر. الروض المعطار (ص ٢٦٩)، والمغرب في حلى المغرب (ج ٢ ص ٢٩٨). وجسر معان: أغلب الظن أنه جسر نهر معان، وهو نهر ببلنسية؛ يذكر الحميري أن بلنسية تقع على نهر جارٍ يُنْتَفَعُ به، وتدخله السفن.
(٨) القويدمة: تصغير القادمة وهى إحدى القوادم أربع ريشات في مقدّم الجناح. لسان العرب (قدم).
(٩) في الأصل: «فبادى» والتصويب من الديوان. (١٠) في الديوان: «ليّن».
(١١) في الديوان: «. . . أنسى لها أبدًا ذِكْرا».

لبسنا بها ثوب الشباب لباسها ... ولكن عُرينا من حُلاه، ولم تَعْرا[1]
أمنزلَنا عصر الشبيبة ما الذي ... طَوَى دوننا تلك الشبيبة والعَصْرا؟
محلٌّ أغرُّ العهد لم نُبد ذكره ... على كَبِدٍ إلا امْتَرى أدْمُعا حُمْرا
أكُلُّ مكانٍ كان[2] في الأرض مَسْقَطًا ... لرأسِ الفتى يَهْواه ما عاش مُضْطَرّا[3]
ولا مِثْلَ مَدْحُوٍّ من المِسْكِ تُرْبَةً ... تُمَلّي الصَّبا فيه حقيبتها[4] عِطْرا
نباتٌ كأنَّ الخَدَّ يَحْمِلُ نَوْرَهُ ... تخالُ لُجيْنًا في أعاليه أو تِبْرا
وماءٌ[5] كترصيع المَجَرَّة جَلَّلَتْ ... نواحِيَهُ[6] الأزهارُ واشتبكتْ[7] زُهْرا
أنيقٌ كريّان[8] الحياة التي خَلَتْ[9] ... طليقٌ كَرَيْعان[10] الشَّباب الذي مَرّا
وقالوا: هل الفردوسُ ما قد وَصَفْتَه؟ ... فقلت: وما الفردوس في الجنَّة الأُخْرى[11]
بَلَنْسِيَةٌ تلك الزُّمُرُّدَةُ[12] التي ... تَسِيل عليها كلُّ لؤلؤة نَهْرا
كأنَّ عَرُوسًا أبْدَعَ اللهُ حُسْنَها ... فصيَّرَ من شَرْخِ الشَّبابِ لها عُمْرا
تُوَبِّدُ[13] فيها شَعْشَعانيَّةُ الضُّحى[14] ... مضاحكةُ الشمسِ البُحَيرةَ والبَحْرا[15]
تَزاحَمُ[16] أنفاسُ الرياحِ بزَهْرها ... نجومًا فلا شيطانَ يَقْرَبُها[17] ذُعْرا
وإن كان قد مُدَّت يدُ البَيْن بيننا ... من الأرض ما يَهْوى المُجِدُّ به شَهْرا[18]

---

(١) هذا البيت والبيتان التاليان لم ترد في الديوان.
(٢) في الديوان: «راح».
(٣) مضطرًا: أي أنه يهوى مسقط رأسه اضطرارًا دون حاجة إلى إقناع.
(٤) في الأصل: «حقيقتها» والتصويب من الديوان.
(٥) في الأصل: «وما» والتصويب من الديوان.
(٦) في الأصل: «نواحيه» والتصويب من الديوان.
(٧) في الديوان: «فاشتبكت».
(٨) في الديوان: «كريْعان».
(٩) في الديوان: «حَلَتْ» بالحاء المهملة.
(١٠) في الديوان: «كريّان».
(١١) هذا البيت غير وارد في الديوان.
(١٢) في الديوان: «الزَّبَرْجَدَةُ».
(١٣) في الأصل: «يؤيّد منها» والتصويب من الديوان. وتؤبّد فيها: تقيم فيها ولا تبرح.
(١٤) شعشانية الضحى: أي أن أنوارها مشعشعة كشمس الصباح.
(١٥) في الديوان: «إذا ضاحَكَ الشمسُ...». والبحيرة: هي بحيرة بلنسية التي تزيد في ضياء بلنسية صَحْوَ الشمس عليها. المغرب (ج ٢ ص ٢٩٧).
(١٦) في الأصل: «تراجم» والتصويب من الديوان.
(١٧) في الأصل: «يُغَرِّبُها» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.
(١٨) هذا البيت لم يرد في الديوان.

هي الدُّرَّةُ البيضاءُ من حيثُ جِئتَها[١] أضاءتْ ومَنْ للدُّرِّ أن يُشْبِهَ البَدْرا؟[٢]

خليليَّ، أن أصدر لها فإنها[٣] هي الوطنُ المحبوب أَوْكَلَهُ[٤] الصَّدْرا[٥]

ولم أطْوِ عنها الخَطْو هجرًا لها إذًا فلا لَثَمتْ نَعْلي مساكنَها الخَضْرا

ولكنَّ إجلالًا لتُربتها التي تضُمُّ فتاها النَّدْب أو كَهْلَها الحرّى

أكارِمُ، عاث الدهر ما شاء فيهُمُ فبادت لياليهمْ فهل أشتَكي الدهرا؟

هجوعٌ ببطنٍ وأرْض قد ضرب الرَّدى عليهمْ قُبيبات فُويق الثَّرى غُبْرا

تقَضّوا فمن نجم سالكٍ ساقطٍ[٦] أبى الله أن يرعى السِّماك أو النَّسْرا

ومنْ سابقٍ هذا إذا شاء[٧] غايةً وغير محمود جياد العلا خُضْرا[٨]

أناسٌ إذا لاقَيْتَ مَن شِئتَ منهُمُ تلقّوك لا غثُّ الحديث ولا غمْرا

وقد دَرَجتْ أعمارُهُمْ فتطَلَّعوا هلال ثلاثٍ لو شفا رَقّ أو بَدْرا

ثلاثة أمجادٍ من النَّفَر الأُلى زكَوا خبرًا بين الورى وزكوا خُبْرا

أثكَّلتَهُمْ[٩] ثُكْلًا دَهى العَيْنَ والحَشَا فعَجَّر ذا أمًّا وسَجَّر ذا جَمْرًا؟

كفى حَزَنًا أني تباعدتُ عنهمُ فلم ألق مَنْ سُرّي منها ولا سُرّا

وإلّا[١٠] متى أسْلُو[١١] بهمْ كلَّ راكب ليُظهر لي خَيْرًا تأبَّطَ لي شَرًّا

أباحتُه عن صالحاتٍ عَهِدْتُها هناك فيَسْبيني[١٢] بما يَقصِم الظَّهْرا

مُحيّا خليلٍ غاض ماء حياته وساكنُ قصرٍ ضرٌّ[١٣] مَسْكَنُهُ القَبْرا

وأزْهَرَ كالإصباح قد كنت أجتلي سناءَ كما يستقبل الأرِقُ الفَجْرا

فتًى لم يكن خِلْوُ الصِّفات من النَّدى ولم يتناسَ الجود أضْرَمَ أم أثْرا

يُصَرِّفُ ما بين اليراعة والقنا أناملَه لا بل هَواطله الغُرَّا

طويلُ نجادِ السيف لان كأنما تخطّى به في البرد خَطِّيّةً سمْرا

سَقَتْه على ما فيك من أريحية خلائقُ هُنَّ الخَمْرُ أو تشبه الخمرا

---

(١) في الأصل: «جِذَّتها» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٢) في الأصل: «الدُرّا» والتصويب من الديوان. (٣) صدر هذا البيت منكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «أوكلته» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) من هنا حتى آخر الأبيات غير وارد في الديوان.

(٦) صدر البيت مختل الوزن والمعنى.

(٧) في الأصل: «شا» وكذا ينكسر الوزن.

(٨) عجز البيت مختل الوزن والمعنى.

(٩) في الأصل: «ثكلتهم» وكذا ينكسر الوزن.

(١٠) في الأصل: «وإلى» وكذا ينكسر الوزن.

(١١) في الأصل: «أَسْلُ» وكذا ينكسر الوزن.

(١٢) في الأصل: «فيسْبني» وكذا ينكسر الوزن.

(١٣) في الأصل: «أضرّ» وكذا ينكسر الوزن.

ونَـشْـرُ مُـحَـيَّـا لـلـمـكـارم لـو سَـرَتْ حُـمـيّاه في وجه الأصيـل لـمـا اصفـرّا
هـل الـسَّـعـد إلّا حيـث حـطّ صـعيـده لمن بلّ في شَفْري ضريح له شَفْرا؟
طَـوَيْـنَ الـلـيـالـي طَـيَّـهُـنَّ وإنـمـا أَطْـوَيْـنَ[1] عـنّـيَ الـتَّـجـلُّدَ والـصَّـبْـرا
فـلا حُـرِمَـتْ سـقـيـاه أدمُـع مُـزْنَـةٍ تـرى مَـبْـسـم الـنّـوار عَـنْـبَـرَ مُـغْـتَـرّا
ومـا دعـوتـي لـلـمُـزْن عُـذْرًا لـدعـوتـي إذا مـا جَـعَـلْـتَ الـبُـعـد عـن قُـربـه عُـذرا

وقال يرثي أبا محمد بن أبي العباس بمالقة[2]: [الكامل]

أبـنـي الـبلاغة، فـيـمَ حَـفْـلُ الـنـادي؟ هَـبْـهـا عُـكـاظَ، فـأيـن قُـسُّ إيـادِ؟
أمـا الـبـيـان، فـقـد أجـرَّ لـسـانـه فـيـكُـمْ بـفَـتْـكـتـه الـحِـمـام الـعـادي
عَـرَشَـتْ سـمـاء[3] عُـلاكـم[4] مـا أنـتـمُ مـن بَـعْـد ذلـكُـمُ الـشّـهـاب الـهـادي
حُـطُّوا على عُمُد الطريق فقد خَبَا[5] لألاءُ[6] ذاك الـكـوكـب الـوقّـاد
مـا فُـلَّ لَـهْـذَمُـهُ[7] الـصَّـقـيـلُ وإنـمـا نُـثِـرَتْ كـعـوبُ قـنـاكُـمُ الـمـنـآدِ
إيـهِ عـمـيـدَ الـحـيِّ غـيـر مُـدافـع إيـهِ فِـدى لـك غـابـر الأمـجـاد
مـا عُـذْرُ سِـلْـكٍ كـنـت عِـقْـد نـظـامـه إن لـم يَـصِـرْ بُـرْدًا إلـى الآبـادِ؟
حَسْبُ[8] الزمانِ عليكَ ثُكْلًا أن يُرى مِـنْ طـول لـيـلٍ فـي قـمـيـصِ حِـدادِ
يُـومـي بـأنْـجُـمـه لِـمـا قَـلَّـدْتَـهُ مِـنْ دُرِّ أَلْـفـاظٍ وبِـيـضِ أيـادِ
كشفُ الحجاب فما ترى مُتفضلا فـي سـاعـةٍ تُـصـغـي بـه وتُـنـادي[9]
أَلْـمِـمْ بـرَبْـعـك غـيـر مـأمـورٍ فـقـد غُـصَّ الـفَـنـاءُ[10] بـأرْجُـل الـقُـصَّـاد
خـبـرًا يُـبَـلِّـغُـهُ إلـيـكَ ودونـه أَمْـنُ الـعُـداةِ وراحـةُ الـحُـسَّـاد
قـد طـأطـأ الـجَـبَـلُ الـمـنـيـف قِـذالـه لـلـجـار بـعـدك واقـشـعـرَّ الـوادي[11]
أَعِـدِ الـتـفـاتـك نـحـونـا وأظـنّـه مِـثْـل الـحـديـث لـديـك غـيـرُ مـعـاد

---

(١) في الأصل: «طوين» وكذا ينكسر الوزن.
(٢) هو الفقيه الأديب عبد الله بن أبي العباس الجذامي المالقي، وله شعر في مدح يوسف بن عبد المؤمن الموحدي. المغرب (ج ١ ص ٤٢٦). والبيت الأول في المغرب (ج ١ ص ٤٢٦) وبعض أبيات هذه القصيدة في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٦٠ ـ ٦١).
(٣) في الأصل: «سما» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «علايكم» وكذا ينكسر الوزن.
(٥) في الأصل: «خبت».
(٦) في الأصل: «لآلىء» وكذا ينكسر الوزن.
(٧) في الأصل: «لهزمه» بالزاي. واللَّهْذم: اتحادّ القاطع من الأسنّة. محيط المحيط (لهذم).
(٨) في الأصل: «حيث» والتصويب من الديوان.
(٩) في الأصل: «وتناد» بدون ياء.
(١٠) في الأصل: «الفنا» بدون همزة وكذا ينكسر الوزن.
(١١) في الأصل: «الواد» بدون ياء.

وامْسَحْ لنا عن مُقْلتيك من الكَرى ... نومًا تكابد من بُكا وسُهاد
هذا الصباح ولا تَهُبَّ إلى متى ... طال الرُّقاد ولات حين رقاد
وكأنما قال الرَّدى نَمْ وادعًا ... سَبَقَتْ إلى البُشْرى بحُسْن معاد
أمُوَسَّدًا تلك الرخام بمرقد ... أخْشِن به من مرقد ووِساد
خَصِبَتْ بقَدْرك حفرةٌ فكأنها ... من جوفها في مِثل حرف الصّاد
وثُرْ لجنبك مِنْ أثاثِ مُخَيَّم ... تُرْب النَّدى[1] وصفائحِ أنضاد
يا ظاعنًا رَكِبَ السُّرى في ليلةٍ ... طار الدليلُ بها وحاد الحادي
أعززْ علينا إن حَطَطْتَ بمنزلٍ ... تُبْلى[2] عن الزُّوار والعُوَّاد
جار الأفراد هنالك جيرةً[3] ... سُقْيًا لتلك الجيرةِ الأفراد!
الساكنين إلى المعاد، قِبَابُهُمْ ... منشورةُ الأطناب والأغماد
من كل مُلقِيةِ الجرابِ بمَضْرِب ... ناب البِلَى فيه عن الأوْتاد
بمُعَرَّس السَّفر الألى ركبوا السُّرى ... مجهولة الغايات والآماد
سِيّانَ فيهمُ ليلةٌ ونهارُها ... ما أشبه التَّأويب بالإسناد
لحق البطون من اللّعب على الطّوى[4] ... وعلى الرّواحل عُنفوانُ الزاد
لله هُمْ فلشدَّ ما نَفَضُوا مِنَ أمْـ ... ـتعةِ الحياة[5] حقائبَ الأجساد
يا ليت شعري والمُنى لَكَ جنَّة ... والحال مؤذنةٌ بِطُول بِعادِ
هل للعُلا بك بَعْدَها من نهضة ... أم لانقِضاء نَوَاك من ميعاد؟
بأبي وقد ساروا بنَعْشِك صارمٌ ... كَثُرَتْ حمائلُه على الأكْتاد[6]
ذُلَّت عواتقُ حامِليكَ فإنّهُمْ ... شامُوكَ في غِمْدٍ بغير نِجاد
نِعْمَ الذَّماء[7] البرُّ ما قد غوَّروا ... جُثمانه بالأبْرَق المُنْقاد
عَلْياء[8] خُصّ بها الضريح وإنما ... نِعم الغُوَير بأبْؤُس الأنجاد

---

(١) في الأصل: «نَدّ» وكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «تَبلَ» وكذا لا يستقيم لا الوزن ولا المعنى.
(٣) صدر البيت منكسر الوزن.
(٤) صدر البيت غير مستقيم الوزن والمعنى. والطّوى: الجوع. محيط المحيط (طوى).
(٥) في الأصل: «... الحياة في حقائب...» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا كلمة «في».
(٦) الأكتاد: جمع كتد وهو مجتمع الكتفين. لسان العرب (كتد).
(٧) أصل القول: «الذما» بدون همزة، وكذا ينكسر الوزن.
(٨) أصل القول: «عليا» بدون همزة، وكذا ينكسر الوزن.

أبـنـي الـعـبـاس، أيّ حـلاحـل سَـلَبَـتْـكُـمُ الـدُّنـيـا وأيّ مَـصَـاد

هـل كـان إلّا الـعَـيـن وافَـقَ سَـهْـمـهـا قَـدَرًا فـأقْـصَـدَ أيُّـمـا إقـصـاد؟

أخْـلِلِ بـمـجـد لا يُـسـدّ مـكـانُـه بـالإخْـوة الـنُّـجـبـاء والأولاد

ولكَمْ يُرى بك من هضاب لم يكن لـولاك غـيـرُ دَكـادكٍ ووِهـاد

ما زلت تُنْعشها بسَيْبِك قابضًا منها على الأضباع والأعضاد

حـتـى أراك أبـا مـحـمـد الـرَّدى كـيـف انـهِـداد بَـواذِخ الأطْـواد

يـا حـرَّهـا مـن جَـمْـرةٍ مَـشْـبُـوبـةٍ يـلقـى لـهـا الأيـدي عـلى الأكـتـاد

كـيـف الـعـزاء وإنـهـا لـرَزِيَّـة خرج الأسى فيها عن المعْتادِ

صدع النُّعاة بها فقلْتُ لمَدمَعي كيف انسِكابُك يا أبا الجَوّاد؟

لك من دَمِي ما شئت غير مُنَهْنَهٍ صبْ كيف شئت مُعَصفر الأبراد

بقُصَير مجتهد وحَسْبُك غاية لـو قـد بَـلَغْـتَ بـهـا كـبـيـر مُـراد

أمّا الدموعُ فهنّ[1] أضعَفُ ناصرٍ لـكـنّـهـنّ كـثـيـرةُ الـتَّـعـداد[2]

ثُـم الـسَّـلام ولا أغـبَّ قـراره وأرَتْـك صـوبَ روائـحٍ وغَـواد

تَسْقيكَ ما سَفَحَتْ عليكَ يَراعَةٌ فـي خـدّ قـرطـاسٍ دمـوعَ مِـدادِ

ومن غراميّاته وإخوانيّاته قوله من قصيدة[3]: [البسيط]

عـادَ الـحـديـثُ إلـى مـا جـرَّ أطْـيَـبَـهُ والشيءُ يبعث ذِكْرَ الشيء عن سَبَبِ

إيـهِ عـن الـكُـدْيـة الـبـيـضـاءِ إنّ لـهـا هَـوًى بـقـلْـبِ[4] أخـيـكَ الـوالِهِ الـوَصِـبِ

راوِحْ بـهـا[5] الـسَّـهْـلَ من أكنافِها وأَرِحْ رِكـابَـنـا لَـيْـلـنـا[6] هـذا مـن الـتَّـعَـبِ

وانْضَحْ نواحِيَها[7] من مُقْلتيكَ وسَلْ عن[8] الكَثِيب الكريم العَهْدِ في الكُتب[9]

وقُـلْ لِسَـرْحَـتـه يـا سَـرْحَـةً كـرُمَـتْ عـلى أبي عامر: عُزّي عن السُّحُب

يـا عَـذْبَـةَ الـمـاءِ والظلّ انْعَمي طَفَلًا حيِّيْتِ مُمْسِيَةً مَيّادَةَ القُضُبِ[10]

مـاذا عـلى ظِـلّك الألْمَى وقد قَلَصَتْ أفـيـاؤه لـو ضَـفَـا شـيـئًـا لِمُـغْـتَـرِبِ

---

(١) في الأصل: «فهي» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الديوان: «الأعداد».

(٣) القصيدة في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٣١ ـ ٣٤).

(٤) في الأصل: «يغلب» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٥) في الديوان: «بنا». (٦) في الديوان: «ليلها».

(٧) في الديوان: «جوانبها». (٨) في الأصل: «من» والتصويب من الديوان.

(٩) في الديوان: «الكثب» بالثاء المثلثة.

(١٠) في الأصل: «الغضب» والتصويب من الديوان.

أهكذا تنقضي نَفْسي لديك ظمًا ... اللهَ في رَمَقٍ من جارِكِ الجُنُبِ[١]
لولاكِ يا سَرْحَ لم يبق[٢] الفلا عُطُلًا ... من السُّرى، والدُّجى خفاقةُ الطُّنُب
ولم نَبِتْ نتقاضى مِنْ مدامعنا ... دَيْنًا لتُرْبكِ من رِقْراقِها السَّرِب
إنّا[٣] إذا ما تَصَدَّى مِنْ هَوَى طَلَلٍ ... عُجْنا عليه فحيَّيناه عن كَثَب
مُسْتَعْطِفين سَخِيّاتِ الشؤون له ... حتى تُحاكَ[٤] عليه نُمْرُقُ[٥] العُشُب
سَلِي خَمِيلَتَكِ الرَّيّا بأيّةِ[٦] ما ... كانتْ تَرِفُّ بها ريحانةُ الأدب
عن فِتْيَةٍ نزلوا عُلْيا[٧] سَرَارَتِها ... عَفَتْ محاسنُهُمْ إلّا مِن الكُتُب
محافظين على العَلْيا ورُبَّتَما ... هَزُّوا السجايا قليلًا بابنة العِنَب
حتى إذا ما قَضَوْا من كأسها وَطَرًا ... وضاحكوها إلى حَدٍّ[٨] من الطَّرَب
راحوا رَواحًا وقد زِيدت عمائمُهُمْ ... حِلْمًا ودارتْ على أبْهَى من الشُّهُب[٩]
لا يُظْهِرُ السُّكْرُ[١٠] حالًا من[١١] ذوائبهمْ ... إلّا التفاف[١٢] الصَّبا في أَلْسُنِ العَذَب
المُنْزِلينَ القوافي مِنْ معاقلها ... والخاضِعينَ لديها شَوْكَةَ العَرَبِ

ومن مقطوعاته قوله[١٣]: [الطويل]

دعاكَ خليلٌ والأصيلُ كأنه ... عليلٌ يُقَضّي مدة الزمن الباقي[١٤]
إلى شَطِّ مُنسابٍ كأنّكَ ماؤه ... صَفاءَ ضميرٍ أو عذوبةَ أخلاقِ[١٥]
ومَهْوى جَناحٍ للصَّبا يمسح الرُّبى ... خَفِيِّ الخوافي والقوادم خفّاقِ
وفتيانِ صِدْقٍ كالنجوم تألّفوا ... على النَّأْيِ من شتّى بروجٍ وآفاق

(١) الجار الجُنُب: الذي يجاور واحدًا ونَسَبُهُ في قوم آخرين، فهو في الأصل غريب.
(٢) في الديوان: «لم نُبْقِ».
(٣) في الديوان: «أخًا».
(٤) في الأصل: «يحاك» والتصويب من الديوان.
(٥) في الأصل: «مموّق»، وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.
(٦) في الديوان: «لأيّة».
(٧) في الأصل: «على» والتصويب من الديوان. والسرارة من الشيء: وسطه وأفضله.
(٨) في الأصل: «لدى جَدّ» والتصويب من الديوان.
(٩) في الأصل: «أسفى من السُّهب» والتصويب من الديوان.
(١٠) في الأصل: «الشكر» والتصويب من الديوان.
(١١) في الأصل: «في» والتصويب من الديوان.
(١٢) في الأصل: «التفات» والتصويب من الديوان.
(١٣) ورد منها في الديوان (ص ١١٧) فقط البيت الثاني.
(١٤) في الأصل: «الباق» بدون ياء.
(١٥) في الأصل: «صفًا ضميرًا وعذوبة أخلاق» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

على حينَ راح البرقُ في الجو مُغْمدًا ... ظُباه ودَمْعُ المُزْن في جَفْنه راق
وجالتْ بعيني في الرياض التفاتةٌ ... حَبَسْتُ بها كأسي قليلًا عن السَّاقي[1]
على سَطْر خيريٍّ ذَكَرْتُكِ فانثنى ... يميلُ بأعناقٍ ويَرْنُو بأحداق
وقِفْ وقْفَةَ المحبوبِ منه فإنها ... شمائلُ مَشْغوفٍ بمرآك مُشْتاق
وصِلْ زَهَراتٍ منه صُفْرٍ كأنها ... وقد خَضِلَتْ قَطْرًا محاجرُ عُشّاق

وقال، وكَلِفها في حائك، وهو بديع[2]: [البسيط]

قالوا وقد أكْثروا في حبّه عَذَلي[3] ... لو لم تهمْ بمُذال[4] القَدْرِ مُبْتَذَلِ
فقلتُ لو أنَّ أمري في الصَّبابة لي ... لاخترْتُ ذاك ولكنْ ليس ذلك لي
في كلّ قلبِ عزيزاتٍ مُذَلَّلة ... للحُسْنِ والحُسْنُ مَلْكٌ حيث جلّ وَلي
عُلِّقْتُهُ حَبَبيَّ[5] الثَّغْر عاطِرَهُ ... درّيَّ لون المُحَيّا أحْوَرَ المُقَل[6]
إذا تَأمَّلْتَهُ أعطاكَ مُلْتَفِتًا ... ما شِئت من لحظاتِ الشّادن الوَجِل[7]
هيهاتِ أبغي به من غيره بَدَلًا ... أُخرى الليالي وهل في الغير من بدل؟
غُزَيّلٌ لم تزلْ في الغَزْل جائلةً ... بَنانهُ جَوَلانَ الفِكْر في الغَزَل
جَذْلانُ تَلْعَبُ بالمحواك[8] أنْمُلُهُ ... على السَّدى لَعِبَ الأيامِ بالأمل[9]
ما إنْ يَنِي تَعِبَ الأطْرافِ مُشْتَغِلًا ... أَفْديه منْ تَعِبِ الأطرافِ مُشْتَغِلِ
ضَرْبًا[10] بكَفّيْهِ أو فَحصًا بأخْمَصِهِ ... تَخَبُّطَ الظَّبْي في أشْراكِ مُحْتَبِلِ

وقال[11]: [الكامل]

ومُهَفْهَفٍ كالغُصْن إلّا أنّه ... سَلَبَ التَّثَنّي النومُ عن أثنائِهِ

(١) في الأصل: «الساق» بدون ياء.
(٢) الأبيات في ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٢١ - ١٢٢). وجاء في المغرب (ج ٢ ص ٣٥٢): «وقوله في غلام حائك».
(٣) في الأصل: «عذلُ» والتصويب من الديوان.
(٤) في الأصل: «بمزال» بالزاي، والتصويب من الديوان. والمُذال: الممتهن، المبتذل.
(٥) في الأصل: «حبيبيّ». وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.
(٦) في الديوان: «ألمى المُقبّل أحوى ساحِرَ المُقَلِ».
(٧) في الديوان «الغزِل».
(٨) في الأصل: «بالمحراك»، والتصويب من الديوان.
(٩) في الديوان: «بالدول».
(١٠) في الديوان: «جَذْبًا».
(١١) البيتان في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٢٨).

أَضحى يَنامُ وقد تخدّد[1] خَدُّهُ عَرَقًا فقلْتُ الوَرْدُ رُشّ بمائِهِ

وقال[2]: [الوافر]

أدِرْها فالغمامة قد أجالتْ سيوفَ البَرْق في لِمَم البطاحِ

وراق الروضُ طاووسًا بهيًّا تهبُّ عليه أنفاس الرياح

تقول وقد ثنى قُزَحٌ عليه ثياب الغَيْم مُعْلمة النواح

خذوا للصَّحو أهبتكُمْ فإني أعزتُ المزْن قادِمَتَيْ جَناح

وقال[3]: [الطويل]

أدِرْها على أمر فما ثم من باس وإن جدَّدَتْ آذانَها ورقُ الآسِ

وما هي إلّا ضاحكات غمائم لواعبُ من ومْض البروق بمقياس

ووفد رياح زَعْزَع النَّهر مَدَّه كما وطئت دِرْعًا سنابك أفراس

وقال في وصف مغنٍّ مُحسن[4]: [الكامل]

ومُطارحٍ ممّا تَجُسُّ[5] بَنانُهُ صوتًا[6] أفاضَ عليه ماءَ وَقارِهِ

يَثْني الحمامَ فلا يَرُوحُ لِوَكْرِهِ طَرَبًا ورِزْقُ بنيه في مِنْقارِهِ

وقال يصف جدول ماء عليه سَرْحة، ولها حكاية معروفة[7]: [الكامل]

ومُهَدَّلِ الشَّطَّيْنِ تَحْسَبُ أنه مُتَسَيِّلٌ مِنْ دُرَّةٍ لِصفائِهِ

فاءتْ عليه مع العَشِيّة[8] سَرْحَةٌ صَدِئَتْ لِفَيْئَتِها صَفِيحةُ مائِهِ

فتراه أَزْرَقَ في غِلالةِ سُمْرَةٍ كالدِّراع اسْتَلْقى بظلٍّ لوائِهِ

نثره: قال من مقامة يصف القلم[9]: [المتقارب]

قصيرُ الأنابيبِ[10] لكنه يطول مضاءً[11] طَوال الرِّماحِ

---

(١) في الديوان: «تَحَبَّبَ». (٢) الأبيات لم ترد في ديوان الرصافي البلنسي.

(٣) هذه الأبيات لم ترد أيضًا في ديوان الرصافي البلنسي.

(٤) البيتان في ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٠١).

(٥) في الأصل: «تحسّ» بالحاء المهملة، والتصويب من الديوان.

(٦) في الديوان: «لَحْنًا».

(٧) الأبيات في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٢٦ ـ ٢٧).

(٨) في الديوان: «الهجيرة».

(٩) لم ترد هذه الأبيات في ديوان الرصافي البلنسي.

(١٠) في الأصل: «كالأنابيب» وكذا ينكسر الوزن. (١١) في الأصل: «مضًا».

إذا عبَّ للنفس في دامِسٍ ودبَّ من الطِّرْس فوق الصِّفاحِ
تجلَّت به مُشكلاتُ الأمور ولان له الصَّعْبُ بعد الجِماح

فلولا هو[1] لغَدَت أغصان الاكتساب ذاوية، وبيوت الأموال خاوية، وأسرعت إليها البُوسى، وأصبحت كفؤاد أمّ موسى، فهو لا محالة تَجْرُها الأربح، وميزانها الأرجح. به تَدُرُّ ألبانها، وتثمر أفنانها، وتستمرّ أفضالُها وإحسانُها، وهو رأس مالها، وقطْبُ عُمَّالها وأعمالها. وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسرها، وتحكَّم في طَيِّها ونَشْرها، وهو قُطْب مدارها، وجُهَيْنة أخبارها، وسِرُّ اختيارها واختبارها، ومظهر مجدها وفخارها، يعقد الرَّاياتِ لكل والٍ، ويمنحهم من المبرَّة كلَّ صافية المقيل ضافية السِّربال، يُطفي جَمرة الحرب العَوان، ويكايد العَدُوَّ بلا صارم ولا سِنان، يقُدُّ المفاصل، ويتخلل الأباطح والمعاقل، ويقمع الحواسد والعوذال.

وفاته: توفي بمالقة يوم الثلاثاء لإحدى عشرة بقيت من رمضان سنة اثنتين[2] وسبعين وخمسمائة. وقبره مشهور بها.

محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي

من أهل مالقة، وسكن غرناطة وتردد إليها.

حاله: كان لبيبًا لوذعيًّا، جامعًا لخصال؛ من خطٍّ بارع، وكتابة، ونظم، وشطرنج، إلى نادرٍ حار، وخاطر ذكي، وجُرأة. توجّه إلى العُدْوة، وارتَسَم بها طبيبًا؛ وتولّى النظر على المارِسْتان بفاس في ربيع الثاني من عام أربعة وخمسين وسبعمائة.

شعره: أنشدني بمدينة فاس عام ستة وخمسين، في وُجْهتي رسولًا إلى المغرب، قوله في رجل يقطع في الكاغد: [المجتث]

أبا عليٍّ حُسَينا أين الوفا منك أينا؟
قد بيّن الدمع وَجْدي وأنت تزداد بَيْنا
بَلَّتْ لحاظك قلبي تالله ما قلْتُ مينا
قطّ المقصّ لهذا سبب الصّبّ مينا
بقيتَ تفترُ حُسْنا ودمْتَ تزداد زَيْنا

---

(١) أي: فلولاه.

(٢) في الأصل: «اثنين» وهو خطأ نحوي.

وقال أيضًا: [البسيط]

فَضْلُ التجارات بادٍ في الصناعات   لولا الذي هو فيها هاجرٌ عاتِ
حاز الجمال فأعياني وأعْجزني   وإن دعيتُ بوصّاف ونعّاتِ

وكان شديد المغالطة، ذاهبًا أقصى مذاهب القِحة، يحرّك مَن لا يتحرك، ويُغضب مَن لا يغضب. عتَب يومًا جدَّته على طعام طبختْه له، ولم يستَطِبْه، وكان بين يديه القِط يصدعه بصياح طلبه، فقال له: ضجرًا، خمسمائة سوط، فقالت له جدَّته: لم تعط هذه السياط للقط، إنما عنَيْتني بها، وأعطيتها باسم القط، فقال لها: حاش لله يا مولاتي، وبهذا البخل تدرينى أو الزحام عليها، بل ذلك للقط حلالًا طيبًا، ولك أنت ألف من طِيبَة قَلْب، فأرسلها مثلًا، وما زلنا نتفكّه بذلك، وكان في هذا الباب لا يُشَقّ غباره.

مولده: بمالقة عام ثلاثة وسبعمائة.

وفاته: بعث إليّ الفقيه أبو عبد الله الشَّديد، يعرفني أنه توفي في أواسط عام سبعة وخمسين وسبعمائة.

محمد بن سليمان بن القصيرة[١]

أبو بكر، كاتب الدولة اللّمتونية، وعَلَمُ وقته.

حاله: قال ابن الصيرفي: الوزير الكاتب، الناظم، الناثر، القائم بعمود الكتابة، والحامل لواء[٢] البلاغة، والسابق الذي لا يُشَقّ غباره، ولا تخمد أبدًا أنواره. اجتمع له براعة النثر، وجَزالة النظم، رقيق النَّسيج، حَصيف المَتْن، رُقعته ما شئت في العين واليد. قال ابن عبد الملك[٣]: وكان كاتبًا مجيدًا، بارع الخطّ، كتب عن يوسف بن تاشُفين[٤].

مشيخته: روى عن أبي الحجاج الأعلم، وأبي الحسن بن[٥] شُرَيح، وروى عنه أبو الوليد هشام بن يوسف بن الملجوم، لقِيه بمرّاكُش[٦].

---

(١) ترجمة ابن القصيرة في الذخيرة (ق ٢ ص ٢٣٩) والمغرب (ج ١ ص ٣٥٠) والمطرب (ص ٧٦) والمعجب (ص ٢٢٧) والوافي بالوفيات (ج ٣ ص ١٢٨) والمحمدون من الشعراء (ص ٣٥٨) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٢٢٧) وقلائد العقيان (ص ١٠٣) والصلة (ص ٨٣٠) والبيان المغرب (ج ٤ ص ٦٠) ونفح الطيب (ج ٦ ص ١٣٠) و(ج ٩ ص ٢٥٧).

(٢) في الأصل: : «للواء».

(٣) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٢٢٧).

(٤) في الذيل والتكملة: «كتب عن أبي يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني».

(٥) في الذيل والتكملة: «وأبي الحسن شريح».

(٦) في الذيل والتكملة: «لقيه بمراكش سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة».

شعره: وهو عندي في نمط دون ما وُصف به. فمن ذلك قوله من قصيدة أنحى فيها على ابن ذي النُّون، ومدح ابن عباد، عند خلع ابن جَهْوَر، أبي الوليد، وتَضْيير قرطبة إليه: [الطويل]

فسَلْ عنه أحشاء ابن ذي النون هل سَرى إليها سكونٌ منذ زَلْزَلَها الذُّعْرُ؟
وهل قَدَّرَتْ مذ أوْحَشَتْهُ طلائعُ الـ ـظهورِ عليه أنّى[1] تُؤنسه الخمر؟
ألم يَجْن يحيىٰ من تعاطيك ظلّه سجا لك هيهات السُّهى منك يا بَدْرُ
لجاراك واستَوْفَيْت أبْعَد غاية وآخره عن شأوك الكفّ والعثرُ
فأحرزْتَ فَضْل السَّبق عفوًا وكفُّه على رَغمه مما توهّمه صفْرُ
ويا شدَّ ما أَغْرَتْهُ قرطبةٌ وقد أبْشرتها خَيْلُنا فكان لك الدُّرُّ

ومنها:

أتَتْك وقد أزرَى ببهجة حُسْنها ولا أنها[2] من جوْر مالكها طِمْرُ
فألْبَسْتها من سابغ العدل حلّة زهاها بها تيهٌ وغازلها كِبْرُ
وجاءتك متفالا فَضمَّخ حَيَّها وإزدانها[3] من ذكرك المُغتلي عِطْرُ
وأَجرَيْتَ ماء الجود في عَرَصاتها فروِّض حتى كاد أن يُورقَ الصَّخْرُ
وطاب هواء[4] أُفقِها فكأنها تهبُّ نسيمًا فيه أخلاقُك الزُّهْرُ
وما أدْرَكَتْهُمْ في هواك هوادةٌ وما أئتمروا إلّا لِما أَمَرَ البرُّ
وما قلّدوك الأمر[5] إلّا لواجب وما[6] جئتَه فيه المُجرِّبُ والغَمْرُ
وبوّأهُمْ في ذروة المجد مَعْقِلا حرامٌ على الأيام إلمامه حَجر
وأوردهُمْ من فَضْل سَيْبِك موردًا على كثرة الوارد مشرعه غَمْرُ
فلولاك لم تُفْصل عُرى الإصْر عنهم ولا انفَكَّ من رِبْق الأذى لهمُ أسْرُ
أعَدْتَ نهار ليلهمْ ولطالما أراهمْ نجومَ الليل في أُفْقه الظهر
ولا زلت تُؤويهمْ إلى ظلِّ دَوحةٍ من العزّ في أرحابها النِّعَم الخُضْرُ

---

(١) في الأصل: «أن» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «ولا لأنها» وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) همزة الوصل هنا جعلناها همزة قطع لكي لا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «هوا» وهكذا ينكسر الوزن. (٥) في الأصل: «لأمرِ» وهكذا ينكسر الوزن.
(٦) كلمة «وما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى.

كتابته: وهي من قلّة التصنّع والإخْشوشان، بحيث لا يخفى غرضها، ولكل زمان رجاله. وهي مع ذلك تُزينها السذاجة، وتشفع لها الغضاضة. كتب عن الأمير يوسف بن تاشفين ولاية عهده لولده:

«هذا كتاب توليةٍ عظيم جسيم، وتوصيةٍ حميم كريم، مُهدت على الرِّضا قواعده، وأُكّدت بيد التقوى مواعده ومعاقده، وسُدِّدت إلى الحُسْنَى مقاصده، وأُبعدت عن الهوادة والهوى مصادرُه ومواردُه. أَنْفَذَه أمير المسلمين، وناصر الدين، أبو يعقوب يوسف بن تاشُفِين، أدام الله أمره، وأعزَّ نصره، وأطال فيما يرضيه منه، ويرضى به عنه عمره، غير مُحابٍ، ولا تارك في النصيحة لله ولرسوله والمسلمين مَوْضِع ارتياب لمرتاب، للأمير الأجل أبي الحسن عليّ ابنه، المُتَقَبِّل هِمَمِه وشِيمه، المتأثِّل حِلمه وتحلّمه، الناشىء في حِجْر تَقْويمه وتأديبه، المتصرّف بين يدي تخريجه وتَدْريبه، أدام الله عزّه وتوفيقه، ونهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه، وقد تهمَّم بمن تحت عصاه من المسلمين، وهدى في انتقاء مَن يخلفه هدى المتّقين، ولم ير أن يتركهم بعد سُدًى غير مدينين، واعتام في النِّصاب الرفيع واختار واستنصح أولي الرأي والدين، واستشار فلم يوقع بعد طول تأمل، وتراخي مدة، وتمثل اختياره، واختبار مَن فاوضه في ذلك من أولي التقوى والحُنْكة واستشارة الأغلية، ولا صار بدونهم الارتياد والاجتهاد إلّا إليه، ولا التقى رُوّاد الرأي والتشاور إلّا لديه. فولّاه عن استحكام بصيرة، وبعد طول مَشُورة، عهده، وأفضى إليه الأمر والنهي، والقَبْض والبَسْط عنده بعده، وجعله خليفته السّاد في رعاياه مَسَّده، وأوطأ عَقِبه جماهير الرجال، وناط به مهمات الأمور والأعمال، وعهد إليه أن يتّقي الله ما استطاع، ولا يعدل عن سَمْت العدل وحُكْم الكتاب والسُّنّة في أحد عصا أو أطاع، ولا ينام عن حماه الحَيْف والخوف بالاضطجاع، ولا يتليَّنُ دون معلن شكوى، ولا يتَصام عن مُسْتَصرخ لذي بَلْوى، وأن ينظم أقصى البلاد وأدناها في سِلْك تدبيره، ولا يكون بين القريب والبعيد بَوْنٌ في إحصائه وتقديره. ثم دعا، أدام الله تأييده، لمبايعته، أدام الله عزّه ونصره، مَنْ حضر ودنا من المسلمين، فلبّوا مسرعين، وأتوا مُهْطِعين، وأعطوا صفقة إيمانهم متبرِّعين متطوعين، وبايعوه على السمع والطاعة، والتزام سَنَنِ الجماعة، وبذل النصيحة جهد الاستطاعة، ومناصفة مَن ناصفه، ومُحاربة مَن حاربه، ومكايدة مَن كايده، ومُعاندة مَن عانده، لا يدَّخرون في ذلك على حال المَنْشَط مقدرة، ولا يحتجون في حالتي الرضا والسخط إلى مَعْذرة. ثم أمر بمخاطبة سائر أهل البلاد لمبايعته، كل طائفة منهم في بلدها، وتعطيه كما أعطاه من حضر صفقة يدها، حتى ينتظم في التزام طاعته القريب والبعيد، ويجتمع على الاعتصام بحبلِ دعوته الغائب

والشهيد، وتَطْمئنّ من أعلام الناس وخيارهم نفوسٌ قلقة، وتنام عيونٌ لم تزل مخافة إقذائها مُورقة، ويشمل الناس كافة السرور والاستبشار، وتتمكن لديهم الدّعة ويتمهّد القرار، وتنشأ لهم في الصلاح آمال، ويستقبلهم جَدٌّ صالح وإقبال. والله يبارك لهم بَيْعة رضوان، وصَفْقة رُجْحان، ودعوة يُمْنٍ وأمان، إنه على ما يشاء قدير، لا إله إلا هو، نعم المولى ونعم النصير. شهد على إشهاد أمير المسلمين بكل ما ذكر عنه فوق هذا من بيعته، ولقيه حَمْلة عنه ممن التزم البيعة المنصوصة قبل، وأعطي صفقته طائعًا متبرعًا بها. وبالله التوفيق. وكُتب بحضرة قرطبة في ذي الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة».

دخل غرناطة غير ما مرّة، وحْده، وفي رِكاب أميره.

وفاته: توفي في جمادى الآخرة من عام ثمانية وخمسمائة.

محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمي المازني

من أهل سَرَقُسْطة، ودخل غرناطة، وروى عن أبي الحسن بن الباذِش بها، يكنى أبا الطاهر. وله المقامات اللُّزوميات المعروفة.

حاله: كان كاتبًا لغويًا شاعرًا، مُعْتَمدًا في الأدب، فردًا، متقدمًا في ذلك في وقته، وله المقامات المعروفة، وشعره كثير مُدَوَّن.

مشيخته: روى عن أبي علي الصّدفي، وأبي محمد بن السيد، وأبي الحسن بن الأخضر، وأبي عبد الله بن سليمان، المعروف بابن أخت غانم، وأبي محمد بن عتّاب، وأبي الحسن بن الباذِش، وأبي محمد عبد الله بن محمد التُّجيبي الدُّكلي، وأبي القاسم بن صوابه، وأبي عمران بن أبي تلَيد، وغيرهم. أخذ عنه القاضي أبو العباس بن مَضاء، أخذ عنه الكامل للمُبرّد، قال: وعليه اعتمد في تَقيِيْده. وروى عنه المُقْرِىء المُسِنّ الخطيب أبو جعفر بن يحيىٰ الكتامي، وذكره هو وابن مضاء.

وفاته: توفي بقرطبة ظهر يوم الثلاثاء، الحادي والعشرين من جمادى الأولى، سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة، بزَمانةٍ[١] لازمته نحوًا من ثلاثة أعوام، نفعه الله.

شعره: [الوافر]

أيـا قَـمَـرُ، أتـطـلعُ مـن وشـاح   على غـض فـاخـر مـن كـل راح؟

(١) الزمانة: العاهة. لسان العرب (زمن).

أدار السِّحْرَ مِنْ عينيه خمرًا مُعَتَّقَةً فأسْكَرَ كلَّ صاح
وأهْدَى إذ تهادى كلَّ طيبٍ كخُوط البان في أيدي الرياح
وأَحْيا حين حَيّا نَفْسَ صَبٍّ غَدَتْ في قبضة الحبّ المتاح
وسوَّغ منه عَتْبي بعد عَتْبٍ وعلّلني براحٍ فوق راح
وأجْناني الأماني في أمانٍ وجُنْحُ الليل مسدولُ الجناح

وقال أيضًا: [الكامل]

ومُنَعَّمِ الأعطافِ معسولِ اللَّمى ما شئتَ من بِدع المحاسن فيهِ
لمّا ظفرْتُ بليلةٍ من وصله والصَّبُّ غيرُ الوصل لا يشْفيهِ
أنْضَحْتُ وردةَ خدِّه بنفسي وظللْتُ أشربُ ماءها من فِيهِ

وقال أيضًا: [الكامل]

حَكَت السُّلاف صفاته بحبابها من ثَغره ومذاقها من رَشْفِهِ
وتورَّدَتْ فحكتْ شقائق خدِّه وتأرَّجَتْ فيُسِيمُها من عرْفِهِ
وصَفَتْ فوق أديمها فكأنها من حُسْن رونق وجنتيه ولُطْفه
لعِبَت بألباب الرجال وغادرت أجسامهمْ صَرْعى كفِغلة طَرْفه

«ومن الغرباء في هذا الحرف»
محمد بن حسن العُمْراني الشريف[1]

من أهل فاس.

حاله: كان جِهَويًا ساذجًا، خشن البزة، غير مُرهف التَّجند، ينظم الشعر، ويذكر كثيرًا من مسائل الفروع، ومعاناة الفرائض، يُجَعْجع بها في مجالس الدّروس، فشقي به المدرسون، على وتيرة من صحة السَّجية، وحسن العهد، وقلّة التصنُّع.

وجرى ذكره في الإكليل[2]: كريم الانتماءِ، مستظل[3] بأغصان الشجرة الشَّمّاء، من رجل سليم الضمير، ذي باطن أصْفَى من الماء النَّمير، له في الشعر طبع يشهد بعروبية أصوله، ومضاء نصوله.

---

(١) ترجمة الشريف العمراني في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٤٦) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٤).
(٢) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٤). (٣) في النفح: «متظلّل».

فمن ذلك قوله يخاطب السلطان أمير المسلمين، وقد أمر له بكسوة: [الطويل]

مَنَحْتَ مُنِحْتَ النَّصْرَ والعزَّ والرضا ... ولا زلْتَ بالإحسان منها[١] مُقَرِّضا
ولا زلت للعَلْيا جَنًى ومكارمًا[٢] ... وللأمْر، للملْكِ[٣] العزيز، مُقَيِّضا
ولا زالت الأملاك باسمك تُتَّقى ... وجيشك وفرًا يملأ الأرض والفضا
ولا زلت ميمون النَّقيبة ظافرًا ... مهيبًا ووهّابًا وسيفك مُنْتضى
تُقِرُّ به الدِّين الحنيف وأهله ... وتقمع جَبّارًا وتُهلك مُبْغِضًا
وَصَلْتَ شريف البيت من آل هاشم ... وخَوَّلْتَه أسنى مرادٍ ومقْتَضى
وجُدْتَ بإعطاء اللُّجين وكُسْوة ... سَتُكْسَى بها[٤] ثوبًا من النور أبيضا
وما زالت الأنصار تفعل هكذا ... فَعالَ[٥] عليٍّ في الزمان الذي مضى
هُمُ نصروا الهادي وآووا وجَدَّلوا ... بحدِّ ذُباب السيف مَن كان مُعْرضا
فخُذْ ذا أبا الحجاج من خير مادح ... لخير مَليكٍ في البريّة مُرْتَضى
فقد كان قبل اليوم غاض قريضه ... فلمّا رأى الإحسان منك تَفَيَّضا
ونَظْمُ الفتى يسمو على قدر ما يرى ... من الجُود مهما ينقضي نَيْلُه انقضى
ومن حكم القول اللُّهى مَتَح اللُّهى ... ومَنْ مَدَحَ الأملاكَ يرجو التَّعرّضا
فلا زال يهديك الشريف قصائدا ... ينال بها منك المودة والرضى

وقال يخاطب مَن أخلفته بوارق الأمل فيه، وخابت لديه وسائل قوافيه: [البسيط]

الشِّعْرُ أسنى كلام خُصّ بالعرب ... والجود في كل صِنْفٍ خيرُ مكتسبِ
وأَفْضَلُ الشعرِ أبيات يقدِّمُها ... في صدر حاجته مَن كان ذا أدبِ
فما يُوَفِّي كريمٌ حقَّ مادحه ... لو كان أوْلاه ما يحويه من نَشَبِ
المال يَفْنى إذا طال الثواء به ... والمدح يبقى مدى الأزمان والحِقَب
وقد مدحتُ لأقوام ذوي[٦] حسب ... فيما ظننتُ وليسوا من ذوي حسب

---

(١) في الأصل: «له»، وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «مكارمًا»، وكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «الملك»، وكذا ينكسر الوزن.
(٤) كلمة «بها» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن.
(٥) في الأصل: «نال» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.
(٦) في الأصل: «ذي» وكذا ينكسر الوزن.

مدحتهم بكلام لو مدحتُ به ... دهري أمنتُ من الإملاق والنَّصب
فعاد مدحي لهمْ هجوًا يصدِّقه ... من لؤمهمْ عودتي عنهمْ بلا أرب
فكان ما قلتُ من مدحهمُ كذبًا ... أستغفر الله من زورٍ ومن كذب

وقال في غرض يظهر من الأبيات، يخاطب السلطان: [الكامل]

ما لي أرى تاج الملوك وحوله ... عَبْدانِ لا حِلْمٌ ولا آدابُ
فكأنه البازي الصَّيُود وحوله ... نُغَرٌ[1] يقلِّبُ ريشه وغرابُ
يا أيها المَلِكُ الكرامُ جدودُه ... أسنى المحافل غيرُها أترابُ
أبْدِلهما بالبيض[2] من صَفَّيْهما ... إن العبيد محلُّها الأبوابُ

وفاته: توفي في حدود ثمانية وأربعين وسبعمائة أو بعد ذلك[3].

محمد بن محمد بن إبراهيم بن المرادي ابن العشاب[4]

قرطبي الأصل، تونسي الولادة والمنشأ، ابن نعمة وغذي جاه وحرمة.

حاله: كان حيِيًّا فاضلًا كريمًا، سخيًّا. ورد على الأندلس، مُفْلتًا من نكبة أبيه، وقد عَرَكَتْه عَرْكَ الرَّحى لثقالها، على سُنَن من الوقار والدِّيانة والحِما، يقوم على بعض الأعمال النبيهة.

وجرى ذكره في الإكليل بما نصُّه[5]: جواد لا يُتعاطى طَلَقُهُ، وصُبْح فضل لا يُماثل فَلَقُهُ. كانت لوالده[6]، رحمه الله تعالى[7]، من الدول الحفصيَّة منزلة لطيفة المحلّ، ومفاوضة في العَقْد والحلّ، ولم يزل تسمو[8] به قدم النَّجابة، من العمل إلى الحجابة. ونشأ ابنه هذا مَقْضيَّ الديون، مُفَدًّى بالأنفس والعيون. والدهر ذو ألوان،

(١) النُّغَر: البلبل. محيط المحيط (نغر).
(٢) في الأصل: «من البيض» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا كلمة «من».
(٣) قال في النفح (ج ٨ ص ٣٧٤): «وذكر في الإحاطة أن الشريف المذكور توفي في حدود ثمانية وثلاثين وسبعمائة».
(٤) ترجمة ابن العشاب في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٤) وجاء فيه: «أبو عبد الله العشاب». وله ترجمة أخرى في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٤) وجاء فيه: «محمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم المرادي العشاب».
(٥) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥).
(٦) في النفح: «لأبيه».
(٧) كلمة «تعالى» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفح.
(٨) في الأصل: «يسمو» والتصويب من النفح.

ومارِقُ حربٍ عَوان[(١)]، والأيام كُرات تُتَلقَّف، وأهوال[(٢)] لا تتوقّف، فألْوى بهم الدهر وأنحى[(٣)]، وأغام جوّهم بعَقِب ما أضحى[(٤)]، فشملهم الاعتقال، وتعاورتهم[(٥)] النُّوَب الثقال، واستقرَّتْ بالمشرق رِكابه، وحُطَّتْ به أقتابه، فحجَّ واعتمر، واستوطن تلك المعاهد وعَمَر، وعكف على كتاب الله تعالى[(٦)] فجوّد الحروف، وأحكم[(٧)] الخلف المعروف، وقيَّد وأسند، وتكرَّر إلى دور الحديث وتردَّد، وقدم على هذا الوطن قدومَ النَّسيم البليل، على كَبد العليل. ولمّا استقرَّ به قَراره، واشتمل على جَفْنه غِراره، بادرْتُ إلى مؤانسته، وثابرْتُ على مجالسته، فاجتليتُ للسَّرو[(٨)] شخصًا، وطالعْتُ ديوان الوفاء مُسْتَقْصا.

شعره: وشعره ليس بحايد عن الإحسان، ولا غُفْلٍ من النكت الحِسان. فمن ذلك ما خاطبني به[(٩)]: [الطويل]

بِيُمْنِ أبي عبد الإلٰه[(١٠)] محمدٍ ... تَيَمَّنَ هذا القُطْرُ وانْسَجَمَ القَطْرُ
أفاضَ علينا من جزيلِ عطائه ... بحورًا تديمُ[(١١)] المَدَّ ليس لها جَزْرُ
وأنسنا لمّا عَدِمْنا مَغانيًا ... إذا ذُكرتْ في القلب من ذكرها عِبر[(١٢)]
هنيئًا بعيد الفطر يا خيرَ ماجدٍ ... كريم به تسمو السِّيادةُ والفخر
ودُمْتَ مدى الأيام في ظلِّ نعمةٍ ... تُطيع لك الدنيا ويَعْنُو[(١٣)] لك الدهرْ

وممّا خاطب به سلطانه في حال الاعتقال: [البسيط]

لعلَّ عَفْوك بعد السُّخْط يغشاني ... يومًا فيُنعش قلب الوالد العاني[(١٤)]

---

(١) الحرب العَوان: الشديدة التي قُوتل فيها مرة بعد مرة. لسان العرب (عون).
(٢) في النفح: «وأحوال».
(٣) ألْوى بهم الدهرُ، وأنحى عليهم الدهرُ: أهلكهم. لسان العرب (لوى) و(نحا).
(٤) في الأصل: «ما أضحى» والتصويب من النفح.
(٥) تعاورتهم: تداولت عليهم. لسان العرب (عور).
(٦) كلمة «تعالى» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفح.
(٧) في النفح: «وقرأ المعروف».
(٨) في النفح: «للسّرّ». والسَّرْو: الفضل. محيط المحيط (سرو).
(٩) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٤).
(١٠) في الأصل: «عبد الله محمد يُمِنَ هذا القُطْرُ...» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له، والتصويب من النفح.
(١١) في الأصل: «بحور الدِّيَم...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١٢) في النفح: «...القلب ليس لها ذعرُ». (١٣) يعنو: يخضع. لسان العرب (عنا).
(١٤) في الأصل: «العان» بدون ياء.

مولاي، رحماك، إني قد عَهِدْتُك ذا حـلم وعـفـو وإشـفـاق وتَـحْـنـانِ
فاصرفْ حَنانك ثمّ اَعْطِف[١] عليّ وجُدْ برحمةٍ منك تُحْيي جِسْميَ الفاني[٢]
فقد تناهى الأسى عندي وعذّبني وشرّد النوم عن عيني وأعياني[٣]
وحقُّ آلائك الحُسْنى وما لك من طـوْلٍ وفـضـلٍ وإنـعـام وإحـسـان
إني ولو حلّت البلوى على كَبِدي وأسْكبتْ فوق خدٌ دمعيَ القاني[٤]
لَواثـقٌ بـحـنـانٍ مـنـك يَـطْـرُقـنـي عـمّـا قـريـب وعَـفْـوِ عـاجـل دان
دامت سعودُك في الدنيا مضاعفة تـذلّ مَـنْ دانَ[٥] طـوعًـا كـلّ سلطان

محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصاري الأوسي[٦]

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عبد الملك، من أهل مرّاكُش، وسكن غرناطة.

حاله: من عائد الصلة[٧]: كان، رحمه الله، غريب المَنْزَع، شديد الانقباض، محجوب المحاسن، تنبو العين عنه جَهامة، وغرابةَ شكل، ووَحْشَة ظاهر[٨]، في طيّ ذلك أدبٌ غضٌ، ونَفْسٌ حرَّة، وحديث ممتع، وأبوّة كريمة، أحد الصابرين على الجَهْد، المتمسكين[٩] بأسباب الحشمة، الراضين بالخَصاصة. وأبوه قاضي القضاة، نسيجُ وَحْده، الإمام العالم، التاريخي، المُتَبَحِّر في الأدب[١٠]، تقلّبت به أيدي الدهر[١١] بعد وفاته لِتَبِعَةٍ سُلِّطَتْ على نسبه[١٢]، فاستقرّ بمالقة، متحارفًا مقدورًا عليه، لا يَهْتدي لمكان فضله، إلّا مَن عثر عليه جُزافًا.

شعره:[١٣] [السريع]

مـن لـم يَـصُـنْ فـي أمـلٍ وَجْـهَـهُ عـنـك فَـصُـنْ وجـهـكَ عـن رَدِّهِ

---

(١) في الأصل: «واعطفْ» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «الفان» بدون ياء.
(٣) في الأصل: «وأعيان» بدون ياء. (٤) في الأصل: «القان» بدون ياء.
(٥) قوله: «من دان» ساقط في الأصل، وقد أضفناه ليستقيم المعنى والوزن معًا.
(٦) ترجمة محمد بن محمد بن عبد الملك في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٤).
(٧) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٥) بتصرف.
(٨) في النفح: «ظاهرة». (٩) في النفح: «المستمسكين».
(١٠) في النفح: «الآداب». وهنا يشير إلى والد محمد، القاضي ابن عبد الملك المراكشي، صاحب كتاب «الذيل والتكملة».
(١١) في النفح: «الليالي». (١٢) في النفح: «نشبه».
(١٣) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٥).

واعرفْ لـه الـفـضـلَ وعَـرِّفْ بـه[1] حيثُ أحلَّ النَّفْسَ مِنْ قَصْدِهِ

ومما خاطبني به قوله[2]: [الوافر]

وَلِيتَ ولايةً أَحْسَنْتَ فيها لِيُعْلَمَ أنها شَرُفَتْ بقدرِكْ

وكم والٍ أساء فقيل فيه دَنيُّ القَدْرِ ليس لها بِمُدْرَكْ

وأنشدني في ذلك أيضًا رحمة الله عليه[2]: [الوافر]

وَلِيتَ فقيل أحْسَنَ[3] خَيْرُ والٍ ففاقَ[4] مَدى مداركها بفضلِهْ

وكم والٍ أساء فقيل فيه[5] دَنا فَمَحا محاسِنَها بِفِعلِهْ

وممّا خاطب به السلطان يَسْتعديه على من مَطَله من العمال، وعذّر عليه واجبه من الطعام والمال: [مخلع البسيط]

مولاي نصرًا[6]، فكم يُضامُ مَنْ ما لَه غيرك اعتصامُ

أمرتَ لي بالخلاص فامرز[7] لي عنده المالُ والطعام

فقال ما اعتادهُ جوابًا وحَسْبيَ اللهُ والإمامُ

هذا مقامٌ ولا فعال بغير مولاي والسلام

وفاته: فقد في وقيعة على المسلمين من جيش مالقة بأحواز إستبّة[8] في ذي قعدة من عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة.

محمد بن خميس بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد ابن خميس الحَجْري حَجْر ذي رُعين التِّلمساني

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن خميس[9].

---

(١) في النفح: «له». (٢) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٤).

(٣) في الأصل: «أحَسَّ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

(٤) في الأصل: «فعاق»، والتصويب من النفح.

(٥) كلمة «فيه» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفح.

(٦) في الأصل: «نصيرًا» وهكذا ينكسر الوزن. (٧) في الأصل: «فمر» وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) إستبّة: كورة تابعة لقرطبة، كما جاء في المغرب في حلى المغرب (ج ١ ص ٣٥). وأغلب الظن أن المراد هنا: إشتبونة Estepona، الواقعة على البحر المتوسط على مقربة من مالقة.

(٩) ترجمة ابن خميس في بغية الوعاة (ص ٨٦) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠١) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٣٣٤).

حاله: من عائد الصلة[١]: كان، رحمه الله، نسيج وَحْده زهدًا وانقباضًا، وأدبًا وهمّة، حَسَنَ الشَّيبة، جميل الهيئة، سليم الصَّدر، قليل التَّصَنُّع، بعيدًا عن الرِّياء والهوادة[٢] عاملًا على السياحة والعُزْلة، عالمًا[٣] بالمعارف القديمة، مضطلعًا بتفاريق النِّحل، قائمًا على صناعة[٤] العربية والأصْلَين، طبَقَةُ الوقت في الشعر، وفحلُ الأوان في النظم[٥] المُطَوَّل، أقدر الناس على اجتلاب الغريب، ومزج[٦] الجزالة بالسَّلاسة، ووضع الألفاظ البَيانيَّة مواضعها، شديد الانتقا والإرجا، خامدَ نار الرَّوية، منافسًا في الطريقة منافسة كبيرة. كتب بتلمسان عن ملوكها من بني زيّان، ثم فرَّ عنهم، وقد أوجس منهم خيفةً، لبعض ما يجري بأبواب الملوك. وبعد ذلك بمدة، قدم غرناطة، فاهتزّ الوزير ابن الحكيم لتلقّيه، ومتَّ إليه بالوسيلة العلمية، واجتذبه بخُطْبة التلميذ، واستَفَزَّه بتأنيسه وبرِّه، وأقْعَده للإقراء بجواره. وكان يروم الرِّحلة، وينوي السفر، والقضاء يُثَبِّطه. حدّثني شيخنا الرئيس أبو الحسن بن الجياب، قال: بلغ الوزير أبا عبد الله[٧] الحكيم أنه يروم السفر، فشقَّ ذلك عليه، وكلَّفنا[٨] تحريك الحديث بحضرته. وجرى ذلك، فقال الشيخ: أنا كالدَّم بطبعي، أتحرّك في كل ربيع.

شعره: وشعره بديع، فمن ذلك قوله يمدح أبا سعيد بن عامر، ويذكر الوَحْشَة الواقعة بينه وبين أبي بكر بن خَطّاب[٩]: [الوافر]

مَشُوقٌ زارَ رَبْعَكَ يا إماما	مَحا آثارَ دِمْنَتَها التَثاما[١٠]
تَتَبَّعَ رِيقَةَ الطَّلِّ ارتشافًا	فما[١١] نَفَعَتْ ولا نَقَعَتْ أُواما
وَقَبَّلَ خَدَّ وَرْدَتِها جِهارا	وما راعى لِضُرَّتِها ذِماما
وما لِحَرِيمِ بيتك أن يُداني	ولا لِعَلِيّ[١٢] قَدْرِك أن يُساما

(١) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٣٤) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢).
(٢) هذه الكلمة غير واردة في النفح. وفي أزهار الرياض: «والهوى».
(٣) في النفح وأزهار الرياض: «عارفًا».
(٤) كلمة «صناعة» ساقطة من المصدرين السابقين.
(٥) كلمة «النظم» غير واردة في المصدرين السابقين.
(٦) من هنا حتى قوله: «أبو الحسن بن الجياب» غير وارد في المصدرين السابقين.
(٧) في المصدرين السابقين: «أبا عبد الله بن الحكيم».
(٨) في المصدرين السابقين: «وكلّفه».
(٩) ورد فقط البيتان الأول والثاني في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٥).
(١٠) في أزهار الرياض: «الشآما». (١١) في المصدر السابق: «فلا».
(١٢) في الأصل: «العلا» وهكذا ينكسر الوزن.

ولكن عاش في رسم لِمَغْنًى[١] تجشَّمه سلامًا واستلامًا
تنفَّس روضة المطْلُول وَهْنا فحنَّ وشَمَّ[٢] ريّاه فهاما
تلقى طيب بـ. . .ته[٣] حديثا رَوَت مُسْنَدًا عنه النُّعاما
فيا نَفَس الصَّبا إن جئت ساحا ولم تعرف لساكنها مَقاما
وأخطأتَ الطريق إلى حِماها فردَّتك العرادة والخزاما
فلا تُبْصرْ بسَرْحتها قضيبا ولا تُذْعِر بمسرحها سواما
وعانق قُرْبانتها ارتباطًا وصافح كفَّ سَوْسِنها التزاما
ونافح عَرْف زَهْرتها كِبًا تعاطِك ماء ريقَتِها مُداما
ويا بَرْقًا أضاء على أوال يمانيًا متى جِئت الشّآما
أثغر إمامة أنت ابتسامًا أم الدُّرّ الأوامى انتظاما؟
خَفَقْت ببطن واديها لِوًا ولُحت على ثُنَيَّتها حُساما
أمُشْبِهُ قلبي المُضْني احتداما على م ذُدْت عن عيني المناما؟
ولِمَ أسْهَرتني وطردتَ عني خيالًا كان يأتيني لِماما؟
وأبلغ منه تَأْرِيقًا لجفني كلامٌ أثخن الأحشا كِلاما
تعرَّض لي فأيقظت القوافي ولو تُرك القطا يومًا لناما
وقيل وما أرى يومي كأمْسِي جَدَعْتَ رواطبا وقَلَبْت هاما
وجرَّعتَ العدوَّ سُمًّا زُعافًا فكان لحسدِ مَوْتًا زُواما
دعوت زعيمهم ذاك ابتياسا ورُعْت خميسهم ذاك اللُّماما
نزعت شواه كبشهم نطاحا ولم أترك لقَرْمِهم سِناما
أضام وفي يدي قلبي لماذا أضام أبا سعيد أو عَلاما؟
به وبما أذلق من لساني أفل الصارم العَضْب انهزاما
وغرام الوزير أبي سعيد أصرفه إذا شئت انتقاما
به وبنجله البَرّ انتصاري لما أكلوه من لَحْمي حراما
أعثمن بن عامر لا تَكِلْني لدهرٍ عَلَّم الشحّ الغماما
وردتُ فلم أرِد إلّا سرابًا وشِمت فلم أشِم إلّا جِهاما

---

(١) في الأصل: «مغنى» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «وشمُ» وهكذا ينكسر الوزن، ولا يستقيم المعنى.
(٣) بياض في الأصل.

قَطَعْتُ الأرضَ طولًا ثم عرضًا / أزور بَني ممالكها الكراما
وجاجانِي على كرمٍ نداهمْ / وأعجلْتُ الخوافي والقداما
وذلّلت المطامع من إبائي / وقَبّلت البراجم والسَّلاما
ومن أدَبِي نصبتُ لهم حبالا / أصيد بها النَّعام ولا النُّعامى
فلم أر مثل رَبْعي دار أُنس / ولم أر مثل عثمن إماما
ولا كأبيه أو كُنى أبيه / أبيّ يُحيي غيوثًا أو رِهاما
كفاني بابن عامر خَفضُ عَيْشٍ / ورفع مكاتبي إلّا أضاما
وإني من ولائك في يَفاع / أقابل منهم بَدْرَهم التَّماما

ومن شعره، رحمه الله، قوله[١]: [الطويل]

تُراجِعُ مِنْ دنياك ما أنتَ تاركُ / وتسألُها[٢] العُتْبَى وها هي فارِكُ[٣]
تُؤَمِّلُ بَعْدَ التَّرْكِ رَجْعَ ودادِها / وشَرُّ ودادٍ ما تَوَدُّ التَّرائكُ
حلا لكَ منها ما خلا[٤] لك في الصِّبا / فأنتَ على حَلْوائه متهالكُ
تظاهرُ بالسُّلوانِ عنها تجمُّلًا / فقلْبُكَ محزونٌ وثَغْرُكَ ضاحك
تَنَزَّهْتُ عنها نَخْوةً لا زهادةً / وشَعْرُ عِذاري أسودُ اللون حالكُ
لياليَ تُغْري بي وإن هي أعْرَضَت / زنانب من ضَوَّاتها وعَواتِك
غصون قُدودٍ في حِقاف روادِفٍ / تَمايَلُ من ثِقَلٍ بين الأرائك
تُطاعِنُني منهن في كل ملعب / ثُدِيٌّ كأسنان الرماح فواتك
وكم كِلّةٍ فيها هتكْتُ ودونها / صدور العوالي والسُّيوف البواتك
ولا خِدْنَ إلّا ما أعدت ردينه / لطالبها أو ما تحيَّر هالك
تُضِلُّ فواد المرء عن قصد رشده / فواترُ ألحاظ للظُّبا الفواتك
وفي كل سِنٍّ لابن آدم وإن تَطُل / سنوه طِباع جمّةٌ وعوائك
وإلّا فما لي بعد ما شاب مَفْرِقي / وأغْجَز رأيي عَجْزُهنّ[٥] الرَّكارِك

---

(١) بعض أبيات هذه القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٣٧ - ٣٣٨) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٥ - ٣٠٦).
(٢) في الأصل: «وتسلْها» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح وأزهار الرياض.
(٣) الفارك: المرأة التي تكره زوجها. العُتْبى: الاسترخاء. لسان العرب (فرك) و(عتب).
(٤) في النفح وأزهار الرياض: «ما حلا».
(٥) في الأصل: «عَجْزٌ من» وهكذا ينكسر الوزن، ويصبح في القافية عيب الإقواء.

أجوب إليها كلَّ بَيْداء مَمْلَقٍ ترافقني فيها الرجال الحواتك[١]
وأسترشد الشُّهب الشوابك جار إذا اشْتَبهتْ فيها عليّ المسالك
نُهازِز أمثال الجياد تؤودةً اغَوارِب أمثال الهضاب تَوامِك
ظَماء وما غير السَّماوة مورد ويَنْحى وما دون الصآة مبارك
ذواهلُ عن عضّ الرجال ظهورها إذا ما اشتكت عضَّ السروج الموارك
إذا ما نَبا عن سُنْبُك الأرض سُنْبك هَلَعْن فلانَتْ تحتهنَّ السَّنابك
تَقُدُّ بنا في كل قاع وفَدْفَدٍ بوَائكُها والمُنْغيات الدّراهك
فأمامها ريٌّ كالسحاب مَوالِع وأمامها رَكًّا كالرِّياح بَواشك
قِلاصٌ بأطواف الجُديل بَوالع وجُرْدٌ لأوساط الشَّكيم عَوالك
ترامى بها نياقُها كلّ مُرْتَمى فهنَّ نُواح للرَّدى أو هوالك
وكم منزل خَلَّيتُه لطلابها تُعَفِّيه تعدي السّافيات السَّواهك
يمرُّ به زُوّاره وعُفاته وما إنْ به إلّا لصوقٌ حبائكُ
وآثارتنا تقادم عهدهم وهنَّ عليه جاثياتٌ بَوارِك
لوارِب أفراس ونؤى حذاة ثلاث أثافٍ كالحَمام سَوادِك
تمرُّ عليه نَسْمة الفجر مثلما تمرُّ على طيب العروس المداوِك
وأرْكبَ كالشَّهْد يَنْفح بُرْدَه لمجهولٍ حَسيٍّ ما له للدَّهر مُبانك
ويطلبها مِنّي غريمٌ مُماحك ويَمْطُلني منها عديمٌ مُماعِك[٢]
أحاول منها ما تعذَّر في الصِّبا ومن دونه وَقْعُ الحِمام المُواشِك
يُسَلّي الفتى منها وإن راق حُسْنُها حَسائف لا تُحصى هنا ومَبارك
فمنها مَلالٌ دائم لا تَملُّه تزوّر إفكٍ عن رِضى الحق آفِك
تُهاون بالإفك الرجال جهالةً وما أهلَك الأحياء إلّا الأفايك
تزن طول تَسْهادي وقدري تَمَلْملي طَوال الليالي والنجوم النَّوابك
تَغير على الدهر منه جَحافل كأنْ مُدَوّم الرَّجم فيها نَيازك
فليت الذي سوَّدتُ فيها مُعَوَّضٌ بما بيَّضت مني دُجاها الحوالك
ألا لا تُذَكِّرني تِلمسان والهوى وما دَهكت منّا الخطوب الدَّواهك
فإنَّ ادِّكار ما مضى من زمانها لجِسْمي وللصَّبر الجميل لناهِك

---

(١) الحواتك: من حتك، أي أسرع في السير. لسان العرب (حتك).

(٢) المماعك: «المماطل». لسان العرب (معك).

ولا تَصِفَنْ أمواهها لي فإنها لنيران أشواقي إليها مُحارك
ومَنْ حال عن عهدِ أوَ اخْفَر ذِمَّةً فإني على تلك العهود لرامك
سَقَى منزلي فيها وإن مَحَّ رسمُه عِهاد الغَوادي والدُّموع السَّوافِك
وجادت ثَرَى قبرٍ بمسجد صالح رواعِدُها والمُدْجِمات الحواشِك
ولا أقْلَعت عن دار يونس مُزْنة يروّي صداه قطرُها المُتَدارِك
إلى أن يَروق الناظرين رُواؤها ويُرضي الرُّعاوَى نبْتُها المُتَلاحك
ويصبح من حول الحيا في عِراصها زُراق تحاكي بُسُطَها ودَرَانك[1]
ولا برحت منه ملائكةُ الرِّضى تصلّي على ذاك الصَّدى وتبارك
وطوبى لمن روى منازله الحَيا وبُشرى لمن صلّت عليه الملائك
ألا ليت شعري هل تُقَضّى لُبانَتي إذا ما انقَضَت عشرٌ عليها دكادك
وهل مكّن الطَّيفُ المَغِبُّ زيارة فيرقب أو تُلقى إليه الرَّوامك
وهل تَغْفَلُ الأيام عنها بقدر ما تُؤدي إليها بالعِتاب الحالك
ويا ليت شِعري أي أرض تقلُّني إذا كلّ عن رحلي الجلال اللكالك
وأي غرار من صَفاها يحثني إذا فقدتني مسّها والدَّكادك
إذا جَهل الناس الزمان فإنني بدونهم دون الأنام لحاتِك
تَثَبَّت إذا ما قمتَ تعمل خطوة فإن بقاع الأرض طُرًّا شوائك
ولا تَبْذِلن[2] وجهًا لصاحب نعمة فما مثلُ بذل الوجه للسِّتر هاتك
تَجشَّمْ إن[3] استطعْتَ واحذرْ أذاهمْ ولا تَلْقَهُمْ إلّا وهرُّك شانك
فكلٌّ على ما أنعم الله حاسد وكلٌّ إذا لم يَعْصم الله حاسك
ولا تَأْسَ[4] ريبة الزمان فإنه بمَنْ فات منّا لا محالة فاتك
تمنّى مصاب بربر وأعاره وترضى ذكامي فارس والهنادك
وبَدّرْتُ ليلَ الجُون حَوْضَ لجاجها[5] وتعرف إقدامي عليها المهالك
فما أذْعَنَتْ إلّا إليَّ عُشارٌ ولا أصْفَقَتْ إلّا عليَّ الشكاشك
ولا قَصَدَتْ إلا فَنائي وفودُها ولن أملتْ إلّا قتامي الضرارك
به شَرُفَتْ أذواؤها وملوكها كما شَرُفَتْ بالنُّوَيهار البرامك

---

(١) الدرانك: ضرب من البسط.
(٢) في الأصل: «تبذل» وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «ما» وهكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «تأنس» وهكذا ينكسر الوزن.
(٥) في الأصل: «وبَدّرت الليالي الجون حوضي لجاجها» وهكذا ينكسر الوزن.

فـلا تَـدْعُـوَنْ غـيـري لـدفـع مُـلِمّـةٍ إذا ما دهى من حادثِ الدهرِ داهك[١]
فمـا إنْ لـذاك الصوت غيري سامعٌ وما إن لبيت المجد بَعْديَ سامِكُ[٢]
يَغَصُّ ويَشْجَى نَهْشَلٌ ومُجاشعٌ بمـا أوْرَثَتْني حِمْيَرٌ والسكاسكُ[٣]
تفارقني روحي[٤] التي لَسْتُ غيرها وطيبُ ثنائي[٥] لاصقٌ بيَ صائك[٦]
وماذا عسى ترجو لِداتي وأرتجي وقد شَمِطت منا[٧] اللِّحا والأفانك[٨]
يعود لنا شَرْخُ الشَّباب الذي مضى إذا عـاد لـلدُّنـيـا عَـقـيـلٌ ومـالـكُ

ومن شعره أيضًا قوله: [الكامل]

سَحَّتْ بساحِك يا محلَّ الأدمع وتَـصَـرَّمَـتْ سقًّا عليك الأضلُعُ
ولطالما جادتْ ثرى الآمال من جاوي مؤمّلك الغُيُوثُ الهُمَّعُ
لله أيـام بـهـا قَـضَّـيْـتُـهـا قد كنت أعلم أنها لا ترجع
فلقد رَشَفْتُ بها رُضابَ مُدامةٍ بنسيم أنفاس البديع تُشَعْشِعُ
في روضة يرضيك منها أنها مَرْعَى لأفكار النُّدام ومَشْرَع
تجري بها فِقَرٌ سَكَنْتُ رهانها أجْدَى بميدان الكلام وأسْرَعُ
فِقَرٌ كريعان الشباب وعَهْدُنا بجنابها وهو الجناب الأمنع
نَفّاثة الأنواء في عقدِ الثَّرى والنَّفْثُ في عقد الثَّرى لا يمنع
حتى إذا حاك الربيع برودها وكسا رُباها وَشْيُه المُتَنَوّع
بدأتْ كمائمُ زَهْرِها تُبْدي بها بِـدَعًـا تُـفَـرِّق تـارة وتُـجَـمِّـع
قد ضُمَّ منها ما تجمَّع مُغْلق إذ بُثَّ منها ما تَفَرّق مُضقع
وكلاهما مهما أردْتَ مُسالم ومُـحـاربٌ ومُـؤمِّـنٌ ومُـرَوِّعُ
كُلٌّ لـه شَـرْعُ الـبـيـانِ مُـحَـلّلٌ ومنكَرٌ[٩] في مثل هذا مُذْفَع
حيث ازدهت أنوار كلِّ حديقة أدبًـا يُـنَـظِّـمُ تـارة ويُـسَـجِّـع

---

(١) الداهك: الطاحن الكاسر. لسان العرب (دهك).
(٢) السامك: الرافع للقواعد المحلي للبناء. لسان العرب (سمك).
(٣) نهشل ومجاشع وحمير والسكاسك: قبائل عربية.
(٤) في النفح وأزهار الرياض: «الروح».
(٥) في الأصل: «ثناى» وهكذا ينكسر الوزن والتصويب من النفح وأزهار الرياض.
(٦) الصائك: اللاحق. محيط المحيط (حوك). (٧) في النفح وأزهار الرياض: «مني».
(٨) الأفانك: جمع إفنيك وهو مجمع اللحيين. لسان العرب (فنك).
(٩) في الأصل: «المُنْكَر» وكذا ينكسر الوزن.

فَمُرَجَّلٌ من رقمها ومُهلَّل ... ومُسَمَّطٌ من نظمها ومُصَرَّع
أبدى البديعُ بها بدائعَ صُنْعه ... فمُجَنَّس ومُبَدَّل ومُرَصَّعُ
ومُوَشَّحٌ ومُرَشَّح ومُصَدَّر ... ومُكَرَّر ومُفَرَّع ومُتَبَّع
كلُّ يروقُ بها بحُسْنِ رُوائه ... وإذا تَزيِنُ به كلامَكَ تَبْرَعُ
ولقد غدوْتُ بها وفي وَكَناتها ... طيرٌ لها فوق الغصون ترَجّع
بمُطهَّم الفكر الذي ما إنْ له ... إلّا بمُسْتَنٌ الأدلّة مَرْتَعُ
قيد المطالب لا نزال[1] نحبُّه ... بين الجياد لعتقه أو يوضع
أرمى به الأمدَ البعيد وإنه ... جِمْلٌ يضلُّ به الدليلُ الأصمع
مِنْ بَعْدِ ما عَفَتِ السَّواري سُبْلَهُ ... ومَحَتْ معالمه الرِّياح الأربع
لكنني جَدَّدْتُ داثر رسمه ... فطريقه من بعد ذلك مَهْيَعُ
أوضحْتُ فَهْمَ حدُوده وضُروبه ... والكلُّ في كلّ المسالك يَنْفعُ
حتى وَرَدْتُ من السماع مواردًا ... فيها لظمآن المباحث مَكْرع
مع كل مصقول الذكاء فَحَذْسُه ... لذكاء أسرار الطبائع مَطْلَع
يرتاد من نَجْع العناصر نُجْعَة ... فيها مصيفٌ للعقول ومَرْبَع
لا شيء أبدع مِنْ تَجاوُرِها وما ... يُبْدى[2] بها ذاك التجاور أبدع
فإذا تَشْعشَع مَزْجُها أورى بها ... نار الحُباحب مَزْجَها المُتَشَعْشع
فمَكِينُ سرّ حياته بحبابها ... من بعد قَدْح زنادها مستودعُ
وهنا تُفاض عليه صورتُهُ التي ... لبهائها شُمُّ الطبائع تخضعُ
من واهب الصُّوَرِ التي قد خصَّها ... ببديع حكمته الحكيمُ المبدع
ربٌّ له في كل شيء حِكْمة ... يقضي بها البَدْعيُّ والمُتشرّع
وحللْتُ من أرض الرياضة أرْبُعًا ... نفسي الفداء لها وهذي الأربع
قامَتْ زواياها فما أوتادها ... إلّا تقوِّمُ ما تقيم الأضلع
وتناسبٌ أقدارُها نسبًا لها ... لو كنتَ تُبْصرها فروعٌ فُرَّع
فأجَلّ ما قد سُمْته بحلولها ... مِن بارقٍ لجَنابِ رُشْدي يلمع
لا شك أنّ وراءه مطرًا له ... في كل ضَرْب من قياسي موقع
بحرٌ رويٌّ مُترَعٌ مُلّاحُه ... من فيضه هذا الرّوِيُّ المُتْرَعُ

(١) في الأصل: «لا يزال».

(٢) في الأصل: «يبتدى» وكذا ينكسر الوزن.

لِمْ لا أضيع بها عِهاد مدامعي … إني إذًا لعُهودِها[١] لمُضيِّعُ

خِلّيّ، لو لم تسعداني في البكا … لقطعتُ من حَبْلَيكما ما يُقْطع

أرأيتما نَفْسًا تفارق جسمها … وبه تَنَعُّمُها ولا تتوجَّع؟

عَظُمَتْ رزيَّتُها وأيّ رزيَّة … ظلَّت لها أكبادنا تَتَصدَّع

هذي حَمامُكَ، يا عليُّ، سَواجِعٌ … وأخالُها أسَفًا عليها تُسْجِع

إن طارَحَتني وِرْقها فبأضلعي … شوقٌ يطارحه ادِّكارٌ مُوجِع

آه على جسمي الذي فارقْتُه … لا كنتُ مِمَّن جسمه لا يَرْجِع

ومن العُجاب رجوعُ ما أودى به … دَهْرٌ بتشتيتِ[٢] الأحِبَّة مولعُ

الجورُ منه إذا استمرّ طبيعةٌ … والعَدْلُ منه إذا استقام تَطَبُّعُ

هذي عقوبةُ زلَّةٍ سَلَفَتْ بها … مِنْ أَكْلِ طُعْمته التي لا تُشبع

قد كنتُ أمنع رَسْخ نفسي قبلها … واليوم أوجبُ أنّه لا يُمنح

لِمَ لا وقد أصبحْتُ بعد محلَّة … فيها السحائب بالرغائب تهمع؟

دار يدرُّ الرزق من أخلاقها … ولكم دعا داعٍ بها من يُوضع

وكأنّ مجلسها البهيَّ بصدرها … مَلِكٌ بأعلى دَسْته متربِّع

وكأنّ مجْمَر عنبرٍ بفنائها … يُذكي وما[٣] قد سِيفَ منه يسطع

وكأنها المُتَوكلية بهجةً … وعليٌّ بن الجَهْم فيها يُبْدع

في حجْرِ ضَبٍّ خافضٍ بجواره … من كان قَبْلُ له العوامل تُرْفع

يا نَفْثة المصدور كم لك قبلها … من زَفْرَةٍ بين الجوانح تَسْفَع

وعساك تَنْقع غُلّةً بك إنها … بجحيم ما أَسْبَلْته لا تنقع

لله أنت مذاعةً أَوْدَعْتها … من كل سِرٍّ بالضمائر يُودَع

بدويَّةٌ في لفظها ونظامها … حضَريةٌ فيما به يُتَرَجَّع

لِمَ لا تَشْفَع في الذي أشكو بها … ومثالُها في مثله يُتَشَفَّعُ؟

كَمُلَتْ وما افترعَتْ فأيّ خريدة … لو كان يفرعها همام أروع

بارتْ عليَّ فأصبحَتْ لحيائها … مني بضافي مِرْطها تتلفَّعُ

---

(١) في الأصل: «العهوها» وكذا لا يستقيم المعنى ولا الوزن.

(٢) في الأصل: «بتشتّت»، وكذا ينكسر الوزن. (٣) في الأصل: «ما» وكذا ينكسر الوزن.

ومن شعره قوله يمدح ذا الوزارتين أبا عبد الله بن الحكيم، وهي من مشاهير أمداحه[١]: [الطويل]

سَلِ الرِّيحَ إن لم تُسْعِدِ السُّفْنَ أنواءُ ... فعند صبَاها من تِلِمْسانَ أنباءُ
وفي خَفقانِ البرقِ منها إشارةٌ ... إليكَ بما تَنْمي إليها[٢] وإيماء
تمرُّ الليالي ليلةً بعد ليلة ... وللأذن إصغاءٌ وللعينِ إكلاء[٣]
وإني لأصْبُو للصَّبا كلّما سَرَتْ ... وللنَّجْم مهما كان للنَّجم إصْباء[٤]
وأُهْدي إليها كلَّ حين[٥] تحيَّةً ... وفي رَدِّ إهداء التحيةِ إهداء
وأستَجْلِبُ النومَ الغِرارَ ومضجعي ... قَتادٌ كما شاءتْ نواها وسُلّاء[٦]
لعلّ خيالًا مِنْ لَدُنْها يمرُّ بي ... ففي مُرِّه بي من جَوَى الشوق إبراء
وكيف خُلُوصُ الطَّيف منها وحولها[٧] ... عيونٌ لها في كلِّ طالعة راء
وإني لمشتاقٌ إليها ومُنْبِئٌ ... ببعض اشتياقي لو تمكَّنَ إنْباء
وكم قائلٍ تَفْنى غرامًا بحبِّها ... وقد أخلقتْ منها مِلاء وأملاء[٨]
لعشرةِ أعوامٍ عليها تجرَّمَتْ ... إذا مضى قيظٌ بها جاء إهْراء[٩]
يُطَنِّبُ فيها عائثون وخُرَّبٌ[١٠] ... ويرحلُ عنها قاطنون وأَحْياء[١١]
كأنَّ رماحَ الذاهبين[١٢] لِمُلْكها ... قِداحٌ، وأموالَ المنازل أبداءُ[١٣]
فلا تبغين فيها مناخًا لراكب ... فقد قَلّصَتْ منها ظِلالٌ وأفياء
ومن عجبي[١٤] أن طال سُقْمي ونَزْعُها ... وقُسِّمَ إضْناءٌ علينا وإطْناء[١٥]
وكم أَرْجَفُوا غيظًا بها ثم أرجأوا ... فيكذبُ إرجاف ويَصْدق إرجاء

(١) القصيدة في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٣٦ - ٣٤٠) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٣٥١ - ٣٥٣).
(٢) في أزهار الرياض: «إليك».
(٣) الإكلاء: ترديد البصر. محيط المحيط (كلأ).
(٤) في أزهار الرياض: «إسْراء». (٥) في المصدرين: «كل يوم».
(٦) القتاد والسُّلّاء: شوك. لسان العرب (قتد) و(سلأ).
(٧) في المصدرين: «ودونها».
(٨) أخلقت: بليت. المِلاء: جمع ملاءة. الأملاء: جمع مَلا وهو الأرض الواسعة. لسان العرب (خلق) و(ملأ).
(٩) الإهراء: شدة البرد التي تهرأ الأجسام. لسان العرب (هرأ).
(١٠) في الأصل: «عابثون وحُزّب»، والتصويب من المصدرين.
(١١) في أزهار الرياض: «وثُنّاء». (١٢) في المصدرين: «الناهبين».
(١٣) الأبداء: جمع بَدْء وهو النصيب من الجَزُور. محيط المحيط (بدأ).
(١٤) في المصدرين: «ومن عجبٍ». (١٥) الإطناء: الداء. لسان العرب (طنأ).

يـردّدهـا عُـيّـابُـهـا[1] الـدَّهْـرَ مـثـلـمـا ... يُرَدِّدُ حرفُ الفاء في النطق فأفاء

فيا منزلًا نال الردَى منه ما اشتهى ... تُرى وهل لِعُمْرِ الأنس بعدك إنساء[2]؟

وهل لِلَظَى الحربِ التي فيك تَلْتَظي ... إذا ما انقضتْ أيامُ بُوسك إطفاء؟

وهـل لـي زمـانٌ أرتـجـي فـيـه عـودةً ... إلـيـك ووَجْـهُ الـبِـشْـر أزهـرُ وضّـاء؟

فواسيئي حالي[3] إن هلكْتُ ولم أقلْ ... لصحبي بها الغُرِّ الكرام ألا هاؤا

ولم أَطْرُقِ الدَّيرَ[4] الذي كنتُ طارقًا ... كعادي[5] وبَدْر الأفق أسْلَعُ مِشْناء[6]

أُطِـيـفُ بـه حـتـى تَـهِـرَّ كـلابُـهُ ... وقـد نـامَ عُـسّـاسٌ وهَـوَّم سُـبّـاء

ولا صـاحـبٌ إلّا حُـسـامٌ[7] ولَهْـذَمٌ ... وطِرْفٌ لـخـدِّ الـلـيـل مذْ كـان وَطّـاء

وأسْـحَـمُ قـاريٌّ كَـشَـغْـريَ حُـلْكَـةً ... تلألأ فيه من سَنَى الصبح أضْواء

فـمـا لِشرابي في سـواك مـرارةٌ[8] ... ولا لـطـعـامـي دون بـابِـك[9] إمـراء

ويـا داريَ الأولى بـدربِ حـلاوة[10] ... وقـد جَـدَّ عـيـثٌ فـي بـلاهـا وإزداء

أمـا آنَ أن يُـحْـمـى حِـمـاكِ كـعـهـده ... وتجتاز أحماشٌ[11] عليك وأحماءُ؟

أمـا آن أن يَـغْـشُـو لـنـارِك طـارقٌ ... جـنـيـبٌ لـه رَفْـعٌ إلـيـكِ ودأداء؟[12]

يُـرَجّـي نـوالًا أو يُـؤمِّـلُ دَعْـوَةً ... فـمـا زال قـارٍ فـي ذُراك وقُـرّاء

أَحِـنُّ لـهـا مـا أطّـتِ الـنِّـيبُ حـولـهـا ... وما عاقَها عَنْ مورد الماء أظماء[13]

فـمـا فـاتـهـا مـنـي نـزاع عـلـى الـنّـوى ... ولا فاتني منها على القُرْب إجْشاء[14]

---

(١) في الأصل: «عيّا بها» والتصويب من المصدرين.

(٢) الإنساء: التأخير. لسان العرب (نسأ).

(٣) في أزهار الرياض: «فيا هَيَّ ما لي». ومن هنا حتى البيت (يرجى نوالًا) غير وارد في نفح الطيب.

(٤) في أزهار الرياض: «الدرب». (٥) في المصدر نفسه: «العادِ».

(٦) في الأصل: «أسلغ مسناء». والتصويب من أزهار الرياض. والأسلع: الذي به البرص. والمشناء: الذي يبغضه الناس.

(٧) في الأصل: «الأحسام» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له، والتصويب من الأزهار.

(٨) في أزهار الرياض: «مزازة». (٩) في أزهار الرياض: «مائك».

(١٠) في أزهار الرياض: «مخيلة». (١١) في أزهار الرياض: «ويجتال أحماس».

(١٢) الرفع: المبالغة في السير. والدأداء: أشدّ العدو.

(١٣) أطّتْ: صوّتت. النِّيب: الإبل، واحدها ناب. الأظماء: جمع ظمء وهو المدة التي تنقطع فيها عن ورود الماء. لسان العرب (أطط) و(ناب) و(ظمأ).

(١٤) الإجشاء: مصدر أجشأ؛ يقال: جشأت نفسه من حزن أو فزع: ثارت وجاشت. والإجشاء أيضًا: تحرك النفس بالشوق. لسان العرب (جشأ).

كذلك جَدِّي في صِحابي وأُسْرتي ... ومَنْ لي به من[1] أهل وُدِّيَ إن فاؤوا[2]
ولولا جِوارُ ابنِ الحكيم محمدٍ ... لما فات نَفْسي من بني الدهر إقْماء[3]
حماني فَلم تَنْتَبْ محلّي نوائبٌ ... بسوءٍ ولم تَرْزأْ فؤاديَ أرْزاء
وأكْفاء[4] بيتي في كَفَالة جاهه ... فصاروا عبيدًا لي وهم ليَ أكْفاء
يؤمُّون قصدي طاعةً ومحبةً ... فما عُفْتُه عافُوا وما شِئْتُه شاءوا[5]
دعاني إلى المجد لذي كنتُ آملًا ... فلم يكُ لي عن دعوة المجدِ إبطاء
وبوَّأني من هَضْبةِ العِزِّ تَلْعَةً ... يُناجي السُّها منه[6] صَعودٌ وطأطاءُ[7]
يُشَيِّعُني منها[8] إذا سِرْتُ حافظٌ ... ويَكْلأني منها إذا نمتُ كَلّاء[9]
ولا مثلُ نومي في كفالة غيره ... وللذِّئب إلمامٌ وللصِّلِّ إلْماء
بِغَيضَةِ ليثٍ أن بمرقبِ خالب ... تَنِدّ[10] كُسًا فيه وتُقطع أكساء
إذا كان لي من نائب المُلْك كافلٌ ... ففي حيثما هَوَّمْتُ كِنٌّ وإدْفاء
وإخوانُ صدقٍ من صنايع جاهه ... يُبادرني منهم قيامٌ وإيلاء
سِراعٌ لما يُرْجى من الخير عندهم ... ومنْ كلِّ ما يُخْشى من الشَّرِّ أبراء[11]
إليك أبا عبد الإلـه صنعتُها ... لزوميَّةً فيها لوَجْدِيَ إفشاء
مُبَرَّاةٌ مما يعيبُ لزومَها ... إذا عاب إكْفاءٌ سواها وإيطاء[12]
أذَعْتُ بها السِّرَّ الذي كان قبلها ... عليه لأحناءِ الجوانح إضناء
وإن لم يكن كلُّ الذي كنتُ آملًا ... وأعْوَزَ إكلاءٌ فما عاز إكماء[13]
ومَنْ يتكلَّفْ مُفحَمًا شُكرَ مِنّةٍ ... فما لي إلى ذاك التكلُّف إلجاء
إذا مُنْشِدٌ لم يَكْنِ عنك ومُنْشِىءٌ ... فلا كان إنشادٌ ولا كان إنشاء

---

(١) في النفح: «في».
(٢) في أزهار الرياض: «ودّي إرفاءُ».
(٣) الإقماء: الإذلال. لسان العرب (قمأ).
(٤) في المصدرين: «وأكْفَأ»؛ يقال: أكفأ البيت إذا ستره. لسان العرب (أكفأ).
(٥) في الأصل: «شاءُ». والتصويب من المصدرين.
(٦) في المصدرين: «منها».
(٧) الطأطأ: المنخفض من الأرض. لسان العرب (طأطأ).
(٨) في الأصل: «يشاعني فيها» والتصويب من المصدرين.
(٩) الكَلّاء: الحافظ. لسان العرب (كلأ).
(١٠) في المصدرين: «تَبُزُّ».
(١١) الأبراء: جمع بريء وهو الذي لا ذنب له. لسان العرب (برأ).
(١٢) الإكفاء والإيطاء: عيبان من عيوب القافية. راجع: كتاب القوافي للأخفش (ص ٤٣، ٥٥).
(١٣) الإكماء: كثرة الكمأة. لسان العرب (كمأ).

ومن شعره قوله: [المتقارب]

أطار فؤادي بَرقٌ ألاحا ... وقد ضمّ بعد لوكرٍ جناحا
كأنّ تألُّقه في الدُّجى ... حُسامُ جبانٍ يهاب الكفاحا
أضاء وللعين إغفاءةٌ ... تلذُّ إذا ما سنا الفجر لاحا
كمعنًى خفيٍّ بدا بَعْضُه ... وزِيد بيانا فزاد اتِّضاحا
كأن النجوم وقد غَرُبَتْ ... نواهلُ ماءٍ صَدَرْن قُماحا
لواغب باتت تُجِدُّ السُّرى ... فأدركها الصبح روحي طِلاحا
وقد لبس الليل أسماله ... فمحّت عليه بلًا وانصياحا
وأيقظ روض الرُّبا زهره ... فحيّا نسيمُ صَباه الصَّباحا
كأنّ النهار وقد غاله ... مبيتُ مالٍ حواه اجتياحا
أتى يَسْتَفيض دموعي امتِياحا ... ويُلْهب نار ضلوعي اقتداحا
فلم يَلْقَ دَجْنَ انتحابي شحيحا ... ولم يُلْفِ زَنْدَ اشتياقي شَحاحا
ولولا توقُّد نار الحَشا ... لأَنْفَذْتُ ماء جفوني امتِياحا
وممّا يُشَرِّد عني الكَرى ... هديل حَمام إذا نمْتُ صاحا
ينوح عليّ وأبكي له ... فأقطع لَيْلي بكًا أو نياحا
أَعَيْنُ، أرِيحي أطلْت الأسى ... عليك وما زدت إلّا انتزاحا
دعيني أرِدْ ماء دمعي فلم ... أُرِدْ بعد مائك ماءً قَراحا
أحنُّ إليك إذا سفْتُ ريحا ... وأبكي عليك إذا ذُقْت راحا
وأفنى التياحا إليك وكم ... أشحْتُ بوجهيَ عنك اتِّشاحا
ولولا سَخائم قوم أبوا ... إيابي ركبْتُ إليك الرِّياحا
أباحوا حِمايَ وكم مرة ... حَميتُ حِمى عِرْضهمْ أن يُباحا
ودافعْتُ عنهمْ بشعْري انتصارا ... فكان الجزاء جلائي المتاحا
أباعوا ودادي بَخْسًا فَسَلْ ... أكان سماحُهُم بي رباحا؟
وأغروا بنفسي طلابها ... سَرَارًا فجاءوا لقتلي صَراحا
وآلوا يمينًا على أنّ ما ... توهَّمْتُ لم يكُ إلّا مزاحا
فشاورْتُ نفسي في ذا فما ... رأت لي بغيرِ الفَلاة فَلاحا
فبتُّ أناغي نجوم الدُّجى ... نجاءً فلم ألْقَ إلّا نجاحا

أجوب الدياجير وحدي ولا مؤانسَ إلّا القطا والسِّراحا[١]
وإلّا الثعالب تحتس في مبيتي فتملأ سمعي ضُباحا[٢]
أجوز الأفاحيص فيحًا قفارا وأعرو الأداحيَّ غبْرًا فساحا[٣]
فأعيي شَوارد هذي عداء وأعلو لَواغيَ تلك صياحا
وجوّاب بدو إذا استنبحوا أجابوا عواءً وأمُّوا النُّباحا
يرون قِتالي في الحجر حِلّا وإذهاب نَفْسيَ فيه مُباحا
قصدْتُ هناهمْ فلم أُخطِهم أعاجمُ شوس العيون قباحا
فَسَلْ كيف كان خلاصي من أسَارهم أسرى أم سَراحا؟
ولا مثلُ بيتٍ تَيَمَّمْتُه فلم أُلفِ إلّا الغِنا والسَّماحا
عِيابًا مِلاءً ونِيبًا سِمانًا وغِيدًا خِدالًا وعودًا أقاحا[٤]
وإلّا أعاريبُ شُمُّ الأنوفِ كرامُ الجدودِ فصاحًا صباحا
وإلّا يعافيرُ سودُ العيون يَرَيْن فسادَ المُحِبِّ صلاحا
يُرَدِّدْن فينا لِحاظًا مِراضا يُمَرِّضْن منّا القلوب الصِّحاحا
وتحت الوَجاح طلا رَبْرَبٍ[٥] لَوَ انّ[٦] القيان رفعْن الوَجاحا
أراني محاسنَ منه فلم أطق عن حِماه بقلبي بَراحا
مُحيًّا وسيمًا وفَرْعًا أثيثا وقدًّا قويمًا ورِدْفًا رداحا
وأبْدَى لعيني بدائع لم يدعْ ليَ عَقْلًا بها حين راحا
إذا لم يُرِدْ غيرَ سَفْك دمي فَحِلٌ وبِلٌ[٧] له ما استباحا
وما زلْتُ سَمْحًا بنفسي كذا متى ما رأيتُ الوجوه الملاحا
وبابن رُشَيْد تَعوَّذْتُ من هواه فقد زِدْتُ فيه افتضاحا
وقد ضاق صدريَ عن كَتْمه وأودعْتُه جَفْن عيني فباحا

---

(١) السِّراح: جمع سرحان وهو الذئب. محيط المحيط (سرح).
(٢) الضُباح: صوت الثعلب. محيط المحيط (ضبح).
(٣) الأفاحيص: جمع أُفحوص وهو الموضع الذي تبيض فيه القطا. الأداحيّ: جمع أدحيّ وهو مبيض النعام. محيط المحيط (فحص) و(دحا).
(٤) العِياب: جمع عَيْبة وهي ما يجعل فيها الثياب. والنِّيب: جمع نيباء وهي الناقة المسنّة. والغِيد الخدال: الغليظة الممتلئة. محيط المحيط (عيب) و(نيب) و(خدل).
(٥) الوَجاح: السِّتْر. الربرب: القطيع من بقر الوحش. محيط المحيط (وجح) و(ربرب).
(٦) في الأصل: «لوْ أنّ» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا الهمزة الأصلية همزة وَصل.
(٧) حِلٌ وبِلٌ: حلال ومباحٌ. محيط المحيط (حلل).

وبـابـن رُشَـيْـدٍ تَـعـوَّذْتُ مـن ... خُـطـوبٍ أجَـلْن عـليّ الـقِـداحـا
ألَـحّ الـزمـان بـأحـداثـه ... فألقيتُ طوعًا إليه السِّلاحا
أعاد شبابي مَشِيبًا كما ... سمعْت وصيَّر نسْكي طَلاحا[١]
وفـرَّق بـيـنـي وبـيـن الأهـيـل ... ولـم يَـرَ ذا عـلـيـه جُـنـاحـا
أخـي وسـمـيـيّ، أصِـخْ مُـسْـعـدًا ... لـشجـوِ حَـزيـن إلـيك استـراحـا
فقد جَبَّ ظهري على ضعفه ... كُدامًا وأذهى شواتي نطاحا[٢]
وطـوَّح بـي عـن تِـلِـمـسـانَ مـا ... ظـنـنْـتُ فـراقـي لـهـا أن يُـتـاحـا
وأعـجـل سـيـريَ عـنـه ولـم ... يـدعـنـي أُوَدِّع تـلك الـبِـطـاحـا
نـأى بـصـديـقـك عـن رَبْـعِـه ... فكان له النَّأي موتًا صَراحا[٣]
وكـان عـزيـزًا عـلـى قـومـه ... إذا هاج خاضوا إليه الرِّماحا
فـهـا هـو إن قـال لـم يُـلـتـفـت ... إلـيـه امـتـهـانًـا لـه واطِّـراحـا
عـجـبْـتُ لـدهـريَ هـذا ومـا ... ألاقـي مـسـاءً بـه وصـبـاحـا
لـقـد هَـدَّ مـنِّـيَ ركـنًـا شـديـدًا ... وذلّل مـنِّـي حـيـاءً لـقـاحـا
وُقِـيـتُ الـرَّدى مـن أخٍ مـخـلص ... لو اسْطَعْتُ[٤] طرْتُ إليه ارتياحا
وإنـي عـلـى فَـيْـحِ مـا بـيـنـنـا ... لأتْبَعُ ذاك الشَّذا حيث فاحا
أحـنّ إلـيـه حـنـيـن الـفـحـول ... ونَـوْح الـحـمـام إذا هـو نـاحـا
وأسـأل عـنـه هـبـوب الـنَّـسـيـم ... وخَـفْـقَ الـومِـيـض إذا مـا ألاحـا
وإن شِـئـت عِـرْفـان حـالـي ومـا ... يُعانيه جسمي ضَنًى أو صَحاحا
فـقـلبٌ يـذوب إلـيك اشـتـيـاقـا ... وصَـدْرٌ يـفـاح إلـيـك انـشـراحـا
وغَـرْسُ ودادٍ أصـاب فَـضـاءً ... نَـديًـا وصـادف أرضًـا بَـراحـا
كـراسـخِ مَـجْـدٍ تـأثَّـلْـتـه ... فلم تخش بَغْدُ عليه امتِصاحا
وعـلـيـاءَ بُـوِّئـتَـهـا لـو بَـغَـى ... سُمُوًّا إليها السِّماك لطاحا
مـكـارمُ جَـمَّـعْـتَ أفـذاذَهـا ... فكانت لعطف عُلاك وِشاحا
ودرسُ عـلـومٍ تـهـيـم بـهـا ... عَـمَـرْتَ الـغُـدُوَّ بـه والـرَّواحـا

---

(١) الطَّلاح: ضدّ الصلاح. محيط المحيط (طلح).
(٢) جَبَّ: قطع. والكُدام: أصل المرعى وهو نبات يتكسّر على الأرض. محيط المحيط (جبب) و(كدم).
(٣) الصَّراح: الخالص من كل شيء. محيط المحيط (صرح).
(٤) في الأصل: «استطعت»، وكذا ينكسر الوزن.

نـشـأتَ عـن الـخـيـر واغـتـذتَـه | فـلم تَـذرِ إلّا الـتُّـقـى والـصَّـلاحـا
وقُـمْـتَ لـهـا أيّـمـا رحـلـة | كَسَختَ المعارف فيها اكتساحا
بـهـرْتَ رجـال الـحـديـث اقـتـداءً | وفُـتَّ رجـال الـكـمـال اقـتـراحـا
فـمـا إن جـلـيـس إذا قـلـت قـال | أَوَ انَّ[1] الخطيب إذا لُحتَ لاحا
ولـو لـم تـحـجَّ بـهـا مـكـة | لَحجّ الـمـلائـك عـنـك صُـراحـا
وأمـا أنـا بـعـد نَـهْـي الـنُّـهـى | فـمـا زادني الـطَّـبْـعُ إلّا جِـمـاحـا
أديـرُ كـؤوسَ هـواي اغْـتِـبـاقـا | وأشـرب مـاء دمـوعـي اصْـطِـبـاحـا
فـبـرْدُ جـواي بـردُ جـواب | تُـوَبِّـخُ فـيـه مَـشـيَ الـوُقـاحـا
وهـنّ بُـنَـيّـاتُ فـكْـري وقـد | أتَـيْـتَـك فـاخـفِـضْ لـهـنَّ الـجَـنـاحـا

ومن شعره، رحمه الله، وله يمدح ذا الوزارتين المتقدم ذكره، ويذكر غِفارةً وجّهها له مع هدية: [الكامل]

كَبَتِ العِدى، إنعامُك البَغْتُ | فَلي الـهـنـاءُ[2] ولـلـعِـدى الـكَـبْـتُ
يـا مـن إلـى جَـدْوى أنـامـلـه | يُزْجى السَّفينُ وتُزْجَرُ البُخْتُ[3]
لـولاك لـم يُـوصـل بـنـاحـيـة | وَخْدٌ ولـم يُـقْـطـع بـهـا دَشْـتُ[4]
لـولاك لـم يَـطـلـع بـهـا نَـشـرٌ | مـنـه ولـم يَـهْـبـط بـهـا خَـبْـت
خَـوَّلْـتَـنـي مـا لـم تَـسَـعْـه يـدي | فـأصـابـنـي مِـنْ كُـثْـره غَـمْـتُ[5]
شـتَّـى أيـادٍ كـلـمـا عَـظُـمَـتْ | عـنـدي تَـلَـكَّـأَ خـاطـري الْـهَـتُّ[6]
يَـعْـيَـا لـسـانـي عـن إذاعـتـهـا | ويضيقُ عن شكري لـهـا الـوقـت
وطّـأتَ لـي الـدنـيـا فـلا عِـوَجٌ | فـيـمـا أرى مـنـهـا ولا أمْـتُ
أمْـكَـنْـتَـنـي مـنـهـا فـمـا لـيـدي | ردء ولا لـمـقـالـتـي عـتُّ
بـالـغـتَ فـي بـرّي ولا نَـسَـبٌ | أُدْلـي إلـيـك بـه ولا حَـسْـبُ

(١) في الأصل: «أو أنّ» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا الهمزة الأصلية همزة قطع.
(٢) في الأصل: «الهنا» وكذا ينكسر الوزن.
(٣) في الأصل: «للسفين» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى. والسفين: جمع سفينة وهي المركب. والبُخْتُ، بضم الخاء: الإبل الخراسانية. محيط المحيط (سفن) و(بخت).
(٤) الدَّشت: الصحراء. محيط المحيط (دشت).
(٥) الغَمْتُ هنا بمعنى: التخمة؛ يقال: غَمَتَه الطعامُ: ثَقُل على قلبه فصيّره كالسكران. محيط المحيط (غمت).
(٦) الهَتّ: المكسور؛ يقال: هَتَّ الشيءَ إذا كسره وفتّه. محيط المحيط (هتت).

لـكـنَّ حَـسْـبـي إن مَـتَـتُّ بـه ... يـومًـا إلـيـك وِدادي الـبَـخْـتُ
بـوركْـتَ مـن رجـل بـرؤيـتـه ... يُوسى الضَّنى ويُعالجُ الغَتُّ[1]
لـو سار فـي بـهـمـاءَ مُـقْـفِـرةٍ ... فـي حـيـث لا مـاءٌ ولا نَـبْـتُ
لـتـفـجَّـر الـمـاء الـنَّـمـيـر بـهـا ... ولأعـشـبـتْ أرجـاؤهـا الـمَـرْتُ
لا تَـحْـسَـبَـنَّ الـبُـخْـت نيل غِنًى ... نيـلُ الـرضـا مـنـه هـو الـبَـخْـتُ
آلـت جـلالـتُـه وحـقٌّ لـهـا ... أن لا يـحـيـط بـكُـنْـهِـهـا نَـعْـتُ
أظْـهَـرْتَ دِيـنَ الله فـي زمـن ... مـا زال يَـغْـلِـب حـقَّـهُ الـبَـهْـتُ
شَـيَّـدْتَـه وهَـدَدْتَ مُـمْـتـعـضًـا ... لـضـيـاعـه مـا شـيَّـد الـجِـبْـتُ[2]
أمَّـنْـتَ أرض الـمـسـلـمـيـن فـلا ... ذِئـب يُـخـاف بـهـا ولا لِـصْـتُ[3]
وحَـفِـظْـتَـهـا مـن كـل نـائـبـة ... تُخشى فأنت حفيظُها الثَّبْت
ونهجْتَ سُبْلَ[4] المَكْرُمات فما ... لـمـؤمِّـلٍ عـن غـايـه أَلْتُ[5]
لـم تُـبْـقِ غُـفْـلًا من مَـتـالـعـهـا ... إلّا وفـيـه لِـحـائـرٍ بُـرْتُ[6]
هـادِنْ طُـغـاة الـكُـفْـر مـا هـدأتْ ... حتى يجيء نهارُها المَحْتُ[7]
دَغْـهـا تـودَّع فـي مـعـاقـلـهـا ... ما لم تَعُدَّ جُفاتها العَفْتُ[8]
كـم ذُدْتَـهـا عـنّـا وقـد هَـبَـرَتْ ... لـهـراشـنـا أشـداقُـهـا الـهَـرْت[9]
بـوقـوف طَـرْفِـك عـنـد شـدَّتـه ... يَنْأى ويَفْخَرُ مِلْكُها الرَّتُّ[10]
والشُّكْرُ[11] ما أظْهَرْتَ من كرم ... في ذاك تفصح عُجْمَها المَرْتُ
لك من ممالكها وإن رَغُمَتْ ... ما جال فيه جوادك الحَتُّ[12]
ولـكـلِّ أَصْـيَـدَ مـن بـطـارقـهـا ... فـي كـلِّ أزيٍ لـه دَغْـتُ[13]

---

(١) الغَتّ: الغمّ والحزن. لسان العرب (غتت).
(٢) الجِبْت: الذي لا خير فيه. محيط المحيط (جبت).
(٣) اللِّصْتُ: اللصّ. محيط المحيط (لصت). (٤) في الأصل: «سبيل» وكذا ينكسر الوزن.
(٥) الألْت: مصدر ألَتَه، أي حبسه وصرفه عن وجهه. محيط المحيط (ألت).
(٦) البُرْت: الدليل الماهر. محيط المحيط (برت).
(٧) النهار المَحْتُ: الحارّ. محيط المحيط (محت).
(٨) العَفْت: مصدر عَفَتَ؛ يقال عَفَتَ الشيءَ إذا لواه وكسره. محيط المحيط (عفت).
(٩) الأشداق الهَرْت: الواسعة. محيط المحيط (هرت).
(١٠) الرَّتُّ: الرئيس. محيط المحيط (رتت). (١١) في الأصل: «ويشكر»، وكذا ينكسر الوزن
(١٢) الحَتُّ: الساقط. محيط المحيط (حتت).
(١٣) الدَّغتُ: الدَّفع الشديد. محيط المحيط (دعت).

لـولا لـبـاكُ الـبـيـض مـا أرِقَـتْ ... لـلـقـائـهـا أفـراسُـنـا الـكُـمْـتُ
عـنـدي[١] لِمَـنْ يَـنْـتـابُـه مـقـةٌ ... ولـمـن يُـنـيـب لـغـيـره مَـقْـتُ
ولَوَ آنَّ[٢] بِيضَـك لـم تَسَـلْ لـمّـا ... ذُلّتْ أُنـوفُ طُـغـاتـهـا الـسُّـلْـت
يا ابن الحكيم أمِنْتَ صَرْفَ ردًى ... أَبـدًا لـه فـي أَثْـلـتـي نَـحْـتُ[٣]
وبـيُـمْـنـهِ أَنَـسْـتُ مـن أمـلـي ... مـا لـم يـكـن يـومًـا لـه عَـرْت[٤]
مَـثْـنـى الـوزارة مـوئـلـي ولـه ... مـا دمْـتُ أمْـلِكُ قُـدرتي أقْتُ[٥]
وبـبـأسـه أُطْـفِـي شـرارةَ مَـنْ ... يَـغْـتُـو وأقْدَحُ أَنْـفَ مـن يَـعْـتو[٦]
عـمَّ الـورى جودًا وفـضـلَ غِـنًـى ... حـتـى تـسـاوى الـعَـدُّ والـغَـلْـتُ[٧]
وَهْـمـي عـلـى عـالٍ ومُـنْـخَـفـض ... لـم يـبـق فـوقٌ لا ولا تـحـتُ
ظِـلٌّ إذا نـصـطـافُ مـعـتـدلٌ ... عَـطِـرُ الـشَّـذا وَحَـيًـا إذا نَـشْـتو[٨]
يـتـضـاءل الـصـبـح الـمـنـيـر إذا ... لاقـى سَـنـاه جـبـيـنـك الـصَّـلْـتُ
حتى كـأنْ شـمـس الـضـحـى قـمـرٌ ... وكـأنَّ ضـوء شـعـاعـهـا فَـخْـتُ[٩]
وغـريـبـة فـي لُـطْـف صَـنْـعـتـهـا ... يَـمْـضِـي الزمان ومـا لـهـا أُخْـتُ
يَـنْـأى الـنَّـدى بـهـا إذا لَـبِـسَـتْ ... ويَـتـيـه إن طُـويَـتْ بـهـا الـتَّـخْـتُ
زنْـجِـيَّـةٌ لـكـنْ لِمَـخْـتـدهـا ... في الرُّوم يعنو القسُّ والشَّنْتُ[١٠]
مـثـلُ الـعـروس عـلـى مِـنَـصَّـتـهـا ... من شـأنـهـا الـتَّـزْيـيـن والـزَّتُّ[١١]
لأكـونَ أنـحـلَ مـا أكـون هُـدًى ... فـيـهـا فـيَـغْـبُـلُ جـسـمـيَ الـشَّـخْـتُ
وبـمـثـل شَـيْـبـي فـوق حُـلْـكَـتـهـا ... يَـبْـدو الـوقـارُ ويـحـفـظُ الـسَّـمْـتُ
تُـظْـهِـرُنـنـي[١٢] بـلـبـاسـهـا وبـه ... عـنـدي لـهـا الإيـثـار مـا عِـشْـتُ

---

(١) في الأصل: «عنده»، وكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الأصل: «ولو أنَّ» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا الهمزة الأصلية همزة وصل.
(٣) الأثلة: الأصل؛ وقوله: له في أثلتي نحت: أي يطعن في حسبي. محيط المحيط (أثل).
(٤) العَرْتُ: الشدّة والاضطراب. محيط المحيط (عرت).
(٥) الأَقْتُ: الوقت المعين. محيط المحيط (أقت).
(٦) في الأصل: «يعت» بدون واو.
(٧) الغَلْتُ: الغلط. محيط المحيط (غلت).
(٨) في الأصل: «نشت» بدون واو.
(٩) الفَخْتُ: ضوء القمر أول ما يبدو. محيط المحيط (فخت).
(١٠) الشَّنْتُ: كلمة إسبانية Santo، وتعني القديس.
(١١) زَتُّ العروس: تزيينها. محيط المحيط (زتت).
(١٢) في الأصل: «تظهريني» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

لا زلتَ تُؤثرني بها أبدًا ... ولا تفِ من يشقَى بذا السَّلتُ
وبقيتَ تدرك ما تُريد وما ... تَهْوى بقاءً ما له فتُّ

ومن شعره أيضًا في المدح قوله، رحمه الله، من قصيدة ثبتت في ديوانٍ مجموع من أمداحه منها قوله: [الكامل]

طرقَتْك وَهْنًا أختُ آل علاجِ ... والرَّكْبُ بين دَكادِكٍ وحِراجِ
في ليلةٍ لَيْلاءَ لم ينبخ بها ... كلبٌ ولم يصرخ أذينُ دجاجِ
أنى اَهْتَدَتْ لمضللين توهّنوا ... منها لِهَتْكِ دياجرٍ ودَياج
مُتَسَربلي بُرْدَ الظَّلام كأنهمْ ... فيه قِداحٌ في رماية ساج
وثِقوا بمحمود السُّرى وتسَلَّموا ... لمخارمٍ مجهولةٍ وفجاج
ومنازلٌ دُرْسُ الرسوم بلاقعٌ ... أخوين من هيج ومن هِجْهاج
مَحَّتْ معالمُهنَّ غير مُثَلَّم ... كسِوار تاج أو كَدِمْلَج عاج
ومَواثلٌ مثل الحَمام جواثمٌ ... وُرْقٌ وأسْمَجُ دائم التَّشْحاج
ومُشجَّجٌ ما زال مَنْهل الحيا ... يبكي صداه بدمعه الثَّجَّاج
حتى أعاد لعوده أوراقَه ... خُضَرَ الظِّلال ذكيّة الآراج
وكسا عَراة عِراصه من وَشْيه ... حُللًا تُبَوِّر صنعة الديباج
لا مثل ليلات مَضَيْن سريعة ... بَرَدَتْ حرارة قلبي المهتاج
أدركْتُ منها في صباي مطالبي ... وقضيْتُ منها في شبابيَ حاجي[1]
كم ليلة مرَّت ولم يشعر بها ... غيري وغَيْرُ منادمي وسراجي[2]
بتْنا نُدِير إلى انبلاج صباحها ... كأس الهوى صِرْفًا بغير مِزاج
وتُدير أعيُننا حديثَ غرامنا ... بمرامزٍ من فضّها وأحاج
بمآرج النَّفحات من دارين أو ... بمدارج النَّسمات من دَرَّاج
وخلوص وُدٍّ في نَقَاء سريرة ... كَسُلافِ راحٍ في صفاء زُجاج
أمْحَضْتُه حَظِّي من الزمن الذي ... أغيا مرامي أهله وعلاجي[3]
واخترْتُ قرب جواره لخلوصه ... وتركت كلَّ مُماذق[4] مزّاج
ما في زمانك غيره فاخلصْ له ... غَيْبًا وداهِنْ مَنْ أردْتَ وداج
لا تحفلنَّ بغيره واستغْنِيَنْ ... بوقاره عن كل غَمْر ماج

(١) في الأصل: «حاج» بدون ياء.
(٢) في الأصل: «وسراج» بدون ياء.
(٣) في الأصل: «وعلاج» بدون ياء.
(٤) مماذق: غير مخلص. محيط المحيط (مذق).

اتْرُكْ بني الدنيا وأعرِضْ عنهُمُ ... فعساك تُطْعم لذَّة الإثلاج
نزَّهْتُ نفسي عنهُمُ بنواله ... وحَفِظْتُها من جاهه بسياج
أصبحْتُ من آلائه وولائه ... في عزَّة ضَخْيا وعزٍّ داج
ولَوَ انّني[1] عجْتُ الركابَ مُيمِّما ... أحدًا سواه ما حَمِدْتُ مَعاجي[2]
طَلْقٌ إذا احتلك الزمان أنار في ... ظلمائه كالكوكب الوهّاج
طُودُ الرَّصانة والرَّزانة والحِجا ... بَحْرُ النَّدى المتلاطم الأمواج
وغمامُه الهامي على آماله ... من غير إرْعاد ولا إزعاج
وهِزَبْرُ آجام القنا الضّاري إذا ... سقطت عواتمها على الأزجاج
ضَمِنَ الإلٰه له على أعدائه ... ما شاء من ظَفرٍ ومن إفلاج
أبقى أبو عبد الإلٰه محمدٌ ... ما شاد والده أبو الحجّاج[3]
وبنى أبو إسحٰق قَبْلُ وصِنْوُه ... رُكْنا الضعيف ومَغْدِنا المحتاج
وجرى على آثار أسْلافٍ لهمْ ... دَرَجوا وكُلُّهُمُ على مِنْهاج
ما مِنْهُمُ إلّا أعزُّ مباركٌ ... مصباح ليل أو صباح عَجاج
بيتٌ بنوه من سراوة حِمْير ... في الذِّرْوة العَلْياء من صِنْهاج
كم كان في الماضين من أسلافهمْ ... من رَبِّ إكليلٍ وصاحب تاج
أساسُ كل رئاسةٍ ورؤوسُ كُلْـ ... ـلِ سياسةٍ وليوث كل هياج
أغيَتْ نجوم الليل من سهر وما ... أعيا أبو موسى من الإدلاج
حتى أصارته لرحمة ربّه ... يومَ العقاب وقيعةُ الأغلاجِ
وأقيم نَجْلُ أخيه بعد مقامه ... فيهم يطاعن مثله ويواج
فرْدًا يَلفُّ كتائبًا بكتائب ... ويكبُّ أفواجًا على أفواج
حتى تجلَّى دَجْنُ كلِّ عجاجةٍ ... عنهمْ وأمسك رَغْد كل ضجاج
مَنْ مِثْلُ يوسفَ في قراع كتائب ... ولقاء أعداءٍ وخوض لجاج؟
أو مَنْ يشقُّ من الأنام غُبارَه ... في ردِّ آراءٍ ونقض حجاج

---

(١) في الأصل: «ولو أنني» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا الهمزة الأصلية همزة وصل.
(٢) في الأصل: «معاج» بدون ياء.
(٣) أبو عبد الإلٰه محمد هو الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر، وقد تقدمت ترجمته في أول هذا الجزء من الإحاطة. ووالده أبو الحجاج هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر، وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

إن خاض يومًا في بيان حقيقة أنْهى عن الثّوري والحلّاج[1]
وإذا تكلّم في الغريب وضَبْطه لم يَعبَأ بالعُتْبيّ والزّجّاج[2]
أنْسَتْ قصائدَ جَرْولٍ أشعارُه وأراجز العِجْليّ والعجّاج[3]
جمع الفصاحة والصبّاحة والتقى والجود في وَجْدٍ وفي إحراج
تخشاه أُسْدُ الغاب في أجَماتها والرُّوم في الأسوار والأبراج
إنّا بني قحطانَ لم نُخْلَقْ لغيـ ـرِ غِياثِ ملهوفٍ ومنعةِ لاج
نُبْري طُلى الأعراب في الهيجا وفي اللـ أواءِ سوف نُماري الأعراجي[4]
بسيوفنا البيض اليمانية التي طُبِعَتْ لحَزِّ غَلاصِمٍ ووِداج
تأبى لنا الإحجام عن أعدائنا يوم اللِّقاء طهارة الأمشاج
أنصارُ خير العالمين وحزْبُهُ وحماتُه في الجَحْفل الرَّجْراج
وفداته بنفوسهِمْ ونَفيسهِمْ من غَدْرِ مُغتال وسُبَّة هاج
هُمْ صَفْوة الخلق التي اختيرتْ له وسواهُمْ هَمَجٌ من الأهماج
إلّا الأُلى سبقوا بباهر فضلهم من سائر الأصحاب والأزواج
وكفى بحِكْمتنا إقامةُ حُجَّةٍ وبِرُكْنِنا من كَعْبَةِ الحجّاج
ولنا مفاخرُ في القديم شهيرةٌ كالصُّبح في وَضَحٍ وفي إبْلاج
منّا التّبابعة الذين ببابهِمْ كانت تُنِيخ جُباةُ كلِّ خراج
ولأمرهم كانت تُدين ممالِكُ الـ ـدُّنيا بلا قَهْرٍ ولا إحراج
من يقتدحْ زَنْدًا فإنَّ زِنادَهُمْ في الجود واريةٌ بلا إخراج

---

(١) الثوري: هو سفيان بن سعيد الثوري، إمام علم الحديث وغيره من العلوم. توفي سنة ١٦١ هـ. وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٣٢٢). والحلاج: هو الحسين بن منصور، الزاهد المشهور، والمتوفى سنة ٣٠٩ هـ. الفهرست (ص ٣٢٨).

(٢) العُتْبي: هو محمد بن عبيد الله بن عمرو، الذي اشتهر بالفصاحة. توفي سنة ٢٢٨ هـ. معجم الشعراء (ص ٤٢٠). والزجاج: هو إبراهيم بن محمد بن السري، النحوي، المتوفى سنة ٣١٠ هـ. بغية الوعاة (ص ١٧٩).

(٣) جَرْول: هو جرول بن أوس بن مالك، المعروف بالحُطَيئة. توفي نحو ٣٠ هـ. فوات الوفيات (ج ١ ص ٢٧٦). والعِجْلي: هو الأغلب بن عمرو بن عبيدة، شاعر راجز، توفي سنة ٢١ هـ. الأعلام (ج ١ ص ٣٣٥) وفيه ثبت بأسماء المصادر التي ترجمت له. والعجّاج: هو عبد الله بن رؤبة، راجز مجيد، توفي نحو ٥٩٠. الأعلام (ج ٤ ص ٨٦) وفيه ثبت بأسماء المصادر التي ترجمت له.

(٤) في الأصل: «الأعراج» بدون ياء. والطُّلى: جمع طُلْية وهي العُنُق. واللأواء: الشدة والمحنة. ونماري: نجادل. محيط المحيط (لأى) و(مرى).

أبوابُهُمْ مفتوحةٌ لضيوفهمْ أبدًا بلا قُفلٍ ولا مِزلاجِ

ومما اشتهر من شعره قوله[١]: [السريع]

أَرَّقَ عيني بارقٌ مِنْ أُثالْ كأنّه في جُنْحِ ليلي ذُبالْ
أثار شوقًا في[٢] ضميرِ الحشا وعَبْرتي في صحنِ خدِّي أَسالْ
حكى فؤادي قَلَقًا واشتعالْ وجَفْنَ عيني أرَقًا وانهمالْ
جوانحٌ تلفح نيرانُها وأَدْمُعٌ تنهلُّ مثلَ العَزالْ[٣]
قولوا وُشاةَ الحُبِّ ما شئتُمُ ما لذّة الحبِّ سوى أن يُقالْ
عُذْرًا لِلُوّامي[٤] ولا عذر لي فزلَّةُ العالِمِ ما إنْ تُقالْ
قُمْ نَطْرُدِ الهَمَّ بمشمولةٍ تُقَصِّرُ الليلَ إذا الليلُ طال
وعاطِها صفراءَ ذمِّيَّةً تمنعُها الذِّمَّة من أن تُنال
كالمِسْك ريحًا واللَّمى مَطْعَما والتِّبْر لونًا والهوى في اعتدال
عَتَّقها في الدَّنِّ خَمَّارُها والبِكْرُ لا تعرف غير الحِجال
لا تُثْقِبِ المصباحَ[٥] لا واسْقِني على سَنَى البَرْق وضوء الهلال
فالعيشُ نومٌ والرَّدى يَقْظةٌ والمرء ما بينهما كالخيال
خُذها على تَنْغيم مِسْطارِها[٦] بين خَوابيها وبين الدَّوالْ
في روضة باكِرُ وَسْمِيِّها أخْمَلَ دارينَ وأنْسَى أوالْ[٧]
كأنَّ فأرَ المِسْكِ مَغْبُوقةٌ[٨] فيها إذا هبَّتْ صَبًا أو شمال
من كلِّ[٩] ساجي الطَّرْف ألحاظُه مُفَوَّقاتٌ أبدًا للنضال
مَنْ عاذري والكلُّ لي عاذل[١٠] من حَسَنِ الوجه قبيحِ الفِعال
من خُلَّبيِّ الوَعْد كذّابِه لَيّانَ لا يعرفُ غيرَ المِطال

(١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٣٨ - ٣٣٩) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٨).
(٢) في أزهار الرياض: «من صميم».
(٣) أراد العزالي وهي جمع عزلاء، والعزلاء هو مصب الماء من الراوية. محيط المحيط (عزل).
(٤) في أزهار الرياض: «أعْذِرُ لُوّامي».
(٥) أثقب المصباح: جعل ضوءه ساطعًا. لسان العرب (ثقب).
(٦) المِسْطار، بضم الميم وكسرها وسكون السين: الخمرة الصارعة لشاربها. محيط المحيط (سطر).
(٧) الوسميّ: مطر الربيع الأول. وأوال: الاسم القديم للبحرين.
(٨) في المصدرين: «مفتوتة». (٩) في المصدرين: «من كَفٍّ».
(١٠) في المصدرين: «عاذرٌ».

كـأنــه الــدهــرُ وأيُّ امــرىء ... يبقى على حال[١] إذا الدهرُ حال

أمــا تــرانــي آخــذًا نــاقــضًــا ... عليه ما سوَّغني من محال؟

ولــم أكــن قَــطُّ لــه عــائــبًــا ... كمثلِ ما عابَتْه قَبْلي رجال

يأبى ثراء المال عِلمي، وهل ... يجتمعُ الضِّدَّان: علمٌ ومال؟

وتأنفُ الأرضُ مُقامي بها ... حتى تَهاداني ظهورُ الرجال[٢]

لولا بنو زيَّانَ ما لَذَّ لي الـ ... ـعَيشُ ولا هانَتْ عليّ اللَّيال

هُمْ خوَّفوا الدهرَ وهم خفَّفوا ... على بني الدهر[٣] خُطاه الثّقال

وَرِثت[٤] من عامرهم سيّدًا ... غَمْرَ رداء الحَمْدِ عَمْر[٥] النَّوال

وكعبةً للجود منصوبةً ... يسعى إليها الناسُ من كل حال[٦]

خُذها أبا زيّانَ من شاعر ... مُسْتَمْلَحِ النَّزعةِ عَذْبِ المقالْ

يَلْتَفِظُ الألفاظ لَفْظَ النّوى ... ويَنْظِمُ الآلاءَ نَظْمَ اللآلْ

مُجارِيًا مهيار[٧] في قوله ... (ما كنتُ لولا طمعي في الخيال)

ومما قال أيضًا، واشتمل ذلك على شيء من نظمه ونثره، وهذا الرجل مُغْرِبُ النزعة، في شفوف نظمه على نثره[٨]: [الكامل]

عجبًا لها أيذوقُ طعم وصالها ... مَنْ ليس يطمع[٩] أن يَمُرَّ ببالها؟

وأنا الفقيرُ إلى تَعِلَّةِ ساعةٍ ... منها، وتمنعني زكاةَ جَمالها

كم ذادَ عن[١٠] عيني الكَرَى متأنفٌ[١١] ... يبدو ويَخْفى في خفيِّ مِطالها

---

(١) في المصدرين: «على الدهر». (٢) في المصدرين: «الرِّحال».
(٣) في المصدرين: «الدنيا».
(٤) في النفح: «لقيت»، وفي أزهار الرياض: «ألفيت».
(٥) في المصدرين: «جَمٌّ». (٦) في المصدرين: «بال».
(٧) هو مهيار الديلمي، وعجز هذا البيت هو مطلع قصيدة [السريع]:
ما كنت لولا طمعي في الخيالْ ... أنشد ليلي بين طول الليالْ
ديوان مهيار الديلمي (ج ٣ ص ١٦٦) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٣٣٩) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٨).
(٨) القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣١٩ ـ ٣٢٢).
(٩) في المصدرين: «يأمل».
(١٠) في الأصل: «كم ذا وعن»، والتصويب من المصدرين.
(١١) في المصدرين: «متألِّق».

يسمو لها بَدْرُ الدُّجى مُتضائلًا كتضاؤل الحَسْناءِ في أسمالِها[١]
وابنُ السَّبيل يجيء يَقْبِسُ نارها ليلًا فتمنحُهُ عَقيلةَ مالِها[٢]
يعتادُني في النوم طيفُ خيالها فتصيبُني أَلحاظُها بِنِبالها
كم ليلةٍ جادتْ به فكأنّما زُفَّتْ عليَّ ذُكاءُ[٣] وَقْتَ زوالها
أَسْرى فَعَطَّلَها[٤] وعَطَّلَ شُهْبَها بأبي شَذا المِعْطار من مِعْطالها
وسوادُ طُرّته كجَنْحِ ظلامها وبياضُ غُرَّته كضوء هلالها
دَعْني أَشِمْ بالوهم أدنى لمحة[٥] من ثغرها وأشِمَّ مِسْكةَ خالها
ما رادَ طَرْفي في حديقة خدِّها إلّا لفِتْنَتِه بِحُسْنِ دلالها
أنسيبَ شِعْرِي رِقَّ مثل نَسيمها فشمولُ راحِكَ مثلُ ريح شمالها
وانقلْ أحاديثَ الهوى واشرحْ غريـ ـبَ لُغاتها واذكرِ ثقاتِ رِجالها
وإذا مررتَ برامةٍ فَتَوَقَّ من أطلائها[٦] وتمشَّ في أطلالها
وانصبْ لِمَغْزِلها حِبالَةَ قانصٍ ودَعِ الكرى شَرَكًا لصيد غزالها
وأسِلْ جداولَها بفَيْضِ دموعها وانْضَحْ جوانِحَها بفضل سِجالها
أنا من بقِيَّة معشرٍ عَرَكَتْهُمُ هذي النَّوى عَرْكَ الرَّحى بثِفالها[٧]
أَكْرِمْ بها فئةً أريقَ نجيعُها بَغْيًا فراق العينَ حُسْنُ جمالها[٨]
حَلَّتْ مُدامةُ وَصْلها وحَلَتْ لهم فإنِ انتَشَوْا فَبِحُلْوِها وحَلالها
بلغتْ بِهِرْمِسَ غايةً ما نالها أحدٌ وناء بها لبعدِ منالها
وعَدَتْ على سُقراطَ صورة[٩] كأسها فهريقَ ما في الدَّن مِنْ جِرْيالها

---

(١) أخذه من قول أبي تمام [الكامل]:

كُسِيَتْ سبائبَ لؤمِهِ فتضاءلتْ كتضاؤل الحسناءِ في الأطمارِ

ديوان أبي تمام (ص ١٣٤).

(٢) عقيلة المال: أكرمه. محيط المحيط (عقل). (٣) ذُكاء: اسم الشمس. محيط المحيط (ذكو).

(٤) في الأصل: «أُسري فَعِطرُها وعُطْلُ شُهُبها يأبى...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٥) في المصدرين: «لمعة».

(٦) الأطلاء: جمع طلا وهو ولد الظبية. لسان العرب (طلا).

(٧) في الأصل: «بثقالها» والتصويب من المصدرين. وهنا يعتمد الشاعر على قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

فتعرُكُكُمْ عركَ الرَّحى بثفالها وتَلْقَحُ كِشافًا ثم تُنْتِج فتتئمِ

المعلقات العشر (ص ١٢٢).

(٨) في المصدرين: «مآلها». (٩) في المصدرين: «سَوْرة».

وسَرَتْ إلى فارابَ منها نفحةٌ قُدْسيّةٌ جاءت بنُخبة آلِها[١]
ليصوغَ من ألحانه في حانها ما سَوَّغَ القسيسُ من أزمالها
وتعلقت[٢] في سَهْرَوَرْدَ[٣] فأسْهَرَتْ عينًا يُؤَرِّقُها طروقُ خيالها
فخبا شهابُ الدِّين لمّا أشرقتْ وخبا[٤] فلم يثبتْ لنور جلالها
ما جُنَّ مثلَ جُنونه أحدٌ ولا سَمَحَتْ يَدٌ بيضا بمثل نوالِها
وبَدَتْ على الشُّوذيّ[٥] منها نفحة[٦] ما لاح منها غيرُ لمعة آلها
بَطُلَتْ حقيقتُه وحالتْ حالُه فيما يُعبِّرُ عن حقيقةِ[٧] حالها
هذي صُبابتهم تَرِقُّ صَبابةً فيروقُ شاربَها صفاءُ زُلالها
اعلمْ أبا الفضل بنَ يحيىٰ أنني من بعدها أجري على آسالها[٨]
فإذا رأيتَ مُوَلَّهًا[٩] مثلي فَخُذْ في عَذْله إن كنتَ من عُذَّالها
لا تَعْجَبنَّ لِما ترى مِنْ شأنها في حَلِّها إن كان أو تَرْحالها
فصلاحُها بفسادها ونعيمُها بعذابها ورشادُها بضلالها
ومن العجائب أن أقيمَ ببلدة يومًا وأسْلَمَ من أذى جُهّالها
شُغِلوا بدُنياهمْ أما شَغَلَتْهُمُ عنّي فكم ضَيَّعْتُ مِنْ أشغالها
حُجِبوا بجهلهُم فإن لاحَتْ لهمْ شمسُ الهُدى عبثوا[١٠] بضوء ذُبالها
وإن انْتَسبْتُ فإنني من دَوحَةٍ تتقيّل[١١] الأقيال بَرْدَ ظِلالها
من حِمْيرٍ من ذي رُعين من ذُرى[١٢] حَجْرٍ من العظماء من أقيالها
وإذا رَجَعْتُ لطينتي مَعْنًى فما سَلْسالُهم[١٣] بأرَقَّ من صَلْصالها

---

(١) إشارة إلى الفارابي الفيلسوف وقدرته في الموسيقى.
(٢) في المصدرين: «وتغلغلت». (٣) هنا إشارة إلى السَّهْرَوَرْدي المتصوف.
(٤) في المصدرين: «وخوى».
(٥) الشوذي: هو الشيخ أبو عبد الله الحلوي، أحد فقهاء مرسيه، والشوذية طريقة صوفية تشبه طريقة ابن عربي، إلّا أنها أكثر إيجابية.
(٦) في المصدرين: «نشوة».
(٧) في الأصل: «حقيقته» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
(٨) من هنا حتى آخر القصيدة غير وارد في نفح الطيب. وفي أزهار الرياض: «أحرى على آمالها».
(٩) في أزهار الرياض: «مُدَلَّهًا».
(١٠) في الأصل: «عشوا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.
(١١) في أزهار الرياض: «يتفيأ الإنسان بَرْدَ...». (١٢) في الأزهار: «ذوي».
(١٣) في الأزهار: «سَلْسالُه».

لله درُّك أيُّ نَجْلِ كريمةٍ ... وَلَدَتْه فاسَّ منك بَعْدَ حبالها[١]
ولأَنْتَ لا عَدِمَتْك والدُ فَخْرِها ... وسِماكُ سُؤْدُدِها وبَدْرُ كمالها
اغْلُظْ على مَنْ عاثَ من أنذالها ... واخْشَعْ لمَنْ تَلْقاه من أبدالها
والبسْ بما أوليتها مِنْ نعمةٍ ... حُلَلَ الثَّناء وجُرَّ من أذيالها
خُذْها أبا الفضل بنَ يحيىٰ تُحْفَةً ... جاءَتْكَ لم يُنْسَجْ على مِنْوالها
ما جال في مِضْمارها شِعرٌ ولا ... سَمَحَتْ قريحةُ شاعرٍ بمثالها
وأَنِلْ أبا البركات مِنْ بَرَكاتها ... وادْفَعْ مَحالَ شُكُوكِهِ بمحالها[٢]

هذه، أمْتَع الله ببقائك، وأسْعَد بلقائك، وأراها بما تُؤمّله من شريف اعتنائك، وترجوه من جَميل احتفائك، ما تعرفُ به من احتذائك، وتعترفُ له ببركة اعتفائك، كريمة الأحياء، وعقيلَةُ الأموات والأحياء، بنت الأذواء والأقيال، ومقصورةُ الأسِرَّة والحجال، بل أسيرة الأساوير والأحْجال، على أنها حليفةُ آلام وأوْصاب، وألِيفةُ أشجان وأطْراب، صُبابة أغراب من صُيّابة أعراب، جاورَتْ سَيْفَ بن ذي يزن في رأس غُمدان، وجاوزَتْ مَسْلَمة بن مخلد يوم جابية الجولان، وذَلَّقَت لسان ابن أخته حسّان، فتضاءلت لرقة حَدِّه جسوم بني عبد المُدان، وقرّبه وما شيم من غِمْدِه قيد ابن الإطنابة بين يدي النُّعمان، قربت ببني جَفْنة مزار جِلّق، وسَعرت لبني تميم نار مَحْلق، ومرَّت على مُعتاد غالب فما أنست ناره، وطافَت ببيت عبد الله بن دارم فلم ترض جواره، ولو حلّت بفَنائه، واستَحَلَّت ما أحلّ لها من مبذول حِبائه، لاغتُفر لها ما جَنَّته ببطن أُواره، ولَحلَّت لها حبوتا مجاشع وزراره، مزقت على مزيقيا حُلَلًا، وأذهبت يوم حليمة مثلًا، وأركبت عَنزًا شرّ يومها يَجْدَع جَمَلًا، وناطت بأذن مارية قِرْطها، وجرّت على أثر الكندي مِرْطَها، وقفها بين الدَّخول فَحَوْمل فَوَقفت، وأنفها يومَ دارة جُلْجُل فأنفت منه وما ألِفَت، عقر ناقته وانتهَسَ عبيطها، ودخل خِدْرَ عنَيْزَة وأمال غَبيطها. أغرت أبا قابوس بزياد، وأسْرَجَت للزبيدي فَرَس أبي داود ونافرت بحاتم طَيّ كَعب إياد، وساورت للمساور، بمثل جُوده السّائر. ولئن بلت الجعفري لبيدًا، فلقد استعبدت الأسدي عبيدًا، وقطعت به في أثر سُلَيماه الأسدية بيدًا، أرته المنيّة على حربة هندها المَلحوب، وما حال قريضه، دون جريضه، وأقفر من أهله مَلْحُوب، وما زالت تخبط في شعاب الأنساب فتَرْشِد، وتُنْشِد ضالتها اليمانية، فتنشد: [الكامل]

إن كنت من سيف بن ذي يزنٍ ... فانزلْ بسيفِ البَحْرِ من عَدَنِ

(١) في الأزهار: «حيالها».

(٢) في الأزهار: «من آلها».

وذَرِ الشآم وما بناه به الرُّ ... ومِيُّ من قصر ومن فَدَنِ

تعلف سَيْل العِرم وتردغسان، وتمهد لها أهضام تبالة فتقول: مَرْعًى ولا كالسَّعْدان[1]، تساجل عن سَميحة بابن خُرام، وتناضل بسمير يوم خزام، وتَنْسى قاتل ستة آلاف، وكاسي بيت الله الحرام ثلاثة الأفواف، فلو ساجَلَت بنَبْعها أبا كَرِب، وأرته ضراعة خدّها التُّرب، لساجَلَت به أخضر الجلدة في بيت العرب، ماجدًا يملأ الدَّلو إلى عَقْد الكَرَب، بل لو حطت بفناء بيتها الحجري رَحْلها، وساجلت بفناء جَدِّها ذي رُعين لاستَوْفت سجلها. كم عاذت بسيفها اليَزني، فأدركت ذحلها، ولاذت برُكنها اليمني، فأُجْزل محلها، ولو استسقت بأوديتها لأذهبت مَحْلها. كافحت عن دينها الحنيفيّ، فما كُهم حُسامها، ونافَحَتْ عن نبيِّها الأمّيّ فأيّدت بروح القدس سهامها. سَدَّت باب الدرب دون بني الأصْفَر، وشَدَّت لموته ثوب موتٍ أحمر، وما شَغلها كَسْرُ تاج كِسْرى عن قَرْع هامة قَيْصر. ولقد حلّت من سنام نسبها اليعربي باسمك ذُروة، وتعلّقت من ذمام نبيِّها العربي بأوثق عُرْوة. تفرّد صاحب تيماء بأبْلَقه الفرد فعَزَّ، وتمرّد ربُّ دَوْمة الْجَندل لما كان من مارد في حِرز، فما ظنك، أعزك الله، بمن حلّ من قُدْسي عقله، بمَعْقِل قُدس، يُطار إليه فلا يُطار، وراد من فردوس أدبه في جنّة لا يُضام رائدُها ولا يُضار. زَها بمجاورة المُلْك، فازدهى رؤساء الممالك، وشُغِف بمجاورة الملك، فاشتغل عن مطالعة المسالك، أيُشَقُّ غُباره، وعلى جبين المرزم مَثاره، أو يُنْتَهك ذماره، وقلبُ الأسد بيتُه ودار أخيه أسامة زاره. ولما قَضَت من أنديتها العربية أوطارها، واستَوْفت على أشْرَف منازعها الأدبية أطْوارها، وعَطَّرت بنوافح أنفاسها الذَّكية آثارها، وأطْلعت في ظُلَم أنفاسها الدَّجُوجية كواكبها النيِّرة وأقمارها، عطفت على مَعْقلتها الشاذلية فحلّت عِقالها، وأمر لها فراق الوطن فلمّا استمرّ لها حلالها، استودعت بطنان تبالة آلها، وتركت أهضامها المُخْصِبة وحلالها، أطلّت على دارات العرب فحيّت أطلالها، ودعت لزيارة أختها اليونانية أذواء حِمْير وأقيالها. أطْمَعتها بلمعيّة ألمعيَّتها الأعْجَمية، ومثْلها يُطمع، وجاء بها من قُدَماء الحُكماء كلُّ أوْحدي الأحوذية، فباتت تخبُّ إليه وتوضع، باحثة عن مركز دارتهم الفيثاغورية، آخذة في إصلاح هيئتهم الإنكساغورية، مؤثرةً لما تدلّ عليه دقائقُ حقائِق بقايا علوم مقايسهم البرهانية، وتشير إليه رموزُ كنوزِ وصايا عُلماء نواميسهم الكَلْدَانية، من مأثور تأثير لاهوتية قواهم

---

(١) «مَرْعًى ولا كالسَّعْدان» مثل، والسَّعْدان: نبت ذو شوك كأنه فَلْكة، ينبت في سهول الأرض، وهو من أطيب مراعي الإبل ما دام رطبًا. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٢٧٥) ولسان العرب (سعد).

السّيماوية، راغبةً فيما يُفاض على مادتها الجُسْمانية، ويطرأ على عاقِلِيَّتها الهيولانية، من عُلْويات آثار مواهبها الربّانية، موافقة لمثلهم المفارقة أفضل موافقة، موافقةً لما وافق من شوارِدِ آرائهم المُوَفَّقة أحسن موافقة. وتحت هذه الأستار مُخْدَرات أسرار أضرَّ بها الإسرار، وطالما نكر معارفها الإنكار، ونُقلت من صُدور أولئك الصُّدور إلى بطون هذه الأوراق، في ظهور فوق دفاتر فَلْسَفِيَات معاني علومهم الرِّقاق. وفي تلك المغاني، أبكار معاني، سكن الجوانح والصدور، بدل الأرائك والخدور، ولَحن في دياجي، ظُلَم هذه الأحاجي، كأقمار في أطْمار بَهَرْن وما ظَهَرْن، وسَطَعْن وما لَمعْن، فَعَشِقْن وما رَمَقْن، واستَملَحْن وما لَمَحْن. أذَرْن خمور أجفانهن، على ماخوريات ألحانهن، فهيَّجت البلابل، نَغَمُ هذه البلابل، واستَفْرَغته الأكياس، مُتْرعات تلك الأكْواس. ما سِحْرُ بابل، كَخَمْر بابل، ولا منتقى أغانيهن الأوائل، كحمائمكم الهَوَادل، إن وصلت هَدِيلَها بِحَفيف، وصلن ثَقِيلهن بخَفيف. إيه أيها الشَّمري المشمعل، دعنا من حديثك المُضْمَحِل، سِرْ بنا أيها الفارس النَّدْس[1]، من حظيرة النَّفْس، إلى حضرة القُدْس، صرِّح بإطلاق الجمال، وجُلْ من عالَمِيَّتك المَلَكوتية في أفسح مجال، تَمْشِ بين مقاصر قُصورها، ومعاصر خمورها، رخيّ البال، مرخيّ السربال، فما ينسج لك على منوال، نادمٌ عليها من شَغَف دَنْ سُقراط، إن استَحْسَنْتَ لها حِسان فما يَصْلُح لك صالح بن علاط، بت صَريع مُحَيّاها فقد أوْصَت بمعالجة عقير مُعاقرة عُقارها بُقراط، لا تخش صاحب شُرطتها فلا شَرْط له عليك ولا اشْتِراط، ما لك غير مبديك الأول، من قال امتَثِل الأمر وما عليك من أمْر وال. على رِسْلِك ما هذا العَجَل، لا خطأ تتوقعه ولا خَطَل، أمكْرَه أنت في هذه الكريهة، أم بَطَل. لو عُلم أنك ضبارية هذا الخميس، وخبعثة ذلك الخميس، لما عانى اليمّ رسيس، شوقًا إليك محمد بن خميس، على أنْ لا غالب اليوم لأني غالب، ولا طالبٌ يُدْرِك شأو هذا الطالب، فِقْهٌ بلا تفهق، وحِذْقٌ في تَحَذْلُق. أقسم أبا الفضل بما لَكَ على أبي البركات من الفضل، ذلك العراقي الأرُومة، لا هذا الفارسي الجرثومة، وإن يك ذلك، إسرائيلي الأصل، وهذا إسماعيلي الجنس، عَلَوي الفَضْل. فلتلك الذات، شرفُ تلك الأدَوات. قدَّم لي غالبُنا المذكور، من بأسه الغُرِّ لأرفع وأسمى من مقعد رقوطيِّهم المشهور، من إغْرَناطة الحَمراء، ومن مُتَبَوَّإ أبي أمَيَّتهم المرحوم من جنّات جزيرتهم الخضراء، فيما لنت أبا الفضل من هذه العربجة، وألوك، أرأيت في عمْرك مثل هذا الصعلوك؟ لا والله ما على ظهر هذه الغبرا، مَن يتظاهر بمثل هذه المعرفة في بني غَبْرا. فأي

---

(١) الفارس النَّدْس: السريع في الطعْن. لسان العرب (ندس).

شيء هذا المَنزِع؟ إيش، لا حال لنا معك ولا عيش، مَن يضحك على هذا الطيش. ما هذا الخبل، أخِمار بك أم ثمل؟ ارجعْ إلى ما كنت بِصَدَدِه وُقيت الزَّلل، خُذْ في الجدّ فما يليق بك الهزل، رقّ عن ذلك فحكّ لنا منه أرَقّ غَزَل، ماذا أقول؟ وأي عقل يطاوعني على هذا المعقول؟ أفْحَمْتني، والله، عن مكالمتكم هذه المحن، ومنعتني من طلب مسالمتكم ما لكم عليّ في دنياكم هذه من الإحن. إن تكلمت كَلِمت، وإذا استعجمت عُجِمت. أما لهذه العلة آس، أم على هذه الفيلة مواس؟ ما حيلتي في طبع بلدكم الجاسي؟ أما يلين لضعفي، أما يرقّ قلبُ زمانكم القاسي؟ ما هذه الدِّمَن، يا بني خضراوات الدمن، أظهرتم المحن، فقلب لكم ظَهْرَ المِجَنّ[1]. إن مرَّ بكم الوَلِي حمَّقتموه، وإن زَجَركم العالم فَجْرتم عليه ففَسَّقْتُموه، وإذا نَجَم فيكم الحكيم غُصِصتم به، فكفَّرتموه وزَنْدَقْتُموه. كونوا فوضى، فما لكم اليوم مَسْرًى سِواه واذهبوا من مراعيكم المستوبلة، حيث شئتم، فقد أهملكم الرعاة. ضيَّعتم النص والشرائع، وأظهرتم في بدَعِكم العجائب والبَدائع. نَفَّقْتُم النِّفاق، وأقمتم سوق الفسوق على ساق. استَصْغَرتم الكبائر، وأبَخْتُم الصَّغائر، أين غَنِيُّكم الشاكر، يتفقد فقيركم الصابر؟ أين عالِمكم الماهر، يرشد مُتَعلِّمَكم الحائر. مات العلمُ بموت العلماء، وحكَم الجهل بقطع دابر الحكماء. جرِّد لنا شريعَتَك يا أفضل الشَّارعين، أتِمّ فيها موعظتك يا أفصح التابعين. لا، والله، ما يوقظكم من هذا الوَسَن، وَعْظ الحَسَن، ولا يُنقذكم من فِتَن هذا الزمن، إلّا سَيْف مُعلِّمه أبي الحسن، والسلام.

قدم غرناطة في أواخر عام ثلاثة وسبعمائة. وتوفي في يوم مقتل صاحبه الوزير أبي عبد الله بن الحكيم؛ فرَّ من دهليز جاره فيمن كان بها من الأعلام، بعد أن نُهبت ثيابه، حسبما جرى على غيره من الحاضرين، وهو يقول: هكذا تقوم الساعة بغتةً. ولقيه بعض قرابة السلطان، ممن كان الوزير قد وَتَره، فشرع الرُّمْح إليه، فتوسّل إليه برسول الله، فلم يقبل منه، وطعنه، فقتله يوم عيد الفطر عام ثمانية وسبعمائة، وآخر العهد به، مطَّرحًا بالعراء، خارج باب الفخّارين، لا يُعلم قبره؛ لمكان الهرج في تلك الأيام، نَسألُ الله جميل ستره، وساء بأثر قتله إياه حال ذلك الرجل وفَسَد فكره، وشرَد نومه وأصابته علّة رديّة، فكان يَثِب المرة بعد الأخرى، يقول: ابن خميس يقتلني، حتى مات لأيام من مقتل المذكور.

---

(١) أخذه من المثل: «قَلَبَ له ظَهْرَ المِجَنّ»، وهو يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العَهْد. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ١٠١).

محمد بن عمر بن علي بن إبراهيم المليكشي[١]

يكنى أبا عبد الله.

حاله: كان فاضلًا، متخلقًا، أديبًا، شاعرًا، صوفيًا، جميلَ العشرة، حسنَ الخلق، كريم العهد، طيّب النفس. كتب عن الأمراء بإفريقية، ونال حُظوة، ثم شرّق وحجّ، ولقي جلّة، ووصل الأندلس عام ثمانية عشر وسبعمائة، فلقي بغرناطة حفايةً، وانْسَحَبَت بها عليه جِراية، ثم انصرف إلى وطنه، وناله به اعتقال، ثم تخلّص من النّكبة، وأقام به، يُزجى وقته إلى آخر عمره.

وجرى ذكرُه في «الإكليل الزاهر»[٢]: كاتبُ الخلافة، ومُشَعْشِعُ الأدب المُزْري[٣] بالسُّلافة، كان، يرحمه الله، بطل مَجال، وربَّ رويّة وارتجال، قدمَ على هذه البلاد وقد نَبا به وطنه، وضاق ببعض الحوادث عَطَنُه، فتلوّم بها تلوّم النسيم بين الخمائل، وحلّ بها[٤] محل الطَّيف من الوشاح الجائل، ولبث مدة إقامته تحت جراية واسعة، وميرة[٥] يانعة. ثم آثر قُطْره، فولّى وجهه شَطْره، واستقبله دهره بالإنابة، وقلّده خُطَّة الكتابة، فاستقامت[٦] حاله، وحُطَّتْ رحاله. وله شعر أنيق، وتصوُّفٌ وتحقيق، ورحلته[٧] إلى الحجاز سببها[٨] في الخبر وثيق، ونسبتها[٩] في الصالحات عريق.

شعره: نقلت من خطِّ الوزير أبي بكر بن ذي الوزارتين، مما قَيَّد عنه، وكان خبيرًا بحاله[١٠]: [الطويل]

رضًى نِلْتِ ما ترضين[١١] من كلِّ ما يَهْوى ... فلا تُوقفيني[١٢] موقفَ الذلِّ والشَّكْوى

وصَفْحًا عن الجاني المسيء لنفسه ... كفاه الذي يَلْقاه مِنْ شدَّة البَلْوى

---

(١) ترجمة محمد بن عمر المليكشي في نيل الابتهاج (ص ٢٣٧) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٢٦) ورحلة البلوي (الورقة ٢٢) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٥).

(٢) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٥).

(٣) في النفح: «الذي يزري».

(٤) في المصدر نفسه: «منها».

(٥) في الأصل: «ومبرة» والتصويب من نفح الطيب.

(٦) في الأصل: «واستقامت» والتصويب من نفح الطيب.

(٧) في النفح: «ورحلة».

(٨) في النفح: «سَعْيُها».

(٩) في النفح: «ونَسَبُها».

(١٠) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٥).

(١١) قوله: «ما ترضين» ساقط في الأصل، وقد أضفناه من نفح الطيب.

(١٢) في الأصل: «فلا توقفني» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

بـمـا بـيـنـنـا مـن خَـلْوَةٍ مـعـنـويـة أرقَّ من النجوى وأحْلَى من السَّلْوى
قـفـي أتـشـكّـى لـوعـةَ الـبَـيْـن سـاعـةً ولا يَـكُ هـذا آخـرَ الـعـهـد بـالـنَّـجْـوى
قفي ساعة في عَرْصَة الدار وانظري إلى عاشقٍ لا يستفيقُ مِنَ البَلْوى
وكم قد سألْتُ الريحَ شوقًا إليكم فما حنّ مسراها إليّ[1] ولا ألْوى
فيا ريحُ، حتى أنتِ مِمَّنْ يَغارُ بي ويا نَجْدُ، حتى أنتَ تَهْوى الذي أَهْوى
خُلِقْتُ ولي قَلْبٌ جليدٌ على النَّوى ولكنْ على فَقْد الأحبَّة لا يَقْوى

وحدَّث[2] بعض من عُني بأخباره، أيّام مُقامه بمالقة واستقراره، أنه لقي ليلة[3] بباب الملعب من[4] أبوابها ظَبْيةً من ظبيات الإنس، وفِتْنة من فِتن[5] هذا الجنس، فخطب وصالها، واتّقى بفؤاده نِصالها، حتى هَمَّتْ بالانقياد، وانعطفت انعطاف الغُصن الميّاد، فأبقى على نفسه وأمسك، وأَنِفَ من خَلع العِذار بعد ما تنسَّك، وقال[6]:
[الكامل]

لم أَنسَ وَقْفَتَنا بباب الملعب بين الرَّجا واليأس من مُتَجَنِّبِ
وَعَدَتْ فكنْتُ مراقبًا لحديثها يا ذلَّ وَقْفَةِ خائفٍ مُترقِّبِ
وتَدَلَّلَتْ[7] فذُلِلْتُ بعد تعَزُّزٍ يأتي الغرامُ بكلِّ أمرٍ معجب
بدويّةٌ أبدى الجمالُ بوجهها ما شِئْتَ من خدٍّ شريقٍ[8] مذهب
تدنو وتبعدُ نُفْرةً وتجنّيًا[9] فتكادُ تحسبها مَهاة الرَّبْرَب[10]
ورَنَتْ بلحظٍ فاترٍ لك فاتنٍ[11] أنضى وأمضى من حُسام المضرب
وأَرَتْكَ بابلُ سِحْرَها بجفونها فَسَبت، وحقّ لمثلها أن تَسْتَبي[12]
وتضاحكتْ فحَكَتْ بنيِّر ثغرها لمعانَ[13] نورِ ضياءِ بَرْقٍ خُلَّبِ[14]
بمنظَّم في عِقْد سِمْطَيْ جوهر عن شبه نَوْرِ الأقحوان الأشنب

---

(١) في النفح: «عليّ».
(٢) النص والقصيدة البائية في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦).
(٣) كلمة «ليلة» ساقطة في النفح.
(٤) في الأصل: «في» والتصويب من النفح.
(٥) في النفح: «وقَيْنة من قينات...».
(٦) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٦).
(٧) في الأصل: «وتذلّلتْ» والتصويب من النفح.
(٨) الشريق: المشرق. لسان العرب (شرق).
(٩) في الأصل: «وتجنبًا» والتصويب من النفح.
(١٠) المَهاة: البقرة الوحشية. والربرب: القطيع من بقر الوحش. لسان العرب (مها) و(ربرب).
(١١) في النفح: «بلحظٍ فاتن لك فاتر».
(١٢) في الأصل: «تستب» بدون ياء.
(١٣) في الأصل: «لمعات» والتصويب من النفح.
(١٤) البرق الخُلَّب: المُطْمِع المُخْلِف. محيط المحيط (خلب).

وتمايلتْ كالغصن أخْضَلَه النّدى[1] رَيّانَ من ماء الشبيبة مُخْصِب
تَثْنيه أرياحُ[2] الصَّبابةِ والصَّبا فتراه بين مُشَرِّقٍ ومُغَرِّب
أبَتِ الرَّوادف أن تميل بميله فرَسَتْ وجالَ كأنه في لَولب
مُتَتوِّجًا بهلالِ وَجْهٍ لاح في خلل السجوف[3] لحاجبٍ ومُحَجّب
يا من رأى فيها مُحبًّا مُغْرَمًا لم ينقلب إلّا بقلبٍ قُلَّب
ما زال مذ وَلّى يحاولُ حيلةً تُدْنيه من نيلِ المُنى والمَطْلَبِ
فأجالَ نارُ الفكر حتى أوْقِدَتْ في القلب نارُ تَشَوُّقٍ وتَلَهُّب
فتلاقتِ الأرواحُ قبل جسومها وكذا البسيطُ يكونُ قبلَ مركَّب

ومن مقطوعاته البديعة، مما سمع منه بغرناطة، حرسها الله، أيام مقامه بها قوله[4]: [الطويل]

أرى لك يا قلبي بقلبي محبَّةً بَعَثْتُ بها سِرّي إليك رسولا
فقابِلْهُ بالبشرى[5] وأقبلْ عَشيّةً فقد هَبَّ مِسْكٌ[6] للنسيم عليلا
ولا تعتذر بالقَطْر أو بللِ الندى فأحْسَنُ ما يأتي النسيمُ بليلا

ونقلت من خط الفقيه القاضي أبي جعفر الرُّعيني، مما أملاه عليّ بمنزله بغرناطة، قال: وحضرت في عام ثلاثة عشر وسبعمائة، يوم إحرام الكعبة العليّة، وذلك في شهر ذي القعدة على اصطلاحهم في ذلك، وصِفتُه أن يتزيّن سَدنة البيت من شيبة بأحسن زي، ويعمدوا إلى كرسي يصل فيه صاعده إلى ثلث الكسوة، ويقطعها من هنالك، ويبقى الثلثان إلى الموسم، وهو يوم مشهود عند سكان الحَرَم، يحتفل له، ويقوم المنشدون أدراج الكعبة ينشدون. فقلت في ذلك: [الطويل]

ألم تَرَها قد شَمَّرَتْ تطلبُ الجدّا وتخبرُ أنّ الأمْرَ قد بَلَغَ الحَدّا؟
فَجُدَّ كما جُدَّتَ إليها وشَمِّرْ عن السّاعِد الأقوى تَنَلْ عندها سَعْدا
طَوَتْ بُرْدَها طَيَّ السِّجلّ كناية لأمرٍ خَفِيٍّ سِرُّه طَوَتِ البُرْدا
وأنَدَتْ مُحَيّاها فحَيّي[7] جماله وقَبِّلْ على صوت المُقى[8] ذلك الخدّا

(١) أخضله الندى: بلّله. لسان العرب (خضل). (٢) في النفح: «أرواح».
(٣) في النفح: «السحاب». (٤) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٦).
(٥) في الأصل: «بالبشر» والتصويب من النفح. (٦) في الأصل: «مسكي» والتصويب من النفح.
(٧) في الأصل: «فحيّا».
(٨) في الأصل: «المقلة» وكذا لا يستقيم الوزن، والمُقَى: جمع مُقْية وهي المأق. لسان العرب=

فكم سَتَرَتْ سودُ البُرود جمالها ... وغطّته لكنْ عن سنها الرمْدا[١]
وكم خال ذاك الخالُ عما مُقصّر ... عن العلم بالأنساب لا يعرف الحدّا
لقد سَفَرَتْ عن وجهها الكعبة التي ... لها الحَجَرُ[٢] المَسْنِيُّ في حُسنها المُبْدا
وقالت ألا أين مُكَلِّلي، قصدوا إلى[٣] ... جمالي فقد أبدى الحجاب الذي أبْدا
فلبَّت لها العشّاق من كل جانب ... يَؤُمُّونها يستقربون لها البُعْدا
فمن نَدِفٍ أشفى على تلفٍ ومن ... مُحبٌّ على قربٍ يهيم بها وَجْدا
ومن ساهر على النجوم ولم يَذُقْ ... بعينيه طعم النور أو يبلغ القصدا
يسائل عن بدرٍ وبدرٌ تجاهه ... كذاك[٤] اشتراك اللفظ قد ينغص الخدا
ومِنْ مُشْتهامٍ لا يقرُّ قرارُه ... كأنَّ به من حرِّ أشواقه وَقْدا
يُقَلِّبُ قلبًا بينَ جنبيه موريا ... أوار الأسى فيه فتحسبه زنْدا
إذا ما حدا حادي الرّكاب ركابه ... كأنَّ قلوب الراكبين له نَجْدا
أحاد بها إن أنتَ جئت بها مِنًى ... ونلْت المُنى والأمْنَ فانزلْ ورُدْ وَرْدا
ولا خوفَ هذا الخَيْفُ[٥] والتربة التي ... سرت بهما[٦] قد عَيَّن المصطفى عدّا
وفي عرفاتٍ فاعترفْ وانصرفْ إلى ... مشاعرَ[٧] فيها يرحمُ المالكُ العَبْدا
وإن كنت من أوفى العبيد جرائما ... فَحَسِّنْ نبيل العقْد من ربِّك العَقْدا
لئن صدقَتْ فيك الوعيد جرائم ... فعفوًا جميل[٨] الصفح يصْدقك الوعدا
وعُدْ مفضيًا للبيت طُفْ واستلم وقُمْ ... بها للمقام الرحب واسجدْ وكُنْ عبدا
ورُد في الثنا والحمد والشكر واجتهدْ ... فمن عَرَفَ الإحسانَ زادتْه حمْدا
وعُج نحو فرض الحب واْقْضِ حقوقه ... وزرْ قَبْرَ مَنْ أولاكَ من هَدْيه رُشْدا

قال: وكنت في زمن الحداثة، أفضّل الأصيل على السَّحَر، وأقول فيه رقّة المودِّع ورقَّة المعتذر. فلمّا كان أوان الأسفار، واتصلت ليالي السير إلى أوقات

= (مقى).

(١) عجز هذا البيت مختل الوزن والمعنى معًا.

(٢) كلمة «الحجر» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.

(٣) صدر هذا البيت مختل المعنى والوزن معًا. (٤) في الأصل: «كذلك» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) الخَيْف: غُرّة بيضاء في الجبل الأسود الذي هو خلف جبل أبي قُبيس، وبها سمي مسجد الخَيْف. محيط المحيط (خيف).

(٦) كلمة «بهما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.

(٧) المشاعر: مناسك الحج، مفردها مَشْعر. محيط المحيط (شعر).

(٨) في الأصل: «الجميل» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

الأسحار، رأيت أفق الشرق أشرق، ووجدت القائل بفضل السَّحَر أصدق، فابتدأت راكبًا، فلمّا جئت لذكر الجناب العليّ النبوي، أتممت ماشيًا، وأنا في رملة بين مصر وعَقَبة إيله، وقلت: [البسيط]

ما أحسن الأُفُقَ الشرقيّ إسفارا فكم هذا في دُجى الإدلاج أسفارا
إذا بدا سارت الأظعانُ هاديةً له وصارت به الظلماء أنوارا
يجلو غياهب ليلٍ طالما سدلت على المحبين في الظلماء أستارا
ونمّ منه نسيم ثم ذا بعد على أحاديثَ كانت ثمّ أسرارا
سَرَتْ سحيرا فبرّت سِرَّ ذي سحر أهدت له ريح من يهواه معطارا
سرت ببانات أكناف اللّوى فَغَدت كأنّ دارينَ قد أصبحت دارا
طابت بطيبةَ أرواح معطرة بها فأصبح أفْقُ الشوق عطّارا
كأنما فَلَقُ الإصباح حين بدا خَدٌّ وبهجة[1] حسن الشمس قد وارى
حقي بدتْ وتبدّتْ حسن صورتها فَعَمَّت[2] الأرضَ أنجادًا وأغوارا
كأنه دعوة المختار حين بدتْ دانت لها الخلْق إعلانًا وإصرارا
من نوره كل نور أنت تُبصره ونورُه زاد للأبصارِ[3] إبصارا
هدا به الله أقوامًا به سُعَدا[4] لولاه كانوا مع الكُفر كُفّارا
هو الشّفيع الذي قالت شفاعته للمُوبِقين ألا لا تدخلوا النّارا
هو العَفُوُّ[5] عن الجاني وإن عَظُمَتْ من المسيء ذنوب كان غفّارا
هو الكريم الذي ما رُدَّ سائِلُهُ يومًا ولو كرّر التّسآل تكرارا
هو الحبيب الذي ألقى محبته في كل قلب فقلبي نحوه طارا
أَحَبَّهُ كلُّ مخلوق وهام به حتى الجمادات أحجارًا وأشجارا
وانشقّ بدر الدُّجى من نور غُرّته وانهلَّتِ السُّحْبُ من كفَّيه أنهارا

ومن مقطوعاته، قال: ومما نظمته في ليل السُّرى، وتخيل طيف الكرى، مبدأ قصيدٍ قصدته، أي معنى أردته، أشغل عنه ما بي منه: [الخفيف]

منع الهجر من سُليمى هجوعا فانثنى طَبْعُها يريدُ الرُّجوعا

---

(١) في الأصل: «خدر بهجة» وكذا لا يستقيم الكلام ولا الوزن.
(٢) في الأصل: «فعمّته» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.
(٣) في الأصل: «الأبصار» وكذا ينكسر الوزن. (٤) في الأصل: «سعداء» وكذا ينكسر الوزن.
(٥) العَفُوّ، بفتح العين وضمّ الفاء: العافي الكثير العَفْو. محيط المحيط (عفا).

بـعـثـتـه لـيـلا يـعـلّلُ قـلـبًـا مُـسْـتـهـامًـا بـهـا مُـحِـبًّـا ولـوعـا
لـم يـجـدْ غـيـرَ طَـرْفِ جَـفْـنٍ قـريـحٍ شـاخـصًـا نَـحْـوَهـا يـذَرُّ الـدُّمـوعـا

وكتب إلى صديقه شيخنا أبي بكر بن شبرين من بجاية، وهو معتقل بقصبتها، وقد امتحنه بذلك أبو عبد الله بن سيد الناس: [الخفيف]

شَرْحُ حالي لمن يريد سؤالي إنني في اعتقالِ مولى الموالي[1]
مُطلق الحمد والثناء عليه وَهْوَ للعطف والجميل مُوال
لا أرى للولاة فيَّ احتكامًا ووليٌّ مالَ على كل وال
أرتجي بالمصاب تكفير ذنبي حسبما جاء في الصِّحاح العوالي[2]
لا تدوم الدُّنا ولا الخير فيها وكذا الشَّرّ ذا وذا للزوال
فاغتنمْ ساعة الوصال وكم من محنة وهي منحة من نوال
فإذا غِبْتُ عنك فاحضرْ تَجِدْها للجواب المفيد عن السؤال[3]
فَهْيَ نُورُ النهارِ[4] والنورُ منها وَهِيَ الأُنْسُ في الليالي الطوال
فاستَدِمْها تَدُمْ ولا تضح منها وأدِرْها على اليمين ووال

فإنّ الكأس مجراها على اليمين، ومسراها لفي الصبح المبين، تغني عن الإصباح والمصباح، وتُذني لهم معنى النور المشرق في الوجوه الصِّباح، وتجري في الأشباح، فتسري في الأرواح. وهذه الرسالة طويلة، فيها كل بديع من نظم ونثر.

فأجابه رحمه الله: [الخفيف]

أرْغَمَنْ هذه القيود الثِّقال رُبَّ وُدٍّ مصيرُهُ للتَّغالي[5]
طال صبري على الجديدين حتى كذْتُ مما لقيتُ أن يُشْفقا لي[6]
إنَّ بعض الرضا لديه فسيح أيّ مَدٍّ[7] به وأيّ ابتقال
حاش لله أن أكون لشيء شاده الصانع القديم بغال
إن عندي من الثناء عليه لأماني لم يُمْلِهِنَّ القالي[8]
يا إمامي الذي بودّي لو أمـ ـكن نُضْلي[9] إليه أوّار قال

(١) في الأصل: «الموال» بدون ياء.
(٢) في الأصل: «العوال» بدون ياء.
(٣) عجز البيت منكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «للنهار» وكذا ينكسر الوزن.
(٥) في الأصل: «للتغال» بدون ياء.
(٦) في الأصل: «ل» بدون ياء.
(٧) في الأصل: «مدد» وكذا ينكسر الوزن.
(٨) في الأصل: «القال» بدون ياء.
(٩) في الأصل: «نصي»، ولا معنى له.

ازجُ دنياك وازجُ مولاك واعلمْ أنّ راجي سواه غيرُ مُقال
وابتغاء الثواب من ربّك اعملْ فهو يُجزي الأعمال بالمثقال
واغتنمْ غيبة الرّقيب ففيها لقلوب الرجال أيُّ صقال
وأجِلْ في الوجود فِكْرَ غنيّ عن ضروب الإنعام والأخْقال
وإذا الوقت ضاق وَسّعْه بالصَّبْـ ـرِ ولا تَنْسَ من شهير المقال
ربما تكره النفوس من الأمْـ ـر له فرجةٌ كحلّ العِقال

لا غروَ أن وقع توان، أو تلوّم دهر ذو ألوان، فالأمر بين الكاف والنون، ومن صبر لم يبوء بصفقة المغبون، وللسعداء تخصيصِ، ومع التقريب تمحيص، وما عن القضاء محيص، والمتصرف في ماله غير مَغتوب، وقديم الحقيقة إلى الحيف ليس بمنسوب. وقد ورد خطاب عمادي أطاب الله محضره، وسدّد إلى المرامي العليّة نظره، ناطقًا بلسان التفويض، سارحًا من الرّضا في الفضاء العريض، لائذًا بالانقياد والتسليم، قائمًا على أُسْكُفَّة[1] باب الأدب لمثابة حكم الحكيم.

ومنها: والوقائع عافاكم الله وُعَاظ، ونحن هُجود وفي الحيّ أيقاظ، وما كل المعاني تؤديها الألفاظ. وهذا الفنا الذي نشأ عن الوقت، هو إن شاء الله عين البقيا. وإذا أحبّ الله عبدًا حماه الدنيا، وما هي إلّا فنون، وجنون فنون، وحديث كله مجون. وقد يجمع الله الشتيتين، ولن يغلب عسرٌ يُسْرين ولا باس، ويا خَطْب لا مساس، وأبعد الله الياس، وإنما يوفي الأجر الصابرون، ولا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون. وهي طويلة بديعة.

أسمع بحضرة غرناطة لما قدم عليها وارتسم في جملة الكتاب بها، وحدّث عن رضي الدين أبي أحمد إبراهيم الطهري، بسماعه من الشريف يونس بن يحيىٰ الهاشمي، بسماعه من أبي الوقت طرّاد. وعن الإمام سراج الدين أبي حفص عمر بن طراد المعري القاضي بالحرم الشريف، وعن شرف الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الحميد الهَمَداني، وعن الإمام بهاء الدين الخميري عن أبي الطاهر السِّلفي، وعن جماعة غيرهم، وكان وروده على الأندلس في أوائل عام خمسة عشر وسبعمائة، وحضر بها غزوات، ولقي مَن كان بها من الأعلام. ثم انصرف عنها في أوائل عام ثمانية عشر، وأحلّ بسبتة، فأكرم رئيسها أبو عمر يحيىٰ بن أبي طالب العَزفي قدومه، وأنزله بدار جليلة كان بها علو مطلّ على البحر، لم يتمكن من مفتاحه، لأمر اقتضى

(١) أُسْكُفَّة الباب: خشبته التي يوّطأ عليها. محيط المحيط (سكف).

ذلك، فكتب إليه: [الكامل]

يا صاحبَ البلدِ المليحِ المشرقِ ... ما مثله في مَغربٍ أو مَشرقِ

منها:

وخَفَضْتَ عيشي فيه فارفعْ منزلي ... حتى أرى الدنيا بطَرْفٍ مُطْرقِ

وتجول في البلاد، ولقي مَن بها، واتصل بالأمير أبي علي بسجلماسة، ومدحه بقصيدة حُفظ له منها: [الطويل]

فيا يوسفيَّ الحُسْنِ والصَّفحِ والرِّضا ... تَصَدَّقْ على الدنيا بسلطانك العَدْلِ

ثم اتصل بوطنه.

وفاته: نقلت من خط شيخنا أبي بكر المذكور: وفي عام أربعين وسبعمائة، توفي بتونس صاحبنا الحاج الفاضل المتصوِّف، الكاتب أبو عبد الله محمد بن علي المليكشي الشهير بابن عمر. صَدْرٌ في الطلبة والكتاب، شهيرٌ ذو تواضع وإيثار، وقبول حسن، رحمه الله.

محمد بن علي بن الحسن بن راجح الحسني[1]

من أهل تونس، يكنى أبا عبد الله.

حاله: هذا[2] الرجل الفاضل، صاحب رُواء وأبّهة، نظيفُ البزّة، فارهُ المَرْكب، صدوف عن الملّة، مقيم للرسم، مطفِّف في مكيال الإطراء، جَمُوحٌ في إيجاب الحقوق، مترامٍ إلى أقصى آماد التوغُّل، سخِيُّ اللسان بالثناء ثرثارُه، فكهٌ مطبوعٌ، حسن الخلق، عذب الفكاهة، مخصوصٌ حيث حلّ من الملوك والأمراء بالأثَرَة، وممَّن دونهم بالمُداخلة والصُّحبة، ينظم الشِّعر، ويحاضر بالأبيات، ويتقدّم في باب التّحسين والتّقبيح، ويقوم على تاريخ بلده، ويثابر على لِقاء أهل المعرفة والأخذ عن أُولي الرواية. قَدِم على الأندلس في إحدى جمادين، عام خمسين وسبعمائة، مُفْلتًا من الوقيعة[3] بالسلطان أبي الحسن بالجهات الشرقية، بأيدي بني زَيّان وأحْلافهم،

(١) ترجمة ابن راجح في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٩).
(٢) راجع نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٩ - ٢٢٠).
(٣) هي الوقيعة التي دارت بين أبي الحسن المريني، صاحب المغرب، وبين بني زيان، أصحاب تلمسان، وقد هزم فيها أبو الحسن المذكور.

فمهّد له سلطانُها، رحمه الله، كنَفَ برّه، وأواه إلى سعة رَغْيه، وتأكّدت بيني وبينه صحبة.

شعره: كتبتُ إليه لأول قدومه بما نصُّه: أحذو حذو أبيات، ذَكَرَ أنّ شيخنا أبا محمد الحضرمي خاطَبَه بها[١]: [الطويل]

أَمِنْ جانبِ الغَرْبيِّ نَفْحَةُ بارحِ ... سَرَتْ منه أرواحُ الجَوَى في الجوانح[٢]

قَدَحْتُ بها زَنْدَ الغرام وإنما ... تجافَيْتُ في دين السُّلُوِّ لقادِح

وما هي إلا نَسْمَةٌ حاجريّةٌ ... رمى الشوقُ منها كلَّ قلبٍ بقادح

رَجَحْنا لها من غير شكّ كأنها ... شمائلُ أخلاقِ الشّريف ابن راجح

فتى هاشم سبْقًا إلى كلّ عليّة[٣] ... وصَبْرًا مُغار الفَتْلِ[٤] في كلّ فادح[٥]

أصيلُ العلَا، جمُّ السيادةُ، ذكره ... طرازُ نُضارٍ في بُرُود المدائح

وفُرْقانُ مجْدٍ يصدعُ الشّكَّ نُورُه ... حبَا الله منه كلَّ صَدْرٍ بشارح

وفارسُ ميدانِ البيانِ إذا انْتَضى ... صحائفَه أنْسَتْ مضاءَ الصَّفائح

رقيقٌ كما راقتك نَغْمَةُ ساجعٍ ... وجَزْلٌ كما راعَتْكَ صولةُ جارح

إذا ما احتبى مُسْتَحْفزًا[٦] في بلاغةٍ ... وخِيض[٧] خِضَمُّ القولِ منه بسابح

وقد شُرعتْ في مَجْمَع الحَفْل نحوه ... أسِنَّةُ حزْبٍ للعيون اللَّوامح

فما ضَعْضَعَتْ منه لصولة صَادِحٍ[٨] ... ولا ذَهَبَتْ منه بحكمةِ ناصح

تذكّرتُ قُسًّا قائمًا في عُكاظِه ... وقد غَصَّ بالشُّمِّ الأنوفِ الجحاجح

لِيَهْنِكَ شمسَ الدين ما حُزْت من علا ... خواتِمُها[٩] موصولةٌ بالفواتح

رَعَى الله ركْبًا أطلع الصبْحَ مُسْفرًا ... لمرآكَ من فوق الرُّبى والأباطح[١٠]

ومنها:

أقول لقومي عندما حطّ كورُها ... وساعدها السَّعْدانُ وَسْطَ المسارح[١١]

---

(١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٠ - ٢٢١).

(٢) في النفح: «الجوارح».

(٣) في النفح: «غاية».

(٤) في الأصل: «مُعار الحبل» والتصويب من النفح.

(٥) الفادح: الخطب الذي يثقل حمله. يقول امرؤ القيس من معلقته: [الطويل]

فيا لكَ من ليلٍ كأنَّ نجومَهُ ... بكلِّ مُغار الفَتْل شُدَّتْ بيَذْبُلِ

ديوان امرىء القيس (ص ١٩).

(٦) في النفح: «مستحضرًا».

(٧) في النفح: «وخَوْضِ».

(٨) في النفح: «صادع».

(٩) في النفح: «خواتمه».

(١٠) في الأصل: «والبطائح».

(١١) في النفح: «الأباطح».

ذَرُوهـا وأرضَ الله لا تَـعْـرِضـوا لـهـا بـمَـعْـرِضِ سوءٍ فـهـي نـاقَـةُ صـالـح
إذا ما أرَدْنا القولَ فيها[1] فَمَنْ لنا بِطوعِ الـقـوافي وانبعـاثِ الـقـرائـح
بقيتَ مُنَى نَفْسٍ وتُحفةَ رائد[2] ومـوردَ ظـمـآن وكـعـبـةَ مـادح
ولا زلت تلقى الرحب[3] والبرَّ حيثما أرحْـتَ الـسُّرى من كـلّ غـادٍ ورائـح

فأجابني بما نصه[4]: [الطويل]

أمِـنْ مَـطْـلَعِ الأنـوارِ لَمْـحَـةُ لامـحِ تُـعـار لـمـفـقُـودٍ[5] عـن الـحـيِّ نـازحِ؟
وهل بالمُنى من مَوْرِدِ الوصْلِ يرتوي غـلـيـلُ عـلـيـلٍ لـلـتـواصـل جـانـح؟
فيا فَيْضَ عينِ الدمع ما لك والحِمى ورُنْدَ الحمى والشِّيحَ شِيحَ المشايح[6]
مَـرَابـعُ آرامـي ومـوردُ نـاقـتـي فـسـقـيًـا لـهـا سُـقـيًـا لـنـاقـةِ صـالـح
سَقَى الله ذاك الـحـيَّ وَدْقًـا[7] فـإنـه حِمى لمَحَاتِ العين عن لَمْحِ سامح[8]
وأبْدَى لـنـا حُـورَ الـخـيـام تُـزَفُّ فـي حُلَى الحسن والحُسْنى وحَلْيِ الملامح
ترى حيَّ تلك الحور للحور مَهْيَعٌ[9] يـدلُّ، وهـل حَـسْـمٌ لـداء الـتّـبـارح؟
ويـا دَوْحة الـريْـحـان[10] هـل لـي عـودةٌ لعَقر عُقارٍ[11] الأُنس بين الأباطح؟
وهـل أنـتِ إلّا طَـلّةٌ[12] حـاتـمـيَّـةٌ تُـغَـصُّ نـواديـهـا بـغـادٍ ورائـح
أقام بها الفخرَ الخطيبُ[13] مَنابرًا لـتـرتـيـلِ آيـاتِ الـنَّـدى والـمَـنـائـح
وشـفَّـع بـالإنـجـيـل حَـمْـدَ مـديـحـه وأوْتـر بـالـتَّـوراةِ شَـفْـعَ الـمـدائـح
وفَـرَّقَ بـالـفُـرْقـان كـلَّ فَـريـقـةٍ نأتْ عن رشادٍ فيه معنى[14] النصائح
وهـل هـو إلّا لـلـبَـريّـةِ مُـرْشِـدٌ لـكـلِّ هُـدًى هـادٍ لأرجـحِ راجـح
فبُشْرى[15] لسانَ الدينِ سادَ بِك الوَرى وأوْرَى الـهُـدى لـلرُّشْـد أوضـحَ واضـح

---

(١) في النفح: «فيه».
(٢) في النفح: «قادم».
(٣) في النفح: «البرّ والرحب».
(٤) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢١ ـ ٢٢٣).
(٥) في النفح: «تُعاد لمفؤودٍ».
(٦) في النفح: «الأشايح».
(٧) الودق: المطر. لسان العرب (ودق).
(٨) في النفح: «لامح».
(٩) المهيع: الطريق الواضح. محيط المحيط (هيع).
(١٠) في الأصل: «الرُّويحان» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١١) في النفح: «العفر عفار».
(١٢) في النفح: «حلة».
(١٣) في الأصل: «ابن الخطيب» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١٤) في النفح: «محض».
(١٥) في الأصل: «فبشراك شمس الدين» والتصويب من النفح.

متى قُلتَ لم تتركْ مقالًا لقائلٍ فإن[1] لم تَقُلْ لم يُغْنِ حَمْدٌ[2] لمادح
فمَنْ حامَ بالحيِّ الذي أنتَ أهلُه[3] وعامَ ببحرٍ من عطائك[4] طافح
يحقُّ له أن يَشْفَعَ الحَمْدَ بالثَّنا ويغدُو بذاك البحر أسبحَ سابح
ويا فوزَ مَلْكٍ دُمْتَ صَدْرَ صدوره وبُشْرى له قد راح أربح رابح
بآرائك التي تدلُّ على الهُدى وتُبْدي لمن خَصَصْتَ سَيْل[5] المناجح
مَلَكْتَ خصال السَّبْق في كل غاية ومُلِّكْتَ مَنْ[6] ملكت يا ابن الجحاجح[7]
مطامحُ آمالٍ لأشرفِ هِمَّةٍ أقلُّ مراميها أجلُّ المطامح
فدونَكَها يا مُهديَ المدحِ مدحةً أحببتُ بها عن مدحِ أشرفِ مادح
تُهَنِّيكَ[8] بالعام الذي عَمَّ حَمْدُهُ[9] مواهبُ هاتيك البحار الطوافح
فَخُذها سَمِيَّ الفَخْرِ يا خَيْرَ مُسْبلٍ على الخلْقِ إغْضَاءً[10] سُتُور التسامح
ودُمْ خاطَبَ العَلْيا لَها خَيْرَ خاطبٍ وأتْوَقَ تَوّاقٍ وأطْمحَ طامح

وتلقاني بمالقَة عند قدومي من الرِّسالة إلى المغرب، في محرم عام ستة وخمسين وسبعمائة، ونظم لي هذه الأبيات، ولا حول ولا قوة إلا بالله: [الطويل]

قدومُك ذا أبدى لذي الراية الحَمْرا ثغور الرِّضى تخبر عن شَنَب البشْرا
وأينع فَجْرُ الرُّشْد من فَلَق الهُدى وكوّنه نهرا وفجّره فجْرا
سَرينا له كي يُحْمَد السَّيْرُ والسُّرى ونرقب شمس الدين من فرعك الفَجْرا
ونصبح في أحياءَ للمنِّ[11] نستلمْ مواطنَكُمْ شفعًا وآثاركُمْ وَتْرا
ونخطب ما، يا ابن الخطيب، تشاء[12] من كرائم ذاك الحيّ إذ نَهَزَ الشُّعْرى
فقابلْتَ بالإقبال والبرّ والرِّضى وأقْرَيتَ من يَقْرا وأقْرَزْتَ من قرّا
فأبناءُ قُدْس الحمد حَضْرة قُدْسنا وأقدامُنا تملا وأمداحُكُمْ تقْرا

(١) في النفح: «وإن».
(٢) في النفح: «مدح».
(٣) في النفح: «ربُّه».
(٤) في النفح: «عطاياك».
(٥) في النفح: «سُبْل».
(٦) في النفح: «ما».
(٧) الجحاجح: جمع جحجاح وهو السيد السمح الكريم. لسان العرب (جحجح).
(٨) في الأصل: «يُهْنيك»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(٩) في النفح: «مدحه».
(١٠) في الأصل: «أغْضا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١١) في الأصل: «في أحيان المنّ» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.
(١٢) في الأصل: «تشا» وكذا ينكسر الوزن.

هـنـيًّـا لـنـا نـلْنـا ونـلْنـا ولـم نـزل نـنَـال ولـكـنْ هـذه الـمـنَّـة الـكُـبْـرا
رأيـنـا وزيـر الـمَـلْـد والـمُـلْك والـلّوى وحـزب الـلّوى كـلٌّ يـشـدُّ بـه أزْرا
سـجـدْنـا وكـبَّـرْنـا وقـلْنـا: رسـولُنـا أتـى بـالـذي يُـرضـي بُـشْرى لنا بُشْرى
ويُـهـنـي الـورى هـذا الإيـاب فـإنّ فـي نـتـائـجـه لـلـدّهـر مـا يُـسْـهـر الـدّهـرا
أرانـا سَـنـا ذا الـيـوم أجـمـل مَـنْـظـر وجَلّى لنا من وجهك الشمس والبدرا
أمـا والـذي أولـيـتَ مـن نـعـمَـةٍ غَـدَتْ تُـعَـلِّمـنـا لـلمُـنـعـم الـحَـمْـدَ والـشـكـرا
لَأنْـتَ لـسـان الـدِّيـن لـلـدِّيـن حُـجَّـة تُـؤيِّـده سِـرًّا وتـعـضـده جَـهْـرا
بـقـيـتَ لـنـا كَـنْـفًـا مـنـيـعًـا مـشـرفًـا ودُمْـتَ لـه عَـضْـدًا ودُمْـتَ لـه نَـصْـرا
ودُمْـنـا بـكـم فـي كـلّ أمْـنٍ ومـنَّـة نُدير المُنى خَمْرا ونُصْلي[1] العِدا جَمْرا

ومن أمثل ما مدح به السلطان لأول قدومه بالنسبة إلى غير ذلك من شعره: [الطويل]

أما والعُيون النُّجل ترمق عن سِحْرٍ ووَرْد رياض الخدِّ والكأس والخَمْرِ
وريـحـانـه والـرَّاح والـطَّـلّ والـطُّـلى ونَـرْجِـسـه والـزَّهْـر والـنُّـوْر والـنَّـهْـرِ
ونور جَبين الشمس في رونق الضُّحى وهـالـة بـذرِ الـتَّـمّ مـنـتـصـف الـشَّـهْـر
لـقـد قـلّدتْ آراءُ يـوسـفَ مُـلْكَـهُ قـلائـدَ نـصـرٍ لـن تَـبـيـد مـع الـدَّهْـر
وقـد أيّـد[2] الإسـلام مِـنـه بـنـاصـرٍ نصيرٍ وخَيْرُ النصر نَصْرُ بني نَصْر
هُـمُ الـقـومُ أنـصـارُ الـنـبـيِّ مـحـمـدٍ به[3] عُصْبة الأعلام في اليُسْر والعُسْر
وحسبُك من قوم حموا سَيِّد الورى وقاموا بِنَصر الحقّ في السِّرّ والجَهْرِ
سقى شِرعةَ الإسلام وَدْقُ سيوفهمْ رحيقُ الأماني طيِّبُ العَرْف والنَّشْر
فـأصـبـح روضُ الـرُّشْـد يـعـبـقُ طـيـبُـه ودَوْحُ الـهُـدى بـالـزَّهـر أزهـارُه تُـزْري
فـيـا سـائـلي عـنـه وعـن سَـطَـواتـه إذا لاح مـحـفـوفًـا بـرايـاتـه الـحُـمْـر
وجُزْ[4] مع الإقدام جَيْشًا عرمرما وشَـرّد بـالـتـأيـيـد شِـرْذَمـة[5] الـكُـفْـر

---

(١) في الأصل: «أو نصلي» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.
(٢) في الأصل: «أيده» وكذا ينكسر الوزن ولا يستقيم المعنى.
(٣) في الأصل: «وحزبه وعصبة. . .» وكذا ينكسر الوزن.
(٤) في الأصل: «وجُز» وكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له.
(٥) الشِّرْذمة: الجماعة القليلة من الناس. محيط المحيط (شرذم).

لخلّيلةٍ تنبيك عما وراءها ... ولا غَرْو فالإفصاح يُعرف بالعجز
فيا فوز مَنْ أدناه بالغُنْم والغِنى ... ويا وَيْلَ مَنْ أقصاه للقَفْر والفقر
يمينًا بما اخْتارتْ يداك وأحْرَزَتْ ... من المُلْك والتأييد والنَّهْي والأمر
لقد أصْعَدَتْ مَجْدي مدائحُك التي ... ومجدُك والعَلْيا مَدَحْتَ بها شعرِي[1]
وحقَّ لمثلي يُشفع الحمد بالثّنا ... ويتلُو معانيه مع الشَّفْع والوَتْر
فأَجْني ثِمار الأُنْس من رَوْضة المُنى ... وأقطُف زَهْرَ[2] الحمْدِ مِنْ شجر الشكر
وأشرب ماء الفوز عَذْبًا خِتامه ... رحيقٌ براح السَّمْح في أكؤس البِشْر
ولا بَرِحت أمْداحُكم تعجز النهى ... وإلّا فكم تُنْجني من العُسر لليسرِ
ولا زالت الأقدار تخدم رأيكَم ... ورايَاتِكم ما دام نجْمٌ للسُّرا يَسْري

وكتب إليّ في غرض يظهر منه نصّ المراجعة، وحسبنا الله[3]: [الطويل]

أما والذي لي في حُلاكَ من الحمدِ ... وما لك ملّاكي عليَّ[4] من الرِّفْدِ
لقد أَشْعَرَتني النفسُ أنك مُعرضٌ ... عن المسرفِ اللائي لفطرك يستجدي[5]
فإنْ زلّةٌ منّي[6] بدت لك جَهْرة ... فصفحًا فما والله إذ كُنت عن عَمْدِ[7]

فراجعته بقولي[8]: [الطويل]

أُجِلُّكَ عن عَتْبٍ يَغُضُّ مِنَ الوُدّ ... وأُكرمُ وَجْهَ العُذْر منك عن الرَّدّ
ولكنني أُهْدي إليك نصيحتي ... وإن كنتُ قد أهديتُها ثم لم تُجْدِ
إذا مِقْوَلُ الإنسان جاوزَ حَدَّهُ ... تَحَوَّلَتِ الأغراضُ منه إلى الضِّدّ
فأصبح منه الجِدُّ هَزْلًا مُذَمَّمًا ... وأصبح منه الهَزْلُ في مَعْرِض الجِدّ
فما اسْطَعْتَ[9] فيضًا[10] للعِنان فإنه ... أحقُّ السجايا بالعَلاء[11] والمَجْدِ

---

(١) في الأصل: «شعر» بدون ياء.
(٢) في الأصل: «زهير» وكذا ينكسر الوزن.
(٣) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٩).
(٤) في النفح: «الديّ».
(٥) في الأصل: «يستجد» بدون ياء. وفي النفح: «الآتي لفضلك يستجدي».
(٦) كلمة «مني» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفح.
(٧) في النفح: «... والله أذنبتُ عن قَصْدِ».
(٨) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٩).
(٩) في الأصل: «استطعت» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.
(١٠) في النفح: «قبضًا».
(١١) في الأصل: «بالعلا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

توفي يوم الخميس الثالث لشعبان عام خمسة وستين وسبعمائة، وقد ناهز السبعين سنة، ودفن بروضتنا بباب إلبيرة، وأُعْفِي شارب الشّعر من نابي[١] مِقصّه. وغير هذه الدعوى قرارها تجاوز القضية.

محمد بن علي بن عمر العبدري[٢]

من أهل تونس، شاطبي الأصل، يكنى أبا عبد الله، صاحبنا.

حاله: كان فاضلًا من أبناء النّعم، وأخلاف العافية، وُلّي أبوه الحِجابة بتونس عن سلطانها برهة، ثم عدا عليه الدهر، واضطر ولدُه هذا إلى اللحاق بالمشرق، فاتصل به سُكْناه وحجّ، وآب إلى هذه البلاد ظريفَ النّزعة، حُلو الضّريبة، كثيرَ الانطباع، يكتبُ ويُشعر، ويَكْلُف بالأدب، ثم انصرف إلى وطنه. وخاطبني إلى هذا العهد، يُعرّفني بتقلّده خُطة العلّامة، والحمد لله.

وجرى ذكره في كتاب «الإكليل» بما نصُّه[٣]: غَذِيُّ نعمةٍ هامية، وقريعُ رتبة سامية، صُرِفَتْ إلى سلفه الوجوه، ولم يبق بإفريقية[٤] إلّا مَنْ يَخافُه ويَرْجوه، وبلغ هو مدة ذلك الشرف، الغايةَ من التّرف. ثم قَلَب الدهر له ظهر المِجَنّ، واشتدّ به الخُمار[٥] عند فراغ الدّنّ، ولحق صاحبُنا هذا بالمشرق بعد خطوبٍ مبيرة[٦] وشدّة كبيرة، فامتزج بسكانه وقُطّانه، ونال من اللّذّات ما لم ينلْه في أوطانه؛ واكتسب الشمائل العِذاب، وكان كابن الجَهْم[٧] بُعِثَ إلى الرُّصافة ليرقّ فذاب، ثم حوّم على وطنه تحويم الطّائر، وألمّ بهذه المدينة[٨] إلمام الخيال الزائر، فاغتنمْتُ صَفْقة وُدّه لحين وروده، وخَطَبْتُ موالاته على انقباضه وشروده، فحصلْتُ منه على دُرّةٍ تُقْتنى، وحديقة طيّبة الجَنى.

شعره: أنشدني في أصحاب له بمصر قاموا ببرّه[٩]: [الطويل]

لكلّ أُناسٍ مَذْهَبٌ وسَجِيّةٌ ومَذْهَبُ أولادِ النظامِ المكارمُ

---

(١) في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٣): «ثاني».
(٢) ترجمة محمد بن علي العبدري في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٩٨) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٧).
(٣) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٧). (٤) في النفح: «من إفريقية».
(٥) الخُمار، بضم الخاء: الألم في الرأس يصيب شارب الخمر. لسان العرب (خمر).
(٦) مُبيرة: مُهْلكة. لسان العرب (بير).
(٧) هو علي بن الجهم، من شعراء المتوكل العباسي.
(٨) في النفح: «البلاد». (٩) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٧).

إذا كنتَ فيهم ثاويًا كنتَ سيِّدًا وإنْ غِبْتَ عنهمْ لم تَنَلْكَ المظالمُ

أولئك صَحْبي، لا عَدِمْتَ حياتَهُمْ ولا عدموا السَّعْدَ الذي هو دائمُ!

أُغَنِّي بذكراهم وطِيبِ حديثهم كما غَرَّدَتْ فوق الغُصونِ الحمائمُ

ومن شعره يتشوّق إلى تلك الديار، ويتعلل بالتذكار، قوله[1]: [الوافر]

أَحِبَّتَنا بمصرٍ لو رأيتُمْ بكائي عند أطرافِ النهارِ

لكنتمْ تُشفقون لفرطِ وَجْدي وما أَلقاه من بُعْدِ المزار[2]

ومن شعره: [الطويل]

تَغَنَّى حَمامُ الأَيْكِ يومًا بذكرهمْ فأطْرَبَ حتى كِدْتُ من ذكرهمْ أفْنى

فقلت: حمامَ الأيكِ لا تُبْكِ جيرةً نَأَوْا[3] وانقضتْ أيامُ[4] وَصْلِهِمُ عنّا

فقال ولم يَرْدُدْ جوابًا لسائل ألا ليتنَا كنا جميعًا بذا حِقْنا[5]

ومن جيد شعره الذي أجهد فيه قريحته، قوله يمدح السلطان المعظم أبا الحسن في ميلاد عام سبعة وأربعين وسبعمائة: [الطويل]

تقرُ ملوكُ الأرضِ أنك مولاها وأنَّ الدُنا وَقْفٌ عليك قضاياها

ومنها:

طَلَعْتَ بأُفُقِ الأرض شَمْسًا منيرة أنار على كل البلاد مُحَيّاها

حَكَيْتَ لنا الفاروقَ[6] حتى كأننا مَضَينا[7] بعينٍ لا نُكَذِّبُ رُؤْياها

وسِرْتَ على آثاره خَيْرَ سِيرةٍ قَطَعْنا بأنَّ الله ربّك يَرْضاها

إذا ذُكِرَتْ سِيرُ الملوك بمحفل ونادى بها النّادي وحَسَّنَ دُنْياها

فجُودُك رَوّاها ومُلْكُك زانَها وعَدْلُك زانها[8] وذكرك حَلّاها

وأنت لها كَهْفٌ حصينٌ ومَعْقِل تلوذ بها أولى الأمورِ وأُخراها

---

(١) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٧). (٢) في النفح: «الديار».

(٣) في الأصل: «ناءوا» وكذا ينكسر الوزن ولا يستقيم المعنى.

(٤) كلمة «أيام» ساقطة في الأصل. (٥) في الأصل: «ألحقنا» وكذا ينكسر الوزن.

(٦) في الأصل: «للفاروق»، وكذا ينكسر الوزن. والفاروق هنا: هو لقب عمر بن الخطاب، سمّي بذلك لأنه فرّق بين الحق والباطل. محيط المحيط (فرق).

(٧) كلمة «مضينا» ساقطة في الأصل.

(٨) في الأصل: «زاها» وكذا لا معنى له، وفي الوقت نفسه يختلّ الوزن.

ومنها بعد كثير:

ومنكُمْ ذوو التّيجان والهمم التي أناف على أعْلى السّماكَيْنِ أَدْناها

إذا غاب منهمْ مالكٌ قام مالكٌ فَجَدَّدَ(١) للبيتِ المقدّس علْياها

بناها على التقوى وأسَّس بيتها أبو يوسفَ الزّاكي وسيَّر مبناها

وأورثها عثمنُ خير خليفة وأَحْلم مَنْ ساسَ الأنامَ وأنداها

وقام عليٌّ بعده خير مالك وخير إمام في الورى راقبَ الله

علي بن عمر بن يعقوب ذو العلا مذيق الأعادي حيثما سار بَلْواها

أدام الله وأعطى الخلافةَ وقتها ونوّر أحْلاكَ الخطوبِ وجَلّاها

ووصلني كتاب منه مؤرخ في التاسع عشر من شهر شعبان المكرم من عام أربعة وستين وسبعمائة، جَدَّد عهدي من شعره بما نصّه: [الطويل]

رَحَلْنا فشرَّقْنا وراحوا فغرَّبُوا ففاضتْ لروعاتِ الفراقِ عُيونُ

فيا أدمعي مُنْهلَّةً إثر بَيْنهمْ كأنّ جفوني بالدموع عيونُ

فيا مَعْهدًا قد بِنْتُ عنه مكلّفا بديليَ منه أنّةٌ وحنين

سَقَتْك غوادي المُزْنِ كَرَّ عشِيَّةٍ ودادُك محلول النطاق هَتُون

فإن تكنِ الأيامُ لم تَقْض بيننا بوَصْل فما يُقْضى فسوف يكون

يعزُّ علينا أن نُفارق رَبْعَكُمْ وأنّا على أيدي الخطوب نَهون

ولو بَلَّغَتْني العِيرُ عنكُمْ رسالةً وساعد دَهْرٌ باللِّقاء ضنين

لكُنّا على ما تعلمون من الهوى ولكنْ لأحداثِ الزمانِ فُنون

(١) في الأصل: «مُجَدِّدٌ» وكذا ينكسر الوزن.

فهرس المحتويات